جبران خليل جبران

المؤلّفات العربية الكاملة

نوفل



المؤلّفات العربيّة الكاملة

صدرت عام 2015 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2015
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

تصميم الغلاف: **معجون**
صورة الغلاف: **Shutterstock**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
متابعة النشر: **نجلا رعيدي شاهين**
طباعة: **53Dots**
تجليد فنّي: **شركة فؤاد البعينو للتجليد ش.م.م.**

ر.د.م.ك.: 978-9953-26-593-3

الموسيقى

1905

جلست بقرب من أحبّتها نفسي أسمع حديثها. أصغيت ولم أنبس ببنت شفة، فشعرتُ أنّ في صوتها قوّة اهتزّ لها قلبي اهتزازات كهربائيّة فصلت ذاتي عن ذاتي، فطارت نفسي سابحة في فضاء لا حدّ له ولا مدى، ترى الكون حلمًا والجسد سجنًا ضيّقًا.

سحر عجيب مازج صوت حبيبتي وفعل بمشاعري ما فعل وأنا لاهٍ عن كلامها بما أغناني عن الكلام.

هي الموسيقى أيّها الناس، سمعتها إذ تنهّدت حبيبتي بُعيد بعض الكلمات وابتسمت في بعضها. سمعتها لمّا حكت تارة بألفاظ متقطّعة وآونة بجمل متواصلة وأخرى بكلمات أبقت نصفها بين شفتيها.

تأثيرات قلب حبيبتي، رأيتها بعين سمعي فشغلتني عن جوهر حديثها بجواهر عواطفها المتجسّمة بموسيقى هي صوت النفس.

بلى، فالموسيقى هي لغة النفوس، والألحان نسيمات لطيفة تهزّ أوتار العواطف. هي أنامل رقيقة تطرق باب المشاعر وتنبّه الذاكرة فتنشر هذه ما طوته الليالي من حوادث أثّرت فيها بماضٍ عبر.

هي نغمات رقيقة تستحضر، على صفحات المخيّلة، ذكرى ساعات الأسى والحزن إذا كانت محزنة، أو ذكرى أويقات الصفاء والأفراح إذا كانت مفرحة.

هي مجموع أصوات محزنة تسمعها فتستوقفك وتملأ أضلعك لوعة وتمثّل لك الشقاء كالأشباح.

هي تأليف أنغام مفرحة، تعيها فتأخذ بمجامع قلبك فيرقص بين أضلعك فرحًا وتيهًا.

هي رنّة وتر تدخل سامعتك محمولة بتموّجات الأثير، فقد تخرج من عينيك دمعة محرقة أثارتها لوعة نأي حبيب أو آلام كلوم خرقها ناب الدّهر. وربّما خرجت من بين شفتيك ابتسامة كانت والحقّ عنوان السعادة والرخاء.

هي جسم من الحشاشة، له روح من النفس وعقل من القلب.

***

وجد الإنسان فأوحيت إليه الموسيقى من العلاء لغة، ليست كاللغات، تحكي ما يكنّه القلب للقلب، فهي حديث القلوب. وهي كالحبّ عمّ تأثيرها الناس، فترنّم بها البرابرة في الصحراء، وهزّت أعطاف الملوك في الصروح. مزجتها الثكلى مع نوحها، فكانت ندبًا يفتّت قلب الجماد. وبثّها الجذلان مع أفراحه فكانت إنشادًا يطرب مغلوب الأرزاء، فقد حاكت الشمس، إذ أحيت بأشعتها جميع زهور الحقل.

الموسيقى كالمصباح، تطرد ظلمة النفس، وتنير القلب، فتظهر أعماقه. والألحان في قضائي أشباح الذات الحقيقيّة أو أخيلة المشاعر الحيّة. والنفس كالمرآة المنتصبة تجاه حوادث الوجود وفواعله تنعكس عليها رسوم تلك الأشباح وصور تلك الأخيلة.

النفس زهرة ليّنة في مهبّ ريح التقادير، نسيمات الصباح تهزّها وقطرات الندى تلوي عنقها. كذا تغريدة عصفور تنبّه الإنسان

من غفلته، فيصغي، ويشعر، ويمجد معه الحكمة مبدعة نغمة الطائر العذبة وشعوره الرقيق، وتهيج تلك التغريدة قوى فكرته، فيسأل ذاته، وما يحفّ به، عمّا أسرّه لحن ذلك الطائر الحقير فحرّك أوتار عواطفه وأوحى إليه معاني ما حوتها كتب الأُلى تقدموه. يسأل مستفهمًا عمّا إذا كان العصفور يناجي زهور الحقل أم يحاكي أغصان الأشجار أم يقلّد خرير مجاري المياه أم ينادم الطبيعة بأسرها، ولكنّه لا يستطيع إلى الحصول على الجواب سبيلًا.

الإنسان لا يدري ما يقوله العصفور فوق أطراف الأغصان، ولا الجداول على الحصباء، ولا الأمواج إذ تأتي الشاطئ ببطء وهدوء. ولا يفقه ما يحكيه المطر إذ يتساقط منهملًا على أوراق الأشجار، أو عندما يطرق بأنامله اللطيفة بلّور نافذته، ولا يفهم ما يقوله النسيم لزهور الحقل، ولكنّه يشعر أنّ قلبه يفقه ويفهم مفاد جميع هذه الأصوات فيهتزّ لها تارة بعوامل الطرب، ويتنهّد طورًا بفواعل الأسى والكآبة. أصوات تناجيه بلغة خفيّة، وضعتها الحكمة قبل كيانه، فتحدثّت نفسه والطبيعة مرّات كثيرة وهو واقف معقود اللسان حائرًا، وربّما ناب عن لفظه الدمع والدمع أفصح مترجم.

***

تِ معي، يا صاحِ، إلى مسرح الذكرى لنرى منزلة الموسيقى عند أمم طوتها الأيّام، وتعالَ نتأمّل تأثيرها في كلّ دور من أدوار ابن آدم.

عبدها الكلدانيّون والمصريّون كإله عظيم يُسجد له ويمجّد. واعتقد الفرس والهنود بكونها روح الله بين البشر. وقال شاعر فارسيّ ما معناه: «إنّ الموسيقى كانت حورية في سماء الآلهة تعشّقت آدميًّا وهبطت نحوه من العلو فغضب الآلهة إذ علموا وبعثوا وراءها ريحًا شديدة نثرتها في الجوّ وبعثرتها في زوايا الدنيا، ولم تمت نفسها قطّ بل هي حيّة تقطن آذان البشر».

وقال حكيم هندي: «إنّ عذوبة الألحان توطّد آمالي بوجود أبديّة جميلة».

والموسيقى عند اليونان والرومان كانت إلهًا مقتدرًا، بنوا له هياكل عظيمة ما برحت تحدّثنا بعظمتهم، ومذابح فخيمة، قدّموا عليها أجمل قرابينهم وأعطر بخورهم. إلهًا دعوه أبولون فمثّلوه وجميع الكمالات تجعله منتصبًا، كالغصن على مجاري المياه، يحمل القيثارة في يسراه، ويمينه على الأوتار، رأسه مرفوع يمثّل العظمة، وعيناه ناظرتان إلى البعيد كأنّه يرى أعماق الأشياء.

وقالوا إنّ رنّات أوتار أبولون صدى صوت الطبيعة. رنّات شجيّة ينقلها عن تغريد الطيور وخرير المياه وتنهّدات النسيم وحفيف أغصان الأشجار.

وجاء في أساطيرهم أنّ رنّات أوتار أورفيوس الموسيقي حرّكت قلب الحيوان فاتّبعته الضواري، والنبات، فمَدّت نحوه الأزاهر أعناقها ومالت إليه الأغصان، والجماد، فتحرّك وتفتّت.

وقالوا فقد أورفيوس زوجته فبكاها ورثاها نادبًا حتّى ملأت نغمة لوعته البريّة، فبكت الطبيعة لبكائه حتّى حنّت قلوب الآلهة ففتحت له أبواب الأبدية كي يلتقي حبيبته في عالم الأرواح.

وقالوا قتلت بنات الأحراج أورفيوس ورمَين برأسه وقيثارته إلى البحر فطافا على الماء حتّى بلغا جزيرة دعاها اليونان جزيرة الأغاني.

وقالوا إنّ الأمواج التي حملت رأس أورفيوس وقيثارته ما برحت مذ ذاك الحين تصوغ من أصواتها ندبًا مؤثرًا وأنغامًا محزنة، تملأ الأثير فيسمعها الملّاحون.

هذا كلام بعد أن قضى عزّ تلك الأمّة ومضى، دعوناه خرافات مصدرها الوهم وأحلامًا ابتدعتها التصوّرات، غير أنّه قول دلّ على أنّ

تأثير الموسيقى في صدور اليونان كان عميقًا وعظيمًا فقالوا ما قالوا عن صحّة اعتقاد، فما ضرّنا لو دعونا تلك الأقوال مبالغة شعريّة مصدرها رقّة العواطف ومحبّة الجمال وهذا في عرف الشعراء الشعر؟

نقلت إِلينا آثار الآشوريّين رسومًا تمثّل مواكب الملوك سائرة وآلات الطرب تتقدّمها، وحدّثنا مؤرّخوهم عن الموسيقى فقالوا إنّها عنوان المجد في الحفلات ورمز السعادة في الأعياد. أجل، فالسعادة بدونها تحكي فتاة قطع لسانها. فالموسيقى لسان جميع أُمم الأرض، سبّحت معبوداتها بالأناشيد ومجّدتها بالألحان، وكانت التراتيل – وهي الآن – فرض كالصلاة يقدّمونها في المعابد وكمحرقات يقفونها على القوّة المعبودة. محرقات مقدّسة مبدؤها عواطف النفس. صلوات يهذّبها القلب وما أكملته اهتزازات المشاعر. أنفاس حرّة ما زلفتها الألفاظ بل تظرّفت بها أنفاس أثارتها ندامة الملك داود فملأت أناشيده أرض فلسطين وابتدعت أشجانه أنغامًا شجيّة مؤثرة منبعها انفعالات التوبة وحزن النفس، وكوسيط قامت مزاميره، بينه وبين الله، تطلب له مغفرة زلّاته، وكأن رنّات قيثارته قد انبثقت من قلبه المنسحق وسرت مع قطرات دمه إلى أصابعه، فكانت أعمال تلك الأصابع عظيمة عند الله والناس. وهو القائل: «هلّلوا للربّ، سبّحوا الربّ بصوت البوق، سبّحوه بالمزامير والقيثارة، سبّحوه بالطبل والدفوف، سبّحوه بالأوتار والأرغن، سبّحوه بصوت الصنوج، سبّحوه بصنوج التهليل وكلّ نسمة فلتسبّح الربّ». وجاء في الأسفار أنّ ملائكة من السماء تأتي، في آخر الدهر، نافخة الأبواق في جميع أقطار العالم فتستفيق من صوتها الأرواح وتلبس أجسامها وتنشر أمام الديّان. لقد عظّم كاتب هذا السفر الموسيقى إذ أنزلها منزلة رسول من الله إلى أرواح البشر، وما قول الكاتب إلّا صورة مشاعره وعلى نوع كلام ينطبق على اعتقادات معاصريه.

وجاء، في بدء مأساة ابن البشر، أنّ التلامذة سبّحوا قبيل ذهابهم إلى بستان الزيتون حيث قبض على معلّمهم. وكأنّي الآن أسمع نغم تلك التسبيحة صادرًا من أعماق نفوس حزينة رأت ما سيحلّ برسول السلام فتنفّست عن نغمة مؤثرة نابت عن كلمة الوداع.

***

تسير الموسيقى، أمام العساكر، إلى الحرب فتجدّد عزيمة حميّتهم وتقوّيهم على الكفاح، وكالجاذبية تجمع شتاتهم وتؤلّف منهم صفوفًا لا تتفرّق. ما سارت الشعراء، أمام الكتائب، إلى ساحات القتال، موطن المنيّة، لا ولا الخطباء، ما رافقتهم الأقلام والكتب، بل مشت أمامهم الموسيقى كقائد عظيم، يبثّ بأجسامهم الواهنة قوّة تفوق الوصف، وحميّة تنبّه في قلوبهم حبّ الانتصار فيغالبون الجوع والعطش وتعب المسير، ويدافعون بكلّ ما في أجسادهم من القوّة، ووراءها يسيرون بفرح وطرب ويتبعون الموت إلى أرض العدوّ المبغوضة. كذا يستخدم ابن آدم أقدس ما في الكون لتعميم شرور الكون.

الموسيقى رفيقة الراعي في وحدته، وهو إن جلس على صخرة في وسط قطيعه نفخ بشبّابته ألحانًا تعرفها نعاجه فترعى الأعشاب آمنة. والشبّابة عند الراعي كصديق عزيز لا تفارق وسطه، ونديم محبوب، تستبدل سكينة الأودية الرهيبة برياض مأهولة، وتقتل بأنغامها الشجيّة وحشتها، وتملأ الهواء أُنسًا وحلاوة.

الموسيقى تقود أظعان المسافرين وتخفّف تأثير التعب وتقصّر مديد الطرقات. فالعيس لا تسير في البيداء إلّا إذا سمعت صوت الحادي. والقافلة لا تقوم بثقيل الأحمال إلّا إذا كانت الأجراس معلّقة برقابها. ولا بدع، فالعقلاء في أيّامنا هذه يربّون الضواري بالألحان ويدجّنونها بأصوات عذبة.

***

الموسيقى ترافق أرواحنا وتجتاز معنا مراحل الحياة، تشاطرنا الأرزاء والأفـراح وتساهمنا السرّاء والضرّاء. وتقوم كالشاهد في أيّام مسرّتنا وكقريب شفيق في أيّام شقائنا.

يأتي المولود من عالم الغيب إلى دنيانا فتقابله القابلة والأقارب بأغاني الفرح، متأهّلين بأناشيد الابتهاج والحبور. يحييهم، عندما يرى النور، بالبكاء والعويل فيجيبونه بالتهليل والهتاف كأنّهم يسابقون بالموسيقى الزمان على إفهامه الحكمة الإلهيّة.

وإذا ما بكى الرضيع اقتربت منه والدته وغنّت بصوتها الموسيقيّ المملوء رقّة وحنوًّا فيكفّ عن البكاء ويرتاح لألحان أمّه المتجسّمة من الشفقة وينام. وفي ألحان الوالدة ونغمتها قوّة توعز إلى الكرى ليغمض أجفان طفلها. وتشارك تلك الألحان السكينة بهدوئها فتزيدها حلاوة وتمحو رهبتها وتملأها سحرًا من أنفاس الأم الحنون حتّى يتغلّب الرضيع على الأرق وينام وتطير نفسه إلى عالم الأرواح. ولا ينام الطفل لو تكلّمت الوالدة بلسان شيشرون أو قرأت ابن الفارض.

ينتقي الرجل شريكة حياته وتتّحد نفساهما برباط الزواج، متمّمين وصيّة كتبتها الحكمة منذ البدء على قلبيهما، فيجتمع الأقارب والخلّان ويصدحون بالأناشيد والأهازيج ويقيمون الموسيقى شاهدًا عندما يربط القران عرس المحبّة، فكأنّي بها، يوم التعريس، صوت رهيب تمازجه الحلاوة، صوت يمجّد الله في مخلوقاته، صوت ينبّه الحياة النائمة لتسير وتنتشر وتملأ وجه الأرض.

وعندما يأتي الموت، ويمثّل آخر مشهد من رواية الحياة، نسمع الموسيقى المحزنة ونراها تملأ الجوّ بأشباح الأسى، في تلك الساعة الموجعة إذ تودّع النفس ساحل هذا العالم الجميل وتسبح في بحر الأبديّة، تاركة هيكلها الهيوليّ بين أيدي الملحّنين والندّابين، فيتأوّهون بنغمات الحزن

والأسف ويلحفون تلك المادة الثرى ويشيّعونها بألحان مفادها الضيم وأناشيد معناها الكمد واللوعة. نغمات يحيونها ما بقي التراب فوق التراب وإن بليت يبقى صداها في خلايا الجوارح ما دام القلب يذكر من مضى.

***

جالست من ميّزه الله بعذوبة الصوت وحباه إدراك فلسفة التنغيم والإيقاع فرأيتُ السامعين حوله مصغين صاغرين، ماسكين أنفاسهم، محكومين بفواعل السكينة، شاخصين إليه كالشعراء المستسلمين لقوّة فعّالة، توحي إليهم أسرارًا غريبة، حتّى إذا ما انتهَى الملحّن من إنشاده تنهّدوا ذاك التنهّد الطويل – آه!! – آه!! صادرة من أفئدة هيّجت فيها الألحان عواطف مكنونة فلذّ لها التأوّه. آه تتنفّسها قلوب حرّى أنعشتها الذكرى. آه كلمة صغيرة لكنّها حديث طويل. آه!! ما قالها سامع كلام الملحّن لا ولا ناظر وجهه، بل تنهّدها من أعار أذنًا لنشيد نسج من مقاطع أنفاس متقطّعة. أنفاس حيّة مثّلت له فصلًا من رواية حياته الماضية أو فشت سرًّا أكنّته أضلعه.

وكم تأمّلت وجه سامع حسّاس فرأيت ملامحه تنقبض تارة وتنبسط طورًا وتنقلب مع تقلّبات النغم. واهتديت بخَلقه إلى خُلقه واستحكيت باطنه بواسطة ظاهره.

والموسيقى كالشعر والتصوير، تمثّل حالات الإنسان المختلفة وترسم أشباح أطوار القلب وتوضّح أخيلة ميول النفس وتصوغ ما يجول في الخاطر وتصف أجمل مشتهيات الجسد.

النهاوند

«النهاوند» يمثّل تفريق المحبّين ووداع الوطن ويصف آخر نظرة من راحل عزيز. يمثّل شكوى آلام مبرحة بين ضلوع قوامها لظى الشوق. النهاوند صوت من أعماق النفس الحزينة. نغم متجسّم من مهجور يسأل عطفًا على رمقه قبل أن يضنيه البعاد. زفرات يائس أنشأتها المرارة وتنهّدات قانط بثتّها لوعة من أتلفه الصبر والتجلّد. النهاوند يمثّل الخريف وتساقط أوراق الأشجار المصفرّة بسكينة وهدوء، وتلاعب الريح بها وتفريق شملها. النهاوند صلاة والدة نأى ابنها إلى أرض بعيدة فباتت بعده تغالب النوى فيهاجمها بعوامل اليأس وتصدّه بفواعل الصبر والأمل. وفي النهاوند معنى بل معان وأسرار يفهمها القلب وتفقهها النفس. أسرار يحاول بثّها اللّسان وكشفها القلم فيجفّ هذا وتنقطع أوصال ذاك.

الأصفهان

وأصغيت «للأصفهان» فشاهدت، بعين سمعي، آخر فصل من حكاية عاشق دنف، مات حبيبه فتقطّعت عرى آماله وتواصلت زفراته فهو ينوح بآخر ما في جسده من الحياة، ويرثي ببقايا ما في حياته من الرمق. الأصفهان آخر نفس من منازع واقف، في مركب الموت، بين شاطئ الحياة وبحر الأبديّة. الأصفهان رثاء الذات بغصّات متقطّعة متواصلة وتنهّدات عميقة. نغمة صداها سكينة تمازجها مرارة الموت والأسى وحلاوة الدمع والوفاء.

وإن كان النهاوند حنين من يحيا ببعض الأمل، فالأصفهان أنين من انفصمت عرى آماله.

الصبا

نسمع «الصبا» فتستفيق منّا قلوب حجبتها لحف الغمّ وتستيقظ وترقص بين الضلوع. فالصبا نغمة فرح تنسي المرء أتراحه فيطلب الراح ويشربها بلذّة غريبة ويستزيد منها كأنّه يعلم أنّ خمرة المسرّة تسابقها فتحكم بالعاقلة. الصبا حديث محبّ مغتبط صارع الدهر وأرغم أنف البين وأسعدته الليالي بخلوة فحظي بلقاء محبوبة جميلة في حقل بعيد، فأولاه اللقاء فرحًا وابتهاجًا. الصبا كنسيمات الصبا تمرّ فتهتزّ لها أزاهر الحقل تيهًا وابتهاجًا.

الرصد

و«للرّصد» في سكينة الليل، وقع في المشاعر يحاكي تأثير كلمات رسالة جاءت من عزيز غالٍ، انقطعت أخباره في بلاد بعيدة، فجاء الكتاب يحيي عاطفة الأمل ويعد النفس باللقاء. وكأنّي بمغنّي الرصد يخبر بقرب الفجر واندحار الظلام، وقد قيل: «إن جهز ليلك فارصد».

وفي العتابا البعلبكيّة عتاب رقيق يراوح بين اللوم والتعنيف، ولحنها مزيج من النهاوند المؤثّر والصبا المفرح وفعلها في النفس فعلهما.

***

والآن وقد كتبتُ هذه الصفحات، أراني كطفل ينسج كلمة من نشيد طويل، غنّته الملائكة عندما جبل الله الإنسان الأوّل، أو كأمّيّ يستظهر جملة من كتاب وضعته الحكمة على صفحات المشاعر قبيل ابتداء الدهر.

فيا أيّتها الموسيقى، يا أوتربي[1] المقدّسة لقد رقصت أخواتك الفنون فيما غبر من الأجيال زمنًا، ووضعن في معاقل النسيان آخر، وأنت تهزئين بهنّ ولم تتنازلي عن مسرح النفس يومًا واحدًا، فكأنّك صدى القبلة الأولى التي وضعها آدم على شفتي حواء. صدى له صدى له

---

[1] أوتربي: عروس آلهة الموسيقى عند قدماء اليونان.

صدى، تتناقل وتتناسخ وتكتنف الكلّ وتحيا بالكلّ، يلذّ لعمّالها عملهم ويفرح الغير الموهوب من مكارمها بسمعه.

يا ابنة النفس والمحبّة. يا إناء مرارة الغرام وحلاوته. يا أخيلة القلب البشري. يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح. يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور المشاعر المضمومة. يا لسان المحبّين ومذيعة أسرار العاشقين. يا صائغة الدموع من العواطف المكنونة. يا موحية الشعر ومنظّمة عقود الأوزان. يا موحّدة الأفكار مع نتف الكلام ومؤلفة المشاعر من مؤثرات الجمال. يا خمرة القلوب الرافعة شاربها إلى أعالي عالم الأخيلة. يا مشجّعة الجنود ومطهّرة نفوس العابدين. يا أيّتها التموّجات الأثيريّة الحاملة أشباح النفس ويا بحر الرقّة واللطف، إلى أمواجك نسلّم أنفسنا وفي أعماقك نستودع قلوبنا، فاحمليها إلى ما وراء المادة وأرينا ما تكنّه عوالم الغيب.

تكاثري يا عواطف النفوس وتعاظمي يا مشاعر القلوب وارفعي أيادي ذوي الأيادي لبناء الهياكل لهذه الإلهة العظيمة، وانزل يا ملاك الوحي على قلوب الشعراء واسكب في خلايا قريحتهم مديحًا وتسبيحًا لهذه العظيمة المقدّسة. واكبري يا مخيّلة الرّسامين والنقّاشين وابتدعي لها صورًا وأشباحًا.

كرّموا يا سكّان الأرض كهنتها وكاهناتها وعيّدوا لذكر خدّامها وشيّدوا لهم التماثيل. صلّي أيّتها الأمم وسلّمي على أورفيوس وداود والموصلي وعظّمي ذكر بيتهوفن وفغنر وموزارت. وغنّي يا سوريا باسم شاكر الحلبي، ويا مصر باسم عبده الحمولي. كبّر أيّها الكون الأُلى بثّوا في سمائك أنفسهم وملأوا الهواء أرواحًا لطيفة وعلّموا الإنسان أن يرى بسمعه ويسمع بقلبه. آمين.

عرائس المروج

1906

إهداء

إلى التي تحدّق إلى الشمس بأجفان جامدة،

وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة

وتسمع نغمة الروح.

جبران

رماد الأجيال والنار الخالدة

1

توطئة (في خريف 116 قبل الميلاد)

سكن الليل ورقدت الحياة في مدينة الشمس وأُطفئت السُّرج في المنازل المنتثرة حول الهياكل العظيمة القائمة بين أشجار الزيتون والغار، وطلع القمر فانسكبت أشعّته على بياض الأعمدة الرخامية المنتصبة كالجبابرة تخفر في هدوء الليل مذابح الآلهة، وتنظر تيهًا وإعجابًا نحو بروج لبنان الجالسة في الوعر على جبهات الروابي البعيدة.

في تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء الموحّدة بين أرواح النيام وأحلام اللانهاية، جاء ناثان ابن الكاهن حيرام ودخل هيكل عشتروت حاملًا مشعلًا، وبيد مرتجفة أنار المسارج وأوقد المباخر فتصاعدت روائح المرّ واللبان، ووشحت تمثال المعبودة بنقاب لطيف يشابه برقع الأماني المحيط بالقلب البشري، ثمّ ركع أمام المذبح المصفّح برقوق العاج والذهب ورفع يديه ونظر نحو العلاء ومن عينيه الدموع تستدرّ الدموع، وبصوت تخفضه الغصّات الأليمة وتقطعه اللوعة القاسية صرخ قائلًا: «رحماكِ يا عشتروت العظيمة – رحماكِ يا ربّة الحبّ والجمال،

ترأفي بي وأزيلي يد الموت عن حبيبتي التي اختارتها نفسي بمشيئتك... لقد نبت أعاصير الأطباء ومساحيقهم، وباطلًا ضاعت تعازيم الكهّان والعرّافين، ولم يبقَ لي غير اسمك المقدّس عونًا ومساعدًا، فاستجيبي تضرّعاتي، وانظري انسحاق قلبي وتوجّع عواطفي، وأبقي شطر نفسي حيًّا بجانبي، لنفرح بأسرار محبّتك ونسعد بجمال الشبيبة المعلنة خفايا مجدك. من هذه الأعماق أصرخ إليكِ يا عشتروت المقدّسة. من وراء ظلمة هذا الليل أستجير بحنانك. فاسمعيني أنا عبدك ناثان ابن الكاهن حيرام الذي وقف عمره على خدمة مذبحك – قد أحببت صبيّة من بين الصبايا واتخذتها رفيقة فحسدتنا عرائس الجان ونفثنَ في جسدها اللطيف لهاث علّة غريبة، ثمّ بعثنَ رسول المنايا ليقودها إلى مغاورهنّ السحريّة، وهو الآن رابض بقرب مضجعها، يزمجر كالنمر الجائع، مخيّمًا عليها بأجنحته السوداء، مادًّا مقابضه الخشنة ليغتالها من بين ضلوعي. من أجل ذلك جئت إليك متذلّلًا، فارحميني وابقيها زهرة لم تفرح بعد بجمال صيف الحياة، وطائرًا لم يكمل تغريدة مسرّته لمجيء فجر الشبيبة. أنقذيها من بين أظفار الموت فنبتهج بأغاني مدائحك، مقدّمين المحروقات لمجد اسمك، ناحرين الضحايا على مذبحك، مالئين بالخمر القديمة والزيت المطيّب آنية خزائنك، فارشين بالورود والياسمين رواق هيكلك، محرقين البخور والعود الذكي الرائحة أمام تمثالك. خلّصينا يا ربّة المعجزات ودعي المحبّة تغلب الموت، فأنت ربّة الموت والمحبّة.»

وسكت دقيقة كانت فيها لوعته تسيل دموعًا وتتصاعد تنهّدًا. ثمّ عاد فقال: «أواه! لقد تضعضعتْ أحلامي يا عشتروت المقدّسة وذابت حشاشتي ومات قلبي في داخلي والتهبت دموعي في عيني، فأحييني بالرأفة وأبقي لي حبيبتي». ودخل إذ ذاك عبد من عبيده واقترب منه ببطء وهمس في أذنه هذه الكلمات: «لقد فتحت عينيها

يا سيّدي ونظرت حول مضجعها فلم ترَك ثمّ نادتك بلجاجة فجئت لأدعوك إليها».

فقام ناثان ومشى مسرعًا والعبد يتبعه. ولما بلغ صرحه دخل حجرة العليلة وانحنى فوق سريرها آخذًا يدها النحيلة بين يديه مقبّلًا شفتيها مرارًا كأنّه يريد أن ينفخ في جسدها السقيم حياة جديدة من حياته، فحوّلت نحوه وجهها الغارق بين المساند الحريريّة وفتحت أجفانها قليلًا، وظهر على شفتيها خيال ابتسامة هي بقيّة الحياة في جسدها اللطيف، هي آخر أشعّة من نفسها المودّعة – هي صدى نداء القلب المتسارع نحو الوقوف. ثمّ قالت ومقاطع صوتها تشابه أنفاس طفل الفقيرة الجائع: «قد نادتني الآلهة يا عريس نفسي، وجاء الموت ليفصلني عنك، فلا تجزع لأن مشيئة الآلهة مقدّسة ومطالب الموت عادلة. أنا ذاهبة الآن وكأسا الحبّ والشبيبة ما برحتا طافحتين في أيدينا، ومسالك الحياة الجميلة ما زالت منبسطة أمامنا. أنا راحلة يا حبيبي إلى مسارح الأرواح وسوف أعود إلى هذا العالم لأنّ عشتروت العظيمة تُرجع إلى هذه الحياة أرواح المحبّين الذين ذهبوا إلى الأبديّة قبل أن يتمتّعوا بملذّات الحبّ وغبطة الشبيبة. سوف نلتقي يا ناثان ونشرب معًا ندى الصباح من كؤوس النرجس ونفرح مع عصافير الحقل بأشعّة الشمس. إلى اللقاء يا حبيبي».

وانخفض صوتها وبقيت شفتاها ترتجفان مثل زهرة أقاح ذابلة أمام نسيمات الفجر، فضمّها حبيبها وبلّل عنقها بالعبرات، ولما قرّب شفتيه من ثغرها وجده باردًا كالثلج، فصرخ صراخًا هائلًا ومزّق ثوبه وارتمى على جثّتها الهامدة وروحه المتوجّعة تراوح بين لجج الحياة وهاوية الموت.

في هدوء ذلك الليل ارتجفت أجفان الراقدين وجزعت نساء الحي وذعرت أرواح الأطفال إذ تبطّنت ملابس الدجى بنواح موجع وبكاء مرّ وعويل أليم متصاعد من جوانب قصر كاهن عشتروت.

ولما جاء الصباح طلب القوم ناثان ليعزّوه ويؤاسوه في مصيبته فلم يجدوه.

وبعد أيّام جاءت قافلة من المشرق أخبر زعيمها أنّه رأى ناثان تائهًا في البرّيّة البعيدة هائمًا مع أسراب الغزلان.

***

مرّت الأجيال ساحقة بأقدامها الخفيّة أعمال الأجيال، وبعدت الآلهة عن البلاد وحلّ مكانها آلهة غضوب يلذّ لها الهدم ويبهجها التخريب، فدُكّت هياكل مدينة الشمس الفخمة وتقوّضت قصورها الجميلة ويبست حدائقها النضرة، وأجدبت حقولها الخصبة، ولم يبقَ في تلك البقعة غير طللٍ بالٍ يعيد للذاكرة أشباح الأمس فيؤلمها، ويرجع للنفس صدى تهاليل المجد القديم فيحزنها.

ولكنّ الأجيال التي تمرّ وتسحق أعمال الإنسان لا تفني أحلامه، ولا تضعف عواطفه.

فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلّي الخالد، وقد تتوارى حينًا وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل وبالقمر عند مجيء الصباح.

2

في ربيع سنة 1890 لمجيء يسوع الناصري

توارى النهار واضمحلّ النور ولمّت الشمس وشاحها عن سهول بعلبك فعاد عليّ الحسيني[1] أمام قطيعه نحو خرائب الهيكل، وهناك جلس بين الأعمدة الساقطة كأنّها أضلع جندي متروك مزّقتها الهيجاء وجرّدتها العناصر، فربضت أغنامه حوله مستأمنة بأنغام شبّابته.

[1] الحسينيون قبيلة من العرب تسكن الخيام في سهول بعلبك في أيامنا هذه.

انتصف الليل، وألقت السماء بذور الغد في أعماق ظلمته، فتعبت أجفان عليّ من أشباح اليقظة وكلّت عاقلته من مرور مواكب الأخيلة السائرة بسكينة مخيفة بين الجدران المهدومة، فاتّكأ على زنده، واقترب النعاس ولامس حواسّه بأطراف ثنايا نقابه مثلما يلامسُ الضباب اللطيف وجه البحيرة الهادئة، فنسي ذاته المقتبسة والتقى بذاته المعنويّة الخفيّة المفعمة بالأحلام المترفّعة عن شرائع الإنسان وتعاليمه، واتّسعت دوائر الرؤيا أمام عينيه، وانبسطت له خفايا الأسرار، فانفردت نفسه عن موكب الزمن المتسارع نحو اللّاشيء ووقفت وحدها أمام الأفكار المتناسقة والخواطر المتسابقة، ولأوّل مرّة في حياته عرف أو كاد يعرف أسباب المجاعة الروحيّة الملاحقة شبيبته. تلك المجاعة التي توحّد بين حلاوة الحياة ومرارتها. ذلك الظمأ الجامع بين تأوّه الحنين وسكينة الاستكفاء. ذلك الشوق الذي لا تزيله أمجاد العالم ولا تثنيه مجاري العمر. لأوّل مرّة في حياته شعر عليّ الحسيني بعاطفة غريبة أيقظتها خرائب الهيكل. عاطفة رقيقة هي الذكرى بمنزلة البخور من المجامر. عاطفة سحريّة قد انعكفت على حواسّه انعكاف أنامل الموسيقي على صفوف الأوتار. عاطفة جديدة قد انبثقت من اللّاشيء، أو من كلّ شيء، ونَمَت وتدرّجت حتّى عانقت كلّيّته المعنويّة وملأت نفسه بشغف مدنف بلطفه وتوجّع مستعذب بمرارته مستطيب بقساوته. عاطفة تولّدت من خلايا دقيقة واحدة مفعمة بالنعاس، ومن دقيقة واحدة تتولّد رسوم الأجيال مثلما تتناسل الأمم من نطفة واحدة.

نظر عليّ نحو الهيكل المهدوم وقد تبدّل النعاس بيقظة روحيّة، فظهرت بقايا المذبح المخدّشة واتضحت أماكن الأعمدة المرتمية وأسس الجدران المتداعية فجمدت عيناه وخفق قلبه، مثل ضرير عاد النور إلى عينيه فجأة فصار يرى ويفكّر ويتأمّل – يفكّر ويتأمّل –

ومن تموّجات التفكّر ودوائر التأمّل تولّدت في نفسه أشباح الذكرى فتذكّر – تذكّر تلك الأعمدة منتصبة بفخر وعظمة. تذكّر المسارج والمباخر الفضيّة محيطة بتمثال معبودة مهابة. تذكّر الكهّان الوقورين يقدّمون الضحايا أمام مذبح مصفّح بالعاج والذهب. تذكّر الصبايا الضاربات الدفوف والفتيان المترنّمين بمدائح ربّة الحبّ والجمال. تذكّر ورأى هذه الصور متضحة لبصيرته المتكهربة وشعر بتأثيرات غوامضها تحرّك سواكن أعماقه. ولكنّ الذكرى لا تعيد غير أشباح الأجسام التي نراها فيما غَبَرَ من أعمارنا ولا يرجع إلى مسامعنا إلّا صدى الأصوات التي وعتها آذاننا. فأيّة علاقة بين هذه التذكارات السحريّة وماضي حياة فتى وُلد بين المضارب وصرف ربيع عمره يرعى قطيعًا من الغنم في البريّة؟

قام عليّ ومشى بين الحجارة المتقوّضة وتذكاراته البعيدة تزيح أغشية النسيان عن مخيّلته مثلما تزيل الصبية نسيج العنكبوت عن بلّور مرآتها. حتّى إذا ما بلغ صدر الهيكل وقف كأنّ في الأرض جاذبًا يتمسّك بقدميه، فنظر وإذا به أمام تمثال مهشّم ملقى على الحضيض، فركع بجانبه على غير هدى وعواطفه تتدفّق في أحشائه مثلما يتسارع نزيف الدماء من جوانب الكلوم البليغة، ونبضات قلبه تتكاثر وتتهامل مثل أمواج البحر المتصاعدة المنخفضة، فخشع بصره وتأوّه بمرارة وبكى بكاء أليمًا لأنّه شعر بوحدة جارحة وبعاد متلف فاصل بين روحه وروحٍ جميلة كانت بقربه قبل مجيئه إلى هذه الحياة.

شعر بأنّ جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متّقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر.

شعر بحفيف أجنحة لطيفة ترفرف بين أضلعه الملتهبة وحول لفائف دماغه المنحلّة.

شعر بالحبّ القوي العظيم يشمل قلبه ويمتلك أنفاسه، ذلك الحبّ الذي يبيح مكنونات النفس للنفس ويفصل بتفاعيله بين العقل

وعالم المقاييس والكمّيّة، ذلك الحبّ الذي نسمعه متكلّمًا عندما تخرس ألسنة الحياة ونراه منتصبًا كعمود النور عندما تحجب الظلمة كلّ الأشياء. ذلك الحبّ، ذلك الإله قد هبط في تلك الساعة الهادئة على نفس عليّ الحسيني وأيقظ فيها عواطف حلوة ومرّة مثلما تستنبت الشمس الزهور بجانب الأشواك.

ولكن ما هذا الحبّ، ومن أين أتَى، وماذا يريد من فتى رابض مع قطيعه بين تلك الهياكل الرميمة؟ ما هذه الخمرة السائلة في كبد لم تحرّكها قطّ لواحظ الصبايا؟ وما هذه الأغنية السماويّة المتموّجة في مسامع بدوي لم يطربه بعد شدو النساء؟

ما هذا الحبّ، ومن أين أتَى، وماذا يريد من عليّ المشغول عن العالم بأغنامه وشبّابته؟ هل هي نواة ألقتها محاسن بدويّة بين أعشار قلبه على غير معرفة من حواسّه، أم هو شعاع كان محتجبًا بالضباب وقد ظهر الآن ليُنير خلايا نفسه؟ هل هو حلم سعى في سكينة الليل ليسخر بعواطفه، أم هي حقيقة كانت منذ الأزل وستبقى إلى آخر الدهر؟

أغمض عليّ أجفانه المغلّفة بالدموع ومدَّ يديه كالمتسوّل المستعطف وارتعشت روحه في داخله. ومن ارتعاشاتها المتواصلة انبثقت الزفرات المتقطّعة المؤلفة بين تذلّل الشكوى وحرقة الشوق، وبصوت لا يميّزه عن التنهّد غير رنّات الألفاظ الضعيفة هتف قائلًا:

«من أنتِ أيّتها القريبة من قلبي، البعيدة عن ناظري، الفاصلة بيني وبيني، الموثقة حاضري بأزمنة بعيدة منسيّة، أطيف حوريّة جاءت من عالم الخلود لتبيّن لي بُطل الحياة وضعف البشر أم روح مليكة الجان تصاعدت من شقوق الأرض لتسترق مني عاقلتي وتجعلني سخرية بين فتيان عشيرتي؟ من أنتِ وما هذا الفتون المميت المحيي القابض على قلبي؟ وما هذه المشاعر المالئة جوانحي نورًا ونارا؟ ومَن أنا وما هذه

الذات الجديدة التي أدعوها «أنا» وهي غريبة عني؟ هل تجرّعْتُ ماء الحياة مع دقائق الأثير فصرْتُ ملاكًا أرى وأسمع خفايا الأسرار، أم هي خمر وساوس سكْرتُ بها فتعاميْتُ عن حقائق المعقولات؟».

وسكت دقيقة وقد نمت عواطفه وتسامت روحه فقال: «يا من تبينها النفس وتُدنيها ويحجبها الليل ويُقصيها – أيّتها الروح الجميلة الحائمة في فضاء أحلامي، قد أيقظتِ في باطني عواطف كانت نائمة مثل بذور الزهور المختبئة تحت أطباق الثلج، ومرَرت كالنسيم الحامل أنفاس الحقول ولامست حواسّي فاهتزّت واضطربت كأوراق الأشجار! دعيني أراكِ إن كنت لابسة من المادّة ثوبًا. أو مُري النومَ أن يغمض أجفاني فأراكِ بالمنام إن كنتِ معتوقة من التراب. دعيني ألمسك. أسمعيني صوتك. مزّقي هذا النقاب الحاجب كلّيتي واهدمي هذا البناء الساتر أُلوهيّتي وهبيني جناحًا فأطير وراءك إلى مسارح الملأ الأعلى إن كنت من سكّانها أو لامسي عيني بالسحر فأتبعك إلى مكامن الجان إن كنت من عرائسها. ضعي يدك الخفيَّة على قلبي وامتلكيني إن كنتُ حريًّا باتّباعك».

كان عليّ يهمس في آذان الدجى كلماته المتناسخة عن صدى نغمة متمايلة في أعماق صدره وبين ناظره ومحيطه تنسلّ أشباح الليل كأنّها أبخرة متولِّدة من مدامعه السخينة، وعلى جدران الهياكل تتمثّل له صور سحريّة بألوان قوس قزح.

كذا مرّت ساعة وهو فرح بدموعه، مغتبط بلوعته، سامع نبضات قلبه، ناظر إلى ما وراء الأشياء كأنّه يرى رسوم هذه الحياة تضمحلّ ببطء ويحلّ مكانها حلم غريب بمحاسنه هائل بهواجسه، ومثل نبيّ يتأمّل نجوم السماء مترقّبًا هبوط الوحي صار ينتظر مآتي الدقائق وتنهيداته

المسرعة توقف أنفاسه الهادئة، ونفسه تتركه وتسبح حوله ثمّ تعود إليه كأنّها تبحث بين تلك الخرائب عن ضائع عزيز.

***

لاح الفجر وارتجفت السكينة لمرور نسْيماته وسال النور البنفسجي بين دقائق الأثير، وابتسم الفضاء ابتسامة نائح لاح له في الحلم طيف حبيبته، فظهرت العصافير من شقوق جدران الخرائب، وصارت تنتقل بين تلك الأعمدة وتترنّم وتتناجى متنبّئة بمآتي النهار، فانتصب عليّ واضعًا يده على جبهته الملتهبة ونظر حوله بطرف جامد، ومثل آدم عندما فتحت عينيه نفخة الله صار ينظر مستغربًا كلّ ما يراه. ثمّ اقترب من نعاجه وناداها فقامت وانتفضت ومشت وراءه بهدوء نحو المروج الخضراء. سار عليّ أمام قطيعه وعيناه الكبيرتان محدّقتان إلى الفضاء الصافي وعواطفه المنصرفة عن المحسوسات تبيّن له غوامض الوجود ومستتراته وتُريه ما غَبَرَ من الأجيال وما بقي منها بلمحة واحدة، وبلمحة واحدة تُنسيه كلّ ذلك وتعيد إليه الشوق والحنين، فيجد ذاته منحجبًا عن روح روحه انحجاب العين عن النور، فيتنهّد ومع كلّ تنهيدة تنسلخ شعلة من فؤاده المتّقد.

بلغ الجدول المذيع بخريره سرائر الحقول فجلس على ضفّته تحت أغصان الصفصاف المتدلّية إلى المياه كأنّها تروم امتصاص عذوبتها، وانثنت نعاجه ترتعي الأعشاب وندى الصباح يتلمّع على بياض صوفها. ولم تمرّ دقيقة حتّى شعر بتسارع نبضات قلبه وتضاعف اهتزازات روحه. ومثل راقد أجفلته أشعة الشمس تحرّك وتلفّت حوله فرأى صبيّة قد ظهرت من بين الأشجار تحمل جرّة على كتفها وتتقدّم على مهل نحو الغدير وقد بلّل النّدى قدميها العاريتين.

ولمّا بلغت حافّة الجدول وانحنت لتملأ جرّتها، التفتت نحو الحافّة المقابلة فالتقت عيناها بعيْنَي عليّ، فشهقت ورمت بالجرّة ثمّ تراجعت

قليلًا إلى الـوراء وشخصت به شخوص ضائع وجد مَن يعرفه... مرّت دقيقة كانت ثوانيها مثل مصابيح تهدي قلبيهما إلى قلبيهما مبتدعة من السكينة أنغامًا غريبة تعيد إلى نفسيهما صدى تذكارات مبهمة وتبيّن الواحد منهما للآخر في غير ذلك المكان محاطًا بصوَر وأشباح بعيدة عن ذلك الجدول في تلك الأشجار، فكان كلّ منهما ينظر إلى الآخر نظرة الاستعطاف ويتفرّس فيه مستلطفًا ملامحه مصغيًا لتنهداته بكلّ ما في عواطفه من المسامع، مناجيًا إيّاه بكلّ ما في نفسه من الألسنة، حتّى إذا ما تمّ التفاهم وتكامل التعارف بين الروحيْن عَبَرَ عليّ الجدول مجذوبًا بقوّة خفيّة واقترب من الصبيّة وعانقها وقبّل شفتيها وقبّل عنقها وقبّل عينيها فلم تبدِ حراكًا بين ذراعيه كأنّ لـذّة العناق قد انتزعت منها إرادتها، ورقّة الملامسة قد أخذت منها قواها، فاستسلمت استسلام أنفاس الياسمين لتموّجات الهواء، وألقت رأسها على صدره كمتعب وجد راحة. وتنهّدت تنهّدة عميقة تشير إلى حدوث انبساط في فؤاد منقبض وتعلن ثورات جوانح كانت راقدة فأفاقت، ثمّ رفعت رأسها ونظرت إلى عينيه نظرة مَنْ يستصغر الكلام المتعارف بين البشر بجانب السكينة – لغة الأرواح – نظرة مَنْ لا يرضى بأن يكون الحبّ روحًا في أجساد من الألفاظ.

مشى الحبيبان بين أشجار الصفصاف ووحدانيّة كليهما لسان ناطق بتوحيدهما، ومسمع منصت لوحْيِ المحبّة، وعين مبصرة مجد السعادة. تتبعهما الخراف مرتعية رؤوس الأعشاب والزهور، وتقابلهما العصافير من كل ناحية مرتّلة أغاني السحر!

ولما بلغا طرف الوادي، وكانت الشمس قد طلعت وألقت على تلك الروابي رداء مذهبًا، جلسا بقرب صخرة يحتمي البنفسج بظلّها. وبعد هنيهة نظرت الصبيّة في سواد عيني عليّ وقد تلاعب النسيم بشعرها

كأنّ النسيم شفاه خفيّة تروم تقبيلها، وشعرت بأنامل سحريّة تداعب لسانها وشفتيها رغم إرادتها، فقالت وفي صوتها حلاوة جارحة:

– قد أعادت عشتروت روحيْنا إلى هذه الحياة كيلا نحرم ملذّات الحبّ، ومجد الشبيبة يا حبيبي!

فأغمض عليّ أجفانه وقد استحضرت موسيقى كلماتها رسوم حلم طالما رآه في نومه، وشعر بأجنحة غير منظورة قد حملته من ذلك المكان وأوقفته في حجرة غريبة الشكل بجانب سرير ملقى عليه جثمان امرأة جميلة أخذ الموت بهاءها وحرارة شفتيها، فصرخ ملتاعًا من هول المشهد ثمّ فتح أجفانه فوجد تلك الصبيّة جالسة بجانبه وعلى شفتيها ابتسامة محبّة وفي لحظها أشعة الحياة، فأشرق وجهه وانتعشت روحه وتضعضعت أخيلة رؤياه ونسي الماضي ومآتيه...

تعانق الحبيبان وشربا من خميرة القبل حتّى سكرا ونام كلّ منهما ملتفًّا بذراعَيِ الآخر إلى أن مال الظلّ وأيقظتهما حرارة الشمس.

مرتا البانيّة[1]

1

مات والدها وهي في المهد، وماتت أمّها قبل بلوغها العاشرة، فتُركت يتيمة في بيت جار فقير يعيش مع رفيقته وصغاره من بذور الأرض وثمارها في تلك المزرعة المنفردة بين أودية لبنان الجميلة.

مات والدها ولم يورثها غير اسمه وكوخ حقير قائم بين أشجار الجوز والحور، وماتت أمّها ولم تترك لها سوى دموع الأسى وذلّ التيتّم، فباتت غريبة في أرض مولدها، وحيدة بين تلك الصخور العالية والأشجار المحتبكة، وكانت تسير في كلّ صباح عارية القدمين رثّة الثوب وراء بقرة حلوب إلى طرف الوادي حيث المرعى الخصيب، وتجلس بظلّ الأغصان مترنّمة مع العصافير، باكية مع الجداول، حاسدة البقرة على وفرة المآكل، متأمّلة بنموّ الزهور ورفرفة الفراش. وعندما تغيب الشمس ويُضنيها الجوع ترجع نحو ذلك الكوخ وتجلس مع صبيّة وليّها ملتهمة خبز الذرة مع قليل من الثمار المجفّفة والبقول المغموسة بالخلّ والزيت، ثمّ تفترش القشّ اليابس مسندة رأسها بساعديْها وتنام متنهّدة متمنّية

[1] نسبة إلى بان وهي قرية جميلة في شمال لبنان.

لو كانت الحياة كلّها نومًا عميقًا لا تقطعه الأحلام ولا تليه اليقظة. وعند مجيء الفجر ينتهرها وليّها لقضاء حاجة فتهبّ من رقادها مرتعدة خائفة من سخطه وتعنيفه.

كذا مرّت الأعوام على مرتا المسكينة بين تلك الروابي والأودية البعيدة، فكانت تنمو بنموّ الأنصاب وتتولّد في قلبها العواطف على غير معرفة منها مثلما يتولّد العطر في أعماق الزهرة، وتنتابها الأحلام والهواجس مثلما تتناوب القطعان مجاري المياه، فصارت صبيّة ذات فكرة تشابه تربة جيّدة عذراء لم تُلقِ بها المعرفة بذورًا ولا مشت عليها أقدام الاختبار، وذات نفس كبيرة طاهرة منفيّة بحكم القدر إلى تلك المزرعة حيث تتقلّب الحياة مع فصول السنة كأنّها ظلّ إله غير معروف جالس بين الأرض والشمس.

نحن الذين صرفنا معظم العمر في المدن الآهلة نكاد لا نعرف شيئًا عن معيشة سكّان القرى والمزارع المنزوية في لبنان، قد سرنا مع تيّار المدنيّة الحديثة حتّى نسينا أو تناسينا فلسفة تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهرًا ونقاوة، تلك الحياة التي إذا ما تأمّلناها وجدناها مبتسمة في الربيع، مثقلة في الصيف، مستغلّة في الخريف، مرتاحة في الشتاء، متشبّهة بأمّنا الطبيعة في كلّ أدوارها. نحن أكثر من القرويّين مالًا وهم أشرف منّا نفوسًا. نحن نزرع كثيرًا ولا نحصد شيئًا، أمّا هم فيحصدون ما يزرعون. نحن عبيد مطامعنا وهم أبناء قناعتهم. نحن نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة اليأس والخوف والملل، وهم يرتشفونها صافية.

بلغت مرتا السادسة عشرة وصارت نفسها مثل مرآة صقيلة تعكس محاسن الحقول وقلبها شبيهًا بخلايا الوادي يرجع صدى كلّ الأصوات... ففي يوم من أيّام الخريف المملوءة بتأوّه الطبيعة جلست بقرب العين

المنعتقة من أسر الأرض انعتاق الأفكار من مخيّلة الشاعر تتأمّل باضطراب أوراق الأشجار المصفرّة وتلاعب الهواء بها مثلما يتلاعب الموت بأرواح البشر، ثمّ تنظر نحو الزهور فتراها قد ذبلت ويبست قلوبها حتّى تشقّقت وأصبحت تستودع التراب بذورها مثلما تفعل النساء بالجواهر والحلى أيّام الثورات والحروب.

وبينما هي تنظر إلى الزهور والأشجار، وتشعر معها بألم فراق الصيف، سمعت وقع حوافر على حصباء الوادي، فالتفتت وإذا بفارس يتقدّم نحوها ببطء. ولما اقترب من العين وقد دلّت ملامحه وملابسه على ترف وكياسة، ترجّل عن ظهر جواده وحيّاها بلطف ما تعوّدته من رجل قطّ، ثمّ سألها قائلًا: «قد تهت عن الطريق المؤدّية إلى الساحل، فهل لك أن تهديني أيّتها الفتاة؟» فأجابت وقد وقفت منتصبة كالغصن على حافّة العين: «لست أدري يا سيّدي ولكني أذهب وأسأل وليّي فهو يعلم». قالت هذه الكلمات بوجل ظاهر وقد أكسَبَها الحياء جمالًا ورقّة، وإذ همّت بالذهاب أوقفها الرجل وقد سَرَت في عروقه خمرة الشبيبة وتغيّرت نظراته وقال: «لا، لا تذهبي». فوقفت في مكانها مستغربة شاعرة بوجود قوّة في صوته تمنعها عن الحراك. ولما اختلست من الحياء نظرة إليه رأته يتأمّلها باهتمام لم تفقه له معنى ويبتسم لها بلطف سحري يكاد يبكيها لعذوبته، وينظر بمودّة وميل إلى قدميْها العاريتين ومعصميْها الجميلين وعنقها الأملس وشعرها الكثيف النّاعم، ويتأمّل بافتتان وشغف كيف قد لوّحت الشمس بشرتها وقوّت الطبيعة ساعديْها، أمّا هي فكانت مطرقةً خجلًا لا تريد الانصراف ولا تقوى على الكلام لأسباب لا تدركها.

في ذلك المساء رجعت البقرة الحلوب وحدها إلى الحظيرة، أمّا مرتا فلم ترجع، ولما عاد وليّها من الحقل بحث عنها بين تلك الوهاد ولم

يجدها، فكان يناديها باسمها ولا تجيبه غير الكهوف وتأوّهات الهواء بين الأشجار. فرجع مكتئبًا إلى كوخه وأخبر زوجته فبكت بسكينة طول ذلك اللّيل وكانت تقول في سرّها: رأيتها مرّة في الحلم بين أظافر وحش كاسر يمزّق جسدها وهي تبتسم وتبكي!

هذا إجمال ما عرفته عن حياة مرتا في تلك المزرعة الجميلة، وقد تخبرته من شيخ قروي عرفها مذ كانت طفلة حتّى شبّت واختفت من تلك الأماكن غير تاركة خلفها سوى دموع قليلة في عينَيْ امرأة وليّها، وذكرى رقيقة مؤثّرة تسيل مع نسيْمات الصباح في ذلك الوادي، ثمّ تضمحلّ كأنها لهاث طفل على بلّور النافذة.

2

جاء خريف سنة 1900 فعدْتُ إلى بيروت بعد أن صرفْتُ العطلة المدرسيّة في شمال لبنان. وقبل دخولي إلى المدرسة قضيت أسبوعًا كاملًا أتجوّل مع أترابي في المدينة متمتّعين بغبطة الحرّيّة التي تعشقها الشبيبة وتحرمها في منازل الأهل وبين جدران المدرسة، فكنّا أشبه بعصافير رأت أبواب الأقفاص مفتوحة أمامها فصارت تشبع القلب من لذّة التنقّل وغبطة التغريد، والشبيبة حلم جميل تسترق عذوبته معميات الكتب وتجعله يقظة قاسية، فهل يجيء يوم يجمع فيه الحكماء بين أحلام الشبيبة ولذّة المعرفة مثلما يجمع العتاب بين القلوب المتنافرة؟ هل يجيء يوم تصبح فيه الطبيعة معلّمة ابن آدم، والإنسانية كتابه، والحياة مدرسته، هل يجيء ذلك اليوم؟ لا ندري، ولكنّنا نشعر بسيرنا الحثيث نحو الارتقاء الروحي، وذلك الارتقاء هو إدراك جمال الكائنات بواسطة عواطف نفوسنا واستدرار السعادة بمحبّتنا ذلك الجمال.

ففي عشيّة يوم وقد جلسْتُ على شرفة المنزل أتأمّل العراك المستمرّ في ساحة المدينة، وأسمع جلبة باعة الشوارع ومناداة كلّ منهم عن طيب ما لديه من السلع والمآكل، اقترب مني صبيّ ابن خمس يرتدي أطمارًا بالية ويحمل على منكبيه طبقًا عليه طاقات الزهور. وبصوت ضعيف يخفضه الذلّ الموروث والانكسار الأليم قال:

– أتشتري زهرًا يا سيّدي؟

فنظرت إلى وجهه الصغير المصفرّ، وتأمّلت عينيه المكحولتين بأخيلة التعاسة والفاقة، وفمه المفتوح قليلًا كأنّه جرح عميق في صدر متوجّع، وذراعيه العاريتين النحيلتين، وقامته الصغيرة المهزولة المنحنية على طبق الزهور كأنّها غصن من الورد الأصفر الذابل بين الأعشاب النضرة. تأمّلتُ كلّ هذه الأشياء بلمحة مظهرًا شفقتي بابتسامات هي أمرّ من الدموع، تلك الابتسامات التي تنشقّ من أعماق قلوبنا وتظهر على شفاهنا، ولو تركناها وشأنها لتصاعدت وانسكبت من مآقينا. ثمّ ابتعت بعض زهوره وبغيتي ابتياع محادثته لأنّني شعرت بأنّ من وراء نظراته المحزنة قلبًا صغيرًا ينطوي على فصل من مأساة الفقراء الدائم تمثيلها على ملعب الأيّام، وقلّ مَن يهتم بمشاهدتها لأنّها موجعة. ولما خاطبته بكلمات لطيفة استأمن واستأنس ونظر إليّ مستغربًا لأنّه مثل أترابه الفقراء لم يتعوّد غير خشن الكلام من أولئك الذين ينظرون غالبًا إلى صبْيَة الأزقّة كأشياء قذرة لا شأن لها، وليس كنفوس صغيرة مكلومة بأسهم الدهر. وسألته إذ ذاك قائلًا:

– ما اسمك؟

فأجاب وعيناه مطرقتان إلى الأرض:

– اسمي فؤاد!

قلت: ابن مَن أنت؟ وأين أهلك؟

قال: أنا ابن مرتا البانيّة؟

قلت: وأين والدك؟

فهزّ رأسه الصغير كمَن يجهل معنى الوالد. فقلت:

– وأين أمّك يا فؤاد؟

قال: مريضة في البيت.

تجرّعتْ مسامعي هذه الكلمات القليلة من فم الصبيّ وامتصّتها عواطفي مبتدعة صورًا وأشباحًا غريبة محزنة لأنّي عرفت بلحظة أنّ مرتا المسكينة التي سمعت حكايتها من ذلك القرويّ هي الآن في بيروت مريضة. تلك الصبيّة التي كانت بالأمس مستأمنة بين أشجار الأودية هي اليوم في المدينة تعاني مضض الفقر والأوجاع، تلك اليتيمة التي صرفت شبيبتها على أكفّ الطبيعة ترعى البقر في الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف نهر المدينة الفاسدة وصارت فريسة بين أظفار التعاسة والشقاء.

كنت أفكّر وأتخيّل هذه الأشياء والصبيّ ينظر إليّ كأنّه رأى بعين نفسه الطاهرة انسحاق قلبي. ولمّا أراد الانصراف أمسكت بيده قائلًا:

– سرْ بي إلى أمّك لانّي أُريد أن أراها!

فسار أمامي صامتًا متعجّبًا، من حين إلى آخر كان ينظر إلى الوراء ليرى إذا كنت بالحقيقة متّبعًا خطواته.

في تلك الأزقّة القذرة حيث يختمر الهواء بأنفاس الموت، بين تلك المنازل البالية حيث يرتكب الأشرار جرائمهم مختبئين بستائر الظلمة، وفي تلك المنعطفات الملتوية إلى اليمين وإلى الشمال التواء الأفاعي السوداء، كنت أسير بخوف وتهيّب وراء صبيّ له من حداثته ونقاوة قلبه شجاعة لا يشعر بها مَن كان خبيرًا بمكايد أجلاف القوم في مدينة يدعوها الشرقيون عروس سوريا ودرّة تاج السلاطين، حتّى إذا

ما بلغنا أذيال الحيّ دخل الصبيّ بيتًا حقيرًا لم تُبقِ منه السنون غير جانب متداعٍ. فدخلت خلفه وطرقات قلبي تتسارع كلّما اقتربت حتّى صرت في وسط غرفة رطبة الهواء ليس فيها من الأثاث غير سراج ضعيف يغالب الظلمة بسهام أشعّته الصفراء، وسرير حقير يدلّ على عوز مبرح وفقر مدقع، منطرحة عليه امرأة نائمة قد حوّلت وجهها نحو الحائط كأنها تحتمي به من مظالم العالم أو كأنّها وجدت بين جدرانه قلبًا أرقّ وألْيَن من قلوب البشر. ولمّا اقترب الصبيّ منها مناديًا: «يا أُمّاه!..» التفتت إليه فرأته يومئ نحوي فتحرَّكَت إذ ذاك بين اللحف الرثّة، وبصوت موجع يلاحقه ألم النفس والتنهّدات المرَّة قالت:

– ماذا تريد أيّها الرجل؟ هل جئت لتبتاع حياتي الأخيرة وتجعلها دنسة بشهواتك؟ اذهب عني فالأزقّة مشحونة بالنساء اللواتي يبعنك أجسادهنّ ونفوسهنّ بأبخس الأثمان. أمّا أنا فلم يبقَ لي ما أبيعه غير فضلات أنفاس متقطّعة، عمّا قريب يشتريها الموت براحة القبر!

فاقتربت من سريرها وقد آلمت كلماتها قلبي لأنّها مختصر حكايتها التعسة، وقلت متمنّيًا لو كانت عواطفي تسيل مع الكلام:

– لا تخافي مني، يا مرتا، فأنا لم أجئ إليك كحيوان جائع بل كإنسان متوجّع. أنا لبناني عشت زمنًا في تلك الأودية والقرى القريبة من غابة الأرز. لا تخافي مني يا مرتا!

سمعَتْ كلماتي وشعرَتْ بأنّها صادرة من أعماق نفس تتألّم معها، فاهتزّت على مضجعها مثل القضبان العارية أمام رياح الشتاء، ووضَعَت يديها على وجهها كأنّها تريد أن تستر ذاتها من أمام الذكرى الهائلة بحلاوتها، المرّة بجمالها. وبعد سكينة ممزوجة بالتأوّه ظهر وجهها من بين كتفيها المرتجفتين، فرأيت عينين غائرتين محدقتين إلى شيء غير منظور منتصب في فضاء الغرفة، وشفتين يابستين تحرّكهما ارتعاشات

اليأس، وعنقًا تتردّد فيه حشرجة النزع المصحوبة بأنين عميق متقطّع، وبصوت يبثّه الالتماس والاستعطاف ويسترجعه الضعف والألم قالت:

– جئْتَ مُحسنًا مشفقًا فلتجزْكَ السماء عنّي إن كان الإحسان على الخطأة برًّا والشفقة على المرذولين صلاحًا، ولكنّي أطلب إليك أَن تعود من حيث أتيت لأن وقوفك في هذا المكان يكسبك عارًا ومذمّة، وحنانك عليّ يثمر لك عيبًا ومهانة. ارجع قبل أن يراك أحد في هذه الغرفة الدنسة المملوءة بأقذار الخنازير، وسِرْ مسرعًا ساترًا وجهك بأثوابك كيلا يعرفك عابرو الطريق. إنّ الشفقة التي تملأ نفسك لا تُعيد إليَّ طهارتي، ولا تمحو عيوبي، ولا تُزيل يد الموت القويّة عن قلبي. أنا منفيّة بحكم تعاستي وذنوبي إلى هذه الأعماق المظلمة، فلا تدع شفقتك تُدنيك من العيوب. أنا كالأبرص الساكن بين القبور فلا تقترب منّي، لأنّ الجامعة تحسبك دنسًا وتقصيك عنها إذا فعلت. ارجع الآن ولا تذكر اسمي في تلك الأودية المقدّسة، لأنّ النعجة الجرباء ينكرها راعيها خوفًا على قطيعه. وإذا ذكرْتَني قُلْ قد ماتت مرتا البانيّة ولا تقل غير ذلك.

ثمّ أخذت يدَيْ ابنها الصغيرتين وقبّلتهما بلهفة وقالت متنهّدة:

– سوف ينظر الناس إلى ولدي بعين السخرية والاحتقار قائلين: هذا ثمرة الإثم، هذا ابن مرتا الزانية، هذا ابن العار، هذا ابن الصدف. سوف يقولون عنه أكثر من ذلك، لأنّهم عميان لا يبصرون، وجهلاء لا يدرون أنّ أمّه قد طهّرت طفولته بأوجاعها ودموعها، وكفّرت عن حياته بتعاستها وشقائها. سوف أموت وأتركه يتيمًا بين صبيان الأزقّة وحيدًا في هذه الحياة القاسية، غير تاركة له سوى ذكرى هائلة تخجله إن كان جبانًا خاملًا وتهيّج دمه إن كان شجاعًا عادلًا. فإن حفظته السماء وشبّ رجلًا قويًّا ساعد السماء على الذي جنى عليه وعلى أُمّه، وإن مات

وتملّص من شبكة السنين وجدني مترقّبة قدومه هناك حيث النور والراحة!

فقلت وقلبي يوحي إليّ: «لستِ كالأبرص يا مرتا وإن سكنتِ بين القبور، ولستِ دنسة وإن وضعتك الحياة بين أيدي الدنسين. إنّ أدران الجسد لا تلامس النفس النقيَّة، والثلوج المتراكمة لا تُميت البذور الحيّة. وما هذه الحياة سوى بيدر أحزان تدرس عليه أغمار النفوس قبل أن تعطي غلّتها، ولكن ويل للسنابل المتروكة خارج البيدر، لأن نمل الأرض يحملها وطيور السماء تلتقطها، فلا تدخل أهراء ربّ الحقل. أنتِ مظلومة يا مرتا وظالمك هو ابن القصور، ذو المال الكثير والنفس الصغيرة. أنت مظلومة ومحتقَرة، وخير للإنسان أن يكون مظلومًا من أن يكون ظالمًا، وأخلق به أن يكون شهيد ضعف الغريزة الترابيّة من أن يكون قويًّا ساحقًا بمقابضه زهور الحياة، مشوّهًا بميوله محاسن العواطف. النفس، يا مرتا، هي حلقة ذهبيّة مفروطة من سلسلة الألوهة، فقد تصهر النار الحامية هذه الحلقة وتغيّر صورتها وتمحو جمال استدارتها، لكنّها لا تحيل ذهبها إلى مادّة أخرى، بل تزيده لمعانًا، ولكن ويل للهشيم إذ تأتي النار وتلتهمه وتجعله رمادًا ثمّ تهبّ الرياح وتذريه على وجه الصحراء... إي مرتا، أنتِ زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشريّة. قد داستك تلك النعال بقساوة، لكنّها لم تخفِ عطرك المتصاعد مع نواح الأرامل وصراخ اليتامى وتنهيدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة. تعزّيْ، يا مرتا، بكونك زهرة مسحوقة ولستِ قدمًا ساحقة!».

كنت أتكلّم وهي مصغية، وقد أنارت التعزية وجهها المصفرّ مثلما تنير أشعة المغرب اللطيفة خلايا الغيوم. ثمّ أومأت إليّ أن أجلس على جانب السرير، ففعلت مسائلًا ملامحها المتكلّمة عن مخبّآت نفسها الحزينة. ملامح مَن عرف أنّه مائت. ملامح صبيّة في ربيع العمر قد

شعرت بوقع أقدام الموت حول فراشها البالي. ملامح امرأة متروكة كانت بالأمس بين أودية لبنان الجميلة مملوءة حياة وقوّة، فصارت اليوم مهزولة تترقّب الانعتاق من قيود الحياة. وبعد سكينة مؤثرة جمعت فضلات قواها، وقالت ودموعها تتكلّم معها ونفسها تتصاعد مع أنفاسها:

نعم أنا مظلومة، أنا شهيدة الحيوان المختبئ في الإنسان، أنا زهرة مسحوقة تحت الأقدام. كنت جالسة على حافّة ذلك الينبوع عندما مرّ راكبًا... قد خاطبني بلطف ورقّة وقال لي إنّي جميلة وإنّه قد أحبّني فلا يتركني، وإن البرّيّة مملوءة وحشة والأودية هي مساكن الطيور وبنات آوى... ثمّ ألوى عليّ وضمّني إلى صدره وقبّلني، وكنت لم أذق حتّى تلك الساعة طعم القبلة لأنّي كنت يتيمة متروكة. أردفني خلفه على ظهر الجواد وجاء بي إلى بيت جميل منفرد. ثمّ أتَى بالملابس الحريريّة والعطور الزكيّة والمآكل اللذيذة والمشارب الطيّبة... فعل كلّ ذلك مبتسمًا ساترًا بشاعة ميوله وحيوانيّة مرامه بالكلام اللطيف والإشارات المستحبّة... وبعد أن أشبع شهواته من جسدي وأثقل بالذلّ نفسي غادرني تاركًا في أحشائي شعلة حيّة ملتهبة تغذّت من كبدي ونمت بسرعة ثمّ خرجت إلى هذه الظلمة من بين دخان الأوجاع ومرارة العويل... وهكذا قسمت حياتي إلى شطرين: شطر ضعيف متألّم، وشطر صغير يصرخ في هدوء الليل طالبًا الرجوع إلى الفضاء الواسع. في ذلك البيت المنفرد تركني الظلوم ورضيعي نقاسي مضض الجوع والبرد والوحدة، لا معين لنا غير البكاء والنحيب، ولا سمير سوى الخوف والهواجس...

وعلم رفاقه بمكاني وعرفوا بعوَزي وضعفي، فجاء الواحد بعد الآخر وكلّ يبتغي ابتياع العرض بالمال، وإعطاء الخبز لقاء شرف الجسد... آه كم قبضت على روحي بيدي لتقديمها للأبديّة، ثمّ أفلتّها لأنّها لم تكن لي وحدي، فشريكي بها كان ولدي الذي أبعدَتْه السماء عنها إلى هذه

الحياة مثلما أقصَتْني عن الحياة وألقَتْني في أعماق هذه الهاوية... والآن ها هي الساعة قد دنت وعريسي الموت قد جاء بعد هجرانه ليقودني إلى مضجعه النّاعم!

وبعد سكينة عميقة تشابه مسّ الأرواح المتطايرة، رفعت عينيها المحجوبتين بظلّ المنيّة وقالت بهدوء:

– أيّها العدل الخفيّ، الكامن وراء هذه الصور المخيفة، أنت أنت السامع عويل نفسي المودّعة ونداء قلبي المتهامل، منك وحدك أطلب وإليك أتضرّع، فارحمني وارعَ بيمناك ولدي، وتسلّم بيسراك روحي!

وخارت قواها وضعفت تنهّداتها، ونظرت إلى ابنها نظرة حزن وحنوّ، ثمّ ميّلت عينيها ببطء وبصوت يكاد يكون سكينة قالت: «أبانا الذي في السموات... ليتقدّس اسمك... ليأتِ ملكوتك... لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. اغفر لنا ذنوبنا».

وانقطع صوتها، وبقيت شفتاها متحرّكتين هنيهة، وبوقوفهما همدت كلّ حركة في جسدها. ثمّ اختلجت وتأوّهت وابيضّ وجهها وفاضت روحها. وظلّت عيناها محدّقتين إلى ما لا يرى.

عندما جاء الفجر وُضعت جثّة مرتا البانيّة في تابوت خشبي، وحُملت على كتفَي فقيرين ودُفنت في حقل مهجور بعيد عن المدينة. وقد رفض الكهّان الصلاة على بقاياها ولم يقبلوا أن ترتاح عظامها في الجبّانة حيث الصليب يخفر القبور، ولم يشيّعها إلى تلك الحفرة البعيدة غير ابنها وفتى آخر كانت مصائب هذه الحياة قد علّمته الشفقة.

يوحنا المجنون

1

في أيّام الصيف كان يوحنّا يسير كلّ صباح إلى الحقل سائقًا ثيرانه وعجوله، حاملًا محراثه على كتفيه، مصغيًا لتغاريد الشحارير وحفيف أوراق الأغصان، وعند الظهيرة كان يقترب من الساقية المتراكضة بين منخفضات تلك المروج الخضراء ويأكل زاده تاركًا على الأعشاب ما بقي من الخبز للعصافير. وفي المساء عندما ينتزع المغرب دقائق النور من الفضاء، كان يعود إلى البيت الحقير المشرف على القرى والمزارع في شمال لبنان، ويجلس بسكينة مع والديه الشيخين مصغيًا لأحاديثهما المملوءة بأخبار الأيّام شاعرًا بدنوّ النعاس والراحة معًا.

وفي أيّام الشتاء كان يتكئ مستدفئًا بقرب النار، سامعًا تأوّه الأرياح وندب العناصر، مفكّرًا بكيفيّة تتابع الفصول، ناظرًا من الكّوة الصغيرة نحو الأودية المكتسية بالثلوج، والأشجار العارية من الأوراق كأنّها جماعة من الفقراء تُركوا خارجًا بين أظفار البرد القارس والرياح الشديدة.

وفي الليالي الطويلة كان يبقى ساهرًا حتّى ينام والده ثمّ يفتح الخزانة الخشبيّة ويأتي بكتاب العهد الجديد، ويقرأ منه سرًّا على نور مسرجة ضعيفة، متلفّتًا بتحذّر بين الآونة والأخرى نحو والده النائم الذي منعه عن تلاوة ذلك الكتاب لأنّ الكهنة ينهون بسطاء القلب عن استطلاع خفايا تعاليم يسوع ويحرمونهم من «نِعَم الكنيسة» إذا فعلوا.

هكذا صرف يوحنا شبيبته بين الحقل المملوء بالمحاسن والعجائب وكتاب يسوع المفعم بالنور والروح. كان سكوتًا كثير التأمّلات يصغي لأحاديث والديه ولا يجيب بكلمة، ويلتقي بأترابه الفتيان ويجالسهم صامتًا ناظرًا إلى البعيد حيث يلتقي الشفق بازرقاق السماء. وإذا ما ذهب إلى الكنيسة عاد مكتئبًا، لأن التعاليم التي يسمعها من على المنابر والمذابح هي غير التي يقرأها في الإنجيل، وحياة المؤمنين مع رؤسائهم هي غير الحياة الجميلة التي تكلّم عنها يسوع الناصري.

***

جاء الربيع واضمحلّت الثلوج في الحقول والمروج، وأصبحت بقاياها في أعالي الجبال تذوب وتسير جداول جداول في منعطفات الأودية، وتجتمع أنهرًا غزيرة تتكلّم بهديرها عن يقظة الطبيعة، فأزهرت أشجار اللوز والتفاح، وأورقت قضبان الحور والصفصاف، وأنبتت الروابي أعشابها وأزاهرها، فتعب يوحنا من الحياة بجانب المواقد، وعرف أن عجوله قد ملّت ضيق المرابض واشتاقت إلى المراعي الخضراء، لأنّ مخازن التبن قد شحّت، وزنابل الشعير قد نفدت. فجاء وحلّها من معالفها وسار أمامها إلى البرّيّة ساترًا بعباءته كتاب العهد الجديد كيلا يراه أحد، حتّى بلغ المرجة المنبسطة على كتف الوادي بقرب حقول

الدير[1] القائم كالبرج الهائل بين تلك الهضاب، فتفرّقت عجوله مرتعية الأعشاب، وجلس مستندًا إلى صخرة يتأمّل تارة بجمال الوادي وطورًا بسطور كتابه المتكلّمة عن ملكوت السموات.

كان ذلك النهار من أواخر أيّام الصوم، وسكان تلك القرى المنقطعون عن اللحوم، أصبحوا يترقّبون بفضلات الصبر مجيء عيد الفصح. أمّا يوحنّا، فمثل جميع المزارعين الفقراء لم يكن يفرّق بين أيّام الصيام وغيرها، فالعمر كلّه كان صومًا طويلًا عنده، وقوته لم يتجاوز قطّ الخبز المعجون بعرق الجبين، والثمار المبتاعة بدم القلب، فالانقطاع عن اللحوم والمآكل الشهيّة كان طبيعيًّا. ومشتهيات الصوم لم تكن في جسده بل في عواطفه، لأنّها تعيد إلى نفسه ذكرى مأساة «ابن البشر» ونهاية حياته على الأرض.

كانت العصافير ترفرف متناجية حول يوحنّا، وأسراب الحمام تتطاير مسرعة، والزهور تتمايل مع النسيم كأنّها تتحمّم بأشعّة الشمس، وهو يقرأ في كتابه بتمعّن ثمّ يرفع رأسه ويرى قبب الكنائس في المدن والقرى المنثورة على جانبَيِ الوادي، ويسمع طنين أجراسها فيُغمض عينيه وتسبح نفسه فوق أشلاء الأجيال إلى أورشليم القديمة متّبعة أقدام يسوع في الشوارع سائلة العابرين عنه فيجيبونها قائلين: – هنا شفى العميان وأقام المقعدين. وهناك ضفروا له إكليلًا من الشوك ووضعوه على رأسه – في هذا الرواق وقف يكلّم الجموع بالأمثال، وفي ذلك القصر كتّفوه على العمود وبصقوا على وجهه وجلدوه – في هذا الشارع غفر للزانية خطاياها وفي ذاك وقع على الأرض تحت أثقال صليبه.

ومرّت الساعة ويوحنّا يتألّم مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح، حتّى إذا ما انتصف النهار قام من مكانه ونظر حوله فلم يرَ

[1] هو دير اليشاع النبي، في شمال لبنان، يقطنه عشرات من الرهبان المعروفين بالحلبيين.

عجوله، فمشى ملتفتًا إلى كلّ ناحية مستغربًا اختفاءها في تلك المروج السهلة. ولما بلغ الطريق المنحنية بين الحقول انحناء خطوط الكفّ رأى عن بعد رجلًا بملابس سوداء واقفًا بين البساتين، فأسرع نحوه، ولمّا اقترب منه وعرف أنّه أحد رهبان الدير، حيّاه بحني رأسه ثمّ سأله قائلًا: «هل رأيت عجولًا سائرة بين هذه البساتين يا أبتاه؟» فنظر إليه الراهب متكلفًا إخفاء حنقه وأجاب بخبث:

«نعم رأيتها فهي هناك، تعالَ وانظرها». فسار يوحنّا وراء الراهب حتّى بلغا الدير، فإذا بالعجول ضمن حظيرة واسعة موثقة بالحبال يحفرها أحد الرهبان وفي يده نبوت يجلدها به كيفما تحرّكت، وإذ همّ يوحنّا ليقودها أمسك الراهب بعباءته والتفت نحو رواق الدير وصرخ بأعلى صوته: «هوذا الراعي المجرم قد قبضت عليه». فهرول القسس والرهبان من كلّ ناحية يتقدّمهم الرئيس وهو رجل يمتاز عن رفاقه بنحافة أثوابه وانقباض سحنته، وأحاطوا بيوحنّا كالجنود المتسابقة على الفريسة، فنظر يوحنّا إلى الرئيس وقال بهدوء: «ماذا فعلت لأكون مجرمًا، ولماذا قبضتم عليّ؟» فأجابه الرئيس وقد بانت القساوة على وجهه الغضوب، وبصوت خشن أشبه بصرير المناشير قال: «قد ارتعت عجولك زرع الدير وقضمت قضبان كرومه، فقبضنا عليك لأنّ الراعي هو المسؤول عمّا تخربه مواشيه». فقال يوحنّا مستعطفًا: «هي بهائم لا عقل لها يا أبتاه، وأنا فقير لا أملك غير قوى ساعدَيّ وهذه العجول، فاتركني أقودها وأسير واعدًا إيّاك بأن لا أجيء إلى هذه المروج مرّة أخرى». فقال الرئيس وقد تقدّم قليلًا إلى الأمام ورفع يده نحو السماء: «إنّ الله قد وضعنا ههنا ووكل إلينا حماية أراضي مختاره اليشاع العظيم، فنحن نحافظ عليها ليلًا ونهارًا بكلّ قوانا لأنّها مقدّسة، وهي كالنّار تحرق كلّ من يقترب منها، فإذا امتنعت عن محاسبة الدير انقلبت الأعشاب في أجواف عجولك

سمومًا آكلة، ولكن ليس من سبيل إلى الامتناع لأنّنا نبقي بهائمك في حظيرتنا حتّى تفي آخر فلس عليك».

وهمّ الرئيس بالذهاب فأوقفه يوحنّا، وقال متذلّلًا متوسّلًا: «أستحلفك يا سيّدي بهذه الأيّام المقدّسة، التي تألّم فيها يسوع وبكت لأحزانها مريم، أن تتركني أذهب بعجولي. لا تكن قاسي القلب عليّ، فأنا فقير مسكين والدير غنيّ عظيم. فهو يسامح تهاملي ويرحم شيخوخة والدي». فالتفت إليه الرئيس وقال بهزء: «لا يسامحك الدير بمثقال ذرة أيّها الجاهل، فقيرًا كنت أو غنيًّا، فلا تستحلفني بالأشياء المقدّسة لأنّنا أعرف منك بأسرارها وخفاياها، وإن شئت أن تقود عجولك من هذه المرابض فافتدِها بثلاثة دنانير لقاء ما التهمت من الزرع». فقال يوحنّا بصوت مختنق: «إنّني لا أملك بارة واحدة يا أبتاه. فاشفق عليّ وارحم فقري». فأجاب الرئيس بعد أن مشّط لحيته الكثيفة بأصابعه: «اذهب وبِعْ قسمًا من حقلك وعُدْ بثلاثة دنانير، فخير لك أن تدخل السماء بلا حقل من أن تكتسب غضب اليشاع العظيم باحتجاجك أمام مذبحه، وتهبط في الآخرة إلى الجحيم حيث النّار المؤبّدة».

فسكت يوحنّا دقيقة وقد أبرقت عيناه وانبسط محيّاه وتبدّلت لوائح الاسترحام بملامح القوّة والإرادة، فقال بصوت تمتزج فيه نغمة المعرفة بعزم الشبيبة: «هل يبيع الفقير حقله منبت خبزه ومورد حياته ليضيف ثمنه إلى خزائن الدير المفعمة بالفضّة والذهب؟ أمِن العدل أن يزداد الفقير فقرًا ويموت المسكين جوعًا كيما يغفر اليشاع العظيم ذنوب بهائم جائعة؟» فقال الرئيس هازًّا رأسه استكبارًا: هكذا يقول يسوع المسيح «مَن له يُعطى ويزاد ومَن ليس له يُؤخذ منه».

سمع يوحنّا هذه الكلمات فاضطرب قلبه في صدره، وكبرت نفسه، وتعالت قامته عن ذي قبل، كأنّ الأرض قد نمت تحت قدميه، فانتشل

الانجيل من جيبه كما يستلّ الجندي سيفه للمدافعة، وصرخ قائلًا: «هكذا تتلاعبون بتعاليم هذا الكتاب أيّها المراؤون. هكذا تستخدمون أقدس ما في الحياة لتعميم شرور الحياة. فويل لكم إذ يأتي ابن «البشر» ثانية ويخرب أديرتكم ويُلقي حجارتها في هذا الوادي، محرقًا بالنار مذابحكم ورسومكم وتماثيلكم! ويل لكم من دماء يسوع الزكيّة ودموع أمّه الطاهرة، إذ تنقلب سيلًا عليكم وتجرفكم إلى أعماق الهاوية! ويل وألف ويل لكم أيّها الخاضعون لأصنام مطامعكم، الساترون بالأثواب السوداء اسوداد مكروهاتكم، المحرّكون بالصلاة شفاهكم وقلوبكم جامدة كالصخور، الراكعون بتذلّل أمام المذابح ونفوسكم متمرّدة على الله. قد قدتموني بخباثة إلى هذا المكان المملوء بآثامكم، وكمجرم قبضتم عليّ من أجل قليل من الزرع تستنبته الشمس لي ولكم على السواء، ولمّا استعطفتكم باسم يسوع واستحلفتكم بأيّام حزنه وأوجاعه استهزأتم بي كأنّي لم أتكلّم بغير الحماقة والجهالة. خذوا وابحثوا في هذا الكتاب وأروني متى لم يكن يسوع غفورًا. واقرأوا هذه المأساة السماوية وأخبروني أين تكلّم بغير الرحمة والرأفة، أفي موعظته على الجبل، أم في تعاليمه في الهيكل أمام مضطهدي تلك الزانية المسكينة، أم على الجلجلة عندما بسط ذراعيه على الصليب ليضمّ الجنس البشري. انظروا يا قساة القلوب إلى هذه المدن والقرى الفقيرة، ففي منازلها يتلوّى المرضى على أسرّة الأوجاع، وفي حبوسها تفنى أيّام البائسين، وأمام أبوابها يتضرّع المتسوّلون، وعلى طرقها ينام الغرباء، وفي مقابرها تنوح الأرامل واليتامى، وأنتم ههنا تتمتّعون براحة التواني والكسل، وتتلذّذون بثمار الحقول وخمور الكروم. فلم تزوروا مريضًا، ولم تفتقدوا سجينًا، ولم تطعموا جائعًا، ولم تؤووا غريبًا، ولم تعزّوا حزينًا. وليتكم تكتفون بما لديكم وتقنعون بما اغتصبتم من جدودنا باحتيالكم، فأنتم تمدّون

أيديكم كما تمدّ الأفاعي رؤوسها، وتقبضون بشدّة على ما وفّرته الأرملة من عمل يديها وما أبقاه الفلاح لأيّام شيخوخته».

وسكت يوحنّا ريثما استرجع أنفاسه ثمّ رفع رأسه بفخر وقال بهدوء: «أنتم كثار ههنا وأنا وحدي. افعلوا بي ما شئتم، فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة اللّيل، لكنّ آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتّى يجيء الفجر وتطلع الشمس».

كان يوحنّا يتكلّم وفي صوته قوّة علويّة توقف في أبدان الرهبان الحركة وتثير في نفوسهم الغيظ والحدَّة، ومثل غربان جائعة في أقفاص ضيّقة كانوا يرتجفون غضبًا وأسنانهم تصرف بشدّة مترقّبين من رئيسهم إشارة ليمزّقوه تمزيقًا ويسحقوه سحقًا، حتّى إذا ما انتهَى من كلامه وسكت سكوت العاصفة بعد تكسيرها الأغصان المتشامخة والأنصاب اليابسة، صرخ الرئيس بهم قائلًا:

«اقبضوا على هذا المجرم الشقيّ وانزعوا منه الكتاب وجرّوه إلى حجرة مظلمة من الدير، فمن يجدف على مختاري الله لا يغفر له ههنا ولا في الأبديّة». فهجم الرهبان على يوحنّا هجوم الكواسر على الفريسة وقادوه مكتوفًا إلى حجرة ضيّقة وأقفلوا عليه بعد أن نهكوا جسده بخشونة أكفّهم ورفس أرجلهم.

في تلك الغرفة المظلمة وقف يوحنّا وقفة منتصر توفّق العدوّ لأسره، ونظر من الكوّة الصغيرة المطلّة على الوادي المملوء بنور النهار، فتهلّل وجهه وشعر بلذّة روحيّة تعانق نفسه وطمأنينة مستعذبة تملك عواطفه، فالحجرة الضيّقة لم تسجن غير جسده، أمّا نفسه فكانت حرّة تتموّج مع النسيم بين الطلول والمروج، وأيدي الرهبان التي آلمت أعضاءه لم تمسّ عواطفه المستأمنة بجوار يسوع الناصري. والمرء لا تعذّبه الاضطهادات إذا كان عادلًا، ولا تفنيه المظالم إذا كان بجانب

الحقّ، فسقراط شرب السمّ مبتسمًا، وبولس رُجم فارحًا. ولكن هو الضمير الخفيّ نخالفه فيوجعنا، ونخونه فيقضي علينا.

وعلم والـدا يوحنّا بما جرى لوحيدهما، فجاءت أمّـه إلى الدير مستعينة بعصاها، وترامت على قدمَيِ الرئيس تذرف الدموع وتقبّل يديه ليرحم ابنها ويغتفر جهله. فقال لها بعد أن رفع عينيه نحو السماء كمترفّع عن العالميات: «نغتفر طيش ابنك ونسامح جنونه ولكنّ للديّر حقوقًا مقدّسة لا بدّ من استيفائها. نحن نسامح بتواضعنا زلّات الناس، أمّا اليشاع العظيم فلا يسامح ولا يغفر لمن يتلفون كرومه ويرتعون زرعه». فنظرت إليه الوالدة والدمع ينسكب على وجنتيْها المتجعّدتين بأيدي الشيخوخة، ثمّ نزعت قلادة فضيّة من عنقها ووضعتها في يده قائلة: «ليس لديّ غير هذه القلادة يا أبتاه، فهي عطيّة والدتي يوم اقتراني، فليقبلها الدير كفّارة عن ذنوب وحيدي». فأخذ الرئيس القلادة ووضعها في جيبه ثمّ قال ووالدة يوحنّا تقبّل يديه شكرًا وامتنانًا: «ويل لهذا الجيل، فقد انعكست فيه آيات الكتاب وأصبح الأبناء يأكلون الحصرم والآباء يضرسون. اذهبي أيّتها المرأة الصالحة وصلّي من أجل ابنك المجنون لتشفيه السماء وتعيد إليه صوابه».

وخـرج يوحنّا مـن أسـره ومشى ببطء أمـام عجوله بجانب أمّـه المنحنية على عصاها تحت أثقال السنين، ولمّا بلغ الكوخ قاد العجول إلى معالفها وجلس بسكينة قرب النافذة يتأمّل اضمحلال نور النهار، وبعد هنيهة سمع والـده يهمس في أذن أمّـه هـذه الكلمات: «كم عارضتني، يا سارة، عندما كنت أقول لكِ إن ولدنا مختلّ الشعور، والآن أراكِ لا تعترضين لأنّ أعماله قد حقّقت كلامي ورئيس الدير الوقور قد قال لكِ اليوم ما قلته أنا منذ سنين».

وظلّ يوحنّا ناظرًا نحو المغرب حيث الغيوم المتلبّدة متلوّنة بأشعة الشمس.

2

جاء عيد الفصح وتبدّل الانقطاع عن المآكل بالإكثار من المشتهيات، وكان قد تمّ بناء الهيكل الجديد المتعالي بين المساكن في مدينة بشّري كصرح أمير قائم بين أكواخ الرعايا. وكان القوم يترقّبون قدوم أحد الأساقفة، لتكريسه وتقديس مذابحه، ولمّا شعروا بدنوّه خرجوا صفوفًا صفوفًا على الطريق وأدخلوه المدينة بين تهاليل الفتيان وتسابيح الكهنة وأصوات الصنوج وطنين الأجراس والنواقيس، ولمّا ترجَّل عن فرسه المزدانة بالسرج المزركش واللجام الفضِّي، قابله الأئمّة والزعماء بمستطاب الكلام، مترحّبين به بالقصائد والأناشيد المصدَّرة بالمديح والمذيَّلة بالتبجيل، حتّى إذا ما بلغ الهيكل الجديد ارتدى الملابس الحبريَّة الموشَّاة بالذهب، ولبس التاج المرصَّع بالجواهر، وتقلَّد عصا الرعاية المنمَّقة بالنقوش البديعة والحجارة الكريمة وطاف حول الهيكل منغمًا مع الكهنة الصلوات والتقاسيم، وقد تصاعدت حوله روائح البخور الطيّبة، وشعشعت الشموع الكثيرة، وكان يوحنّا في تلك الساعة واقفًا بين الرعاة والزارعين على رواق مرتفع يتأمّل بعينيه الحزينتين هذا المشهد، ويتنهّد بمرارة ويتأوّه بغصّات موجعة إذ يرى من الجهة الواحدة ملابس حريريَّة مطرَّزة، وأواني ذهبيَّة مرصّعة، ومباخر ومشاعل فضيَّة ثمينة، ومن الأخرى جماعة من الفقراء والمساكين الذين أتوا من القرى والمزارع الصغيرة يشاهدون بهجة هذا الفصح والاحتفال بتكريس الكنيسة. من الجهة الواحدة عظمة ترتدي القطيفة والأطالس، ومن الأخرى تعاسة تلتفّ بألاطمار البالية. ههنا فئة قويّة غنيّة تمثّل الدين بالتنغيم والتعزيم، وهناك شعب ضعيف محتقر يفرح سرًّا بقيامة يسوع من بين الأموات ويصلِّي بسكينة هامسًا في مسامع الأثير تنهيدات حارَّة صادرة من أعماق القلوب الكسيرة. ههنا رؤساء وزعماء لهم من سلطتهم

حياة أشبه شيء بأشجار السرو ذات الاخضرار الأبـدي، وهناك بؤساء وزارعون لهم من خضوعهم حياة تشابه سفينة، ربّانها الموت وقد كسرت الأمواج دفّتها، ومزّقت الرياح شراعها، فأمست في هبوط وصعود، بين غضب اللجّة وهول العاصفة. ههنا الاستبداد القاسي، وهناك الخضوع الأعمى. فأيّهما كان مولدًا للآخر؟ هل الاستبداد شجرة قويّة لا تنبت في غير التربة المنخفضة، أم هو الخضوع حقل مهجور لا تعيش فيه غير الأشواك؟

بهذه التأمّلات الأليمة وهذه الأفكار المعذّبة كان يوحنّا مشغولًا وقد بكّل زنديه على صدره كأنّ حنجرته قد ضاقت عن أنفاسه فخاف أن يتمزَّق صدره حناجر ومنافذ. حتّى إذا ما انتهت حفلة التكريس وهمّ الشعب بالانصراف والتفرّق، شعر بأنّ في الهواء روحًا تنتدبه واعظًا عنها، وفي المجموع قوّة تحرّك روحه وتوقفه خطيبًا أمام السماء والأرض أسر إرادته، فتقدّم إلى طرف الرواق ورفع عينيه وأشار بيده نحو العلاء وبصوت عظيم يستدعي المسامع ويستوقف النواظر صرخ قائلًا:

«انظر يا يسوع الناصري الجالس في قلب دائرة النور الأعلى. انظر من وراء القبّة الزرقاء إلى هذه الأرض التي لبست بالأمس من عناصرها رداء. انظر أيّها الحارس الأمين، فقد خنقت أشواك الوعر أعناق الزهور التي أنعشْتَ بذورها بعرق جبينك. انظر أيّها الراعي الصالح، فقد نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذي حملته على منكبيك. انظر فدماؤك الزكيّة قد غارت في بطن الأرض، ودموعك السخينة قد جفّت في قلوب البشر، وأنفاسك الحارّة قد تضعضعت أمام رياح الصحراء، وأصبح هذا الحقل الذي قدّستْه قدماك ساحة قتال تسحق فيها حوافر الأقوياء ضلوع المنطرحين، وتنتزع أكفّ الظالمين أرواح الضعفاء... إن صراخ البائسين المتصاعد من جوانب هذه الظلمة

لا يسمعه الجالسون باسمك على العروش، ونواح المحزونين لا تعيه آذان المتكلّمين بتعاليمك فوق المنابر، فالخراف التي بعثتها من أجل كلمة الحياة قد انقلبت كواسر تمزّق بأنيابها أجنحة الخراف التي ضممْتَها بذراعيك، وكلمة الحياة التي أنزلتها من صدر الله قد توارت في بطون الكتب وقام مقامها ضجيج مخيف ترتعد من هوله النفوس. لقد أقاموا يا يسوع لمجد أسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحرير المنسوج والذهب المذوّب، وتركوا أجساد مختاريك الفقراء عارية في الأزقّة الباردة، وملأوا الفضاء بدخان البخور ولهيب الشموع، وتركوا بطون المؤمنين بألوهيّتك خالية من الخبز، وأفعموا الهواء بالتراتيل والتسابيح، فلم يسمعوا نداء اليتامى وتنهيدات الأرامل. تعالَ ثانيةً يا يسوع الحيّ واطرد باعة الدين من هياكلك، فقد جعلوها مغاور تتلوّى فيها أفاعي روغهم واحتيالهم. تعالَ وحاسب هؤلاء القياصرة، فقد اغتصبوا من الضعفاء ما لهم وما للّه. تعالَ وانظر الكرمة التي غرسَتْها يمينك، فقد أكلت جذوعها الديدان، وسحقت عناقيدها أقدام ابن السبيل. تعالَ وانظر الذين ائتمنتهم على السلام، فقد انقسموا على ذواتهم وتخاصموا وتحاربوا، ولم تكن أشلاء حروبهم غير نفوسنا المحزونة وقلوبنا المضنكة... في أعيادهم واحتفالاتهم يرفعون أصواتهم بجسارة قائلين: المجد للّه في العلى وعلى الأرض السلام وبالنّاس المسرّة. فهل يتمجّد أبوك السماوي بأن تلفظ اسمه الشفاه الأثيمة والألسنة الكاذبة؟ وهل على الأرض سلام وأبناء الشقاء في الحقول يفنون قواهم أمام وجه الشمس ليُطعموا فم القويّ ويملأوا جوف الظالم؟ وهل بالناس مسرّة والبؤساء ينظرون بأعين كسيرة إلى الموت نظرة المغلوب إلى المنقذ؟ ما هو السلام يا يسوع الحلو؟ هل هو في أعين الأطفال المتّكئين على صدور الأمّهات الجائعات في المنازل المظلمة الباردة؟ أم في أجساد المعوزين النائمين على أسرّة

حجريّة يتمنّون القوت الذي يرمي به قسس الدير إلى خنازيرهم المسمّنة ولا يحصلون عليه؟ ما هي المسرّة يا يسوع الجميل، أبأن يشتري الأمير بفضلات الفضّة قوى الرجال وشرف النساء، وبأن نسكت ونبقى عبيدًا بالنفس والجسد لمن يدهشون أعيننا بلمعان ذهب أوسمتهم وبريق حجارتهم وأطالس ملابسهم، أم بأن نصرخ متظلّمين مندّدين فيبعثوا إلينا بأتباعهم حاملين علينا بسيوفهم وسنابك خيولهم فتنسحق أجساد نسائنا وصغارنا وتسكر الأرض من مجاري دمائنا؟... امدد يدك يا يسوع القوي وارحمنا لأنّ يد الظلوم قويّة علينا، أو أرسل الموت ليقودنا إلى القبور حيث ننام براحة مخفورين بظلّ صليبك إلى ساعة مجيئك الثاني، لأنّ الحياة ليست حياة عندنا، بل هي ظلمة تتسابق فيها الأشباح الشرّيرة، ووادٍ تدبّ في جوانبه الثعابين المخيفة. ولا الأيّام أيّام عندنا، بل هي أسياف سنينة يخفيها الليل بين لحف مضاجعنا ويشهرها الصباح فوق رؤوسنا عندما تقودنا محبّة البقاء إلى الحقول. ترأف، يا يسوع، بهذه الجموع المنضمّة باسمك في يوم قيامتك من بين الأموات وارحم ذلّهم وضعفهم».

كان يوحنّا يناجي السماء والشعب حوله بين مستحسن راضٍ ومستقبح غاضب. فهذا يصرخ: لم يقل غير الحقّ فهو يتكلّم عنّا أمام السماء لأنّنا مظلومون. وذا يقول: هو مسكون يتكلّم بلسان روحٍ شرّيرة. وذاك يقول: لم نسمع قطّ مثل هذا الهذيان من آبائنا وجدودنا ولا نريد أن نسمعه الآن. وآخر يهمس في أذن قريبه: أحسست بقشعريرة سحريّة تهزّ قلبي في داخلي عندما سمعت صوته، فهو يتكلّم بقوّة غريبة. وغيره يجيب: نعم ولكن الرؤساء أعرف منّا باحتياجاتنا فمن الخطإ أن نشكّ بهم.

وبينما هذه الأصوات تتصاعد من كلّ ناحية وتتآلف كهدير الأمواج ثمّ تضيع في الهواء، جاء أحد الكهنة وقبض على يوحنّا وأسلمه

للشرطة فقادوه إلى دار الحاكم، ولما استنطقوه لم يُجب بكلمة لأنّه تذكّر أنّ يسوع كان سكوتًا أمام مضطهديه، فأنزلوه إلى سجن مظلم حيث نام بسكينة متّكئًا على الحائط الحجري.

وفي صباح النهار التالي جاء والد يوحنّا وشهد أمام الحاكم بجنون وحيده قائلًا: «طالما سمعته يهذي في وحدته يا سيّدي، ويتكلّم عن أشياء غريبة لا حقيقة لها، فكم سهر الليالي مناجيًا السكون بألفاظ مجهولة، مناديًا أخيلة الظلمة بأصوات مخيفة تقارن تعازيم العرّافين المشعوذين. سل فتيان الحي يا سيّدي فقد جالسوه وعرفوا انجذاب عاقلته إلى عالم بعيد، فكانوا يخاطبونه فلا يجيب، وإن تكلّم جاءت أقواله ملتبسة لا علاقة لها بأحاديثهم. سل أمّه فهي أدرى النّاس بانسلاخ نفسه عن المدارك الحسيّة، فقد شاهدته مرّات ناظرًا إلى الأفق بعينين زجاجيتين جامدتين وسمعته متكلّمًا بشغف عن الأشجار والجداول والزهور والنجوم، مثلما تتكلّم الأطفال عن صغائر الأمور. سل رهبان الدير فقد خاصمهم بالأمس محتقرًا تنسّكهم وتعبّدهم، كافرًا بقداسة معيشتهم. وهو مجنون يا سيّدي، ولكنّه شفوق عليّ وعلى أمّه، فهو يعولنا في أيّام الشيخوخة ويذرف عرق جبينه من أجل الحصول على حاجتنا، فترأف به برأفتك بنا، واغتفر جنونه باعتبارك حنوّ الوالدين».

أُفرج عن يوحنّا، وشاع في تلك النواحي جنونه، فكان الفتيان يذكرونه ساخرين بأقواله، والصبايا ينظرن إليه بأعين آسفة قائلات: للسماء شؤون غريبة في الإنسان، فهي قد جمعت في هذا الفتى بين جمال الوجه واختلال الشعور، وقارنت بين أشعّة عينيه اللطيفة وظلمة نفسه المريضة.

***

بين تلك المروج والروابي الموشّاة بالأعشاب والزهور، كان يوحنا يجلس بقرب عجوله المنصرفة عن متاعب ابن آدم بطيب المرعى، وينظر

بعينين دامعتين نحو القرى والمزارع المنتثرة على كتفَيِ الوادي مردّدًا هذه الكلمات بتنهيدات عميقة: أنتم كثار وأنا وحدي، فقولوا عنّي ما شئتم، وافعلوا بي ما أردتم، فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل، ولكنّ آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتّى يجيء الفجر وتطلع الشمس.

الأرواح المتمرّدة

1908

إلى الروح التي عانقت روحي.

إلى القلب الذي سكب أسراره في قلبي.

إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفي

أرفع هذا الكتاب.

جبران

وردة الهاني

1

ما أتعس الرجل الذي يحبّ صبيّة من بين الصبايا ويتّخذها رفيقة لحياته، ويهرق على قدميها عرق جبينه ودم قلبه، ويضع بين كفّيها ثمار أتعابه وغلّة اجتهاده، ثمّ ينتبه فجأة فيجد قلبها الذي حاول ابتياعه بمجاهدة الأيّام وسهر الليالي قد أُعطي مجّانًا لرجل آخر ليتمتّع بمكنوناته ويسعد بسرائر محبّته.

وما أتعس المرأة التي تستيقظ من غفلة الشبيبة فتجد ذاتها في منزل رجل يغمرها بأمواله وعطاياه، ويسربلها بالتكريم والمؤانسة، لكنّه لا يقدر أن يلامس قلبها بشعلة الحبّ المحيية، ولا يستطيع أن يشبع روحها من الخمرة السماويّة التي يسكبها الله من عينَيِ الرجل في قلب المرأة.

عرفت رشيد بك نعمان منذ حداثتي. وهو رجل لبناني الأصل، بيروتي المولد والدار، متحدّر من أسرة قديمة غنيّة موصوفة بالمحافظة على ذكر الأمجاد الغابرة، فكان مولعًا بسرد الحوادث التي تبيّن نبالة آبائه وجدوده، متبعًا بمعيشته عقائدهم وتقاليدهم، منصرفًا إلى تقليدهم في العادات والأزياء الغربيّة المرفرفة كأسراب الطيور في فضاء الشرق.

وكان رشيد بك طيّب القلب كريم الأخلاق، لكنّه كالكثيرين من سكّان سوريا، لا ينظر إلى ما وراء الأشياء، بل إلى الظاهر منها. ولا يُصغي إلى نغمة نفسه، بل يُشغل عواطفه باستماع الأصوات التي يُحدثها محيطه. ويُلهي ميوله ببهرجة المرئيات التي تُعمي البصيرة عن اسرار الحياة وتحوّل النفس عن إدراك خفايا الكيان إلى ملاحظة الملذّات الوقتيّة. وكان من أولئك الرجال الذين يتسرّعون بإظهار محبّتهم أو مقتهم للناس وللأشياء، ثمّ يندمون على تسرّعهم بعد فوات الوقت، عندما تصير الندامة مجلبة للسخرية والاستهزاء بدلًا من العفو والغفران.

هذه هي الصفات والأخلاق التي جعلت رشيد بك نعمان يقترن بالسيّدة وردة الهاني قبل أن تضمّ نفسها نفسه في ظلّ المحبّة الحقيقيّة التي تجعل الحياة الزوجيّة نعيمًا.

***

غبت عن بيروت بضعة أعوام، ولما رجعت إليها، ذهبت لزيارة رشيد فوجدته ضعيف الجسد، مكمد اللّون، تتمايل على سحنته المنقبضة أشباح الأحزان وتنبعث من عينيه الحزينتين نظرات موجعة تتكلّم بالسكينة عن انسحاق قلبه وظلمة صدره. وبُعيْد أن بحثت في محيطه ولم أجد أسباب نحوله وانقباضه سألته قائلًا: ما أصابك أيّها الرجل؟ وأين تلك البشاشة التي كانت تنبعث كالشعاع من وجهك؟ وأين ذهب ذاك السرور الذي كان ملاصقًا شبيبتك؟ هل فصل الموت بينك وبين صديق عزيز، أم سلبتك الليالي السوداء مالًا جمعته في الأيّام البيضاء؟ قل لي بحقّ الصداقة ما هذه الكآبة المعانقة نفسك، وهذا النحول المالك جسدك؟

فنظر إليّ نظرة متأسّف أرَتْه الذكرى رسوم أيّام جميلة ثمّ حجَبَتْها. وبصوت تتموّج في مقاطعه معاني اليأس والقنوط قال: إذا فَقَدَ المرء صديقًا عزيزًا والتفت حوله يجد الأصدقاء الكثيرين فيتصبّر ويتعزّى،

وإذا خسر الإنسان مالًا وفكّر قليلًا رأى النشاط الذي أتَى بالمال سيأتي بمثله فينسى ويسلو. ولكن إذا أضاع الرجل راحة قلبه فأين يجدها وبمَ يستعيض عنها؟ يمدّ الموت يده ويصفعك بشدة فتتوجّع. ولكن لا يمرّ يوم وليلة حتّى تشعر بملامس أصابع الحياة فتبتسم وتفرح. يجيئك الدهر على حين غفلة، ويحدّق إليك بأعين مستديرة مخيفة ويقبض على عنقك بأظفار محدّدة ويطرحك بقساوة على التراب ويدوسك بأقدامه الحديدية ويذهب ضاحكًا، ثمّ لا يلبث أن يعود إليك نادمًا مستغفرًا فينتشلك بأكفّه الحريريّة ويغنّي لك نشيد الأمل فيطربك. مصائب كثيرة ومتاعب أليمة تأتيك مع أخيلة الليل تضمحلّ أمامك بمجيء الصباح، وأنت شاعر بعزيمتك متمسّك بآمالك. ولكن إذا كان نصيبك من الوجود طائرًا تحبّه وتطعمه حبّات قلبك وتسقيه نور أحداقك، وتجعل ضلوعك له قفصًا ومهجتك عشًّا، وبينما أنت تنظر إلى طائرك وتغمر ريشه بشعاع نفسك، إذا به قد فرّ من بين يديك وطار حتّى حلّق فوق السحاب، ثمّ هبط نحو قفص آخر وما من سبيل إلى رجوعه، فماذا تفعل إذ ذاك أيّها الرجل؟ قل لي ماذا تفعل وأين تجد الصبر والسلوان، وكيف تحيي الآمال والأماني؟

لفظ رشيد بك الكلمات الأخيرة بصوت مخنوق متوجّع ووقف على قدميه مرتجفًا كقصبة في مهبّ الريح، ومدّ يديه إلى الأمام كأنّه يريد أن يقبض بأصابعه المعوجّة على شيء ليمزّقه إربًا إربًا. وقد تصاعد الدم إلى وجهه وصبغ بشرته المتجعّدة بلون قاتم، وكبرت عيناه وجمدت أجفانه وحدّق دقيقة كأنّه رأى أمامه عفريتًا قد انبثق من العدم وجاء ليُميته، ثمّ نظر إليّ وقد تغيّرت ملامحه بسرعة وتحوّل الغضب والحنق في جسده المهزول إلى التوجّع والألم وقال باكيًا: هي المرأة – المرأة التي أنقذتها من عبوديّة الفقر، وفتحت أمامها خزائني وجعلتها

محسودة بين النساء على الملابس الجميلة والحلى الثمينة، والمركبات الفخمة والخيول المطهّمة – المرأة التي أحبّها قلبي وسكب على قدميها عواطفه، ومالت إليها نفسي فغمرتها بالمواهب والعطايا – المرأة التي كنت لها صديقًا ودودًا ورفيقًا مخلصًا وزوجًا أمينًا قد خانتني وغادرتني، وذهبت إلى بيت رجل آخر لتعيش معه في ظلال الفقر، وتشاركه بأكل الخبز المعجون بالعار، وشرب الماء الممزوج بالذلّ والعيب – المرأة التي أحببتها – الطائر الجميل الذي أطعمته حبّات قلبي وسقيته نور حدقتيّ وجعلت ضلوعي له قفصًا ومهجتي عشًّا، قد فرّ من بين يديّ وطار إلى قفص آخر محبوك من قضبان العوسج ليأكل فيه الحسك والديدان، ويشرب من جوانبه السمّ والعلقم – الملاك الطاهر الذي أسكنته فردوس محبّتي وانعطافي، قد انقلب شيطانًا مخيفًا وهبط إلى الظلمة ليتعذّب بآثامه ويعذّبني بجريمته.

وسكت الرجل وقد حجب وجهه بكفّيه كأنّه يريد أن يحمي نفسه من نفسه ثمّ تنهّد قائلًا: هذا كلّ ما أقدر أن أقوله فلا تسألني أكثر من ذلك، ولا تجعل لمصيبتي صوتًا صارخًا، بل دعها مصيبة خرساء لعلّها تنمو بالسكينة فتُميتني وتُريحني. فقمت من مكاني والدموع تراود أجفاني والشفقة تسحق قلبي. ثمّ ودّعته ساكتًا لأنّني لم أجد في الكلام معنى يعزّي قلبه الجريح، ولا في الحكمة شعلة تنير نفسه المظلمة.

2

بعد أيّام التقيت لأوّل مرّة بالسيّدة وردة الهاني في بيت حقير محاط بالزهور والأشجار. وكانت قد سمعت لفظ اسمي في منزل رشيد بك نعمان. ذلك الرجل الذي داست قلبه وتركته ميتًا بين حوافر الحياة. ولمّا رأيت عينيها المنيرتين وسمعتُ نغمة صوتها الرخيمة، قلت في ذاتي:

أتقدر هذه المرأة أن تكون شرّيرة؟ وهل بإمكان هذا الوجه الشفّاف أن يستر نفسًا شنيعة وقلبًا مجرمًا؟ أهذه هي الزوجة الخائنة؟ أهذه هي المرأة التي جنيتُ عليها مرّات عديدة بتصويرها لفكري كثعبان مخيف مختبئ في جسم طائر بديع الشكل؟ ولكنّي رجعت وهمست في سرّي قائلًا: إذن أيّ شيء جعل ذلك الرجل تعسًا إذا لم يكن هذا الوجه الجميل؟ أوَلم نسمع ونرَ أن المحاسن الظاهرة كانت سببًا لمصائب خفيّة هائلة وأحزان عميقة أليمة؟ أوَليس القمر الذي يسكب في قرائح الشعراء شعاعًا هو القمر الذي يهيج سكينة البحار بالمدّ والجزر؟

جلستُ وجلسَتِ السيّدة وردة وكأنّها قد سمعتني مفكّرًا فلم ترد أن يطول الصراع بين حيرتي وظنوني، فأسندتْ رأسها الجميل بيدها البيضاء، وبصوت يحاكي نغمة النّاي رقّةً قالت: لم ألتقِ بك قبل الآن أيّها الرجل، ولكني سمعتُ صدى أفكارك وأحلامك من أفواه الناس فعرفتك شفوقًا على المرأة المظلومة، رؤوفًا بضعفها، خبيرًا بعواطفها وميولها. من أجل ذلك أريد أن أبسط لك قلبي وأفتح أمامك صدري، لترى مخبّآته وتخبر الناس إن شئت بأن وردة الهاني لم تكن قطّ امرأة خائنة شرّيرة...

كنتُ في الثامنة عشرة من عمري عندما قادني القدر إلى رشيد بك نعمان، وكان هو إذ ذاك قريبًا من الأربعين، فشغف بي ومال إليَّ ميلًا شريفًا كما يقول الناس، ثمّ جعلني زوجة له وسيّدة في منزله الفخم بين خدّامه الكثيرين، فألبسني الحرير وزيّن رأسي وعنقي ومعصميّ بالجواهر والحجارة الكريمة، وكان يعرضني كتحفة غريبة في منازل أصدقائه ومعارفه، ويبتسم ابتسامة الفوز والانتصار عندما يرى عيون أترابه ناظرة إليّ بإعجاب واستحسان، ويرفع رأسه تيهًا وافتخارًا إذ يسمع نساء أصحابه يتكلّمن عنّي بالإطراء والمودّة. ولكنّه لم يكن يسمع قول

السائل: أهذه زوجة رشيد بك أم هي صبيّة تبنّاها؟ وقول الآخر: لو تزوّج رشيد بك في زمن الشباب لكان بكره أكبر سنًّا من وردة الهاني.

جرى كلّ ذلك قبل أن تستيقظ حياتي من سبات الحداثة العميق، وقبل أن توقد الآلهة شعلة المحبّة في قلبي، وقبل أن تنبت بذور العواطف والميول في صدري. نعم جرى كلّ ذلك عندما كنت أحسب منتهَى السعادة في ثوب جميل يزيّن قامتي، ومركبة فخمة تجرّني، ورياش ثمينة تحيط بي. ولكن عندما استيقظت – عندما استيقظت وفتح النور أجفاني، وشعرت بألسنة النّار المقدّسة تلسع أضلعي وتحرقها، وبالمجاعة الروحيّة تقبض على نفسي فتوجعها – عندما استيقظت ورأيت أجنحتي تتحرّك يمينًا وشمالاً وتريد النهوض بي إلى سماء المحبّة، ثمّ ترتجف وترتخي عجزًا بجانب سلاسل الشريعة التي قيّدت جسدي قبل أن أعرف كنه تلك القيود ومفاد تلك الشريعة – عندما استيقظت وشعرت بهذه الأشياء، عرفت أن سعادة المرأة ليست بمجد الرجل وسؤدده، ولا بكرمه وحلمه، بل بالحبّ الذي يضمّ روحها إلى روحه، ويسكب عواطفها في كبده، ويجعلها ويجعله عضوًا واحدًا من جسم الحياة وكلمة واحدة على شفتَيِ الله – عندما بانت هذه الحقيقة الجارحة لبصيرتي رأيتني في منزل رشيد نعمان مثل لصّ سارق يأكل خبزه ثمّ يستتر بظلام الليل. وعرفت أن كلّ يوم أصرفه بقربه هو كذبة هائلة يخطّها الرياء بأحرف نارية ظاهرة على جبهتي أمام الأرض والسماء، لأنّني لم أقدر أن أهبه محبّة قلبي لقاء كرمه، ولا أن أمنحه انعطاف نفسي ثمنًا لإخلاصه وصلاحه. وقد حاولت وباطلًا حاولت أن أتعلّم محبّته فلم أتعلّم، لأنّ المحبّة هي قوّة تبتدع قلوبنا، وقلوبنا لا تقدر أن تبتدعها. ثمّ صلّيت وتضرّعت وباطلًا تضرّعت وصلّيت في سكينة اللّيالي أمام السماء لتولّد في أعماقي عاطفة روحيّة تقرّبني من الرجل الذي اختارته رفيقًا لي فلم

تفعل السماء. لأنّ المحبّة تهبط على أرواحنا بإيعاز من الله لا بطلب من البشر، وهكذا بقيت عامين كاملين في منزل ذلك الرجل أحسد عصافير الحقل على حرّيّتها، وبنات جنسي يحسدنني على سجني. وكالثكلى الفاقدة وحيدها كنت أندب قلبي الذي وُلد بالمعرفة واعتلّ بالشريعة. وكان يموت في كلّ يوم جوعًا وعطشًا.

ففي يوم من تلك الأيّام السوداء نظرت من وراء الظلمة فرأيت شعاعًا لطيفًا ينسكب من عينيْ فتى – يسير وحده – على سبل الحياة، ويعيش منفردًا بين أوراقه وكتبه في هذا البيت الحقير. فأغمضت عينيّ كيلا أرى ذلك الشعاع وقلت لنفسي: نصيبك يا نفس ظلمة القبر، فلا تطمعي بالنور. ثمّ أصغيت فسمعت نغمة عُلوية تهزّ جوارحي بعذوبتها وتمتلك كلّيتي بطهرها، فأغلقت أُذنيّ وقلت نصيبك يا نفس صراخ الهاوية، فلا تطمعي بالأغاني... أغمضت أجفاني كيلا أرى، وأغلقت أذنّي كيلا أسمع. لكن عينيّ ظلّتا تريان ذلك الشعاع وهما منطبقتان، وأُذنيّ تسمعان تلك النغمة وهما مغلقتان، فخفت لأوّل وهلة خوف فقير وجد جوهرة بقرب قصر الأمير فلم يجسر أن يلتقطها لخوفه، ولم يقدر أن يتركها لفاقته. وبكيت بكاء ظامئ رأى الينبوع العذب محاطًا بكواسر الغاب فارتمى على الأرض مترقّبًا جازعًا.

وسكتت السيّدة وردة دقيقة، وقد أغمضت عينيها الكبيرتين كأنّ ذلك الماضي قد انتصب أمامها فلم تجسر أن تحدّق إليّ وجهًا لوجه. ثمّ عادت فقالت: هؤلاء البشر الذين يجيئون من الأبديّة ويعودون إليها قبل أن يذوقوا طعم الحياة الحقيقيّة لا يمكنهم أن يدركوا كنه أوجاع المرأة عندما تقف نفسها بين رجل تحبّه بإرادة السماء، ورجل تلتصق به بشريعة الأرض. هي مأساة أليمة مكتوبة بدماء الأنثى ودموعها يقرأها الرجل ضاحكًا لأنّه لا يفهمها، وإن فهمها انقلب ضحكه فجورًا وقساوة وأنزل على رأس المرأة من غضبه نارًا وكبريتًا، وملأ أذنيها لعنًا وتجديفًا.

هي رواية موجعة تمثّلها الليالي السوداء بين ضلوع كلّ امرأة تجد جسدها مقيّدًا بمضجع رجل عرفته زوجًا قبل أن تعرف ما هي الزيجة. وترى روحها مرفرفة حول آخر تحبّه بكلّ ما في الروح من المحبّة وبكلّ ما في المحبّة من الطهر والجمال. هو نزاع مخيف قد ابتدأ منذ ظهور الضعف في المرأة والقوّة في الرجل، ولا ينتهي حتّى تنقضي أيّام عبوديّة الضعف للقوّة. هي حرب هائلة بين شرائع الناس الفاسدة وعواطف القلب المقدسّة قد طُرحتُ بالأمس في ساحتها وكدتُ أموت جزعًا وأذوب دموعًا، لكنّني وقفت ونزعت عني جبانة بنات جنسي وحللتُ جناحيّ من رُبط الضعف والاستسلام وطرت في فضاء الحبّ والحريّة. وأنا سعيدة الآن بقرب الرجل الذي خرج وخرجتُ شعلة واحدة من يد الله قبيل ابتداء الدهور، ولا توجد قوّة في هذا العالم تستطيع أن تسلبني سعادتي لأنّها منبثقة من عناق روحين يضمهما التفاهم ويظلّلهما الحبّ.

ونظرت إليّ السيّدة وردة نظرة معنوية كأنّها تريد أن تخترق صدري بعينيها لترى تأثير كلامها في عواطفي وتسمع صدى صوتها من بين ضلوعي. لكنّني بقيت صامتًا كيلا أوقفها عن الكلام. فقالت وقد قارن صوتها بين مرارة الذكرى وحلاوة الخلاص والحريّة.

يقول لك الناس إنّ وردة الهاني امرأة خائنة جحود قد اتبعت شهوة قلبها وهجرت الرجل الذي رفعها إليه وجعلها سيّدة في منزله. ويقولون لك هي زانية عاهرة قد أتلفت بمقابضها القذرة إكليل الزواج المقدّس الذي ضفرته الديانة، واتخذت عوضًا عنه إكليلًا وسخًا محبوكًا من أشواك الجحيم، وألقت عن جسدها ثوب الفضيلة وارتدت لباس الإثم والعار. ويقولون لك أكثر من ذلك لأنّ أشباح جدودهم ما زالت حيّة في أجسادهم. فهم مثل كهوف الأودية الخالية يرجّعون صدى أصوات ولا يفهمون معناها. هم لا يعرفون شريعة الله في مخلوقاته، ولا يفقهون

مفاد الدين الحقيقي، ولا يعلمون متى يكون الإنسان خاطئًا أو بارًّا، بل ينظرون بأعينهم الضئيلة إلى ظواهر الأعمال ولا يرون أسرارها، فيقضون بالجهل ويدينون بالعماوة ويستوي أمامهم المجرم والبريء والصالح والشرّير.

فويل لمَن يقضي وويل لمَن يدين... أنا كنت زانية وخائنة في منزل رشيد نعمان لأنّه جعلني رفيقة مضجعه بحكم العادات والتقاليد قبل أن تصيّرني السماء قرينة له بشريعة الروح والعواطف. وكنت دنسة ودنيئة أمام نفسي وأمام الله عندما كنت أُشبع جوفي من خيراته ليشبع ميوله من جسدي. أمّا الآن فصرت طاهرة نقيّة لأنّ ناموس الحبّ قد حرّرني. وصرت شريفة وأمينة لأنّني أبطلت بيع جسدي بالخبز وأيّامي بالملابس. نعم كنت زانية ومجرمة عندما كان الناس يحسبونني زوجة فاضلة، واليوم صرت طاهرة وشريفة وهم يحسبونني عاهرة دنسة لأنّهم يحكمون على النفوس من مآتي الأجساد، ويقيسون الروح بمقاييس المادة.

والتفتت السيّدة وردة نحو النافذة وأشارت بيمينها نحو المدينة، ورفعت صوتها عن ذي قبل، وقالت بلهجة الاحتقار والاشمئزاز كأنّها رأت بين الأزقّة وعلى السطوح وفي الأروقة أشباح المفاسد وأخيلة الانحطاط: انظر إلى هذه المنازل الجميلة والقصور الفخمة العالية حيث يسكن الأغنياء والأقوياء من البشر، فبين جدرانها المكسوّة بالحرير المنسوج تقطن الخيانة بجانب الرياء، وتحت سقوفها المطليّة بالذهب المذوّب يقيم الكذب بقرب التصنّع. انظر وتأمّل جيّدًا بهذه البنايات التي تمثّل لك المجد والسؤدد والسعادة، فهي ليست سوى مغاور يختبئ فيها الذلّ والشقاء والتعاسة. هي قبور مكلّسة يتوارى فيها مكر المرأة الضعيفة وراء كحل العيون واحمرار الشفاه، وتنحجب في زواياها أنانيّة الرجل وحيوانيّته بلمعان الفضّة والذهب. هي قصور تتشامخ جدرانها تيهًا

وافتخارًا نحو العلاء، ولو كانت تشعر بأنفاس المكاره والغش السائلة عليها لتشقّقت وتبعثرت وهبطت إلى الحضيض. هي منازل ينظر إليها القروي الفقير بعينين دامعتين، ولو علم أنّه لا يوجد في قلوب سكّانها ذرّة من تلك المحبّة العذبة التي تملأ صدر رفيقته لابتسم مستهزئًا وعاد إلى حقله مشفقًا.

وأمسكت السيدة وردة بيدي وقادتني إلى جانب النافذة التي كانت تنظر منها نحو تلك المنازل والقصور وقالت: تعالَ فأُريك خفايا هؤلاء الناس الذين لم أرضَ أن أكون مثلهم. انظر إلى ذلك القصر ذي الأعمدة الرخاميّة والجوانح النحاسيّة والنوافذ البلّوريّة. ففيه يسكن رجل غنيّ ورث ماله عن والده البخيل واكتسب أخلاقه من جوانب الأزقّة المفعمة بالمفاسد. وقد تزوّج منذ عامين بامرأة لم يعرف عنها شيئًا سوى أن لوالدها شرفًا موروثًا ومنزلة رفيعة بين نبلاء البلاد. ولم ينقضِ شهر العسل حتّى ملّها متضجّرًا وعاد إلى مسامرة بنات الهوى، وتركها في هذا القصر مثلما يترك السكّير جرّة خمر فارغة، فبكت وتوجّعت لأوّل وهلة، ثمّ تصبّرت وسلت سلوّ مَن عرف خطأه، وعلمت أنّ دموعها هي أثمن من أن تُهرَق على خسارة رجل مثل زوجها. وهي الآن مشغولة عن كلّ شيء بعشق فتى جميل الوجه حلو الحديث، تسكب في راحتيه عواطف قلبها وتملأ جيوبه من ذهب بعلها الذي يغضّ الطرف عنها لأنّها تغضّ الطرف عنه... ثمّ انظر إلى ذلك البيت المحاط بالحديقة الغنّاء، فهو مسكن رجل ينتمي إلى أسرة شريفة حكمت البلاد مدّة طويلة، وقد انخفض مقامها اليوم بتوزيع ثروتها وانصراف أبنائها إلى التواني والكسل، وقد اقترن هذا الرجل منذ أعوام بفتاة قبيحة الصورة لكنّها غنيّة جدًّا. وبعد استيلائه على ثروتها الطائلة نسي وجودها واتخذ له خليلة حسناء وغادرها تنهش أصابعها ندمًا وتذوب شوقًا وحنينًا. وهي الآن تصرف

الساعات بتجعيد شعرها، وتكحيل عينيها، وتلوين وجهها بالمساحيق والعقاقير، وتزيين قامتها بالأطالس والحرير، لعلّها تحظى بنظرة من أحد زائريها، لكنّها لا تحصل إلّا على نظرات شبحها في المرآة... ثمّ انظر إلى ذلك المنزل الكبير المزيّن بالنقوش والتماثيل فهو منزل امرأة جميلة الوجه، خبيثة النفس، قد مات زوجها الأوّل فاستأثرت بأمواله وأملاكه، ثمّ اختارت من بين الرجال رجلًا ضعيف الجسم والإرادة واتخذته بعلًا لتحتمي باسمه من ألسنة الناس وتدافع بوجوده عن منكراتها. وهي الآن بين مريديها كالنحلة تمتصّ من الزهور ما كان حلوًا ولذيذًا. وانظر إلى تلك الدار ذات الأروقة الوسيعة والقناطر البديعة، فهي مسكن رجل مادّي الميول، كثير المشاغل والمطامع، وله زوجة كلّ ما في جسدها جميل وحسن، وكلّ ما في روحها حلو ولطيف، وقد تمازجت في شخصها عناصر النفس بدقائق الجسد مثلما تتآلف في الشعر نغمة الوزن برقّة المعاني فهي قد كُوّنت لتعيش بالحبّ وتموت به. ولكنّها كالكثيرات من بنات جنسها قد جنى عليها والدها قبل بلوغها الثامنة عشرة من عمرها ووضع عنقها تحت نير الزيجة الفاسدة، وهي الآن سقيمة الجسم تذوب كالشمع بحرارة عواطفها المقيّدة، وتضمحلّ على مهل كالرائحة الزكيّة أمام العاصفة، وتفنى حبًّا بشيء جميل تشعر به ولا تراه، وتصبو حنينًا إلى معانقة الموت لتتخلص من حياتها الجامدة وتتحرّر من عبوديّة رجل يصرف الأيّام بجمع الدنانير والليالي بعدّها ويصرّ أسنانه مجدّفًا على الساعة التي تزوّج فيها بامرأة عاقر لا تلد له ابنًا ليُحيي اسمه ويرث ماله وخيراته... ثمّ انظر إلى ذلك البيت المنفرد بين البساتين، فهو مسكن شاعر خيالي سامي الأفكار، روحي المذهب، له زوجة غليظة العقل، خشنة الطباع، تسخر بأشعاره لأنّها لا تفهمها، وتستهزئ بأعماله لأنّها غريبة، وهو الآن مشغول عنها بمحبّة امرأة أخرى متزوّجة تتوقّد ذكاء

وتسيل رقّة وتولّد في قلبه النور بانعطافها وتوحي إليه الأقوال الخالدة بابتساماتها ونظراتها.

وسكتت السيّدة وردة هنيهة، وقد جلست على مقعد بجانب النافذة كأنّ نفسها قد تعبت من التجوّل في مخادع تلك المنازل الخفيّة، ثمّ عادت تقول بهدوء: هذه هي القصور التي لم أرضَ أن أكون من سكّانها. هذه هي القبور التي لم أُرد أن أُدفن حيّة طَيّ لحودها. هؤلاء هم الناس الذين تخلّصت من عوائدهم وخلعت عنّي نير جامعتهم. هؤلاء هم المتزوّجون الذين يقترنون بالأجساد ويتنافرون بالروح، ولا شفيع بهم أمام الله سوى جهلهم ناموس الله. أنا لا أدينهم الآن بل أُشفق عليهم، ولا أكرههم بل أكره استسلامهم عفوًا الى الرياء والكذب والخَباثة. ولم أكشف أمامك خفايا قلوبهم وأسرار معيشتهم لأنّني أُحبّ الاغتياب والنميمة، بل فعلت ذلك لأريَك حقيقة قوم كنت بالأمس مثلهم فنجوت، وأُبيّن لك معيشة بشَر يقولون عنّي كلّ كلمة شرّيرة، لأنني خسرت صداقتهم لأربح نفسي، وخرجت عن سبل خداعهم المظلمة وحوّلت عينيّ نحو النور حيث الاخلاص والحقّ والعدل. وقد نفوني الآن من جامعتهم وأنا راضية، لأن البشر لا ينفون إلّا مَن تمرّدت روحه الكبيرة على الظلم والجور. ومَن لا يؤثر النفي على الاستعباد لا يكون حرًّا بما في الحرّيّة من الحقّ والواجب. أنا كنت بالأمس مثل مائدة شهيّة، وكان رشيد بك يقترب منّي عندما يشعر بحاجة إلى الطعام، أمّا نفسانا فتظلّان بعيدتين كخادمين ذليلين. ولمّا رأيتُ المعرفة كرهت الاستخدام، وقد حاولت الخضوع لما يدعونه نصيبًا فلم أقدر، لأنّ روحي أبَتْ أن أصرف العمر كلّه راكعة أمام صنم مخيف أقامته الأجيال المظلمة ودَعَتْهُ الشريعة. فكسرْتُ قيودي لكنّني لم أُلقِها عنّي حتّى سمعت الحبّ مناديًا ورأيت النفس متأهبّة للمسير.

فخرجت من منزل رشيد نعمان خروج الأسير من سجنه تاركة خلفي الحلى والحلل والخدم والمركبات، وجئت بيت حبيبي الخالي من الرياش المملوء من الروح وأنا عالمة بأنّني لم أفعل غير الحقّ والواجب، لأن مشيئة السماء ليست بأن أقطع جناحي بيدي وأرتمي على الرماد حاجبة رأسي بساعديّ، ساكبة حشاشتي من أجفاني قائلة هذا نصيبي من الحياة. إنّ السماء لا تريد أن أصرف العمر صارخة متوجّعة في الليالي قائلة متى يجيء الفجر، وعندما يجيء الفجر أقول متى ينقضي هذا النهار. إنّ السماء لا تريد أن يكون الإنسان تعسًا لأنّها وضعت في أعماقه الميل إلى السعادة، لأنّه بسعادة الإنسان يتمجّد الله...

هذه هي حكايتي أيّها الرجل، وهذا احتجاجي أمام السماء والأرض، وأنا أردّده وأترنّم به والناس يُغلقون آذانهم ولا يسمعون لأنّهم يخشون ثورة أرواحهم، ويخافون أن تتزعزع أسس جامعتهم وتهبط على رؤوسهم.

هذه هي العقبة التي سرْتُ عليها حتّى بلغْتُ قمّة سعادتي، ولو جاء الموت واختطفني الآن لوقفَتْ روحي أمام العرش الأعلى بلا خوف ولا وجل، بل بفرح وأمل، وانحلّت لفائف ضميري أمام الديّان الأعظم وبانت نقيّة كالثلج، لأنّني لم أفعل غير مشيئة النفس التي فصلها الله عن ذاته، ولم أتبع غير نداء القلب وصدى أغاني الملائكة.

هذه هي روايتي التي يحسبها سكّان بيروت لعنة في فم الحياة وعلّة في جسم الهيئة الاجتماعيّة. ولكنّهم سوف يندمون عندما تنبّه الأيّام محبّة المحبّة في قلوبهم المظلمة، مثلما تستنبت الشمس الزهور من بطن الأرض المملوء من بقايا الأموات فيقف إذ ذاك عابر الطريق بجانب قبري ويلقي عليه السلام قائلًا: ههنا رقدت وردة الهاني التي حرّرت عواطفها من عبوديّة الشرائع البشريّة الفاسدة لتحيا بناموس

المحبّة الشريفة. وحوّلت وجهها نحو الشمس كيلا ترى ظلّ جسدها بين الجماجم والأشواك.

ولم تنتهِ السيّدة وردة من كلامها حتّى فُتح الباب ودخل علينا فتى نحيل القوام، جميل الوجه، تنسكب من عينيه أشعّة سحريّة وتسيل على شفتيه ابتسامة لطيفة. فوقفت السيّدة وردة وأمسكت بذراعه بانعطاف كلّي وقدّمته إليّ بعد أن لفظت اسمي مذيّلًا بكلمة لطيفة واسمه مشفوعًا بنظرة معنويّة، فعرفت أنّه ذلك الشاب الذي أنكرت العالم وخالفت الشرائع والتقاليد من أجله.

ثمّ جلسنا جميعًا صامتين لانشغال كلّ منّا بمعرفة رأي الآخر فيه. حتّى إذا مرّت دقيقة مملوءة من السكينة التي تستميل النفوس إلى الملإ الأعلى، نظرت إليهما وقد جلسا أحدهما بجانب الآخر فرأيت ما لم أرَه قطّ، وعرفت بلحظة معنى حكاية السيّدة وردة وأدركت سرّ احتجاجها على الهيئة الاجتماعيّة التي تضطهد الأفراد المتمرّدين على شرائعها قبل أن تستفحص دواعي تمرّدهم. رأيت روحًا واحدة سماويّة متمثّلة أمامي بجسدين يحملهما الشباب ويسربلهما الاتحاد، وقد وقف بينهما إله الحبّ باسطًا جناحيه ليحميَهما من لوم الناس وتعنيفهم. وجدْتُ التفاهم الكلّي منبعثًا من وجهين شفّافين ينيرهما الإخلاص ويحيط بهما الطهر. وجدْتُ لأوّل مرّة في حياتي طيف السعادة منتصبًا بين رجل وامرأة يرذلهما الدين وتنبذهما الشريعة.

وبعد هنيهة وقفت وودّعتهما مظهرًا بغير الكلام تأثيرات نفسي، وخرجت من ذلك المنزل الحقير الذي جعلته العواطف هيكلًا للحبّ والوفاق، وسرت بين تلك القصور والمنازل التي أظهرت لي خفاياها السيّدة وردة مفكّرًا بحديثها وبكلّ ما ينطوي تحته من المبادئ والنتائج. ولكنّني لم أبلغ أطراف ذلك الحيّ حتّى تذكّرت رشيد بك نعمان، فتمثّلَتْ

لبصيرتي لوعة قنوطه وشقائه فقلت في ذاتي: هو تعس مظلوم ولكن هل تسمعه السماء إذا وقف أمامها متظلّمًا شاكيًا وردة الهاني؟ هل جنَتْ عليه تلك المرأة عندما تركته واتّبعت حرّيّة نفسها، أم هو الذي جنى عليها عندما أخضع جسدها بالزواج قبل أن يستميل روحها بالمحبّة؟ فمَن هو الظالم من الاثنين ومَن هو المظلوم؟ ومَن هو المجرم ومَن هو البريء يا ترى؟ ثمّ عدت قائلًا لذاتي مستفتيًا أخبار الأيّام مستقصيًا حوادثها: كثيرًا ما أباح الغرور للنساء أن يتركن رجالهنّ الفقراء ويتعلّقن بالرجال الأغنياء، لأنّ شغف المرأة ببهرجة الملابس ونعومة العيش يُعمي بصيرتها ويقودها إلى العار والانحطاط. فهل كانت وردة الهاني مغرورة وطامعة عندما خرجت من قصر رجل غنيّ مفعم بالحلى والحلل والرياش والخدم وذهبت إلى كوخ رجل فقير لا يوجد فيه سوى صفّ من الكتب القديمة؟ وكثيرًا ما يُميت الجهل شرف المرأة ويُحيي شهواتها فتترك بعلها مللًا وتضجّرًا وتطلب ملذّات جسدها بقرب رجل آخر أكثر منها انحطاطًا وأقلّ شرفًا. فهل كانت وردة الهاني جاهلة راغبة بالملذّات الجسديّة عندما أعلنت استقلالها على رؤوس الأشهاد وانضمّت إلى فتى روحيّ الميول، وقد كان بإمكانها أن تشبع حواسّها سرًّا في منزل زوجها من هيام الفتيان الذين يستميتون ليكونوا عبيد جمالها وشهداء غرامها؟ وردة الهاني كانت امرأة تعسة فطلبت السعادة فوجدتها وعانقتها، وهذه هي الحقيقة التي تحتقرها الجامعة الإنسانيّة وتنفيها الشريعة.

همستُ تلك الكلمات في مسامع الأثير ثمّ قلت مستدركًا: ولكن أيسوغ للمرأة أن تشتري سعادتها بتعاسة بعلها؟ فأجابتني نفسي قائلة: وهل يجوز للرجل أن يستعبد عواطف زوجته ليبقى سعيدًا؟

وظللت سائرًا وصوت السيّدة وردة يتموّج في مسامعي حتّى بلغت أطراف المدينة والشمس قد مالت إلى الغروب وابتدأت الحقول

والبساتين تتّشح بنقاب السكينة والراحة، والطيور تنشد صلاة المساء. فوقفت متأمّلًا ثمّ تنهّدت قائلًا: أمام عرش الحرّيّة تفرح هذه الأشجار بمداعبة النسيم وأمام هيبتها تبتهج بشعاع الشمس والقمر. على مسامع الحرّيّة تتناجى هذه العصافير وحول أذيالها ترفرف بقرب السواقي. في فضاء الحرّيّة تسكب هذه الزهور عطر أنفاسها وأمام عينيها تبتسم لمجيء الصباح. كلّ ما في الأرض يحيا بناموس طبيعته ومن طبيعة ناموسه يستمدّ مجد الحرّيّة وأفراحها. أمّا البشر فمحرومون من هذه النعمة لأنّهم وضعوا لأرواحهم الإلهيّة شريعة عالميّة محدودة، وسنّوا لأجسادهم ونفوسهم قانونًا واحدًا قاسيًا، وأقاموا لميولهم وعواطفهم سجنًا ضيّقًا مخيفًا، وحفروا لقلوبهم وعقولهم قبرًا عميقًا مظلمًا. فإذا ما قام واحد من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا هذا متمرّد شرير خليق بالنفي، وساقط دنس يستحقّ الموت... ولكن هل يظلّ الإنسان عبدًا لشرائعه الفاسدة إلى انقضاء الدهر أم تحرّره الأيّام ليحيا بالروح وللروح؟ أيبقى الإنسان محدّقًا إلى التراب أم يحوّل عينيه نحو الشمس كيلا يرى ظلّ جسده بين الأشواك والجماجم؟

صراخ القبور

1

تربّع الأمير على منصّة القضاء فجلس عقلاء بلاده عن يمينه وشماله وعلى وجوههم المتجعّدة تنعكس أوجه الكتب والأسفار. وانتصب الجند حوله ممتشقين السيوف رافعين الرماح. ووقف الناس أمامه بين متفرّج أتى به حبّ الاستطلاع، ومترقّب ينتظر الحكم في جريمة قريبه، وجميعهم قد حنوا رقابهم وخشعوا بأبصارهم وأمسكوا أنفاسهم كأنّ في عيني الأمير قوّة توعز الخوف وتوحي الرعب إلى نفوسهم وقلوبهم. حتّى إذا ما اكتمل المجلس وأزفّت ساعة الدينونة، رفع الأمير يده وصرخ قائلًا: أحضروا المجرمين أمامي واحدًا واحدًا وأخبروني بذنوبهم ومعاصيهم.

ففُتح باب السجن وبانت جدرانه المظلمة مثلما تظهر حنجرة الوحش الكاسر عندما يفتح فكّيه متثائبًا. وتصاعدت من جوانبه قلقلة القيود والسلاسل متآلفة مع أنين الحبساء ونحيبهم. فحوّل الحاضرون أعينهم وتطاولت أعناقهم كأنّهم يريدون مسابقة الشريعة بنواظرهم ليروا فريسة الموت خارجة من أعماق ذلك القبر.

وبعد هنيهة خرج من السجن جنديان يقودان فتى مكتوف الساعدين يتكلّم وجهه العابس وملامحه المنقبضة عن عزّة في النفس وقوّة في القلب. وأوقفاه وسط المحكمة وتراجعا قليلًا إلى الوراء. فحدّق إليه الأمير دقيقة ثمّ سأل قائلًا: ما جريمة هذا الرجل المنتصب أمامنا برأس مرفوع كأنّه في موقف الفخر لا في قبضة الدينونة؟

فأجاب رجل من أعوانه قائلًا:

هو قاتل شرّير قد اعترض بالأمس قائدًا من قوّاد الأمير وجندله صريعًا إذ كان ذاهبًا بمهمّة بين القرى، وقد قُبض عليه والسيف المغمّد بدماء القتيل ما زال مشهورًا في يده.

فتحرّك الأمير غضبًا فوق عرشه وتطايرت سهام الحنق من عينيه وصرخ بأعلى صوته قائلًا: ارجعوه إلى الظلمة وأثقلوا جسده بالقيود، وعندما يجيء فجر الغد اضربوا عنقه بحدّ سيفه ثمّ اطرحوا جثّته في البرّيّة لتجردها العقبان والضواري وتحمل الرياح رائحة نتانتها إلى أنوف أهله ومحبّيه.

أرجعوا الشاب إلى السجن والناس يتبعونه بنظرات الأسف والتنهيدات العميقة لأنّه كان فتى في ربيع العمر حسن المظاهر قويّ البنية.

وخرج الجنديان ثانية من السجن يقودان صبيّة جميلة الوجه ضعيفة الجسد قد وشّح معانيها اصفرار اليأس والقنوط، وغمرت عينيها العبرات وألْوَت عنقها الندامة والحسرة.

فنظر إليها الأمير قائلًا: وما فعلت هذه المرأة المهزولة الواقفة أمامنا وقوف الظلّ بجانب الحقيقة؟

فأجابه أحد الجنود قائلًا: هي امرأة عاهرة قد فاجأها بعلها ليلًا فوجدها بين ذراعَيْ خليلها فأسلمها للشرطة بعد أن فرّ أليفها هاربًا.

فحدّق الأمير إليها وهي مطرقة خجلًا ثمّ قال بشدّة وقساوة: ارجعوها إلى الظلمة ومدّدوها على فراش من الشوك لعلّها تذكر المضجع الذي دنّسته بعيبها، واسقوها الخلّ ممزوجًا بنقيع العلقم عساها تذكر طعم القبل المحرّمة، وعند مجيء الفجر جرّوها عارية إلى خارج المدينة وارجموها بالحجارة واتركوا جسدها هناك لكي تتنعّم بلحمانه الذئاب وتنخر عظامه الديدان والحشرات.

توارت الصبيّة بظلمة السجن والحاضرون ينظرون إليها بين معجب بعدل الأمير، ومتأسّف على جمال وجهها الكئيب ورقّة نظراتها المحزنة.

وظهر الجنديان ثالثة يقودان كهلًا ضعيفًا يسحب ركبتيه المرتعشتين كأنّهما خرقتان من أطراف ثوبه البالي، ويلتفت جزعًا إلى كلّ ناحية، ومن نظراته الموجعة تنبعث أخيلة البؤس والفقر والتعاسة.

فالتفت الأمير نحوه وقال بلهجة الاشمئزاز: ما ذنب هذا القذر الواقف كالميت بين الأحياء؟

فأجابه أحد الجنود قائلًا: هو لصّ سارق قد دخل الدير ليلًا فقبض عليه الرهبان الأتقياء ووجدوا من ذاك طَيّ أثوابه آنية مذابحهم المقدّسة.

فنظر إليه الأمير نظرة النسر الجائع إلى عصفور مكسور الجناحين وصرخ قائلًا: أنزلوه إلى أعماق الظلمة وكبّلوه بالحديد، وعند مجيء الفجر جرّوه إلى شجرة عالية واشنقوه بحبل من الكتّان واتركوا جسده معلّقًا بين الأرض والسماء، فتنثر العناصر أصابعه الأثيمة نثرًا وتذري الرياح أعضاءه نتفًا.

أرجعوا اللص إلى السجن والناس يهمسون بعضهم في آذان بعض قائلين: كيف تجرأ هذا الضعيف الكافر على اختلاس آنية الدير المقدّسة؟

ونزل الأمير عن كرسيّ القضاء فاتّبعه العقلاء والمتشرّعون وسار الجند خلفه وأمامه وتبدّد شمل المتفرّجين، وخلا ذلك المكان إلّا من عويل المسجونين وزفرات القانطين المتمايلة كالأخيلة على الجدران.

جرى كلّ ذلك وأنا واقف هناك وقوف المرآة أمام الأشباح السائرة، مفكّرًا بالشرائع التي وضعها البشر للبشر، متأمّلًا بما يحسبه النّاس عدلًا، متعمّقًا بأسرار الحياة، باحثًا عن معنى الكيان. حتّى إذا ما تضعضعت أفكاري مثلما تتوارى خطوط الشفق بالضباب خرجت من ذاك المكان قائلًا لذاتي: الأعشاب تمتصّ عناصر التراب. والخروف يلتهم الأعشاب. والذئب يفترس الخروف. ووحيد القرن يقتل الذئب. والأسد يصيد وحيد القرن. والموت يفني الأسد. فهل توجد قوّة تتغلّب على الموت فتجعل سلسلة هذه المظالم عدلًا سرمديًّا!... أتوجد قوّة تحوّل جميع هذه الأسباب الكريهة إلى نتائج جميلة؟ أتوجد قوّة تقبض بكفّها على جميع عناصر الحياة وتضمّها إلى ذاتها مبتسمة مثلما يُرجع البحر جميع السواقي إلى أعماقه مترنّمًا؟ أتوجد قوّة توقف القاتل والمقتول، والزانية وخليلها، والسارق والمسروق منه أمام محكمة أسمى وأعلى من محكمة الأمير؟

2

وفي اليوم الثاني خرجْتُ من المدينة وسرْتُ بين الحقول حيث تبيح السكينة للنفس ما تسرّه النفس، ويميت طهر الفضاء جراثيم اليأس والقنوط التي تولدها الشوارع الضيّقة والمنازل المظلمة. ولما بلغت طرف الوادي التفتّ فإذا بأجواق كثيرة من العقبان والغربان والنسور تتطاير تارة وتهبط طورًا، وقد ملأت الفضاء بنعابها وصفيرها وحفيف أجنحتها. فتقدّمت قليلًا مستطلعًا فرأيت أمامي جثّة رجل معلّقة على

شجرة عالية، وجثّة امرأة عارية مطروحة بين الحجارة التي رُجمت بها، وجثّة فتى غارقة بالدماء المجبولة بالتراب وقد فُصل رأسها عنها.

وقفْتُ وهول المشهد يغشي بصيرتي بنقاب كثيف مظلم، ونظرْتُ فلم أرَ سوى خيال الموت المريع منتصبًا بين الجثث الملطّخة بالدماء. وأصغيْتُ فلم أسمع غير عويل العدم ممزوجًا بنعاب الغربان الحائمة حول فريسة شرائع البشر.

ثلاثة من أبناء آدم كانوا بالأمس على أحضان الحياة فأصبحوا اليوم في قبضة الموت.

ثلاثة أساءوا بعُرف البشر إلى الناموس فمدّت الشريعة العمياء يدها وسحقتهم بقساوة.

ثلاثة جعلهم الجهل مجرمين لأنّهم ضعفاء فجعلتهم الشريعة أمواتًا لأنّها قويّة.

رجل فَتَكَ برجل آخر فقال الناس هذا قاتل ظالم، وعندما فَتَكَ به الأمير قال الناس: هذا أمير عادل.

ورجل حاول أن يسلب الدير فقال الناس هذا لصّ شرّير، وعندما سلبه الأمير حياته قالوا: هذا أمير فاضل.

وامرأة خانت بعلها فقال الناس هي زانية عاهرة. ولكن عندما سيّرها الأمير عارية ورجمها على رؤوس الأشهاد قالوا: هذا أمير شريف.

سفك الدماء محرّم، ولكن مَن حلّله للأمير؟

سلب الأموال جريمة، ولكن مَن جعل سلب الأرواح فضيلة؟

خيانة النساء قبيحة، ولكن مَن صيّر رجم الأجساد جميلًا؟

أنقابل الشرّ بشرّ أعظم ونقول هذه هي الشريعة؟ ونقاتل الفساد بفساد أعمّ ونهتف هذا هو الناموس؟ ونغالب الجريمة بجريمة أكبر ونصرخ هذا هو العدل؟

أما صرع الأمير عدوًّا في غابر حياته؟ أما سلب مالًا أو عقارًا من أحد تابعيه الضعفاء؟ أما راود امرأة جميلة عن نفسها؟ هل كان معصومًا عن هذه المحرّمات فجاز له إعدام القاتل وشنق السارق ورجم الزانية؟

ومَن هم الذين رفعوا هذا اللصّ على الشجرة: أملائكة نزلوا من السماء أم رجال يغتصبون ويسرقون كلّ ما تصل إليه أيديهم؟

ومَن قطع رأس هذا القاتل؟ أأنبياء هبطوا من العلاء أم جنود يقتلون ويسفكون الدماء أينما حلّوا؟

ومَن رجم هذه الزانية؟ أنسّاك طاهرون أتوا من صوامعهم أم بشر يأتون المنكرات ويفعلون الرذائل مختبئين بستائر الظلام؟

الشريعة – وما هي الشريعة؟ مَن رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأيّ بشريّ رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أيّ جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين احرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطأة بأقدام من حديد؟

وظلّت هذه الأفكار تتزاحم على فكرتي وتتساهم عواطفي حتّى سمعت وطء أقدام قريبة مني، فنظرت وإذا بصبيّة قد ظهرت من بين الأشجار واقتربت من الجثث الثلاث متحذّرة متلفتّة بخوف إلى كلّ ناحية. حتّى إذا ما رأت رأس الفتى المقطوع صرخت جزعًا وركعت بجانبه وطوّقته بزنديها المرتجفين، وأخذت تستفرغ الدموع من عينيها، وتلامس شعره الجعدي بأطراف أصابعها وتنتحب بصوت عميق جارح خارج من صميم الكبد. ولما نهكها البكاء وغلبتها الحسرات أسرعت تحفر التراب بيديها. حتّى إذا ما حفرت قبرًا واسعًا جرّت إليه الفتى المصروع ومدّدته على مهل ووضعت رأسه المضرّج بالدماء بين كتفيه، وبعد أن غمرته بالتراب غرست نصل السيف الذي قطع عنقه على قبره. وإذ همّت بالانصراف، تقدّمْتُ نحوها فأجفلَتْ وارتعشَتْ خوفًا ثمّ

أطرقَتْ والدمع السخين يتساقط من مقلتيها كالمطر وقالت متنهّدة: اشكِني إلى الأمير إن شئت فخير لي أن أموت وألحق بمن خلّصني من قبضة العار من أن أترك جسده طعامًا لقشاعم الطير والوحوش الضارية. فأجبتها قائلًا: لا تخافي منيّ أيّتها المسكينة، فأنا قد ندبْتُ حظّ فتاكِ قبلك، بل خبّريني كيف أنقذك من قبضة العار.

فقالت والغصص تقطع صوتها: جاء قائد الأمير إلى حقولنا ليتقاضى الضرائب ويجمع الجزية. ولما رآني نظر إليّ نظرة استحسان مخيفة. ثمّ فرض ضريبة باهظة على حقل والدي الفقير يعجز الغنيّ عن دفعها، فقبض عليّ ليقتادني قهرًا إلى صرح الأمير بدلًا من الذهب، فاسترحمته بدموعي فلم يحفل، واستحلفته بشيخوخة والدي فلم يرحم، فصرخت مستغيثة برجال القرية فجاء هذا الشاب وهو خطيبي وخلّصني من بين يديه القاسيتين، فاستشاط غضبًا وهمّ أن يفتك به، فسبقه الشاب وامتشق سيفًا قديمًا معلّقًا على الحائط وصرعه به مدافعًا عن حياته وعن عرضي، ولكبر نفسه لم يفرّ هاربًا كالقتلة المجرمين، بل لبث واقفًا بقرب جثّة القائد الظلوم حتّى جاء الجند وساقوه إلى السجن مكبّلًا بالقيود.

قالت هذا، ونظرت إليّ نظرة تُذيب الفؤاد وتثير الشجون وولّت مسرعة ورنّات صوتها الموجعة تولد بين تموّجات الأثير اهتزازًا وارتعاشًا.

وبعد هنيهة نظرتُ فرأيتُ فتى في ربيع العمر يتقدّم ساترًا وجهه بأثوابه، حتّى إذا ما بلغ جثّة المرأة الزانية وقف بقربها وخلع عباءته وسَتَرَ بها أعضاءها العارية، وأخذ يحفر الأرض بخنجر كان معه ثمّ حملها بهدوء وواراها التراب ساكبًا مع كلّ حفنة قطرة من أجفانه. ولما انتهَى من عمله جنى بعض الزهور النابتة هناك ووضعها على القبر منحني الرأس منخفض الطرف. وإذ همّ بالذهاب أوقفته قائلًا: ما نسبة هذه المرأة

الساقطة إليك حتّى سعيت مخالفًا إرادة الأمير ومخاطرًا بحياتك لكي تحمي جسدها المرضوض من طيور السماء الجوارح؟

فنظر إليّ وأجفانه المقرّحة من البكاء والسهر تتكلّم عن شدّة حزنه ولوعته، وبصوت مخنوق ترافقه التنهّدات الأليمة قال: أنا هو ذلك الرجل التعس الذي رُجمت من أجله – أحببتُها وأحبّتْني مذ كنّا صغيرين نلعب بين المنازل. نموْنا ونما الحبّ معنا حتّى صار سيّدًا قويًّا نخدمه بعواطف قلبيْنا فيستميلنا إليه ونهابه بسرائر روحيْنا فيضمّنا إلى صدره.

ففي يوم وقد كنت غائبًا عن المدينة زوّجها والدها كرهًا من رجل تكرهه. ولما رجعت وسمعت بالخبر تحوّلت أيّامي إلى ليل طويل حالك، وصارت حياتي نزاعًا مرًّا متواصلًا. وبقيت أصارع عواطفي وأغالب ميول نفسي حتّى تغلّبت عليّ وقادتني مثلما يقود البصير ضريرًا أعمى. فذهبت إلى حبيبتي سرًّا، وأقصى مرامي أن أرى نور عينيها وأسمع نغمة صوتها، فوجدتها منفردة تندب حظّها وترثي أيّامها. فجلست والسكينة حديثنا والعفاف ثالثنا. ولم تمرّ ساعة حتّى دخل زوجها فجأة. ولما رآني أوعزت إليه نياته القذرة فقبض على عنقها الأملس بكفيّه القاسيتين وصرخ بأعلى صوته: تعالوا وانظروا الزانية وعشيقها. فهرول الجيران ثمّ جاء الجند مستطلعين الخبر فأسلمها إلى أيديهم الخشنة فاقتادوها محلولة الشعر ممزّقة الثياب. أمّا أنا فلم يمسّني أحد بضرر لأنّ الشريعة العمياء والتقاليد الفاسدة تعاقب المرأة إذا سقطت، أمّا الرجل فتسامحه.

وعاد الشابّ نحو المدينة ساترًا وجهه بأثوابه ولبثت أنا ناظرًا متأمّلًا متنهّدًا، وجثّة اللصّ المشنوق ترتجف قليلًا كلّما هزّ الهواء أغصان الشجرة كأنّها تسترحم بحراكها أرواح الفضاء لتهبط وتمدّدها على صدر الأرض بجانب قتيل المروءة وشهيدة الحب.

وبعد ساعة ظهرت امرأة ضعيفة الجسم ترتدي خرقًا بالية ووقفت بقرب المشنوق تقرع صدرها باكية، ثمّ تسلّقت الشجرة وقضمت حبل الكتّان بأسنانها فسقط الميت على الأرض سقوط الثوب البليل. فنزلت المرأة وحفرت قبرًا بجانب القبرين ووضعته فيه. وبعد أن غمرته بالتراب أخذت قطعتين من الخشب وصنعت منهما صليبًا وغرسته فوق رأسه. ولما تحوّلت نحو الوجهة التي جاءت منها أوقفتها قائلًا: ما غرّكِ أيّتها المرأة فجئت تدفنين لصًّا سارقًا؟

فنظرت إليّ بعينين غارقتين مكحولتين بأشباح الكآبة والشقاء وقالت: هو زوجي الصالح ورفيقي الحنون ووالد أطفالي. خمسة أطفال يتضوّرون جوعًا أكبرهم في الثامنة وأصغرهم رضيع لم يفطم... لم يكن زوجي لصًّا بل كان زارعًا يفلح أرض الدير ويستغلّها، ولا يحصل من الرهبان إلّا على رغيف نتقاسمه عند المساء ولا تبقى منه لقمة إلى الصباح...

مذ كان فتى وهو يسقي بعرق جبينه حقول الدير ويزرع عزم ساعديه في بساتينه. ولما ضعف وانتهبت أعوام العمل قواه وراودت الأمراض جسده أبعدوه قائلين: لم يعد الدير محتاجًا إليك، فاذهب الآن وعندما يشبّ أبناؤك ابعثهم إلينا لكي يأخذوا مكانك في الحقل. فبكى وأبكاني واسترحمهم باسم يسوع واستحلفهم بالملائكة والقدّيسين فلم يرحموه ولم يشفقوا عليه وعليّ وعلى صغارنا العراة الجائعين. فذهب يطلب عملًا في المدينة وعاد مطرودًا لأن سكّان تلك القصور لا يستخدمون إلّا الفتيان الأقوياء. ثمّ جلس على قارعة الطريق مستعطيًا فلم يحسن الناس إليه بل كانوا يمرّون به قائلين: الصدقة لا تجوز على مغلوب التواني والكسل.

ففي ليلة، وقد برح العوز بنا حتّى صار أطفالنا يتلوّون جوعًا على التراب، والرضيع بينهم يمصّ ثديّ ولا يجد لبنًا، تغيّرت ملامح

زوجي وذهب مستترًا بالظلام ودخل قبوًا من أقبية الدير حيث يخزّن الرهبان غلّة الحقول وخمر الكروم، وحمل زنبيلًا من الدقيق على ظهره وهمّ بالرجوع إلينا. لكنّه لم يسر بضع خطوات حتّى استيقظ القسس من رقادهم وقبضوا عليه وأوسعوه ضربًا وشتمًا، وعندما جاء الصباح أسلموه إلى الجند قائلين: هو لصّ شرّير جاء لكي يسرق آنية الدير الذهبيّة. فاقتاده الجند إلى السجن ثمّ إلى المشنقة ليملأوا أجواف العقبان من جسده لأنّه حاول أن يملأ أجواف صغاره الجياع من فضلات الغلّة التي جناها بأتعابه إذ كان خادمًا للدير.

وذهبت المرأة الفقيرة ولكلامها المتقطع أشباح محزنة تتصاعد وتتسارع إلى كلّ ناحية كأنّها أعمدة من الدخان يتلاعب بها الهواء.

***

وقفْتُ بين القبور الثلاثة وقفة مؤبّن أُرتِج عليه وانعقد لسانه لوعةً، فانسكب دمعه متكلّمًا عن عواطفه. وحاولت التفكّر والتأمّل فعصَتْني نفسي لأن النفس كالزهرة تضمّ أوراقها أمام الظلمة، ولا تعطي أنفاسها لأخيلة الليل.

وقفْتُ ومن دقائق تراب تلك القبور ينبثق صراخ التظلّم انبثاق الضباب من خلايا الأودية ويتموّج حول مسامعي ليوحي إليَّ الكلام.

وقفت ساكتًا ولو فهم الناس ما تقوله السكينة لكانوا أقرب إلى الآلهة منهم إلى كواسر الغاب.

وقفت متنهّدًا، ولو لامست شعلات تنهيداتي أشجار ذلك الحقل لتحرّكت وتركت أماكنها وزحفت كتائب كتائب وحاربت بقضبانها الأمير وجنوده، وهدمت بجذوعها جدران الدير على رؤوس رهبانه.

وقفت ناظرًا، ومع نظراتي تنسكب حلاوة الشفقة ومرارة الحزن على جوانب تلك القبور الجديدة – قبر فتى دفع بحياته عن شرف عذراء

ضعيفة وأنقذها من بين أظفار ذئب كاسر، فقطعوا عنقه جزاء شجاعته، وقد أغمدت تلك الصبية سيفه بتراب قبره ليبقى هناك رمزًا يتكلّم أمام وجه الشمس عن مصير الرجولة في دولة الحيف والغباوة.

وقبر صبيّة لامس الحبّ نفسها قبل أن تغتصب المطامع جسدها، فرُجمت لأنّ قلبها أبَى إلّا أن يكون أمينًا حتّى الموت. وقد وضع حبيبها باقة من زهور الحقل فوق جسدها الهامد لتتكلّم بذبولها وفنائها البطيء عن مصير النفوس التي يقدّسها الحبّ بين قوم أعمَتْهم المادّة وأخرسهم الجهل.

وقبر فقير بائس أوهت ساعديْه حقول الدير فطرده الرهبان ليستعيضوا عنهما بسواعد غيره. فطلب الخبز لصغاره بالعمل فلم يجده، ثمّ رجاه بالتسوّل فلم ينله، وعندما دفعه اليأس إلى استرجاع قليل من الغلّة التي جمعها بأتعابه وعرق جبينه قبضوا عليه وفتكوا به. وقد وضعت أرملته صليبًا على قبره ليستشهد في سكينة الليل نجوم السماء على ظلم رهبان يحوّلون تعاليم الناصري إلى سيوف يقطعون بها الرقاب ويمزّقون بحدودها السنينة أجساد المساكين والضعفاء.

وتوارت الشمس إذ ذاك وراء الشفق كأنّها ملّت متاعب البشر وكرهت ظلمهم. وابتدأ المساء يحوك من خيوط الظلّ والسكون نقابًا دقيقًا ليُلقيه على جسد الطبيعة، فرفعْتُ عينيّ إلى العلاء وبسطت يديّ نحو القبور وما عليها من الرموز وصرخت بأعلى صوتي: هذا هو سيفك أيّتها الشجاعة فقد أُغمد بالتراب. وهذه هي زهورك أيّها الحبّ فقد لفحتها النيران. وهذا هو صليبك يا يسوع الناصري فقد غمرته ظلمة الليل.

مضجع العروس[1]

خرج العريس والعروس من الهيكل يتبعهما المهنّئون الفارحون وتتقدّمهما الشموع والمصابيح، ويسير حولهما الفتيان المترنّمون بالأهازيج والصبايا المنشدات أغاني السرور.

بلغ الموكب منزل العريس المزدان بالرياش الثمينة والأواني المتلمّعة والرياحين العطرة، فاعتلى العروسان مقعدًا مرتفعًا وجلس المدعوون على الطنافس الحريريّة والكراسي المخمليّة، حتّى غصّت تلك القاعة الواسعة بأشكال الناس. وسعى الخدّام بآنية الشراب فتصاعدت رنّات الكؤوس متآلفة مع هتاف الغبطة، ثمّ جاء الموسيقيّون وجلسوا يسكرون النفوس بأنفاسهم السحريّة ويبطنون الصدور بألحانهم المنسوجة مع همس أوتار العود وتنهيدات الناي وحفيف الدفوف.

ثمّ قامت الصبايا يرقصن ويتمايلن بقامات تلاحق مقاطع اللحن مثلما تتابع الأغصان الليّنة مجاري هبوب النسيم وتنثني طيات أثوابهن الناعمة كأنّها سحب بيضاء يداعبها شعاع القمر. فشخصت إليهن الأبصار وسجدت لهن الرؤوس وعانقتهنّ أرواح الفتيان وتفطّرت

[1] هذه حادثة جرت في شمال لبنان في النصف الأخير من الجيل التاسع عشر، وقد اخبرتني بها سيدة فاضلة من تلك النواحي تنتسب إلى أحد أشخاص الحكاية.

لجمالهنّ مرائر الشيوخ. ثمّ مال الجميع يستزيدون من الشراب ويغمرون ميولهم بالخمور. فنمت الحركة وعلت الأصوات وسادت الحريّة وتوارت الرزانة وتضعضعت الأدمغة وتلهّبت النفوس واضطربت القلوب، وأصبح ذلك المنزل بكلّ ما فيه كقيثارة مقطّعة الأوتار في يد جنيّة غير منظورة تضرب عليها بعنف وتولد منها أنغامًا جامعة بين التناسق والالتباس: فهنا فتى يبوح بسرائر حبّه لفتاة أولاها الجمال تيهًا ودلالًا. وهناك شابّ يستعدّ لمحادثة حسناء مستحضرًا إلى حافظته أعذب الألفاظ وأرقّ المعاني. وهنالك كهل يجرع الكأس وراء الكأس ويطلب بلجاجة إلى المنشدين إعادة أغنية ذكّرته بأيام صبابته. في هذه القرنة امرأة تغامز بأطراف أجفانها رجلًا ينظر بمودّة إلى سواها. وفي تلك الزاوية سيّدة قد بيّض الشيب مفرقها تنظر مبتسمة نحو الصبايا لتنتقي منهنّ عروسة لوحيدها. وبجانب تلك النافذة زوجة قد اتخذت سكر حليلها فرصة فاقتربت من خليلها وجميعهم غارقون في بحر من الخمر والغزل مستسلمون إلى تيار الغبطة والسرور متناسون حوادث الأمس منصرفون عن مآتي الغد منعكفون على استثمار دقائق الحاضر.

كان يجري كلّ ذلك والعروس الجميلة تنظر بعينين كئيبتين إلى هذا المشهد مثلما ينظر الأسير اليائس إلى جدران سجنه السوداء. وتتلفّت بين الآونة والأخرى نحو زاوية من زوايا تلك القاعة حيث جلس فتى في العشرين من عمره منفردًا عن الناس المغتبطين انفراد الطائر الجريح عن سربه، مبكّلًا زنديْه على صدره كأنه يحول بهما بين قلبه والفرار، محدّقًا إلى شيء غير منظور في فضاء تلك القاعة كأن ذاته المعنويّة قد انفصلت عن ذاته الحسيّة وسبحت في الخلاء متبعة أشباح الدجى.

انتصف الليل وتعاظمت غبطة الجماعة حتّى صارت ثورة، واختمرت أدمغتهم حتّى تلجلجت ألسنتهم، فقام العريس من مكانه وهو

كهل خشن المظاهر وقد تغلّب السكر على حواسّه وطاف يتكلّف اللطف والرقّة بين الناس.

في تلك الدقيقة أومأت العروس إلى صبيّة أن تقترب منها. فاقتربت وجلست بجانبها. وبعد أن تلفّتت العروس إلى كلّ ناحية تلفّت جازع يريد أن يفشي سرًّا خفيًّا هائلًا لزّت إلى الصبيّة وهمست في أذنها هذه الكلمات بصوت مرتعش: أستحلفك يا رفيقتي بالعواطف التي ضمّت نفسيْنا مذ كنّا صغيرتين. أستحلفك بكلّ ما هو عزيز لديك في هذه الحياة. أستحلفك بمخبّآت صدرك. أستحلفك بالحبّ الذي يلامس أرواحنا ويجعلها شعاعًا. أستحلفك بأفراح قلبك وأوجاع قلبي أن تذهبي الآن إلى سليم وتطلبي إليه أن ينزل خفية إلى الحديقة وينتظرني هناك بين أشجار الصفصاف. تضرّعي عني يا سوسان حتّى يجيب طلبي. ذكّريه بالأيّام الغابرة، توسّلي إليه باسم الحب، قولي له هي تعسة عمياء، قولي له هي مائتة تريد أن تفتح قلبها أمامك قبل أن يكتنفها الظلام، قولي له هي هالكة شقيّة تريد أن ترى نور عينيك قبل أن تختطفها نار الجحيم، قولي له هي خاطئة تريد أن تعترف بذنوبها وتلتمس عفوك، أسرعي إليه وابتهلي عنّي أمامه ولا تخافي مراقبة هؤلاء الخنازير لأنّ الخمور قد سدّت آذانهم وأعمت بصائرهم.

فقامت سوسان من جانب العروس وجلست بقرب سليم الكئيب المنفرد وحده وأخذت تستعطفه هامسة في أُذنه كلمات رفيقتها ودلائل الودّ والإخلاص بادية على ملامحها وهو منحني الرأس يسمع ولا يجيب ببنت شفة. حتّى إذا ما انتهت من كلامها نظر إليها نظرة ظامئ يرى الكأس في قبّة الفلك، وبصوت منخفض تخاله آتيًا من أعماق الأرض أجابها قائلًا: سأنتظرها في الحديقة بين أشجار الصفصاف.

قال هذه الكلمات وقام من مكانه وخرج إلى الحديقة.

ولـم تمضِ بضع دقائق حتّى قامت العروس واتبعته مختلسة خطواتها بين رجال فتنَتْهم ابنة الكروم ونساء شغلت قلوبهن صبابة الفتيان. ولما بلغت الحديقة الموشاة بأثواب الليل أسرعت ملتفتة إلى الوراء. ومثل غزال جازع هارب إلى كناسه من الذئاب الخاطفة تقدّمت نحو أشجار الصفصاف حيث وقف ذلك الفتى. ولما رأت نفسها بجانبه ترامت عليه وطوّقت عنقه بزنديْها وحدّقت إلى عينيْه ثمّ قالت والألفاظ تتسارع من شفتيها بسرعة الدموع من أجفانها: اسمعني يا حبيبي. اسمعني جيّدًا. ها قد ندمت على جهالتي وتسرّعي. قد ندمت يا سليم حتّى سحقت الندامة كبدي. أنا أحبّك ولا أحبّ سواك وسوف أحبّك إلى منتهَى العمر. قد أخبروني بأنّك سلوتني وهجرتني وتعلّقت بهوى غيري. أخبروني بكلّ ذلك يا سليم وسمّموا قلبي بألسنتهم ومزّقوا صدري بأظافرهم وملأوا نفسي بكذبهم. قد أخبرتني نجيبة بأنّك سلوتني وكرهتني وانشغفت بحبّها. قد ظلمتني تلك الخبيثة واحتالت على عواطفي لكي أرضى بنسيبها عريسًا، فرضيته يا سليم ولا عريس لي سواك.

والآن، والآن قد رفع الغشاء عن عيني فجئت إليك. قد خرجت من هذا المنزل ولن أعود إليه. قد جئت لكي أضمّك بذراعي ولا توجد قوّة في هذا العالم تُرجعني إلى ذراعَيِ الرجل الذي زُففت إليه كرهًا ويأسًا. قد تركت العريس الذي اختاره لي الكذب بعلًا، وتركت الوالد الذي أقامه القدر وليًّا، وتركت الزهور التي ضفرها الكاهن إكليلًا، وتركت الشرائع التي حبكتها التقاليد قيودًا. قد تركت كلّ شيء في هذا المنزل المملوء بالسكر والخلاعة وأتيت لأتبعك إلى أرض بعيدة، إلى أقاصي العالم، إلى مكامن الجنّ، إلى قبضة الموت. تعالَ نسرع يا سليم من هذا المكان متستّرين بوشاح الليل. هلمّ نسير إلى الساحل ونركب سفينة تحملنا إلى بلاد بعيدة مجهولة. تَعالَ نمشي الآن فلا يجيء الفجر إلّا

ونحن في مأمن من أيدي العدو. انظر، انظر هذه الحلى الذهبيّة وهذه القلائد والخواتم الثمينة، وهذه الجواهر النفيسة، فهي تكفل مستقبلنا وتكفي لنعيش بأثمانها كالأمراء... لماذا لا تتكلّم يا سليم؟ لماذا لا تنظر إليّ؟ لماذا لا تقبّلني؟ أسامع أنت صراخ قلبي وعويل نفسي؟ ألا تصدّق أنّي هجرت عريسي وأبي وأمي وجئت بأثواب العرس لكي أهرب معك؟ تكلّم أو هلمّ نسرع فهذه الدقائق أثمن من حبّات الألماس وأغلى من تيجان الملوك.

كانت العروس تتكلّم وفي صوتها نغمة أعذب من همس الحياة وأمرّ من عويل الموت وألطف من حفيف الأجنحة وأعمق من أنين الأمواج – نغمة تتموّج نبضاتها بين اليأس والأمل، واللّذة والألم، والفرح والشقاء، وكلّ ما في صدر المرأة من الميول والعواطف.

أمّا الشابّ فكان يسمع وفي داخل نفسه يتصارع الحبّ والشرف: ذلك الحبّ الذي يجعل الوعر سهلًا، والظلام نورًا، وذلك الشرف الذي يقف أمام النفس، ويثنيها عن رغائبها ومنازعها. ذلك الحبّ الذي ينزله الله على القلب، وذلك الشرف الذي تسكبه تقاليد البشر في الدماغ.

وبعد أحيان خرساء هائلة شبيهة بالأجيال المظلمة التي تتمايل فيها الأمم بين النهوض والاضمحلال، رفع الشابّ رأسه وقد تغلّب شرف نفسه على ميلها وحوّل عينيه عن الصبيّة الخائفة المترقّبة وقال بهدوء: ارجعي أيّتها المرأة إلى ذراعَيْ عريسك فقد قضي الأمر ومحت اليقظة ما صوّرته الأحلام – أسرعي إلى أحضان المسرّات قبل أن تراك أعين الرقباء فيقول الناس قد خانت عريسها في ليلة العرس مثلما خانت حبيبها أيّام البعاد.

فارتعشت العروس لهذه الكلمات وتململت كزهرة ذابلة أمام الريح ثمّ قالت متوجّعة: لا أعود إلى هذا المنزل وبي رمق من الحياة. قد خرجت منه إلى الأبد. قد تركته وكلّ مَن فيه مثلما يترك الأسير أرض

المنفى. فلا تبعدني عنك ولا تقل إنّني خائنة، لأنّ يد الحبّ التي مزجت روحي بروحك هي أقوى من يد الكاهن التي أسلمت جسدي إلى مشيئة العريس. ها قد طوّقت ذراعيّ حول عنقك فلا تحلّهما القوات وقرّبت نفسي إلى نفسك فلا يفرّقهما الموت.

فقال الشابّ محاولاً الخلاص من ذراعيها متكلّفًا إظهار المقت والاشمئزاز: ابتعدي عني أيّتها المرأة فقد سلوتك، نعم سلوتك وكرهتك وتعلّقت بهوى غيرك، فلم يقل الناس غير الصحيح. هل سمعت ماذا أقول؟ قد سلوتك حتّى نسيت وجودك وكرهتك حتّى أبت نفسي مرآك، فابتعدي عني ودعيني أذهب في سبيلي، وعودي إلى عريسك وكوني له زوجة أمينة.

فقالت الصبيّة مُتفجِّعة: لا، لا أصدّق كلامك، فأنت تحبّني وقد قرأت معنى الحبّ في عينيك وشعرت بملامسه عندما لمست جسدك. أنت تحبّني وتحبّني وتحبّني مثلما أُحبّك، فأنا لا أترك هذا المكان إلا بجانبك ولن أدخل هذا المنزل وفي نفسي بقيّة من الإرادة. قد جئت لكي أتبعك إلى آخر الأرض، فسِرْ أمامي وارفع يدك واهرق دمي.

فقال الشابّ وقد رفع صوته عن ذي قبل: اتركيني أيّتها المرأة وإلّا صرخت بأعلى صوتي وجمعت في هذه الحديقة أولئك الناس المدعوّين إلى أفراح عرسك وأريتهم عارك وجعلتك مضغة مُرّة في أحناكهم ومثلًا قبيحًا على ألسنتهم وأوقفت نجيبة التي أحبّها قلبي تسخر بك وتبتسم فارحة بانتصارها مستهزئة بانغلابك.

قال هذا وأمسك بذراعها ليُبعدها عنه فتغيّرت ملامحها وأبرقت عيناها وتحوّلت بكلّيتها من الاستعطاف والرجاء والتوجّع إلى الغضب والقساوة وصارت كلبوة فقدت أشبالها أو كبحر أثارت أعماقه الزوابع ثمّ

صرخت: مَن هي التي تتمتّع بحبّك بعدي وأي قلب يسكر بقبل شفتيك غير قلبي!

لفظت هـذه الكلمات وانتشلت من بين أثوابها خنجرًا سنينًا وأغمدته بصدره بسرعة البرق، فهوى وسقط على الأرض كغصن قصفته العاصفة، فانحنت فوقه والخنجر في يدها يقطر دمًـا، ففتح عينيه المغمورتين بظلّ الموت وارتعشت شفتاه وخرجت هذه الكلمات مع أنفاسه الضعيفة: اقتربي الآن يا حبيبتي. اقتربي يا ليلى ولا تتركيني. الحياة أضعف من الموت والموت أضعف من الحبّ. اسمعي اسمعي قهقهة الفارحين بعرسك. اسمعي رنين كؤوسهم يا حبيبتي. لقد أنقذتني يا ليلى من قساوة هذه القهقهة ومرارة تلك الكؤوس، فدعيني أُقبّل اليد التي كسرت قيودي. قبّلي شفتيّ. قبّلي شفتيّ اللتين تكلّفتا الكذب وأخفتا أسرار قلبي. أغمضي أجفاني الذابلة بأصابعك المغموسة بدمي. وعندما تطير روحي في الفضاء ضعي الخنجر في يميني وقولي لهم قد انتحر يأسًا وحسدًا. قد أحببتك يا ليلى ولم أحبّ سواك ولكنّني رأيت تضحية قلبي وسعادتي وحياتي أفضل من الهرب بك في ليلة عرسك. قبّليني يا حبيبة نفسي قبل أن يرى الناس جثّتي... قبّليني قبّليني، يا ليلى.

ووضع المصروع يده فوق قلبه المطعون ولوى عنقه وفاضت روحه!.

فرفعت العروس رأسها والتفتت نحو المنزل وصرخت بصوت هائل: تعالوا، تعالوا أيّها الناس، فهنا العرس وهذا العريس. هلمّوا لنريَكم مضجعنا الناعم. استيقظوا أيّها النّيام وانتبهوا أيّها السكارى وأسرعوا لنريَكم أسرار الحبّ والموت والحياة.

تموّج صراخ العروس في زوايا ذلك المنزل حاملًا كلماتها إلى آذان المحتفلين المغتبطين، فارتعشت أرواحهم وأصغوا هنيهة كأنّ الصحوة قد باعت نشوتهم، ثمّ تراكضوا مسرعين من أبواب المنزل ومخارجه،

وساروا متلفّتين يمينًا وشمالًا، حتّى إذا ما رأوا جثة المصروع والعروس الجاثية بقربها تراجعوا مذعورين إلى الوراء، ولا أحد منهم يجسر على استقصاء الخبر، كأنّ منظر الدماء المنبعثة من صدر القتيل ولمعان الخنجر في يد العروس قد عقد ألسنتهم وأجمد الحياة في أجسادهم.

فالتفتت العروس إليهم وقد اتّشحت ملامحها بهيبة محزنة وصرخت قائلة: اقتربوا أيّها الجبناء، ولا تخافوا خيال الموت، فهو عظيم لا يدنو من صغارتكم. اقتربوا ولا ترتجفوا جزعًا من هذا الخنجر فهو آلة مقدّسة لا تلامس أجسادكم القذرة وصدوركم المظلمة. انظروا هذا الفتى الجميل المتسربل بحلّة العرس – هو حبيبي وقد قتلته لأنّه حبيبي – هو عريسي وأنا عروسته، وقد بحثنا فلم نجد مضجعًا يليق بعناقنا في هذا العالم الذي جعلتموه ضيّقًا بتقاليدكم ومظلمًا بجهالتكم وفاسدًا بلهاثكم، ففضّلنا الذهاب إلى ما وراء الغيوم. اقتربوا أيّها الضعفاء الخائفون وانظروا لعلّكم ترون وجه الله منعكسًا على وجهينا، وتسمعون صوته العذب منبثقًا من قلبينا – أين هي تلك المرأة الخبيثة الحسود التي وشت إليَّ بحبيبي، وقالت إنّه شغف بها وسلاني وتعلّق بحبّها لينساني؟ قد توهّمت تلك الشرّيرة أنّها ظفرت عندما رفع الكاهن يده فوق رأسي ورأس نسيبها. أين نجيبة المحتالة؟ أين تلك الأفعى الجهنميّة؟ دعوها تقترب الآن وترى أنّها قد جمعتكم لتفرحوا بعرس حبيبي وليس بعرس الرجل الذي اختارته لي...

أنتم لا تفهمون كلامي، لأنّ اللجّة لا تعي أغاني الكواكب. لكنّكم سوف تخبرون أبناءكم عن المرأة التي قتلت حبيبها ليلة عرسها. سوف تذكرونني وتلعنونني بشفاهكم الأثيمة، أمّا حفدتكم فسوف يباركونني لأنّ الغد سيكون للحقّ والروح.

وأنت أيّها الرجل الغبيّ الذي استخدم الحيلة والمال والخباثة ليصيّرني له زوجة – أنت رمز هذه الأمّة التعسة التي تبحث عن النور

في الظلمة، وتترقّب خروج الماء من الصخرة، وظهور الورد من القطرب – أنت رمز هذه البلاد المستسلمة لغباوتها استسلام الأعمى إلى قائده الأعمى – أنت ممثّل الرجولة الكاذبة التي تقطع الأعناق والمعاصم توصّلًا إلى العقود والأساور. أنا أغتفر لك صغارتك. لأنّ النفس الفارحة بذهابها من هذا العالم تغتفر جميع زلّات هذا العالم.

حينئذ رفعت العروس خنجرها نحو العلاء، ونظير ظامئ يقرب حافّة الكأس إلى شفتيه أغمدته بعزم في صدرها وهبطت بجانب حبيبها نظير زنبقة قطع عنقها حدّ المنجل. فتململت النساء وصرخن صراخ الخوف والألم وأُغمي على بعضهن، وتصاعد ضجيج الرجال من كلّ ناحية واقتربوا من المصروعيْن بوجل وهيبة.

فنظرت إليهم العروس المنازعة وقالت ونجيع الدماء ينهلّ بغزارة من صدرها البلّوري: لا تقتربوا أيّها العاذلون ولا تفصلوا بين جسدينا، وإن حاولتم فالروح الحائمة فوق رؤوسكم تقبض على أعناقكم وتخنقكم بعنف وقساوة. دعوا هذه الأرض الجائعة تلوك جسديْنا لقمة واحدة، دعوها تخفينا وتحمينا في صدرها مثلما تحمي البذور من ثلوج الشتاء حتّى يجيء الربيع.

ولزّت العروس إلى حبيبها وألقت شفتيها على شفتيه الباردتين وخرجت هذه الكلمات المتقطّعة مع أنفاسها الأخيرة: انظر يا حبيبي – انظر يا عريس نفسي كيف وقف الحسّاد حول مضجعنا – انظر عيونهم المحدّقة إلينا، واسمع صرير أسنانهم وتكسّر ضلوعهم. قد انتظرتني طويلًا يا سليم فها أنذا قد كسرت القيود وفككت السلاسل، فلنسرعنّ نحو الشمس فقد طال وقوفنا في الظلّ. ها قد امّحت الرسوم وانحجبت الأشياء فلم أعد أرى سواك يا حبيبي – ها شفتاي فاقتبل أنفاسي الأخيرة. هلمّ نذهب يا سليم، فقد رفع الحبّ أجنحته وسبح أمامنا نحو دائرة النور.

وأَلقت العروس صدرها على صدر حبيبها فامتزجت دماؤها بدمائه وحنت رأسها على عنقه وظلّت عيناها محدّقتين إلى عينيه.

ولبث الناس صامتين هنيهة وقد اصفرّت وجوههم وتراخت رُكبهم، كأنّ هيبة الموت قد سلبتهم القوّة والحراك.

فتقدّم إذ ذاك الكاهن الذي ضفر بتعاليمه أكاليل ذلك العرس وأشار بيمينه نحو القتيلين ونظر نحو القوم المذهولين وخاطبهم بصوت خشن قائلًا: ملعونة هي الأيدي التي تُمَدّ إلى هذين الجسدين الملطّخَين بدماء الجريمة والعار. وملعونة هي الأعين التي تذرف دموع الحزن على هالكَين قد حملت الأبالسة روحيْهما إلى الجحيم. لتبقَ جثّة ابن سادوم وجثّة ابنة عمورة مطروحتين على هذا التراب الدنس المجبول بدمائهما حتّى تتقاسم لحمانهما الكلاب وتذري عظامهما الرياح. اذهبوا إلى مساكنكم أيّها الناس واهربوا من الرائحة المنتنة المتصاعدة من داخل قلبين جبلتهما الخطيئة وسحقتهما الرذيلة. تفرّقوا أيّها الواقفون بقرب هاتين الجيفتين، وانصرفوا مسرعين قبل أن تلسعكم ألسنة النار الجهنّميّة، ومن يبقَ منكم ههنا يكن محرومًا ومرذولًا فلا يدخل الهيكل الذي يركع فيه المؤمنون، ولا يشترك بالصلاة التي يقدّمها المسيحيون!

فتقدّمت سوسان، تلك الصبيّة التي بعثتها العروس رسولًا إلى حبيبها، ووقفت أمام الكاهن ونظرت إليه بعينين مغرورقتين بالدموع وقالت بشجاعة: أنا أبقى هنا أيّها الكافر الأعمى، وأنا أحرسهما حتّى يجيء الفجر، وأنا أحفر لهما قبرًا تحت هذه الأغصان المتدليّة. فإن منعتم عني محفرًا مزّقت صدر الأرض بأصابعي، وإن ربطتم ساعدي حفرته بأسناني. أسرعوا بالخروج من هذا المكان المملوء برائحة البخور واللبان، فالخنازير تأبى استنشاق العطور الزكيّة، واللصوص الخاطفة تهاب ربّ البيت وتخشى قدوم الصباح. أسرعوا إلى مضاجعكم المظلمة لأنّ أغاني

الملائكة المتموّجة فوق شهيدَيِ الحبّ لا تدخل آذانكم المسدودة بالتراب.

وتفرّق الناس من أمام وجه الكاهن العبوس، ولبثت تلك الصبيّة واقفة بقرب الجثتين الهامدتين كأنّها أمّ رقوب تحرس طفليها في سكينة اللّيل.

ولما توارى الجمع وخلا ذلك المكان، استسلمت للبكاء والنحيب.

خليل الكافر

1

كان الشيخ عبّاس بين سكّان تلك القرية المنزوية في شمال لبنان كالأمير بين الرعيّة. وكان منزله القائم بين أكواخهم الحقيرة يشابه الجبّار الواقف بين الأقزام. وكانت معيشته ممتازة عن معيشتهم بميزة السعة عن العوز، وأخلاقه مختلفة عن أخلاقهم باختلاف القوّة عن الضعف.

إن تكلّم الشيخ عبّاس بين أولئك الفلّاحين حنوا رؤوسهم إيجابًا، كأنّ القوى العقليّة قد انتدبته ممثّلًا لها واتخذت لسانه ترجمانًا عنها. وإن غضب ارتجفوا جزعًا وتبدّدوا من أمام وجهه، مثلما تتراكض أوراق الخريف أمام الأرياح. وإن صفع خدّ رجل منهم ظلّ ذلك الرجل جامدًا صامتًا كأنّ الضربة قد أتت من السماء، فمن الكفر أن يتجاسر ويرفع عينيه ليرى مَن أنزلها. وإن تبسّم لرجل آخر قال الجميع ما أسعده فتى رضي عنه الشيخ عبّاس!

ولم يكن استسلام أولئك المساكين إلى الشيخ عبّاس وخوفهم قساوته صادريْن عن ضعفهم وقوّته فقط، بل كانا ناتجيْن عن فقرهم واحتياجهم إليه. لأنّ الحقول التي كانوا يحرثونها والأكواخ التي يسكنونها

كانت ملكه وقد ورثها عن أبيه وجدّه مثلما ورثوا الفقر والتعاسة عن آبائهم وجدودهم.

فكانوا يفلحون الأرض ويزرعونها ويحصدونها تحت مراقبته، ولا يحصلون لقاء أتعابهم وجهادهم إلّا على جزء من الغلّة لا يكاد يُنقذهم من أظافر الجوع. قد كان أكثرهم يحتاج إلى الخبز قبل انقضاء أيّام الشتاء الطويلة، فيذهب إليه الواحد بعد الآخر ويتضرّع أمامه باكيًا مستعطفًا لكي يقرضه دينارًا أو مكيالًا من الحنطة، فكان الشيخ عبّاس يجيب سؤلهم مسرورًا لعلمه بأنّه سيستوفي الدينار دينارين، ومكيال الحنطة مكيالين عندما تجيء أيّام البيادر والموسم.

وهكذا كان يبقى هؤلاء التعساء مثقلين بديون الشيخ عباس ومكبّلين بحاجتهم إليه خائفين غضبه طالبين رضاه.

2

قدم الشتاء بثلوجه وعواصفه، وخلت الحقول والأودية، إلّا من الغربان الناعبة والأشجار العارية، فلزم سكّان تلك القرية أكواخهم بعد أن أشبعوا أهراء الشيخ عبّاس من الغلّة وملأوا آنيته من عصير الكروم وأصبحوا ولا عمل لهم، يفنون الحياة بجانب المواقد متذكّرين مآتي الأجيال الغابرة مردّدين على مسامع بعضهم حكايات الأيّام والليالي.

انقضى كانون الأوّل، وقضى العام العجوز متنهّدًا أنفاسه الأخيرة في الفضاء الرمادي، وجاءت الليلة التي يتوّج فيها الدهر رأس العام الطفل ويُجلسه على عرش الوجود.

توارى النور الضئيل وغمرت الظلمة البطاح والأودية، وابتدأت الثلوج تنهمر بغزارة، والعواصف تصفر وتتسارع ملعلعة من أعالي الجبال نحو المنخفضات، حاملة الثلوج لتخزنها في الوهاد، فترتعش

لهولها الأشجار وتتململ أمامها الأرض، فمزجت الأرياح بين ما تساقط من الثلج في ذلك النهار والساقط منه في تلك الليلة، حتّى أصبحت الحقول والطلول والممرّات كصفحة واحدة بيضاء يكتب عليها الموت سطورًا مبهمة ثمّ يمحوها. وفصل الضباب بين القرى المنثورة على كتفَيِ الوادي، وتوارت الأنوار الضئيلة التي كانت تشعشع في نوافذ البيوت والأكواخ الحقيرة. وقبض الرعب على نفوس الفلّاحين، وانزوت البهائم بقرب المعالف، واختبأت الكلاب في القراني، ولم يبقَ سوى الريح تخطب وتضجّ على مسامع الكهوف والمغاور، فيتصاعد صوتها الرهيب من أعماق الوادي تارة، وطورًا ينقضّ من أعالي قمم الجبال. فكأنّ الطبيعة قد غضبت لموت العام العجوز، فقامت تأخذ بثأره من الحياة المختبئة في الأكواخ وتحاربها بالبرد القارس والزمهرير الشديد.

ففي هذه الليلة الهائلة، وتحت هذا الجوّ الثائر، كان فتى في الثانية والعشرين من عمره يسير على الطريق المتصاعدة بتدرّج من دير قزحيّا[1] إلى قرية الشيخ عبّاس، وقد أيبس البرد مفاصله، وانتزع الجوع والخوف قواه، وأخفت الثلوج ثوبه الأسود كأنّها تريد أن تكفّنه قبل أن تميته، فكان يخطو إلى الأمام والأرياح تصدّه وترجعه إلى الوراء، كأنّها أبت أن تراه في منازل الأحياء، وتتشبّث الطريق الوعرة بقدميْه فيسقط ثمّ ينهض ثمّ يصرخ بأعلى صوته مستغيثًا، ثمّ يخرسه البرد فيقف صامتًا مرتجفًا فكأنّه العناصر المتحاربة كالأمل الضعيف بين اليأس الشديد والحزن العميق، أو كعصفور مكسور الجناحين سقط في النهر فحمله التيّار الغضوب إلى الأعماق.

وظلّ الشاب سائرًا والموت يتبعه حتّى خارت قواه وانحطّت عزيمته وتجمّدت الدماء في عروقه فارتمى على الثلوج.

---

[1] أشهر دير في لبنان، يسكنه الرهبان المعروفون بالبلديّين. وقزحيا لفظة سريانية معناها «فردوس الحياة».

وصرخ صوتًا هائلًا هو بقيّة الحياة في جسده. صوت خائف قد رأى خيال الموت وجهًا لوجه. صوت منازع قانط أتلفته الظلمة وقبضت عليه العاصفة لترمي به إلى الهاوية. صوت محبّة الكيان في فضاء العدم.

3

في الجهة الشماليّة من تلك القرية، كوخ صغير منفرد بين الحقول تسكنه امرأة تدعى راحيل مع ابنتها مريم غير المتجاوزة الثامنة عشرة من سنيها. هذه المرأة هي أرملة سمعان الرامي الذي وُجِد قتيلًا في البرّيّة منذ خمسة أعوام ولم يُعرَف قاتله بعد.

كانت راحيل مثل جميع الأرامل الفقيرات تعيش بالاجتهاد والعمل مخافة الموت والفناء. فكانت تخرج أيّام الحصاد تلتقط السنابل المتروكة في الحقل، وفي أيّام الخريف كانت تجمع فضلات الأثمار المنسيّة في البساتين، وفي الشتاء كانت تغزل الصوف وتخيط الأثواب لقاء دريهمات قليلة أو مكيال من الذرة. وكانت جميع أعمالها مقرونة بالثبات والصبر والاعتناء. أمّا ابنتها مريم فكانت صبية جميلة هادئة تشاطر والدتها الأتعاب وتساهمها أعمال البيت.

ففي تلك الليلة المخيفة التي وصفناها كانت راحيل وابنتها جالستين بقرب موقد قد تغلّب البرد على حرارته واكتنف الرماد جمره، وفوق رأسيهما سراج ضعيف يبعث أشعّته الصفراء الضئيلة إلى قلب الظلمة مثلما تبعث الصلاة أشباح التعزية إلى كبد الفقير الحزين.

انتصف الليل والمرأتان جالستان تسمعان ولولة الأرياح خارجًا، ومن وقت إلى آخر كانت الصبيّة تقف وتفتح الكوّة الصغيرة وتنظر نحو الفضاء المظلم ثمّ تعود إلى مكانها مضطربة مرتعبة من غضب العناصر.

في تلك الدقيقة تحرّكت الصبيّة فجأة كأنّها استيقظت من سبات نوم عميق والتفتت بوجَل نحو أمّها وقالت بسرعة: هل سمعت يا أمّاه؟ هل سمعت صوت صارخ مستغيث؟

فرفعت الوالدة رأسها وأصغت هنيهة ثمّ أجابت: لا، لا أسمع سوى عويل الأرياح يا ابنتي.

فقالت الصبيّة: أنا قد سمعت صوتًا أعمق من هزيع الريح وأمرّ من عويل العاصفة.

قالت هذه الكلمات وانتصبت واقفة وفتحت الكوّة وأصغت دقيقة ثمّ قالت: قد سمعت الصراخ ثانية يا أمّاه. فأجابت الأم وقد أسرعت مرتاعة نحو النافذة: وأنا قد سمعت أيضًا... تعالي نفتح الباب وننظر. أوصدي النافذة كي لا تطفئ الريح السراج.

قالت هذا والتفّت برداء طويل وفتحت الباب وخرجت بقدم ثابتة، وبقيت مريم واقفة في الباب والهواء يتلاعب بجدايل شعرها.

مشت راحيل بضع خطوات فالحة الثلج بقدميها ثمّ وقفت ونادت: مَن الصارخ؟ أين المستغيث؟ فلم يُجبها أحد، ثمّ ردّدت كلماتها هذه ثانية وثالثة، وإذ لم تسمع غير صراخ الزوبعة تقدّمت إلى الأمام بشجاعة متلفّتة إلى كلّ ناحية حاجبةً وجهها من تموّجات الريح العنيفة. ولم تسر رمية سهم حتّى رأت أثر أقدام غارقة في الثلج قد أوشكت الأرياح أن تمحوها، فاتّبعتها بسرعة جازع مترقّب، وبعد هنيهة نظرت فرأت أمامها جسدًا مطروحًا على الثلج كرقعة سوداء على ثوب ناصع البياض. فتقدّمت وذرَت الثلج عنه وأسندت رأسه على ركبتيها ووضعت يدها على صدره، وإذ شعرت بنبضات قلبه المتهاونة التفتت نحو الكوخ وصرخت قائلة: هلمّي يا مريم، هلمّي إلى معونتي فقد وجدته.

فخرجت مريم من البيت متّبعة أثر أقدام والدتها مرتعشة من البرد والخوف، حتّى إذا ما بلغت المكان ورأت الشابّ ملقى بلا حراك على الثلج تأوّهت وصرخت بلهفة وتوجّع. فقالت الأم وقد وضعت يديها تحت إبطيه: هو حيّ فلا تخافي بل أمسكي بأطراف أثوابه وتعالي نحمله إلى البيت.

حملت المرأتان الفتى والأرياح الشديدة تصدّهما والثلوج تتمسّك بأقدامهما حتّى إذا ما بلغتا به الكوخ ألقتاه بجانب الموقد، وأخذت الأم تفرك أعضاءه المتجلّدة والابنة تجفّف بأطراف ثوبها شعره البليل وأصابعه الباردة. فلم تمرّ بضع دقائق حتّى عادت إليه الحياة فتحرّك قليلًا وارتعشت أجفانه وتنهّد تنهيدة عميقة بعثت الأمل بنجاته في قلبَيِ المرأتين الشفوقين. فقالت مريم بعد أن حلّت سيور حذائه المهشّم وخلعت عباءته البليلة: انظري يا أمّاه، انظري ملابسه فهي شبيهة بأثواب الرهبان. فالتفتت راحيل وقد وضعت في الموقد غمرًا من القضبان اليابسة، وقالت مستغربة: إنّ الرهبان لا يخرجون من الدير في مثل هذه الليلة المخيفة، فأيّ شيء، يا ترى، جعل هذا المسكين يخاطر بحياته؟

فقالت الصبيّة مستدركة: ولكن هو أمرد يا أُمّاه وللرهبان لحى كثيفة. فنظرت إليه الوالدة وقد انسكبت الرأفة الوالديّة من عينيها وقالت متنهّدة: جفّفي قدميه جيدًا يا ابنتي راهبًا كان أم مجرمًا.

وفتحت راحيل الخزانة الخشبيّة وأخرجت منها جرّة صغيرة مملوءة خمرًا وسكبت منها في إناء من الفخّار، ثم قالت لابنتها: أسندي رأسه يا مريم لنجرعه قليلًا من الخمر فينتعش وتعود الحرارة إلى جسده.

قرّبت راحيل حافّة الطاس إلى شفتَيِ الشاب وجرعته قليلًا ففتح عينيه الكبيرتين ونظر إلى منقذتيْه لأوّل مرّة نظرة لطيفة محزنة قد

انبعثت مع دموع الشكر ومعرفة الجميل – نظرة مَن شعر بملامس الحياة بعد أن كان بين مخالب الموت – نظرة الأمل بعد اليأس. ثمّ ألوى عنقه وخرجت هذه الكلمات من بين شفتيه المرتعشتين: ليبارككما الله.

فقالت راحيل وقد وضعت يدها على كتفه: لا تزعج نفسك بالكلام يا أخي، بل ابقَ صامتًا حتّى تعود إليك القوّة.

وقالت مريم: اتّكئ يا أخي على هذا المسند واقترب قليلًا من الموقد.

فاتّكأ الشابّ متنهّدًا. وبعد دقيقة ملأت راحيل الطاس خمرًا وسقتْه ثانية، ثمّ التفتت نحو ابنتها وقالت: ضعي جبّته بقرب النار لتجفّ. ففعلت مريم ثمّ جلست تنظر إليه بحنوّ وشفقة كأنّها تريد أن تبثّ بنظراتها الحرارة والقوّة في جسده النحيل.

وأحضرت راحيل إذ ذاك رغيفين من الخبز وقصعة مملوءة دبسًا وطبقًا عليه بعض الثمار المجفّفة وجلست بجانبه تطعمه بيدها لقمًا صغيرة مثلما تفعل الأمّ وطفلها. حتّى إذا اكتفى من الطعام وشعر بشيء من النشاط استوى جالسًا على البساط، فانعكست أشعّة النار الوردية على وجهه المصفرّ وتلمّعت عيناه، الحزينتان، ثمّ قال هازًّا رأسه بهدوء: الرحمة والقساوة تتصارعان في القلب البشري مثلما تتحارب العناصر في فضاء هذه الليلة المظلمة، ولكن سوف تتغلّب الرحمة على القساوة لأنّها إلهيّة، وسوف تمرّ مخاوف هذه الليلة بمجيء النهار. وسكت الشابّ دقيقة ثمّ زاد بصوت منخفض يكاد لا يُسمع: يد بشريّة دفعتني إلى الهوان ويد بشريّة خلّصتني، فما أشدّ قساوة الإنسان وما أكثر رأفته!

فقالت راحيل بصوت تمتزج بمقاطعه عاطفة الأمومة بعذوبة الطمأنينة: كيف تجرأت يا أخي وتركت الدير في هذه الليلة التي تخافها الذئاب فتنزوي بالكهوف، وتهابها العقبان فتختبئ بين الصخور؟

فأغمض الشابّ عينيه كأنّه يريد أن يعيد بأجفانه الدموع إلى أعماق قلبه، ثمّ قال: للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار، وأمّا ابن الإنسان فليس له أن يسند رأسه.

فقالت راحيل: هكذا قال يسوع الناصري عن نفسه عندما طلب إليه أحد الكتبة أن يتبعه إلى حيث يذهب.

فأجاب الشابّ: وهكذا يقول كلّ مَن يريد أن يتبع الروح والحقّ في هذا الجيل المملوء بالكذب والرياء والفساد.

فسكتت راحيل مفكّرة بمعنى كلماته ثمّ قالت بشيء من التردّد: ولكن في الدير غرف عديدة رحبة، وخزائن طافحة بالذهب والفضّة، وأقبية مملوءة بالغلّة والخمور، وزرائب غاصّة بالعجول والكبوش المسمّنة، فأيّ أمر جعلك تترك جميع هذه الأشياء وتخرج في مثل هذه الليلة؟

فقال الشابّ متنهّدًا: قد تركت جميع هذه الأشياء وخرجت كرهًا من الدير.

فقالت راحيل: إنّ الراهب في الدير نظير الجندي في ساحة الحرب يزجره رئيسه فينحني صامتًا ويأمره فيطيع مسرعًا. وقد سمعت بأنّ الرجل لا يصير راهبًا إلّا إذا نزع عنه الإرادة والفكر والميل وكلّ ما يختصّ بالنفس، ولكنّ الرئيس الصالح لا يطلب من مرؤوسيه فوق طاقتهم، فكيف يطلب منك رئيس دير قزحيًا أن تسلّم حياتك إلى العواصف والثلوج؟

فأجاب الشابّ: إنّ الرجل لا يصير راهبًا في عُرف رئيسه إلّا إذا كان مثل آلة عمياء خرساء فاقدة الحسّ والقوّة. أمّا أنا فقد خرجت من الدير، لأنّني لست آلة عمياء بل إنسان يرى ويسمع.

فحدّقت إليه راحيل ومريم كأنهما قد رأتا في وجهه سرًّا خفيًّا يريد كتمانه. وبعد هنيهة قالت الوالدة مستغربة: أيخرج الإنسان الذي يرى ويسمع في مثل هذه الليلة التي تعمي العيون وتصمّ الآذان؟

فتنهّد الشابّ وحنى رأسه على صدره وقال بصوت عميق: خرجت مطرودًا من الدير.

فقالت راحيل بدهشة: مطرودًا!؟

وردّدت مريم هذه الكلمة متأوّهة.

فرفع الشابّ رأسه وقد ندم على إظهاره الحقيقة للمرأتين، وخاف أن تتحوّل رأفتهما به إلى استياء واستهجان، ولكنّه نظر فرأى في عينيهما أشعّة الشفقة متموّجة مع محبّة الاستطلاع، فقال بصوت مخنوق: نعم خرجت مطرودًا من الدير لأنّني لم أستطع أن أحفر قبري بيدي. لأنّ قلبي قد تعب في داخلي من متابعة الكذب والرياء. لأنّ نفسي أبت أن تتنعّم بأموال الفقراء والمساكين. لأنّ روحي قد امتنعت عن التلذّذ بخيرات الشعب المستسلم إلى الغباوة. خرجت مطرودًا لأنّ جسدي لم يعد يجد راحة في الغرف الرحبة التي بناها سكّان الأكواخ. لأنّ جوفي لم يعد يقبل الخبز المعجون بدموع اليتيم والأرملة. لأنّ لساني لم يعد يتحرّك بالصلاة التي يبيعها الرئيس بأموال المؤمنين والبسطاء. خرجت مطرودًا كالأبرص القذر لأنّني ردّدت على مسامع القسس والرهبان آيات الكتاب الذي جعلهم قسسًا ورهبانًا.

وسكت الشابّ وظلّت راحيل ومريم ناظرتين إليه مستغربتين كلامه محدّقتين إلى وجهه الجميل الحزين متلفّتتين بين الآونة والأخرى إلى بعضهما كأنّهما تتساءلان بالسكينة عن الأسباب الغريبة التي جاءت به إليهما. حتّى إذا ما نمت محبّة الاستقصاء في قلب الوالدة نظرت إليه بانعطاف وسألته قائلة: أين أبوك وأمّك يا أخي، هل هما حيّان؟

فأجاب الشابّ والغصص الموجعة تقطّع ألفاظه: ليس لي أب ولا أمّ ولا أخت ولا مسقط رأس.

فتنهّدت راحيل متأثّرة وحوّلت مريم وجهها نحو الحائط لتخفي دمعة محرقة استقطرتها الشفقة من أجفانها. فنظر إليهما الشابّ نظرة

المغلوب إلى منجده وقد انتعشت نفسه برقّة عواطفهما مثلما تنتعش الزهرة النابتة بين الصخور عندما يسكب الصباح قطرات الندى في قلبها. ثمّ رفع رأسه وقال: مات أبي وأمّي قبل أن أبلغ السابعة من عمري، فأخذني كاهن القرية التي وُلدت فيها إلى دير قزحيّا، فسرّ الرهبان بي وجعلوني راعيًا للبقر، ولما بلغت الخامسة عشرة ألبسوني هذا الثوب الأسود الخشن وأوقفوني أمام المذبح قائلين: أقسم بالله وقدّيسيه بأنّك قد نذرت الفقر والطاعة والعفّة. فردّدت كلامهم قبل أن أفهم مفاد كلامهم، وقبل أن أدرك معاني الفقر والطاعة والعفاف، وقبل أن أرى السبيل الضيّقة التي سيّروني عليها. كان اسمي خليلًا فصار الرهبان منذ ذلك الحين يدعونني الأخ مبارك ولكنّهم لم يعاملوني قطّ كأخ لهم. كانوا يتنعّمون باللحوم والمآكل الشهيّة ويطعمونني الخبز اليابس والبقول المجفّفة، ويتلذّذون بالخمور والمشارب الطيّبة ويسقونني الماء ممزوجًا بالدموع، ويضطجعون على الأسرّة الناعمة ويُنيمونني على فراش حجري في غرفة مظلمة باردة بجانب زرائب الخنازير، فكنت أقول في نفسي: متى أصير راهبًا يا ترى فأشارك هؤلاء السعداء بغبطتهم، وأُصبح خليقًا بملذّاتهم ومسرّاتهم، فلا تقطع قلبي رائحة الطعام، ولا تعذّب كبدي ألوان الخمور، ولا ترتعش روحي لصوت الرئيس؟ ولكن باطلًا كنت أتمنّى وأحلم لأنّني بقيت أرعى البقر في البرّيّة، وأنقل الحجارة الثقيلة على ظهري، وأحفر التراب بساعدَيّ.

بقيت أفعل كلّ ذلك لبقاء الخبز الدنيء والمأوى الضيّق، لأنّني لم أكن أعلم أنّه يوجد مكان غير الدير يمكن أن أعيش فيه لأنّهم علّموني الكفر بكلّ شيء إلّا معيشتهم، وسمّموا نفسي بنقيع اليأس والاستسلام، حتّى ظننت أنّ هذا العالم هو بحر أحزان وشقاء، وأنّ الدير هو ميناء الخلاص.

واستوى خليل جالسًا وانبسطت ملامحه المنقبضة ونظر كأنّه رأى شيئًا جميلًا منتصبًا أمامه في ذلك الكوخ. أمّا راحيل ومريم فلبثتا صامتتين محدّقتين إليه، وبعد هنيهة عاد فقال: إن السماء التي شاءت فأخذت والديّ ونفتني يتيمًا إلى الدير، لم تشأ أن أصرف العمر كلّه كالأعمى السائر في المعابر الخطرة ولم ترضَ بأن أكون عبدًا تعسًا متصاغرًا إلى نهاية الحياة، ففتحت عينيّ وأذنيّ وأرتني النور مشعشعًا وأسمعتني الحقيقة متكلّمة.

فهزّت راحيل رأسها إذ ذاك وقالت: أيوجد نور غير النور الذي تسكبه الشمس على جميع الناس؟ وهل بإمكان البشر أن يعرفوا الحقيقة؟

فأجاب خليل قائلًا: النور الحقيقي هو ذاك الذي ينبثق من داخل الإنسان، ويبيّن سرائر النفس للنفس، ويجعلها فارحة بالحياة مترنّمة باسم الروح. أمّا الحقيقة فهي كالنجوم لا تبدو إلّا من وراء ظلمة الليل. الحقيقة هي مثل جميع الأشياء الجميلة في هذا العالم لا تظهر مفاعيلها المستحبّة إلّا لمن شعر بتأثيرات البُطل القاسية. الحقيقة هي تلك العاطفة الخفيّة التي تعلّمنا أن نفرح بأيّامنا. وتجعلنا نتمنّى ذلك الفرح نفسه لجميع الناس.

فقالت راحيل: كثار هم الذين يعيشون حسب العاطفة الخفيّة الكائنة في قلوبهم، وكثار هم الذين يعتقدون أنّ هذه العاطفة هي ظلّ الناموس الذي سنّه الله للإنسان. ولكنّهم لا يفرحون البتّة بأيّامهم بل يظلّون تعساء حتّى الموت.

فأجابها خليل قائلًا: باطلة هي الاعتقادات والتعاليم التي تجعل الإنسان تعسًا في حياته. وكذّابة هي العواطف التي تقوده إلى اليأس والحزن والشقاء. لأنّ واجب الإنسان أن يكون سعيدًا على الأرض وأن يعلم سبل السعادة ويكرز باسمها أينما كان. ومَن لا يشاهد ملكوت السموات

في هذه الحياة لن يراه في الحياة الآتية. لأنّنا لم نجئ هذا العالم كالمنفيّين المرذولين، بل جئنا كالأطفال الأغبياء لكي نتعلّم من محاسن الحياة وأسرارها عبادة الروح الكلّي الخالد واستطلاع خفايا نفوسنا.

هذه هي الحقيقة التي عرفتها عندما قرأت تعاليم يسوع الناصري، وهذا هو النور الذي انبثق من داخلي وأبان لي الدير ومَن فيه كهوّة مظلمة تنبعث من أعماقها الأشباح المخيفة لتميتني. هذا هو السرّ الخفيّ الذي أعلنته البرّيّة الجميلة لنفسي عندما كنت أجلس جائعًا باكيًا متأوّهًا في ظلّ الأشجار.

ففي يوم وقد سكرت نفسي من هذه الخمرة السماويّة تشجّعت ووقفت بين الرهبان، إذ كانوا جالسين في حديقة الدير مثلما تربض البهائم المتخومة، وأخذت أبيّن لهم أفكاري وأتلو على مسامعهم آيات الكتاب التي تبيّن ضلالهم وكفرهم. قلت لهم: لماذا نصرف الأيّام في هذه الخلوة متمتّعين بخيرات الفقراء والمساكين، مستطيبين الخبز المعجون بعرق جبينهم ودموع أجفانهم، متلذّذين بغلّة الأرض المسلوبة منهم – لماذا نعيش في ظلال التواني والكسل، مبتعدين عن الشعب المحتاج إلى المعرفة حارمين البلاد قوى نفوسنا وعزم سواعدنا؟ إنّ يسوع الناصري قد بعثكم كالخراف بين الذئاب، فأيّ تعاليم جعلتكم تصيرون كالذئاب بين الخراف؟ لماذا تبتعدون عن البشر وقد خلقكم الله بشرًا؟ إذا كنتم أفضل من الناس السائرين في موكب الحياة عليكم أن تذهبوا إليهم وتعلّموهم، وإن كانوا أفضل منكم امتزجوا بهم وتعلّموا... كيف تنذرون الفقر وتعيشون كالأمراء، وتنذرون الطاعة وتتمرّدون على الإنجيل، وتنذرون العفّة وقلوبكم مفعمة بالشهوات؟.. أنتم تتظاهرون بقتل أجسادكم ولكنّكم لا تقتلون غير نفوسكم. وتتظاهرون بالترفّع عِن العالميات وأنتم أكثر الناس طمعًا. وتتظاهرون بالتنسّك والتقشّف

وأنتم كالبهائم المشغولة عن المعرفة بطيب المرعى. تعالوا نعيد أراضي الدير الواسعة إلى سكّان هذه القرى المحتاجين، ونرجع إلى جيوبهم الأموال التي أخذناها. تعالوا نتفرّق إلى كلّ ناحية مثلما تتفرّق أسراب الطيور، فنخدم الشعب الضعيف الذي جعلنا أقوياء، ونصلح البلاد التي نعيش بخيراتها، ونعلّم هذه الأمّة التعسة أن تبتسم لنور الشمس وتفرح بمواهب السماء ومجد الحياة والحرّيّة. لأنّ المتاعب التي نجدها بين الناس هي أجلّ وأجمل من الراحة التي نستسلم إليها في هذا المكان، والرأفة التي نلامس بها قلب القريب هي أسمى من الفضيلة المختبئة في قراني الدير، وكلمة التعزية التي نقولها على مسامع الضعيف والمجرم والساقطة هي أشرف من الصلاة الطويلة التي نردّدها في الهيكل.

وسكت خليل دقيقة مسترجعًا أنفاسه ثمّ رفع عينيه نحو راحيل ومريم وقال بصوت هادئ:

كنت أتكلّم بهذه الأشياء وما يشابهها أمام الرهبان وهم سامعون ودلائل الاستغراب بادية على وجوههم، كأنّهم لم يصدّقوا أنّ فتى مثلي يقف بينهم ويتكلّم متجاسرًا بمثل هذا الكلام، حتّى إذا ما انتهيت اقترب أحدهم وقال صارفًا أسنانه: أتتجرأ أيّها الضعيف وتتلفّظ أمامنا بمثل هذا الكلام؟ واقترب آخر وقال ضاحكًا مستهزئًا: هل تعلّمت هذه الحكمة من البقر والخنازير التي رافقتها كل أيّام حياتك؟ وجاء آخر وقال متوعّدًا: سوف ترى ما يحلّ بك أيّها الخبيث الكافر. ثمّ تفرّقوا عني إلى كلّ ناحية مثلما يبتعد الأصحّاء عن الأبرص.

وذهب بعضهم وشكوني إلى الرئيس، فاستدعاني عند غروب الشمس. وبعد أن وبّخني بقساوة على مسمع من الرهبان المبتهجين أمر بجلدي فجُلدت بسياط من المرس، ثمّ حكم بسجني شهرًا كاملًا، فاقتادني الرهبان مقهقهين فرحين إلى غرفة رطبة مظلمة.

انقضى الشهر وأنا مطروح في ذلك القبر لا أرى النور ولا أشعر بغير دبيب الحشرات، ولا ألمس سوى التراب، ولا أعرف نهاية الليل من بدء النهار، ولا أسمع سوى وطء أقدام أحد الرهبان عندما يجيء ويضع بقربي كسرة من الخبز اليابس العطن وطاسًا من الماء الممزوج بالخلّ. ولما خرجت من ذلك السجن ورأى الرهبان نحول جسدي واصفرار وجهي، توهّموا أنّ ميول نفسي قد ماتت في داخلي، وأنّهم بالجوع والعطش والعذاب قد قتلوا العاطفة التي أحياها الله في قلبي..

مرّت الأيّام إثر الليالي وأنا أجهد النفس مفكّرًا في ساعات انفرادي بما يجعل أولئك الرهبان يرون النور ويسمعون نغمة الحياة. ولكن باطلًا كنت أفكّر وأفكّر، لأنّ الغشاء الكثيف الذي حاكته الأجيال الطويلة على أبصارهم لا تمزّقه الأيّام القليلة. والطينة التي طلَتْ بها الغباوة آذانهم قد تحجّرت، فلا تزيلها ملامس الأصابع الناعمة.

وبعد سكينة مملوءة بالتنهّدات، رفعت مريم رأسها والتفتت نحو والدتها كأنّها تستأذنها بالكلام، ثمّ نظرت بكآبة نحو خليل وسألته قائلة: هل عدت وتكلّمت ثانية أمام الرهبان فطردوك من الدير في هذه الليلة المخيفة التي تعلّم الإنسان أن يكون رؤوفًا ورفيقًا حتّى بأعدائه!

فقال الشابّ: في هذا المساء عندما تعاظم هول العاصفة وابتدأت العناصر تتحارب في الفضاء، جلست منفردًا عن الرهبان المستدفئين حول النّار والمشغولين بسرد الحوادث والحكايات المضحكة. وفتحت الإنجيل متأمّلًا بتلك الأقوال التي تستميل النفس وتنسيها غضب الطبيعة وقساوة العناصر. ولما رآني الرهبان بعيدًا عنهم اتخذوا انفرادي سببًا للسخرية بي. فجاء بعضهم ووقفوا بقربي وأخذوا يتغامزون ويضحكون ويشيرون نحوي مستهزئين، فلم أحفل بهم بل أطبقت الكتاب وبقيت ناظرًا من النافذة. فتململوا لذاك غيظًا ونظروا إليّ شزرًا، لأنّ سكوتي قد

أيبس عواطفهم، ثمّ قال أحدهم ساخرًا: ماذا تقرأ أيّها المصلح العظيم؟ فلم أرفع عينيّ نحو المتكلّم، بل فتحت الإنجيل وقرأت منه بصوت عالٍ هذه الآيـة: وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه: يا أولاد الأفاعي مَن أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا أثمارًا تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون في نفوسكم إنّ لنا إبراهيم أبًا لأنّي أقول لكم إنّ الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم. والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة، فكلّ شجرة لا تعطي ثمرًا جيّدًا تُقطَع وتلقى في النار. وسأله الجموع قائلين: فماذا نفعل؟ فأجاب وقال لهم: مَن له ثوبان فليعطِ مَن ليس له، ومَن له طعام فليفعل هكذا.

عندما قرأت هذه الكلمات التي قالها يوحنّا المعمدان، سكت الرهبان دقيقة كأن يدًا خفيّة قد قبضت على أرواحهم، ولكنّهم عادوا وقهقهوا ضاحكين، ثمّ قال أحدهم: قد قرأنا هذا الكلام مرّات عديدة ولسنا نحتاج لرعاة البقر أن يردّدوه على مسامعنا. فقلت: لو كنتم تقرأون هذه الآيـات وتفهمونها لما كان سكّان هذه القرى المغمورة بالثلوج يتأفّفون بردًا ويتضوّرون جوعًا وأنتم ههنا تتمتّعون بخيراتهم وتشربون عصير كرومهم وتأكلون لحوم مواشيهم...

لم تخرج هذه الألفاظ من بين شفتيّ حتّى صفعني أحد الرهبان على وجهي كأنّي لم أتكلّم بغير الحماقة، ثمّ رفسني آخر برجله، وآخر انتزع الكتاب من يدي، وآخر نادى الرئيس فجاء مسرعًا. وإذ أخبروه بما جرى تعالت قامته وزوى ما بين عينيه وارتجف غضبًا وصرخ بأعلى صوته: اقبضوا على هذا الشرّير المتمرّد، وجرّوه بعيدًا عن الدير، ودعوا العناصر الغضوب تعلمه الطاعة. أخرجوه إلى الظلمة الباردة لتفعل به الطبيعة مشيئة الله، ثمّ اغسلوا أكفّكم خوفًا من سموم الكفر المتعلّقة بأثوابه، وإن عاد متضرّعًا متظاهرًا بالتوبة لا تفتحوا له الأبـواب، لأنّ

الأفعى إذا سُجنت في القفص لا تنقلب حمامة، والعلّيقة إذا غرست في الكرم لا تثمر تينًا.

حينئذٍ قبض الرهبان عليّ وجرّوني بعنف إلى خارج الدير وعادوا ضاحكين، وقبل أن يوصدوا الأبواب سمعت أحدهم يقول ساخرًا: كنت بالأمس ملكًا وكانت رعيّتك البقر والخنازير، وقد خلعناك اليوم أيّها المصلح لأنّك أسأت السياسة، فاذهب الآن وكُنْ ملكًا على الذئاب الجائعة والغربان المتطايرة، وعلّمها كيف يجب أن تعيش في كهوفها وأوجرتها.

وتنهّد خليل تنهيدة عميقة، ثمّ حوّل وجهه ونظر إلى النّار المتأجّجة في الموقد. وبصوت جارح بحلاوته قال: هكذا طُردت من الدير. وهكذا سلّمني الرهبان إلى يد الموت، فسِرْت والضباب يحجب الطريق عن بصري والرياح الشديدة تمزّق أثوابي، والثلوج المتراكمة تتمسّك بركبتيّ، حتّى وهنت قواي فسقطت مستغيثًا صارخًا صراخ يائس شعر بأنّه لا يوجد مَن يسمعه سوى الموت المخيف والأودية المظلمة. ولكن من وراء الثلوج والأرياح، من وراء الظلمة والغيوم، من وراء الأثير والكواكب ومن وراء كلّ شيء قوّة هي كلّ معرفة وكلّ رحمة قد سمعت صراخي وندائي فلم تشأ أن أموت قبل أن أتعلّم ما بقي من سرائر الحياة، فبعثتكما إليّ لكي تسترجعاني من أعماق الهاوية والعدم.

وسكت الشاب والمرأتان تنظران إليه بانعطاف وإعجاب وشفقة كأنّ نفسيْهما قد فهمتا خفايا نفسه واشتركتا معها بالشعور والمعرفة. وبعد هنيهة مدّت راحيل يدها قسر إرادتها ولمست يده بلطف وقالت والدموع تتلمّع في عينيها: إنّ مَن تختاره السماء نصيرًا للحقّ لا تفنيه المظالم ولا تميته الثلوج والعواصف.

وهمست مريم قائلة: إنّ العواصف والثلوج تفني الزهور ولكنّها لا تميت بذورها.

فقال خليل وقد أنارت التعزية وجهه المصفرّ مثلما تنير أشعّة الفجر خطوط الأفق: إن كنتما لا تحسبانني متمرّدًا وكافرًا كما يحسبني الرهبان يكون الاضطهاد الذي لقيته في الدير رمزًا للشدّة التي تعانيها الأمّة قبل بلوغها المعرفة. وتكون هذه الليلة التي كادت تميتني شبيهة بالثورات التي تتقدّم الحريّة والمساواة. لأنّ من قلب المرأة الحسّاس تنبثق سعادة البشر، ومن عواطف نفسها الشريفة تتولّد عواطف نفوسهم.

قال هذا واتكأ على الوسادة، فلم تشأ المرأتان متابعة الحديث لأنّهما عرفتا من نظراته أنّ النعاس المتولّد من الراحة والاستدفاء بعد عناء المسير قد راود عينيه.

ولم تمرّ بضع دقائق حتّى أغمض خليل أجفانه ونام كالطفل المستأمن على ذراعي أمّه، فقامت راحيل بهدوء وتبعتها مريم وجلستا على فراشهما تنظران إليه كأنّ في وجهه الذابل جاذبًا يستميل روحيْهما ويحيط بقلبيْهما. ثمّ همست الوالدة كأنّها تتكلّم مع نفسها وقالت: في عينيه المطبقتين قوّة غريبة تتكلّم بالسكينة وتنبّه ميول النفس.

وقالت الابنة: يداه يا أمّاه مثل يدَيْ صورة يسوع الموجودة في الكنيسة، فهمست الوالدة: على وجهه الكئيب ظاهرة رقّة المرأة وقوّة الرجل.

وحملت أجنحة الكرى روحَيِ المرأتين إلى عالم الأحلام، وخمدت النار في الموقد وتحوّلت إلى رماد. ثمّ جفّ زيت السراج فشحّ نوره ببطء ثمّ انطفأ. وظلّت العاصفة الغضوب تضجّ خارجًا والجوّ القاتم ينثر رقع الثلج، والأرياح العنيفة تقذفها يمينًا وشمالاً.

4

مضى أسبوعان على تلك الليلة والفضاء المتلبّد بالغيوم يسكن حينًا ثمّ يثور متهيّجًا، غامرًا الأودية بالضباب، مكّفنًا الطلول بالثلوج. وقد همّ خليل ثلاث مرّات أن يتابع مسيره نحو الساحل فكانت راحيل تصدّه بلطف وانعطاف قائلة:

لا تسلّم حياتك ثانية إلى العناصر العمياء، بل ابقَ ههنا يا أخي، فالخبز الذي يشبع اثنين يكفي ثلاثة، والنّار في هذا الموقد تظلّ متّقدة بعد ذهابك مثلما كانت قبله. نحن فقراء يا أخي ولكنّا نحيا أمام وجه الشمس مثل جميع النّاس، لأنّ الله يعطينا خبزنا كفاف يومنا.

أمّا مريم فكانت ترجوه بنظراتها اللطيفة وتستعطفه بتنهّداتها الهادئة لكي يمتنع عن الذهاب، لأنّها منذ دخوله بين حيّ وميت ذلك البيت الحقير، شعرت بوجود قوّة علويّة في نفسه تبعث الحياة والشعاع إلى قلبها، وتنبّه عواطف جديدة مستحبّة في قدس من أقداس روحها – لأنّها شعرت لأوّل مرّة في حياتها بتلك الحاسّة الغريبة التي تجعل قلب الصبيّة النقيّ مثل وردة بيضاء تشرب قطرات الندى وتسكب دقائق العطر.

لا يوجد في داخل الإنسان عاطفة أنقى وأعذب من تلك العاطفة الخفيّة التي تستفيق على حين غفلة في قلب الصبيّة وتملأ خلايا صدرها بالأنغام السحرية، وتجعل أيّامها شبيهة بأحلام الشعراء ولياليها مثل الأنبياء. ولا يوجد بين أسرار الطبيعة سرّ أقوى وأجمل من ذلك الميل الذي يحوّل سكينة نفس العذراء إلى حراك مستمرّ يُميت بعزمه ذكرى الأيّام الغابرة، ويُحيي بحلاوته الآمال بالأيّام الآتية.

والصبيّة اللبنانيّة تمتاز عن صبايا الأمم بقوّة عواطفها ورقّة إحساسها، لأنّ التربية البسيطة التي تحرم عاقلتها من النموّ وتوقف مداركها عن الارتقاء، تحوّل نفسها إلى استفسار ميول نفسها وتشعل

قلبها باستطلاع خفايا قلبها. الصبيّة اللبنانيّة مثل ينبوع يخرج من قلب الأرض بين المنخفضات، فلا يجد ممرًّا ليسير به نهرًا نحو البحر، فينقلب بحيرة هادئة تنعكس على وجهها أشعّة القمر والنجوم.

وشعر خليل بتموّجات روح مريم حول روحه، وعرف أنّ الشعلة المقدّسة التي أحاطت بقلبه قد لامست قلبها. ففرح لأوّل وهلة فرح طفل ضائع وجد أمّه، ولكنّه عاد فلام نفسه على تسرّعها وانشغافها ظنًّا منه بأنّ هذا التفاهم الروحي سيضمحلّ كالضباب عندما تفصله الأيّام عن تلك القرية، فكان يناجي نفسه قائلًا: ما هذه الأسرار الخفيّة التي تتلاعب بنا ونحن غافلون؟ وما هذه النواميس التي تسيّرنا تارة على سبل وعرة فنسير منقادين، وتوقفنا طورًا أمام وجه الشمس فنقف فرحين، وتبلغنا مرّة قمّة الجبل فنبتسم متهلّلين، وتهبط بنا أخرى إلى أعماق الوادي فنصرخ متوجّعين؟ ما هذه الحياة التي تعانقنا يومًا كالحبيب ويومًا تصفعنا كالعدوّ؟ ألم أكن بالأمس مكروهًا مضطهدًا بين رهبان الدير؟ أوَلم أقبل العذاب والسخرية من أجل هذه الحقيقة التي أيقظتها السماء في صدري؟ أوَلم أقلْ للرهبان إنّ السعادة هي مشيئة الله في الإنسان؟

إذن ما هذا الخوف، ولماذا أغمض عينيّ وأحوّل وجهي عن النور المنبعث من عينَيْ هذه الصبيّة؟ أنا مطرود وهي فقيرة، ولكن أبالخبز وحده يحيا الإنسان؟ أوَليست الحياة دينًا ووفاء؟ أوَلسنا بين العوز واليسر كالأشجار بين الشتاء والصيف؟ ولكن ماذا تقول راحيل إذا علمت أنّ روح الفتى المطرود من الدير وروح ابنتها الوحيدة قد تفاهمتا في السكينة واقتربتا من دائرة النور الأعلى؟ وماذا تفعل يا ترى إذا ما دَرَتْ بأنّ الشاب الذي خلّصته من مخالب الموت يريد أن يكون رفيقًا لابنتها؟ وماذا يقول سكّان هذه القرية البسطاء إذا ما علموا أنّ فتى ربِيَ في الدير

وخرج منه مطرودًا، جاء قريتهم لكي يعيش بقرب صبيّة جميلة؟ أفلا يغلقون آذانهم إذا ما قلت لهم إنّ الذي يغادر الدير ليعيش بينهم يكون كالطائر الذي يخرج من ظلمة القفص إلى النور والحرّيّة؟ وماذا يقول الشيخ عبّاس العائش بين هؤلاء الفلّاحين المساكين كالأمير بين العبيد، إذا ما سمع حكايتي؟ وماذا يفعل كاهن القرية إذا ما ردّدوا على مسامعه تلك الأقوال التي سبّبت طردي من الدير؟

كان خليل يناجي نفسه وهو جالس بقرب الموقد يتأمّل ألسنة النّار الشبيهة بعواطفه. أمّا مريم فكانت تختلس النظرات إليه وتقرأ أحلامه في ملامح وجهه، وتسمع صدى أفكاره خارجًا من صدره، وتشعر بأخيلة هواجسه متمايلة حول قلبه.

ففي عشيّة يوم، وقد وقف خليل بقرب الكوّة المطلّة نحو الوادي، حيث الأشجار والصخور الملتحفة بالثلوج التحاف الأموات بالأكفان، جاءت مريم ووقفت بجانبه ونظرت من الكوّة إلى الفضاء، فالتفت نحوها، وإذ التقت عيناه بعينيها تنهّد تنهيدة محرقة ثمّ حوّل وجهه وأغمض أجفانه كأنّ نفسه قد تركته وسبحت ساعية في أعماق اللانهاية باحثة عن كلمة تقولها.

وبعد هنيهة تشجّعت مريم وسألته قائلة: إلى أيّ مكان تذهب عندما تذوب هذه الثلوج وتنفتح الطرقات؟

فأجابها وقد فتح عينيه الكبيرتين وحدّق إلى الأفق البعيد: سوف أتبع الطريق إلى حيث لا أعلم.

فارتعشت روح مريم ثمّ قالت متنهّدة: لماذا لا تسكن في هذه القرية وتبقى قريبًا منّا؟ أليست الحياة ههنا أفضل من الغربة البعيدة؟

فأجابها وقد اضطربت أحشاؤه لرقّة كلماتها ونغمة صوتها: إنّ سكّان هذه القرية لا يقبلون المطرود من الدير جارًا لهم ولا يسمحون له

أن يتنفّس الهواء الذي يحييهم، لأنّهم يحسبون عدوّ الرهبان كافرًا بالله وقدّيسيه.

فتأوّهت مريم ولبثت ساكتة، لأنّ الحقيقة الجارحة قد أخرستها. حينئذ أسند خليل رأسه بيده وقال: إنّ سكّان هذه القرى يا مريم قد تعلّموا من الرهبان والكهّان بغض كلّ من يفكر لذاته، فصاروا يقلّدونهم ويبتعدون مثلهم عن جميع الذين يريدون أن يصرفوا حياتهم فاحصين لا تابعين. فإذا بقيت في هذه القرية وقلت لسكّانها تعالوا يا إخوتي نعبد ونصلّي حسب مشيئة نفوسنا، لا مثلما يريد الرهبان والقسس، لأنّ الله لا يريد أن يكون معبودًا من الجاهل الذي يقلّد غيره، يقولون هذا ملحد يعاند السلطة التي وضعها الله في أيدي كهّانه. وإن قلت لهم اصغوا يا إخوتي واسمعوا صوت قلوبكم، واعملوا إرادة الروح الكائنة في أعماقكم، يقولون هذا شرّير يريدنا أن نكفر بالوسائط التي أقامها الله بين السماء والأرض.

ونظر خليل إذ ذاك إلى عينَيْ مريم، وبصوت يحاكي رنين الأوتار الفضيّة قال: ولكن في هذه القرية يا مريم قوّة سحريّة تمتلكني وتتشبّث بنفسي – قوَّة علويّة قد أنستني اضطهاد الرهبان وحبّبت إليّ قساوتهم. في هذه القرية لقيت الموت وجهًا لوجه، وفيها عانقت روحي روح الله. في هذه القرية زهرة نابتة بين الأشواك، يستميل جمالها نفسي ويملأ عطرها كبدي. فهل أترك هذه الزهرة وأذهب مبشّرًا بالمبادئ التي أبعدتني عن الدير، أم أبقى بجانبها وأحفر لأفكاري وأحلامي قبرًا بين الأشواك المحيطة بها؟ ماذا أفعل يا مريم؟

سمعت مريم هذه الكلمات فاهتزّت قامتها مثلما ترتعش الزنبقة أمام نسيم السحر، وفاضت أشعّة قلبها من مقلتيْها، فقالت والحياء يغالب لسانها: كلانا بين يدي قوّة خفيّة عادلة رحوم، فلندعها تفعل ما تشاء بنا.

منذ تلك الدقيقة تمازجت عواطف خليل بعواطف مريم، وصارت نفساهما شعلة واحدة متّقدة ينبعث منها النور ويتضوّع حولها البخور.

5

منذ ابتداء الدهر إلى أيّامنا هذه، والفئة المتمسّكة بالشرف الموروث تتحالف وتتّفق مع الكهّان ورؤساء الأديان على الشعب. هي علّة مزمنة قابضة بأظفارها على عنق الجامعة البشريّة، ولن تزول إلّا بزوال الغباوة من هذا العالم عندما يصير عقل كلّ رجل ملكًا ويصبح قلب كلّ امرأة كاهنًا.

ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء. والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين. الأمير يقبض على ذراعَي الفلّاح المسكين والكاهن يمدّ يده إلى جيبه. الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابسًا والمطران يلتفت نحوهم مبتسمًا. وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع. الحاكم يدّعي تمثيل الشريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد وتضمحلّ الأرواح.

وفي لبنان – ذلك الجبل الغنيّ بنور الشمس الفقير إلى نور المعرفة – قد اتّحد الشريف والكاهن على الفقير الضعيف الذي يحرث الأرض ويستغلّها كيما يحمي جسده من سيف الأوّل ولعنة الثاني.

ابن الشرف الموروث يقف في لبنان بجانب قصره ويصرخ باللبنانيّين قائلًا: قد أقامني السلطان وليًّا على أجسادكم. والكاهن ينتصب أمام المذبح هاتفًا: قد أقامني الله وصيًّا على أرواحكم. أمّا اللبنانيّون فيظلّون صامتين لأنّ القلوب المغلّفة بالتراب لا تنكسر، لأنّ الأموات لا يبكون.

فالشيخ عبّاس الذي كان في تلك القرية وليًّا وحاكمًا وأميرًا، كان محبًّا لرهبان الدير، محافظًا على تعاليمهم وتقاليدهم، لأنّهم كانوا يشاركونه بقتل المعرفة وإحياء الطاعة في نفوس حارثي حقوله وكرومه.

ففي ذلك المساء – بينما كان خليل ومريم يقتربان من عرش الحب، وراحيل تنظر إليهما بانعطاف مستطلعة خفايا نفسيهما – ذهب الخوري الياس كاهن القرية وأخبر الشيخ عبّاس أنّ الرهبان الأتقياء قد طردوا من الدير فتى متمرّدًا شرّيرًا، وأنّ هذا الملحد الكافر قد جاء القرية منذ أسبوعين، وهو الآن ساكن في بيت راحيل أرملة سمعان الرامي.

ولم يكتفِ الخوري الياس بإبلاغ الشيخ هذا الخبر، بل زاد قائلًا: إنّ الشيطان الذي يُطرد من الدير لا ينقلب ملاكًا في هذه القرية، والتينة التي يقطعها ربّ الحقل ويلقيها في النار لا تعطي ثمارًا جيّدة وهي في الموقد. فإن كنّا نريد أن تبقى هذه القرية سالمة من جراثيم العلل الخبيثة، علينا أن نطرد هذا الشاب من منازلنا وحقولنا مثلما طرده الرهبان من الدير.

فسأله الشيخ عبّاس قائلًا: وكيف عرفت أنّ هذا الشابّ سيكون في هذه القرية كالعلّة الخبيثة؟ أليس أفضل أن نبقيه عندنا ونجعله ناطورًا للكروم أو راعيًا للبقر؟ نحن بحاجة ماسة إلى العمّال، فإذا جلبت لنا الطريق فتى قوي الساعدين نسترضيه ولا نتركه.

فابتسم الكاهن تلك الابتسامة الشبيهة بملامس الأفعى ثمّ قال ممشطًا لحيته الكثيفة بأصابعه: لو كان هذا الشابّ صالحًا للعمل لما طرده الرهبان، لأنّ أراضي الدير واسعة وقطعانه لا تحصر. وقد أخبرني مكاري الدير الذي بات عندي ليلة أمس، أنّ هذا الشابّ كان يردّد على مسامع الرهبان آيات الكفر مقرونة بألفاظ ثوريّة تدلّ على طيشه وخباثته، فقد تجاسر مرّات عديدة وخطب فيهم قائلًا: أرجعوا حقول الدير وكرومه وأمواله إلى سكّان هذه القرى الفقراء، وتفرّقوا إلى كلّ ناحية وذاك خير من الصلاة والعبادة. وأخبرني المكاري أيضًا بأنّ قساوة التوبيخ وأوجاع الجلد بالسياط وظلمة السجن، لم تُعد لهذا الكافر صوابه، بل كانت تغذّي الشيطان القابض على نفسه مثلما تُكثر أوساخ المزابل عدد الحشرات.

فانتصب الشيخ عبّاس على قدميه، ونظير نمر يتراجع قليلًا إلى الوراء قبيل الوثوب بقي ساكتًا هنيهة يصرّ أسنانه وينتفض غيظًا. ثمّ مشى نحو باب القاعة ونادى خدّامه بصوت عالٍ، فجاء ثلاثة منهم ووقفوا أمامه مستطلعين أمره، فخاطبهم قائلًا: في بيت راحيل الأرملة شابّ مجرم يرتدي أثواب راهب، فاذهبوا الآن وقودوه إليّ مكتوفًا، وإن قاومتكم تلك المرأة اقبضوا عليها وجرّوها على الثلج بجدائل شعرها، لأنّ مَن يساعد الشرّير يكون شرّيرًا.

فحنى الخدّام رؤوسهم وخرجوا مسرعين ليتمّموا مشيئة سيّدهم، وبقي الشيخ عبّاس والكاهن يتحدّثان عمّا يجب أن يفعلاه بالشابّ المطرود وراحيل الأرملة.

6

توارى النهار وقدم الليل ناشرًا أخيلته بين تلك الأكواخ المكتنفة بالثلوج وظهرت النجوم في ذلك الفضاء المظلم البارد ظهور الأمل بالخلود من وراء أوجاع النزع والموت. فأوصد الفلّاحون الأبواب والنوافذ وأشعلوا السرج، وجلسوا يصطلون بقرب المواقد غير حافلين بأشباح الليل السائرة حول بيوتهم.

في تلك الساعة بينما كانت راحيل وابنتها مريم وخليل جالسين حول مائدة خشبيّة يتناولون العشاء، طُرق الباب ودخل عليهم خدّام الشيخ عبّاس، فالتفتت راحيل مذعورة وشهقت مريم مرتاعة، أمّا خليل فلبث هادئًا كأنّ نفسه الكبيرة قد تنبّأت وعلمت بمجيء هؤلاء الرجال قبيل مجيئهم.

فاقترب أحد الخدّام وألقى يده بعنف على كتف خليل وقال بصوت أجشّ: ألست أنت الشاب المطرود من الدير؟ فأجابه خليل ببطء: أنا هو فماذا تريدون؟

فقال الرجل: نريد أن نسير بك مكتوفًا إلى منزل الشيخ عبّاس، وإن أبديت ممانعة نجرّك على الثلج كالخروف المذبوح.

فانتصبت راحيل وقد اصفرّ وجهها وتجعدّت جبهتها وقالت بصوت مرتجف: أيّ ذنب أتاه أمام الشيخ عبّاس، ولماذا تريدون جرّه مكتوفًا؟

وقالت مريم ونغمة الرجاء والاستعطاف تمازج صوتها: هو فرد وأنتم ثلاثة، فمن الجبانة أن تتحالفوا على إذلاله وتعذيبه.

فصرخ الخادم وقد حمي غضبه: أيوجد في هذه القرية امرأة تعارض مشيئة الشيخ عبّاس؟ قال هذا وانتشل من وسطه حبلًا متينًا وهمّ ليوثق به كتفَيْ خليل، فوقف الشاب ولم تتغيّر ملامحه، بل ظلّ رأسه مرفوعًا كالبرج أمام الزوبعة، وسالت على شفتيه ابتسامة محزنة ثمّ قال: أنا أشفق عليكم أيّها الرجال، لأنّكم آلة قويّة عمياء في يد مبصر ضعيف يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدكم. أنتم عبيد الغباوة والغباوة هي أشدّ اسودادًا من بشرة الزنوج، وأكثر استسلامًا للحيف والقساوة. كنت بالأمس مثلكم أيّها الرجال وغدًا تصيرون مثلي، أمّا الآن فبيننا هوّة عميقة مظلمة تمتصّ ندائي وتحجب حقيقتي عنكم فلا تسمعون ولا تبصرون. ها أنذا فشدّوا ساعديّ وافعلوا بي ما شئتم.

سمع الرجال هذا الكلام. فجمدت عيونهم واقشعرّت أبدانهم وبهتوا بالشابّ هنيهة كأن عذوبة صوته قد انتزعت الحركة من أجسادهم، وأيقظت الميول العلويّة الهاجعة في أعماق قلوبهم، ولكنّهم عادوا فانتبهوا كأنّ صدى صوت الشيخ عبّاس قد تململ في مسامعهم، وذكّرهم بالمهمّة التي بعثهم من أجلها، فتقدّموا وأوثقوا ساعدَي الشاب وخرجوا به ساكتين شاعرين بشيء من الألم بين تلافيف ضمائرهم. فاتبعتهم راحيل ومريم، ونظير بنات أورشليم عندما اتبعن يسوع إلى الجلجلة، سارتا خلف خليل نحو منزل الشيخ عبّاس.

7

إن الأخبار، كبيرة كانت أم تافهة، تنتقل بسرعة الفكر بين الفلاحين في القرى الصغيرة، لأنّ بُعدهم عن مشاغل الاجتماع المتتابعة يجعلهم ينصرفون بكلّيتهم إلى استقصاء ما يحدث في محيطهم المحدود. وفي أيّام الشتاء عندما تكون الحقول والبساتين راقدة تحت لحف الثلوج، وتنزوي الحياة خائفة مستدفئة حول المواقد يصير القرويون أشد رغبة وأكثر ميلًا إلى استطلاع الأخبار لكي يملأوا بتأثيراتها أيّامهم الفارغة، ويصرفوا باستفسارها لياليهم الباردة.

وهكذا لم يقبض خدّام الشيخ عبّاس على خليل في تلك الليلة حتّى انتشر الخبر كالعدوى بين سكّان تلك القرية، وأثارت محبّة الاستفهام نفوسهم، فتركوا أكواخهم وتراكضوا مسرعين من كلّ ناحية كالجنود المتفرّقين، فلم يبلغ الشاب المكتوف منزل الشيخ حتّى اجتمع في تلك الدار الواسعة، الرجال والنساء والصبيان وكلّهم يمدّون أعناقهم بتشوّق ليحظوا بنظرة من الكافر المطرود من الدير، ومن راحيل الأرملة وابنتها مريم اللتين شاركتا الأرواح الشرّيرة في بثّ السموم والعلل الجهنميّة في فضاء قريتهم.

جلس الشيخ عبّاس على مقعد عالٍ، وتربّع بجانبه الخوري الياس، ووقف الفلّاحون والخدّام مترقّبين محدّقين إلى الفتى المكتوف الواقف بينهم برأس مرفوع وقوف الطود بين المنخفضات. أمّا راحيل ومريم فكانتا واقفتين خلفه والخوف يراود قلبيهما، ونظرات القوم القاسية تعذب نفسيهما، ولكن ماذا يفعل الخوف في عواطف امرأة رأت الحق فاتبعته؟ وماذا تفعل النظرات القاسية في فؤاد صبيّة سمعت نداء الحبّ فاستيقظت؟

ونظر الشيخ عبّاس إذ ذاك نحو الشابّ، وبصوت يشابه ضجيج الأمواج سأله قائلًا: ما اسمك أيّها الرجل؟

فأجابه: اسمي خليل. فقال الشيخ: مَن هم أهلك وذووك وأين مسقط رأسك؟

فالتفت خليل نحو الفلّاحين الناظرين إليه بكره واشمئزاز وقال: الفقراء والمساكين المظلومون هم أهلي وعشيرتي. وهذه البلاد الواسعة هي مسقط رأسي.

فابتسم الشيخ عبّاس مستهزئًا ثمّ قال: إنّ الذين تنتسب إليهم يطلبون معاقبتك، والبلاد التي تدّعيها وطنك تأبَى أن تكون من سكّانها.

فقال خليل وقد اضطربت أحشاؤه: إنّ الشعوب الجاهلة تقبض على أشرف أبنائها وتسلّمهم إلى قساوة العتاة والظالمين. والبلاد المغمورة بالذلّ والهوان تضطهد محبّيها ومخلصيها. ولكن أيترك الابن الصالح والدته إذا كانت مريضة، وينكر الأخ الرؤوف أخاه إذا كان تعسًا؟

إنّ هؤلاء المساكين الذين أسلموني إليك مكتوفًا اليوم هم الذين أسلموك رقابهم بالأمس. والذين أوقفوني مهانًا أمامك هم الذين يزرعون حبّات قلوبهم في حقولك، ويهرقون دماء أجسادهم على قدميك، وهذه الأرض التي تأبَى أن أكون من سكّانها هي الأرض التي لا تفغر فاها وتبتلع الطغاة والطامعين.

فقهقه الشيخ عبّاس ضاحكًا كأنّه يريد أن يُغرق بضحكه القبيح روح الشابّ ويوقفها عن المسير إلى أرواح السامعين البسطاء، ثمّ قال: أوَلم تكن راعيًا لثيران الدير أيّها الشابّ الوقح؟ فلماذا تركت رعيتك وخرجت مطرودًا؟ هل ظننت أنّ الشعب يكون أكثر رأفة بالمجاذيب الملحدين من الرهبان الأتقياء؟

فأجابه خليل: كنت راعيًا ولم أكن جزّارًا. كنت أقود العجول إلى المروج الخضراء والمراعي الخصبة، ولم أسر بها قطّ إلى الطلول الجرداء. كنت أوردها الينابيع العذبة وأبعدها عن المستنقعات الفاسدة. كنت

أعيدها في المساء إلى الحظيرة ولم أتركها في الوادي فريسة للذئاب والضواري الخاطفة.

هكذا كنت أفعل بالبهائم، ولو فعلت أنت مثلي بهذا القطيع المهزول الرابض الآن حولنا لما كنت تسكن هذا القصر الرفيع وتتركه يبيد جوعًا في الأكواخ المظلمة. ولو كنت ترحم أبناء الله المخلصين مثلما كنت أرحم عجول الدير لما كنت جالسًا الآن على هذا المقعد الحرير وهم واقفون أمامك وقوف القضبان العارية أمام ريح الشمال.

فتحرّك الشيخ عبّاس منزعجًا، وتلمّعت على جبهته قطرة عرق باردة وتبدّل ضحكه بالغضب، ولكنّه عاد فامتلك نفسه كيلا يظهر الاهتمام والاكتراث أمام رجاله وتابعيه، ثمّ قال مشيرًا بيده: لم نأتِ بك مكتوفًا أيّها الكافر لنسمع هذيانك، بل أحضرناك لكي نحاكمك كمجرم شرّير، فاعلم إذن أنّك واقف الآن أمام سيّد هذه القرية وممثّل إرادة الأمير أمين الشهابي أيّده الله[2]. وأمام الخوري ممثّل الكنيسة المقدّسة التي كفرت بها. فدافع إذن عن نفسك ممّا اتّهمت به، أو فاركع مسترحمًا نادمًا أمامنا وأمام هذا الجمع الساخر بك، فنغفر لك ونجعلك راعيًا للبقر مثلما كنت في الدير.

فأجاب الشابّ بهدوء: إنّ المجرم لا يحاكمه المجرمون، والكافر الشرّير لا يدافع عن نفسه أمام الخطأة.

قال هذه الكلمات والتفت نحو الجمع المزدحم في تلك القاعة الواسعة، وبصوت جهوري يشابه رنين الأجراس الفضّيّة ناداهم قائلًا: أيّها الإخوة، إنّ الرجل الذي أقامه خضوعكم واستسلامكم سيّدًا على حقولكم قد أحضرني مكتوفًا ليحاكمني أمامكم في هذا القصر المبنيّ فوق بقايا آبائكم وجدودكم، والرجل الذي جعله إيمانكم كاهنًا في

---

[2] الأمير أمين شهاب هو ابن الأمير الكبير، وقد حكم الجبل بعد موت أبيه.

كنيستكم قد جاءني ليدينني، ويساعد على تعذيبي وإذلالي. أمّا أنتم فقد تراكضتم مسرعين من كلّ ناحية لكي تنظروني متألّمًا وتسمعوني مستغيثًا مسترحمًا. قد تركتم جوانب المواقد الدافئة لتشاهدوا ابنكم وأخاكم مكتوفًا مهانًا. قد أسرعتم لتروا الفريسة المتوجّعة بين مخالب الضواري. قد جئتم لتنظروا المجرم الكافر واقفًا أمام القضاة. أنا هو المجرم. أنا هو الكافر الذي طُرد من الدير فحملته العاصفة إلى قريتكم. أنا هو ذلك الشرّير، فاسمعوا احتجاجي، ولا تكونوا مشفقين بل كونوا عادلين، لأنّ الشفقة تجوز على المجرمين الضعفاء، أمّا العدل فهو كلّ ما يطلبه الأبرياء.

قد اخترتكم قضاتي لأنّ إرادة الشعب هي مشيئة الله، فأيقظوا قلوبكم واسمعوني جيّدًا ثمّ احكموا عليّ بما توحيه ضمائركم. قد قيل لكم إنّي رجل كافر شرّير، ولكنّكم لم تعرفوا ما هي جريمتي. وقد رأيتموني مكتوفًا كاللصّ القاتل ولم تسمعوا بعد بذنوبي، لأنّ حقيقة الجرائم والذنوب في هذه البلاد تظلّ مستترة وراء الضباب. أمّا العقاب فيظهر للناس ظهور أسياف البرق في ظلمة الليل.

جريمتي أيّها الرجال هي إدراكي تعاستكم وشعوري بثقل قيودكم. وآثامي أيّتها النساء هي شفقتي عليكنّ وعلى أطفالكنّ الذين يمتصّون الحياة من صدوركنّ ممزوجة بلهاث الموت.

أنا واحد منكم أيّها الجمع، وقد عاش آبائي وجدودي بين هذه الأودية التي تستفرغ قواكم، وماتوا تحت هذا النير الذي يلوي أعناقكم. أنا أؤمن بالله الذي يسمع نداء نفوسكم المتوجّعة ويرى صدوركم المقروعة. وأؤمن بالكتاب الذي يجعلني ويجعلكم إخوة متساوين أمام وجه الشمس. وأؤمن بالتعاليم التي تحرّرني وتحرّركم من عبوديّة البشر، وتوقفنا جميعًا بغير قيود على الأرض موطئ أقدام الله.

كنت في الدير راعيًا للبقر، ولكنّ انفرادي مع البهائم الخرساء في البرّيّة الساكنة لم يُعمِني عن المأساة الأليمة التي تمثلونها كرهًا في الحقول. ولم يصمّ أذنيّ عن صراخ اليأس المتصاعد من قراني الأكواخ. قد نظرت فرأيتني في الدير ورأيتكم في الحقول كقطيع من النعاج سائر وراء ذئب خاطف إلى وكره، فوقفت في منتصف الطريق وصرخت مستغيثًا، فهجم الذئب ونهشني بأنيابه المحدّدة، ثمّ احتال عليّ وأبعدني كيلا يثير صراخي روح القطيع فيتمرّد ويتفرّق مذعورًا إلى كلّ ناحية ويتركه منفردًا جائعًا في ظلام الليل.

قد احتملت السجن والجوع والعطش من أجل الحقيقة الجارحة التي رأيتها مكتوبة بالدماء على وجوهكم، وقاسيت العذاب والجلد والسخرية لأنّني جعلت لسكينة تنهيداتكم صوتًا صارخًا متموّجًا في خلايا الدير. ولكنّني لم أخف قطّ ولم يضعف قلبي لأنّ صراخكم الأليم كان يتبع نفسي ويجدّد قواي، ويحبّب إليَّ الاضطهاد والاحتقار والموت.

أنتم تسألون نفوسكم الآن قائلين: متى صرخنا متظلّمين وأيّ فرد منّا يتجاسر أن يفتح شفتيه؟ وأنا أقول لكم إنّ نفوسكم تصرخ متظلّمة في كلّ يوم وقلوبكم تستغيث متوجّعة في كلّ ليلة، ولكنّكم لا تسمعون نفوسكم وقلوبكم، لأنّ المنازع لا يسمع حشرجة صدره، أمّا الجالسون بجانب مضجعه فيسمعون. والطائر المذبوح يرقص متململًا قسر إرادته ولا يعلم، أمّا الناظرون فيعلمون.

في أيّ ساعة من النهار لا تتأوّه أرواحكم متوجعّة؟ أفي الصباح عندما تنهركم محبّة البقاء وتمزّق نقاب الكرى عن أجفانكم وتقودكم كالعبيد إلى الحقول؟ أم في الظهيرة عندما تتمنّون الجلوس في ظلّ الأشجار لكي تتّقوا سهام الشمس المحرقة ولا تستطيعون؟ أم في المساء عندما تعودون جائعين إلى أكواخكم ولا تجدون سوى الخبز اليابس

والماء العكر؟ أم في الليل عندما تطرحكم المتاعب على الأسرّة الحجريّة فتنامون قلقين، ولا يكحل النعاس أجفانكم إلّا وتهبّون متوهّمين صوت الشيخ يرنّ في آذانكم؟ وفي أيّ فصل من السنة لا تندب قلوبكم متحسّرة؟ أفي الربيع عندما ترتدي الطبيعة حلّة جديدة فتخرجون لمشاهدتها بأطمار بالية ممزّقة؟ أم في الصيف عندما تحصدون الزرع وتجمعون الأغمار على البيادر وتملأون أهراء سيّدكم الظلوم بالغلّة، ولا تحصلون لقاء أتعابكم على غير التبن والزوان؟ أم في الخريف عندما تجنون الأثمار وتعصرون العنب ولا يكون نصيبكم منها سوى الخلّ والبلوط؟ أم في الشتاء عندما يضطهدكم الفضاء ويطردكم البرد والزمهرير إلى الأكواخ الملتحفة بالثلوج، فتجلسون بجانب المواقد متأفّفين خائفين غضب الزوابع والعواصف؟

هذه هي حياتكم أيّها الفقراء. هذا هو الليل المخيّم على أرواحكم أيّها التعساء. هذه هي أشباح ذلّكم وشقائكم أيّها المساكين. هذا هو الصراخ الأليم المستمرّ الذي سمعته خارجًا من أعماق صدوركم، فاستيقظت وتمرّدت على الرهبان وكفرت بمعيشتهم، ووقفت منفردًا متظلّمًا باسمكم واسم العدالة المتوجّعة بأوجاعكم، فحسبوني كافرًا شرّيرًا وطردوني من الدير فجئت لكي أشاطركم التعاسة وأعيش بقربكم، وأمزج دموعي بدموعكم، فأسلمتموني مكتوفًا إلى عدوّكم القويّ الذي يغتصب خيراتكم، ويحيا غنيًّا بأموالكم ويملأ جوفه الواسع من أثمار أتعابكم.

ألا يوجد بينكم شيوخ يعلمون أنّ الأرض التي تحرثونها وتحرمون غلّتها هي لكم وقد اغتصبها والد الشيخ عبّاس من آبائكم عندما كانت الشريعة مكتوبة على حدّ السيف؟ أما سمعتم بأنّ الرهبان قد احتالوا على جدودكم وامتلكوا مزارعهم وكرومهم عندما كانت آيات الدين مخطوطة

على شفتَي الكاهن؟ ألا تعلمون أنّ ممثلي الدين وأبناء الشرف الموروث يتعاونون على إخضاعكم وإذلالكم واستقطار دماء قلوبكم؟ أيّ رجل منكم لم يلوِ عنقه كاهن الكنيسة أمام سيّد الحقول؟ وأيّ امرأة بينكم لم يزجرها سيّد الحقول ويستحثّها لكي تتبع مشيئة كاهن الكنيسة؟

قد سمعتم بأنّ الله قال للإنسان الأوّل: بعرق جبينك تأكل خبزك. فلماذا يأكل الشيخ عبّاس خبزه مجبولًا بعرق جبينكم ويشرب خمرة ممزوجة بدموعكم؟ هل ميّز الله هذا الرجل وجعله سيّدًا إذ كان في رحم أمّه؟ أم غضب عليكم لذنوب مجهولة وبعثكم عبيدًا إلى هذه الحياة لكي تجمعوا غلّة الحقول ولا تأكلوا غير أشواك الأودية، وتقيموا القصور الفخمة ولا تسكنوا غير الأكواخ المتداعية؟

قد سمعتم بأن يسوع الناصري قد قال لتلاميذه: مجّانًا أخذتم مجّانًا أعطوا. لا تقتنوا فضّة ولا ذهبًا ولا نحاسًا في مناطقكم. إذن أيّ تعاليم أباحت للرهبان والكهّان بيع صلواتهم وتعازيمهم بالفضّة والذهب؟ أنتم تصلّون في سكينة الليالي قائلين: أعطنا يا ربّ خبزنا كفاف يومنا. والربّ قد وهبكم هذه الأرض لتعطيكم الخبز الكفاف، فهل وهب رؤساء الأديرة السلطة لانتزاع هذا الخبز من بين أيديكم؟ أنتم تلعنون يهوذا لأنّه باع سيّده بالفضّة، فأيّ شيء يجعلكم تباركون الذين يبيعونه في كلّ يوم من حياتهم؟ إنّ يهوذا التعس قد ندم على خطيئته فشنق نفسه، أمّا هؤلاء فيسيرون أمامكم برؤوس مرفوعة وأذيال طويلة ناعمة، وقلائد ذهبيّة وخواتم ثمينة. أنتم تعلّمون أبناءكم محبّة الناصري، فكيف تعلّمونهم الخضوع أمام مبغضيه ومخالفي تعاليمه وشرائعه؟ قد عرفتم أنّ رسل المسيح قد ماتوا قتلًا ورجمًا لكي يحيوا فيكم الروح المقدّسة، فهل تعرفون أنّ الرهبان والكهّان يقتلون أرواحكم لكي يحيوا متمتّعين بخيراتكم متلذّذين بحرتقة قيودكم؟ ماذا يغرّكم أيّها المساكين في وجود

مفعم بالذلّ والهوان ويبقيكم راكعين أمام صنم مخيف أقامه الكذب والرياء على قبور آبائكم؟ وأيّ كنز ثمين تحافظون عليه بخضوعكم لتبقوه إرثًا لأبنائكم؟

نفوسكم في قبضة الكاهن، وأجسادكم بين مخالب الحاكم، وقلوبكم في ظلمة اليأس والأحـزان. فأيّ شيء في الحياة يمكنكم أن تشيروا إليه قائلين: هذا لنا؟ أتعرفون أيّها المستسلمون الضعفاء مَن هو الكاهن الذي تهابونه وتقيمونه وصيًّا على أقدس أسرار نفوسكم؟ اسمعوني فأبيّن لكم ما تشعرون أنتم به وتخافون إظهاره.

هو خائن يعطيه المسيحيون كتابًا مقدّسًا فيجعله شبكة يصطاد بها أموالهم، ومراء يقلّده المؤمنون صليبًا جميلًا فيمتشقه سيفًا سنينًا ويرفعه فوق رؤوسهم، وظالم يسلّمه الضعفاء أعناقهم فيربطها بالمقاود ويوثقها باللجم ويقبض عليها بيد من حديد، ولا يتركها حتّى تنسحق كالفخار وتتبدّد كالرماد.

هو ذئب كاسر يدخل الحظيرة فيظنّه الراعي خروفًا وينام مطمئنًا، وعند مجيء الظلام يثب على النعاج ويخنقها نعجة إثر نعجة.

هو نهم يحترم موائد الطعام أكثر من مذابح الهيكل، وطامع يتبع الدينار إلى مغاور الجنّ، ويمتصّ دماء العباد مثلما تمتصّ رمال الصحراء قطرات المطر، وبخيل يحرص على أنفاسه ويذخر ما لا يحتاج إليه.

هو محتال يدخل من شقوق الجدران ولا يخرج إلّا بسقوط البيت. ولصّ صخريّ القلب ينتزع الدرهم من الأرملة والفلس من اليتيم.

هو مخلوق عجيب له منقار النسر، ومقابض النمر، وأنياب الضبع، وملامس الأفعى. خذوا كتابه ومزّقوا ثوبه وانتفوا لحيته، وافعلوا به ما شئتم، ثمّ عودوا وضعوا الدينار في كفّه فيغفر لكم ويبتسم بمحبّة. اصفعوا خدّه وابصقوا بوجهه ودوسوا عنقه ثمّ أجلسوه على موائدكم

فيتناسى ويتهلّل ويحلّ حزامه لينمو جوفه بمآكلكم ومشاربكم. جدّفوا على اسم ربّه واقذفوا بعقائده واسخروا بإيمانه، ثمّ ابعثوا إليه بجرّة من الخمر أو بسلّة من الفاكهة فيسامحكم ويبرّركم أمام الله والناس.

يرى المرأة فيحوّل وجهه قائلًا بأعلى صوته: ابتعدي عني يا ابنة بابل. ثمّ يهمس بسرّه قائلًا: الزيجة أفضل من التحرّق. يرى الفتيان والصبايا سائرين في موكب الحبّ فيرفع عينيه نحو السماء ويهتف قائلًا: باطلة الأباطيل، وكلّ شيء تحت الشمس باطل. ثمّ يختلي ويتنهّد قائلًا: لتفنَ الشرائع وتضمحلّ التقاليد التي أبعدتني عن غبطة الحياة وحرمتني ملذات العمر... يقول للناس مستشهدًا: لا تدينوا لئلّا تدانوا. ولكنّه يدين بقساوة جميع الذين يسخرون بمكارهه، ويبعث بأرواحهم إلى الجحيم قبل أن يبعدهم الموت عن هذه الحياة. يحدّثكم رافعًا عينيه بين الآونة والأخرى نحو العلاء، أمّا فكرته فتظلّ منسابة كالأفعى حول جيوبكم. يناديكم بقوله لكم: يا أولادي ويا أبنائي، وهو لا يشعر بالعاطفة الأبويّة، ولا تبتسم شفتاه لرضيع، ولا يحمل طفلًا على منكبيه. يقول لكم هازًّا رأسه بتخشّع: لنترفّعنّ عن العالميات، لأنّ أعمارنا تضمحلّ كالضباب، وأيّامنا تزول كالفيء، وإذا نظرتم جيّدًا رأيتموه متمسّكًا بأذيال الحياة، متشبّثًا بأهداب العمر، متأسّفًا على ذهاب الأمس، حانقًا من سرعة اليوم، مترقّبًا مجيء الغد.

يطلب منكم الإحسان وهو أوفر منكم مالًا، فإن أجبتموه يبارككم علنًا، وإن منعتموه يلعنكم سرًّا. في الهيكل يوصيكم بالفقراء والمحتاجين، وحول منزله يصرخ الجائعون، وأمام عينيه تُمدّ أيدي البائسين، فلا ينظر ولا يسمع... يبيع صلاته، ومن لا يشترِ يكنْ كافرًا بالله وأنبيائه، محرومًا من الجنّة والنعيم.

هذا هو المخلوق الذي يخيفكم أيّها المسيحيّون. هذا هو الراهب الذي يمتصّ دماءكم أيّها الفقراء. هذا هو الكاهن الذي يرسم إشارة

الصليب بيمينه ويقبض على قلوبكم بشماله. هذا هو الأسقف الذي تقيمونه خادمًا فينقلب سيّدًا، وتطوّبونه قدّيسًا فيصير شيطانًا، وترفعونه نائبًا فيصبح نيرًا ثقيلًا. هذا هو الظلّ الذي يتبع أرواحكم منذ بلوغها هذا العالم حتّى رجوعها إلى الأبديّة. هذا هو الرجل الذي جاء في هذه الليلة لكي يدينني ويرذلني، لأنّ روحي تمرّدت على أعداء يسوع الناصري الذي أحبّكم ودعاكم إخوة له ثمّ صُلب من أجلكم.

وتهلّل وجه الشاب المكتوف، وقد شعر باليقظة الروحيّة المتمايلة في صدور سامعيه، واتّضحت له تأثيرات كلامه في وجوه الناظرين إليه، فرفع صوته وزاد قائلًا: قد سمعتم أيّها الإخوة بأنّ الشيخ عبّاس قد أقامه الأمير أمين الشهابي سيّدًا على هذه القرية. وسمعتم أيضًا بأن الأمير قد أقامه المليك حاكمًا على هذا الجبل. فهل سمعتم أو رأيتم القوّة التي أقامت المليك ربًّا على هذه البلاد؟ أنتم لا ترون تلك القوّة متجسّدة ولا تسمعونها متكلّمة، ولكنّكم تشعرون بوجودها في أعماق أرواحكم وتسجدون أمامها مصلّين مبتهلين وتنادونها بقولكم: أبانا الذي في السموات.

نعم إنّ أباكم السماوي هو الذي يقيم الملوك والأمراء، وهو القادر على كلّ شيء. ولكن هل تعتقدون أنّ أباكم الذي أحبّكم وعلّمكم سبل الحق بواسطة أنبيائه يريد أن تكونوا مظلومين ومرذولين؟ هل تعتقدون أنّ الله الذي ينزل السحاب مطرًا، ويستنبت البذور زرعًا، وينمي الزهور أثمارًا، يريد أن تكونوا جياعًا محتقرين لكي يبقى واحد بينكم منتفخًا متلذّذًا؟ هل تعتقدون أنّ الروح السرمدي الذي يوحي إليكم محبّة الزوجة والرأفة بالبنين والشفقة على القريب يقيم عليكم سيّدًا قاسيًا يظلمكم ويستعبد أيّامكم؟ هل تعتقدون أنّ النواميس الأزليّة التي تحبّب إليكم نور الحياة تبعث إليكم بمن يحبّب إليكم ظلمة الموت؟ هل تعتقدون أنّ الطبيعة قد بعثت القوى في أجسادكم لكي تعود فتخضعها أمام الضعف؟

أنتم لا تعتقدون بهذه الأشياء، لأنّكم إذا فعلتم تكونون كافرين بالعدل الإلهي، جاحدين نور الحق الذي يضيء على جميع الناس. إذن أيّ شيء يجعلكم تساعدون الشرّير على نفوسكم؟ ولماذا تخالفون مشيئة الله الذي بعثكم أحرارًا إلى هذا العالم وتصيرون عبيدًا للمتمرّدين على ناموسه؟ كيف ترفعون أعينكم نحو الله القويّ وتدعونه أبًا، ثمّ تحنون رقابكم أمام الإنسان الضعيف وتدعونه سيّدًا؟ كيف يرضى أبناء الله أن يكونوا عبيدًا للبشر؟ أما دعاكم يسوع إخوة، فكيف يدعوكم الشيخ عبّاس خدمًا؟ أما جعلكم يسوع أحرارًا بالروح والحقّ، فكيف يجعلكم الأمير عبيدًا للحيف والفساد؟ أما رفع يسوع رؤوسكم نحو السماء، فكيف تخفضونها إلى التراب؟ أما سكب يسوع النور في قلوبكم، فكيف تغمرونها بالظلام؟

إنّ الله قد بعث أرواحكم في هذه الحياة كشعلات مضيئة تنمو بالمعرفة وتزيد جمالًا باستطلاعها خفايا الأيّام والليالي، فكيف تلحقونها بالرماد لتبيد وتنطفئ؟ إنّ الله قد وهب نفوسكم أجنحة لتطير بها سابحة في فضاء الحب والحرّيّة، فلماذا تجزّونها بأيديكم وتدبّون كالحشرات على أديم الأرض؟ إنّ الله قد وضع في قلوبكم بذور السعادة، فكيف تنتزعونها وتطرحونها على الصخر لتلتقطها الغربان وتذريها الأرياح؟ إنّ الله قد رزقكم البنين والبنات لكي تدرّبوهم على سبل الحقّ وتملأوا صدورهم بأغاني الكيان وتتركوا لهم غبطة الحياة إرثًا ثمينًا، فكيف تهجعون وتخلفونهم أمواتًا بين أيدي الدهر، غرباء في أرض مولدهم، تعساء أمام وجه الشمس؟ أوَليس الوالد الذي يترك ابنه الحرّ عبدًا، يكون كالوالد الذي يسأله ابنه خبزًا فيعطيه حجرًا؟ أما رأيتم عصافير الحقل تدرّب فراخها على الطيران، فكيف تعلّمون صغاركم جرّ القيود والسلاسل؟ أما رأيتم زهور الأودية تستودع بذورها حرارة الشمس، فكيف تسلّمون أطفالكم إلى الظلمة الباردة؟

وسكت خليل هنيهة كأنّ أفكاره وعواطفه قد نمت واتّسعت فلم تعد ترتدي الألفاظ ثوبًا، ثمّ قال بصوت منخفض: إنّ الكلام الذي سمعتموه منّي في هذه الليلة هو الكلام الذي طردني الرهبان من أجله؛ والروح التي شعرتم بتموّجاتها في قلوبكم هي الروح التي أوقفتني مكتوفًا أمامكم، فإذا وثب عليّ سيّد حقولكم وكاهن كنيستكم وصرعاني أموت سعيدًا فرحًا، لأنّي بإظهاري لكم حقيقة ما يحسبه الظالمون جرمًا هائلًا قد تممت مشيئة بارئي وبارئكم.

كان خليل يتكلّم وفي صوته الجهوري نغمة سحريّة تضطرب لها قلوب الرجال الناظرين إليه بإعجاب يشابه استغراب الأعمى إذا ما أبصر فجأة، وتهتزّ لحلاوتها نفوس النساء المحدّقات إليه بأعين طافحة بالدموع. أمّا الشيخ عبّاس والخوري الياس، فكانا يرتجفان غضبًا ويتلوّيان كالمطروحيْن على وسائد من الأشواك. وقد حاول كلّ منهما أن يوقف الشابّ عن الكلام فلم يستطع، لأنّه كان يخاطب الجمع بقوّة علويّة تشابه العاصفة بعزمها والنسيم برقّتها.

ولما انتهَى خليل من كلامه، وقد تراجع قليلًا إلى الوراء ووقف بجانب راحيل ومريم، حدث سكوت عميق كأنّ روحه المرفرفة في جوانب تلك القاعة الواسعة قد حوّلت بصائر القرويّين نحو مكان قصيّ وانتزعت الفكر والإرادة من نفسَيِ الشيخ والكاهن وأوقفتهما مرتعشيْن أمام أشباح ضميرهما المزعجة.

حينئذٍ وقف الشيخ عبّاس، وقد تقلّصت ملامحه واصفرّ وجهه، وانتهر الرجال الواقفين حوله قائلًا بصوت مخنوق: ما أصابكم أيّها الكلاب؟ هل تسمّمت قلوبكم وجمدت الحياة في داخل أجسادكم، فلم تعودوا قادرين على تمزيق هذا الكافر المهذار؟ هل اكتنفت روح هذا الشيطان أرواحكم وكبّلت بسحره الجهنّمي سواعدكم فلم تستطيعوا إبادته؟

قال هذه الكلمات وامتشق سيفًا كان بجانبه وهجم على الفتى المكتوف ليوقع به، فتقدّم رجل قويّ البنية من بين الشعب واعترضه قائلًا بهدوء: أغمد سيفك يا سيّدي، لأنّ مَن يأخذ بالسيف بالسيف يهلك.

فارتعش الشيخ عبّاس وسقط السيف من يده وصرخ قائلًا: هل يعترض الخادم الضعيف سيّده ووليّ نعمته؟ فأجابه الرجل: الخادم الأمين لا يشارك سيّده بالشرور والمظالم. إنّ هذا الشابّ لم يقل غير الحق، ولم يعلن لهؤلاء السامعين سوى الحقيقة.

وتقدّم رجل آخر وقال: لم يقل هذا الفتى شيئًا يستوجب الحكم، فلماذا تضطهده؟

ورفعت امرأة صوتها وقالت: لم يقذف بالدين ولم يجدّف على اسم الله، فلماذا تدعوه كافرًا.

فتشجّعت راحيل إذ ذاك وتقدّمت إلى الأمام وقالت: إنّ هذا الشابّ يتكلّم بألسنتنا ويتظلّم عنّا، ومَن يُرِدْ به شرًّا يَكُنْ عدوًّا لنا.

فقال الشيخ عبّاس صارفًا أسنانه: أَوَ أنتِ تتمرّدين أيضًا أيّتها الأرملة الساقطة؟ هل نسيتِ ما أصاب زوجك عندما تمرّد عليّ منذ خمس سنوات؟

فشهقت راحيل عندما سمعت هذه الكلمات وارتعشت متوجّعة كمن أدرك سرًّا هائلًا، والتفتت نحو الجمع وصرخت بأعلى صوتها: هل سمعتم القاتل يعترف بجريمته في ساعة غضبه؟ ألا تذكرون أنّ زوجي قد وُجد قتيلًا في الحقل، وقد بحثتم عن القاتل فلم تجدوه لأنّه كان مختبئًا وراء هذه الجدران؟ ألا تذكرون أنّ زوجي كان رجلًا شجاعًا؟ أما سمعتموه متكلّمًا عن مكاره الشيخ عبّاس مندّدًا بأعماله متمرّدًا على قساوته؟

ها قد أبانت السماء قاتل جاركم وأخيكم وأوقفَتْه أمامكم، فانظروا إليه واقرأوا جريمته مكتوبة على وجهه المصفّر. انظروه متململًا جازعًا.

تأمّلوا كيف قد ستر وجهه بيديه كيلا يرى عيونكم محدّقة إليه. انظروا السيّد القويّ مرتجفًا كالقصبة المرضوضة. انظروا الجبّار العظيم مرتاعًا أمامكم كالعبد الخاطئ. إنّ الله قد أراكم على حين غفلة خفايا هذا القاتل الذي تخافونه، وأبان لكم النفس الشرّيرة التي جعلتني أرملة بين نسائكم، وتركت ابنتي يتيمة بين أبنائكم.

وبينما راحيل تتكلّم صارخة وألفاظها تنقضّ كالصواعق على رأس الشيخ عبّاس، وضجيج الرجال وزفرات النساء تتموّج كشعلات النّار والكبريت حول دماغه، وقف الكاهن وأخذ بساعده وأجلسه على المقعد، ثمّ نادى الخدم بصوت مرتجف قائلًا:

اقبضوا على هذه المرأة الي تتّهم سيّدكم زورًا وجرّوها مع هذا الشابّ الكافر إلى غرفة مظلمة، ومن يعترضكم يكُنْ شريكًا لهما بالجريمة، محرومًا نظيرهما من الكنيسة المقدّسة.

فلم يتحرّك الخدّام من أماكنهم، ولم يحفلوا بأوامر الكاهن، بل لبثوا جامدين محدّقين إلى خليل المكتوف وراحيل ومريم الواقفتين عن يمينه وشماله، كأنّهما جناحان قد فتحهما ليطير ويحلّق بهما في السحاب.

فقال الكاهن ولحيته تتراقص حنقًا: هل تكفرون بنعمة سيّدكم أيّها الأجلاف، وتجحدون فضله وتنكرونه من أجل فتى مجرم كافر وامرأة عاهرة كاذبة؟

فأجابه أكبر الخدّام سنًّا وقال: قد خدمنا الشيخ عبّاس لقاء الخبز والمأوى، ولكنّنا لم نكن له عبيدًا قطّ. قال هذا ونزع عباءته وكوفيّته وطرحهما أمام الشيخ عبّاس وزاد قائلًا: لا أريد أن أنعم جسدي بهذه الملابس الحقيرة كيما تبقى نفسي متعذّبة في منزل سفّاك الدماء.

ففعل الخدّام كافة نظيره وانضمّوا إلى الجمع، وعلى وجوههم سيماء الانعتاق والحريّة.

فلمّا رأى الخوري الياس ما فعلوه، وقد شعر بأنّ سلطته الكاذبة قد تضعضعت، خرج من ذلك المنزل مجدّفًا على الساعة التي أتت بخليل إلى تلك القرية.

حينئذٍ تقدّم رجل من بين الجمع وحلّ وثاق خليل ونظر إلى الشيخ عبّاس المرتمي على كرسيه كجثّة هامدة، وبلهجة مملوءة بالعزم والإرادة خاطبه قائلًا: إنّ الشابّ الذي أحضرته مكتوفًا لكي تحاكمه كمجرم أثيم، قد أنار قلوبنا المظلمة وحوّل بصائرنا نحو سبل الحق والمعرفة، والأرملة البائسة التي دعوتها عاهرة كاذبة، قد أبانت لنا السرّ الهائل الذي ظلّ مكتومًا خمسة أعوام. أمّا نحن فقد تراكضنا مسرعين إلى هذه الدار بدينونة البريء واضطهاد العادل.

والآن وقد انفتحت أعيننا وأرتْنا السماء جريمتك المخيفة ومظالمك القاسية نغادرك منفردًا ولا ندينك، ونهملك ولا نشكوك، ونبتعد عنك طالبين من السماء أن تفعل مشيئتها بك.

وارتفعت إذ ذاك أصوات الرجال والنساء في تلك القاعة الواسعة، فكان هذا يقول: هلمّوا نخرج من هذا المكان المشحون بالآثام والمعاصي ونذهب إلى بيوتنا. وذا يصرخ: تعالوا نتبع الشاب إلى بيت راحيل ونسمع حكمته المعزية وأقواله العذبة. وذاك يهتف: لنفعلنّ إرادة خليل، فهو أعلم بحاجاتنا وأدرى منّا بمطالبنا. وغيره يقول: إن كنّا نريد العدل والإنصاف فلنذهب غدًا إلى الأمير أمين ونخبره بجرائم الشيخ عبّاس ونطلب إليه أن يعاقبه. وآخر يصيح: يجب أن نستعطف الأمير ونرجوه أن يقيم خليلًا ممثّلًا له في هذه القرية. وغيره يقول: يجب أن نشكو الخوري الياس إلى الأسقف لأنّه يشارك الشيخ بجميع أعماله.

وبينما هذه الأصوات تتصاعد من كلّ ناحية، وتهبط كالسهام الحادّة على صدر الشيخ الخفوق، رفع خليل يده وأسكت الجمع بإشارة،

ثمّ ناداهم قائلًا: اسمعوا وتبصّروا أيّها الإخوة ولا تكونوا متسرّعين. أنا أطلب إليكم باسم محبّتي ألّا تذهبوا إلى الأمير فهو لا ينصفكم من الشيخ، لأنّ الكواسر لا ينهش بعضهما بعضًا. ولا تشكوا الكاهن إلى رئيسه، لأنّ الرئيس يعلم أنّ البيت الذي ينقسم على ذاته يخرب، ولا تطلبوا أن أكون ممثّلًا للحاكم في هذه القرية، لأنّ الخادم الأمين لا يريد أن يكون عونًا للسيّد الشرّير. إن كنت خليقًا بحبّكم وانعطافكم، دعوني أعيش بينكم وأشارككم بأفراح الحياة وأحزانها، وأشاطركم العمل في الحقول والراحة في المنازل لأنّني إن لم أكن كواحد منكم أكن كالمرائين الذين يكرزون بالفضيلة ولا يفعلون غير الشرّ.

والآن، وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة، تعالوا نذهب تاركين الشيخ عبّاس واقفًا في محكمة ضميره أمام عرش الله الذي يشرق شمسه على الأبرار والأشرار.

قال هذا وخرج من ذلك المكان فتبعه الجمع كأنّ في شخصه قوّة تتحوّل نحوها الأبصار كيفما تحوّلت. وبقي الشيخ منفردًا كالبرج المهدوم، متوجّعًا كالقائد المغلوب. ولما بلغ الجمع ساحة الكنيسة وكان القمر قد طلع من وراء الشفق وسكب أشعّته الفضيّة في السماء، التفت خليل ورأى أوجه الرجال والنساء متّجهة نحوه كالخراف الناظرة إلى راعيها، فتحرّكت روحه في داخله كأنّه وجد في أولئك القرويّين المساكين رمز الشعوب المظلومة، وشاهد في تلك الأكواخ الحقيرة المكتنفة بالثلوج المتجلّدة رمز البلاد المغمورة بالذلّ والهوان. فوقف وقفة نبيّ يسمع صراخ الأجيال، وتغيّرت ملامحه واتّسعت عيناه كأنّ نفسه قد أبصرت جميع أمم المشرق سائرة تجرّ قيود العبوديّة في تلك الأودية، فرفع كفّيه نحو العلاء، وبصوت يشابه ضجيج الأمواج صرخ قائلًا:

من أعماق هذه الأعماق نناديكِ أيّتها الحريّة فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفّنا نحوكِ فانظرينا. وعلى هذه الثلوج نسجد أمامكِ فارحمينا. أمام عرشك الرهيب نقف الآن ناشرين على أجسادنا أثواب آبائنا الملطّخة بدمائهم، عافرين شعورنا بتراب القبور الممزوج ببقاياهم، حاملين السيوف التي أغمدت بأكبادهم، رافعين الرماح التي خرقت صدورهم، ساحبين القيود التي أبادت أقدامهم، صارخين الصراخ الذي جرح حناجرهم، نائحين النواح الذي ملأ ظلمة سجونهم، مصلّين الصلاة التي انبثقت من أوجاع قلوبهم، فأصغي أيّتها الحريّة واسمعينا. من منبع النيل إلى مصبّ الفرات يتصاعد نحوك عويل النفوس متموّجًا مع صراخ الهاوية. ومن أطراف الجزيرة إلى جبهة لبنان تمتدّ إليك الأيدي مرتعشة بنزع الموت، ومن شاطئ الخليج إلى أذيال الصحراء ترتفع نحوك الأعين مغمورة بذوبان الأفئدة. فالتفتي أيّتها الحريّة وانظرينا. في زوايا الأكواخ القائمة في ظلال الفقر والهوان تقرع أمامك الصدور، وفي خلايا البيوت الجالسة في ظلمة الجهل والغباوة تطرح لديك القلوب، وفي قراني المنازل المحجوبة بضباب الجور والاستبداد تحنّ إليك الأرواح، فانظري أيّتها الحريّة وارحمينا. في المدارس والمكاتب تناجيك الشبيبة اليائسة، وفي الكنائس والجوامع يستميلك الكتاب المتروك، وفي المحاكم والمجالس تستغيث بك الشريعة المهملة، فاشفقي أيّتها الحريّة وخلّصينا. في شوارعنا الضيّقة يبيع التاجر أيّامه ليعطي أثمانها للصوص المغرب، ولا من ينصحه. وفي حقولنا المجدبة يحفر الفلّاح الأرض بأظافره، ويزرعها حبّات قلبه، ويسقيها دموعه، ولا يستغلّ غير الأشواك ولا من يعلّمه. وفي سهولنا الجرداء يسير البدوي عاريًا حافيًا جائعًا ولا مَن يترأّف به. فتكلّمي أيّتها الحريّة وعلّمينا.

نعاجنا ترعى الأشواك والحسك بدلًا من الزهور والأعشاب، وعجولنا تقضم أصول الأشجار بدلًا من الذرة، وخيولنا تلتهم الهشيم بدلًا من الشعير. فهلمّي أيّتها الحرّيّة وأنقذينا.

منذ البدء وظلام الليل يخيّم على أرواحنا، فمتى يجيء الفجر؟ من الحبوس إلى الحبوس تنتقل أجسادنا والأجيال تمرّ بنا ساخرة، فإلى متى نحتمل سخرية الأجيال؟ ومن نير ثقيل إلى نير أثقل تذهب أعناقنا وأمم الأرض تنظر من بعيد ضاحكة منّا، فإلامَ نصبر على ضحك الأمم؟ ومن القيود إلى القيود تسير ركابنا، فلا القيود تفنى ولا نحن ننقرض، فإلى متى نحيا؟

من عبوديّة المصريّين إلى سبي بابل إلى قساوة الفرس إلى خدمة الإغريقيّين إلى استبداد الروم إلى مظالم المغول إلى مطامع الإفرنج، فإلى أين نحن سائرون الآن، ومتى نبلغ جبهة العقبة؟

من مقابض فرعون إلى مخالب نبوختنصّر إلى أظافر الإسكندر إلى أسياف هيرودس إلى براثن نيرون إلى أنياب الشيطان، فإلى يد مَن نحن ذاهبون الآن، ومتى نبلغ قبضة الموت فنرتاح من سكينة العدم؟

بعزم سواعدنا قد رفعوا أعمدة الهياكل والمعابد لمجد آلهتهم، وعلى ظهورنا قد نقلوا الطين والحجارة لبناء الأسوار والبروج لتعزيز حماهم، وبقوى أجسادنا قد أقاموا الأهرام لتخليد أسمائهم، فحتّى متى نبني القصور والصروح، ولا نسكن غير الأكواخ والكهوف، ونملأ الأهراء والخزائن، ولا نأكل غير الثوم والكرّاث، ونحوك الحرير والصوف، ولا نلبس غير المسوح والأطمار؟

بخبثهم واحتيالهم قد فرّقوا بين العشيرة والعشيرة، وأبعدوا الطائفة عن الطائفة، وبغّضوا القبيلة بالقبيلة، فحتّى متى نتبدّد كالرماد أمام هذه الزوبعة القاسية، ونتصارع كالأشبال الجائعة بقرب هذه الجيفة المنتنة؟

لحفظ عروشهم وطمأنينة قلوبهم قد سلّحوا الدرزي لمقاتلة العربي، وحمّسوا الشيعي لمصارعة السنّي، ونشّطوا الكردي لذبح البدوي، وشجّعوا الأحمدي لمنازعة المسيحي. فحتّى متى يصرع الأخ أخاه على صدر الأم، وإلى متى يتوعّد الجار جاره بجانب قبر الحبيبة، وإلامَ يتباعد الصليب عن الهلال أمام عين الله؟

أصغي أيّتها الحريّة واسمعينا، التفتي يا أمّ ساكني الأرض وانظرينا، فنحن لسنا أبناء ضرّتك. تكلّمي بلسان فرد واحد منّا، فمن شرارة واحدة يشتعل القشّ اليابس. أيقظي بحفيف أجنحتك روح رجل من رجالنا، فمن سحابة واحدة ينبثق البرق، وينير بلحظة خلايا الأودية وقمم الجبال. بدّدي بعزمك هذه الغيوم السوداء وانزلي كالصاعقة واهدمي كالمنجنيق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم المصفّحة بذهب الجزية والرشوة، المغمورة بالدماء والدموع.

اسمعينا أيّتها الحريّة، ارحمينا يا ابنة أثينا، أنقذينا يا أخت رومة، خلّصينا يا رفيقة موسى، أسعفينا يا حبيبة محمّد، علّمينا يا عروسة يسوع، قوّي قلوبنا لنحيا، أو شدّدي سواعد أعدائنا علينا فنفنى وننقرض ونرتاح.

كان خليل يناجي السماء وعيون الفلّاحين محدّقة إليه، وعواطفهم تنسكب مع نغمة صوته، ونفوسهم تتطاير مع أنفاسه، وصدورهم تخفق بنبضات قلبه، فكأنّه أصبح منهم في تلك الساعة بمنزلة الروح من الجسد. ولمّا انتهَى من مناجاته التفت نحوهم وقال بهدوء: قد جمعنا هذا الليل في منزل الشيخ عبّاس لكي نرى نور النهار، وأوقفتنا المظالم أمام هذا الفضاء البارد لكي نتفاهم وننضمّ كالفراخ تحت جناحَيِ الروح الخالدة. فليذهب الآن كلّ منّا إلى فراشه لينام مترقّبًا لقاء أخيه في الصباح.

قال هذا ومشى متبعًا خطوات راحيل ومريم إلى كوخهما. فتفرّق إذ ذاك الجمع وذهب كلّ إلى بيته مفكّرًا بما سمعه ورآه، شاعرًا بملامس حياة جديدة في داخل نفسه.

ولم تمرّ ساعة حتّى انطفأت السرج في الأكواخ وألقت السكينة وشاحها على تلك القرية. وحملت الأحلام أرواح الفلّاحين تاركة روح الشيخ عبّاس ساهرة مع أشباح الليل، مرتعدة أمام ذنوبه، متعذّبة بين أنياب هواجسه.

8

مرّ شهران وخليل يسكب سرائر روحه في قلوب أولئك القرويّين، محدّثًا إيّاهم في كلّ يوم عن غوامض حقوقهم وواجباتهم، مصوّرًا لبصائرهم حياة الرهبان الطامعين، مردّدًا على مسامعهم أخبار الحكّام القساة، جاعلًا بين عواطفه وعواطفهم صلة قويّة شبيهة بالنواميس الأزليّة التي تقيّد الأجرام بعضها ببعض، فكانوا يصغون إليه بفرح يضارع بهجة الحقول الظمآنة بانهطال الأمطار، ويردّدون كلامه في خلوتهم ملبسين نسمات مقاصده أجسادًا من محبّتهم، غير حافلين بالخوري الياس الذي أصبح يتزلّف إليهم منذ ظهور جريمة حليفه الشيخ ويقترب منهم ليّنًا كالشمع بعد أن كان صلبًا كالرخام.

أمّا الشيخ عبّاس فقد أصيب بعلّة في نفسه شبيهة بالجنون، فكان يسير ذهابًا وإيّابًا في رواق منزله كالنمر المسجون، وينادي خدّامه بأعلى صوته فلا يجيبه غير الجدران، ويصرخ مستنجدًا برجاله فلا يأتي لمعونته غير زوجته المسكينة التي عانت من خشونة طباعه ما قاساه الفلّاحون من مظالمه واستبداده. ولمّا جاءت أيّام الصوم، وأعلنت السماء قدوم الربيع، انقضت أيّام الشيخ بانقضاء زوابع الشتاء، فمات بعد نزع موجع

مخيف، وذهبت روحه محمولة على بساط أعماله لتقف عارية أمام ذلك العرش الذي نشعر بوجوده ولا نراه. وقد اختلفت آراء الفلّاحين في سبب موته، فكان بعضهم يقول قد اختلّ شعوره فقضى مجنونًا، وبعضهم يقول قد سمّم اليأس حياته عندما زالت سطوته فمات منتحرًا. أمّا النساء اللواتي ذهبن لتعزية زوجته فأخبرن رجالهنّ بأنّه مات خائفًا مرتاعًا، لأنّ شبح سمعان الرامي كان يظهر له مرتديًا أثوابًا ملطّخة بالدماء، ويقوده كرهًا عندما ينتصف الليل إلى المكان الذي وُجد فيه مصروعًا منذ خمسة أعوام.

***

وأعلنت أيّام نيسان لسكّان تلك القرية سرائر الحبّ الخفيّة الكائنة بين روح خليل وروح مريم ابنة راحيل، فتهلّلت وجوههم فرحًا، ورقصت قلوبهم ابتهاجًا، ولم يعودوا يخشون ذهاب الشابّ الذي أيقظ قلوبهم إلى محيط أوسع وأرقى من وسطهم، فطافوا يبشّرون بعضهم بعضًا بصيرورته جارًا قريبًا وصهرًا محبوبًا لكلّ واحد منهم.

ولما جاءت أيّام الحصاد خرج الفلّاحون إلى الحقول وجمعوا الأغمار على البيادر، ولم يكن الشيخ عبّاس هناك ليغتصب الغلّة ويحملها إلى أهرائه ومخازنه، بل كان كلّ من الفلّاحين يستغلّ الحقل الذي فلحه وزرعه، فامتلأت تلك الأكواخ من القمح والذرة والخمر والزيت.

أمّا خليل فكان يشاطرهم الأتعاب والمسرّات ويساعدهم بجمع الغلة وعصر العنب واجتناء الأثمار. ولم يكن يميّز نفسه عن الواحد منهم إلّا بمحبّته ونشاطه.

منذ تلك السنة إلى أيّامنا هذه، أصبح كلّ فلّاح في تلك القرية يستغلّ بالفرح الحقل الذي زرعه بالأتعاب، ويجمع بالمسرّة ثمار البستان

الذي غرسه بالمشقّة، فصارت الأرض ملكًا لمن يفلحها، والكروم نصيبًا لمن ينقبها ويحرثها.

والآن وقد انقضى نصف قرن على هذه الحادثة، وراودت اليقظة أجفان اللبنانيّين، يمرّ المسافر على طريقه إلى غابة الأرز ويقف متأمّلًا بمحاسن تلك القرية الجالسة كالعروس على كتف الوادي، فيرى أكواخها قد صارت بيوتًا جميلة مكتنفة بالحقول الخصبة والحدائق الناضرة، وإن سأل أحد سكّانها عن تاريخ الشيخ عبّاس يجيبه مشيرًا نحو حجارة متقوّضة وجدران مهدومة مرتمية قائلًا: هذا قصر الشيخ عبّاس وهذا هو تاريخ حياته. وإن سأله عن خليل يرفع يده إلى العلاء قائلًا: هناك يسكن خليلنا الصالح، أمّا تاريخ حياته فقد كتبه آباؤنا بأحرف من شعاع على صفحات قلوبنا، فلن تمحوه الأيّام والليّالي...

الأجنحة المتكسّرة

1912

إلى الّتي تحدّق إلى الشمس بأجفان جامدة،

وتقبض على النار بأصابعَ غيرِ مرتعشة،

وتسمع نغمة الروح «الكلّي»

من وراء ضجيج العميان وصراخهم.

إلى **M.E.H.** أرفع هذا الكتاب.

جبران

توطئة

كنت في الثامنةَ عشرةَ عندما فتح الحبّ عينيَّ بأشعّته السحريّة، ولمس نفسي لأوّل مرّة بأصابعه الناريّة. وكانت سلمى كرامه المرأة الأولى التي أيقظت روحي بمحاسنها، ومشت أمامي إلى جنّة العواطف العلويّة، حيث تمرّ الأيّام كالأحلام وتنقضي الليالي كالأعراس.

سلمى كرامه هي التي علّمتني عبادة الجمال بجمالها، وأرتني خفايا الحبّ بانعطافها، وهي التي أنشدت على مسمعي أوّل بيت من قصيدة الحياة المعنويَّة.

أيُّ فتًى لا يذكرُ الصبيّةَ الأولى التي أبدلت غفلة شبيبته بيقظة هائلة بلطفها، جارحة بعذوبتها، فتّاكة بحلاوتها؟ من منّا لا يذوب حنينًا إلى تلك الساعة الغريبة التي إذا انتبه فيها فجأةً رأى كلّيته قد انقلبت وتحوّلت، وأعماقه قد اتّسعت وانبسطت وتبطّنت بانفعالات لذيذة ما فيها من مرارة الكتمان، مستحبّة بكلّ ما يكتنفها من الدموع والشوق والسهاد؟

لكلّ فتى سلمى تظهر على حين غفلة في ربيع حياته وتجعل لانفراده معنًى شعريًّا وتبدّل وحشة أيّامه بالأنس وسكينة لياليه بالأنغام.

كنت حائرًا بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والأسفار عندما سمعت الحبّ يهمس بشفتي سلمى في آذان نفسي، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم في الفردوس عندما رأيت سلمى منتصبة أمامي كعمود النور. فسلمى كرامه هي حوّاء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب، وهي الّتي أفهمته كُنه هذا الوجود وأوقفته كالمرآة أمام هذه الأشباح. حوّاء الأولى أخرجت آدم من الفردوس بإرادتها وانقياده، أمّا سلمى كرامه فأدخلتني إلى جنّة الحبّ والطهر بحلاوتها واستعدادي، ولكن ما أصاب الإنسان الأوّل قد أصابني، والسيف الناريّ الذي طرده من الفردوس هو كالسيف الذي أخافني بلمعان حدّه وأبعدني كرهًا عن جنّة المحبّة قبل أن أُخالف وصيّة وقبل أن أذوق طعم ثمار الخير والشرّ.

واليوم وقد مرّت الأعوام المظلمة طامسة بأقدامها رسوم تلك الأيّام، لم يبقَ لي من ذلك الحلم الجميل سوى تذكارات موجعة ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول رأسي مثيرة تنهّدات الأسى في أعماق صدري مستقطرة دموع اليأس والأسف من أجفاني... وسلمى – سلمى الجميلة العذبة قد ذهبت إلى ما وراء الشفق الأزرق ولم يبقَ من آثارها في هذا العالم سوى غصّات أليمة في قلبي وقبر رخاميّ منتصب في ظلال أشجار السرو. فذلك القبر وهذا القلب هما كلّ ما بقي ليحدّث الوجود عن سلمى كرامه، غير أنّ السكينة التي تحفر القبور لا تفشي ذلك السرّ المصون الذي أخفته الآلهة في ظلمات التابوت، والأغصان التي امتصّت عناصر الجسد لا تبيح بحفيفها مكنونات الحفرة: أمّا غصّات هذا القلب وأوجاعه فهي التي تتكلّم وهي التي تنسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة للنور أشباح تلك المأساة التي مثّلها الحبّ والجمال والموت.

فيا أصدقاء شبيبتي المنتشرين في بيروت، إذا مررتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصنوبر، ادخلوها صامتين وسيروا ببطء كيلا

تزعج أقدامُكم رفات الراقدين تحت أطباق الثرى، وقفوا متهيّبين بجانب قبر سلمى وحيّوا عنّي التراب الذي ضمّ جثمانها ثمّ اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم: ههنا دفنت آمال ذلك الفتى الذي نفته صروف الدهر إلى ما وراء البحار، وههنا توارت أمانيه وانزوت أفراحه وغارت دموعه واضمحلّت ابتساماته، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته مع أشجار السرو والصفصاف. وفوق هذا القبر ترفرف روحه كلّ ليلة مستأنسة بالذكرى، مردّدة مع أشباح الوحشة ندبات الحزن والأسى، نائحة مع الغصون على صبيّة كانت بالأمس نغمة شجيّة بين شفتي الحياة فأصبحت اليوم سرًّا صامتًا في صدر الأرض.

أستحلفكم يا رفاق الصبا بالنساء اللواتي أحبّتهنّ قلوبكم أن تضعوا أكاليل الأزهار على قبر المرأة الّتي أحبّها قلبي – فربّ زهرة تلقونها على ضريح منسيّ تكون كقطرة الندى التي تسكبها أجفان الصباح بين أوراق الوردة الذابلة.

الكآبة الخرساء

أنتم أيّها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع رسومه متأسّفين على انقضائه، أمّا أنا فأذكره مثلما يذكر الحُرّ المعْتَق جدران سجنه وثقل قيوده. أنتم تدعون تلك السنين التي تجيء بين الطفولة والشباب عهدًا ذهبيًّا يهزأ بمتاعب الدهر وهواجسه ويطير مرفرفًا فوق رؤوس المشاغل والهموم مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة سائرة نحو البساتين المزهرة؛ أمّا أنا فلا أستطيع أن أدعو سنيَّ الصبا سوى عهد آلام خفيّة خرساء كانت تقطن قلبي وتثور كالعواصف في جوانبه وتتكاثر نامية بنموّه، ولم تجد منفذًا تنصرف منه إلى عالم المعرفة حتّى دخل إليه الحبّ وفتح أبوابه وأنار زواياه. فالحبّ قد أعتق لساني فتكلّمت ومزّق أجفاني فبكيت وفتح حنجرتي فتنهّدت وشكوت.

أنتم أيّها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات وجوانب الشوارع التي رأت ألعابكم وسمعت همس طهركم، وأنا أيضًا أذكر تلك البقعة الجميلة من شمال لبنان، فما أغمضت عينيّ عن هذا المحيط إلّا رأيت تلك الأودية المملوءة سحرًا وهيبة، وتلك الجبال المرتفعة بالمجد والعظمة نحو العلاء، ولا صممت أُذنيّ عن ضجّة هذا الاجتماع إلّا سمعت خرير تلك السواقي وحفيف تلك الغصون. ولكن هذه المحاسن التي

أذكرها الآن وأتشوّق إليها تشوّق الرضيع إلى ذراعي أمّه هي هي الّتي كانت تعذّب روحي المسجونة في ظلمة الحداثة مثلما يتعذّب البازي بين قضبان قفصه عندما يرى أسراب بزاة تسبح حرّة في الخلاء الواسع – وهي التي كانت تملأ صدري بأوجاع التأمّل ومرارة التفكير وتنسج بأصابع الحيرة والالتباس نقابًا من اليأس والقنوط حول قلبي – فلم أذهب إلى البريّة إلّا عدت منها كئيبًا جاهلًا أسباب الكآبة، ولا نظرت مساء إلى الغيوم المتلونّة بأشعّة الشمس إلّا شعرت بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني الانقباض، ولا سمعت تغريدة الشحرور أو أغنية الغدير إلّا وقفت حزينًا لجهلي موحيات الحزن.

يقولون إنّ الغباوة مهد الخلو والخلو مرقد الراحة – وقد يكون ذلك صحيحًا عند الذين يولدون أمواتًا ويعيشون كالأجساد الهامدة الباردة فوق التراب، ولكن إذا كانت الغباوة العمياء قاطنة في جوار العواطف المستيقظة تكون الغباوة أقسى من الهاوية وأمرّ من الموت. والصبيّ الحسّاس الذي يشعر كثيرًا ويعرف قليلًا هو أتعس المخلوقات أمام وجه الشمس لأنّ نفسه تظلّ واقفة بين قوّتين هائلتين متباينتين: قوّة خفيّة تحلّق به في السحاب وتريه محاسن الكائنات من وراء ضباب الأحلام، وقوّة ظاهرة تقيّده بالأرض وتغمر بصيرته بالغبار وتتركه ضائعًا خائفًا في ظلمة حالكة.

للكآبة أيدٍ حريريّة الملامس قويّة الأعصاب تقبض على القلوب وتؤلمها بالوحدة، فالوحدة حليفة الكآبة كما أنّها أليفة كلّ حركة روحيّة. ونفس الصبي المنتصبة أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكآبة شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الأكمام ترتعش أمام النسيم وتفتح قلبها لأشعّة الفجر وتضمّ أوراقها بمرور أخيلة المساء، فإن لم يكن للصبي من الملاهي ما يشغل فكرته ومن الرفاق من يشاركه في الميول

كانت الحياة أمامه محبس ضيق لا يرى في جوانبه غير أنوال العناكب ولا يسمع من زواياه سوى دبيب الحشرات.

أمّا تلك الكآبة التي اتبعت أيّام حداثتي فلم تكن ناتجة عن حاجتي إلى الملاهي لأنّها كانت متوفّرة لديّ، ولا عن افتقاري إلى الرفاق لأنّني كنت أجدهم أينما ذهبت، بل هي من أعراض علّة طبيعيّة في النفس كانت تحبّب إليّ الوحدة والانفراد، وتميت في روحي الميول إلى الملاهي والألعاب، وتخلع عن كتفي أجنحة الصبا، وتجعلني أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوئه المحزن رسوم الأشباح وألوان الغيوم وخطوط الأغصان ولكنّه لا يجد ممرًّا يسير فيه جدولًا مترنّمًا إلى البحر.

هكذا كانت حياتي قبل أن أبلغ الثامنة عشرة، فتلك السنة هي من ماضيّ بمقام القمّة من الجبل لأنّها أوقفتني متأمّلًا تجاه هذا العالم وأرتني سبل البشر ومروج ميولهم وعقبات متاعبهم وكهوف شرائعهم وتقاليدهم.

في تلك السنة ولدت ثانية، والمرء إن لم تحبل به الكآبة ويتمخض به اليأس وتضعه المحبة في مهد الأحلام تظل حياته كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان.

في تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر إليّ من وراء أجفان امرأة جميلة، وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجّون ويتراكضون في صدر رجل مجرم – ومن لا يشاهد الملائكة والشياطين في محاسن الحياة ومكروهاتها يظلّ قلبه بعيدًا عن المعرفة ونفسه فارغة من العواطف.

يد القضاء

كنتُ في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب، وكان نيسان قد أنبت الأزهار والأعشاب فظهرت في بساتين المدينة كأنّها أسرار تعلنها الأرض للسماء. وكانت أشجار اللوز والتفاح قد اكتست بحلل بيضاء معطرة فبانت بين المنازل كأنّها حوريات بملابس ناصعة قد بعثت بهن الطبيعة عرائس وزوجات لأبناء الشعر والخيال.

الربيع جميل في كلّ مكان ولكنّه أكثر من جميل في سوريا... الربيع إله غير معروف تطوف في الأرض مسرعة وعندما تبلغ سوريا تسير ببطء متلفّتة إلى الوراء مستأنسة بأرواح الملوك والأنبياء الحائمة في الفضاء، مترنّمة مع جداول اليهوديّة بأناشيد سليمان الخالدة، مردّدة مع أرز لبنان تذكارات المجد القديم.

وبيروت في الربيع أجمل منها في ما بقي من الفصول لأنّها تخلو فيه من أوحال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين أمطار الأوّل وحرارة الثاني كصبيّة حسناء قد اغتسلت بمياه الغدير ثمّ جلست على ضفّته تجفّف جسدها بأشعّة الشمس.

ففي يوم من تلك الأيّام المفعمة بأنفاس نيسان المسكرة وابتساماته المحيية، ذهبت لزيارة صديق يسكن بيتًا بعيدًا عن ضجّة

الاجتماع. وبينما نحن نتحدّث راسمين بالكلام خطوط آمالنا وأمانينا دخل علينا شيخ جليل في الخامسة والستين من عمره تدلّ ملابسه البسيطة وملامحه المتجعّدة على الهيبة والوقار. فوقفت احترامًا. وقبيل أن أصافحه مسلّمًا تقدّم صديقي وقال: حضرته فارس أفندي كرامه. ثمّ لفظ اسمي مشفوعًا بكلمة ثناء. فحدّق إليّ الشيخ هنيهة لامسًا بأطراف أصابعه جبهته العالية المكلّلة بشعر أبيض كالثلج كأنّه يريد أن يسترجع إلى ذاكرته صورة شيء قديم مفقود ثمّ ابتسم ابتسامة سرور وانعطاف واقترب منّي قائلًا: أنت ابن صديقٍ حبيب قديم صرفت ربيع العمر برفقته، فما أعظم فرحي بمرآك وكم أنا مشتاق إلى لقاء أبيك بشخصك!

فتأثّرت لكلامه وشعرت بجاذبٍ خفيّ يدنيني إليه بطمأنينة مثلما تقود الغريزة العصفور إلى وكره قبيل مجيء العاصفة. ولما جلسنا أخذ يقصّ علينا أحاديث صداقته لوالدي متذكّرًا أيّام الشباب التي صرفها بقربه تاليًا على مسامعنا أخبار أعوام قضت فكفّنها الدهر بقلبه وقبرها في صدره... إنّ الشيوخ يرجعون بالفكر إلى أيّام شبابهم رجوع الغريب المشتاق إلى مسقط رأسه، ويميلون إلى سرد حكايات الصبا ميل الشاعر إلى تنغيم أبلغ قصائده، فهم يعيشون بالروح في زوايا الماضي الغابر لأنّ الحاضر يمرّ بهم ولا يلتفت، والمستقبل يبدو لأعينهم متّشحًا بضباب الزوال وظلمة القبر.

وبعد ساعة مرّت بين الأحاديث والتذكارات مرور ظلّ الأغصان على الأعشاب، وقف فارس كرامه للانصراف، ولما دنوت منه مودّعًا أخذ يدي بيمينه ووضع شماله على كتفي قائلًا: أنا لم أرَ والدك منذ عشرين سنة ولكنّني أرجو أن أستعيض عن بعاده الطويل بزياراتك الكثيرة.

فانحنيت شاكرًا واعدًا بتتميم ما يجب على الابن نحو صديق أبيه.

ولمّا خرج فارس كرامه استزدت صاحبي من أخباره فقال بلهجة يساورها التحذّر: لا أعرف رجلًا سواه في بيروت قد جعلته الثروة فاضلًا والفضيلة مثريًا وهو واحد من القليلين الذين يجيئون هذا العالم ويغادرونه قبل أن يلامسوا بالأذى نفس مخلوق، ولكن هؤلاء الرجال يكونون غالبًا تعساء مظلومين، لأنّهم يجهلون سبل الاحتيال التي تنقذهم من مكر الناس وخبثهم... ولفارس كرامه ابنة وحيدة تسكن معه منزلًا فخمًا في ضاحية المدينة، وهي تشابهه بالأخلاق وليس بين النساء من تماثلها رقّة وجمالًا، وهي أيضًا ستكون تاعسة لأن ثروة والدها الطائلة توقفها الآن على شفير هاوية مظلمة مخيفة.

لفظ صديقي الكلمات الأخيرة وظهرت على محيّاه لوائح الغمّ والأسف ثمّ زاد قائلًا: فارس كرامه شيخ شريف القلب كريم الصفات ولكنه ضعيف الإرادة يقوده رياء الناس كالأعمى وتوقفه مطامعهم كالأخرس. أمّا ابنته فتخضع ممتثلة لإرادته الواهنة على رغم كلّ ما في روحها الكبيرة من القوى والمواهب. وهذا هو السرّ الكامن وراء حياة الوالد وابنته. وقد فهم هذا السرّ رجل يأتلف في شخصه الطمع بالرياء والخبث بالدهاء، وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظلّ الإنجيل فتظهر للناس كالفضائل. هو رئيس دين في بلاد الأديان والمذاهب تخافه الأرواح والأجساد وتخرّ لديه ساجدة مثلما تنحني رقاب الأنعام أمام الجزّار. ولهذا المطران ابن أخ تتصارع في نفسه عناصر المفاسد والمكاره مثلما تنقلب العقارب والأفاعي على جوانب الكهوف والمستنقعات. وليس بعيدًا اليوم الذي ينتصب فيه المطران بملابسه الحبريّة جاعلًا ابن أخيه عن يمينه وابنة فارس كرامه عن شماله رافعًا بيده الأثيمة إكليل الزواج فوق رأسيهما مقيّدًا بسلاسل التكهين والتعزيم جسدًا طاهرًا بجيفة منتنة، جامعًا في

قبضة الشريعة الفاسدة روحًا سماوية بذات ترابية، واضعًا قلب النهار في صدر الليل. هذا كلّ ما أستطيع أن أقوله لك الآن عن فارس كرامه وابنته فلا تسلني أكثر من ذلك لأن ذكر المصيبة يدنيها مثلما يقرب الموت الخوف من الموت.

وحوّل صديقي وجهه ونظر من النافذة إلى الفضاء كأنّه يبحث عن أسرار الأيّام والليالي بين دقائق الأثير.

فقمت إذ ذاك من مكاني، ولمّا أخذت يده مودّعًا قلت له: غدًا أزور فارس كرامه قيامًا بوعدي له واحترامًا للتذكارات التي أبقتها صداقته لوالدي.

فبهت بي الشاب دقيقة وقد تغيّرت ملامحه كأن كلماتي القليلة البسيطة قد أوحت إليه فكرًا جديدًا هائلًا، ثمّ نظر في عينيّ نظرة طويلة غريبة – نظرة محبّة وشفقة وخوف – نظرة نبيّ يرى في أعماق الأرواح ما لا تعرفه الأرواح، ثمّ ارتعشت شفتاه قليلًا ولكنّه لم يقل شيئًا، فتركته وسرت نحو الباب بأفكار متضعضعة، وقبيل أن يلتفت إلى الوراء رأيت عينيه ما زالتا تتبعانني بتلك النظرة الغريبة – تلك النظرة التي لم أفهم معانيها حتّى عنقت نفسي من عالم المقاييس والكمية وطارت إلى مسارح الملأ الأعلى حيث تتفاهم القلوب بالنظرات وتنمو الأرواح بالتفاهم.

في باب الهيكل

وبعد أيّام وقد مللت الوحدة وتعبت أجفاني من النظر إلى أوجه الكتب العابسة، علوت مركبة طالبًا منزل فارس كرامه، حتّى إذا ما بلغت بي غابة الصنوبر حيث يذهب القوم للتنزه حوّل السائق وجهة فرسيه عن الطريق العموميّة فسار خببًا على ممرّ تظلّله أشجار الصفصاف وتتمايل على جانبيه الأعشاب والدوالي المتعرشة وأزاهر نيسان المبتسمة بثغور حمراء كالياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب.

وبعد دقيقة وقفت المركبة أمام منزل منفرد تحيط به حديقة مترامية الأطراف تتعانق في جوانبها الأغصان وتعطّر فضاءها رائحة الورد والفلّ والياسمين.

ما سرت بضع خطوات في تلك الحديقة حتّى ظهر فارس كرامه في باب المنزل خارجًا للقائي كأن هدير المركبة في تلك البقعة المنفردة قد أعلن له قدومي، فهشّ متأهّلًا وقادني مرحّبًا إلى داخل الدار، ونظير والد مشتاق أجلسني بقربه يحدّثني مستفسرًا عن ماضيّ مستطلعًا مقاصدي في مستقبلي، فكنت أجيبه بتلك اللهجة المفعمة بنغمة الأحلام والأماني التي يترنم بها الفتيان قبل أن تقذفهم أمواج الخيال إلى شاطئ العمل حيث الجهاد والنزاع... للشبيبة أجنحة ذات ريش من الشعر وأعصاب

من الأوهام ترتفع بالفتيان إلى ما وراء الغيوم فيرون الكيان مغمورًا بأشعّة متلوّنة بألوان قزح، ويسمعون الحياة مرتّلة أغاني المجد والعظمة، ولكن تلك الأجنحة الشعرية لا تلبث أن تمزّقها عواصف الاختبار فيهبطون إلى عالم الحقيقة، وعالم الحقيقة مرآة غريبة يرى فيها المرء نفسه مصغّرة مشوّهة.

في تلك الدقيقة ظهرت من بين ستائر الباب المخمليّة صبيّة ترتدي أثوابًا من الحرير الأبيض النّاعم ومشت نحوي ببطء. فوقفت ووقف الشيخ قائلًا: هذه ابنتي سلمى. وبعد أن لفظ اسمي شفعه بقوله: إن ذاك الصديق القديم الذي حجبته عني الأيّام قد عادت فأبانته لي بشخص ابنه، فأنا أراه الآن ولا أراه. فتقدّمت الصبيّة إليّ وحدّقت إلى عينيّ كأنّها تريد أن تستنطقهما عن حقيقة أمري وتعلم منهما أسباب مجيئي إلى ذلك المكان، ثمّ أخذت يدي بيد تضارع زنبقة الحقل بياضًا ونعومة، فأحسست عند ملامسة الأكّف بعاطفة غريبة جديدة أشبه شيء بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينه في مخيّلة الكاتب.

جلسنا جميعًا ساكتين كأنّ سلمى قد أدخلت معها إلى تلك الغرفة روحًا علويّة توعز الصمت والتهيّب، وكأنّها شعرت بذلك فالتفتت نحوي وقالت مبتسمة: كثيرًا ما حدّثني والدي عن أبيك معيدًا على مسمعي حكايات شبابهما، فإن كان والدك قد أسمعك تلك الوقائع فلا يكون هذا اللّقاء هو الأوّل بيننا.

فسرّ الشيخ بكلمات ابنته وانبسطت ملامحه ثمّ قال: إنّ سلمى روحيّة الميول والمذاهب، فهي ترى جميع الأشياء سابحة في عالم النفس.

وهكذا عاد فارس كرامه إلى محادثتي باهتمام كلّي ورقّة متناهية كأنّه وجد فيّ سرًّا سحريًّا يرجعه على أجنحة الذكرى إلى ربيع أيّامه الغابرة.

كان ذلك الشيخ يحدّق إليّ مسترجعًا أشباح شبابه وأنا أتأمّله حالمًا بمستقبلي. كان ينظر إليّ مثلما تخيّم أغصان الشجرة العالية

المملوءة بمآتي الفصول فوق غرسة صغيرة مفعمة بعزم هاجع وحياة عمياء. شجرة مسنّة راسخة الأعراق قد اختبرت صيف العمر وشتاءه ووقفت أمام عواصف الدهر وأنوائه، وغرسة ضعيفة ليّنة لم ترَ غير الربيع ولم ترتعش إلّا بمرور نسيم الفجر.

أمّا سلمى فكانت ساكتة تنظر إليّ تارة وطورًا إلى أبيها كأنّها تقرأ في وجهينا أوّل فصل من رواية الحياة وآخر فصل منها.

قضى ذلك النهار متنهّدًا أنفاسه بين تلك الحدائق والبساتين وغابت الشمس تاركة خيال قبلة صفراء على قمم لبنان المتعالية قبالة ذلك المنزل وفارس كرامه يتلو عليّ أخباره فيذهلني وأنا أترنّم أمامه بأغاني شبيبتي فأطربه، وسلمى جالسة بقرب تلك النافذة تنظر إلينا بعينيها الحزينتين ولا تتحرّك وتسمع أحاديثنا ولا تتكلّم كأنّها عرفت أنّ للجمال لغة سماويّة تترفّع عن الأصوات والمقاطع التي تحدّثها الشفاه والألسنة، لغة خالدة تضمّ جميع أنغام البشر وتجعلها شعورًا صامتًا مثلما تجتذب البحيرة الهادئة أغاني السواقي إلى أعماقها وتجعلها سكوتًا أبديًّا. إنّ الجمال سرّ تفهمه أرواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته، أمّا أفكارنا فتقف أمامه محتارة محاولة تحديده وتجسيده بالألفاظ ولكنّها لا تستطيع. هو سيال خافٍ عن العين يتموّج بين عواطف الناظر وحقيقة المنظور. الجمال الحقيقي هو أشعّة تنبعث من قدس أقداس النفس وتنير خارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة وتكسب الزهرة لونًا وعطرًا – هو تفاهم كلّي بين الرجل والمرأة يتمّ بلحظة، وبلحظة يولد ذلك الميل المترفّع عن جميع الميول – ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حبًّا، فهل فهمت روحي روح سلمى في عشيّة ذلك النهار فجعلني التفاهم أراها أجمل امرأة أمام الشمس أم هي سكرة الشبيبة التي تجعلنا نتخيّل رسومًا وأشباحًا لا حقيقة لها؟ هل أعمتني الفتوّة فتوّهمت

الأشعّة في عيني سلمى والحلاوة في ثغرها والرقّة في قدّها أم هي تلك الأشعّة وتلك الحلاوة وتلك الرقة التي فتحت عيني لتريني أفراح الحبّ وأحزانه؟ لا أدري ولكنّني أعلم أنّني شعرت بعاطفة لم أشعر بها قبل تلك الساعة. عاطفة جديدة تمايلت حول قلبي بهدوء يشابه رفرفة الروح على وجه الغمر قبل أن تبتدئ الدهور. ومن تلك العاطفة قد توّلدت سعادتي وتعاستي مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بإرادة ذلك الروح.

هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بسلمى لأوّل مرّة، وهكذا شاءت السماء وأعتقتني على حين غفلة من عبوديّة الحيرة والحداثة لتسيّرني حرًّا في موكب المحبّة. فالمحبّة هي الحريّة الوحيدة في هذا العالم لأنّها ترفع النفس إلى مقامٍ سامٍ لا تبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ولا تسوده نواميس الطبيعة وأحكامها.

ولمّا وقفت للانصراف اقترب منّي فارس كرامه وقال بصوت تعانقه رنّة الإخلاص: الآن وقد عرفت الطريق إلى هذا المنزل يجب أن تأتي إليه شاعرًا بالثقة التي تقودك إلى بيت أبيك وأن تحسبني وسلمى كوالد وأخت لك — أليس كذلك يا سلمى؟

فحنت سلمى رأسها إيجابًا ثمّ نظرت إليّ نظرة غريب ضائع وجد رفيقًا يعرفه.

إنّ تلك الكلمات التي قالها لي فارس كرامه هي النغمة الأولى التي أوقفتني بجانب ابنته أمام عرش المحبّة. هي استهلال الأغنية السماويّة التي انتهت بالندب والرثاء. هي القوّة التي شجّعت روحينا فاقتربنا من النور والنار. هي الإناء الذي شربنا فيه الكوثر والعلقم.

وخرجت فشيّعني الشيخ إلى أطراف الحديقة، فودّعتهما وقلبي يخفق في داخلي مثلما ترتعش شفتا العطشان بملامسة حافة الكأس.

الشعلة البيضاء

وانقضى نيسان وأنا أزور منزل فارس كرامه وألتقي سلمى وأجلس قبالتها في تلك الحديقة متأمّلًا محاسنها، معجبًا بمواهبها، مصغيًا لسكينة كآبتها، شاعرًا بوجود أيد خفيّة تجتذبني إليها. لكلّ زيارة كانت تبيّن لي معنى جديدًا من معاني جمالها وسرًّا علويًّا من أسرار روحها حتّى أصبحت أمام عينيّ كتابًا أقرأ سطوره وأستظهر آياته وأترنّم بنغمته ولا أستطيع الوصول إلى نهايته.

إن المرأة التي تمنحها الآلهة جمال النفس مشفوعًا بجمال الجسد هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالمحبّة ونلمسها بالطهر، وعندما نحاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس.

وسلمى كرامه كانت جميلة النفس والجسد، فكيف أصفها لمن لا يعرفها؟ هل يستطيع الجالس في ظلّ أجنحة الموت أن يستحضر تغريدة البلبل، وهمس الوردة، وتنهيدة الغدير؟ أيقدر الأسير المثقل بالقيود أن يلاحق هبوب نسمات الفجر؟ ولكن أليس السكوت أصعب من الكلام؟ وهل يمنعني التهيّب عن إظهار خيال من أخيلة سلمى بالألفاظ الواهية إذا كنت لا أستطيع أن أرسم حقيقتها بخطوط من الذهب؟ إن

الجائع السائر في الصحراء لا يأبى أكل الخبز اليابس إذا كانت السماء لا تمطره المنّ والسلوى.

كانت سلمى نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريريّة كأشعّة قمر دخلت من النافذة. وكانت حركاتها بطيئة متوازية أشبه شيء بمقاطيع الألحان الأصفهانيّة، وصوتها منخفضًا حلوًا تقطعه التنهدات، فينسكب من بين شفتيها القرمزيتين مثلما تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور تموّجات الهواء. ووجهها – ومن يا ترى يستطيع أن يصف وجه سلمى كرامة؟ بأيّة ألفاظ نقدر أن نصوّر وجهًا حزينًا هادئًا محجوبًا وليس محجوبًا بنقاب من الاصفرار الشفّاف؟ بأيّة لغة نقدر أن نتكلّم عن ملامح تعلن في كلّ دقيقة سرًّا من أسرار النفس وتذكر الناظرين إليها بعالم روحي بعيد عن هذا العالم!

إنّ الجمال في وجه سلمى لم يكن منطبقًا على المقاييس التي وضعها البشر للجمال، بل كان غريبًا كالحلم أو كالرؤيا أو كفكر علوي لا يقاس ولا يحد ولا ينسخ بريشة المصوّر، ولا يتجسّم برخام الحفّار. جمال سلمى لم يكن في شعرها الذهبي بل في هالة الطهر المحيطة به. ولم يكن في عينيها الكبيرتين بل في النور المنبعث منهما. ولا في شفتيها الورديتين بل في الحلاوة السائلة عليهما. ولا في عنقها العاجي بل في كيفية انحنائه الى الأمام. جمال سلمى لم يكن في كمال جسدها بل في نبالة روحها الشبيهة بشعلة بيضاء متقدة سابحة بين الأرض واللانهاية. جمال سلمى كان نوعًا من ذلك النبوغ الشعري الذي نشاهد أشباحه في القصائد السامية والرسوم والأنغام الخالدة. وأصحاب النبوغ تعساء مهما تسامت أرواحهم تظلّ مكتنفة بغلاف من الدموع.

وكانت سلمى كثيرة التفكير قليلة الكلام، لكنّ سكوتها كان موسيقيًّا ينتقل بجليسها إلى مسارح الأحلام البعيدة، ويجعله يصغي لنبضات قلبه، ويرى أخيلة أفكاره وعواطفه منتصبة امام عينيه.

أمّا الصفة التي كانت تعانق مزايا سلمى وتساور أخلاقها فهي الكآبة العميقة الجارحة، فالكآبة كانت وشاحًا معنويًّا ترتديه فتزيد محاسن جسدها هيبة وغرابة، وتظهر أشعّة نفسها من خلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء ضباب الصباح. وقد أوجدت الكآبة بين روحي وروح سلمى صلة المشابهة، فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه، ويسمع بصوته صدى مخبآت صدره، فكأن الألهة قد جعلت كل واحد منّا نصفًا للآخر يلتصق به بالطهر فيصير إنسانًا كاملًا، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجع في روحه.

إنّ النفس الحزينة المتألّمة تجد راحة بانضمامها إلى نفس أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالإحساس مثلما يستأنس الغريب بالغريب في أرض بعيدة عن وطنهما – فالقلوب التي تدنيها أوجاع الكآبة بعضها من بعض لا تفرّقها بهجة الأفراح وبهرجتها. فرابطة الحزن أقوى في النفوس من روابط الغبطة والسرور. والحبّ الذي تغسله العيون بدموعها يظلّ طاهرًا وجميلًا وخالدًا.

العاصفة

وبعد أيّام دعاني فارس كرامه إلى تناول العشاء في منزله، فذهبت ونفسي جائعة إلى ذلك الخبز العلوي الذي وضعته السماء بين يدي سلمى، ذلك الخبز الروحي الذي نلتهمه بأفواه أفئدتنا فنزداد جوعًا، ذلك الخبز السحري الذي ذاق طعمه قيس العربي ودانتي الطلياني وسافو اليونانيّة فالتهبت أحشاؤهم وذابت قلوبهم، ذلك الخبز الذي عجنته الآلهة بحلاوة القبل ومرارة الدموع وأعدّته مأكلًا للنفوس الحسّاسة المستيقظة لتفرحها بطعمه وتعذّبها بتأثيره.

ولمّا بلغت المنزل وجدت سلمى جالسة على مقعد خشبي في زاوية من الحديقة وقد أسندت رأسها إلى عمد شجرة فبانت بثوبها الأبيض كواحدة من عرائس الخيال تخفر ذلك المكان، فدنوت منها صامتًا وجلست بقربها جلوس مجوسي متهيّب أمام النار المقدسّة، ولمّا حاولت الكلام وجدت لساني منعقدًا وشفتيّ جامدتين فاستأنست بالسكوت، لأنّ الشعور العميق غير المتناهي يفقد شيئًا من خاصتّه المعنويّة عندما يتجسّم بالألفاظ المحدودة، ولكنّني شعرت بأنّ سلمى كانت تسمع في السكينة مناجاة قلبي المتواصلة وتشاهد في عينيّ أشباح نفسي المرتعشة.

وبعد هنيهة خرج فارس كرامه إلى الحديقة ومشى نحونا مرحّبًا بي كعادته باسطًا يده إليّ كأنّه يريد أن يبارك بها ذلك السرّ الخفيّ الذي يربط روحي بروح ابنته، ثمّ قال مبتسمًا: هلمّا يا ولديّ إلى العشاء فالطعام ينتظرنا. فقمنا وتبعناه وسلمى تنظر إليّ من وراء أجفان مكحولة بالرقة والانعطاف كأنّ لفظة «يا ولديّ» قد أيقظت في داخلها شعورًا جديدًا عذبًا يكتنف محبّتها لي مثلما تحتضن الأم طفلها.

جلسنا إلى المائدة نأكل ونشرب ونتحدّث–جلسنا في تلك الغرفة نتلذّذ بألوان الطعام الشهيّة وأنواع الخمور المعتقة وأرواحنا تسبح على غير معرفة منّا في عالم بعيد عن هذا العالم وتحلم بمآتي المستقبل وتتأهّب للوقوف أمام مخاوفه وأهواله. ثلاثة أشخاص تختلف أفكارهم باختلاف مقاصدهم من الحياة وتتّفق سرائرهم باتفاق قلوبهم بالمودة والمحبّة. ثلاثة من الضعفاء الأبرياء يشعرون كثيرًا ويعرفون قليلًا، وهذه هي المأساة المستتبّة على مسرح النفس. شيخ جليل شريف يحبّ ابنته ولا يحفل بغير سعادتها – وصبيّة في العشرين من عمرها ترى المستقبل قريبًا بعيدًا وتحدّق إليه لترى ما يخبّئ لها من الغبطة والشقاء – وفتى كثير الأحلام والهواجس لم يذق بعد خمر الحياة ولا خلّها، يحرّك جناحيه ليطير سابحًا في فضاء المحبّة والمعرفة ولكنّه لا يستطيع النهوض لضعفه. ثلاثة جالسون حول مائدة أنيقة في منزل منفرد عن المدينة تخيّم عليه سكينة الدجى وتحدق إليه عيون السماء. ثلاثة يأكلون ويشربون وفي أعماق صحونهم وكؤوسهم قد أخفى القدر المرارة والأشواك.

ولم ننتهِ من العشاء حتّى دخلت علينا إحدى الخادمات وخاطبت فارس كرامة قائلة: في الباب رجل يطلب مقابلتك يا سيّدي.

فسألها: مَن هو هذا الرجل؟ فأجابت: أظنّه خادم المطران يا سيّدي. فسكت دقيقة وحدّق إلى عيني ابنته نظير نبي ينظر إلى وجه السماء ليرى ما تخبئه من الأسرار، ثمّ التفت إلى الخادمة وقال: دعيه يدخل.

فعادت الخادمة، وبعد هنيهة ظهر رجل بأثواب مزركشة وشارب معقوب الطرفين، فسلّم منحنيًا، وخاطب فارس كرامه قائلًا: قد بعثني سيادة المطران بمركبته الخصوصيّة لأطلب إليك أن تتكرّم بالذهاب إليه، فهو يريد أن يباحثك بأمور ذات أهميّة.

فانتصب الشيخ وقد تغيّرت ملامحه وانحجبت بشاشة وجهه وراء نقاب من التأمّل والتفكير. ثمّ اقترب منّي وقال بصوت تساوره الرقّة والحلاوة: أرجو أن أعود وألقاك ههنا، فسلمى ستجد بك مؤنسًا يبعد بأحاديثه وحشة الليل، ويزيل بأنغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد. ثمّ التفت نحو ابنته وزاد مبتسمًا: أليس كذلك يا سلمى؟

فحنت الصبية رأسها وقد تورّدت وجنتاها قليلًا، وبصوت يضارع نغمة الناي رقّة قالت: سوف أجهد النفس لكي أجعل ضيفنا مسرورًا يا والدي.

وخرج الشيخ مصحوبًا بخادم المطران وظلّت سلمى واقفة تنظر من النافذة نحو الطريق حتّى اختفت المركبة عن بصرها وراء ستائر الظلام واضمحلّ ارتجاج الدواليب بتباعد المسافة وتشرّب السكون حرتقة سنابك الخيل، ثمّ جلست قبالتي على مقعد موشى بنسيج من الحرير الأخضر بأثوابها كزنبقة لوت قامتها نسمات الصباح على بساط من الأعشاب.

كذا شاءت السماء فخلوت بسلمى ليلًا في منزل منفرد تخفره الأشجار، وتغمره السكينة، وتسير في جوانبه أخيلة الحبّ والطهر والجمال.

ومرّت دقائق وكلانا صامت حائر مفكّر يترقب الآخر ليبدأ بالكلام. ولكن هل هو الكلام الذي يحدث التفاهم بين الأرواح المتحابة؟ هل هي الأصوات والمقاطع الخارجة من الشفاه والألسنة التي تقرب بين القلوب

والعقول؟ أفلا يوجد شيءٌ أسمى ممّا تلده الأفواه وأطهر ممّا تهتزّ به أوتار الحناجر؟ أليست هي السكينة التي تحمل شعاع النفس إلى النفس، وتنقل همس القلب إلى القلب؟ أليست هي السكينة التي تفصلنا عن ذواتنا فنسبح في فضاء الروح غير المحدود، مقتربين من الملأ الأعلى، شاعرين بأن أجسادنا لا تفوق السجون الضيقة، وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد؟

ونظرت سلمى إليّ وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ثمّ قالت بهدوء سحري: تعال نخرج إلى الحديقة ونجلس بين الأشجار لنرى القمر طالعًا من وراء الجبل.

فوقفت مطيعًا وقلت ممانعًا: أليس الأفضل أن نبقى ههنا يا سلمى حتّى يطلع القمر وينير الحديقة؟ أمّا الآن فالظلام يحجب الأشجار والأزهار فلا نستطيع أن نرى شيئًا. فأجابت: إذا حجب الظلام الأشجار والرياحين عن العين فالظلام لا يحجب الحبّ عن النفس.

قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة، ثمّ حوّلت عينيها ونظرت نحو النافذة، فبقيت أنا صامتًا مفكّرًا بكلماتها مصوّرًا لكلّ مقطع معنى، راسمًا لكلّ معنى حقيقة، ثمّ عادت فحدقت إليّ كأنّها ندمت على ما قالت فحاولت استرجاع كلماتها من أذنيّ بسحر أجفانها. ولكن سحر تلك الأجفان لم يسترجع تلك الألفاظ إلّا ليعيدها إلى أعماق صدري أكثر وضوحًا وأشدّ تأثيرًا وليبقيها هناك ملتصقة بقلبي متموّجة مع عواطفي إلى آخر الحياة.

كلّ شيء عظيم وجميل في هذا العالم يتولّد من فكر واحد أو من حاسة واحدة في داخل الإنسان. كل ما نراه اليوم من أعمال الأجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكرًا خفيًّا في عقل رجل أو عاطفة لطيفة في صدر امرأة... الثورات الهائلة التي أجرت الدماء كالسواقي وجعلت

الحرية تعبد كالآلهة كانت فكرًا خياليًّا مرتعشًا بين تلافيف دماغ رجل فرد عائش بين أُلوف من الرجال. والحروب الموجعة التي ثلت العروش وخربت الممالك كانت خاطرًا يتمايل في رأس رجل واحد. والتعاليم السامية التي غيّرت مسير الحياة البشريّة كانت ميلًا شعريًّا في نفس رجل واحد منفصل بنبوغه عن محيطه. فكر واحد أقام الأهرام وعاطفة واحدة خربت تروادة وخاطر واحد أوجد مجد الإسلام وكلمة واحدة أحرقت مكتبة الإسكندرية.

فكر واحد يجيئك في سكينة الليل يسير بك إلى المجد أو إلى الجنون. نظرة واحدة من أطراف أجفان امرأة تجعلك أسعد الناس أو أتعسهم. كلمة واحدة تخرج من بين شفتي رجل تصيّرك غنيًّا بعد الفقر أو فقيرًا بعد الغنى... كلمة واحدة لفظتها سلمى كرامه في تلك الليلة الهادئة أوقفتني بين ماضيّ ومستقبلي وقوف سفينة بين لجة البحار وطبقات الفضاء. كلمة واحدة معنوية قد أيقظتني من سبات الحداثة والخلو وسارت بأيّامي على طريق جديدة إلى مسارح الحب حيث الحياة والموت.

خرجنا إلى الحديقة وسرنا بين الأشجار شاعرين بأصابع النسيم الخفيّة تلامس وجهينا وقامات الأزهار والأعشاب اللدنة تتمايل بين أقدامنا، حتّى إذا ما بلغنا شجرة الياسمين جلسنا صامتين على ذلك المقعد الخشبي نسمع تنفس الطبيعة النائمة ونكشف بحلاوة التنهّد خفايا صدرينا أمام عيون السماء الناظرة إلينا من وراء ازرقاق السماء.

وطلع القمر إذا ذاك من وراء صنّين وغمر بنوره تلك الروابي والشواطئ، فظهرت القرى على أكتاف الأودية كأنّها قد انبثقت من اللاشيء، وبان لبنان جميعه من تحت الأشعّة الفضيّة كأنّه فتى متكئ على ساعده تحت نقاب لطيف يخفي أعضاءه ولا يخفيها.

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالي قد اضمحلّت حقيقته بذهاب داود وسليمان والأنبياء مثلما انحجبت جنّة عدن بسقوط آدم وحـواء. هو لفظة شعريّة لا إسم جبل – لفظة ترمز عن عاطفة في النفس وتستحضر إلى الفكر رسوم غاباتٍ من الأرز يفوح منها العطر والبخور، وأبراج من النحاس والرخام تتعالى بالمجد والعظمة، وأسراب من الغزلان تتهادى بين الطلول والأودية. وأنا قد رأيت لبنان في تلك الليلة مثل فكر شعريّ خياليّ منتصب كالحلم بين اليقظة واليقظة. كذا تتغيّر الأشياء أمام أعيننا بتغيّر عواطفنا، وهكذا نتوهّم الأشياء متّشحة بالسحر والجمال عندما لا يكون السحر والجمال إلّا في نفوسنا.

والتفتت إليّ سلمى وقد غمر نور القمر وجهها وعنقها ومعصميها فبانت كتمثال من العاج نحتته أصابع متعبّد لعشتروت ربّة الحسن والمحبّة: لماذا لا تتكلّم؟ لماذا لا تحدّثني عن ماضي حياتك؟

فنظرت إلى عينيها المنيرتين، ومثل أخرس فاجأ النطق شفتيه أجبتها قائلًا: ألم تسمعيني متكلّمًا مذ جئت إلى هذا المكان؟ أوَلم تسمعي كلّ ما قلته مذ خرجنا إلى هذه الحديقة؟ إنّ نفسك التي تسمع همس الأزهار وأغاني السكينة تستطيع أن تسمع صراخ روحي وضجيج قلبي.

فحَجَبَتْ وجهها بيديها ثمّ قالت بصوت متقطّع: قد سمعتك... نعم سمعتك. سمعت صوتًا صارخًا خارجًا من أحشاء الليل وضجّة هائلة منبثقة من قلب النهار.

فقلت بسرعة وقد نسيت ماضي حياتي ونسيت كياني ونسيت كلّ شيء ولم أعد أعرف سوى سلمى ولا أشعر بغير وجودها: وأنا قد سمعتك يا سلمى – سمعت نغمة عظيمة محيية جارحة تتموّج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها أسس الأرض.

فأغمضت سلمى أجفانها وظهر على شفتيها القرمزيتين خيال ابتسامة محزنة ثمّ همست قائلة: قد عرفت الآن أنّه يوجد شيء أعلى من السماء وأعمق من البحر وأقوى من الحياة والموت والزمن. وقد عرفت الآن ما لم أكن أعرفه بالأمس ولا أحلم به.

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامه أعزّ من الصديق وأقرب من الأخت وأحبّ من الحبيبة. صارت فكرًا ساميًا يتبع عاقلتي وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وحلمًا جميلًا يجاور نفسي.

ما أجهل الناس الذين يتوهّمون أنّ المحبّة تتولّد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرّة. إنّ المحبّة الحقيقيّة هي إبنة التفاهم الروحي وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتمّ بعام ولا بجيل كامل.

ورفعت سلمى رأسها ونظرت نحو الأفق البعيد حيث تلتقي خطوط صنين بأذيال الفضاء، ثمّ قالت: لقد كنت لي بالأمس مثل أخٍ أقترب منه مطمئنة وأجلس بجانبه في ظلال والدي، أمّا الآن فقد شعرت بوجود شيء أقوى وأعذب من العلاقة الأخوية. قد شعرت بعاطفة غريبة مجرّدة عن كلّ علاقة: عاطفة قوّية مخيفة لذيذة تملأ قلبي حزنًا وفرحًا.

فأجبتها: أليست هذه العاطفة التي نخافها ونرتجف لمرورها في صدورنا جزءًا من الناموس الكلّي الذي يسيّر القمر حول الأرض، والأرض حول الشمس والشمس وما يحيط بها حول الله.

فوضعت يدها على رأسي وغرست أصابعها بشعري وقد تهلّل وجهها وترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلمع قطرات الندى على أطراف أوراق النرجس، ثم قالت: مَنْ من البشر يصدق حكايتنا؟ من منهم يصدّق أنّنا في الساعة التي تجيء بين غروب الشمس وطلوع القمر قد قطعنا العقبات واجتزنا المعابر الكائنة بين الشكّ واليقين؟ من

منهم يعتقد أنّ نيسان الذي جمعنا لأوّل مرّة هو الشهر الذي أوقفنا في قدس أقداس الحياة.

قالت هذه الكلمات ويدها ما برحت على رأسي المنحني، ولو تخيرت في تلك الدقيقة لما فضّلت تيجان الملوك وأكاليل الغار على تلك اليد الحريريّة المتلاعبة بشعري. ثمّ أجبتها قائلًا: إنّ البشر لا يصدِّقون حكايتنا لأنّهم لا يعلمون بأنّ المحبّة هي الزهرة الوحيدة التي تنبت وتنمو بغير معاونة الفصول، ولكن هل هو نيسان الذي جمعنا لأوّل مرّة، وهل هي هذه الساعة التّي أوقفتنا في قدس أقداس الحياة؟ أما جمعت روحينا قبضة الله قبل أن تصيّرنا الولادة أسيري الأيّام والليالي؟ إنّ حياة الإنسان يا سلمى لا تبتدئ في الرحم كما أنّها لا تنتهي أمام القبر، وهذا الفضاء الواسع المملوء بأشعّة القمر والكواكب لا يخلو من الأرواح المتعانقة بالمحبّة والنفوس المتضامنة بالتفاهم.

ورفعت سلمى يدها بلطف عن رأسي تاركة بين مغارس الشعر تموّجات كهربائيّة يتلاعب بها نسيم الليل فيزيدها نموًّا وحراكًا، فأخذت تلك اليد براحتي نظير متعبّد يتبرّك بلثم المذبح ووضعتها على شفتيّ الملتهبتين قبلة طويلة عميقة خرساء تذيب بحرارتها كلّ ما في القلب البشري من الإحساس وتنبّه بعذوبتها كلّ ما في النفس الإلهيّة من الطهر.

ومرّت علينا ساعة كل دقيقة منها عام شغف ومحبة، تساورنا سكينة الليل وتغمرنا أشعّة القمر وتحيط بنا الأشجار والرياحين، حتّى إذا ما بلغنا تلك الحالة التي ينسى فيها الإنسان كلّ شيء سوى حقيقة الحبّ سمعنا وقع حوافر وهدير مركبة تقترب منّا مسرعة، فانتبهنا من تلك الغيبوبة اللذيذة وهبطت بنا اليقظة من عالم الأحلام إلى هذا العالم الواقف بمسيره بين الحيرة والشقاء، فعرفنا أنّ الوالد الشيخ قد

عاد من دار المطران فسرنا بين الأشجار ننتظر وصوله. وبلغت المركبة مدخل الحديقة فترجّل فارس كرامه وسار نحونا منحني الرأس بطيء الحركة، ونظير متعب رازح تحت حمل ثقيل تقدّم نحو سلمى ووضع كلتا يديه على كتفيها وحدّق إلى وجهها طويلًا كأنّه يخاف أن تغيب صورتها عن عينيه الضئيلتين، ثمّ انسكبت دموعه على وجنتيه المتجعّدتين وارتجفت شفتاه بابتسامة محزنة وقال بصوت مخنوق: عمّا قريب يا سلمى، عمّا قريب تخرجين من بين ذراعي والدك إلى ذراعي رجل آخر. عمّا قريب تسير بك سنّة الله من هذا المنزل المنفرد إلى ساحة العالم الواسعة فتصبح هذه الحديقة مشتاقة إلى وطء قدميك ويصير والدك غريبًا عنك. لقد لفظ القدر كلمته يا سلمى، فلتباركك السماء وتحرسك!

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيّرت ملامحها وجمدت عيناها كأنّها رأت شبح الموت منتصبًا أمامها، ثمّ شهقت وتململت متوجّعة كعصفور رماه الصيّاد فهبط على الحضيض مرتجفًا بآلامه، وبصوت تقطعه الغصّات العميقة صرخت قائلة: ماذا تقول؟ ماذا تعني؟ إلى أين تريد أن تبعث بي؟

ثمّ شخصت به كأنّها تريد أن تزيل بنظراتها الغلاف عن مخبآت صدره. وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون الشبيه بصراخ القبور قالت متأوّهة: قد فهمت الآن... قد عرفت كلّ شيء... إن المطران قد فرغ من حبْك قضبان القفص الذي أعدّه لهذا الطائر المكسور الجناحين، فهل هذه هي إرادتك يا والدي؟

فلم يجبها بغير التنهّدات العميقة، ثمّ أدخلها الدار وأشعّة الحنوّ تنسكب من ملامحه المضطربة، فبقيت أنا واقفًا بين الأشجار والحيرة تتلاعب بعواطفي مثلما تتلاعب العواصف بأوراق الخريف، ثمّ تبعتهما إلى القاعة. وكيلا أظهر بمظهر طفيلي يميل إلى استطلاع الخصوصيات

أخذت يد الشيخ مودّعًا ونظرت إلى سلمى نظرة غريق تلفّت نحو نجم لامع في قبّة الفلك، ثمّ خرجت دون أن يشعرا بخروجي، ولكنّني ما بلغت أطراف الحديقة حتّى سمعت صوت الشيخ مناديًا، فالتفتّ وإذا به يتبعني، فعدت إلى لقائه، ولما دنوت منه أمسك بيدي وقال بصوت مرتعش: سامحني يا ابني فقد جعلت ختام ليلتك مكتنفًا بالدموع، ولكنّك سوف تجيء إليّ دائمًا، أليس كذلك؟ ألا تزورني عندما يصير هذا المكان خاليًا إلّا من الشيخوخة المحزنة؟ إن الشباب الغضّ لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة كما أن الصباح لا يلتقي بالمساء، أمّا أنت فسوف تجيء إليّ لتذكّرني بأيام الصبا التي صرفتها بقرب أبيك وتعيد على مسمعي أخبار الحياة التي لم تعد تحسبني من أبنائها، أليس كذلك؟ ألا تزورني عندما تذهب سلمى وأصبح وحيدًا منفردًا في هذا المنزل البعيد عن المنازل؟

لفظ الكلمات الأخيرة بصوت منخفض متقطّع، ولمّا أخذت يده وهززتها صامتًا أحسست بقطرات من الدموع السخينة قد تساقطت على يدي من أجفانه، فارتعشت نفسي في داخلي وشعرت نحوه بعاطفة بنويّة عذبة محزنة تتمايل بين ضلوعي وتتصاعد كاللهاث إلى شفتيّ ثمّ تعود كالغصّات إلى أعماق قلبي. ولما رفعت رأسي ورأى أن دموعه قد استدرت الدموع من أجفاني انحنى قليلًا ولمس بشفتيه المرتجفتين أعلى جبهتي ثمّ قال محوّلًا وجهه نحو باب المنزل: مساء الخير... مساء الخير يا ابني.

إنّ دمعة واحدة تتلمّع على وجنة شيخ متجعدة لهي أشدّ تأثيرًا في النفس من كلّ ما تهرقه أجفان الفتيان.

إنّ دموع الشباب الغزيرة هي ممّا يفيض من جوانب القلوب المترعة، أمّا دموع الشيوخ فهي فضلات العمر تنسكب من الأحداق، هي

بقيّة الحياة في الأجساد الواهنة. الدموع في أجفان الشبيبة كقطرات الندى على أوراق الوردة، أمّا الدموع على وجنة الشيخوخة فأشبه بأوراق الخريف المصفرّة التي تنثرها الرياح وتذريها عندما يقترب شتاء الحياة.

واختفى فارس كرامه وراء مصراعي الباب وخرجت أنا من تلك الحديقة وصوت سلمى يتموّج في أذنيّ، وجمالها يسير كالخيال أمام عينيّ، ودموع والدها تجفّ ببطء على يدي. خرجت من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس، ولكن حوّاء هذا القلب لم تكن بجانبي لتجعل العالم كلّه فردوسًا... خرجت شاعرًا بأن تلك الليلة التي ولدت فيها ثانية هي الليلة التي لمحت فيها وجه الموت لأوّل مرّة.

كذا تحيي الشمس الحقول بحرارتها، وبحرارتها تميتها.

بحيرة النار

كلّ ما يفعله الإنسان سرًّا في ظلمة الليل يظهره الإنسان علنًا في نور النهار. الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير على غير معرفة منّا حديثًا عموميًّا، والأعمال التي نحاول اليوم إخفاءها في زوايا المنازل تتجسّمّ غدًا وتنتصب في منعطفات الشوارع.

كذا أعلنت أشباح الدجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامه، وهكذا حملت دقائق الأثير أقواله وأحاديثه إلى أحياء المدينة حتّى بلغت مسمعي.

ما طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامه في تلك الليلة المقمرة ليفاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين أو يخابره بأُمور الأرامل والأيتام، بل أحضره بمركبته الخصوصيّة الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروسًا لابن أخيه منصور بك غالب.

كان فارس كرامه رجلًا غنيًّا ولم يكن له وارث سوى ابنته سلمى، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه، لا لجمال وجهها ونبالة روحها بل لأنّها غنيّة موسرة تكفل بأموالها الطائلة مستقبل منصور بك وتساعده بأملاكها الواسعة على إيجاد مقام رفيع بين الخاصّة والأشراف.

إنّ رؤساء الدين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه أنفسهم من المجد والسؤدد بل يفعلون كلّ ما في وسعهم ليجعلوا أنسباءهم في مقدّمة الشعب ومن المستبدّين به والمستدرين قواه أمواله. إنّ مجد الأمير ينتقل بالإرث إلى ابنه البكر بعد موته، أمّا مجد الرئيس الديني فينتقل بالعدوى إلى الإخوة وأبناء الإخوة في حياته. وهكذا يصبح الأسقف المسيحي والإمام المسلم والكاهن البرهمي كأفاعي البحر التي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتمتصّ دماءها بأفواه عديدة.

عندما طلب المطران بولس يد سلمى من والدها لم يجبه ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخينة. وأيّ والد لا يشقّ عليه فراق ابنته حتّى ولو كانت ذاهبة إلى بيت جاره أو إلى قصر ملك؟ أيّ رجل لا ترتعش أعماق نفسه بالغصّات عندما يفصله ناموس الطبيعة عن الإبنة التي لاعبها طفلة وهذّبها صبيّة ورافقها امرأة؟ إن كآبة الوالدين لزواج الإبنة يضارع فرحهما بزواج الإبن، لأن هذا يكسب العائلة عضوًا جديدًا أمّا ذاك فيسلبها عضوًا قديمًا عزيزًا - أجاب الشيخ طلب المطران مضطرًّا وانحنى أمام مشيئته قهرًا عمّا في داخل نفسه من الممانعة، وكان قد اجتمع بابن أخيه منصور بك وسمع الناس يتحدّثون عنه فعرف خشونته وطمعه وانحطاط أخلاقه، ولكن أيّ مسيحي يقدر أن يقاوم أُسقفًا في سوريا ويبقى محسوبًا بين المؤمنين؟ أيّ رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويظلّ كريمًا بين الناس؟ أتعاند العين سهمًا ولا تفقأ أو تناضل اليد سيفًا ولا تقطع؟ وهب أن ذلك الشيخ كان قادرًا على مخالفة المطران بولس والوقوف أمام مطامعه فهل تكون سمعة ابنته في مأمن من الظنون والتآويل، وهل يظلّ اسمها نقيًّا من أوساخ الشفاه والألسنة؟ أوَليست جميع العناقيد العالية حامضة في شرع بنات آوى؟

هكذا قبض القدر على سلمى كرامه وقادها عبدةً ذليلة في موكب النساء الشرقيات التاعسات، وهكذا سقطت تلك الروح النبيلة بالحبائل بينما كانت تسبح لأوّل مرّة على أجنحة الحبّ البيضاء في فضاء تملأه أشعّة القمر وتعطره رائحة الأزاهر.

إنّ أموال الآباء تكون في أكثر المواطن مجلبةً لشقاء البنين. تلك الخزائن الواسعة التي يملأها نشاط الوالد وحرص الأم تنقلب حبوسًا ضيقة مظلمة لنفوس الورثة. ذلك الإله العظيم الذي يعبده الناس بشكل الدينار ينقلب شيطانًا مخيفًا يعذّب النفوس ويميت القلوب. وسلمى كرامه هي كالكثيرات من بنات جنسها اللواتي يذهبن ضحيّة ثروة الوالد وأماني العريس. فلو لم يكن فارس كرامه رجلًا غنيًّا لكانت سلمى اليوم حيّة تفرح مثلنا بنور الشمس.

مرّ أسبوع وحبّ سلمى يجالسني في المساء منشدًا على مسمعي أغاني السعادة وينبهني عند الفجر ليريني معاني الحياة وأسرار الكيان. حبّ علويّ لا يعرف الحسد لأنّه غنيّ، ولا يوجع الجسد لأنّه في داخل الروح. ميل قوي يغمر النفس بالقناعة. مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكتفاء. عاطفة تولد الشوق ولكنّها لا تثيره. فتون جعلني أرى الأرض نعيمًا والعمر حلمًا جميلًا. فكنت أسير صباحًا في الحقول وأرى في يقظة الطبيعة رمز الخلود، وأجلس على شاطئ البحر وأسمع من أمواجه أغاني الأبديّة. وأمشي في شوارع المدينة وأجد في طلعات العابرين وحركات المشتغلين محاسن الحياة وبهجة العمران.

تلك أيّام مضت كالأشباح واضمحلّت كالضباب ولم يبقَ لي منها سوى الذكرى الأليمة. فالعين التي كنت أرى بها جمال الربيع ويقظة الحقول لم تعد تحدّق إلى غير غضب العواصف ويأس الشتاء. والأذن التي كنت أسمع بها أغنية الأمواج لم تعد تصغي لغير أنّة الأعماق وعويل

الهاوية. والنفس التي كانت تقف متهيّبة أمام نشاط البشر ومجد العمران لم تعد تشعر بغير شقاء الفقر وتعاسة الساقطين، فما أحلى أيّام الحبّ وما أعذب أحلامها وما أمرّ ليالي الحزن وما أكثر مخاوفها!

وفي نهاية الأسبوع وقد سكرت نفسي بخمرة عواطفي سرت مساء إلى منزل سلمى كرامه، ذلك الهيكل الذي أقامه الجمال وقدسه الحبّ لتسجد فيه النفس مصلّية ويركع القلب خاشعًا، ولمّا بلغته ودخلت إلى تلك الحديقة الهادئة أحسست بوجود قوّة تستهويني وتستميلني وتبعدني عن هذا العالم وتدنيني ببطء إلى عالم سحري خالٍ من العراك والجهاد. ومثل متصوّف جذبته السماء إلى مسارح الرؤيا وجدتني سائرًا بين تلك الأشجار المحتبكة المتعانقة. حتّى إذا ما اقتربت من باب الدار التفتّ وإذا بسلمى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة الياسمين حيث جلسنا منذ أسبوع في تلك الليلة التي اختارتها الآلهة من بين الليالي وجعلتها بدء سعادتي وشقائي، فدنوت منها صامتًا فلم تتحرّك ولم تتكلّم كأنّها علمت بقدومي قبل قدومي. ولمّا جلست بجانبها حدّقت إلى عينيّ دقيقة وتنهّدت تنهدة طويلة عميقة ثمّ عادت فنظرت إلى الشفق البعيد حيث تعبث أوائل الليل بأواخر النهار. وبعد هنيهة مملوءة بتلك السكينة السحريّة التي تضمّ نفوسنا إلى مواكب الأرواح غير المنظورة، حوّلت سلمى وجهها نحوي وأخذت يدي بيد مرتعشة باردة، وبصوت يشابه تأوّه جائع لا يقوى على الكلام قالت:

انظر إلى وجهي يا صديقي، انظر إلى وجهي جيّدًا وتأمّله طويلًا واقرأ فيه كلّ ما تريد أن تفهمه منّي بالكلام... انظر إلى وجهي يا حبيبي... انظر جيّدًا يا أخي.

فنظرت إلى وجهها، نظرت طويلًا، فرأيت تلك الأجفان التي كانت منذ أيّام قليلة تبتسم كالشفاه وتتحرّك كأجنحة الشحرور قد غارت

وجمدت واكتحلت بخيالات التوجّع والألم. رأيت تلك البشرة التي كانت بالأمس مثل ثنايا الزنبقة البيضاء الفرحة بقبلات الشمس، قد اصفرّت وذبلت وتبرقعت بنقاب القنوط. رأيت الشفتين اللتين كزهرة أقاح تسيل عليها الحلاوة قد يبستا وصارتا كوردتين مرتجفتين أبقاهما الخريف على طرف الغصن. رأيت العنق الذي كان مرفوعًا كعمود العاج قد انحنى إلى الأمام كأنّه لم يعد قادرًا على حمل ما يجول في تلافيف الرأس.

رأيت هذه الانقلابات الموجعة في ملامح سلمى، رأيتها جميعها ولكنّها لم تكن في نظري إلّا كسحابة رقيقة توشّح القمر فتزيد منظره حسنًا وهيبةً. إن الملامح التي تبيح أسرار الذات المعنويّة تكسب الوجه جمالًا وملاحة مهما كانت تلك الأسرار موجعة وأليمة. أمّا الوجوه التي لا تتكلّم بصمتها عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون جميلة مهما كانت متناسقة الخطوط متناسبة الأعضاء. إنّ الكؤوس لا تستميل شفاهنا حتّى يشف بلورها عن لون الخمر. فسلمى كرامه كانت في عشيّة ذلك النهار مثل كأس طافحة من خمرة علويّة تمتزج بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النفس. كانت تمثل على غير معرفة منها حياة المرأة الشرقيّة التي لا تغادر منزل والدها المحبوب إلّا لتضع عنقها تحت نير زوجها الخشن... ولا تترك ذراعي أمّها الرؤوف إلّا لتعيش في عبودية والدة زوجها القاسية.

وبقيت محدّقًا إلى وجه سلمى مصغيًا لأنفاسها المتقطّعة صامتًا مفكّرًا شاعرًا متألّمًا معها ولها، حتّى أحسست أنّ الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحلّ ولم أعد أرى سوى عينين كبيرتين محدّقتين إلى أعماقي، ولا أشعر بغير يد باردة مرتعشة تضمّ يدي. ولم أفق من هذه الغيبوبة حتّى سمعت سلمى تقول بهدوء: تعال نتحدّث الآن يا صديقي. تعال نحاول تصوير المستقبل قبل أن يحمل علينا بمخاوفه

وأهواله. لقد ذهب والدي إلى منزل الرجل الذي سيكون رفيقًا لي حتّى القبر. قد ذهب الرجل الذي اختارته السماء سببًا لوجودي ليلتقي الرجل الذي انتقته الأرض سيّدًا على أيامي الآتية. ففي قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشيخ الذي رافق شبيبتي بالشاب الذي سيرافق ما بقي لي من السنين، وفي هذه الليلة يتّفق الوالد والخطيب على يوم القران الذي سيكون قريبًا مهما جعلاه بعيدًا. فما أغرب هذه الساعة وما أشدّ تأثيرها! في مثل هذه الليلة من الأسبوع الغابر، وفي ظلال هذه الياسمينة قد عانق الحبّ روحي لأوّل مرّة، بينما كان القدر يخطّ أوّل كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب. وفي هذه الساعة وقد جلس والدي وخطيبي ليضفرا إكليل زواجي، أراك جالسًا بجانبي وأشعر بنفسك متموّجة حولي كطائر ظامئ يحوم مرفرفًا فوق ينبوع ماء يخفره ثعبان جائع مخيف. فما أعظم هذه الليلة وما أعمق أسرارها!

فأجبتها وقد تخيّلت القنوط شبحًا مظلمًا قابضًا على عنق حبّنا ليميته في طفولته: سيظلّ هذا الطائر حائمًا مرفرفًا فوق الينبوع حتّى يضنيه العطش فيرديه أو يقبض عليه الثعبان المخيف فيمزّقه ويلتهمه.

فقالت متأثّرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضيّة: لا، لا يا صديقي، فليبقَ هذا الطائر حيًّا، ليبقَ هذا البلبل مغرّدًا حتّى المساء، حتّى ينتهي الربيع، حتّى ينتهي العالم، حتّى تنتهي الدهور، لا تخرسه لأن صوته يحييني، ولا توقف جناحيه لأن حفيفهما يزيل الضباب عن قلبي.

فهمست متنهّدًا: الظمأ يقتله يا سلمى والخوف يميته، فأجابت والكلام يتدفّق بسرعة من بين شفتيها المرتعشتين: إن ظمأ الروح أعظم من ارتواء المادة، وخوف النفس أحبّ من طمأنينة الجسد... ولكن اسمع يا حبيبي، اسمعني جيّدًا، أنا واقفة الآن في باب حياة جديدة لا أعرف عنها شيئًا. أنا مثل عمياء تتلمّس بيدها الجدران مخافة

السقوط. أنا جارية أنزلني مال والدي إلى ساحة النخاسين فابتاعني رجل من بين الرجال. أنا لا أحبّ هذا الرجل لأنّني أجهله، وأنت تعلم أن المحبّة والجهالة لا تلتقيان، ولكنّني سوف أتعلّم محبّته. سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيدًا. سوف أهبه كلّ ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القوي. أمّا أنت فلم تزل في ربيع العمر، أمامك الحياة طريقًا واسعة مفروشة بالأزهار والرياحين. سوف تخرج إلى ساحة العالم حاملًا قلبك مشعلًا متّقدًا. سوف تفكّر بحريّة وبحريّة تتكلّم وتفعل. سوف تكتب اسمك على وجه الحياة لأنّك رجل. سوف تعيش سيّدًا، لأن فاقة والدك لا تجعلك عبدًا، وأمواله لا تنزل بك إلى سوق النخاسين حيث تباع البنات وتشرى. سوف تقترن بالصبية التي تختارها نفسك من بين الصبايا فتسكنها صدرك قبل أن تسكنها منزلك، وتشاركها بأفكارك قبل أن تساهمها الأيّام والليالي.

وسكتت دقيقة كيما تسترجع أنفاسها، ثمّ زادت بصوت تتابعه الغصّات: ولكن أَههنا تفرّقنا سبل الحياة لتذهب بك إلى أمجاد الرجل وتسير بي إلى واجبات المرأة؟ أهكذا ينقضي الحلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة؟ أهكذا تبتلع اللجّة نغمة الشحرور وتنثر الرياح أوراق الوردة وتسحق الأقدام كأس الخمر؟ أباطلًا أوقفتنا تلك الليلة أمام وجه القمر وباطلًا ضمّنا الروح في ظلال هذه الياسمينة؟ هل تسرّعنا بالصعود نحو الكواكب فكلّت أجنحتنا وهبطت بنا إلى الهاوية؟ هل فاجأنا الحبّ نائمًا فاستيقظ غاضبًا ليعاقبنا، أم هيّجت أنفاسنا نسمات الليل فانقلبت ريحًا شديدة لتمزقنا وتجرفنا كالغبار إلى أعماق الوادي؟ لم نخالف وصيّة ولم نذق ثمرًا فكيف نخرج من هذه الجنّة؟ لم نتآمر ولم نتمرّد فلماذا نهبط إلى الجحيم! لا لا وألف لا ولا. إنّ الدقائق التي جمعتنا هي أعظم من الأجيال، والشعاع الذي أنار نفسينا هو أقوى من الظلام، فإن

فرّقتنا العاصفة على وجه هذا البحر الغضوب فالأمواج تجمعنا على ذلك الشاطئ الهادئ، وإن قتلتنا هذه الحياة فذاك الموت يحيينا.

إنّ قلب المرأة لا يتغيّر مع الزمن ولا يتحوّل مع الفصول. قلب المرأة ينازع طويلًا ولكنّه لا يموت. قلب المرأة يشابه البرية التي يتّخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه، فهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ويلطّخ صخورها بالدماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم، ولكنّها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة ويظلّ فيها الربيع ربيعًا والخريف خريفًا إلى نهاية الدهور... والآن قضي الأمر فماذا نفعل؟ قل لي ماذا نفعل وكيف نفترق ومتى نلتقي؟ هل نحسب الحبّ ضيفًا غريبًا أتى به المساء وأبعده الصباح؟ أنحسب هذه العاطفة النفسيّة حلمًا أبانه الكرى ثمّ أخفته اليقظة؟ أنحسب هذا الأسبوع ساعة سكر ما لبثت أن قضت بالصحو والانتباه؟.. ارفع رأسك لأرى عينيك يا حبيبي. افتح شفتيك لأسمع صوتك. تكلّم، أخبرني، حدّثني، هل تذكر بعد أن تغرق العاصفة سفينتي أيّامنا؟ هل تسمع حفيف أجنحتي في الليل؟ هل تشعر بأنفاسي متموّجة على وجهك وعنقك؟ هل تصغي لتنهّداتي متصاعدة بالتوجّع منخفضة بالغصّات؟ وهل ترى خيالي قادمًا مع خيالات الظلام مضمحلًّا مع ضباب الصباح؟ قل لي يا حبيبي، قل لي ماذا تكون لي بعد أن كنت نورًا لعينيّ ونغمة لأذنيّ وجناحًا لروحي، ماذا تكون؟

فأجبتها وحبّات قلبي تذوب في عينيّ: سأكون لك يا سلمى مثلما تريدينني أن أكون.

فقالت: أريدك أن تحبّني. أريدك أن تحبّني إلى نهاية أيّامي. أريدك أن تحبّني مثلما يحبّ الشاعر أفكاره المحزنة. أريدك أن تذكرني مثلما يذكر المسافر حوض ماء هادئ رأى فيه خيال وجهه قبل أن يشرب من مائه. وأريدك أن تذكرني مثلما تذكر الأم جنينًا مات في أحشائها

قبل أن يرى النور. وأريدك أن تفكّر بي مثلما يفكّر الملك الرؤوف بسجين مات قبل أن يبلغه عفوه. أريدك أن تكون لي أخًا وصديقًا ورفيقًا. أريدك أن تزور والدي في وحدته وتعزّيه في انفراده، لأنّني عمّا قريب سأتركه وأصير غريبة عنه.

فأجبتها: سأفعل كلّ ذلك يا سلمى. سوف أجعل روحي غلافًا لروحك، وقلبي بيتًا لجمالك، وصدري قبرًا لأحزانك. سوف أحبّك يا سلمى محبّة الحقول للربيع. سوف أحيا بك حياة الأزاهر بحرارة الشمس. سوف أترنّم باسمك مثلما يترنّم الوادي بصدى رنين الأجراس المتمايلة فوق كنائس القرى. سوف أصغي لأحاديث نفسك مثلما تصغي الشواطئ لحكاية الأمواج... سأذكرك يا سلمى مثلما يذكر الغريب المستوحش وطنه المحبوب، والفقير الجائع مائدة الطعام الشهيّة، والملك المخلوع أيّام عزّه ومجده، والأسير الكئيب ساعات الحريّة والطمأنينة. سوف أفكّر بك مثلما يفكّر الزارع بأغمار السنابل وغلّة البيادر، والراعي الصالح بالمروج الخضراء والمناهل العذبة.

كنتُ أتكلّم وسلمى تنظر إلى أعماق الليل وتتأوّه بين الآونة والأخرى، ونبضات قلبها تتسارع وتتمايل كأنّها أمواج بحر بين صعود وهبوط. ثمّ قالت: غدًا تصير الحقيقة خيالًا واليقظة حلمًا، فهل يكتفي المشتاق بعناق الخيال ويرتوي الظمآن من جداول الأحلام؟

فأجبتها قائلًا: غدًا يسير بك القدر إلى أحضان العائلة المملوءة بالراحة والهدوء، ويسير بي إلى ساحة العالم حيث الجهاد والقتال. أنتِ إلى منزل إلى الحياة وأنا إلى النزع. أنت إلى الأنس والأُلفة وأنا إلى الوحشة والانفراد. ولكنّني سأرفع في وادي ظلّ الموت تمثالًا للحبّ وأعبده. سأتخذ الحبّ سميرًا وأسمعه منشدًا وأشربه خمرًا وألبسه ثوبًا. عند الفجر سينبّهني الحبّ من رقادي ويسير أمامي إلى البريّة البعيدة.

وعند الظهيرة سيقودني إلى ظلّ الأشجار فأربض مع العصافير المحتمية من حرارة الشمس. وفي المساء سيوقفني أمام المغرب ويسمعني نغمة وداع الطبيعة للنور ويريني أشباح السكينة سابحة في الفضاء. وفي الليل سيعانقني فأنام حالمًا بالعوالم العُلويّة حيث تقطن أرواح العشّاق والشعراء. وفي الربيع سأمشي والحبّ جنبًا لجنب، مترنّميْن بين التلول والمنحدرات متّبعيْن آثار أقدام الحياة المخطّطة بالبنفسج والأقحوان، شاربيْن بقايا الأمطار بكؤوس النرجس والزنبق. وفي الصيف سأتّكئ والحبّ ساندين رأسينا إلى أغمار القشْ مفترشين الأعشاب ملتحفين السماء ساهرين مع القمر والنجوم. وفي الخريف سأذهب والحب إلى الكروم فنجلس بقرب المعاصر ناظريْن إلى الأشجار وهي تخلع أثوابها المذهّبة متأمّليْن بأسراب الطيور الراحلة إلى الساحل. وفي الشتاء سأجلس والحبّ بقرب الموقد تاليْين حكايات الأجيال مردّديْن أخبار الأمم والشعوب. وفي أيّام الشبيبة سيكون لي الحبّ مهذّبًا وفي الكهولة عضدًا وفي الشيخوخة مؤنسًا. سيظلّ الحب معي يا سلمى إلى نهاية العمر، إلى أن يجيء الموت، إلى أن تجمعني بك قبضة الله.

كانت الألفاظ تتصاعد مسرعة من أعماق نفسي كأنّها شعلات من نار تنمو وتتطاير ثمّ تتبدّد وتضمحلّ في زوايا تلك الحديقة، وكانت سلمى مصغية والدموع تنهمر من عينيها كأن أجفانها شفاه تجيبني بالدموع عن الكلام.

إن الذين لم يهبهم الحبّ أجنحة لا يستطيعون أن يطيروا إلى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم السحري الذي طافت فيه روحي وروح سلمى في تلك الساعة المحزنة بأفراحها المفرحة بأوجاعها. إنّ الذين لم يتّخذهم الحبّ أتباعًا لا يسمعون الحبّ متكلّمًا، فهذه الحكاية لم تكتب لهم؛ فهم وإن فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم

أن يروا ما يسيل بين سطورها من الأشباح والأخيلة التي لا تلبس الحبر ثوبًا ولا تتّخذ الورق مسكنًا. لكن أيّ بشري لم يرشف من خمرة الحبّ في إحدى كاساته؟ أيّة نفس لم تقف متهيّبة في ذلك الهيكل المنير المرصوف بحبّات القلوب، المسقوف بالأسرار والأحلام والعواطف؟ أي زهرة لم يسكب الصباح قطرة من الندى بين أوراقها؟ وأيّ ساقية تضلّ طريقها ولا تذهب إلى البحر؟

ورفعت سلمى إذ ذاك رأسها نحو السماء المزيّنة بالكواكب ومدّت يديها إلى الأمام وكبرت عيناها وارتجفت شفتاها وظهر على وجهها المصفرّ كلّ ما في نفس المرأة المظلومة من الشكوى والقنوط والألم، ثمّ صرخت قائلة: ماذا فعلت المرأة يا ربّ فاستحقت غضبك؟ ماذا أتت من الذنوب ليتبعها سخطك إلى آخر الدهور؟ هل اقترفت جرمًا لا نهاية لفظاعته ليكون عقابك لها بغير نهاية؟ أنت قويّ يا ربّ وهي ضعيفة فلماذا تبيدها بالأوجاع؟ أنت عظيم وهي تدبّ حول عرشك فلماذا تسحقها بقدميك؟ أنت عاصفة شديدة وهي كالغبار أمام وجهك فلماذا تذريها على الثلوج؟ أنت جبّار وهي بائسة فلماذا تحاربها؟ أنت بصير عليم وهي تائهة عمياء فلماذا تهلكها؟ أنت توجدها بالمحبّة فكيف بالمحبّة تفنيها؟ بيمينك ترفعها إليك وبشمالك تدفعها إلى الهاوية وهي جاهلة لا تدري أنّى ترفعها وكيف تدفعها؟ في فمها تنفخ نسمة الحياة وفي قلبها تزرع بذور الموت. على سبل السعادة تسيّرها راجلة ثمّ تبعث الشقاء فارسًا ليصطادها. في حنجرتها تبثّ نغمة الفرح ثمّ تغلق شفتيها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة. بأصابعك الخفيّة تمنطق باللذّة أوجاعها وبأصابعك الظاهرة ترسم هالات الأوجاع حول ملذّاتها. في مضجعها تخفي الراحة والسلامة وبجانب مضجعها تقيم المخاوف والمتاعب. بإرادتك تحيي ميولها ومن ميولها تتولّد عيوبها وزلّاتها. بمشيئتك تريها

محاسن مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلب محبّتها للحسن مجاعة مهلكة. بشريعتك تزوّج روحها من جسد جميل وبقضائك تجعل جسدها بعلًا للضعف والهوان. أنت تسقيها الحياة بكأس الموت والموت بكأس الحياة. أنت تطهّرها بدموعها وبدموعها تذيبها. أنت تملأ جوفها من خبز الرجل ثمّ تملأ حفنة الرجل من حبّات صدرها. أنت أنت يا ربّ قد فتحت عينيّ بالمحبّة وبالمحبّة أعميتني. أنت قبلتني بشفتيك وبيدك القويّة صفعتني. أنت زرعت في قلبي وردة بيضاء وحول هذه الوردة أنبتّ الأشواك والحسك. أنت أوثقت حاضري بروح فتى أحبّه وبجسد رجل لا أعرفه. قيّدت أيّامي فساعدْني لأكون قويّة في هذا الصراع المميت واسعفْني لأبقى أمينة وطاهرة حتّى الموت... لتكن مشيئتك يا ربّ. ليكنْ اسمك مباركًا إلى النهاية.

وسكتت سلمى وظلّت ملامحها تتكلّم، ثمّ حنت رأسها وأرخت ذراعها وانخفض هيكلها كأنّ القوى الحيويّة قد تركتها فبانت لناظري كغصن قصفته العاصفة وألقته إلى الحضيض ليجفّ ويندثر تحت أقدام الدهر. فأخذت يدها المثلّجة بيدي الملتهبة وقبلت أصابعها بأجفاني وشفتيّ، ولما حاولت تعزيتها بالكلام وجدتني أحرى منها بالتعزية والشفقة، فبقيت صامتًا حائرًا متأمّلًا شاعرًا بتلاعب الدقائق بعواطفي، مصغيًا لأنّة قلبي في داخلي، خائفًا من نفسي على نفسي.

ولم ينبس أحدنا ببنت شفة في ما بقي من تلك الليلة، لأنّ اللّوعة إذا عظمت تصير خرساء، فبقينا ساكتيْن جامديْن كعموديْ رخام قبرهما الزلزال في التراب. ولم يعد أحدنا يريد أن يسمع الآخر متكلّمًا، لأنّ خيوط قلبيْنا قد وهت حتّى صار التنهّد دون الكلام يقطعها.

انتصف الليل ونمت رهبة السكوت وطلع القمر ناقصًا من وراء صنّين وبان بين النجوم كوجه ميت شاحب غارق في المساند السوداء

بين شموع ضئيلة تحيط بنعشه، وظهر لبنان كشيخ لوت ظهره الأعوام وأناخت هيكله الأحزان وهجر أجفانه الرقاد فبات يساهر الدجى ويترقب الفجر كملك مخلوع جالس على رماد عرشه بين خرائب قصره. إن الجبال والأشجار والأنهار تتبدّل هيئاتها ومظاهرها بتقلّب الحالات والأزمنة مثلما تتغيّر ملامح وجه الإنسان بتغير أفكاره وعواطفه، فشجرة الحور التي تتعالى في النهار كعروس جميلة يلاعب النسيم أثوابها تظهر في المساء كعمود دخان يتصاعد نحو اللاشيء. والصخر الكبير الذي يجلس عند الظهيرة كجبّار قوي يهزأ بعاديات الزمن يبدو في الليل كفقير بائس يفترش الثرى ويلتحف الفضاء. والساقية التي نراها عند الصباح متلمعة كذوب اللُّجين ونسمعها مترنّمة بأغنية الخلود نخالها في المساء مجرى دموع يتفجّر من بين أضلع الوادي ونسمعها تندب وتنوح كالثكلى. ولبنان الذي ظهر منذ أسبوع بكلّ مظاهر الجلال والرونق عندما كان القمر بدرًا والنفس راضية قد بان في تلك الليلة كئيبًا منهوكًا مستوحشًا أمام قمر ضئيل ناقص هائم في عرض السماء وقلب خافق معتل في داخل الصدر.

وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحبّ واليأس شبحيْن هائلين، هذا باسط جناحيه فوق رأسيْنا وذاك قابض بأظافره على عنقيْنا. هذا يبكي مرتاعًا وذاك يضحك ساخرًا. ولمّا أخذت يد سلمى ووضعتها على شفتيّ متبرّكًا دنت منّي ولثمت مفرق شعري، ثمّ عادت فارتمت على المقعد الخشبي وأطبقت أجفانها وهمست ببطء: اشفق يا رب وشدّد جميع الأجنحة المتكسرّة.

انفصلتُ عن سلمى وخرجتُ من تلك الحديقة شاعرًا بنقاب كثيف يوشي مداركي الحسيّة مثلما يغمر الضباب وجه البحيرة. وسرت وأخيلة الأشجار القائمة على جانبي الطريق تتحرّك أمامي كأنّها أشباح قد

انبثقت من شقوق الأرض لتخيفني، وأشعّة القمر الضعيفة ترتعش بين الغصون كأنّها سهام دقيقة تريشها أرواح الجان السابحة بالفضاء نحو صدري، والسكينة العميقة تخيّم عليّ كأنّها أكفّ سوداء ثقيلة ألقتها الظلمة على جسدي.

كلّ ما في الوجود وكلّ معنى في الحياة وكلّ سرّ في النفس قد صار قبيحًا رهيبًا هائلًا، فالنور المعنوي الذي أراني جمال العالم وبهجة الكائنات قد انقلب نارًا تحرق كبدي بلهيبها وتستر نفسي بدخانها. والنغمة التي كانت تضمّ إليها أصوات المخلوقات وتجعلها نشيدًا علويًّا قد استحالت في تلك الساعة إلى ضجيج أروع من زمجرة الأسد وأعمق من صراخ الهاوية.

بلغتُ غرفتي وارتميتُ على فراشي كطائر رماه الصيّاد فسقط بين السياج والسهم في قلبه، وظلّت عاقلتي تراوح بين يقظة مخيفة ونوم مزعج، وروحي في داخلي تردّد في الحالتين كلمات سلمى: اشفق يا ربّ وشدّد جميع الأجنحة المتكسرّة.

أمام عرش الموت

إنّما الزيجة في أيّامنا هذه تجارة مضحكة مبكية يتولّى أمورها الفتيان وآباء الصبايا، الفتيان يربحون في أكثر المواطن والآباء يخسرون دائمًا، أمّا الصبايا المنتقلات كالسلع من منزل إلى آخر فتزول بهجتهنّ، ونظير الأمتعة العتيقة يصير نصيبهنّ زوايا المنازل حيث الظلمة والفناء البطيء.

إن المدنيّة الحاضرة قد أنمت مدارك المرأة قليلًا ولكنّها أكثرت أوجاعها بتعميم مطامع الرجل. كانت المرأة بالأمس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيّدة تعسة. كانت بالأمس عمياء تسير في نور النهار فأصبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل. كانت جميلة بجهلها فاضلة ببساطتها قويّة بضعفها فصارت قبيحة بتفنّنها سطحيّة بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها. فهل يجيء يوم يجتمع في المرأة الجمال بالمعرفة، والتفنّن بالفضيلة، وضعف الجسد بقوّة النفس؟ أنا من القائلين إنّ الارتقاء الروحي سنّة في البشر، والتقرّب من الكمال شريعة بطيئة لكنّها فعّالة، فإذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخّرت بشيء آخر فلأن العقبات التي تبلغنا قمّة الجبل لا تخلو من مكامن اللصوص وكهوف الذئاب. ففي هذا الجبل الشبيه بالغيبوبة التي تتقدّم اليقظة – في هذا الجبل القابض بكفّيه على تراب الأجيال الغابرة وبزور الأجيال الآتية – في هذا

الجبل الغريب بميوله وأمانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل. وسلمى كرامه كانت في بيروت رمز المرأة الشرقيّة العتيدة، ولكنّها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحيّة الزمن الحاضر، ونظير زهرة اختطفها تيّار النهر قد صارت قهرًا في موكب الحياة نحو الشقاء.

وتزوّج منصور بك غالب من سلمى فسكنا معًا في منزل فخم قائم على شاطئ البحر في رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والأغنياء، وبقي فارس كرامه وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعي بين أغنامه. ومضت أيّام العرس وانقضت ليالي الأفراح، ومرّ الشهر الذي يدعوه الناس عسلًا تاركًا وراءه شهور الخل والعلقم مثلما تترك أمجاد الحروب جماجم القتلى في البرية البعيدة... إنّ بهرجة الأعراس الشرقيّة تصعد بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسر إلى ما وراء الغيوم ثمّ تهبط بهم هبوط حجر الرحى إلى أعماق اليمّ، بل هي مثل آثار الأقدام على رمال الشاطئ لا تلبث أن تمحوها الأمواج.

وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف ومحبّتي لسلمى تتدرّج من شغف فتى في صباح العمر بامرأة حسناء إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبيّ اليتيم نحو روح أمّه الساكنة في الأبديّة، فالصبابة التي كانت تمتلك كلّيتي قد تحوّلت إلى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها، والولع الذي كان يستدرّ الدموع من عينيّ قد انقلب ولهًا يستقطر الدم من قلبي، وأنّة الحنين التي كانت تملأ ضلوعي أصبحت صلاة عميقة تقدّمها روحي في السكينة أمام السماء مستمدّة السعادة لسلمى والغبطة لبعلها والطمأنينة لوالدها، ولكن باطلًا كنت أشفق وأبتهل وأصلّي لأنّ تعاسة سلمى كانت علّة في داخل النفس لا يشفيها سوى الموت. أمّا بعلها فكان من أولئك الرجال الذين يحصلون بغير تعب

على كلّ ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون بل يطمحون دائمًا إلى ما ليس لهم، وهكذا يظلّون معذّبين بمطامعهم إلى نهاية أيّامهم. وباطلًا كنت أرجو الطمأنينة لفارس كرامه لأنّ صهره ما أن تسلّم يد ابنته وحصل على أموالها الطائلة حتّى نسيه وهجره بل صار يطلب حتفه توصّلًا إلى ما بقي من ثروته.

كان منصور بك شبيهًا بعمّه المطران بولس غالب، وكانت أخلاقه كأخلاقه، ونفسه صورة مصغّرة لنفسه، ولم يكن الفرق بينهما إلّا بما يفرق الرياء عن الانحطاط. كان المطران يبلغ أمانيه مستترًا بأثوابه البنفسجيّة ويشبع مطامعه محتميًا بالصليب الذهبي المعلّق على صدره. أمّا ابن أخيه فكان يفعل كلّ ذلك جهارًا وعنوة. كان المطران يذهب إلى الكنيسة في الصباح ويصرف ما بقي من النهار منتزعًا الأموال من الأرامل واليتامى وبسطاء القلب، أمّا منصور بك فكان يقضي النهار كلّه متّبعًا ملذّاته ملاحقًا شهواته في تلك الأزقّة المظلمة حيث يختمر الهواء بأنفاس الفساد.

كان المطران يقف يوم الأحد أمام المذبح ويعظ المؤمنين بما لا يتّعظ به ويصرف أيّام الأسبوع مشتغلًا بسياسة البلاد، أمّا ابن أخيه فكان يصرف جميع أيّامه متاجرًا بنفوذ عمّه بين طالبي الوظائف ومريدي الوجاهة. كان المطران لصًّا يسير مختبئًا بستائر الليل، أمّا منصور بك فكان محتالًا يمشي بشجاعة في نور النهار.

كذا تبيد الشعوب بين اللصوص والمحتالين مثلما تفنى القطعان بين أنياب الذئاب وقواطع الجزارين، وهكذا تستسلم الأمم الشرقيّة إلى ذوي النفوس المعوجّة والأخلاق الفاسدة فتتراجع إلى الوراء ثمّ تهبط إلى الحضيض فيمرّ الدهر ويسحقها بأقدامه مثلما تسحق مطارق الحديد آنية الفخار...

وماذا يا ترى يجعلني الآن أشغل الصفحات بالكلام عن أمم بائسة يائسة وأنا قد خصصتها لتدوين حكاية امرأة تاعسة وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلمسه الحبّ بأفراحه حتّى صفعه بأحزانه؟.. لماذا تراود الدموع أجفاني لذكر شعوب خاملة مظلومة وأنا قد وقفت دموعي على ذكرى أيّام امرأة ضعيفة لم تعانق الحياة حتّى احتضنها الموت، ولكن أليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمّة المظلومة؟ أليست المرأة المتوجّعة بين ميول نفسها وقيود جسدها هي كالأمّة المتعذّبة بين حكّامها وكهّانها؟ أوَليست العواطف الخفيّة التي تذهب بالصبية الجميلة إلى ظلمة القبر هي كالعواصف الشديدة التي تغمر حياة الشعوب بالتراب؟ إن المرأة من الأمّة بمنزلة الشعاع من السراج، وهل يكون شعاع السراج ضئيلًا إذ لم يكن زيته شحيحًا؟

مضت أيّام الخريف وعرّت الرياح الأشجار متلاعبة بأوراقها الصفراء مثلما تداعب الأنوار زبد البحر، وجاء الشتاء باكيًا منتحبًا وأنا في بيروت ولا رفيق لي سوى أحلام تتصاعد بنفسي تارة فتبلغها الكواكب وتنخفض بقلبي طورًا فتلحده بجوف الأرض.

إن النفس الكئيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتهجر الناس مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتّى يبرأ أو يموت.

فذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامه، فتركت وحدتي وذهبت لعيادته ماشيًا على ممرّ منفرد بين أشجار الزيتون المتلمّعة أوراقها الرصاصيّة بقطرات المطر، متنحّيًا عن الطريق العموميّة حيث تزعج ضجّة المركبات سكينة الفضاء.

بلغت منزل الشيخ ودخلت عليه فوجدته ملقى على فراشه مضنى الجسم، شاحب الوجه، أصفر اللون، قد غرقت عيناه تحت حاجبيه فبانتا كهوّتين عميقتين مظلمتين تجول فيهما أشباح السقم والألم،

فالملامح التي كانت بالأمس عنوان البشاشة والانبساط قد تقلّصت واكفهرّت وأصبحت كصحيفة رمادية متجعدّة تكتب عليها العلّة سطورًا غريبة ملتبسة. واليدان اللتان كانتا مغلّفتين باللطف واللدانة قد نحلتا حتّى بدت عظام أصابعهما من تحت الجلد كقضبان عارية ترتعش أمام العاصفة.

ولمّا دنوت منه سائلًا عن حاله حوّل وجهه المهزول نحوي وظهر على شفتيه المرتجفتين خيال ابتسامة محزنة، وبصوت ضعيف خافت خلته آتيًا من وراء الجدران قال: اذهب، اذهب يا ابني إلى تلك الغرفة وامسح دموع سلمى وسكّن روعها ثمّ عد بها إليّ لتجلس بجانب فراشي...

دخلت الغرفة المحاذية فوجدت سلمى منطرحة على مقعد وقد غمرت رأسها بزنديها وغرّقت وجهها بالمساند وأمسكت أنفاسها كيلا يسمع والدها نحيبها. فاقتربتُ منها ببطء ولفظت اسمها بصوت أقرب إلى التنهّد منه إلى الهمس، فتحرّكت مضطربة كنائم تراوده الأحلام المخيفة ثمّ استوت على مقعدها ونظرت إليّ بعينين شاخصتين جامدتين كأنّها ترى شبحًا في عالم الرؤيا ولا تصدّق حقيقة وجودي في ذلك المكان.

وبعد سكوت عميق أرجعنا بتأثيراته السحريّة إلى تلك الساعات التي سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى دموعها بأطراف أناملها وقالت متحسّرة: أرأيت كيف تبدّلت الأيّام؟ أرأيت كيف أضلّنا الدهر فسرنا مسرعين إلى هذه الكهوف المفزعة؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضة الحبّ، وفي هذا المكان يجمعنا الآن الشتاء أمام عرش الموت، فما أبهَى ذلك النهار وما أشدّ ظلمة هذا الليل.

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصّات أواخرها ثمّ عادت فسترت وجهها بيديها كأنّ ذكرى الماضي قد تجسّدت ووقفت أمامها

فلم تشأ أن تراها. فوضعت يدي على شعرها قائلًا: تعالي يا سلمى، تعالي ننتصب كالأبراج أمام الزوبعة. هلمّي نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا، فإن صُرعنا نموت كالشهداء وإن تغلّبنا نعيش كالأبطال... إن عذاب النفس بثباتها أمام المصاعب والمتاعب لهو أشرف من تقهقرها إلى حيث الأمن والطمأنينة. فالفراشة التي تظلّ مرفرفة حول السراج حتّى تحترق هي أسمى من الخلد الذي يعيش براحة وسلامة في نفقه المظلم. والنواة التي لا تحتمل برد الشتاء وثورات العناصر لا تقوى على شقّ الأرض ولن تفرح بجمال نيسان... هلمي نسر يا سلمى بقدم ثابتة على هذه الطريق الوعرة رافعيْن أعيننا نحو الشمس كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصخور، والأفاعي المنسابة بين الأشواك، فإن أوقفنا الخوف في منتصف الطريق أسمعتنا أشباح الليل صراخ الاستهزاء والسخرية، وإن بلغنا قمة الجبل بشجاعة تترنّم معنا أرواح الفضاء بأنشودة النصر والاستظهار... خفّفي عنك يا سلمى وجفّفي دموعك وأخفي هذه الكآبة الظاهرة على محياك وقومي نجلس بجانب فراش والدك لأنّ حياته من حياتك وشفاءه بابتسامك.

فنظرت إليّ نظرة ملؤها الحنان والرأفة والانعطاف ثمّ قالت: أتطلب منّي الصبر والتجلّد وفي عينيك معنى اليأس والقنوط؟ أيعطي الفقير الجائع خبزه للجائع الفقير؟ أو يصف العليل دواء لعليل آخر وهو أحرى بالدواء؟

ثمّ وقفت وسارت أمامي منحنية الرأس إلى غرفة والدها. جلسنا بقرب مضجع الشيخ العليل وسلمى تتكلّف الابتسام وهدوء البال وهو يتكلّف الراحة والقوّة، وكلّ منهما شاعر بلوعة الآخر، عالم بضعفه، سامع غصّات قلبه، فكانا مثل قوّتَيْن متصارعتين يفني بعضهما بعضًا في السكينة. والد دنف يذوب ضنى لتعاسة ابنته، وابنة مُحبّة تذبل متوجّعة

بعلّة والدها. نفس راحلة ونفس يائسة تتعانقان أمام الحبّ والموت، وأنا بينهما أتحمّل ما بي وأقاسي ما بهما. ثلاثة جمعتهم يد القضاء ثمّ قبضت عليهم بشدّة حتّى سحقتهم: شيخ يمثّل بيتًا قديمًا هدمه الطوفان، وصبيّة تحاكي زنبقة قطع عنقها حدّ المنجل، وفتى يشابه غرسة ضعيفة لوت قامتها الثلوج، وجميعنا مثل ألعوبة بين أصابع الدهر.

وتحرّك الشيخ إذ ذاك بين اللحف ومدّ يده النحيلة نحو سلمى، وبصوت أودعه كلّ ما في قلب الأب من الرقة والرأفة وكلّ ما في صدر العليل من السقم والألم قال: ضعي يدك في يدي يا سلمى.

فمدّت يدها وألقتها بين أصابعه فضمّها بلطف ثمّ زاد قائلًا: لقد شبعت من السنين يا ولدي، قد عشت طويلًا وتلذّذت بكلّ ما تثمره الفصول وتمتّعتُ بكل ما تبرزه الأيّام والليالي، قد لاحقت الفراش صبيًّا وعانقت الحبّ فتًى وجمعت المال كهلًا، وكنت في جميع هذه الأدوار سعيدًا مغتبطًا. فقدت أمّك يا سلمى قبل أن تبلغي الثالثة ولكنّها أبقتك لي كنزًا ثمينًا. فكنت تنمين بسرعة نموّ الهلال، وتنعكس على وجهك ملامح أمّك مثلما تنعكس أشعّة النجوم في حوض ماء هادئ، وتظهر أخلاقها ومزاياها بأعمالك وأقوالك ظهور الحلى الذهبيّة من وراء النقاب الرقيق، فتعزّيت بك يا ولدي لأنّك كنت مثلها جميلة وحكيمة... والآن قد صرت شيخًا طاعنًا وراحة الشيوخ بين أجنحة الموت الناعمة، فتعزيْ يا ولدي لأنّني بقيت لأراك امرأة كاملة، وافرحي لأنّني سأبقى بك حيًّا بعد موتي. إن ذهابي الآن هو مثل ذهابي غدًا أو بعده، لأن أيّامنا مثل أوراق الخريف تتساقط وتتبدّد أمام وجه الشمس فإن أسرعت بي الساعات إلى الأبدية فلأنّها علمت أن روحي قد اشتاقت إلى لقاء أمّك...

لفظ الكلمات الأخيرة بنغمة مفعمة بحلاوة الحنين والرجاء، ولاحت على وجهه المنقبض أشعّة شبيهة بذلك النور الذي ينبثق من

أجفان الأطفال، ثمّ مدّ يده بين المساند المحيطة برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة يمنطقها إطار من الذهب قد نعّمت حدوده لمسات الأيدي ومحت نقوشه قُبل الشفاه، ثمّ قال دون أن يحوّل عينيه عن الرسم: اقتربي يا سلمى، اقتربي منّي يا ولدي لأريك خيال أمّك. تعاليْ وانظري ظلّها على صفحة من الورق.

فدنت سلمى ماسحة الدموع من مقلتيها كيلا تحول بين ناظريها والرسم الضئيل، وبعد أن حدّقت إليه طويلًا كأنّه مرآة تعكس معانيها وشكل وجهها قرّبته من شفتيها وقبّلته بلهفة مرارًا متوالية ثمّ صرخت قائلة: يا أمّاه. يا أمّاه. يا أمّاه! ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت فوضعت الرسم على شفتيها المرتعشتين كأنّها تريد أن تبثّ فيه الحياة بأنفاسها الحارّة...

إنّ أعذب ما تحدثه الشفاه البشريّة هو لفظة «الأم»، وأجمل مناداة هي: يا أمّي. كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحبّ والانعطاف وكلّ ما في القلب البشري من الرقّة والحلاوة والعذوبة. الأم هي كلّ شيء في هذه الحياة، هي التعزية في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوّة في الضعف، هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران، فالذي يفقد أمّه يفقد صدرًا يسند إليه رأسه ويدًا تباركه وعينًا تحرسه...

كلّ شيء في الطبيعة يرمز ويتكلّم عن الأمومة، فالشمس هي أمّ هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء إلّا بعد أن تنوّمها على نغمة أمواج البحر وترنيمة العصافير والسواقي، وهذه الأرض هي أمّ للأشجار والأزهار تلدها وترضعها ثمّ تفطمها. والأشجار والأزهار تصير بدورها أمّهات حنونات للأثمار الشهيّة والبزور الحيّة. وأمّ كلّ شيء في الكيان هي الروح الكلّية الأزليّة الأبديّة المملوءة بالجمال والمحبّة.

وسلمى كرامه لم تكن تعرف أمّها لأنّها ماتت وهي طفلة، وقد شهقت متأثّرة عندما رأت رسمها ونادتها: يا أمّاه، قسر إرادتها، لأن لفظة الأمّ تختبئ في قلوبنا مثلما تختبئ النواة في قلب الأرض، وتنبثق من بين شفاهنا في ساعات الحزن والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الوردة في الفضاء الصافي والممطر.

كانت سلمى تحدّق إلى رسم أمّها ثمّ تقبّله بلهفة ثمّ تلزّه إلى صدرها الخفوق ثمّ تتأوّه متنهّدة ومع كلّ تنهدة تفقد جزءًا من قواها، حتّى إذا ما وهت الحياة في جسدها النحيل هوت وسقطت بجانب سرير أبيها، فوضع كلتا يديه على رأسها قائلًا: قد أريتك يا ولدي شبح أمّك على صفحة من الورق، فأَصغي إليّ لأسمعك أقوالها.

فرفعت سلمى رأسها مثلما تفعل الفراخ في العشّ عندما تسمع حفيف أجنحة العصفورة بين القضبان، ونظرت إليه مصغية صاغرة كأنّ ذاتها المعنويّة قد استحالت إلى أعين محدقة وآذان واعية.

فقال والدها: كنت طفلة رضيعة عندما فقدت أمّك والدها الشيخ فحزنت لفقده وبكت بكاء حكيم متجلّد، ولكنّها لم تعد من جانب قبره حتّى جلست بجانبي في هذه الغرفة وأخذت يدي براحتيها وقالت: قد مات والدي يا فارس وأنت باق لي وهذه هي تعزيتي. إنّ القلب بعواطفه المتشعّبة يماثل الأرزة بأغصانها المتفرّقة، فإذا ما فقدت شجرة الأرز غصنًا قويًّا تتألّم ولكنّها لا تموت بل تحوّل قواها الحيويّة إلى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملأ بفروعه الغضّة مكان الغصن المقطوع. هذا ما قالته والدتك يا سلمى عندما مات أبوها وهذا ما يجب عليك أن تقوليه عندما يأخذ الموت جسدي إلى راحة القبر وروحي إلى ظلّ الله.

فأجابت سلمى متفجّعة: فقدت أمّي والدها فبقيت أنت لها، من يبقى لي إذا فقدتك يا والدي؟ مات والدها وهي في ظلال زوج محبّ

فاضل أمين، مات والدها فبقي لها طفلة تغمر رأسها الصغير بثدييها وتطوّق عنقها بذراعيها، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي؟ أنت أبي وأمّي ورفيق حداثتي ومهذّب شبيبتي، فبمن أستعيض إذا ما ذهبت عنّي؟

قالت هذا وحوّلت عينيها الدامعتين نحوي وأمسكت بيمينها طرف ثوبي ثمّ قالت: ليس لي غير هذا الصديق يا والـدي ولن يبقى لي سواه إذا ما تركتني، فهل أتعزّى به وهو متعذّب مثلي؟ هل يتعزّى كسير القلب بالقلب الكسير؟ إنّ الحزينة لا تتصبّر بحزن جارتها كما أنّ الحمامة لا تطير بأجنحة مكسورة. هو رفيق لنفسي ولكنّني قد أثقلت عاتقه بأشجاني حتّى لويت ظهره وسملت عينيه بعبراتي فلم يعد يرى غير الظلمة. هو أخ أحبّه ويحبّني ولكنّه مثل جميع الأخوة يشترك بالمصيبة ولا يخفّفها، ويساعد بالبكاء فيزيد الدمع مرارة والقلب احتراقًا.

كنت أسمع سلمى متكلّمة وعواطفي تنمو وصدري يضيق حتّى شعرت بأن أضلعي تكاد تتفجّر حناجر وفوهات، أمّا الشيخ فكان ينظر إليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد والمساند، ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السراج أمام الريح، ثمّ بسط ذراعيه وقال بهدوء: دعيني أذهب بسلام يا ولدي، لقد لمحت عيناي ما وراء الغيوم فلن أحوّلهما نحو هذه الكهوف. دعيني أطير فقد كسرت بأجنحتي قضبان هذا القفص... قد نادتني أمّك يا سلمى فلا توقفيني... ها قد طابت الريح وتبدّد الضباب عن وجه البحر فرفعت السفينة شراعها وتأهّبت للمسير فلا توقفيها ولا تنزعي دفّتها. دعي جسدي يرقد مع الذين رقدوا ودعي روحي تستيقظ لأن الفجر قد لاح والحلم قد انتهى... قبّلي روحي بروحك... قبّليني قبلة رجاء وأمل ولا تسكبي قطرة من مرارة الحزن على جسدي لئلّا تمتنع الأعشاب والأزهار عن امتصاص عناصره. ولا تذرفي دموع اليأس على يديّ لأنّها تنبت شوكًا على قبري. ولا ترسمي بزفرات

الأسى سطرًا على جبهتي لأنّ نسيم السحر يمرّ ويقرأه فلا يحمل غبار عظامي إلى المروج الخضراء... قد أحببتك بالحياة يا ولدي وسوف أحبّك بالموت فتظلّ روحي قريبة منك لتحميك وترعاك.

والتفت الشيخ إليّ وقد انطبقت أجفانه قليلًا فلم أعد أرى سوى خطّين رماديّين مكان عينيه، ثمّ قال وسكينة الفناء تسترق ألفاظه: أمّا أنت يا ابني فكن أخًا لسلمى مثلما كان والدك لي. كن قريبًا منها في ساعات الشدّة، وكن صديقًا لها حتّى النهاية، ولا تدعها تحزن لأنّ الحزن على الأموات غلطة من أغلاط الأجيال الغابرة، بل اتلُ على مسمعها أحاديث الفرح وانشدها أغاني الحياة فتسلو وتتناسى... قل لأبيك أن يذكرني. سله فيخبرك عن مآتي أيّامي عندما كان الشباب يحلّق بنا إلى الغيوم... قل له إنّني أحببته بشخص ابنه في آخر ساعة من حياتي...

وسكت دقيقةً وظلّت أشباح ألفاظه تدبّ على جدران الغرفة، ثمّ عاد فنظر إليّ وإلى سلمى بوقت واحد وقال همسًا: لا تدعوا طبيبًا ليطيل بمساحيقه ساعات سجني لأن أيّام العبوديّة قد مضت، فطلبت روحي حرية الفضاء، ولا تدعوا كاهنًا إلى جانب فراشي لأن تعازيمه لا تكفّر عن ذنوبي إن كنت خاطئًا، ولا تسرع بي إلى الجنّة إن كنت بارًّا. إن إرادة البشر لا تغير مشيئة الله كما أن المنجّمين لا يحوّلون مسير النجوم. أمّا بعد موتي فليفعل الأطباء والكهّان ما شاؤوا، فاللجّة تنادي اللجّة، أمّا السفينة فتظلّ سائرة حتّى تبلغ الساحل...

عندما انتصف ذلك الليل المخيف فتح فارس كرامه عينيه الغارقتين في ظلمة النزع، فتحهما لآخر مرّة، وحوّلهما نحو ابنته الجاثية بجانب مضجعه، ثمّ حاول الكلام فلم يستطع لأن الموت كان قد تشرّب صوته فخرجت هذه الألفاظ لهاثًا عميقًا من بين شفتيه: ها قد ذهب الليل... وجاء الصباح... يا سلمى... يا سلمى... يا سلمى...

ثمّ نكس رأسه وابيضّ وجهه وابتسمت شفتاه وأسلم الروح.

ومدّت سلمى يدها ولمست يد والدها فوجدتها باردة كالثلج، فرفعت رأسها ونظرت إليه فرأت وجهه مبرقعًا بنقاب الموت، فجمدت الحياة في جسدها وجفّت الدموع في محاجرها، فلم تتحرّك ولم تصرخ ولم تتأوّه، بل بقيت محدّقة إليه بعينين جامدتين كعيني التمثال، ثمّ تراخت أعضاؤها مثلما تتراخى طيّات الثوب البليل، وهبطت حتّى لمست جبهتها الأرض، ثمّ قالت بهدوء: أشفق يا ربّ وشدّد جميع الأجنحة المتكسّرة.

مات فارس كرامه وعانقت الأبديّة روحه واسترجع التراب جسده، واستولى منصور بك على أمواله وظلّت ابنته أسيرة تعاستها ترى الحياة مأساة هائلة تمثلها المخاوف أمام عينيها.

أمّا أنا فكنت ضائعًا بين أحلامي وهواجسي، تنتابني الأيّام والليالي مثلما تنتاب النسور والعقبان لحمان الفريسة. فكم حاولت أن أفقد ذاتي بين صفحات الكتب لعلّني أستأنس بأخيلة الذين طواهم الدهر، وكم جرّبت أن أنسى حاضري لأعود بقراءة الأسفار إلى مسارح الأجيال الغابرة، فلم يجدني كلّ ذلك نفعًا بل كنت كمن يحاول إخماد النار بالزيت، لأنّني لم أكن أرى من مواكب الأجيال سوى أشباحها السوداء، ولا أسمع من أنغام الأمم غير الندب والنواح، فسفر أيّوب كان عندي أجمل من مزامير داود، ومراثي ارميا كانت أحبّ لديّ من نشيد سليمان، ونكبة البرامكة أشدّ وقعًا في نفسي من عظمة العبّاسيّين، وقصيدة ابن زريق أكثر تأثيرًا من رباعيات الخيام، ورواية هملت أقرب إلى قلبي من كلّ ما كتبه الافرنج.

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير أشباحنا الرهيبة، وهكذا يصمّ اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات قلوبنا المضطربة.

بين عشتروت والمسيح

بين تلك البساتين والتلول التي تصل أطراف بيروت بأذيال لبنان يوجد معبد صغير قديم العهد محفور في قلب صخرة بيضاء قائمة بين أشجار الزيتون واللوز والصفصاف. ومع أنّ هذا المعبد لا يبعد أكثر من نصف ميل عن طريق المركبات، فقد قلّ من عرفه من محبّي الآثار والخرائب القديمة، فهو مثل أشياء كثيرة خطيرة في سوريا مختبئ وراء ستائر الإهمال، فكأن الإهمال قد أبقاه محجوبًا عن عيون الأثريّين ليجعله خلوة لنفوس المتعبين ومزارًا للمحبّين المستوحشين.

والداخل إلى هذا المعبد العجيب يرى على الجدار الشرقي منه صورة فينيقيّة الشواهد والبينات محفورة في الصخر قد محت أصابع الدهر بعض خطوطها ولوّنت الفصول معالمها، وهي تمثّل عشتروت ربّة الحبّ والجمال جالسة على عرش فخم ومن حولها سبع عذارى عاريات واقفات بهيئات مختلفة، فالواحدة منهنّ تحمل مشعلًا والثانية قيثارة والثالثة مبخرة والرابعة جرّة من الخمر والخامسة غصنًا من الورد والسادسة إكليلًا من الغار والسابعة قوسًا وسهامًا، وجميعهن ناظرات إلى عشتروت وعلى وجوههنّ سيماء الخضوع والامتثال.

وعلى الجدار الثاني صورة أخرى أحدث عهدًا وأكثر ظهورًا تمثّل يسوع الناصري مصلوبًا وإلى جانبه أمّه الحزينة ومريم المجدليّة وامرأتان ثانيتان تنتحبان. وهذه الصورة البيزنطية الأسلوب والقرائن تدلّ على كونها حفرت في القرن الخامس أو السادس للمسيح.

وفي الجدار الغربي كُوّتان مستديرتان يدخل منهما شعاع الشمس عند أصيل النهار وينسكب على الصورتين فتظهرانِ كأنّهما قد طليتا بماء الذهب.

وفي وسط المعبد حجر من الرخام مربّع الشكل على جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد انحجب بعضها تحت كتلات متحّجرة من الدماء تدلّ على أنّ الأقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم على هذا الحجر ويصبّون فوقه قرابين الخمر والعطر والزيت.

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينة عميقة تعانق النفس وهيبة سحريّة تبيح بتموّجاتها أسرار الآلهة وتتكلّم بلا نطق عن مآتي الأجيال الغابرة ومسير الشعوب من حالة إلى حالة ومن دين إلى دين، وتستميل الشاعر إلى عالم بعيد عن هذا العالم، وتقنع الفيلسوف بأنّ الإنسان مخلوق دَيِّن يشعر بما لا يراه ويتخيّل ما لا تقع عليه حواسه، فيرسم لشعوره رموزًا تدلّ بمعانيها على خفايا نفسه ويجسم خياله بالكلام والأنغام والصور والتماثيل التي تظهر بأشكالها أقدس ميوله في الحياة وأجمل مشتهياته بعد الموت.

في هذا الهيكل المجهول كنت ألتقي سلمى كرامه مرّة في الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين إلى الصورتين الغريبتين مفكّرين بفتى الأجيال المصلوب فوق الجلجلة مستحضريْن إلى مخيّلتينا أشباح الفتيان والصبايا الفينيقيّين الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشتروت فحرقوا البخّور أمام تماثيلها وهرقوا الطيوب على

مذابحها ثمّ طوتهم الأرض فلم يبقَ منهم سوى اسم تردّده الأيّام أمام وجه الأبديّة.

كم يصعب عليّ الآن أن أدوّن بالكلام ذكرى تلك الساعات التي كانت تجمعني بسلمى، تلك الساعات العلويّة المكتنفة باللّذة والألم، والفرح والحزن، والأمل واليأس، وكلّ ما يجعل الإنسان إنسانًا والحياة لغزًا أبديًّا. ولكن كم يصعب عليّ أن أذكرها ولا أرسم بالكلام الضئيل خيالًا من أخيلتها ليبقى مثلًا لأبناء الحبّ والكآبة.

كنّا نختلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابه ساندين ظهرينا إلى جداره مردّدين صدى ماضينا مستقصيَيْن مآتي حاضرنا خائفيْن مستقبلنا. ثمّ نتدرّج إلى إظهار ما في أعماق نفسينا فيشكو كلّ منّا لوعته وحرقة قلبه وما يقاسيه من الجزع والحسرة، ثمّ يصبّر واحدنا الآخر باسطًا أمامه كلّ ما في جيوب الأمل من الأوهام المفرحة والأحلام العذبة، فيهدأ روعنا وتجفّ دموعنا وتنفرج ملامحنا، ثمّ نبتسم متناسيَيْن كلّ شيء سوى الحبّ وأفراحه، منصرفَيْن عن كلّ أمر إلّا النفس وميولها، ثمّ نتعانق فنذوب شغفًا وهيامًا، ثمَّ تقبّل سلمى مفرق شعري بطهر وانعطاف فتملأ قلبي شعاعًا، وأقبّل أطراف أصابعها البيضاء فتغمض عينيها وتلوي عنقها العاجي وتتورّد وجنتاها باحمرار لطيف يشابه الأشعّة الأولى التي يلقيها الفجر على جباه الروابي. ثمّ نسكت وننظر طويلًا نحو الشفق البعيد حيث الغيوم المتلوّنة بأنوار المغرب البرتقاليّة.

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصرة على مبادلة العواطف وبثّ الشكوى، بل كنّا ننتقل على غير معرفة منّا إلى العموميات فنتبادل الآراء والأفكار في شؤون هذا العالم الغريب ونتباحث في مرامي الكتب التي كنّا نقرأها ذاكرين حسناتها وسيئاتها وما تنطوي عليه من الصور الخياليّة والمبادئ

الاجتماعيّة، فتتكلّم سلمى عن منزلة المرأة في الجامعة البشريّة وعن تأثير الأجيال الغابرة في أخلاقها وميولها وعن العلاقة الزوجيّة في أيّامنا هذه وما يحيط بها من الأمراض والمفاسد. وإنّي أذكر قولها مرّة: إن الكتّاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقية المرأة ولكنّهم للآن لم يفهموا أسرار قلبها ومخبآت صدرها لأنّهم ينظرون إليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها، أو يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف والاستسلام.

وقولها لي مرّة أخرى وقد أشارت بيدها إلى الرسمين المحفورين على جدران الهيكل: في قلب هذه الصخرة قد نقشت الأجيال رمزين يظهران خلاصة ميول المرأة ويستجليان غوامض نفسها المراوحة بين الحبّ والحزن، بين الانعطاف والتضحية، بين عشتروت الجالسة على العرش ومريم الواقفة أمام الصليب... إن الرجل يشتري المجد والعظمة والشهرة ولكن المرأة هي التي تدفع الثمن.

ولم يدرِ باجتماعاتنا السريّة أحد سوى الله وأسراب العصافير المتطايرة بين تلك البساتين، فسلمى كانت تجيء بمركبتها إلى المكان المدعو بحديقة الباشا ثمّ تسير الهوينا على الممرّات المنفردة حتّى تبلغ المعبد الصغير فتدخله مستندة إلى مظلّلتها وعلى وجهها لوائح الأمن والطمأنينة فتجدني منتظرًا مترقّبًا مشتاقًا بكلّ ما في الشوق من الجوع والعطش.

ولم نخف قطّ عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير، لأنّ النفس إذا تطهّرت بالنار واغتسلت بالدموع تترفّع عمّا يدعوه الناس عيبًا وعارًا وتتحرّر من عبوديّة الشرائع والنواميس التي سنّتها التقاليد لعواطف القلب البشري وتقف برأس مرفوع أمام عروش الآلهة.

إن الجامعة البشريّة قد استسلمت سبعين قرنًا إلى الشرائع الفاسدة فلم تعد قادرة على إدراك معاني النواميس العلويّة الأوّليّة الخالدة. وقد تعوّدت بصيرة الإنسان النظر إلى ضوء الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع أن تحدّق إلى نور الشمس. لقد توارثت الأجيال الأمراض والعاهات النفسيّة بعضها عن بعض حتّى أصبحت عموميّة، بل صارت من الصفات الملازمة للإنسان فلم يعد الناس ينظرون إليها كعاهات وأمراض بل يعتبرونها كخلال طبيعيّة نبيلة أنزلها الله على آدم، فإذا ما ظهر بينهم فرد خالٍ منها ظنّوه ناقصًا محرومًا من الكمالات الروحيّة.

أمّا الذين سيعيبون سلمى كرامه محاولين تلويث اسمها لأنّها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتختلي برجل آخر فهم من السقماء الضعفاء الذين يحسبون الأصحّاء مجرمين وكبار النفوس متمرّدين. بل هم كالحشرات التي تدبّ في الظلمة وتخشى الخروج إلى نور النهار كيلا تدوسها أقدام العابرين.

إنّ السجين المظلوم الذي يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جبانًا. وسلمى كرامه كانت سجينة مظلومة ولم تستطع الانعتاق، فهل تلام لأنّها كانت تنظر من وراء نافذة السجن إلى الحقول الخضراء والفضاء الواسع؟ هل يحسبها الناس خائنة لأنّها كانت تجيء من منزل منصور بك غالب لتجلس بجانبي بين عشتروت المقدّسة والجبّار المصلوب؟ ليقل الناس ما شاؤوا، فسلمى قد اجتازت المستنقعات التي تغمر أرواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا يبلغه عواء الذئاب وفحيح الأفاعي. وليقل الناس ما أرادوا عنّي، فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص، والجندي الذي رأى السيوف محتبكة فوق رأسه وسواقي الدماء تجري تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التي يرشقه بها صبيان الأزقّة.

التضحية

ففي يوم من أواخر حزيران وقد ثقلت وطأة الحرّ في السواحل وطلب الناس أعالي الجبال، سرت كعادتي نحو ذلك المعبد واعدًا نفسي بلقاء سلمى كرامه حاملًا بيدي كتابًا صغيرًا من الموشحات الأندلسيّة التي كانت في ذلك العهد ولم تزل إلى الآن تستميل روحي.

بلغت المعبد عند الأصيل فجلست أرقب الطريق المنسابة بين أشجار الليمون والصفصاف، وأنظر من وقت إلى آخر إلى وجه كتابي هامسًا في مسامع الأثير أبيات تلك الموشحات التي تستهوي القلب برشاقة تراكيبها ورنّة أوزانها، وتعيد إلى النفس ذكرى أمجاد الملوك والشعراء والفرسان الذين ودّعوا غرناطة وقرطبة وإشبيلية تاركين في قصورها ومعابدها وحدائقها كلّ ما في أرواحهم من الآمال والميول ثمّ تواروا وراء حجب الدهور والدمع في أجفانهم والحسرة في أكبادهم.

وبعد ساعة التفتّ فإذا بسلمى تميس بقدّها النحيل بين الأشجار المحتبكة وتقترب نحوي مستندة إلى مظلّتها كأنّها تحمل كلّ ما في العالم من الهموم والمتاعب. ولما بلغت باب الهيكل وجلست بقربي نظرت إلى عينيها الكبيرتين فرأيت فيهما معاني وأسرارًا جديدة غريبة توحي التحذّر والانتباه وتثير حبّ الاستطلاع والاستقصاء.

وشعرت سلمى بما يجول في خاطري فلم تشأ أن يطول الصراع بين ظنوني وهواجسي، فوضعت يدها على شعري وقالت: اقترب مني، اقترب منّي يا حبيبي، اقترب ودعني أزوّد نفسي منك، فقد دنت الساعة التي تفرّقنا إلى الأبد.

فصرخت قائلًا: ماذا تعنين يا سلمى، وأيّة قوّة تستطيع أن تفرّقنا إلى الأبد؟

فأجابت: إنّ القوّة العمياء التي فرّقتنا بالأمس ستفرّقنا اليوم. القوّة الخرساء التي تتّخذ الشرائع البشريّة ترجمانًا عنها قد بنت بأيدي عبيد الحياة حاجزًا منيعًا بيني وبينك. القوّة التي أوجدت الشياطين وأقامتهم أولياء على أرواح الناس قد حتّمت عليّ أن لا أخرج من ذلك المنزل المبنيّ من العظام والجماجم.

فسألتها قائلًا: هل علم زوجك باجتماعاتنا فصرت تخشين غضبه وانتقامه؟

فأجابت: إن زوجي لا يحفل بي ولا يدري كيف أصرف أيّامي، فهو مشغول عنّي بأولئك الصبايا المسكينات اللواتي تقودهنّ الفاقة إلى أسواق النخاسين فيتعطرن ويكتحلن ليبعنَ أجسادهنّ بالخبز المعجون بالدماء والدموع.

فقلت: إذن ماذا يصدّك عن المجيء إلى هذا المعبد والجلوس بجانبي أمام هيبة الله وأشباح الأجيال؟ هل مللت النظر إلى خفايا نفسي فطلبت روحك الوداع والتفريق؟

فأجابت والدمع يراود أجفانها: لا يا حبيبي. إن روحي لم تطلب فراقك لأنّك شطرها، ولا ملّت عيناي النظر إليك لأنّك نورهما ولكن اذا كان القضاء قد حكم عليّ أن أسير على عقبات الحياة مثقلة بالقيود وبالسلاسل فهل أرضى أن يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبي؟

فقلت: تكلّمي يا سلمى واخبريني عن كلّ شيء ولا تتركيني ضائعًا بين هذه المعميات.

فأجابت: لا أقدر أن أقول كلّ شيء، لأنّ اللسان الذي أخرسته الأوجاع لا يتكلّم، والشفاه التي ختم عليها اليأس لا تتحرّك، وكلّ ما أقدر أن أقوله لك هو أنّي أخاف عليك من الوقوع في شرك الذين نصبوا لي الحبائل واصطادوني.

فقلت: ماذا تعنين يا سلمى ومن هم الذين تخافين عليّ منهم؟

فسترت وجهها بيديها وتأوّهت ملتاعة ثمّ قالت متردّدة: إنّ المطران بولس غالب قد صار يعلم بأنّني أخرج مرّة في الشهر من القبر الذي وضعني فيه.

فقلت: وهل علم المطران بأنّك تلتقين بي في هذا المكان؟

فأجابت: لو علم بذلك لما رأيتني الآن جالسة بقربك، ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بأفكاره. وقد بثّ عليّ العيون لترقبني وأوعز إلى خدمه ليتجسّسوا حركاتي حتّى صرت أشعر بأن للمنزل الذي أسكنه والطرقات التي أسير عليها نواظر تحدّق بي وأصابع تشير إليّ وآذانًا تسمع همس أفكاري.

وأطرقت هنيهة ثمّ زادت والدمع ينسكب على وجنتيها: أنا لا أخاف على نفسي المطران لأن الغريق لا يخشى البلل، ولكنّني أخاف عليك وأنت حرّ كنور الشمس أن تقع مثلي في أشراكه فيقبض عليك بأظافره وينهشك بأنيابه. أنا لا أخاف من الدهر لأنّه أفرغ جميع سهامه في صدري، ولكنّني أخاف عليك وأنت في ربيع العمر أن تلسع الأفعى قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمّة الجبل حيث ينتظرك المستقبل بأفراحه وأمجاده.

فقلت: إن من لا تلسعه أفاعي الأيّام وتنهشه ذئاب الليالي يظلّ مغرورًا بالأيّام والليالي. ولكن اسمعي يا سلمى، اسمعيني جيّدًا، أليس

أمامنا غير الفراق لنتقي صغارة الناس وشرورهم؟ هل سُدّت أمامنا سبل الحبّ والحياة والحريّة فلم يبقَ غير الاستسلام إلى مشيئة عبيد الموت؟

فأجابت بلهجة يساورها القنوط والحسرة: لم يبقَ أمامنا غير الوداع والتفرّق.

فأخذت يدها وقد تمرّدت روحي في داخلي وتبدّد الدخان عن شعلة فتوّتي. فقلت متهيّجًا: قد استسلمنا طويلًا إلى أهواء الناس يا سلمى... منذ تلك الساعة التي جمعتنا حتّى الآن ونحن ننقاد إلى العميان أو نركع أمام أصنامهم. مذ عرفتك ونحن في يد المطران بولس غالب مثل كرتين يلعب بنا كيفما أراد ويقذفنا حيثما شاء، فهل نبقى خاضعين لديه محدقين إلى ظلمة نفسه حتّى يلوكنا القبر وتبتلعنا الأرض؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت، وأعطانا الحريّة لنجعلها ظلًّا للاستعباد؟ إنّ من يخمد نار نفسه بيده يكون كافرًا بالسماء التي أوقدتها. ومن يصبر على الضيم ولا يتمرّد على الظلم يكون حليف البُطل على الحق وشريك السفّاحين بقتل الأبرياء. قد أحببتك يا سلمى وأحببتني، والحبّ كنز ثمين يودعه الله النفوس الكبيرة الحسّاسة، فهل نرمي بكنزنا إلى حظائر الخنازير لتبعثره بأنوفها وتذريه بأرجلها؟ أمامنا العالم مسرحًا واسعًا مملوءًا بالمحاسن والغرائب، فلماذا نسكن في هذا النفق الضيق الذي حفره المطران وأعوانه؟ أمامنا الحياة وما في الحياة من الحريّة وما في الحريّة من الغبطة والسعادة، فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا ونكسر القيود الموثقة بأرجلنا ونسير إلى حيث الراحة والطمأنينة؟ قومي يا سلمى نذهب من هذا المعبد الصغير إلى هيكل الله الأعظم. هلمّي نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبوديّة والغباوة إلى بلاد بعيدة لا تطالها أيدي اللصوص ولا يبلغها لهاث الأبالسة. تعالي نسرع إلى الشاطئ مستترين بوشاح الليل فنعتلي سفينة تقلّنا إلى ما

وراء البحار وهناك نحيا حياة جديدة مكتنفة بالطهر والتفاهم، فلا تنفثنا الثعابين بأنفاسها، ولا تدوسنا الضواري بأقدامها. لا تتردّدي يا سلمى، فهذه الدقائق أثمن من تيجان الملوك وأسمى من سرائر الملائكة. قومي نتبع عمود النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة إلى حقول تنبت الأزاهر والرياحين.

فهزّت رأسها وقد شخصت عيناها بشيء غير منظور في فضاء ذلك الهيكل، وسالت على شفتيها ابتسامة محزنة تعلن ما في داخل نفسها من الشدّة والألم، ثمّ قالت بهدوء: لا، لا يا حبيب، إنّ السماء قد وضعت في يدي كأسًا مفعمة بالخلّ والعلقم وقد تجرّعتها صرفًا ولم يبقَ فيها غير قطرات قليلة سوف أشربها متجلّدة لأرى ما في قعر الكأس من الأسرار والخفايا. أمّا تلك الحياة الجديدة العلويّة المكتنفة بالمحبّة والراحة والطمأنينة فأنا لا أستحقّها ولا أقوى على احتمال أفراحها وملذّاتها، لأنّ الطائر المكسور الجناحين يدبّ متنقّلًا بين الصخور ولكنّه لا يستطيع أن يسبح محلّقًا في الفضاء، والعيون الرمداء تحدّق إلى الأشياء الضئيلة ولكنّها لا تقوى على النظر إلى الأنوار الساطعة، فلا تحدثني عن السعادة لأن ذكرها يؤلمني كالتعاسة، ولا تصوّر لي الهناء لأنّ ظلّه يخيفني كالشقاء... ولكن أنظر إليّ لأريك الشعلة المقدّسة التي أوقدتها السماء بين رماد صدري... أنت تعلم بأنّني أحبّك محبّة الأم وحيدها، وهي المحبة التي علّمتني أن أحميك حتّى من نفسي. هي المحبّة المطهّرة بالنار التي توقفني الآن عن اتباعك إلى أقاصي الأرض وتجعلني أميت عواطفي وميولي لكي تحيا أنت حرًّا نزيهًا وتظلّ في مأمن من لوم الناس وتقولاتهم الفاسدة. إنّ المحبّة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب، أمّا المحبّة غير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها. المحبّة التي تجيء بين يقظة الشباب وغفلته تستكفي باللقاء وتقنع بالوصل وتنمو بالقبل والعناق.

أمّا المحبّة التي تولد في أحضان اللانهاية وتهبط مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا تستكفي بغير الخلود ولا تقف متهيبة أمام شيء سوى الألوهيّة... عندما عرفت بالأمس أنّ المطران بولس غالب يريد أن يمنعني من الخروج من منزل ابن أخيه ويسلبني اللذّة الوحيدة التي عرفتها منذ تزوّجت، وقفت أمام نافذة غرفتي ونظرت نحو البحر مفكّرة بما وراءه من البلاد الواسعة والحريّة المعنويّة والاستقلال الشخصي، وتخيّلت نفسي عائشة بقربك، محاطة بأخيلة روحك، قنوط بانعطافك، ولكن هذه الأحلام التي تنير صدور النساء المظلومات وتجعلهن يتمرّدن على التقاليد الباطلة ليعشن في ظلّ الحقّ والحريّة، لم تمرّ في خاطري حتّى جعلتني أستصغر نفسي وأستضعفها وأرى محبّتنا واهية محدودة لا تستطيع الوقوف أمام وجه الشمس. فبكيت بكاء ملك أضاع ملكه وغني فقد كنوزه، ولكنّني ما لبثت أن رأيت وجهك من خلال دموعي وأبصرت عينيك محدقتين إليّ، فتذكرت ما قلته لي مرّة وهو: هلمّي يا سلمى نقف أمام الأعداء متلقِّييْنِ شفار السيوف بصدورنا، فإن صُرعنا نمت كالشهداء وإن تغلبنا نعش كالأبطال، لأن عذاب النفس بثباتها أمام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تقهقرها إلى حيث الأمن والطمأنينة... هذه الكلمات قلتها لي يا حبيبي عندما كانت أجنحة الموت ترفرف حول مضجع والدي، وقد ذكرتها بالأمس وقد كانت أجنحة اليأس تصفق حول رأسي فتقويت وتشجّعت وشعرت وأنا في ظلمة السجن بنوع من الحريّة النفسية التي تستهون الشدائد وتستصغر الأحزان؛ ورأيت حبّنا عميقًا كالبحر عاليًا كالنجوم متّسعًا كالفضاء. وقد جئت اليوم إليك وفي نفسي المتوجّعة المنهوكة قوّة جديدة وهي المقدرة على تضحية الأمر العظيم للحصول على أمر أعظم، تضحية سعادتي بقربك لكي تبقى أنت شريفًا بعرف الناس بعيدًا عن غدرهم واضطهادهم... كنت أجيء بالأمس إلى

هذا المكان والقيود الثقيلة تغل قدميّ الضعيفتين، أمّا اليوم فقد جئت شاعرة بعزم يهزأ بثقل القيود ويستقصر الطريق. كنت أجيء مثل طيف طارق خائف، أمّا اليوم فقد جئت مثل امرأة حيّة تشعر بوجوب التضحية وتعرف قيمة الأوجاع وتريد أن تحمي من تحبّه من الناس الأغبياء ومن نفسها الجائعة. كنت أجلس حذاءك مثل ظل مرتجف وقد أتيت اليوم لأريك حقيقتي أمام عشتروت المقدّسة ويسوع المصلوب. أنا شجرة نابتة في الظلّ وقد مددت أغصاني اليوم لكي ترتعش ساعة في نور النهار... قد جئت لأودّعك يا حبيبي فليكن وداعنا عظيمًا وهائلًا مثل حبّنا، ليكن وداعنا كالنار التي تصهر الذهب لتجعله أشدّ لمعانًا.

ولم تترك لي سلمى مجالًا للكلام والاحتجاج بل نظرت إليّ وقد برقت عيناها فأحاطت أشعتها بوجداني واتّشحت ملامح وجهها بنقاب من الهيبة والجلال فبانت كمليكة توحي الصمت والتخشّع، ثمّ ارتمت على صدري بانعطاف كلّي ما عهدته فيها قبل تلك الساعة، وطوّقت عنقي بزندها الأملس وقبّلت شفتيّ قبلة طويلة عميقة محرقة أيقظت الحياة في جسدي، وأثارت الأسرار الخفيّة في نفسي، وجعلت الذات الوضعيّة التي أدعوها «أنا» تتمرّد على العالم بأسره لتخضع صامتة أمام الناموس العلوي الذي اتّخذ صدر سلمى هيكلًا ونفسها مذبحًا.

ولمّا غربت الشمس وامحت أشعتها الأخيرة عن تلك الحدائق والبساتين انتفضت سلمى ووقفت في وسط الهيكل ونظرت طويلًا إلى جدرانه وزواياه كأنّها تريد أن تسكب نور عينيها على رسومه ورموزه، ثمّ تقدّمت قليلًا وجثت خاشعة أمام صورة يسوع المصلوب وقبّلت قدميه المكلومتين مرّات متوالية ثمّ همست قائلة:

ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري وتركت مسرّات عشتروت وأفراحها. قد كلّلت رأسي بالأشواك بدلًا من الغار، واغتسلت بدمي ودموعي

بدلًا من العطور والطيوب، وتجرّعت الخلّ والعلقم بالكأس التي صنعت للخمر والكوثر، فاقبلني بين تابعيك الأقوياء بضعفهم وسيّرني نحو الجلجلة برفقة مختاريك المستكفين بأوجاعهم المغبوطين على كآبة قلوبهم.

ثمّ انتصبت والتفتت نحوي قائلة:

سأعود الآن فرحة إلى الكهف المظلم حيث تتراكض الأشباح المخيفة، فلا تشفق عليّ يا حبيبي ولا تحزن من أجلي، لأن النفس التي ترى ظلّ الله مرّة لا تخشى بعد ذلك أشباح الأبالسة، وبالعين التي تكتحل بلمحة واحدة من الملأ الأعلى لا تغمضها أوجاع هذا العالم.

وخرجت سلمى من ذاك المعبد ملتفة بملابسها الحريريّة وتركتني حائرًا ضائعًا مفكّرًا مجذوبًا إلى مسارح الرؤيا حيث تجلس الآلهة على العروش وتدوّن الملائكة أعمال البشر وتتلو الأرواح مأساة الحياة وتترنّم عرائس الخيال بأناشيد الحبّ والحزن والخلود.

ولمّا صحوت من هذه السكرة، كان الليل قد غمر الوجود بأمواجه القاتمة، وجدتني هائمًا بين تلك البساتين مسترجعًا إلى حافظتي صدى كل كلمة لفظتها سلمى، معيدًا إلى نفسي حركاتها وسكناتها وملامح وجهها وملامس يديها، حتّى إذا ما اتّضحت لي حقيقة الوداع وما سيجيء بعده من ألم الوحشة ومرارة الشوق جمدت فكرتي وتراخت خيوط قلبي وعلمت لأوّل مرّة أنّ الإنسان وإن ولد حرًّا يظلّ عبدًا لقساوة الشرائع التي سنّها آباؤه وأجداده، وأنّ القضاء الذي نتوهّمه سرًّا علويًّا هو استسلام اليوم إلى مآتي الأمس، وخضوع الغد إلى ميول اليوم، وكم مرّة فكّرت منذ تلك الليلة إلى هذه الساعة بالنواميس النفسيّة التي جعلت سلمى تختار الموت بدلًا من الحياة، وكم مرّة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمرّدين لأرى أيّهما أجلّ وأجمل، ولكنّني

للآن لم أفهم سوى حقيقة واحدة وهي أنّ الإخلاص يجعل جميع الأعمال حسنة وشريفة؛ وسلمى كرامه كانت الإخلاص متأنّسًا وصحّة الاعتقاد متجسّدة.

المنقذ

ومرّت خمسة أعوام على زواج سلمى ولم ترزق ولدًا ليوجد بكيانه العلاقة الروحيّة بينها وبين بعلها ويقرّب بابتسامة نفسيهما المتنافرتين مثلما يجمع الفجر أواخر الليل وأوائل النهار.

والمرأة العاقر مكروهة في كلّ مكان لأنّ الأنانية تصوّر لأكثر الرجال دوام الحياة في أجساد الأبناء فيطلبون النسل ليظلّوا خالدين على الأرض.

إنّ الرجل المادي ينظر إلى زوجته العاقر بالعين التي يرى بها الانتحار البطيء فيمقتها ويهجرها ويطلب حتفها كأنّها عدوّ غدّار يريد الفتك به. ومنصور بك غالب كان ماديًّا كالتراب وقاسيًا كالفولاذ وطامعًا كالمقبرة، وكانت رغبته بابن يرث اسمه وسؤدده تُكَرِّهه بسلمى المسكينة وتحوّل محاسنها في عينيه إلى عيوب جهنميّة.

إنّ الشجرة التي تنبت في الكهف لا تعطي ثمرًا، وسلمى كرامه كانت في ظل الحياة فلم تثمر أطفالًا. إنّ البلبل لا يحوك عشًّا في القفص كيلا يورث العبوديّة لفراخه، وسلمى كرامه كانت سجينة الشقاء فلم تقسم السماء حياتها إلى أسيرين. إن أزاهر الأودية هي أطفال يلدها انعطاف الشمس وشغف الطبيعة، وأطفال البشر أزاهر يلدها الحبّ

والحنو، فسلمى كرامه لم تشعر قطّ بأنفاس الحنو وملامس الانعطاف في ذلك المنزل الفخم القائم على شاطئ البحر في رأس بيروت، ولكنّها كانت تصلّي في سكينة الليالي ضارعة أمام السماء لتبعث إليها بطفل يجفّف بأصابعه الورديّة دموعها ويزيل بنور عينيه خيال الموت عن قلبها.

وقد صلّت سلمى متوجّعة حتّى ملأت الفضاء صلاةً وابتهالًا، وتضرّعت مستغيثة حتّى بدّد صراخها الغيوم، فسمعت السماء نداءها وبثّت في أحشائها نغمة مختمرة بالحلاوة والعذوبة وأعدتها بعد خمسة أعوام من زواجها لتصيّرها أُمًّا وتمحو ذلّها وعارها.

الشجرة النابتة في الكهف قد أزهرت لتثمر.

البلبل المسجون في القفص قد همّ ليحوك عشًّا من ريش جناحيه.

القيثارة التي طرحت تحت الأقدام قد وضعت في مهبّ نسيم المشرق ليحرّك بأمواجه ما بقي من أوتارها.

سلمى كرامه المسكينة قد مدّدت ذراعيها المكبّلتين بالسلاسل لتقتبل موهبة السماء.

وليس بين أفراح الحياة ما يضارع فرح المرأة العاقر عندما تهيئها النواميس الأزليّة لتصيّرها أمًّا. كلّ ما في يقظة الربيع من الجمال، وكلّ ما في مجيء الفجر من المسرّة، يجتمع بين أضلع المرأة التي حرمها الله ثمّ أعطاها.

لا يوجد نور أشدّ سطوعًا وأكثر لمعانًا من الأشعّة التي يبعثها الجنين السجين في ظلمة الأحشاء.

وكان نيسان قد جاء متنقّلًا بين الروابي والمنحدرات عندما تمّت أيّام سلمى لتلد بكرها، وكأن الطبيعة قد وافقتها وعاهدتها فأخذت تضع حمل أزاهرها وتلف أقمطة الحرارة أطفال الأعشاب والرياحين.

مضت شهور الانتظار وسلمى تترقّب الخلاص مثلما يترقّب المسافر طلوع كوكب الصباح، وتنظر إلى المستقبل من وراء دموعها فتراه مشعشعًا، وقد طالما ظهرت الأشياء القاتمة متلمعة من خلال الدموع.

ففي ليلة وقد طافت أشباح الظلام بين تلك المنازل في رأس بيروت، انطرحت سلمى على مضجع المخاض والأوجاع، فانتصبّ الموت والحياة يتصارعان بجانب فراشها، ووقف الطبيب والقابلة ليقدّما إلى هذا العالم ضيفًا جديدًا، وسكنت حركة عابري الطريق وانخفضت نغمة أمواج البحر ولم يعد يسمع في ذلك الحيّ سوى صراخ هائل تصاعد من نوافذ منزل منصور بك غالب... صراخ انفصال الحياة عن الحياة... صراخ محبّة البقاء في فضاء اللاشيء والعدم... صراخ قوّة الانسان المحدودة أمامَ سكينة القوى غير المتناهية... صراخ سلمى الضعيفة المنطرحة تحت أقدام جبّارين: الموت والحياة.

عندما لاح الفجر ولدت سلمى ابنًا، ولمّا سمعت إهلاله فتحت عينيها المغلفتين بالألم ونظرت حواليها فرأت الأوجه متهلّلة في جوانب تلك الغرفة... ولمّا نظرت ثانية رأت الحياة والموت ما زالا يتصارعان بقرب مضجعها، فعادت وأغمضت عينيها وصرخت لأوّل مرّة: يا ولدي.

ولفّت القابلة الطفل بالأقمطة الحريريّة ووضعته حذاء أمّه؛ أمّا الطبيب فظلّ ينظر بعينين حزينتين نحو سلمى ويهزّ رأسه صامتًا بين الدقيقة والأخرى.

وأيقظت نغمة الفرح بعض الجيران فجاؤوا بملابس النوم ليهنّئوا الوالد بولده، أمّا الطبيب فبقي ينظر بعينين كئيبتين نحو الوالدة وطفلها.

وأسرع الخدم نحو منصور بك ليبشّروه بقدوم وارثه ويملأوا أيديهم من عطاياه، أمّا الطبيب فلبث واقفًا ينظر بعينين يائستين إلى سلمى وابنها.

ولمّا طلعت الشمس قرّبت سلمى ولدها من ثديها ففتح عينيه لأوّل مرّة ونظر في عينيها واختلج وأغمضهما لآخر مرّة، فدنا الطبيب وأخذه من بين ذراعيها وانسكبت على وجنتيه دمعتان كبيرتان ثمّ همس في سرّه قائلًا: هو زائر راحل!

مات الطفل وسكّان الحيّ يفرحون مع الوالد في القاعة الكبرى ويشربون نخبه ليعيش طويلًا، وسلمى المسكينة تحدّق إلى الطبيب وتصرخ قائلة: أعطني ولدي لأضمّه. ثمّ تحدّق ثانية فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها.

مات الطفل ورنّات الكؤوس تنمو وتتكاثر بين أيدي الفرحين بمجيئه.

ولد مع الفجر، ومات عند طلوع الشمس، فأيّ بشري يستطيع أن يقيس الزمن ليخبرنا ما إذا كانت الساعة التي تمرّ بين مجيء الفجر وطلوع الشمس هي أقصر من الدهر الذي يمرّ بين ظهور الأمم وتواريها؟

ولد كالفكر، ومات كالتنهيدة، واختفى كالظلّ، فأذاق سلمى كرامه طعم الأمومة، ولكنّه لم يبقَ ليسعدها ويزيل الموت عن قلبها.

حياة قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بابتداء النهار، فكانت مثل قطرة الندى التي تسكبها أجفان الظلام ثمّ تجفّفها ملامس النور.

كلمة لفظتها النواميس الأزليّة، ثمّ ندمت عليها وأعادتها إلى سكينة الأبديّة...

لؤلؤة قذفها المد إلى الشاطئ، ثمّ جرفها الجزر إلى الأعماق...

زنبقة ما انبثقت من أكمام الحياة حتّى انسحقت تحت أقدام الموت.

ضيف عزيز ترقّبت سلمى قدومه، لكنّه ما حلّ حتّى ارتحل، وما فتح مصراعي الباب حتّى اختفى...

جنينٌ ما صار طفلًا حتّى صار ترابًا – وهذه حياة الإنسان بل حياة الشعوب، بل حياة الشموس والأقمار والكواكب. وحوّلت سلمى عينيها نحو الطبيب وتنهّدت بشوق جارح ثمّ صرخت قائلة:

أعطني ابني لأضمّه بذراعي... أعطني ولدي لأرضعه...

فنكس الطبيب رأسه وقال والغصّات تخرسه:

قد مات طفلك يا سيدتي فتجلدي وتصبّري لكي تعيشي بعده.

فصرخت سلمى بصوت هائل ثمّ سكتت هنيهة، ثمّ ابتسمت ابتسامة فرح ومسرّة، ثمّ تهلّل وجهها كأنّها عرفت شيئًا لم تكن تعرفه وقالت بهدوء: أعطني جثّة ولدي. قرّبه مني ميتًا.

فحمل الطبيب الطفل الميت ووضعه بين ذراعيها، ضمّته إلى صدرها وحوّلت وجهها نحو الحائط وقالت تخاطبه:

قد جئت لتأخذني يا ولدي. جئت لتدلّني على الطريق المؤدية إلى الساحل. ها أنذا يا ولدي فسر أمامي لنذهب من هذا الكهف المظلم.

وبعد دقيقة دخلت أشعّة الشمس من بين ستائر النافذة وانسكبت على جسدين هامدين منطرحين على مضجع تخفره هيبة الأمومة وتظلّله أجنحة الموت.

فخرج الطبيب باكيًا من تلك الغرفة، ولمّا بلغ القاعة الكبرى تبدّلت تهاليل المهنّئين بالصراخ والعويل؛ أمّا منصور بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهّد ولم يذرف دمعة ولم يفه بكلمة بل لبث جامدًا منتصبًا كالصنم قابضًا بيمينه على كأس الشراب.

في اليوم التالي كفّنت سلمى بأثواب عرسها البيضاء ووضعت في تابوت موشّى بالمخمل الناصع، أمّا طفلها فكانت أكفانه أقمطته وتابوته ذراعي أمّه وقبره صدرها الهادئ.

حملوا الجثتين في نعش واحد ومشوا ببطء متلفّ يشابه طرقات القلوب في صدور المنازعين، فسار المشيّعون وسرت بينهم وهم لا يعرفونني ولا يدرون ما بي.

بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يرتّل ويعزّم، ووقف الكهّان حوله ينغّمون ويسبّحون وعلى وجوههم الكالحة نقاب من الخلو والغفول.

ولمّا أنزلوا التابوت إلى أعماق الحفرة همس أحد الواقفين قائلًا:

هذه أوّل مرّة رأيت جسدين يضمّهما تابوت واحد...

وقال آخر:

كأنّ طفلها قد جاء ليأخذها وينقذها من مظالم زوجها وقساوته.

وقال آخر:

تأمّلوا بوجه منصور بك فهو ينظر إلى الفضاء بعينين زجاجيتين كأنّه لم يفقد زوجته وطفله في يوم واحد.

وقال آخر:

غدًا يزوّجه عمّه المطران ثانية من امرأة أخرى أوفر ثروة وأقوى جسمًا.

وظلّ الكهّان يرتّلون ويسبّحون حتّى فرغ حفّار القبور من ردم الحفرة فأخذ المشيّعون إذ ذاك يقتربون واحدًا واحدًا من المطران وابن أخيه يصبِّرونهما ويؤاسونهما بمستعذبات الكلام، أمّا أنا فبقيت واقفًا منفردًا وحدي وليس من يعزّيني على مصيبتي، كأنّ سلمى وطفلها لم يكونا أقرب الناس إليّ.

عاد المشيّعون وبقي حفّار القبور منتصبًا بجانب القبر الجديد، وفي يده رفشه ومحفره، فدنوت منه وسألته قائلًا:

أتذكر أين قبر فارس كرامه؟

فنظر إليّ طويلًا ثمّ أشار نحو قبر سلمى وقال:

في هذه الحفرة قد مددت ابنته على صدره، وعلى صدر ابنته قد مددت طفلها، وفوق الجميع قد وضعت التراب بهذا الرفش.

فأجبته: وفي هذه الحفرة أيضًا قد دفنتَ قلبي أيّها الرجل، فما أقوى ساعديك!

ولمّا توارى حفّار القبور وراء أشجار السرو خانني الصبر والتجلّد فارتميت على قبر سلمى أبكيها وأرثيها.

دمعة وابتسامة

1914

إلى **.M.E.H** أقدّم هذا الكتاب

وهو أول نسمة من عاصفة حياتي،

إلى الروح النبيلة التي تحب النسمات

وتسير مع العواصف.

جبران

توطئة

أنا لا أبدّل أحزان قلبي بأفراح الناس ولا أرضى أن تنقلب الدموع التي تستدرّها الكآبة من جوارحي وتصير ضحكًا. أتمنّى أن تبقى حياتي دمعة وابتسامة: دمعة تطهّر قلبي وتفهمني أسرار الحياة وغوامضها، وابتسامة تُدنيني من أبناء بجدتي وتكون رمز تمجيدي الآلهة. دمعة أُشارك بها منسحقي القلب، وابتسامة تكون عنوان فرحي بوجودي.

أريد أن أموت شوقًا ولا أحيا مللًا. أريد أن تكون في أعماق نفسي مجاعة للحبّ والجمال لأنّي نظرت فرأيت المستكفين أشقى الناس وأقربهم من المادة، وأصغيت فسمعت تنهّدات المشتاق المتمنّي أعذب من رنّات المثاني والمثالث.

يأتي المساء فتضمّ الزهرة أوراقها وتنام معانقة شوقها، وعندما يأتي الصباح تفتح شفتيها لاقتبال قبلة الشمس، فحياة الأزهار شوق ووصال، دمعة وابتسامة.

تتبخّر مياه البحر وتتصاعد ثمّ تجتمع وتصير غيمة وتسير فوق التلال والأودية حتّى إذا ما لاقت نسيمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول وانضمّت إلى الجداول ورجعت إلى البحر موطنها. حياة الغيوم فراق ولقاء،

دمعة وابتسامة. كذا النفس تنفصل عن الروح العام وتسير في عالم المادّة وتمرّ كغيمة فوق جبال الأحزان وسهول الأفراح فتلتقي بنسيمات الموت فترجع إلى حيث كانت: إلى بحر المحبّة والجمال، إلى الله...

حياة الحب

الربيع

هلمّي يا محبوبتي نمشِ بين الطلول، فقد ذابت الثلوج، وهبّت الحياة من مراقدها وتمايلت في الأودية والمنحدرات. سيري معي لنتتبّع آثار أقدام الربيع في الحقل البعيد. تعالي لنصعد إلى أعالي الربَى ونتأمّل تموّجات اخضرار السهول حولها.

ها قد نشر فجر الربيع ثوبًا طواه ليل الشتاء فاكتست به أشجار الخوخ والتفّاح فظهرت كالعرائس في ليلة القدر، واستيقظت الكروم وتعانقت قضبانها كمعاشر العشّاق، وجرت الجداول راقصة بين الصخور مردّدة أغنية الفرح، وانبثقت الأزهار من قلب الطبيعة انبثاق الزبد من البحر.

تعالي لنشرب بقايا دموع المطر من كؤوس النرجس ونملأ نفسينا بأغاني العصافير المسرورة ونغتنم استنشاق عطر النسيمات.

لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبئ البنفسج ونتبادل قبلات المحبّة.

الصيف

هيّا بنا إلى الحقل يا حبيبتي فقد جاءت أيّام الحصاد وبلغ الزرع مبلغه وأنضجته حرارة محبّة الشمس للطبيعة. تعالي قبل أن تسبقنا الطيور فتستغلّ أتعابنا، وجماعة النمل فتأخذ أرضنا. هلمّي نجنِ ثمار الأرض مثلما جنت النفس حبوب السعادة من بذور الوفاء التي زرعتها المحبّة في أعماق قلبينا، ونملأ المخازن من نتاج العناصر كما ملأت الحياة أهراء عواطفنا.

هلمّي يا رفيقتي نفترش الأعشاب ونلتحف السماء ونوسد رأسينا بضغث من القشّ الناعم فنرتاح من عمل النهار ونسمع مسامرة غدير الوادي.

الخريف

لنذهب إلى الكرمة يا محبوبتي ونعصر العنب ونوعِه في الأجران مثلما تعي النفس حكمة الأجيال ونجمع الأثمار اليابسة ونستقطر الأزهار ونستعض عن العين بالأثر.

لنرجع نحو المساكن فقد اصفرّت أوراق الأشجار ونثرها الهواء كأنّه يريد أن يكفّن بها أزهارًا قضت لوعة عندما ودّعها الصيف. تعالي فقد رحلت الطيور نحو الساحل وحملت معها أنس الرياض وخلّفت الوحشة للياسمين والسيسبان، فبكى باقي الدموع على أديم التراب.

لنرجع! فالجداول قد وقفت عن مسيرها، والعيون نشفت دموع فرحها، والطلول خلعت باهي أثوابها. تعالي يا محبوبتي، فالطبيعة قد راودها النعاس فأمست تودّع اليقظة بأغنية نهاوندية مؤثّرة.

الشتاء

اقتربي يا شريكة حياتي، اقتربي مني ولا تدعي أنفاس الثلوج تفصل جسميْنا. اجلسي بجانبي أمام هذا الموقد، فالنار فاكهة الشتاء الشهيّة. حدّثيني بمآتي الأجيال فأُذناي قد تعبتا من تأوّه الرياح وندب العناصر. أوصدي الأبواب والنوافذ، فمرأى وجه الجوّ الغضوب يحزن نفسي، والنظر إلى المدينة الجالسة كالثكلى تحت أطباق الثلوج يدمي قلبي... اسقي السراج زيتًا، يا رفيقة عمري، فقد أوشك أن ينطفئ، وضعيه بالقرب منك لأرى ما كتبته الليالي على وجهك... تي بجرّة الخمر لنشرب ونذكر أيّام العصر.

اقتربي! اقتربي مني يا حبيبة نفسي، فقد خمدت النار وكاد الرماد يخفيها... ضمّيني، فقد انطفأ السراج وتغلّبت عليه الظلمة... ها قد أثقلت أعيننا خمرة السنين... أرمقيني بعين كحّلها النعاس... عانقيني قبل أن يعانقني الكرى... قبّليني فالثلج قد تغلّب على كلّ شيء إلّا قبلتك... آه يا حبيبتي ما أعمق بحر النوم! آه ما أبعد الصباح... في هذا العالم!

حكاية

على ضفّة ذلك النهر، في ظلّ أشجار الجوز والصفصاف، جلس ابن زرّاع يتأمّل المياه الجارية بسكينة وهدوء. فتى رُبِّي بين الحقول حيث يتكلّم كلّ شيء عن الحبّ. حيث الأغصان تتعانق، والأزهار تتمايل، والطيور تتشبّب. حيث الطبيعة بأسرها تكرز بالروح. ابن عشرين رأى بالأمس على الينبوع صبيّة جالسة بين الصبايا فأحبّها، ثمّ علم أنّها ابنة الأمير فلامَ قلبه وشكا نفسه إلى نفسه، لكنّ الملامة لا تميل بالقلب عن الحبّ، والعذل لا يصرف النفس عن الحقيقة، والإنسان بين قلبه ونفسه كغصن ليّن في مهبّ ريح الجنوب وريح الشمال.

نظر الفتى فرأى زهرة البنفسج قد نبتت بقرب زهرة الأقحوان، ثمّ سمع الهزار يناجي الشحرور، فبكى لوحدته وانفراده، ثمّ مرّت ساعات حبّه أمام عينيه مرور الأشباح فقال وعواطفه تسيل مع كلماته ودموعه:

– هوذا الحبّ يستهزئ بي: ها قد جعلني سخرية وقادني إلى حيث الآمال تُعدّ عيوبًا والأماني مذلّة. الحبّ الذي عبدته قد رفع قلبي إلى قصر الأمير وخفض منزلتي إلى كوخ الزرّاع وسار بنفسي إلى جمال حوريّة يحيط بها الرجال ويحميها الشرف الرفيع... أنا طائع أيّها الحبّ فماذا تريد؟ قد اتبعتك على سبل ناريّة فلذعني اللهيب. قد فتحت عيني

فلم أرَ غير الظلمة، وأطلقت لساني فلم أتكلّم بغير الأسى. قد عانقني الشوق أيّها الحبّ بمجاعة روحيّة لن تزول بغير قُبل الحبيب. أنا ضعيف أيّها الحبّ فلمَ تخاصمني وأنت القويّ؟ لماذا تظلمني وأنت العادل وأنا البريء؟ لماذا تذلّني ولم يكن غيرك ناصري؟ لماذا تتخلّى عني وأنت موجدي؟ إن جرى دمي بغير مشيئتك فاهرقه، وإن تحرّكت قدماي على غير طرقك فشُلَّهما. افعل مشيئتك بهذا الجسد وخلِّ نفسي تفرح بهذه الحقول المستأمنة بظل جناحيك... الجداول تسير إلى حبيبها البحر، والأزهار تبتسم لعشيقها النور، والغيوم تهبط نحو مريدها الوادي، وأنا وبي ما لا تعرفه الجداول ولا تسمع به الأزهار ولا تدركه الغيوم قد رأيتني وحيدًا في محنتي منفردًا في غرامي بعيدًا عن التي لا تريدني جنديًّا في كتائب أبيها، ولا ترضاني خادمًا في قصرها.

وسكت الفتى هنيهة كأنّه يريد أن يتعلّم الكلام من خرير النهر وحفيف أوراق الغصون، ثمّ عاد فقال:

– وأنتِ يا مَن أخاف من اسمها أن أدعوها باسمها، أيّتها المحجوبة عني بستائر العظمة وجدران الجلال، أيّتها الحوريّة التي لا أطمع بلقائها إلّا في الأبديّة حيث المساواة، يا من تطيعها الصوارم وتنحني أمامها الرقاب وتنفتح لها الخزائن والمساجد، قد ملكت قلبًا قدّسه الحبّ واستعبدت نفسًا شرّفها الله وخلبت عقلًا كان بالأمس حرًّا بحريّة هذه الحقول فصار اليوم أسيرًا بقيود هذا الغرام. رأيتك أيّتها الجميلة فعرفت سبب مجيئي إلى هذا العالم، ولما عرفت رفعة منزلتك ونظرت إلى حقارتي علمت أن للآلهة أسرارًا لا يعرفها الإنسان، وسبلًا تذهب بالأرواح إلى حيث المحبّة تقضي بغير الشرائع البشريّة. أيقنت لما نظرت إلى عينيك أن هذه الحياة فردوس بابه القلب البشري، ولما رأيت شرفك وذلّي يتصارعان صراع مارد ورئبال علمت أن هذه الأرض لم تعد وطنًا

لي. ظننت لما وجدتك جالسة بين نسائك، كالوردة بين الرياحين، أنّ عروس أحلامي قد تجسّدت وصارت بشرًا مثلي، ولما خَبِرْت مجد أبيك وجدت أن دون اجتناء الورد أشواكًا تدمي الأصابع، وإنّ ما تجمعه الأحلام تفرّقه اليقظة...

وقام إذ ذاك ومشى نحو الينبوع منخفض الجناح، كسير القلب، مجسمًا الأسى والقنوط بهذه الكلمات:

– تعالَ يا موت وأنقذني، فالأرض التي تخنق أشواكها أزهارها لا تصلح للسكن. هلمّ وخلّصني من أيّام تخلع الحبّ عن كرسيّ مجده وتقيم الشرف العالي مكانه. خلّصني يا موت فالأبديّة أجدر بلقاء المحبّين من هذا العالم. هناك يا موت أنتظر حبيبتي وهناك أجتمع بها.

بلغ الينبوع وقد جاء المساء وأخذت الشمس تلمّ وشاحها الذهبي عن الحقل، فجلس يذرف الدموع على حضيض وطئته قدما ابنة الأمير وقد حنى رأسه على صدره كأنّه يمنع قلبه من الخروج.

في تلك الدقيقة ظهرت من وراء أشجار الصفصاف صبيّة تجرّ أذيالها على الأعشاب ووقفت بجانب الفتى ووضعت يدها الحريريّة على رأسه، فنظر إليها نظرة نائم أيقظه شعاع الشمس، فرأى ابنة الأمير واقفة حذاءه فجثا على ركبتيه مثلما فعل موسى عندما رأى العليقة مشتعلة أمامه، ولما أراد الكلام أُرتج عليه فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه.

ثمّ عانقته الصبيّة وقبّلت شفتيه، وقبّلت عينيه راشفة المدامع السخينة، وقالت بصوت ألطف من نغمة الناي:

– قد رأيتك يا حبيبي في أحلامي ونظرت وجهك في وحدتي وانقطاعي، فأنت رفيق نفسي الذي فقدته ونصفي الجميل الذي انفصلت عنه عندما حكم عليّ بالمجيء إلى هذا العالم. قد جئت سرًّا يا حبيبي لألتقيك وها أنت الآن بين ذراعيّ، فلا تجزع! قد تركت مجد

والدي لأتبعك إلى أقاصي الأرض وأشرب معك كأس الحياة والموت. قم يا حبيبي فنذهب إلى البريّة البعيدة عن الإنسان.

ومشى الحبيبان بين الأشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الأمير ولا أشباح الظلمة.

هناك في أطراف البلاد عثر روّاد الأمير على هيكلين بشريين في عنق أحدهما قلادة ذهبيّة وبقربهما حجر كتبت عليه هذه الكلمات:

قد جمعنا الحبّ فمن يفرّقنا، وأخذنا الموت فمن يُرجعنا؟

في مدينة الأموات

تملّصت بالأمس من غوغاء المدينة وخرجت أمشي في الحقول الساكنة حتّى بلغت أكمة عالية ألبستها الطبيعة أجمل حلاها، فوقفت وقد بانت المدينة بكلّ ما فيها من البنايات الشاهقة والقصور الفخمة تحت غيمة كثيفة من دخان المعامل.

جلست أتأمّل عن بُعد بأعمال الإنسان فوجدت أكثرها عناء، فحاولت في قلبي ألّا أفكّر بما صنعه ابن آدم وحوّلت عينيّ نحو الحقل كرسي مجد الله فرأيت في وسطه مقبرة ظهرت فيها الأجداث الرخاميّة المحاطة بأشجار السرو.

هناك بين مدينة الأحياء ومدينة الأموات جلست أفكّر، أفكّر في كيفيّة العراك المستمر والحركة الدائمة في هذه، وفي السكينة السائدة والهدوء المستقرّ في تلك. من الجهة الواحدة آمال وقنوط، ومحبّة وبغضة، وغنى وفقر، واعتقاد وجحود، ومن الأخرى تراب في تراب تقلب الطبيعة بطنه ظاهرًا وتبدع منه نباتًا ثمّ حيوانًا، وكلّ ذلك يتمّ في سكينة الليل.

بينا أنا مستسلم لعوامل هذه التأمّلات استلفت ناظريّ جمع غفير يسير الهويناء تتقدّمه الموسيقى وتملأ الجوّ ألحانًا محزنة. موكب جمع بين الفخامة والعظمة وآلف بين أشكال الناس. جنازة غنيّ قويّ.

رفات ميت يتبعه الأحياء وهم يبكون ويولولون ويبثّون بالهواء الصراخ والعويل.

بلغوا الجبّانة فاجتمع الكهّان يصلّون ويبخّرون، وانفرد الموسيقيون ينفخون الأبواق. وبعد قليل انبرى الخطباء فأبّنوا الراحل بمنتقيات الكلام، ثمّ الشعراء فرثوه بمنتخبات المعاني، وكلّ ذلك كان يتمّ بتطويل مملّ. وبعد قليل انقشع الجمع عن جدث تسابق في صنعه الحفّارون والمهندسون وحوله أكاليل الأزهار المنمّقة بأيدي المتفنّنين.

رجع الموكب نحو المدينة وأنا أنظر من بعيد وأفكّر.

ومالت الشمس نحو الغروب واستطالت أخيلة الصخور والأشجار وأخذت الطبيعة تخلع أثواب النور.

في تلك الدقيقة نظرت فرأيت رجلين يقلان تابوتًا خشبيًّا ووراءهما امرأة ترتدي أطمارًا بالية وهي حاملة على منكبيها طفلًا رضيعًا وبجانبها كلب ينظر إليها تارة وإلى التابوت أخرى. جنازة فقير حقير، وراءها زوجة تذرف دموع الأسى وطفل يبكي لبكاء أمّه وكلب أمين يسير وفي مسيره حزن وكآبة.

وصل هؤلاء إلى المقبرة وأودعوا التابوت حفرة في زاوية بعيدة عن الأجداث الرخاميّة ثمّ رجعوا بسكينة مؤثّرة والكلب يتلفّت نحو محط رحال رفيقه حتّى اختفوا عن بصري وراء الأشجار.

فالتفتّ إذ ذاك نحو مدينة الأحياء وقلت في نفسي: تلك للأغنياء الأقوياء. ثمّ نحو مدينة الأموات وقلت: هذه للأغنياء الأقوياء. فأين موطن الفقير الضعيف يا ربّ؟

قلت هذا ونظرت نحو الغيوم المتلبّدة المتلوّنة أطرافها بذهب من أشعة الشمس الجميلة، وسمعتُ صوتًا من داخلي يقول: هناك.

موت الشاعر حياته

خيّم الليل بجنحه فوق المدينة وألبسها الثلج ثوبًا وهزم ابن آدم من الأسواق فاختبأ في أوكاره. وقامت الرياح تتأوّه بين المساكن كمؤبن وقف بين القبور الرخاميّة يرثي فريسة الموت.

وكان في أطراف الأحياء بيتٌ حقير تداعت أركانه وأثقلته الثلوج حتّى أوشك أن يسقط، وفي إحدى زوايا ذلك البيت فراش بالٍ عليه محتضر ينظر إلى سراج ضعيف يغالب الظلمة فتغلبه. فتى في ربيع العمر قد علم بقرب أجل انعتاقه من قيود الحياة فصار ينتظر المنيّة وعلى وجهه المصفرّ نور الأمل وعلى شفتيه ابتسامة محزنة. شاعر جاء ليفرح قلب الإنسان بأقواله الجميلة يموت جوعًا في مدينة الأحياء الأغنياء. نفس شريفة هبطت مع نعم الآلهة لتجعل الحياة عذبة تودّع دنيانا قبل أن تبتسم لها الإنسانيّة. منازع يلفظ أنفاسه الأخيرة وليس بقربه سوى سراج كان رفيق وحدته وأوراق عليها أخيلة روحه اللطيفة.

جمع ذلك الفتى المنازع بقايا قوّة قاربت الفناء ورفع يديه نحو العلاء وحرّك أجفانه الذابلة كأنّه يريد أن يخرق بنظراته الأخيرة سقف ذلك الكوخ البالي ليرى النجوم من وراء الغيوم، ثمّ قال:

تعالي أيّتها المنيّة الجميلة فقد اشتاقتك نفسي. اقتربي وحلّي قيود المادّة فقد تعبت من جرّها. تعالي إليّ يا أيّتها المنيّة الحلوة وأنقذيني من بين البشر الذين يحسبونني غريبًا عنهم لأنّي أترجم ما أسمعه من الملائكة إلى لغة البشر. أسرعي نحوي فقد تخلّى عنّي الإنسان وطرحني في زوايا النسيان لأنّي لم أكن طامعًا بالمال نظيره ولا باستخدام مَن هو أضعف مني. تعالي إليّ أيّتها المنيّة العذبة وخذيني فأولاد بجدتي لا يحتاجون إليّ. ضمّيني إلى صدرك المملوء محبّة. قبّلي شفتي التي لم تذق طعم قبلة الوالدة ولا لمست وجنة الأخت ولا لثمت ثغر المحبوبة. أسرعي وعانقيني يا حبيبتي المنيّة.

انتصب إذ ذاك بجانب فراش المنازع طيف امرأة ذات جمال غير بشري ترتدي ثوبًا ناصعًا كالثلج وتحمل بيدها إكليل زنابق من نبت الحقول العلويّة، ثمّ دنت منه وعانقته وأغمضت عينيه كي يراها بعين نفسه، وقبّلت شفتيه قبلة محبّة، قبلة تركت على شفتيه ابتسامة اكتفاء.

في تلك الدقيقة أصبح ذلك البيت خاليًا إلّا من التراب وبعض أوراق منثورة في زوايا الظلمة.

مرّت الأجيال وسكّان تلك المدينة غرقى في سبات الجحود والإهمال، ولما استفاقوا ورأت عيونُهم فجر المعرفة أقاموا لذلك الشاعر تمثالًا عظيمًا في وسط الساحة العموميّة وعيّدوا له في كلّ عام عيدًا...
آه ما أجهل الإنسان!

بنات البحر

في أعماق البحر الذي يحيط بالجزائر القريبة من مطلع الشمس – هناك في الاعماق حيث الدرّ الكثير – جثّة فتى هامدة بقربها بنات البحر ذوات الشعور الذهبيّة قد جلسن بين نبات المرجان ينظرن إليها بعيونهنّ الزرقاء الجميلة ويتحدّثن بأصوات موسيقيّة، حديثًا سمعته اللجة فحملته الأمواج إلى الشواطئ فجاء به النسيم إلى نفسي.

قالت واحدة:

هذا بشريّ هبط بالأمس إذ كان البحر حانقًا.

فقالت الثانية:

لم يكن البحر حانقًا ولكنّ الإنسان – وهو الذي يدّعي بأنّه من سلالة الآلهة – كان في حرب حامية أُهرقت فيها الدماء حتّى صار لون الماء قرمزيًّا. وهذا البشريّ هو قتيل الحرب.

فقالت الثالثة:

لا أدري ما هي الحرب ولكنّي أعلم أن الإنسان بعد أن تغلّب على اليابسة طمع بالسيادة على البحر فابتدع الآلات الغريبة ومخر العباب، فدرى نبتون إله البحار وغضب من هذا التعدّي، فلم يرَ الإنسان بدًّا إذ

ذاك من إرضاء مليكنا بالذبائح والهدايا. فالأشلاء التي رأيناها بالأمس هابطة هي آخر تقدمة من الإنسان إلى نبتون العظيم.

فقالت الرابعة:

ما أعظم نبتون ولكن ما أقسى قلبه! لو كنت أنا سلطانة البحار لما رضيت الذبائح الدمويّة. تعالي لنرى جثّة هذا الشابّ فربّما أفادتنا شيئًا عن طائفة البشر.

اقتربت بنات البحر من جثمان الشابّ وبحثن في جيوب أثوابه فعثرن على رسالة في الثوب الملاصق قلبه، فأخذت الرسالة واحدة منهن وقرأت:

يا حبيبي! ها قد انتصف الليل وأنا ساهرة وليس لي مسلّ غير دموعي، ولا معزّ سوى أملي برجوعك إليّ من بين مخالب الحرب، ولا أقدر أن أفكّر إلّا بما قلته لي عند الوداع بأن عند كلِّ إنسان أمانة من الدمع لا بدّ من ردّها يومًا... لا أدري يا حبيبي ماذا أكتب بل أترك نفسي تسيل على الورق. نفس يعذّبها الشقاء ويعزّيها الحبّ الذي يجعل الألم لذّة والأحزان مسرّة... لما وحّد الحبّ قلبينا وصرنا نتوقّع ضمّ جسمين تجول فيهما روح واحدة، نادتك الحرب فاتبعتها مدفوعًا بعوامل الواجب والوطنيّة. ما هذا الواجب الذي يفرّق المحبّين ويرمّل النساء وييتّم الأطفال؟ ما هذه الوطنيّة التي من أجل أسباب صغيرة تدعو الحرب لتخريب البلاد؟ ما هذا الواجب المحتوم على القرويّ المسكين والذي لا يحفل به القويّ وابن الشرف الموروث؟ إذا كان الواجب ينفي السلم من بين الأمم، والوطنيّة تزعج سكينة حياة الإنسان، فسلام على الواجب والوطنيّة... لا، لا يا حبيبي، لا تحفل بكلامي بل كن شجاعًا ومحبًّا لوطنك ولا تسمع كلام ابنة أعماها الحبّ وأضاع بصيرتها الفراق... إذا كان الحبّ لا يرجعك إليّ في هذه الحياة فالحبّ يضمّني إليك في الحياة الآتية.

وضعت بنات البحر تلك الرسالة تحت أثواب الشاب وسبحن بسكينة محزنة، ولما بعدن قالت واحدة منهن:

إنّ قلب الإنسان أقسى من قلب نبتون.

النفس

... وفصل إله الآلهة عن ذاته نفسًا وابتدع فيها جمالًا.

وأعطاها رقّة نسيمات السّحَر وعطر أزاهر الحقل ولطف نور القمر.

ووهبها كأس سرور وقال: لن تشربي منها إلّا إذا نسيتِ الماضي وأهملتِ الآتي. وكأس حزن وقال: تشربين منها فتدركين كنه فرح الحياة.

وبثّ فيها محبّة تفارقها مع أوّل تنهدة استكفاء وحلاوة تخرج منها مع أوّل كلمة ترفّع.

وأسقط عليها علمًا من السماء ليرشدها إلى سبل الحقّ.

ووضع في أعماقها بصيرة ترى ما لا يُرى.

وابتدع فيها عاطفة تسيل مع الأخيلة وتسير مع الأشباح.

وألبسها ثوب شوق حاكته الملائكة من تموّجات قوس قزح.

ثمّ وضع فيها ظلمة الحيرة وهي خيال النور.

وأخذ الإله نارًا من مصهر الغضب، وريحًا تهبّ من صحراء الجهل، ورملًا من على شاطئ بحر الأنانيّة، وترابًا من تحت أقدام الدهور وجبل الإنسان.

وأعطاه قوّة عمياء تثور عند الجنون وتخمد أمام الشهوات.

ثمّ وضع فيه الحياة وهي خيال الموت.

وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبّة لا حدّ لها ولا مدى وجمع بين الإنسان ونفسه.

ابتسامة ودمعة

لمّت الشمس أذيالها عن تلك الحدائق الناضرة وطلع القمر من وراء الأفق وسكب عليها نورًا لطيفًا وأنا جالس هنالك تحت الأشجار أتأمّل انقلاب الجوّ من حالة إلى حالة وأنظر من خلال الأغصان إلى النجوم المنثورة كالدراهم على بساط أزرق وأسمع من بعيد خرير جداول الوادي.

ولما استأمنت الطيور بين القضبان المورقةِ وأغمضت الأزهار عيونها وسادت السكينة سمعت وقع أقدام خفيفة على الأعشاب، فحوّلت نظري وإذا بفتى وفتاة يقتربان مني، ثمّ جلسا تحت شجرة غضّة وأنا أراهما ولا أُرى.

وبُعيد أن تلفّت الفتى إلى كلّ ناحية سمعته يقول: اجلسي بجانبي يا حبيبتي واسمعيني. ابتسمي لأن ابتسامتك هي رمز مستقبلنا، وافرحي لأن الأيّام قد فرحت من أجلنا. حدّثتني نفسي بالشك الذي يخامر قلبك والشك في الحبّ إثم يا حبيبتي. عن قريب تصيرين سيّدة هذه الأملاك الواسعة التي ينيرها ذلك القمر الفضيّ، وربّة هذا القصر المضاهي قصور الملوك، تجرّك خيولي المطهّمة في المتنزّهات وتذهب بك مركباتي الجميلة إلى المراقص والملاهي. ابتسمي يا حبيبتي كما يبتسم الذهب في خزائني، وارمقيني كما ترمقني جواهر والدي. اسمعي يا حبيبتي فقد

أبَى قلبي إلّا أن يسكب أمامك مخبآته. أمامنا سنة العسل. سنة نصرفها مع الذهب الكثير على شواطئ بحيرات سويسرا وفي متنزّهات إيطاليا وقرب قصور النيل وتحت أغصان أرز لبنان. سوف تلتقين الأميرات والسيّدات فيحسدنك على حلاك وملابسك. كلّ ذلك لك مني. فهلّا رضيت؟ آه ما أحلى ابتسامك! ابتسامك يحاكي ابتسام دهري.

وبعد قليل رأيتهما يمشيان على مهل ويدوسان الأزهار بأقدامهما كما تدوس قدم الغنيّ قلب الفقير.

غابا عن بصري وأنا أفكّر بمنزلة المال عند الحبّ. أفكّر بالمال مصدر شرور الإنسان وبالحبّ منبع السعادة والنور.

ظلِلْت تائهًا في مسارح هذه الأفكار حتّى لمحت شبحين مرّا من أمامي وجلسا على الأعشاب. فتى وفتاة أتيا من جهة الحقول حيث أكواخ الفلاحين في المزارع. وبعد هنيهة من سكينة مؤثّرة سمعت هذا الكلام صادرًا مع تنهّدات عميقة من فم مصدور: كفكفي الدمّع يا حبيبتي. إنّ المحبّة التي شاءت ففتحت أعيننا وجعلتنا من عبادها تهبنا نعمة الصبر والتجلّد. كفكفي الدمع وتعزّي لأنّنا تحالفنا على دين الحبّ، ومن أجل الحبّ العذب نحتمل عذاب الفقر ومرارة الشقاء وتباريح الفراق، ولا بدّ لي من مصارعة الأيّام حتّى أظفر بغنيمة تليق بأن أضعها بين يديك تساعدنا على قطع مراحل العمر. إن المحبّة يا حبيبتي، وهي الله، تقتبل منّا هذه التنهّدات وهذه الدموع كبخور عاطر، وهي تكافئنا عليها بقدر ما نستحق. أودّعك يا حبيبتي فأنا راحل قبل أن يغيب القمر.

ثمّ سمعت صوتًا رقيقًا تقاطعه زفرات أنفاس ملتهبة، صوت عذراء لطيفة أودعته كلّ ما في جوارحها من حرارة الحبّ ومرارة التفرّق وحلاوة التجلّد تقول: الوداع يا حبيبي.

ثمّ افترقا وأنا جالس تحت أغصان تلك الشجرة تتجاذبني أيدي الشفقة وتتساهمني أسرار هذا الكون الغريب.

ونظرت تلك الساعة نحو الطبيعة الراقدة وتأمّلت مليًّا فوجدت فيها شيئًا لا حدّ له ولا نهاية. شيئًا لا يشترى بالمال. وجدت شيئًا لا تمحوه دموع الخريف ولا يميته حزن الشتاء. شيئًا لا توجده بحيرات سويسرا ولا متنزّهات إيطاليا. وجدت شيئًا يتجلّد فيحيا في الربيع ويثمر في الصيف. وجدت فيها المحبّة.

رؤيا

هناك في وسط الحقل على ضفة جدول بلوريّ رأيت قفصًا حبكت ضلوعه يد ماهرة. وفي إحدى زوايا القفص عصفور ميت وفي زاوية أخرى جرن جفّ ماؤه وجرن نَفَدَت بذوره.

فوقفت وقد امتلكتني السكينة وأصغيت صاغرًا كأنّ في الطائر الميت وصوت الجدول عظة تستنطق الضمير وتستفسر القلب. وتأمّلت فعلمت أن ذلك العصفور الحقير قد صارع الموت عطشًا وهو بجانب مجاري المياه، وغالبه جوعًا وهو في وسط الحقول التي هي مهد الحياة كغنيّ أُقفلت عليه أبواب خزائنه فمات جوعًا بين الذهب.

وبعد هنيهة رأيت القفص قد انقلب فجأة وصار هيكل إنسان شفافًا، وتحوّل الطائر الميت إلى قلب بشري فيه جرح عميق يقطر دمًا قرمزيًّا وقد حاكت جوانب الجرح شفتَي امرأة حزينة.

ثمّ سمعتُ صوتًا خارجًا من الجرح مع قطرات الدماء قائلًا: أنا هو القلب البشري أسير المادّة وقتيل شرائع الإنسان الترابي. في وسط حقل الجمال، على ضفّة ينابيع الحياة، أُسرت في قفص الشرائع التي سنّها الإنسان للشواعر. على مهد محاسن المخلوقات بين أيدي المحبّة متُّ

مهملًا، لأنّ ثمار تلك المحاسن ونتاج هذه المحبّة قد حُرّما عليّ. كلّ ما يشوقني صار بعرف الإنسان عارًا، وجميع ما أشتهيه أصبح في قضائه مذلّة.

أنا القلب البشري قد حُبست في ظلمة سنن الجامعة فضعفت، وقيّدت بسلاسل الأوهام فاحتضرت، وأُهملت في زوايا غي المدنيّة فقضيت ولسان الإنسانية منعقد وعيونها ناشفة وهي تبتسم.

سمعت هذه الكلمات ورأيتها خارجة مع قطرات الدم من ذلك القلب الجريح، وبعد ذلك لم أعد أرى شيئًا ولم أسمع صوتًا فرجعت إلى حقيقتي.

الجمال

إنَّ الجمال دين الحكماء
(شاعر هندي)

يا أيّها الذين حاروا في سبيل الأديان المتشعّبة وهاموا في أودية الاعتقادات المتباينة فرأوا حريّة الجحود أوفى من قيود التسليم، ومسارح النكران أسلم من معاقل الاتباع، اتخذوا الجمال دينًا واتَّقوْه ربًّا، فهو الظاهر في كمال المخلوقات البادي في نتائج المعقولات. انبذوا الأُلى مثلوا التديّن لهوًا وآلفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل وآمنوا بألوهية جمال كان بدء استحسانكم الحياة ومنبع محبّتكم السعادة ثمّ توبوا إليه فهو المقرِّب قلوبكم من عرش المرأة مرآة شعائركم والمدرّب أنفسكم في مجال الطبيعة موطن حياتكم.

ويا أيّها الذين ضاعوا في ليل التقوّلات وغرقوا في لجج الأوهام، إنّ في الجمال حقيقة نافية الريب، مانعة الشكّ، ونورًا باهرًا يقيكم ظلمة البُطل. تأمّلوا يقظة الربيع ومجيء الصبح، إنّ الجمال نصيب المتأمّلين. أصغوا لأنغام الطيور، وحفيف الأغصان، وخرير الجدول، إنّ الجمال قسمة السامعين. انظروا وداعة الطفل، وظرف الشابّ، وقوّة الكهل، وحكمة الشيخ، إنّ الجمال فتنة الناظرين.

تشبّبوا بنرجس العيون، وورد الخدود، وشقيق الفم، إنّ الجمال يتمجّد بالمتشبّبين. سبّحوا لغصن القدّ، وليل الشَّعر، وعاج العنق، إنّ

الجمال يسرّ بالمسبّحين. كرّسوا الجسد هيكلًا للحسن وقدّسوا القلب مذبحًا للحبّ، إنّ الجمال يجازي المتعبّدين.

تهلّلوا يا أيّها الذين أُنزلت عليهم آيات الجمال وافرحوا إذ لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

الحروف النارية

احفروا على لوح قبري: «هنا رفات من كتب اسمه بماء»

جان كيتس

أهكذا تمرّ بنا الليالي؟ أهكذا تندثر تحت أقدام الدهر؟ أهكذا تطوينا الأجيال، ولا تحفظ لنا سوى اسم تخطّه على صحفها بماء بدلًا من المداد؟

أينطفئ هذا النور، وتزول هذه المحبّة، وتضمحلّ هذه الأماني؟ أيهدم الموت كلّ ما نبنيه، ويذري الهواء كلّ ما نقوله، ويخفي الظل كلّ ما نفعله؟

أهذه هي الحياة؟ هل هي ماضٍ قد زال واختفت آثاره، وحاضر يركض لاحقًا بالماضي، ومستقبل لا معنى له إلّا إذا ما مرّ وصار حاضرًا أو ماضيًا؟ أتزول جميع مسرّات قلوبنا وأحزان أنفسنا دون أن نعلم نتائجها؟

أهكذا يكون الإنسان مثل زبد البحر يطفو دقيقة على وجه الماء ثمّ تمرّ نسيمات الهواء فتطفئه ويصبح كأنّه لم يكن؟

لا لعمري، فحقيقة الحياة حياة. حياة لم يكن ابتداؤها في الرحم ولن يكون منتهاها في اللحد. وما هذه السنوات إلّا لحظة من حياة أزليّة أبديّة. هذا العمر الدنيويّ مع كلّ ما فيه هو حلم بجانب اليقظة التي ندعوها الموت المخيف. حلم ولكن كلّ ما رأيناه وفعلناه فيه يبقى ببقاء الله.

فالأثير يحمل كلّ ابتسامة وكلّ تنهّدة تصعد من قلوبنا، ويحفظ صدى كلّ قبلة مصدرها المحبّة. والملائكة تُحصي كلّ دمعة يقطرها

الحزن من مآقينا، وتُعيد على مسمع الأرواح السابحة في فضاء اللانهاية كلّ أنشودة ابتدعها الفرح من شواعرنا.

هناك في العالم الآتي سنرى جميع تموّجات شواعرنا واهتزازات قلوبنا، وهناك ندرك كنه ألوهيتنا التي نحتقرها الآن مدفوعين بعوامل القنوط.

الضلال الذي ندعوه اليوم ضعفًا سيظهر في الغد كحلقة كيانها واجب لتكملة سلسلة حياة ابن آدم.

الأتعاب التي لا نكافأ عليها الآن ستحيا معنا وتذيع مجدنا.

الأرزاء التي نحتملها ستكون إكليلًا لفخرنا.

هذا ولو علم «كيتس» ذلك البلبل الصدّاح أنّ أناشيده لم تزل تبثّ روح محبّة الجمال في قلوب البشر لقال:

احفروا على لوح قبري: هنا بقايا مَن كتب اسمه على أديم السماء بأحرف من نار.

بين الخرائب

وشّح القمر تلك الخمائل المحاطة بمدينة الشمس برقعًا لطيفًا، وظفر الهدوء بأعنة الكائنات، وبانت تلك الخرائب الهائلة كأنّها جبّار يهزأ بعاديات اللّيالي.

في تلك الساعة انبثق من لا شيء خيالان يشبهان أبخرة متصاعدة من بحيرة زرقاء وجلسا على عمود رخامي استأصله الدهر من ذلك البناء الغريب يتأمّلان بمحيط يحاكي مسارح السحر. وبعد هنيهة رفع أحدهما رأسه، وبصوت يشبه الصدى الذي تردّده خلايا الأودية البعيدة قال:

هذه بقايا هياكل بنيتها من أجلك يا محبوبتي، وتلك رمم قصر رفعته لاستحسانك وقد دكّت ولم يبق منها سوى أثر يحدّث الأمم بمجد صرفت الحياة لتعميمه وعزٍّ استخدمت ضعفاء لتعظيمه. تأمّلي يا محبوبتي، فقد تغلّبت العناصر على مدينة شيّدتها، واستصغرت الأجيال حكمة رأيتها، وأضاع النسيان ملكًا رفعته ولم يبقَ لي سوى دقائق المحبّة التي أولدها جمالك ونتائج الجمال الذي أحياه حبّك. بنيت هيكلًا في أورشليم للعبادة فقدّسه الكهّان ثمّ سحقته الأيّام، وبنيت هيكلًا بين أضلعي للمحبّة فقدّسه الله ولن تقوى عليه القوّات. صرفت العمر مستفسرًا ظواهر الأشياء مستنطقًا أعمال المادّة فقال الإنسان: ما أحكمه

ملكًا! وقالت الملائكة: ما أصغره حكيمًا! ثمّ رأيتك يا محبوبتي وغنّيت فيك نشيد محبّة وشوق ففرحت الملائكة، أمّا الإنسان فلم ينتبه... كانت أيّام ملكي كالحواجز بين نفسي الظمآنة والروح الجميل المستقرّ في الكائنات، ولما رأيتك استيقظت المحبّة وهدمت تلك الحواجز فأسفت على عمر صرفته مستسلمًا لتيّارات القنوط حاسبًا كلّ شيء تحت الشمس باطلًا. حبكت الدروع وطرقت التروس فخافتني القبائل، ولما أنارتني المحبّة احتُقرت حتّى من شعبي، ولكن عندما جاء الموت أودع تلك الدروع والتروس التراب وحمل محبّتي إلى الله.

وبُعيد سكينة قال الخيال الثاني: مثلما تكتسب الزهرة عطرها وحياتها من التراب كذلك تستخلص النفس من ضعف المادة وخطئها قوّة وحكمة.

عندئذ تمازج الخيالان وصارا خيالًا واحدًا وسارا. وبعد هنيهة أذاع الهواء هذه الكلمات في تلك الأنحاء: لا تحفظ الأبديّة إلّا المحبّة لأنّها مثلها...

رؤيا

أرفع هذه الرسالة إلى الفيكونتس س.ل.
جوابًا على رسالة أكرمتني بها

مشى الشباب أمامي فاتبعت مسيره، حتّى إذا بلغنا حقلًا بعيدًا وقف متأمّلًا الغيوم الجارية فوق خط الشفق كأنّها قطيع نعاج بيضاء، والأشجار المشيرة بأغصانها العارية إلى العلاء كأنّها تطلب من السماء استرجاع أوراقها الغضّة. فقلت: أين نحن أيّها الشباب؟ قال: في حقول الحيرة فانتبه. قلت: لنرجع! لأن وحشة المكان تُخيفني ومرأى الغيوم والأشجار العارية يحزن نفسي. قال: اصبر فالحيرة بدء المعرفة. ثمّ نظرت فإذا بحوريّة تقترب منّا كالخيال فصرخت مستغربًا: من هذه؟ قال: هي ميلبومين ابنة جوبيتر وربّة الروايات المحزنة. قلت: وماذا تبتغي الأحزان منّي وأنت بجانبي أيّها الشباب المفرح؟ قال: جاءت لتُريك الأرض وأحزانها، ومن لا يرى الأحزان لا يرى الفرح.

ووضعت الحورية يدها على عيني، ولما رفعتها رأيتني منفصلًا عن شبابي مجرّدًا من ثوب المادّة. فقلت: أين الشباب يا ابنة الآلهة؟ فلم تجبني بل ضمّتني بجناحيها وطارت بي إلى قمّة جبلٍ عالٍ فرأيت الأرض وما فيها منبسطة أمامي كالصفحة وأسرار سكانها ظاهرة لعيني كالخطوط، فوقفت متهيّبًا بجانب الحوريّة متأمّلًا خفايا الإنسان مستفسرًا رموز الحياة. رأيت، وليتني لم أرَ. رأيت ملائكة السعادة تحارب أبالسة

الشقاء والإنسان بينهما في حيرة تميل به نحو الأمل تارة والقنوط أخرى. رأيت الحبّ والبغض يلعبان بالقلب البشري: هذا يستر ذنوبه ويسكره بخمرة الاستسلام ويطلق لسانه بالمدح والإطراء، وذاك يهيج خصوماته ويعميه عن الحقيقة ويغلق سامعته عن القول الصحيح. رأيت المدينة جالسة كابنة الأزقّة متشبّثة بأذيال ابن آدم. ثمّ رأيت البرية الجميلة واقفة عن بعد تبكي من أجله.

رأيت الكهّان يروغون كالثعالب، والمسحاء الكذبة يحتالون على ميول النفس، والإنسان يصرخ مستنجدًا بالحكمة وهي نافرة عنه غضبى عليه لأنّه لم يسمعها عندما نادته في الشوارع على رؤوس الأشهاد. رأيت القسوس يكثرون رفع عيونهم إلى السماء وقلوبهم مطمورة في قبور المطامع. رأيت الفتيان يتحبّبون بألسنتهم ويقتربون بآمال نزقهم وأُلوهيتهم بعيدة وعواطفهم نائمة. رأيت المتشرعين يتاجرون بثرثرة الكلام بسوق الخداع والرياء والأطباء يلعبون بأرواح البسطاء الواثقين. رأيت الجاهل يجالس العاقل فيرفع ماضيه على عرش المجد ويوسد حاضره بساط السعة ويمدّ لمستقبله فراش الفخامة. رأيت الفقراء المساكين يزرعون والأغنياء الأقوياء يحصدون ويأكلون والظلم واقف هناك والناس يدعونه الشريعة. رأيت لصوص الظلمة يسرقون كنوز العقل وحرّاس النور غرقى في كرى التواني. رأيت المرأة كالقيثارة في يد رجل لا يُحسن الضرب عليها فتُسمعه أنغامًا لا ترضيه. رأيت تلك الكتائب المعروفة تحاصر مدينة الشرف الموروث. لكنيّ رأيت كتائب قد اندحرت لأنّها قليلة غير متحدة. رأيت الحريّة الحقيقيّة تسير وحدها في الشوارع وأمام الأبواب تطلب مأوى والقوم يمنعونها. ثمّ رأيت الابتذال يسير بموكب عظيم والناس يدعونه الحرّيّة. رأيت الدين مدفونًا طيّ الكتاب والوهم قائمًا مقامه. رأيت الإنسان يلبس الصبر ثوب

الجبانة، ويعطي التجلّد لقب التواني، ويدعو اللطف باسم الخوف. رأيت المتطفّل على موائد الآداب يدّعي والمدعو إليها صامتًا. رأيت المال بين يدي المبذّر شبكة شروره وبين يدي البخيل مجلبة لمقت الناس وبين يدي الحكيم لم أرَ مالًا.

عندما رأيت كلّ هذه الأشياء صرخت متألّمًا من هذا المنظر: أهذه هي الأرض يا ابنة الآلهة؟ أهذا هو الإنسان؟ فأجابت بسكينة جارحة: هذه طريق النفس المفروشة شوكًا وقطربًا. هذا ظلّ الإنسان. هذا هو اللّيل وسيجيء الصباح. ثمّ وضعت يدها على عينيّ، ولما رفعتها وجدْتُني وشبابي سائرًا على مهل، والأمل يركض أمامي.

الأمس واليوم

مشى الموسر في حديقة صرحه ومشى الهمّ متبعًا خطواته، وحام القلق فوق رأسه مثلما تحوم النسور على جثّة صفعها الموت، حتّى بلغ بحيرة تسابقت في صنعها أيدي الإنسان وجمعت جوانبها منطقة من الرخام المنحوت. فجلس هناك ينظر آنًا إلى المياه المتدفّقة من أفواه التماثيل تدفّق الأفكار من مخيّلة العاشق، وآونة إلى قصره الجميل الجالس على تلك الرابية جلوس الخال على وجنة الفتاة.

جلس فجالسته الذكرى ونشرت أمام عينيه صفحات كتبها الماضي في رواية حياته فأخذ يتلوها والدموع تحجب عنه محيطًا صنعه الإنسان واللهفة تعيد إلى قلبه رسوم أيّام نسجتها الآلهة حتّى أبت لوعته إلّا الكلام فقال:

كنت بالأمس أرعى الغنم بين تلك الروابي المخضرّة وأفرح بالحياة وأنفخ في شبّابتي معلنًا غبطتي، وها أنا اليوم أسير المطامع يقودني المال إلى المال، والمال إلى الانهماك، والانهماك إلى الشقاء. كنت كالعصفور مغردًا، وكالفراش متنقّلًا، ولم يكن النسيم أخفّ وطأة على رؤوس الأعشاب من خطوات أقدامي في تلك الحقول، وها أنا سجين عادات الاجتماع: أتصنّع بملابسي وعلى مائدتي وبكلّ اعمالي من

أجل إرضاء البشر وشرائعهم. كنت أودّ لو أنّي خُلقت لأتمتّع بمسرّات الوجود، ولكني أراني اليوم متبعًا بحكم المال سبل الغمّ، فصرت كالناقة المثقلة بحمل من الذهب، والذهب يميتها. أين السهول الواسعة؟ أين السواقي المترنّمة؟ أين الهواء النقيّ؟ أين مجد الطبيعة؟ أين ألوهيتي؟ قد ضيّعت كلّ ذلك ولم يبقَ لي غير ذهب أحبّه فيستهزئ بي، وعبيد أكثرتهم فقلّ سروري، وصرح رفعته ليهدم غبطتي. كنت وابنة البدو نسير والعفاف ثالثنا، والحبّ نديمنا، والقمر رقيبنا، واليوم أصبحت بين اللواتي يمشين ممدودات الأعناق، غامزات العيون، الشاريات الحسن بالسلاسل والمناطق، البائعات الوصل بالأساور والخواتم. كنت والفتيان نخطر بين الأشجار كسرب الغزلان، نشترك بإنشاد الأغاني، نقتسم ملذات الحقول، واليوم صرت بين القوم كالنعجة بين الكواسر، أمشي في الشوارع فتنفتح عليّ عيون البغض ويشار إليّ بأصابع الحسد، وإن ذهبت إلى المتنزّهات لا أرى غير وجوه كالحة ورؤوس شامخة. بالأمس أُعطيت الحياة وجمال الطبيعة، واليوم سُلبتهما. بالأمس كنت غنيًّا بسعادتي واليوم أصبحت فقيرًا بمالي. بالأمس كنت ونعاجي مثل ملك رؤوف ورعيّته، واليوم صرت لدى الذهب كالعبد المتصاغر أمام السيّد المظلوم... ما كنت أحسب أن المال يطمس عين نفسي ويقودها إلى مغاور الجهل، ولم أدرِ أنّ ما يحسبه الناس مجدًا كان واحرّ قلباه جحيمًا...

وقام الموسر من مكانه ومشى ببطء نحو قصره متأوّهًا مردّدًا: أهذا هو المال؟ أهذا الإله الذي صرت كاهنه؟ أهذا ما نبتاع بالحياة ولا يمكننا أن نستبدل به ذرّة من الحياة؟ مَن يبيعني فكرًا جميلًا بقنطار من الذهب؟ مَن يأخذ قبضة من الجواهر بدقيقة محبّة؟ مَن يعطيني عينًا ترى الجمال ويأخذ خزائني؟

ولما وصل إلى باب القصر نظر نحو المدينة نظرة أرميا إلى أورشليم وأومأ بيده نحوها كأنّه يرثيها وقال بصوت عالٍ: أيّها الشعب السالك في الظلمة، الجالس في ظلّ الموت، الراكض وراء التعاسة، القاضي بالبُطل، المتكلّم بالحماقة، إلى متى تأكل الشوك والحسك وترمي الثمار والزهر إلى الهاوية؟ حتّى متى تسكن الوعر والخرائب تاركًا بستان الحياة؟ لماذا ترتدي الأطمار البالية وثوب الدمقس قد فُصّل من أجلك؟ أيّها الشعب قد انطفأ سراج الحكمة فاسقِهِ زيتًا. وخرّب ابن السبيل كرم السعادة فاحرسه. وسرق اللص خزائن راحتك فانتبه!

في تلك الدقيقة وقف أمام الغنيّ فقير ومدّ يده متسوّلًا، فنظر إليه وقد انضمّت شفتاه المرتجفتان وانبسطت سحنته المنقبضة وانبعث من عينيه نور لطيف. كان الأمس الذي رثاه بقرب البحيرة قد مرّ مسلّمًا فاقترب من المستعطي وقبّله قبلة المحبّة والمساواة وملأ يده ذهبًا، وقال والرأفة تسيل من كلماته: خذ يا أخي الآن وعُدْ غدًا مع أترابك واسترجعوا أموالكم. فابتسم الفقير ابتسامة الزهرة الذابلة بُعيد المطر وراح مسرعًا.

حينئذ دخل الموسر إلى قصره قائلًا: كلّ شيء حسن في الحياة حتّى المال لأنّه يعلّم الإنسان أمثولة. إنّما المال كالأرغن يُسمع مَن لا يحسن الضرب عليه أنغامًا لا ترضيه. المال كالحبّ يُميت مَن يضنّ به ويحيي واهبه.

رحماك يا نفس رحماك!

حتّى مَ تنوحين يا نفسي وأنت عالمة بضعفي؟ إلى متى تضجين وليس لديّ سوى كلام بشري أُصوّر به أحلامك؟

انظري يا نفسي فقد أنفقت عمري مصغيًا لتعاليمك. تأمّلي يا معذّبتي فقد أتلفت جسمي متبعًا خطواتك.

كان قلبي مليكي فصار الآن عبدك، وكان صبري مؤنسي فغدا بك عذولي. كان الشباب نديمي فأصبح اليوم لائمي، وهذا كلّ ما أوتيته من الآلهة، فممّ تستزيدين وبمَ تطمعين؟

قد أنكرت ذاتي وتركت ملاذ حياتي وغادرت مجد عمري ولم يبقَ لي سواك، فاقضي عليّ بالعدل، فالعدل مجدك، أو استدعي الموت واعتقي من الأسر معنّاك.

رحماك يا نفس! فقد حمّلتني من الحبّ ما لا أطيقه: أنت والحبّ قوّة متحدة، وأنا والمادة ضعف متفرّق، وهل يطول عراك بين قويّ وضعيف؟

رحماك يا نفس! فقد أريتني السعادة عن بُعد شاسع: أنت والسعادة على جبل عالٍ، وأنا والشقاء في أعماق الوادي، وهل يتم لقاء بين علوّ ووطوءة؟

رحماك يا نفس! فقد أبنت لي الجمال وأخفيته: أنت والجمال في النور، وأنا والجهل في الظلمة، وهل يمتزج النور بالظلمة؟

أنت يا نفس تفرحين بالآخرة قبل مجيء الآخرة، وهذا الجسد يشقى بالحياة وهو في الحياة.

أنت تسيرين نحو الأبديّة مسرعة، وهذا الجسد يخطو نحو الفناء ببطء، فلا أنت تتمهّلين ولا هو يسرع، وهذا يا نفس منتهَى التعاسة.

أنت ترتفعين نحو العلوّ بجاذب السماء، وهذا الجسد يسقط إلى تحت بجاذبيّة الأرض، فلا أنت تعزينه ولا هو يهنّئك، وهذه هي البغضاء.

أنت يا نفس غنيّة بحكمتك، وهذا الجسد فقير بسليقته، فلا أنت تتساهلين ولا هو يتبع، وهذا هو أقصى الشقاء.

أنت تذهبين في سكينة الليل نحو الحبيب وتتمتّعين منه بضمّة وعناق، وهذا الجسد يبقى أبدًا قتيل الشوق والتفريق.

رحماك يا نفس رحماك!

الأرملة وابنها

هجم الليل مسرعًا على شمالي لبنان مستظهرًا على نهار تساقطت فيه الثلوج على تلك القرى المحيطة بوادي قاديشا جاعلة تلك الحقول والهضاب صفحة بيضاء ترسم عليها الرياح خطوطًا تمحوها الرياح وتتلاعب بها العواصف مازجة الجوّ الغضوب بالطبيعة الهائلة.

اختبأ الإنسان في منازله والحيوان في مرابضه وسكنت حركة كلّ ذي نسمة حيّة ولم يبقَ غير برد قارس وزمهرير هائج وليل أسود مخيف وموت قوي مريع.

وكان في منزل منفرد بين تلك القرى امرأة جالسة أمام موقد تنسج الصوف رداء وبقربها وحيدها ينظر تارة إلى أشعة النار، وطورًا إلى وجه أمّه الهادئ. في تلك الساعة عصفت الرياح بشدّة وهزّت أركان ذلك البيت، فذعر الصبيّ واقترب من أمّه محتميًا بحنوّها من غضب العناصر، فضمّته إلى صدرها وقبّلته ثمّ أجلسته على ركبتيها وقالت: لا تجزع يا ابني، فالطبيعة تريد أن تعظ الإنسان مظهرة عظمتها تجاه صغره، وقوّتها بجانب ضعفه. لا تخف يا ولدي، فمن وراء الثلوج المتساقطة والغيوم المتلبّدة والرياح العاصفة روح قدّوس كلّي عالم بما تحتاج إليه الحقول والآكام. من وراء كلّ شيء قوّة ناظرة إلى حقارة الإنسان بعين الشفقة

والرحمة. لا تجزع يا فلذة كبدي. فالطبيعة التي ابتسمت في الربيع وضحكت في الصيف وتأوّهت في الخريف تريد أن تبكي الآن، ومن دموعها الباردة تستقي الحياة الرابضة تحت أطباق الثرى. نم يا ولدي، ففي الغد تستيقظ وترى السماء صافية الأديم، والحقول لابسة رداء الثلج الناصع مثلما ترتدي النفس ثوب الطهر بُعيد مصارعة الموت. نم يا وحيدي، فوالدك ناظر الآن إلينا من مسارح الأبديّة، وحبّذا عاصفة وثلوج تقربنا من ذكر تلك النفوس الخالدة. نم يا حبيبي، فمن هذه العناصر المتحاربة بعنف سوف تجني الأزهار الجميلة عندما يجيء نيسان. كذا الإنسان يا ابني لا يستثمر المحبّة إلّا بعد بعاد أليم، وصبر مرّ، وقنوط متلف. نم يا صغيري، فسوف تأتي الأحلام العذبة إلى نفسك غير خائفة من هيبة الليل وبطش البرد.

ونظر الصبيّ إلى أمّه وقد كحل النعاس عينيه وقال: لقد أثقل أجفاني الكرى يا أمّاه وأخاف أن أنام قبل تلاوة الصلاة. فعانقته الأمّ الحنون ونظرت من وراء الدموع إلى وجهه الملائكي ثمّ قالت: قل معي يا ولدي: أشفق يا رب على الفقراء واحمِهم من قساوة البرد القارس واستر جسومهم العارية بيدك. انظر إلى اليتامى النائمين في الأكواخ وأنفاس الثلج تكلم أجسامهم. اسمع يا رب نداء الأرامل القائمات في الشوارع بين مخالب الموت وأظفار البرد. امدد يدك يا رب إلى قلب الغنيّ وافتح بصيرته ليرى فاقة الضعفاء المظلومين. أرفق يا رب بالجائعين الواقفين أمام الأبواب في هذا الليل الظلوم واهدِ الغرباء إلى المآوي الدافئة وارحم غربتهم. انظر يا ربّ إلى العصافير الصغيرة واحفظ بيمينك الأشجار الخائفة من قساوة الرياح... ليكن هذا يا ربّ.

ولما عانق الكرى نفس الصبي مدّدته والدته على فراشه وقبّلت جبهته بشفتين مرتجفتين ثمّ رجعت وجلست أمام الموقد تنسج له الصوف رداء.

الدهر والأمة

على سفح لبنان بقرب جدول ينسلّ بين الصخور كأسلاك فضيّة جلست راعية يحيط بها قطيع غنم مهزول يرتعي الأعشاب اليابسة بين الأشواك الغضّة، صبيّة تنظر نحو الشفق البعيد كأنّها تقرأ مآتي الآتي على صفحات الجوّ وقد نمق الدمع عينيها مثلما ينمق الندى أزهار النرجس، وفتح الأسى شفتيها كأنّه يريد سلب قلبها تنهّدًا.

ولما جاء المساء وأخذت تلك الروابي تلتفّ برداء الظل وقف أمام الصبيّة فجأة شيخ يتدلّى شعره الأبيض على صدره وكتفيه حاملًا بيمينه منجلًا سنينًا، وقال بصوت يحاكي هدير الأمواج: سلام على سوريا.

فوقفت الفتاة مذعورة وأجابته بصوت يقطعه الوجل ويصله الحزن قائلة: ماذا تبتغي الآن مني أيّها الدهر؟

ثمّ أومأت نحو أغنامها وزادت: هذه بقايا قطيع كان يملأ الأودية. هذه فضلة مطامعك فهل جئت لتستزيد منها؟

هذه هي المسارح التي أجد بها دوس قدميك وقد كانت منبت الخصب والرزق. كانت نعاجي ترتعي رؤوس الأزهار وتدرّ لبنًا زكيًّا فها هي الآن خمص البطون تقضم الأشواك وأصول الأشجار مخافة الفناء.

اتقِ الله يا دهر وانصرف عني فقد كرّهتني الحياةَ ذكرى مظالمك وحبّبت إليّ الموتَ قساوةُ منجلك.

اتركني ووحدتي أرشف الدمع شرابًا وأتنشق الحزن نسيمًا واذهب يا دهر إلى الغرب حيث القوم في عرس الحياة وعيدها ودعني أنتحب في مآتم أنت عاقدها.

فنظر الشيخ إليها نظرة الأب وقد أخفى منجله طيّ أثوابه وقال:

– ما أخذت منك يا سوريا إلّا بعض عطاياي وما كنت ناهبًا قط بل مستعيرًا أردّ، ووفيًّا أُرجع. واعلمي أنّ لأخواتك الأمم نصيبًا باستخدام مجد كان عبدك، وحقًّا بلبس رداء كان لك. أنا والعدل أقنومان لذات واحدة، فلا يجمل بي سوى إعطاء أخواتك ما أعطيتك، ولست قادرًا على تسويتكن في محبّتي، لأنّ المحبّة لا تنقسم إلّا على السواء. لك يا سوريا أسوة بجاراتك مصر وفارس واليونان إذ لكلّ منهن قطيع يشابه قطيعك ومرعى نظير مرعاك. إنّ ما تدعينه انحطاطًا يا سوريا أدعوه نومًا واجبًا يعقبه النشاط والعمل، فالزهرة لا تعود إلى الحياة إلّا بالموت، والمحبّة لا تصير عظيمة إلّا بعد الفراق.

واقترب الشيخ من الفتاة ومدّ يده قائلًا: هزّي يدي يا ابنة الأنبياء. فأخذت يده وهي تنظر إليه من وراء الدمع وقالت: الوداع أيّها الدهر الوداع. فأجابها: إلى اللقاء يا سوريا إلى اللقاء.

حينئذ اختفى الشيخ كما يختفي البرق، فنادت الصبيّة أغنامها ومضت مردّدة: هل من لقاء يا ترى هل من لقاء؟

أمام عرش الجمال

هربتُ من الاجتماع وهِمْتُ في ذاك الـوادي الـواسع متبعًا مجاري الجدول تارة ومصغيًا إلى محاورات العصافير طورًا، حتّى بلغت مكانًا حمته الأغصان من نظرات الشمس، فجلست أسامر وحدتي وأناجي نفسي. نفس ظامئة رأت كلّ ما يُرى سرابًا وكلّ ما لا يُرى شرابًا.

ولما انطلقت عاقلتي من محبس المادّة إلى فضاء الخيال التفتّ فإذا بفتاة واقفة على مقربة مني. حورية لم تتخذ من الحلي والحلل سوى غصن من الكرمة تستر به بعض قامتها وإكليل من الشقيق يجمع شعرها الذهبي... وإذ علمت من نظراتي أنّني صرت مسلوب الفجأة والحيرة قالت: أنا ابنة الأحراج فلا تجزع. قلت وقد ردّت حلاوة صوتها بعض رمقي: وهل يقطن مَن كان مثلك برّيّة سكنتها الوحشة والوحوش؟ قولي لي بعيشك مَن أنتِ ومن أين أتيت؟ فقالت وقد جلست على الأعشاب: أنا رمز الطبيعة. أنا العذراء التي عبدها آباؤك فبنوا لها مذابح وهياكل في بعلبك وأفقا وجبيل. قلت: تلك الهياكل قد انهدمت وعظام أجدادي ساوت أديم الأرض ولم يبقَ من آثار آلهتهم وأديانهم سوى صفحات قليلة في بطون الكتب. قالت: بعض الآلهة يحيون بحياة عبادهم ويموتون بموتهم. وبعضهم يحيون بأُلوهيّة أزليّة أبديّة. أمّا أُلوهيّتي فهي مستمدّة

من جمال تراه كيفما حوّلت عينيك. جمال هو الطبيعة بأسرها. جمال كان بدء سعادة الراعي بين الرُّبَى، والقروي بين الحقول، والعشائر الرحل بين الجبل والساحل. جمال كان للحكيم مرقاةً إلى عرش حقيقة لا تجرح. قلت ودقّات قلبي تقول ما لا يعرفه اللسان: إنّ الجمال قوّة مخيفة رهيبة. فقالت وعلى شفتيها ابتسامة الأزهار وفي نظرها أسرار الحياة: أنتم البشر تخافون كلّ شيء حتّى ذواتكم. تخافون السماء وهي منبع الأمن. تخافون الطبيعة وهي مرقد الراحة، وتخافون إله الآلهة وتعزون إليه الحقد والغضب وهو إن لم يكن محبّة ورحمة لم يكن شيئًا.

وبعد سكينة مازجتها الأحلام اللطيفة سألتها: ما هذا الجمال؟ فقد تباين الناس بتعريفه ومعرفته مثلما اختلفوا بتمجيده ومحبّته. قالت: هو ما كان بنفسك جاذب إليه، هو ما تراه وتودّ أن تعطي لا أن تأخذ، هو ما شعرت عند ملقاه بأيدٍ ممدودة من أعماقك لضمّه إلى أعماقك، هو ما تحسبه الأجسام محنة والأرواح منحة، هو أُلفة بين الحزن والفرح، هو ما تراه محجوبًا وتعرفه مجهولًا وتسمعه صامتًا، هو قوّة تبتدئ في قُدس أقداس ذاتك وتنتهي في ما وراء تخيّلاتك...

واقتربت ابنة الأحراج مني ووضعت يدها المعطّرة على عينيّ، ولما رفعتها رأيتني وحيدًا في ذلك الوادي، فرجعت ونفسي مردّدة: إنّ الجمال هو ما تراه وتودّ أن تعطي لا أن تأخذ.

زيارة الحكمة

في هدوء الليل جاءت الحكمة ووقفت بقرب مضجعي ونظرت إليّ نظرة الأم الحنون ومسحت دموعي وقالت: سمعت صراخ نفسك فأتيت لأعزّيها. ابسط قلبك أمامي فأملأه نورًا. سلني فأُريك سبيل الحق. فقلت: مَن أنا أيّتها الحكمة وكيف سرت إلى هذا المكان المخيف؟ ما هذه الأماني العظيمة والكتب الكثيرة والرسوم الغريبة؟ ما هذه الأفكار التي تمرّ كسرب الحمام؟ ما هذا الكلام المنظوم بالميل، المنثور باللذّة؟ ما هذه النتائج المحزنة، المفرحة، المعانقة روحي، المساورة قلبي؟ ما هذه العيون المحدقة بي، الناظرة أعماقي، المنصرفة عن آلامي؟ ما هذه الأصوات النائحة على أيامي، المترنّمة بصغري؟ ما هذا الشاب المتلاعب بميولي، المستهزئ بعواطفي، الناسي أعمال الأمس، الفارح بتفاهة الحال، المستنكف ببطء الغد؟ ما هذا العالم السائر بي إلى حيث لا أدري، الواقف معي موقف الهوان؟ ما هذهِ الأرض الفاغرة فاها لابتلاع الأجسام، المفرجة صدرها لسكنى المطامع؟ ما هذا الإنسان الراضي بمحبّة السعادة، ودون وصالها الهاوية، الطالب قبلة الحياة والموت يصفعه، الشاري دقيقة اللذة بعام الندامة، المستسلم للكرى والأحلام

تناديه، السائر مع سواقي الجهالة إلى خليج الظلمة؟ ما هذه الأشياء أيّتها الحكمة؟...

فقالت: أنت تريد أيّها البشري أن ترى هذا العالم بعين إله وتريد أن تفقه مكنونات العالم الآتي بفكرة بشرية، وهذا منتهى الحماقة. اذهب إلى البريّة تجد النحلة حائمة حول الزهور والنسر ينقضّ على الفريسة. أدخل بيت جارك ترَ الطفل مدهوشًا بأشعة النار والوالدة مشغولة بأعمال منزلها. كن أنت كالنحلة ولا تصرف أيّام الربيع ناظرًا أعمال النسر. كن كالطفل وافرح بأشعة النار ودع والدتك وشأنها. كلّ ما تراه كان ويكون من أجلك. الكتب الكثيرة والرسوم الغريبة والأفكار الجميلة هي أشباح نفوس الذين تقدموك. الكلام الذي تحوكه هو الواصل بينك وبين إخوانك البشر. النتائج المحزنة المفرحة هي البذور التي ألقاها الماضي في حقل النفس وسوف يستغلّها المستقبل... إن هذا الشباب المتلاعب بميولك هو الفاتح باب قلبك لدخول النور. إنّ هذه الأرض الفاغرة فاها هي التي تخلّص نفسك من عبوديّة جسدك. إنّ هذا العالم السائر بك هو قلبك، فقلبك هو كلّ ما تظنّه عالمًا. إنّ هذا الإنسان الذي تراه جاهلًا وصغيرًا هو الذي جاء من لدن الله ليتعلّم الفرح بالحزن والمعرفة من الظلمة...

ووضعت الحكمة يدها على جبهتي الملتهبة وقالت: سرْ إلى الأمام ولا تقف البتّة، فالأمام هو الكمال. سرْ ولا تخشَ أشواك السبيل، فهي لا تستبيح إلّا الدماء الفاسدة.

حكاية صديق

1

عرفته فتىً ضائعًا في مسالك حياته، محكومًا بمفاعيل شبيبته، مستميتًا في إدراك غرض ميوله. عرفته زهرة ليّنة حملتها رياح النزق إلى لجّة الشهوات.

عرفته في تلك القرية صبيًّا شرسًا يمزّق بيديه أعشاش العصافير ويميت أفراخها، ويسحق برجليه تيجان الأزهار ويبيد محاسنها. وعرفته في المدرسة يافعًا، بعيدًا عن الاقتباس، قريبًا من الغطرسة، عدوًّا للسكينة. وعرفته في المدينة شابًّا يتاجر بشرف أبيه في سوق الخسائر، ويبذر أمواله في نوادي التهتّك، ويعطي عاقلته لابنة الكرمة.

ولكني كنتُ أحبّه. أحبّه محبّة يساورها الأسف ويمازجها الإشفاق. أحبّه لأن منكراته لم تكن نتائج نفس صغيرة، بل كانت مآتي نفس ضعيفة قانطة. النفس أيّها الناس تميل عن سبل الحكمة مكرهة وتعود إليها مريدة. وللشبيبة أعاصير تهبّ حاملة غبارًا ورمالًا تملأ الأجفان فتغمضها وتعميها، تعميها إلى أمد بعيد في أكثر المواطن.

أحببت هذا الفتى وكنت مخلصًا له لأنّني رأيت حمامة ضميره تغالب نسر سيئاته فتُغلب تلك الحمامة بقوّة عدوّها لا بجبانتها. الضمير قاضٍ عادل ضعيف والضعف واقف في سبيل تنفيذ أحكامه.

قلت أحببته والمحبّة تأتي بأشكال مختلفة، فهي الحكمة آنًا، والعدل آونة، والأمل أخرى، فمحبّتي له كانت أملي باستظهار نور شمسه الوضعي على ظلمة متاعبها العرضيّة. على أنّني كنت جاهلًا أنّى وأين تتبدّل الأدران بنقاوة، والشراسة بوداعة، والطيش بحكمة، والإنسان لا يدري كيفيّة انعتاق النفس من عبوديّة المادّة إلّا بعد الانعتاق، ولا يعرف كيف تبتسم الأزهار إلّا بعد مجيء الصباح.

2

مرّت الأيّام آخذة بأعناق الليالي، وأنا أذكر ذلك الفتى بغصّات مؤلمة، وأردف لفظ اسمه بتنهّدات تجرح القلب وتدميه، حتّى وافاني بالأمس كتاب منه قال فيه:

– تعالَ إليّ يا صديقي فأنا أريد أن أجمع بينك وبين فتى يسرّ قلبك لقاؤه وتطيب نفسك بمعرفته...

قلت: ويحي! أيريد أن يشفع صداقته المحزنة بصداقة آخر على شاكلته؟ أوَلم يكن وحده أمثولة كافية لتعريف آيات الضلال؟ وهل يروم الآن تذييل تلك الأمثولة بآيات رفاقه كيلا يفوتني حرف من كتاب المادّة؟ ثمّ قلت: اذهب فالنفس تجني من العوسج تينًا بحكمتها، والقلب يستمدّ من الظلمة نورًا بمحبّته... ولما جاء الليل ذهبت فوجدت ذلك الفتى منفردًا في غرفته يقرأ كتابًا شعريًّا، فحييته مستغربًا وجود الكتاب بين يديه وقلت: أين الصديق الجديد؟ قال: هو أنا يا خليلي، هو أنا، ثمّ جلس بهدوء ما عهدته فيه ونظر إليّ وفي عينيه نور غريب يخرق الصدر ويحيط

بالجوارح. تانك العينان اللتان طالما تأمّلتهما ولم أرَ فيهما غير العنف والقساوة أصبحتا تبعثان نورًا يملأ القلب انعطافًا. ثمّ قال بصوت حسبته صادرًا من غيره: إن ذاك الذي عرفته في الحداثة ورافقته أيّام المدرسة وماشيته في الشبيبة قد مات وبموته ولدت أنا. أنا صديقك الجديد فخذ يدي. أخذت يده فشعرت عند الملامسة أن في تلك اليد روحًا لطيفًا يسري مع الدماء. تلك اليد العنيفة قد صارت ليّنة. تلك الأصابع التي شابهت بالأمس مخالب النمر بأعمالها أصبحت تلامس القلب برقّتها. ثمّ قلت وليتني أذكر غرابة ما قلت: مَن أنت وكيف سرت وأين صرت؟ هل اتخذك الروح هيكلًا فقدّسك أم أنت تمثل أمامي دورًا شعريًّا؟ قال: إي يا صديقي إنّ الروح قد حلّ عليّ وقدّسني. الحبّ العظيم قد جعل قلبي مذبحًا طاهرًا، هي المرأة يا خليلي، المرأة التي ظننتها بالأمس أُلعوبة الرجل قد أنقذتني من ظلمة الجحيم وفتحت أمامي أبواب الفردوس فدخلت. المرأة الحقيقيّة قد ذهبت بي إلى أردن محبتها وعمّدتني. تلك التي احتقرت أختها بغباوتي قد رفعتني إلى عرش المجد. تلك التي دنّست رفيقتها بجهلي قد طهّرتني بعواطفها. تلك التي استعبدت بنات جنسها بالذهب قد حرّرتني بجمالها... تلك التي أخرجت آدم من الجنّة بقوّة إرادتها وضعفه قد أعادتني إلى تلك الجنّة بحنوّها وانقيادي.

في تلك الدقيقة نظرت إليه فوجدت المدامع تتلألأ في عينيه، والابتسام يراود شفتيه، وشعاع الحبّ يكلّل رأسه، فاقتربت منه وقبّلت جبهته متبرّكًا مثلما يقبّل الكاهن صحن المذبح، ثمّ ودّعته ورجعت مردّدًا قوله: تلك التي أخرجت آدم من الجنّة بقوّة إرادتها وضعفه قد أعادتني إلى تلك الجنّة بحنوّها وانقيادي.

بين الحقيقة والخيال

تحملنا الحياة من مكان إلى مكان وتنتقل بنا التقادير من محيط إلى آخر ونحن لا نرى إلّا ما وقف عثرة في سبيل سيرنا ولا نسمع سوى صوت يخيفنا.

يتجلّى لنا الجمال على كرسي مجده فنقترب منه وباسم الشوق ندنس أذياله ونخلع عنه تاج طهره. يمرّ بنا الحبّ مكتسيًا ثوب الوداعة فنخافه ونختبئ في مغاور الظلمة أو نتبعه ونفعل باسمه الشرور، والحكيم بيننا يحمله نيرًا ثقيلًا وهو ألطف من أنفاس الأزهار وأرقّ من نسيمات لبنان. تقف الحكمة في منعطفات الشوارع وتنادينا على رؤوس الأشهاد فنحسبها بُطلًا ونحتقر متبعيها. تدعونا الحرّيّة إلى مائدتها لنلتذّ بخمرها وأطعمتها فنذهب ونشره فتصير تلك المائدة مسرحًا للابتذال ومجالًا لاحتقار الذات. تمدّ الطبيعة نحونا يد الولاء وتطلب منّا أن نتمتّع بجمالها فنخشى سكينتها ونلتجئ إلى المدينة وهناك نتكاثر بعضنا على بعض كقطيع رأى ذئبًا خاطفًا. تزورنا الحقيقة منقادة بابتسامة طفل أو قبلة محبوبة فنوصد دونها أبواب عواطفنا ونغادرها كمجرم دنس. القلب البشري يستنجد بنا والنفس تنادينا ونحن أشدّ صممًا من الجماد لا نعي ولا نفهم، وإذا ما سمع أحد صراخ قلبه ونداء نفسه قلنا هذا جُنَّ وتبرّأنا منه.

هكذا تمرّ الليالي ونحن غافلون وتصافحنا الأيّام ونحن خائفون من الليالي والأيّام. نقترب من التراب والآلهة تنتمي إلينا ونمرّ على خبز الحياة والمجاعة تتغذّى من قوانا، فما أحبّ الحياة إلينا وما أبعدنا عن الحياة!

يا خليلي الفقير

يا من وُلدت على مهد الشقاء وربيت على أحضان الذلّ وشببت في منازل الاستبداد، أنت الذي تأكل خبزك اليابس بالتنهّد وتشرب ماءك العكر ممزوجًا بالدموع والعبرات.

ويا أيّها الجندي المحكوم عليه من شرائع البشر الظالمة بأن يترك رفيقته وصغاره ومحبّيه ويذهب إلى ساحة الموت من أجل طمع يدعونه الواجب.

ويا أيّها الشاعر الذي يعيش غريبًا في وطنه ومجهولًا بين معارفه ويرضى من العيش بمضغة ومن الحطام بالحبر والورق.

ويا أيّها السجين المطروح في الظلمة من أجل ذنب صغير جسّمه غيّ الذين يقابلون الشرّ بالشرّ واستغربتهُ عاقلة الأُلى يرومون الإصلاح بواسطة الفساد.

وأنتِ أيّتها المسكينة التي وهبها الله جمالًا رآه فتى العصر فاتبعك وغَرّك وتغلّب على فقرك بالذهب فاستسلمت له وغادرك فريسة ترتعد بين مخالب الذلّ والتعاسة.

أنتم يا أحبّائي الضعفاء شهداء شرائع الإنسان، أنتم تعساء وتعاستكم نتيجة بغي القويّ وجور الحاكم وظلم الغنيّ وأنانية عبد الشهوات.

لا تقنطوا، فمن مظالم هذا العالم، من وراء المادة، من وراء الغيوم، من وراء الأثير، من وراء كلّ شيء، قوّة هي كلّ عدل وكلّ شفقة وكلّ حنوّ وكلّ محبّة.

أنتم مثل أزهار نبتت في الظل. سوف تمرّ نسيمات لطيفة وتحمل بذوركم إلى نور الشمس فتحيون هناك حياة جميلة.

أنتم نظير أشجار عارية مثقلة بثلوج الشتاء. سوف يأتي الربيع ويكسوكم أوراقًا خضراء غضّة.

سوف تمزّق الحقيقة غشاء الدمع الحاجب ابتساماتكم. أنا أُقبّلكم يا إخوتي وأحتقر مضطهديكم.

مناحة في الحقل

عند الفجر قبيل بزوغ الشمس من وراء الشفق جلست في وسط الحقل أُناجي الطبيعة. في تلك الساعة المملوءة طهرًا وجمالًا بينما كان الإنسان مستترًا طيّ لُحف الكرى تتنابه الأحلام تارة واليقظة أُخرى كنت متوسّدًا الأعشاب أستفسر كلّ ما أرى عن حقيقة الجمال وأستحكي ما يرى عن جمال الحقيقة.

ولما فصلت تصوّراتي بيني وبين البشريّات وأزاحت تخيّلاتي برقع المادّة عن ذاتي المعنويّة شعرت بنمو روحي يقربني من الطبيعة ويبيّن لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها.

وبينما كنت على هذه الحالة مرّ النسيم بين الأغصان متنهّدًا تنهّد يتيم يائس، فسألت مستفهمًا: لماذا تتنهّد يا أيّها النسيم اللطيف؟ فأجاب: لأنّني ذاهب نحو المدينة مدحورًا من حرارة الشمس. إلى المدينة حيث تتعلّق بأذيالي النقيّة مكروبات الأمراض وتتشبّث بي أنفاس البشر السامة. من أجل ذلك تراني حزينًا.

ثمّ التفتُّ نحو الأزهار فرأيتها تذرف من عيونها قطرات الندى دمعًا، فسألت: لماذا البكاء يا أيّتها الأزهار الجميلة؟ فرفعت واحدة منهنّ رأسها اللطيف وقالت: نبكي لأنّ الإنسان سوف يأتي ويقطع

أعناقنا ويذهب بنا نحو المدينة ويبيعنا كالعبيد ونحن حرائر، وإذا ما جاء المساء وذبلنا رمى بنا إلى الأقذار. كيف لا نبكي ويد الإنسان القاسية سوف تفصلنا عن وطننا الحقل؟

وبعد هنيهة سمعت الجدول ينوح كالثكلى، فسألته: لماذا تنوح يا أيّها الجدول العذب؟ فأجاب: لأنّني سائر كرهًا إلى المدينة حيث يحتقرني الإنسان ويستعيض عني بعصير الكرمة ويستخدمني لحمل أدرانه. كيف لا أنوح وعن قريب تصبح نقاوتي وزرًا وطهارتي قذرًا؟

ثمّ أصغيت فسمعت الطيور تغنيّ نشيدًا محزنًا يحاكي الندب فسألتها: لماذا تندبين يا أيّتها الطيور الجميلة؟ فاقترب مني عصفور ووقف على طرف الغصن وقال: سوف يأتي ابن آدم حاملًا آلة جهنّميّة تفتك بنا فتك المنجل بالزرع، فنحن نودع بعضنا بعضًا لأنّنا لا ندري مَن منّا يتملّص من القدر المحتوم. كيف لا نندب والموت يتبعنا أينما سرنا؟

طلعت الشمس من وراء الجبل وتوّجت رؤوس الأشجار بأكاليل ذهبيّة وأنا أسأل ذاتي: لماذا يهدم الإنسان ما تبنيه الطبيعة؟

بين الكوخ والقصر

1

جاء المساء وشعشعت الأنوار الكهربائيّة في صرح الغنيّ فوقف الخدّام على الأبواب بملابس مخمليّة وعلى صدورهم الأزرار اللامعة ينتظرون مجيء المدعوّين.

صدحت الموسيقى بأنغامها المطربة وتقاطر الأشراف والشريفات تجرّهم الخيول المطهّمة نحو ذلك القصر فدخلوا يرفلون بالملابس المزركشة ويجرّون أذيال العزّة والفخر.

قام الرجال ودعوا النساء للرقص فوقفن واخترن الأعزّاء وأصبحت تلك المقصورة روضة تمرّ بها نسيمات الموسيقى فتتمايل أزاهرها تيهًا وإعجابًا.

انتصف الليل فمدّت سفرة عليها كلّ ما عزّ من الفاكهة وطاب من الألوان، ودارت الكؤوس على الجميع فلعبت بنت الكرمة في عقولهم حتّى ألعبتهم.

جاء الصباح وفرّق شمل أولئك الأشراف الأغنياء بعد أن أضناهم السهر وسرقت عاقلتهم الخمرة وأتعبهم الرقص وأذبلهم القصف وذهب كلّ إلى فراشه الناعم.

2

بعد أن غابت الشمس وقف رجل يرتدي أثواب الشغل أمام باب كوخ حقير وقرع ففتح له ودخل وحيّا مبتسمًا ثمَّ جلس بين صِبْية يصطلون بقرب النار. وبعد برهة هيّأت زوجته العشاء فجلسوا جميعًا حول مائدة خشبيّة يلتهمون الطعام، ثم قاموا وجلسوا بقرب مسرجة ترسل سهام أشعتها الصفراء الضعيفة إلى كبد الظلمة.

وبعد مرور الهزيع الأوّل من الليل قاموا بسكينة كليّة واستسلموا لملك الرقاد.

جاء الفجر فهبّ ذلك الفقير من نومه وأكل مع صغاره وزوجته قليلًا من الخبز والحليب، ثمّ قبّلهم وحمل على كتفه معولًا ضخمًا وذهب إلى الحقل ليسقيه من عرق جبينه ويستثمر ويطعم قواه أولئك الأغنياء الأقوياء الذين صرفوا ليلة أمس بالقصف والخلاعة.

طلعت الشمس من وراء الجبل وثقلت وطأة الحرّ على رأس ذلك الحارث، وأولئك الأغنياء ما برحوا خاضعين لسنّة الكرى الثقيل في صروحهم الشاهقة.

هذه مأساة الإنسان المستتبّة على مسرح الدهر وقد كثر المتفرّجون المستحسنون وقلّ من تأمّل وعقل.

طفلان

وقف الأمير على شرفة القصر ونادى الجموع المزدحمة في تلك الحديقة وقال: أبشّركم وأهنّئ البلاد، فالأميرة قد وضعت غلامًا يحيي شرف عائلتي المجيدة ويكون لكم فخرًا وملاذًا ووارثًا لما أبقته أجدادي العظام. افرحوا وتهلّلوا فمستقبلكم صار مناطًا بسليل المعالي.

فصاحت تلك الجموع وملأت الفضاء بأهازيج الفرح متأهّلة بمن سوف يربى على مهد الترف ويشبّ على منصة الإعزاز ويصير بعد ذلك حاكمًا مطلقًا برقاب العباد، ضابطًا بقوّته أعنّة الضعفاء، حرًّا باستخدام أجسادهم وإتلاف أرواحهم. من أجل ذلك كانوا يفرحون ويغنّون الأناشيد ويعاقرون كاسات السرور.

وبينما سكّان تلك المدينة يمجّدون القويّ ويحتقرون ذواتهم ويتغنّون باسم المستبدّ والملائكة تبكي على صغرهم كان في بيت حقير مهجور امرأة مطروحة على سرير السقام تضمّ إلى صدرها الملتهب طفلًا ملتفًّا بأقمطة بالية.

صبيّة كتبت لها الأيّام فقرًا، والفقر شقاء، فأهملها بنو الإنسان. زوجة أمات رفيقَها الضعيف ظلمُ الأمير القويّ. وحيدة بعثت إليها الآلهة في تلك الليلة رفيقًا صغيرًا يكبّل يديها دون العمل والارتزاق.

ولما سكنت جلبة الناس في الشوارع وضعت تلك المسكينة طفلها على حضنها ونظرت في عينيه اللامعتين وبكت بكاء مرًّا، كأنّها تريد أن تعمّده بالدموع السخينة، وقالت بصوت تتصدّع له الصخور: لماذا جئت يا فلذة كبدي من عالم الأرواح؟ أطمعًا بمشاطرتي الحياة المرّة؟ أرحمة بضعفي؟ لماذا تركت الملائكة والفضاء الواسع وأتيت إلى هذه الحياة الضيقة المملوءة شقاء ومذلّة؟ ليس عندي يا وحيدي إلّا الدموع، فهل تتغذّى بها بدلًا من الحليب؟ وهل تلبس ذراعيّ العاريتين عوضًا عن النسيج؟ صغار الحيوان ترعى الأعشاب وتبيت في أوكارها آمنة، وصغار الطير تلتقط البذور وتنام بين الأغصان مغتبطة، وأنت يا ولدي ليس لك إلّا تنهداتي وضعفي.

حينئذ ضمّت الطفل إلى صدرها بشدّة كأنّها تريد أن تجعل الجسدين جسدًا واحدًا، ورفعت عينيها نحو العلاء وصرخت: أرفق بنا يا رب!

ولما انقشعت الغيوم عن وجه القمر دخلت أشعّته اللطيفة من نافذة ذلك البيت الحقير وانسكبت على جسدين هامدين...

شعراء المهجر

لو تخيّل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها وأحكم أوصالها ستصير مقياسًا لفضلات القرائح وخيوطًا تُعلّق عليها أصداف الأفكار لنَثر تلك العقود وفصم عرى تلك الأوصال.

ولو تنبّأ المتنبي وافترض الفارض أنّ ما كتباه سيصبح موردًا لأفكار عقيمة ومقودًا لرؤوس مشاعير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان وحطّما الأقلام بأيدي الإهمال.

ولو درت أرواح هوميروس وفرجيل وأعمى المعرّة وملتون أن الشعر المتجسّم من النفس المشابهة الله سيحطّ رحاله في منازل الأغنياء لبعدت تلك الأرواح عن أرضنا واختفت وراء السيارات.

ما أنا من المتعنّتين، لكن يعزّ عليّ أن أرى لغة الأرواح تتناقلها ألسنة الأغبياء، وكوثر الآلهة يسيل على أقلام المدّعين، ولست منفردًا في وهدة الاستياء بل رأيتني واحدًا من كثيرين نظروا الضفدع تنتفخ تمثّلًا بالجاموس.

الشعر، يا قوم، روح مقدّسة متجسّمة من ابتسامة تحيي القلب أو تنهدة تسرق من العين مدامعها. أشباح مسكنها النفس وغذاؤها القلب

ومشربها العواطف، وإن جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذّاب نبذه أوقى.

فيا إلهة الشعر، يا ادانو، اغتفري ذُنوبَ الأُلى يقتربون منك بثرثرة كلامهم ولا يعبدونك بشرف أنفسهم وتخيّلات أفكارهم.

ويا أرواح الشعراء الناظرة إلينا من أعالي عالم الخلود، ليس لنا عذر لتقدّمنا من مذابح زيّنتموها بلآلئ أفكاركم وجواهر أنفسكم سوى أن عصرنا هذا قد كثرت فيه قلقلة الحديد وضجيج المعامل فجاء شعرنا ثقيلًا ضخمًا كالقطارات ومزعجًا كصفير البخار.

وأنتم أيّها الشعراء الحقيقيّون سامحونا، فنحن من العالم الجديد نركض وراء الماديات، فالشعر عندنا صار مادة تتناقلها الأيدي ولا تدري بها النفوس.

تحت الشمس

«رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس
فإذا الكل باطل وقبض الريح»
سفر الجامعة

يا روح سليمان السابحة في فضاء عالم الأرواح، يا مَن خلعت ثوب المادّة الذي نحن نرتديه الآن، لقد تركت وراءك هذا الكلام المنبثق من الضعف والقنوط فولد ضعفًا وقنوطًا في أسرى الأجسام.

أنت تعلمين الآن أن في هذه الحياة معنى لا يخفيه الموت، ولكن أنّى للبشر تلك المعرفة التي لا تدرك إلّا بعد انعتاق النفس من ربقة التراب؟

أنت تعلمين الآن أن الحياة ليست كقبض الريح، وأن ليس تحت الشمس شيء باطل، بل كلّ شيء كان وسيبقى سائرًا نحو الحقيقة، ولكن نحن المساكين قد تشبثنا بأقوالك وتدبّرناها وما برحنا نظنُّها حكمة باهرة، هي، وأنت تعلمين، ظلمة تضيّع العاقلة وتخفي الأمل.

أنت تعلمين الآن أن للحماقة والشر والظلم أسبابًا جميلة، ونحن لا نرى جمالًا إلّا بظواهر الحكمة ونتاج الفضيلة وثمار العدل.

أنت تعلمين أن الحزن والفقر يطهّران القلب البشري، وعاقلتنا القاصرة لا ترى شيئًا حريًّا بالوجود إلّا اليسر والفرح.

أنت تعلمين الآن أن النفس سائرة نحو النور قهرًا من عقبات العمر، ونحن ما برحنا نردّد كلامك الذي يدلّ على أن الإنسان ليس إلّا ألعوبة في يد القوّة غير المعروفة.

أنت ندمت على بثّك روحًا يضعف محبّة الحياة الحاضرة ويميت الشغف بالحياة الآتية، ونحن لم نزل مصرّين على حفظ أقوالك.

يا روح سليمان الساكنة في عالم الخلود، أوحي إلى محبّي الحكمة ألّا يسلكوا سبل القنوط والجحود، فقد يكون ذلك كفّارة عن خطأ غير مقصود.

نظرة إلى الآتي

من وراء جدران الحاضر سمعت تسابيح الإنسانيّة. سمعت أصوات الأجراس تهزّ دقائق الأثير معلنة بدء الصلاة في معبد الجمال، أجراس سبكتها القوّة من معدن الشواعر ورفعتها فوق هيكلها المقدّس، القلب البشري.

من وراء المستقبل رأيت الجموع ساجدة على صدر الطبيعة، متجهة نحو المشرق، منتظرة فيض نور الصباح، صباح الحقيقة.

رأيت المدينة قد اندثرت ولم يبقَ من آثارها غير طلل بالٍ يخبر الرجال باندحار الظلمة أمام النور.

رأيت الشيوخ جالسين بظلّ أشجار الحور والصفصاف وقد جلس الصبيان حولهم يسمعون أخبار الأيّام.

رأيت الفتيان يوقعون على القيثارة وينفخون في الناي والصبايا مسدولات الشعر يرقصن حولهم تحت أغصان الياسمين والفل.

رأيت الكهول يحصدون الزرع والنساء يحملن الأغمار ويترنّمن بأناشيد أوحتها الغبطة والمسرّة.

رأيت المرأة مستعيضة عن الملابس المشوّهة بإكليل من الزنبق ومنطقة من أوراق الأشجار الغضّة.

رأيت الأُلفة مستحكمة بين الإنسان والمخلوقات، فجماعات الطير والفراش تقترب منه آمنة وأسراب الغزلان تنثني نحو الغدير واثقة. نظرت فلم أرَ فقرًا ولا ما يزيد عن الكفاف، بل ألفيت الإخاء والمساواة، ولم أرَ طبيبًا، إذ كلٌّ غدا طبيب ذاته بحكم المعرفة والاختبار، ولم أرَ كاهنًا، لأن الضمير أصبح الكاهن الأعظم، ولم أرَ محاميًا، لأن الطبيعة قامت بينهم مقام محكمة تسجّل معاهدات الأُلفة والوئام.

رأيت الإنسان قد علم أنّه حجر زاوية المخلوقات، فترفّع عن الصغائر، وتعالى عن الدنايا، وكشف عن بصيرة النفس مناديل الالتباس، فأصبحت تقرأ ما تكتبه الغيوم على وجه السماء، وما ينمّقه النسيم على صفحات الماء، وتفقه كنه أنفاس الأزهار وتعرف معنى أغاني الشحارير والبلابل.

من وراء جدران الحاضر، على مسرح الأجيال الآتية، رأيت الجمال عريسًا والنفس عروسًا والحياة كلّها ليلة القدر.

ملكة الخيال

بلغتُ خرائب تدمر وقد نهكني المسير، فاستلقيت على أعشاب نبتت بين أعمدة سلها الدهر وأناخها إلى الحضيض فبانت كأنّها أشلاء حرب هائلة، وصبرت أتأمّل بعظائم أُجلُّها وهي مهدومة منقوضة عن صغائر قائمة عامرة.

ولما جاء الليل وتشاركت المخلوقات المتنابذة بارتداء ثوب السكينة شعرت بأن في الأثير المحيط بي سيالًا يصارع البخور عطرًا ويعادل الخمر فعلًا، فصرت أجرعه محكومًا وأحسّ بأيدٍ خفيّة تتساهم عاقلتي وتثقل جفني وتحلّ نفسي من سلاسلها. ثمّ مادت الأرض واهتزّ الفضاء فوثبت مدفوعًا بقوّة سحريّة، فوجدتني في رياض لم يتخيّلها بشر قطّ مصحوبًا بجوق من العذارى لم يرتدين بغير الجمال، يمشين حولي ولا تلمس أرجلهنّ الأعشاب وينشدن تسبيحة منسوجة من أحلام الحبّ ويضربن على قيثارات من العاج ذات أوتار ذهبيّة. ولما وصلت إلى منفرج قام في وسطه عرش مرصّع بالجواهر بين مسارح تنسكب منها أنوار بلون قوس قزح وقفت العذارى على اليمين واليسار ورفعن أصواتهنّ عن ذي قبل ونظرن إلى جهة تنبعث منها رائحة المرّ واللبان فإذا بمليكة ظهرت من بين الأغصان الزاهرة ومشت ببطء نحو العرش

واستوت عليه فهبط إذ ذاك سرب حمام كالثلج بياضًا واستقرّ حول قدميها بشكل هلال.

صار هذا والعذارى يغنين مجد المليكة سورًا، والبخور يتصاعد لتكريمها أعمدة، وأنا واقف أرى ما لم ترَ عين إنسان، وأسمع ما لم تعه أذن بشري.

حينئذ أشارت المليكة بيدها فسكنت كلّ حركة، ثمّ قالت وصوتها يهزّ نفسي مثلما تفعل يد الموقِّع بأوتار عوده ويؤثر بمجموع ذاك المحيط السحري كأن للأشياء آذانًا وأفئدة: دعوتك أيّها الأنسي وأنا ربّة مسارح الخيال، وحبوتك المثول أمامي وأنا مليكة غابة الأحلام، فاسمع وصاياي ونادِ بها أمام البشر. قلْ إنّ مدينة الخيال عرس يخفر بابه مارد جبّار فلن يدخله إلّا مَن لبس ثياب العرس. قلْ: هي جنّة يحرسها ملاك المحبّة فلا ينظرها سوى مَن كان على جبهته وسم الحبّ. هي حقل تصوّرات، أنهاره طيّبة كالخمر، وأطياره تسبح كالملائكة، وأزهاره فائحة العبير فلا يدوسه غير ابن الأحلام. خبّر الأنس بأنّي وهبتهم كأسًا يفعمها السرور فهرقوها بجهلهم فجاء ملاك الظلمة فملأها من عصير الحزن فجرعوها صرفًا وسكروا. قلْ: لم يُحسن الضرب على قيثارة الحياة غير الذين لمست أناملهم وشاحي ونظرت أعينهم عرشي، فأشعيا نظم الحكمة عقودًا بأسلاك محبّتي، ويوحنّا روى رؤياه بلساني، ولم يسلك دانتي مراتع الأرواح بغير أدلتي، فأنا مجاز يعانق الحقيقة، وحقيقة تبيّن وحدانيّة النفس، وشاهد يزكي أعمال الآلهة. قلْ: إن للفكرة وطنًا أسمى من عالم المرئيات لا تكدر سماءه غيوم السرور، وإن للتخيّلات رسومًا كائنة في سماء الآلهة تنعكس على مرآة النفس ليعمّ رجاؤها بما سيكون بعد انعتاقها من الحياة الدنيا.

وجذبتني مليكة الخيال نحوها بنظرة سحريّة وقبّلت شفتيّ الملتهبتين وقالت: قلْ ومَن لا يصرف الأيّام على مسرح الأحلام كان عبد الأيّام.

عندئذ تصاعدت أصوات العذارى وارتفعت أعمدة البخور وحجبت الرؤية. ثمّ مادت الأرض واهتزّ الفضاء فوجدتني بين تلك الخرائب المحزنة وقد ابتسم الفجر وبين لساني وشفتيّ هذه الكلمات: ومَن لا يصرف الأيّام على مسرح الأحلام كان عبد الأيّام.

يا لائمي

دعني يا لائمي ووحدتي. أستحلفك بحبّ يضمّ نفسك بجمال الرفيقة ويوثق قلبك بحنوّ الأم ويربط فؤادك بعواطف الابن، أن تتركني وحالي.

خلّني وشأني وأحلامي واصبر إلى الغد، فالغد يقضي عليّ بما يشاء.

محضتني النصح والنصح طيف يسير بالنفس إلى مرتع الحيرة ويقودها إلى حيث الحياة جامدة كالتراب.

لي قلب صغير أريد أن أخرجه من ظلمة صدري وأحمله على كفّي متفحّصًا أعماقه ومستحكيًا أسراره، فلا تترصّده يا لائمي بنبال مذاهبك مسبّبًا خوفه واختفاءه ضمن قفص الضلوع قبل أن يسكب دماء خفاياه ويقوم بفرض عقّدته الآلهة عندما ابتدعته من الجمال والحبّ.

هنا قد طلعت الشمس وغرّد الهزار والبلبل وتصاعدت أرواح الآس والمنثور وأنا أريد الانعتاق من لُحف الكرى لأسير مع الحملان البيضاء، فلا تُعنّفْني يا لائمي ولا تخفْني بأسد الغاب وصلّ الوادي، لأنّ نفسي لا تعرف الجزع ولا تنذر بالسوء قبل مجيئه.

دعني يا لائمي ولا تعظني، لأنّ المصائب فتحت بصيرتي، والدموع جلت بصري، والحزن علّمني لغة القلوب.

اعتزل ذكرى المحرّمات، فلي من ضميري محكمة تقضي بالعدل عليّ وتقيني العقاب إن كنت ذا برارة، وتحرمني الثواب إن كنت من المجرمين.

ها قد سار موكب الحبّ فمشى الجمال رافعًا أعلامه وسارت الشبيبة نافخة أبواق الفرح، فلا تردعني يا لائمي، بل دعني أسر، فالطريق مفروشة بالورود والرياحين، والهواء قد عطّرته مجامر المسك.

اعتقني من حكاية المال وقصص المجد، لأنّ نفسي غنيّة باكتفائها ومشغولة بمجد الآلهة.

اعفني من مآتي السياسة وأخبار السلطة، لأن الأرض كلّها وطني وجميع البشر مُواطنيَّ.

مناجاة

أين أنتِ الآن يا جميلتي؟ أفي تلك الجنّة الصغيرة تسقين الأزهار التي تحبّك محبّة الأطفال ثدي أمّها، أم في خدرك حيث أقمتِ للطهر مذبحًا وقفت عليه روحي وحشاشتي، أم بين كتبك تستزيدين من حكمة البشر وأنت غنيّة بحكمة الآلهة؟

أين أنت يا رفيقة نفسي؟ أفي الهيكل تصلّين من أجلي، أم في الحقل تناجين الطبيعة مرتع إعجابك وأحلامك، أم بين أكواخ المساكين تعزّين منكسرات القلوب بحلاوة نفسك وتملأين أيديهن بإحسانك؟

أنتِ في كلّ مكان، لأنّك من روح الله، وفي كلّ زمان، لأنّك أقوى من الدهر.

هل تذكرين ليالي جمعتنا وشعاع نفسك يحيط بنا كالهالة وملائكة الحبّ تطوف حولنا مترنّمة بأعمال الروح، وتذكرين أيّام جلسنا بظلّ الأغصان وهي مخيّمة علينا كأنّها تريد أن تحجبنا عن البشر مثلما تحجب الضلوع أسرار القلب المقدّسة؟ هل تذكرين ممرّات ومنحدرات مشينا عليها وأصابعك محبوكة بأصابعي احتباك ضفائرك، وقد أسندنا رأسينا برأسينا كأنّنا نحتمي منّا بنا؟ وهل تذكرين ساعة جئتك مودّعًا فعانقتني ثمّ قبّلتني قبلة مريميّة علمت منها بأن الشفاه إذا انضمّت

جاءت بأسرار علويّة لا يعرفها اللسان، قبلة كانت توطئة لتنهّدة مزدوجة حاكت نفَسًا نفخه الله في الطين فصار إنسانًا. تلك تنهّدة سبقتنا إلى عالم الأرواح معلنة مجد نفسينا، وهناك ستبقى حتّى نجتمع بها إلى الأبد... ثمّ قبّلتني وقبّلتني وقلت والدمع يساعدك: إنّ للأجسام أغراضًا مجهولة، فهي تفترق لشؤون عالميّة وتتباعد لمآرب دنيويّة، أمّا الأرواح فتظلّ في قبضة الحبّ مستأمنة حتّى يجيء الموت ويسير بها إلى الله. اذهب يا حبيبي. لقد انتدبتك الحياة فأطِعْها، فهي حسناء تسقي مطيعيها من كوثر اللذة كؤوسًا مفعمة، أمّا أنا فلي من حبّك عريس ملازم، ومن ذكراك عرس طويل مبارك.

أين أنتِ الآن يا رفيقتي؟ هل أنتِ ساهرة في سكينة الليل تنتظرين نسيمًا أُحمّله دقّات قلبي وخفايا جوارحي كلّما هبّ نحوك؟ أوَ أنت ناظرة رسم فتاك؟ ذاك رسم لم يعد ينطبق على مرسومه، فالحزن قد ألقى خياله على جبهة كانت بالأمس منفرجة بقربك، والنواح أذبل أجفانًا كانت مكحولة بجمالك، والوجد جفّف ثغرًا كان مرطّبًا بقبلاتك.

أين أنتِ يا حبيبتي؟ هل أنتِ سامعة من وراء البحار ندائي وانتحابي، وناظرة ضعفي ومذلّتي، وعالمة بصبري وتجلّدي؟ أوَ ليست في الهواء أرواح تنقل أنفاس محتضِر متوجّع؟ أوَ لم تكن بين النفوس أسلاك خفيّة تحمل شكوى محبّ دنف؟

أين أنتِ يا حياتي؟ لقد احتضنتني الظلمة وغلبني الأسى. ابتسمي في الهواء فأنتعش. تنفّسي في الأثير فأحيا.

أين أنتِ يا حبيبتي أين أنتِ؟

آه ما أعظم الحبّ وما أصغرني!

المجرم

على قارعة الطريق قعد شابّ مستعطيًا. فتى قويّ الجسم أضعفه الجوع فجلس في منعطف الشارع مادًّا يده نحو العابرين متسوّلًا مستغيثًا بالمحسنين، مردّدًا آيات انكساره، شاكيًا آلام جوعه.

خيّم الليل وقد يبست شفتاه وكلَّ لسانه ولم تزل يده فارغة مثل جوفه. فقام إذ ذاك وذهب إلى خارج المدينة وجلس بين الأشجار وبكى بكاء مرًّا. ثمّ رفع نحو السماء عينين يغشاهما الدمع وقال والجوع يلقنه: يا ربّ قد ذهبت إلى الموسر أطلب عملًا، فطُردت لرثاثة أثوابي، وطرقت باب المدرسة، فمُنعت لفراغ يدي، ورمت الاستخدام ولو بكفاف يومي، فأُبعدت لسوء طالعي. وأخيرًا سعيت متسوّلًا، فرآني عبادك يا ربّ وقالوا هذا قويّ نشيط والإحسان لا يجوز على ابن التواني والكسل. قد ولدتني أمي بإرادتك يا ربّ، وأنا كائن الآن بكيانك، فلماذا يمنع الناس الخبز عني وأنا طالب باسمك؟

في تلك الدقيقة تغيّرت سحنة الرجل اليائس، فانتصب وقد لمعت عيناه كالشهب ثمّ اقتضب من الأغصان اليابسة نبوتًا ضخمًا وأشار به نحو المدينة وصرخ قائلًا: طلبت الحياة بعرق الجبين فلم أجدها، فسوف

أحصل عليها بقوّة ساعدي. وسألت الخبز باسم المحبّة فلم يسمعني الإنسان، فسأطلبه باسم الشرّ وأستزيد منه...

مرّت الأيّام والشابّ يقطع الأعناق من أجل الحصول على العقود، ويهدم هياكل الأرواح إن تصدّت لمطامعه. فنمت ثروته وعمّ بطشه وصار محبوبًا من لصوص القوم ومخيفًا لعقلائهم. ثمّ انتدبه الأمير وكيلًا عنه في تلك المدينة شأن الأمراء بانتقاء ممثليهم.

كذا يبتدع الإنسان من المسكين سفّاحًا باستمساكه، ومن ابن السلام قاتلًا بقساوته.

الرفيقة

أوّل نظرة

هي الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها. هي الشعلة الأولى التي تنير خلايا النفس. هي أوّل رنّة سحريّة على أوّل وتر من قيثارة القلب البشري. هي آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس أخبار الأيّام الغابرة، وتكشف لبصرها أعمال الليالي، وتبيّن لبصيرتها أعمال الوجدان في هذا العالم، وتبيح سرّ الخلود في العالم الآتي. هي نواة تطرحها عشتروت من العلاء، فتلقيها العيون في حقل القلب، فتستنبتها العواطف ثمّ تستثمرها النفس. أوّل نظرة من الرفيقة تشابه الروح الذي كان يرفّ على وجه الغمر ومنه انبثقت السماء والأرض. أوّل نظرة من شريكة الحياة تحاكي قول الله: كنْ.

أوّل قبلة

هي الرشفة الأولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحبّ. هي الحد بين شكّ يراود القلب فيحزنه ويقين يفعمه فيُغبطه. هي مطلع قصيدة الحياة الروحيّة والفصل الأوّل من رواية الإنسان المعنوي. هي عروة توثق غرابة

الماضي ببهاء الآتي، وتجمع بين سكينة الشواعر وأغانيها. هي كلمة تقولها الشفاه الأربع معلنة صيرورة القلب عرشًا، والحبّ مليكًا، والوفاء تاجًا. هي ملامسة لطيفة تحاكي مرور أنامل النسيم على ثغر زهرة الورد حاملة معها تنهّدًا مستطيلًا لذيذًا وأنَّة خفيفة عذبة. هي بدء اهتزازات سحريّة تفصل المحبّين عن عالم المقاييس والكمية إلى عالم الوحي والأحلام. هي ضمّ زهرة الشقيق إلى زهرة الجلنار ومزج أنفاسهما لتوليد نفَس ثالث... وإذا كانت النظرة الأولى تشابه نواة ألقتها آلهة الحبّ في حقل القلب البشري، فالقبلة الأولى تحاكي أوّل زهرة في أطراف أوّل غصن في شجرة الحياة.

القران

ههنا يبتدئ الحبّ أن ينظم نثر الحياة شعرًا وينشئ من معاني العمر سُوَرًا ترتّلها الأيّام وتنغّمها اللّيالي. ههنا يزيح الشوق ستائر الأشكال عن معميات السنين الماضية ويؤلّف من نتف اللذات سعادة لا يفوقها غير سعادة النفس عندما تعانق ربّها. القران هو اتحاد ألوهيتين على إيجاد ألوهيّة ثالثة على الأرض. هو تكاتف اثنين قويّين بحبّهما لمقاومة دهر ضعيف ببغضه. هو تمازج خمرة صفراء برحيق قرمزي لتوليد شراب برتقاني يحاكي لون الشفق عند مجيء الفجر. هو تنافر روحين من التنافر واتحاد نفسين مع الاتحاد. هو حلقة ذهبيّة من سلسلة أوّلها نظرة، وآخرها اللانهاية. هو انهمال غيث نقيّ من سماء طاهرة نحو طبيعة مقدّسة لاستخراج قوى حقول مباركة... فإذا كانت النظرة الأولى من وجه المحبوبة مثل نواة ألقتها المحبّة في حقل القلب، والقبلة الأولى من شفتيها تشابه أوّل زهرة في غصن الحياة، فالقران بها يحاكي أوّل ثمرة من أوَّل زهرة من تلك النواة.

بيت السعادة

تعب قلبي في داخلي فودّعني وذهب إلى بيت السعادة، ولما بلغ ذلك الحرم الذي قدّسته النفس وقف حائرًا، لأنّه لم يرَ هناك ما طالما توهّمه. لم يرَ قوّة، ولا مـالًا، لا ولا سلطة. لم يرَ غير فتى الجمال ورفيقته ابنة المحبّة وطفلتهما الحكمة.

وخاطب قلبي ابنة المحبّة قائلًا: أين القناعة أيّتها المحبّة، فقد سمعت أنّها تشاطركم سكنى هذا المكان؟ قالت: ذهبت القناعة تكرز في المدينة حيث المطامع، فنحن لا نحتاج إليها. السعادة لا تبتغي قناعة، إنّما السعادة شوق يعانقه الوصال، والقناعة سلوّ يساوره النسيان. النفس الخالدة لا تقنع، لأنّها تروم الكمال، والكمال هو اللانهاية.

وخاطب قلبي فتى الجمال قائلًا: أرِني سرّ المرأة أيّها الجمال، وأنرْني لأنّك معرفة. فقال: هي أنت أيّها القلب البشري وكيفما كنت كانت. هي أنا وأينما حللت حلّت. هي كالدين إذا لم يحرّفه الجاهلون، وكالبدر إذا لم تحجبه الغيوم، وكالنسيم إذا لم تتعلّق بأذياله أنفاس الفساد.

واقترب قلبي من الحكمة ابنة المحبّة والجمال وقال: اعطيني حكمة أحملها إلى البشر. فأجابت: قلْ هي السعادة تبتدئ في قدس أقداس النفس ولا تأتي من الخارج.

مدينة الماضي

وقفت بي الحياة على سفح جبل الشباب وأومأت إلى الوراء. فنظرت، فإذا بمدينة غريبة الشكل والرسوم متربّعة في صدر سهول تتموّج فيها الأخيلة والأبخرة المتلوّنة متوشحة بقناع ضباب لطيف يكاد يحجبها.

قلت: ما هذه أيّتها الحياة؟ قالت: هي مدينة الماضي فتأمّل!

فتأمّلت ورأيت.

معاهد أعمال جالسة كالجبابرة تحت أجنحة النوم. مساجد أقوال تحوم حولها أرواح صارخة صراخ القنوط، مترنّمة ترنيمة الأمل. هياكل أديان أقامها اليقين ثمّ هدمها الشكّ. مآذن أفكار مرتفعة نحو العلوّ كأنّها أيدي المتسوّلين. شوارع ميول منبسطة انبساط النهر بين الرُّبَى. مخازن أسرار حرسها الكتمان فسرقتها لصوص الاستعلام. أبراج أقدام بنتها الشجاعة فثلَّتها المخاوف. صروح أحلام زينتها الليالي وخربتها اليقظة. أكواخ صغار سكنها الضعف، وجوامع وحدة قام فيها نكران الذات. نوادي معارف أنارها العقل فأظلمها الجهل. حانات محبّة سكر بها العشاق فاستهزأ بهم الخلوّ. مسارح أعمار مثّلت عليها الحياة رواياتها ثمّ جاء الموت وختم مأساته.

تلك مدينة الماضي فهي بعيدة قريبة، منظورة محجوبة.

ومشت الحياة أمامي وقالت: اتبعني فقد طال بنا الوقوف. قلت: إلى أين أيّتها الحياة؟ قالت: إلى مدينة المستقبل. قلت: رفقًا فقد نهكني المسير وكلَمتْ قدميّ الصخور وهدّت قواي العقبات. قالت: سرْ فالوقوف جبانة والنظر إلى مدينة الماضي جهالة.

اللقاء

عندما أكمل الليل تنميق ثوب السماء بجواهر النجوم تصاعدت من وادي النيل حورية محفوفة بأجنحة غير منظورة. وجلست على عرش من الغيوم مرتفع فوق بحر الروم مفضّضٍ من أشعة القمر، فمرّ من أمامها جوق أرواح سابحة في الفضاء صارخة: قدوس، قدوس، قدوس ابنة مصر، مجدها ملء كلّ الأرض.

وتصاعد من أعالي فم الميزاب المحيط بغابة الأرز طيف فتى مكتنفًا بأيدي الساروفيم وجلس على العرش بقرب الحورية فعادت الأرواح ومرّت من أمامهما هاتفة: قدوس، قدوس، قدوس فتى لبنان، مجده ملء كل الدهور.

ولما أخذ المحبّ يد حبيبته ونظر إلى عينيها حملت الرياح الأمواج هذه المناجاة إلى جميع الأقطار:

ما أكمل بهاءك يا ابنة ايسس وما أعظم حبّي لك!

ما أجملك بين الفتيان يا ابن عشتروت وما أكثر شوقي إليك!

محبّتي نظير أهرامك فلا تهدمها الأجيال يا حبيبتي.

محبّتي تحاكي أرزك فلن تغلبها العناصر يا حبيبي.

حكماء الأمم يأتون من المشرق والمغرب ليستحكموا حكمتك ويستفسروا رموزك يا حبيبتي.

عظماء الأرض يجيئون من الممالك ليسكروا من رحيق جمالك وسحر معانيك يا حبيبي.

إنّ راحتيك منبت خيرات غزيرة تملأ الأهراء يا حبيبتي.

إنّ ذراعيك منبع المياه العذبة، وأنفاسك نسيْمات منعشة يا حبيبي.

قصور النيل وهياكله تذيع مجدك وأبو الهول يحدّث بعظمتك يا حبيبتي.

الأرز على صدرك وسام شرف أثيل، والأبراج حولك تروي بطشك واقتدارك يا حبيبي.

آه ما أميلح محبتك وما أُحيلى الأمل المناط بارتقائك يا حبيبتي.

آه ما أكرمك خليلًا، وأوفاك حليلًا، وما أجمل هداياك وأنفس عطاياك!

بعثت إليّ بالفتيان فكانوا يقظة بعد نوم عميق. أتحفتني بـ«الفارس» فغلب ضعف قومي، وحبوتني بـ«الأديب» فأنهضهم وبـ«النجيب» فأثملهم...

بعثت إليك بالبذور فصيرتها أزهارًا، وبالأنصاب فجعلتها أشجارًا، فأنت حقل بكر يحيي الورد والسوسن ويرفع السرو والأرز...

أرى بعينيك حزنًا يا حبيبي، أتحزن وأنت بقربي؟

لي أبناء رحلوا إلى ما وراء البحار وخلفوني حليف بكاء وأليف شوق.

ليت لي ما يشابه حزنك وتنصرف عني مخاوفي يا حبيبي.

أتخافين يا ابنة النيل وأنت عزيزة الأمم؟

أخاف من طاغية تقترب مني بحلاوة روغها وتمتلك أعنتي بقوّة ساعديها.

إنّ حياة الأمم يا حبيبتي مثل حياة الأفراد، حياة يؤاخيها الأمل، ويقارنها الخوف، وتحفّ بها الأماني، ويرمقها القنوط.

وتعانق الحبيبان وشربا من كؤوس القبل رحيقًا عاطرًا، فمرّت أجواق الأرواح منشدة: قدوس، قدوس، قدوس، المحبّة مجدها ملء السماء والأرض.

مخبّآت الصدور

في صرح فخيم واقف تحت جنح الليل وقوف الحياة بين ستائر الموت جلست صبيّة بقرب منضدة عاجية تسند رأسها الجميل بيدها مثلما تتكئ زنبقة ذابلة على أوراقها، وتنظر إلى ما حولها نظرات سجين يائس يريد أن يخرق بعينيه جدران حبسه ليرى الحياة السائرة في موكب الحريّة.

مرّت الساعات مرور أشباح الظلمة، وتلك الصبيّة مستأنسة بدموعها، مستأمنة بانفرادها ولوعتها، حتّى إذا ما اشتدّت على قلبها وطأة عواطفها وامتلكت شواعرها خزائن أسرارها تناولت قلمًا وأخذت تمزج على صفحات الورق قطرات الحبر بدموعها وتجمع بين الكلام ومكنونات نفسها. وهاك ما كتبت:

أيّتها الأخت المحبوبة!

عندما يضيق القلب بأسراره، وتتقرّح الأجفان من حرارة دموعها، وتكاد الضلوع تتمزّق من نموّ مخبآت الصدور، لا يجد المرء غير الكلام والشكوى. فالحزين يا صديقتي يستعذب الشكوى. يجد المحبّ تعزية بالتشبّب، والمظلوم لذّة بالاسترحام... فأنا أكتب إليك الآن لأنّني أصبحت كشاعر يرى جمال الأشياء فينظم تأثيرات ذلك الجمال محكومًا

بقوّة أُلوهيّته، أو كطفل الفقير الجائع يستغيث مدفوعًا بمرارة جوعه غير راحم فاقة أمّه وانكسارها.

اسمعي قصّتي الموجعة يا أختي وابكي من أجلي، لأن الإحسان كالصلاة، ودموع الشفقة كالإحسان لا تذهب سدى، لأنّها متصاعدة من أعماق نفس حيّة شاعرة... شاء والدي وجمع بالقران بيني وبين رجل شريف غنيّ شأن كلّ والد غنيّ شريف يروم تعزيز المال بالمال مخافة الفقر وضمّ الشرف إلى الشرف هربًا من ذلّ الأيّام.

فكنت مع عواطفي وأحلامي ضحيّة على مذبح ذهب أحتقره وشرف موروث أكرهه، وفريسة ترتعد بين أظافر المادّة التي إذا لم تكن خادمة مطيعة للروح كانت أقسى من الموت وأمرّ من الهاوية. أنا أعتبر بعلي، لأنّه كريم الخلق، شريف القلب، يجهد النفس في سبيل سعادتي، ويبذل المال لرضاي، ولكنّني وجدت تأثير هذه الأشياء كلّها لا يساوي دقيقة محبّة حقيقيّة مقدّسة، تلك المحبّة التي تستصغر كلّ شيء وتبقى عظيمة...

لا تسخري منّي يا رفيقتي، فأنا الآن أعلم الناس بحاجات قلب المرأة، هذا القلب الخفوق، هذا الطائر السابح في فضاء المحبّة، هذا الإناء الطافح من خمرة الدهور المعدَّةِ لمراشف الأرواح، هذا الكتاب المطبوعة فيه فصول السعادة والشقاء، واللذة والألم، والمسرّة والأحزان، فلا يقرأه إلّا الرفيق الحقيقي نصف المرأة المخلوق لها منذ الأزل وإلى الأبد... نعم صرت أدرى النساء بأغراض النفس وميول القلب عندما وجدت أن خيول بعلي المطهّمة ومركباته البديعة وخزائنه الطافحة وشرفه الرفيع لا تساوي نظرة واحدة من عينَيِ ذلك الفتى الفقير الذي جاء هذه الحياة من أجلي وجئت من أجله، ذلك الصابر على مضض البلوى وذلّ التفريق، ذلك المظلوم عفوًا بإرادة والدي، والمسجون بلا إثم في ظلمة

العمر.. إيّاك يا صديقتي محاولة تعزيتي، لأن لي من مصائبي معزيًا، هو إدراكي قوّة حبّي، ومعرفتي شرف شوقي وحنيني، فأنا أنظر الآن من وراء الدموع فأرى المنيّة تقترب مني يومًا فيومًا لتقودني إلى حيث أنتظر رفيق نفسي وألتقي به وأعانقه عناقًا طويلًا مقدّسًا. ولا تلوميني، فأنا قائمة بواجبات الزوجة الأمينة خاضعة لأحكام الشرائع البشريّة بتجلّد وهدوء، أكرم بعلي بعاقلتي، وأعتبره بقلبي، وأجلّه بنفسي، ولا يمكنني أن أهبه كليتي، لأن الله أعطاها لحبيبي قبل معرفتي حبيبي. شاءت السماء لحكمة خفيَّة أن أصرف العمر مع رجل خلقت لغيره فأنا أُنفق هذا العمر حسب مشيئة السماء بسكينة، ولكن إذا ما انفتحت أبواب الأبديّة التحمتُ بنصف نفسي الجميل ونظرت إلى الماضي، وذاك الماضي هو هذا الآن، نظرة الربيع إلى الشتاء. وتأمّلت حياتي هذه مثلما يتأمّل العقبات مَن بلغ قمّة الجبل.

هنا وقفت تلك الصبيّة عن الكتابة، وحجبت وجهها بيديها، وبكت بكاء مرًّا، كأنّ نفسها الكبيرة أبت أن تسلم أقدس أسرارها إلى الورق، فأعطتها لدموع سخيّة تجفّ بسرعة وتمتزج بالأثير اللطيف موطن أنفاس المحبّين وأرواح الأزهار. وبعد هنيهة أخذت القلم وكتبت: هل تذكرين يا صديقتي ذلك الفتى؟ هل تذكرين تلك الأشعّة المنبعثة من عينيه وتلك الأحزان المرسومة على جبينه، هل تذكرين ابتسامه المشابه دموع الثكلى؟ هل تذكرين صوته المحاكي صدى الوادي البعيد؟ هل تذكرينه إذ كان يتأمّل الأشياء بنظرات طويلة هادئة، ثمّ يتكلّم عنها بغرابة، ثمّ يحني رأسه ويتنهّد كأنّه يخاف أن يشفّ حديثه عن خفايا قلبه الكبير؟ وهل تذكرين أحلامه وعقائده؟ هل تذكرين كلّ هذه الأشياء في فتى يحسبه البشر من البشر ويحتقره والدي لأنه أسمى من المطامع الترابيّة وأشرف من أن يرث الشرف عن الجدود؟ إي يا أختي أنت تعلمين

أنّني شهيدة صغائر هذا العالم وضحيّة الغباوة وترحمين أُختًا ساهرة في سكينة الليل المخيف لتكشف لك ستائر صدرها عن أسرار قلبها. أنت ترحمين لأنّ الحبّ قد زار قلبك.

جاء الصباح فقامت تلك الصبيّة واستسلمت للكرى علّها تجد فيه أحلامًا ألطف من أحلام اليقظة...

القوّة العمياء

جاء الربيع وتكلّمت الطبيعة بألسنة السواقي ففرّحت القلب. وابتسمت بشفاه الأزهار فأسعدت النفس. ثمّ غضبت ودكّت المدينة الجميلة فأنست الإنسان عذوبة كلماتها ورقّة ابتساماتها. قوّة عمياء مخيفة نقضت بساعة ما أقامته الأجيال. موت ظلوم قبض بأظافره المحدّدة على الأعناق فسحقها بقساوة. نار آكلة التهمت الأرزاق والأعمار. ليل قاتم أخفى جمال الحياة تحت لحف الرماد. عناصر هائلة هبّت من مرابضها وقاتلت الإنسان الضعيف وخرّبت مساكنه وذرّت بسرعة ما جمعه بالتأنّي. زلزال عنيف حبلت به الأرض فتمخّضت متوجّعة ولم تلد غير الخراب والشقاء.

جرى كلّ ذلك والنفس الحزينة ناظرة من بعيد تتأمّل وتتألّم. تتأمّل بمقدرة الإنسان المحدودة تجاه القوى غير العاقلة، وتتألّم مع المصابين الهاربين من النار والدمار. تتأمّل بأعداء ابن آدم الكامنة له تحت أطباق الثرى وبين دقائق الأثير، وتتألّم مع الوالدات النائحات والأطفال الجائعين. تتأمّل بقساوة المادة واستصغارها الحياة العزيزة، وتتألّم مع الذين رقدوا بالأمس مستأمنين في منازلهم فأصبحوا اليوم واقفين عن بُعد يرثون المدينة الجميلة بغصّات مؤلمة وعبرات مرّة.

تتأمّل بكيفيّة انقلاب الأمل يأسًا، والفرح حزنًا، والراحة عذابًا، وتتألّم مع قلوب ترتعد بين مخالب اليأس والحزن والعذاب.

كذا وقفت النفس بين التأمّل والتألّم تنقاد تارة إلى الشكّ بعدالة النواميس الرابطة القوات بعضها دون الآخر، وتعود طورًا فتهمس في آذان السكينة قائلة: إن من وراء الكائنات حكمة سرمديّة تبتدع من كوارث ونوازل نراها محاسن نتائج لا نراها. فالنار والزلازل والعواصف من جسم الأرض بمكان البغض والحقد والشرّ في القلب البشري تثور وتضجّ ثمّ تخمد، ومن ثورتها وضجيجها وخمودها تبتدع الآلهة معرفة جميلة يبتاعها الإنسان بدمعه ودمه وأرزاقه.

أوقفتني الذكرى ونكبة هذه الأمّة تملأ الأسماع أنّة وعويلًا، وصوّرت أمام عينيّ كلّ ما مرّ على مسرح الأيّام الغابرة من العبر والخطوب. فرأيت الإنسان في كلّ أدواره يقيم على صدر الأرض البروج والقصور والهياكل، والأرض ترجعها إلى قلبها. رأيت الأشدّاء يشيدون المباني القويّة، والنحّاتين يختلقون من الصخور صورًا وأشباحًا، والرسّامين يزيّنون الجدران والمداخل بالنقوش والنسيج. ثمّ رأيت هذه اليابسة تفغر فاها وتبتلع بخشونة ما ألّفته الأيدي المتفنّنة والعقول الراجحة، ماحية بقساوتها ظواهر الصور والأشباح، مدمّرة بسخطها خطوط الرسوم والنقوش، دافنة بعنفها فخامة الدعائم والجدران، ممثّلة دور حسناء مستغنية عن الحلى التي يصوغها ابن آدم، مستكفية بحلل المروج الخضراء المزركشة بذهب الرمال وجواهر الحصى...

على أنّني وجدت بين هذه النكبات المخيفة والرزايا الهائلة ألوهيّة الإنسان واقفة كالجبّار تسخر بحماقة الأرض وغضب العناصر، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتّل أنشودة الخلود قائلة: لتأخذ الأرض مالها فلا نهاية لي.

منيتان

في سكينة الليل هبط الموت من لدن الله نحو المدينة النائمة واستقرّ على أعلى مئذنة فيها وخرق بعينيه النيّرتين جدران المساكن ورأى الأرواح المحمولة على أجنحة الأحلام والأجساد المحكومة بمفاعيل الكرى.

ولما توارى القمر وراء الشفق وتوشّحت المدينة بنقاب الخيال سار الموت بقدم هادئة بين المساكن حتّى بلغ صرح القويّ الغنيّ، فدخل ولم تصدّه الحواجز، ووقف بجنب سريره ثمّ لمس جبينه فانذعر من غفلته، ولما رأى خيال الموت أمامه صرخ بصوت تجسّمت فيه عوامل الحنق والخوف وقال: ابعد عني أيّها الحلم المخيف. اذهب أيّها الخيال الشرّير. كيف دخلت أيّها السارق وماذا تروم أيّها الخاطف؟ اذهب فأنا ربّ البيت. اذهب وإلا ناديت العبيد والحرّاس فيمزقونك إربًا إربًا.

حينئذ اقترب الموت، وبصوت يحاكي الرعد قال: أنا هو الموت فانتبه واعتبر! فأجاب القويّ الموسر: ماذا تريد منّي الآن وماذا تطلب؟ لماذا جئت وأنا لم أُنهِ أعمالي بعد؟ ماذا تطلب من الأقوياء نظرائي؟ إذهب إلى السقماء. اغرب عنّي ولا ترني أظافرك الجارحة وشعرك المسدول كالأفاعي. رُحْ فقد سئمت النظر إلى جناحيك الهائلين وجسدك البالي. وبعد سكينة مزعجة زاد: لا لا أيّها الموت الرؤوف، لا تحفل بما قلته،

فالخوف يوحي ما يحرمه القلب، خذ مكيالًا من ذهبي أو قبضة من أرواح عبيدي واتركني وشأني... لي، يا موت، مع الحياة حساب لم أنهه ومع الناس مال لم أستوفِه. لي بين أمواج البحر مراكب لم تصل إلى الساحل، وفي قلب الأرض غلّة لم تنبت. خذ ما شئت من هذه الأشياء واتركني. لي جوارٍ كالصباح جمالًا فاختر منهن ما تريد. اسمع أيّها الموت: لي وحيد أحبّه وهو عقدة آمالي، خذه واتركني. خذ ما تشاء. خذ كلّ شيء واتركني.

حينئذ وضع الموت يده على فم عبد الحياة الترابية وأخذ حقيقته وأعطاها للهواء.

سار الموت بين أحياء الفقراء الضعفاء حتّى بلغ بيتًا حقيرًا فدخله واقترب من سرير عليه فتى في ربيع العمر، وبعد أن تأمّل وجهه الهادئ لمس عينيه فاستيقظ، ولما رأى الموت واقفًا بجانبه جثا على ركبتيه ورفع ذراعيه نحوه وقال بصوت أودعه كلّ ما في نفسه من المحبّة والشوق: ها أنذا أيّها الموت الجميل، اقتبل نفسي يا حقيقة أحلامي وموضوع آمالي! ضمّني يا حبيب نفسي، فأنت رحوم، لا تتركني ههنا. أنت رسول الآلهة، أنت يمين الحقّ، فلا تتخلّ عني، كم طلبتك ولم أجدك، وكم ناديتك ولم تسمع. قد سمعتني الآن، فلا تقابل شغفي بالصدود. عانق نفسي يا حبيبي الموت.

وضع الموت إذ ذاك أنامله اللطيفة على شفتَيِ الفتى وأخذ حقيقته ووضعها تحت جناحيه.

ولما حلّق في الجو نظر نحو هذا العالم ونفخ في الهواء هذه الكلمات: لن يرجع إلى الأبديّة إلّا مَن جاء من الأبديّة.

على ملعب الدهر

ودقيقة تراوح بين تأثيرات الجمال وأحلام الحبّ لهي أسمى وأثمن من جيل ملأه المجد الذي يمنحه الضعيف المسكين للقويّ الطامع.

من تلك الدقيقة تنبثق ألوهيّة الإنسان، وفي ذاك الجيل تنام نومًا عميقًا مكتنفة ببراقع أحلام مزعجة. في تلك الدقيقة تتحرّر النفس من أعباء شرائع الإنسان المتباينة، وفي ذاك الجيل تحبس وراء جدران الإهمال مثقلة بقيود الظلم. تلك الدقيقة كانت مهد نشيد سليمان وموعظة الجبل وتائية الفارض، وذاك الجيل كان القوّة العمياء التي هدمت هياكل بعلبك ودكّت مباني تدمر وسحقت بروج بابل.

ويوم صرفته النفس آسفة على موت حقوق الفقير، متأوّهة على فقدان العدل، لهو أجلّ وأفضل من عمر يضيّعه الإنسان مسرورًا على مائدة الشهوات مستسلمًا لقضاء الأنانيّة. ذاك يوم يطهّر القلب بناره ويُفعمه بنوره، وذا عمر يخيّم عليه بجنحه القاتم ويلحده طيّ طبقات التراب. ذاك يوم كان يوم العبر، ويوم الجلجلة، ويوم الهجرة، وذا عمر أنفقه نيرون في سوق المظالم، ووقفه قارون على مذبح المطامع، وطمره دون جوان في قبر الجسديات.

وهذه هي الحياة، تمثّلها الليالي على ملعب الدهر نظير مأساة، وتنشدها الأيّام كأغنية، وفي النهاية تحفظها الأبديّة كجوهرة...

خليلي

لو علمت، يا خليلي الفقير، أنّ الفاقة التي تقضي عليك بالشقاء هي هي التي توحي إليك معرفة العدل وتبثّك إدراك كنه الحياة، لرضيت بقسمة الله. قلت: معرفة العدل، لأن الغنيّ مشغول عن تلك المعرفة بخزائنه. وقلت: كنه الحياة، لأن القويّ منصرف عنها إلى المجد. فافرح إذن بالعدل، لأنّك لسانه، وبالحياة، لأنّك كتابها. وابتهج، فأنت مصدر فضيلة عاضديك وعاضد فضيلة الآخذين بيدك.

ولو دريْت يا حبيبي الحزين أنّ الأرزاء التي أصبحت مغلوبها هي تلك القوّة التي تنير القلب وترفع النفس من دركات الاستهزاء إلى درجات الاعتبار لقنعت بها إرثًا، وبتأثيراتها مهذبًا، وعلمت أن الحياة سلسلة ذات حلقات آخذة بعضها برقاب البعض، وأنّ الحزن حلقة ذهبيّة تفصل بين الاستسلام لمآتي الحاضر والتعلّل ببهجة الآتي، كما يفصل الصبح بين النوم واليقظة.

خليلي، إنّ الفقر يظهر شرف النفس، والغنى يبين لؤمها، والحزن يلطف العواطف، والسرور يدملها، لأنّ الإنسان ما برح يستخدم المال والسرور توصّلًا للازدياد، مثلما يفعل باسم الكتاب شرًّا ينزه عنه الكتاب، وباسم الإنسانيّة ما تأباه الإنسانيّة.

لو باد الفقر ونأى الحزن لأصبحت النفس صحيفة خالية إلّا من أرقام تدلّ على الأنانية ومحبة الإكثار، وألفاظ مفادها الشهوات الترابيّة لأنّي نظرت فوجدت الألوهيّة، وهي الذات المعنويّة في الإنسان، لا تباع بالمال ولا تنمو بمسرّات فتيان العصر، وتأمّلت، فرأيت الغنيّ ينبذ ألوهيّته ويحرص على أمواله، وفتى العصر يغادرها ويتبع ملذاته.

إن الساعة التي تصرفها، أيّها الفقير، مع رفيقتك وصغارك بعد مجيئك من الحقل لهي رمز العائلة البشريّة المستقبلة، هي عنوان سعادة الأجيال الآتية، والحياة التي يصرفها المثري بين الخزائن لهي حياة دنيّة تحاكي حياة الدود في القبور، هي رمز الخوف.

والدموع التي تذرفها، أيّها الحزين، هي أعذب من ضحك المتناسي وأحلى من قهقهة المستهزئ. تلك دموع تغسل القلب من أدران البغض وتعلّم ذارفها كيف يشارك منكسري القلب بشواعره، هي دموع الناصري.

إنّ القوّة التي زرعتها أيّها الفقير، واستغلّها الغنيّ القويّ، سوف تعود إليك، لأنّ الأشياء ترجع إلى مصادرها بحكم الطبيعة، والأسى الذي عانيته، أيّها الحزين، ينقلب فرحًا بحكم السماء.

سوف تتعلّم الأجيال الآتية المساواة من الفقر، والمحبّة من الأحزان.

حديث الحبّ

في بيت منفرد جلس فتًى في صبح الحياة ينظر آنًا من النافذة إلى السماء المزدانة بالكواكب، وآونة إلى رسم صبيّة بين يديه. رسم تنعكس خطوطه وألوانه على وجهه، فتظهر عليه أسرار هذا العالم وخفايا الأبديّة. صورة ملامح امرأة تناجيه جاعلة عينيه آذانًا تفقه لغة الأرواح السابحة في فضاء تلك الغرفة ومبتدعة من مجموعه قلوبًا أنارها الحبّ وأفعمها الشوق.

كذا مرّت ساعة، كأنّها دقيقة أحلام مستحبّة أو عام من حياة البقاء، ثمّ وضع الفتى الرسم أمامه وأخذ قلمًا وورقة وكتب:

يا حبيبة نفسي!

إنّ الحقائق العظيمة الفائقة الطبيعة لا تنتقل من بشريّ إلى آخر بواسطة الكلام البشريّ المتعارف، لكنّها تختار السكينة سبيلًا بين النفوس. وأنا أشعر بأن سكينة هذا الليل تسعى بين نفسيْنا حاملة رسائل أرقّ من تلك التي يكتبها النسيم على وجه الماء، تالية كتاب قلبيْنا على قلبيْنا، ولكن مثلما شاء الله فجعل النفوس في أسر الأجسام شاء الحبّ فجعلني أسير الكلام... يقولون يا حبيبتي إن الحبّ ينقلب بالعباد نارًا آكلة، وأنا وجدت أنّ ساعة الفراق لم تقوَ على فصل ذاتيْنا المعنويّتين، مثلما علمت عند أوّل لقاء أن نفسي تعرفك منذ دهور، وأنّ أوّل نظرة

إليك لم تكن بالحقيقة أوّل نظرة... يا حبيبتي، إنّ تلك الساعة التي جمعت قلبيْنا المنفيّين عن العالم العلوي هي من ساعات قليلة تدعم اعتقادي بأزليّة النفس وخلودها. في مثل تلك الساعة تكشف الطبيعة القناع عن وجه عدلها المتناهي والمظنون به ظلمًا...

هل تذكرين يا حبيبتي ذاك الروض، حيث وقفنا وكلانا ناظر وجه حبيبه؟ وهل تعلمين أنّ نظراتك كانت تقول لي إنّ محبتك لي لم تنبثق من الشفقة عليّ؟ تلك النظرات التي علّمتني أن أقول لذاتي وللعالمين إنّ العطاء الذي يكون مصدره العدل لهو أعظم من الذي يبتدئ من الحسنة، وإنّ المحبّة التي تبتدعها الظروف تشابه مياه المستنقعات.

أمامي يا حبيبتي حياة أريدها أن تكون عظيمة وجميلة. حياة تؤاخي ذكر الإنسان الآتي وتستدعي اعتباره ومحبّته. حياة قد ابتدأت عندما لقيتك وأنا واثق بخلودها، لأنّي مؤمن بكونك قادرة على إظهار القوّة التي أودعني الله إيّاها متجسّمة بأقوال وأعمال كبيرة، مثلما تستنبت الشمس أزهار الحقل ذات العرف الطيّب، وكذا تظلّ محبّتي لي وللأجيال، وتبقى منزّهةً عن الأنانيّة لتعميمها، ومتعالية عن الابتذال لتخصيصها بك.

وقام الفتى ومشى بتمهّل في تلك الغرفة، ثمّ نظر من النافذة ورأى القمر قد طلع من وراء الأفق وملأ الفضاء أشعّة لطيفة، فرجع وكتب في تلك الرسالة:

سامحيني يا حبيبتي فقد ناجيتك بضمير المخاطب وأنت نصفي الجميل الذي فقدته عندما خرجنا من يد الله في آن واحد، سامحيني يا حبيبتي.

الحيوان الأبكم

وفي نظرات الحيوان الأبكم كلام تفهمه نفس الحكيم
(شاعر هندي)

في عشيّة يوم تغلّبت فيه تخيّلاتي على عاقلتي مررت بأطراف أحياء المدينة ووقفت أمام منزل مهجور تداعت أركانه وحطّت دعائمه ولم يبقَ منه سوى أثر يخبر عن هجر طويل ويدلّ على زوال محزن. فرأيت كلبًا يتوسّد الرماد وقد ملأت القروح جسمه الضعيف واستحكمت العلل بهيكله المهزول، فصار يرمق الشمس الجانحة نحو الغروب بعين وسمت عليها أشباح الذلّ وبدت فيها مظاهر القنوط واليأس، فكأنّه درى بأنّ الشمس قد أخذت تسترجع حرارة أنفاسها عن تلك البقعة المهجورة البعيدة عن الأولاد مضطهدي الحيوان الضعيف، فصار يرمقها بعين آسفة مودعة. فاقتربتُ منه على مهل وادًّا لو عرفت النطق بلسانه فأعزّيه في شدائده وأبدي له شفقة في بؤسه، ولما دنوت منه خافني وتحرّك ببقايا حياة قاربت الانحلال مستنجدًا بقوائم شلّتها العلّة وراقبها الفناء. وإذ لم يقوَ على النهوض نظر إليّ نظرة فيها مرارة استرحام وحلاوة استعطاف، نظرة فيها انعطاف وملامة، نظرة قامت مقام النطق، فكانت أفصح من لسان الإنسان وأبلغ من دموع المرأة. ولما تلاقت عيناي بعينيه الحزينتين تحرّكت عواطفي وتمايلت تأثراتي فجسمت تلك النظرات وابتدعت لها أجسادًا من كلام متعارف بين البشر. نظرات مفادها:

كفى ما بي يا هذا، وكفى ما عانيت من اضطهاد الناس، وما قاسيت من ألم الأمراض. امضِ واتركني وسكينتي أستمدّ من حرارة الشمس دقائق الحياة، فقد هربت من مظالم ابن آدم وقسوته والتجأت إلى رماد أكثر نعومة من قلبه واختبأت بين خرائب أقلّ وحشة من نفسه. اذهب عني، فما أنت إلّا من سكّان أرض ما برحت ناقصة الأحكام، خالية من العدل... أنا حيوان حقير لكنّني خدمت ابن آدم وكنت في منزله مخلصًا ووفيًّا، وفي رفقته متربّصًا وجاسوسًا. كنت شريكًا في أحزانه، ومغتبطًا في أفراحه، متذكّرًا أيّام بُعده، مرحّبًا عند مجيئه، وكنت أكتفي بفتات مائدته وأسعد بعظم جرّده بأضراسه. ولكن لما شخت وهرمت وأنشبت الأمراض في جسمي أظافرها نبذني وأبعدني عن داره وصيّرني ملعبة لصبيان الأزقّة القساة، وهدفًا لنبال العلل، ومحطًّا لرحال الأقذار. أنا، يا ابن آدم، حيوان ضعيف، لكني وجدت نسبة كائنة بيني وبين الكثيرين من إخوانك البشر الذين إذا ما ضعفت قواهم قلّ رزقهم وساء حالهم. أنا مثل جنود يحاربون عن الوطن في شبيبتهم ويستثمرون الأرض في كهولتهم، حتّى إذا ما جاء شتاء الحياة وقلّ نفعهم أبعدوهم ونسوهم. أنا مثل امرأة تجمّلت صبية لتفريح قلب الشبيبة، وسهرت زوجة في الليالي لتربية الأطفال، وتعبت امرأةً لإيجاد رجال المستقبل، ولكن لمّا شاخت وعجزت أصبحت نسيًا منسيًّا وأمرًا مكروهًا... آه ما أظلمك يا ابن آدم وما أقساك!

كانت نظرات ذلك الحيوان تتكلّم وقلبي يفهم ونفسي تراوح بين شفقتي عليه وتصوراتي بأبناء بجدتي. ولما أغمض عينيه لم أشأ إزعاجه فذهبت...

السّـلْمُ

سكنت العاصفة بعد أن لوت الأغصان وحنت الزروع، وبانت النجوم كأنّها بقايا البرق المتكسّرة على أديم السماء، وسكنت تلك الحقول كأن حرب العناصر لم تكن.

في تلك الساعة دخلت الصّبيَّة مرقدها وجثت على سريرها وبكت بكاء مرًّا، ثمّ تصاعدت زفراتها وتجسّمت أنفاسها الحارّة بهذه الكلمات: «ردّه إليّ يا ربّ، فقد جفّت دموعي وذابت حشاشتي. أرجعه أيّها الروح القاضي بحكمة تسمو عن نهَى الإنسان، فقد جفاني التجلّد وتحكّم بي الأسى. خلّصه من بين مخالب الحرب المحدّدة. أنقذه من الموت القاسي وارحمه فتًى ضعيفًا جنت عليه قوّة القويّ فسلبني إيّاه. تغلّبي أيّتها المحبّة على عدوّتك الحرب وخلّصي حبيبي فهو من أبنائك. ابتعد عنه أيّها الموت ودعْهُ يراني أو تعالَ وخذْني إليه».

في تلك الدقيقة دخل فتى تضمّ رأسه عصائب بيضاء كتبت عليها الهيجاء أحرفًا قرمزيّة واقترب من الصبيّة وحيّاها بدمعة وابتسامة ثمّ أخذ يدها ووضعها على شفتيه الملتهبتين، وبصوت تآلفت فيه عوامل الحبّ الجارح ومفاعيل اللقاء المفرح قال: «لا تجفلي فقد أتَى مَن تبكين من أجله، افرحي فقد أعاد إليك السّلْم مَن سرقته الحرب، وأرجع إليك

فتى الإنسانيّة ما سلبه ابن المطامع. كفكفي الدمع يا حبيبتي وابتسمي، لأنّ للشعوب أئمّة ترحم متى عمّت قساوة أئمّة الشعوب. لا تعجبي من إيابي حيًّا، فللحبّ وسم يراه الموت فينصرف، ويتوسّمه العدوّ فيتقهقر. أنا هو. فلا تحسبيني خيالًا جاء من مرتع المنايا ليزور مربعًا يسكنه جمالك والسكون. لا تخافي فأنا حقيقة سلمت من بين الأسنّة والنار لتخبر الناس بغلبة الحبّ على الحرب. أنا كلمة لفظها رجل السلم لتكون توطئة لرواية سعادتك».

انعقد اللسان إذ ذاك وناب الدمع عن الكلام وحامت ملائكة السرور حول ذلك الكوخ الحقير واسترجع القلبان ما فقداه عند الوداع.

ولما جاء الصباح وقف الاثنان في وسط الحقل يتأمّلان جمال الطبيعة، وبعد سكينة فيها من الأحاديث ما فيها، نظر الجنديّ نحو المشرق الأقصى وقال لحبيبته: «انظري الشمس طالعة من الظلمة».

الشاعر

حلقة تصل بين هذا العالم والآتـي. منهل عذب تستقي منه النفوس العطشى. شجرة مغروسة على ضفة نهر الجمال ذات ثمار يانعة تطلبها القلوب الجائعة. بلبل يتنقّل على أغصان الكلام ويُنشد أنغامًا تملأ خلايا الجوارح لطفًا ورقّة. غيمة بيضاء تظهر فوق خطّ الشفق ثمّ تتعاظم وتتصاعد حتّى تملأ وجه السماء وتنسكب لتروي أزهار حقل الحياة. ملك بعثته الآلهة ليعلم الناس الإلهيات. نور ساطع لا تغلبه ظلمة ولا يخفيه مكيال، ملأته زيتًا عشتروت إلهة الحبّ وأشعله أبولون إله الموسيقى.

وحيد يرتدي البساطة ويتغذّى اللطف ويجلس على أحضان الطبيعة ليتعلّم الابتداع ويسهر في سكينة الليل منتظرًا هبوط الروح. زرّاع يبذر حبّات قلبه في رياض الشواعر، فتنبت زرعًا خصيبًا تستغلّه الإنسانيّة وتتغذّى به.

هذا هو الشاعر الذي تجهله الناس في حياته وتعرفه عندما يودّع هذا العالم ويعود إلى موطنه العلوي. هذا الذي لا يطلب من البشر إلّا ابتسامة صغيرة والذي تتصاعد أنفاسه وتملأ الفضاء أشباحًا حيّة جميلة والناس تبخل عليه بالخبز والمأوى.

فإلى متى أيّها الإنسان، إلى متى أيّها الكون تقيم من الفخر بيوتًا للأُلى جبلوا أديم التراب بالدماء، وتُعرض بتهامل عن الذين يهبونك من محاسن أنفسهم سلامًا ووداعة؟ وحتّى مَ تعظم القتلة والذين حنوا الرقاب بنير الاستعباد وتتناسى رجالًا يسكبون نور الأحداق في ظلمة الليل ليعلِّموك أن ترى بهاء النهار ويصرفون العمر بين مخالب الشقاء كيلا تفوتك لذّة السعادة؟

وأنتم أيّها الشعراء، يا حياة هذه الحياة، قد تغلّبْتم على الأجيال قسرًا عن قساوة الأجيال، وفزتم بأكاليل الغار غصبًا عن أشواك الغرور، وملكتم في القلوب وليس لملككم نهاية وانقضاء، يا أيّها الشعراء.

يوم مولدي

كتبت في باريس في 6 كانون الأول سنة 1908

في مثل هذا اليوم ولدتني أمّي.

في مثل هذا اليوم منذ خمس وعشرين سنة وضعتني السكينة بين أيدي هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك.

ها قد سرت خمسًا وعشرين مرّة حول الشمس، ولا أدري كم مرّة سار القمر حولي، لكنّني لم أدرك بعد أسرار النور، ولا عرفت خفايا الظلام.

قد سرت خمسًا وعشرين مرّة مع الأرض والقمر والشمس والكواكب حول الناموس الكلّي الأعلى، ولكن هوذا نفسي تهمس الآن أسماء ذلك الناموس مثلما ترجِّع الكهوف صدى أمواج البحر، فهي كائنة بكيانه، ولا تعلم ماهيته، وتترنّم بأغاني مدّه وجزره، ولا تستطيع إدراكه.

منذ خمس وعشرين سنة خطّتني يد الزمان كلمة في كتاب هذا العالم الغريب الهائل. وها أنذا كلمة مبهمة، ملتبسة المعاني، ترمز تارة إلى لا شيء، وطورًا إلى أشياء كثيرة.

إنّ التأمّلات والأفكار والتذكارات تتزاحم على نفسي في مثل هذا اليوم من كلّ سنة، وتوقف أمامي مواكب الأيّام الغابرة، وتريني أشباح الليالي الماضية، ثمّ تبدّدها كما تبدّد الرياح بقايا الغيوم فوق خطّ

الشفق، فتضمحلّ في زوايا غرفتي اضمحلال أناشيد السواقي في الأودية البعيدة الخالية.

في مثل هذا اليوم من كلّ سنة تجيء الأرواح التي رسمت روحي متراكضة نحوي من جميع أطراف العالم، وتحيط بي مرتّلة أغاني الذكرى المحزنة، ثمّ تتراجع على مهل وتختفي وراء المرئيات، كأنّها أسراب من الطير هبطت على بيدر مهجور فلم تجد بذورًا تلتقطها فرفرفت هنيهة ثمّ طارت سابحة إلى مكان آخر.

في هذا اليوم تنتصب أمامي معاني حياتي الغابرة، كأنّها مرآة ضئيلة أنظر فيها طويلًا فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الأموات، وملامح الآمال والأحلام والأماني المتجعّدة كملامح الشيوخ. ثمّ أغمض عيني وأنظر ثانية في تلك المرآة، فلا أرى غير وجهي، ثمّ أحدق إلى وجهي فلا أرى فيه غير الكآبة، ثمّ أستنطق الكآبة فأجدها خرساء لا تتكلّم، ولو تكلّمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة.

في الخمس والعشرين سنة الغابرة قد أحببت كثيرًا. وكثيرًا ما أحببت ما يكرهه الناس وكرهت ما يستحسنونه. والذي أحببته عندما كنت صبيًّا ما زلت أحبّه الآن. والذي أُحبّه الآن سأُحبّه إلى نهاية الحياة. فالمحبّة هي كلّ ما أستطيع أن أحصل عليه ولا يقدر أحد أن يفقدني إيّاه.

قد أحببت الموت مرّات عديدة، فدعوته بأسماء عذبة وتشبّبت به سرًّا وعلنًا. ولئن لم أسلُ الموت ولا نقضت له عهدًا، فإنّني صرت أحبّ الحياة أيضًا. فالموت والحياة قد تساويا عندي بالجمال، وتضارعا باللذة، وتشاركا بإنماء شوقي وحنيني، وتساهما محبّتي وانعطافي.

وقد أحببت الحريّة فكانت محبّتي تنمو بنموّ معرفتي عبودية الناس للجور والهوان، وتتّسع باتّساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة، ونصبتها الجهالة المستمرّة، ونعمت

جوانبها ملامس شفاه العبيد، لكنّني كنت أحبّ هؤلاء العبيد بمحبّتي الحريّة، وأُشفق عليهم، لأنّهم عميان يقبّلون أحناك الضواري الدامية ولا يبصرون، ويمتصّون لهاث الأفاعي الخبيثة ولا يشعرون، ويحفرون قبورهم بأظافرهم ولا يعلمون. قد أحببت الحرية أكثر من كلّ شيء لأنّني وجدتها فتاة قد أضناها الانفراد، وأنحلها الاعتزال، حتّى صارت خيالًا شفّافًا يمرّ بين المنازل، ويقف في منعطفات الشوارع، وينادي عابري الطريق فلا يسمعون ولا يلتفتون.

وفي الخمس والعشرين سنة قد أحببت السعادة مثل جميع البشر، فكنت أستيقظ كلّ يوم وأطلبها كما يطلبونها، لكنّني لم أجدها قطّ في سبيلهم، ولا رأيت أثر أقدامها على الرمال المحيطة بقصورهم، ولا سمعت صدى صوتها خارجًا من نوافذ هياكلهم. ولمّا انفردت بطلبها سمعت نفسي تهمس في أذني قائلة: السعادة صبيّة تولد وتحيا في أعماق القلب ولن تجيء إليه من محيطه. ولما فتحت قلبي لكي أرى السعادة وجدت هناك مرآتها وسريرها وملابسها، لكنّني لم أجدها.

وقد أحببت الناس، أحببتهم كثيرًا، والناس في شرعي ثلاثة: واحد يلعن الحياة، وواحد يباركها، وواحد يتأمّل بها. فقد أحببت الأوّل لتعاسته، والثاني لسماحته، والثالث لمداركه.

هكذا انقضت الخمس والعشرون سنة. وهكذا ذهبت أيّامي ولياليّ متسارعة، متتابعة، متساقطة من حياتي مثلما تتناثر أوراق الشجر أمام رياح الخريف.

واليوم، وقد وقفت متذكّرًا، وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة، أنظر إلى كلّ ناحية فلا أرى لماضي حياتي أثرًا أستطيع أن أومئ إليه أمام وجه الشمس قائلًا: هذا لي. ولا أجد لفصول أعوامي غلّة سوى أوراق مخضّبة بقطرات الحبر السوداء، ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة خطوطًا

وألوانًا متباينة متناسقة. في هذه الأوراق المنثورة، والرسوم المبعثرة، قد كفنت عواطفي وأفكاري وأحلامي ودفنتها، مثلما يدفن الزرّاع البذور في بطن الأرض، ولكن الزرّاع الذي يخرج إلى الحقل ويلقي البذور بين ثنايا التراب يعود إلى بيته في المساء آملًا راجيًا منتظرًا أيّام الحصاد والاستغلال، أمّا أنا فقد طرحت حبّات قلبي بلا أمل، ولا رجاء، ولا انتظار.

والآن وقد بلغت هذه المرحلة من العمر، فتراءى لي الماضي من وراء ضباب التنهّد والأسى، وبان لناظري المستقبل من وراء نقاب الماضي، أقف وأنظر إلى الوجود من خلال بلور نافذتي، وأرى وجوه الناس وأسمع أصواتهم متصاعدة إلى الفضاء، وأعي وقع أقدامهم بين المنازل وأشعر بملامس أرواحهم وتموّجات ميولهم ونبضات قلوبهم. أنظر، فأرى الأطفال يلعبون ويتراكضون ويذرون التراب بعضهم في وجوه بعض ضاحكين مقهقهين، وأرى الفتيان يسيرون بعزم رافعين رؤوسهم كأنّهم يقرأون قصيدة الشباب مكتوبة بين حواشي الغيوم المبطّنة بأشعة الشمس، وأرى الصبايا يخطرن ويتثنين كالأغصان ويتبسّمن كالأزهار وينظرن إلى الفتيان من وراء جفون ترتعش بالميل والانعطاف، وأرى الشيوخ يمشون على مهل محدودبي الظهور، متوكّئين على العصيّ، محدقين إلى الأرض، كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر أضاعوها. أقف بجانب نافذتي وأنظر متأمّلًا بجميع هذه الصور والأشباح الساكنة بمسيرها، المتطايرة بدبيبها في شوارع المدينة وأزقّتها، ثمّ أنظر متأمّلًا بما وراء المدينة، فأرى البرّيّة بكلّ ما فيها من الجمال الرهيب، والسكينة المتكلّمة، والتلول الباسقة، والأودية المنخفضة، والأشجار النامية، والأعشاب المتمايلة، والأزهار المعطّرة، والأنهار المترنّمة، والأطيار المغرّدة، ثمّ أنظر إلى ما وراء البرّيّة، فأرى البحر بكلّ ما في أعماقه من الغرائب والعجائب، والمدافن والأسرار، وما على سطحه من

الأمواج المزبدة، الغضوب، المتسارعة، المتهاونة، والأبخرة المتصاعدة، المتبدّدة، المتساقطة، ثمّ أنظر متأمّلًا بما وراء البحر، فأرى الفضاء غير المتناهي بكلّ ما فيه من العوالم السابحة، والكواكب اللامعة، والشموس والأقمار والسيارات والثوابت، وما بينها من الدوافع والجواذب المتسالمة المتنازعة، المتولّدة، المتحوّلة، المتماسكة بناموس لا حدّ له ولا مدى، الخاضعة لشرع كلّي ليس لبدئه ابتداء ولا لنهايته نهاية. أنظر وأتأمّل بجميع هذه الأشياء من خلال بلّور نافذتي فأنسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الأجيال وما سيأتي بعدها من القرون، ويظهر لي كياني ومحيطي بكلّ ما أخفاه وأعلنه كذرة من تنهّدة طفل ترتجف في خلاء أزليّ الأعماق، سرمديّ العلو، أبديّ الحدود. لكنّني أشعر بكيان هذه الذرة، هذه النفس، هذه الذات التي أدعوها أنا. أشعر بحراكها، وأسمع ضجيجها. فهي ترفع الآن أجنحتها نحو العلاء وتمتدّ يداها إلى كلّ ناحية، وتتمايل مرتعشة في مثل اليوم الذي أبانها للوجود، وبصوت متصاعد من قدس أقداسها تصرخ قائلة: سلام أيّتها الحياة. سلام أيّتها اليقظة. سلام أيّتها الرؤيا. سلام أيّها النهار الغامر بنورك ظلمة الأرض. وسلام أيّها اللّيل المظهر بظلمتك أنوار السماء. سلام أيّتها الفصول. سلام أيّها الربيع المعيد شبيبة الأرض. سلام أيّها الصيف المذيع مجد الشمس. سلام أيّها الخريف الواهب ثمار الأتعاب وغلّة الأعمال. سلام أيّها الشتاء المرجع بثوراتك عزم الطبيعة. سلام أيّتها الأعوام الناشرة ما أخفته الأعوام. سلام أيّتها الأجيال المصلحة ما أفسدته الأجيال. سلام أيّها الزمن السائر بنا نحو الكمال. سلام أيّها الروح الضابط أعنّة الحياة، المحجوب عنّا بنقاب الشمس. وسلام لك أيّها القلب، لأنّك لا تستطيع أن تهزأ بالسلام وأنت مغمور بالدموع. وسلام لك أيّتها الشفاه، لأنّك تتلفّظين بالسلام وأنت تذوقين طعم المرارة.

الطّفل يسوع
والحبّ الطّفل

كنت بالأمس وحيدًا في هذا العالم يا حبيبتي، وكانت الوحدة قاسية كالموت. وكنت منفردًا كالزهرة النابتة في ظلّ الصخور المتعالية فلا تشعر الحياة بوجودي، ولا أنا أشعر بكيان الحياة. واليوم قد استيقظت نفسي ورأتك منتصبة بقربها، فتهيّبت وتهلّلت، ثمّ سجدت أمامك، مثلما فعل ذلك الراعي عندما رأى العلّيقة مشتعلة.

كانت بالأمس ملامس الهواء خشنة يا حبيبتي، وأشعّة الشمس ضعيفة، وكان الضباب يستر وجه الأرض وضجيج أمواج البحر يشابه الرعود القاصفة. وكنت أتلفّت إلى كلّ ناحية فلا أرى غير ذاتي المتوجّعة واقفة بجانبي وخيالات الظلمة تهبط وتتصاعد حولي كالغربان الجائعة. واليوم قد خفّ الهواء، وغمر النور الطبيعة، وسكنت الأمواج وانقشعت الغيوم، فكيفما نظرت أراك وأرى أسرار الحياة محيطة بك كالهالات التي يحدثها جسم العصفور على وجه البحيرة الهادئة عندما يتحمّم بمائها الهادئ.

كنت بالأمس كلمة صامتة في خاطر الليالي، فأصبحت أغنية مفرحة على ألسن الأيّام، وقد تمّ هذا كلّه في دقيقة واحدة مؤلّفة من نظرة وكلمة وتنهّدة وقبلة. تلك الدقيقة يا حبيبتي قد جمعت بين استعدادات نفسي الغابرة وأمانيها الآتية، فكانت كالوردة البيضاء

الخارجة من قلب الأرض المظلم إلى نور النهار. تلك الدقيقة هي من كلّ حياتي بمنزلة ميلاد يسوع من كلّ الأجيال، لأنّها كانت مملوءة روحًا وطهرًا ومحبّة، لأنّها جعلت الظلمة في أعماقي شعاعًا، والكآبة مرحًا، والشقاء سعادة.

إن شعلات المحبّة يا حبيبتي تهبط من السماء متموّجة بصور متباينة وأشكال متنوّعة، لكن فعلها وتأثيرها في هذا العالم هو واحد: فالشعلة الصغيرة التي تنير خلايا قلب الإنسان الفرد هي كالشعلة العظيمة المشعشعة التي تنحدر من الأعالي وتنير ظلمات الأمم جميعها لأن في النفس الواحدة عناصر وميولًا وعواطف لا تختلف البتّة عن العناصر والميول والعواطف الكائنة في نفس العائلة البشريّة.

كان اليهود يا حبيبتي يترقّبون مجيء عظيم موعود به منذ ابتداء الدهر ليخلّصهم من عبوديّة الأمم، وكانت النفس الكبيرة في اليونان ترى أن عبادة المشتري ومينرفا قد ضعفت، فلم تعد الأرواح تشبع من الروحيّات، وكان الفكر السامي في رومة يتأمّل فيجد أن أُلوهيّة أبولون أصبحت تتباعد عن العواطف، وجمال فينيس الأبدي قد أخذ يقترب من الشيخوخة، وكانت الأمم كلّها تشعر على غير معرفة منها بمجاعة نفسيّة إلى تعاليم مترفّعة عن المادّة وبميل عميق إلى الحرّيّة الروحيّة التي تعلّم الإنسان أن يفرح مع قريبه بنور الشمس وجمال الحياة. تلك هي الحرّيّة الجميلة التي تخوّل الإنسان أن يقترب من القوّة غير المنظورة بلا خوف ولا وجل بعد أن يقنع الناس طرًّا بأنّه يقترب منهم من أجل سعادتهم.

كان ذلك كلّه من أَلفي سنة يا حبيبتي، عندما كانت عواطف القلب البشري تحوم مرفرفة حول المرئيات وتخشى الدنّو من الروح الكلّي الخالد، عندما كان «بان» إله الأحراج يملأ نفوس الرعاة جزعًا، وبعل إله الشمس يضغط بأيدي كهّانه على قلوب المساكين والضعفاء.

ففي ليلة واحدة، بل في ساعة واحدة، بل في لمحة واحدة تنفرد عن الأجيال، لأنّها أقوى من الأجيال، انفتحت شفاه الروح ولفظت «كلمة الحياة» التي كانت في البدء عند الروح، فنزلت مع نور الكواكب وأشعّة القمر وتجسّدت وصارت طفلًا بين ذراعَيْ ابنة من البشر، في مكان حقير، حيث يحمي الرعاة مواشيهم من كواسر الليل... ذلك الطفل النائم على القشّ اليابس في مذود البقر – ذلك الملك الجالس فوق عرش مصنوع من القلوب المثقلة بنير العبوديّة، والنفوس الجائعة إلى الروح، والأفكار التائقة إلى الحكمة – ذلك الرضيع الملتفّ بأثواب أمّه الفقيرة قد انتزع بلطفه صولجان القوّة من المشتري وأسلمه للراعي المسكين المتكئ على الأعشاب بين أغنامه، وأخذ الحكمة من مينرفا برقّته ووضعها على لسان الصيّاد الفقير الجالس في زورقه على شاطئ البحيرة، واستخلص الغبطة بحزن نفسه من أبولون ووهبها لكسير القلب الواقف مستعطيًا أمام الأبواب، وسكب الجمال بجماله من فينيس وبثّه في روح المرأة الساقطة الخائفة من قساوة المضطهدين، وأنزل البعل عن كرسي جبروته وأقام مكانه الفلاح البائس الذي ينثر في الحقل البذور مع عرق الجبين.

***

أوَلم تكن عواطفي بالأمس كأسباط إسرائيل يا حبيبتي؟ أما ترقّبت في سكينة الليل مجيء مخلّص ينقذني من عبوديّة الأيّام ومتاعبها؟ أما شعرت كالأمم الغابرة بالمجاعة الروحيّة العميقة؟ أما سرت على طرق الحياة مثل صبيّ ضائع بين الأحياء المهجورة؟ أوَلم تكن نفسي كالنواة المطروحة على الصخرة: لا الطير يلتقطها فيُميتها، ولا العناصر تشقّها فتحييها؟ قد كان ذلك كلّه بالأمس يا حبيبتي عندما كانت أحلامي تدبّ في جوانب الظلمة وتخاف الاقتراب من النور – عندما كان اليأس يلوي أضلعي والضجر يقوّمها. ففي ليلة واحدة، بل في ساعة واحدة، بل في

لمحة واحدة تتنحّى عن سني حياتي، لأنّها أجمل من سني حياتي، هبط الروح من وسط دائرة النور الأعلى، ونظر إليّ من وراء عينيك، وتكلّم معي بلسانك، ومن تلك النظرة وهاتيك الكلمة انبثق الحبّ وحلّ في أعشار قلبي... هذا الحبّ العظيم الجالس في هذا المذود المنزوي في صدري – هذا الحبّ الجميل الملتفّ بأقمطة العواطف – هذا الرضيع اللطيف المتكئ على صدر النفس قد جعل الأحزان في باطني مسرّة واليأس مجدًا والوحدة نعيمًا. هذا الملك المتعالي فوق عرش الذات المعنويّة قد أعاد بصوته الحياة لأيّامي الميتة، وأرجع بملامسه النور إلى أجفاني المقرحة بالدموع، وانتشل بيمينه آمالي من لجّة القنوط.

***

كان كلّ الزمن ليلًا يا حبيبتي، فصار فجرًا، وسيصير نهارًا، لأنّ أنفاس الطفل يسوع قد تخلّلت دقائق الفضاء ومازجت ثانويات الأثير. وكانت حياتي حزنًا، فصارت فرحًا، وستصير غبطة، لأنّ ذراعَيِ الطفل قد ضمّتا قلبي وعانقتا نفسي.

مناجاة أرواح

استيقظي يا حبيبتي! استيقظي لأنّ روحي تناديك من وراء البحار الهائلة، ونفسي تمدّ جناحيها نحوك فوق الأمواج المزبدة الغضوب. استيقظي، فقد سكنت الحركة وأوقف الهدوء ضجّة سنابك الخيل ووقع أقدام العابرين. وعانق النوم أرواح البشر، فبقيت وحدي مستيقظًا، لأنّ الشوق ينتشلني كلّما أغرقني النعاس، والمحبّة تدنيني إليك عندما تُقصيني الهواجس. قد تركت مضجعي يا حبيبتي خوفًا من أخيلة السلو المختبئة بين طيات اللُّحف، ورميت بالكتاب لأن تأوّهي قد أباد السطور من صفحاته فأصبحت خالية بيضاء أمام عينيّ. استيقظي! استيقظي يا حبيبتي واسمعيني.

– ها أنذا يا حبيبي! قد سمعت نداءك من وراء البحار وشعرت بملامس جناحيك، فانتبهت وتركت مخدعي وسرت على الأعشاب فتبلّلت قدماي وأطراف ثوبي من ندى الليل. ها أنا واقفة تحت أغصان اللوز المزهرة أسمع نداء نفسك يا حبيبي!

– تكلّمي يا حبيبتي! ودعي أنفاسك تسيل مع الهواء القادم نحوي من أودية لبنان. تكلّمي، فلا سامع غيري، لأن الظلمة قد دحرت

جميع المخلوقات إلى أوكارها، والنّعاس أسكر سكّان المدينة وبقيت وحدي صاحيًا.

– قد نسجت السماء نقابًا من أشعة القمر وألقته على جسد لبنان يا حبيبي!

– قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداء كثيفًا مبطّنًا بدخان المعامل وأنفاس الموت وسترت به أضلع المدينة يا حبيبتي!

***

– قد رقد سكّان القرى في أكواخهم القائمة بين أشجار الجوز والصفصاف وتسابقت نفوسهم نحو مسارح الأحلام يا حبيبي!

– قد أناخت أحمال الذهب قامات البشر، وأوهنت عقبات المطامع ركبهم، وأثقلت المتاعب أجفانهم، فارتموا على الفرش وأشباح الخوف والقنوط تعذّب قلوبهم يا حبيبتي.

***

– قد سَرَت في الأودية أخيلة الأجيال الغابرة، وحامت على الروابي أرواح الملوك والأنبياء، فانثنت فكرتي نحو مسارح الذكرى وأرتْني عظائم الكلدانيّين وفخامة الآشوريّين ونبالة العرب.

– قد سَرَت في الأزقّة أرواح اللصوص القاتمة، وظهرت من بين شقوق النوافذ رؤوس أفاعي الشهوات، وجرت في منعطفات الشوارع أنفاس الأمراض ممزوجة بلهاث المنايا، فأزاحت الذكرى ستائر النسيان وأرَتْني مكاره صادوم وآثام عامورة.

***

– قد تمايلت الأغصان يا حبيبي وتحالف حفيفها مع خرير ساقية الوادي وردّدت على مسامعي نشيد سليمان ورنّات قيثارة داود وأغاني الموصلي.

– قد ارتعشت نفوس أطفال الحيّ وأقلقهم الجوع، وتسارعت تنهّدات الأمّهات المضطجعات على أسرّة الهمّ واليأس، وراعت أحلام العوز قلوب الرجال المقعدين، فسمعت نواحًا مرًّا وزفيرًا متقطّعًا يملأ الضلوع ندبًا ورثاء.

– قد فاحت روائح النرجس والزنبق وعانقت عطر الياسمين والبيلسان ثمّ تمازجت بأنفاس الأرز الطيبة وسرت مع تموّجات النسيم فوق الطلول المتشعّبة والممرّات الملتوية، فملأت النفس انعطافًا ومنحتها حنينًا إلى الطيران.

– قد تصاعدت روائح الأزقّة الكريهة واختمرت بجراثيم العلل، ومثل أسهم دقيقة خافية قد خدشت الحسّ وسمّمت الهواء.

***

– ها قد جاء الصباح يا حبيبي وداعبت أصابع اليقظة أجفان النيام وفاضت الأشعة البنفسجية من وراء الليل وأزالت غشاء الليل عن عزم الحياة ومجدها، فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كتفَيِ الوادي وترنّمت أجراس الكنائس وملأت الأثير نداء مستحبًّا معلنة بدء صلاة الصباح، فأرجعت الكهوف صدى رنينها، كأنّ الطبيعة بأسرها قامت مصلّية. قد غادرت العجول مرابضها وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرها وانثنت نحو الحقول ترتعي رؤوس الأعشاب المتلمّعة بقطر الندى، ومشى أمامها الرعاة ينفخون الشبابات ووراءها الصبايا المتأهّلات مع العصافير بقدوم الصباح.

– قد جاء الصباح يا حبيبتي وانبسطت فوق المنازل المكردسة أكفّ النهار الثقيلة، فأُزيحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع

الأبواب، فبانت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة، وذهب التعساء إلى المعامل وداخل أجسادهم يقطن الموت في جوار الحياة. وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف، كأنّهم منقادون قهرًا إلى عراك هائل مهلك. ها قد غصّت الشوارع بالمسرعين الطامعين، وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوي الدواليب وعويل البخار، وأصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيها القوي الضعيف ويستأثر الغني الظلوم بأتعاب الفقير المسكين.

– ما أجمل الحياة ههنا يا حبيبي، فهي مثل قلب الشاعر المملوء نورًا ورقّة.

– ما أقسى الحياة ههنا يا حبيبتي، فهي مثل قلب المجرم المفعم بالإثم والمخاوف.

أيّتها الريح

تمرّين آنًا مترنّحة فرحة، وآونة متأوّهة نادبة، فنسمعك ولا نشاهدك، ونشعر بك ولا نـراك، فكأنّك بحر من الحبّ يغمر أرواحنا ولا يغرقها، ويتلاعب بأفئدتنا وهي ساكنة.

تتصاعدين مع الروابي وتنخفضين مع الأوديـة وتنبسطين مع السهول والمروج. ففي تصاعدك عزم، وفي انخفاضك رقّة، وفي انبساطك رشاقة، فكأنّك مليك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ويترفّع مع الأقوياء المتشامخين.

في الخريف تنوحين في الأوديـة فتبكي لنواحك الأشجار، وفي الشتاء تثورين بشدّة فتثور معك الطبيعة بأسرها، وفي الربيع تعتلّين وتضعفين ولضعفك تستفيق الحقول، وفي الصيف تتوارين وراء نقاب السكون فنخالك ميتًا قتلته سهام الشمس ثمّ كفنته بحرارتها.

لكن، أنادبة كنت أيّام الخريف، أم ضاحكة من خجل الأشجار بعد أن عرّيتها من ملابسها؟ أغاضبة كنت أيّام الشتاء، أم راقصة حول قبور الليالي المكلّسة بالثلوج؟ أعليلة كنت أيّام الربيع، أم حبيبة أضناها البعاد فجاءت تصعِّد بالتنهّد أنفاسها على وجه حبيبها شابِّ الفصول

لتنبّهه من رقاده؟ أميتةً كنت أيّام الصيف، أم هاجعة في قلوب الأثمار وبين جفنات الكروم وعلى بيادر القش؟

أنت تحملين من أزقّة المدينة أنفاس العلل ومن الروابي أرواح الأزهار. وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التي تحتمل أوجاع الحياة بسكينة، وبسكينة تلتقي بأفراحها.

أنت تهمسين في أُذن الوردة أسرارًا غريبة تفهم مفادها، فتضطرب تارةً، وطورًا تبتسم. وهكذا تفعل الآلهة بأرواح البشر.

أنتِ تبطئين هنا، وتتسارعين هناك، وتتراكضين هنالك، ولكنّك لا تقفين أبدًا. وهكذا تفعل فكرة الإنسان التي تحيا بالحركة وتموت بالسبات.

أنت تكتبين على وجه البحيرة أشعارًا ثمّ تمحينها. وهكذا يفعل الشعراء المتردّدون.

من الجنوب تجيئين حارّة كالمحبّة، ومن الشمال تأتين باردة كالموت، ومن المشرق لطيفة كملامس الأرواح، ومن المغرب تتدفّقين شديدة كالبغضاء. أمتقلّبة أنت كالدهر؟ أم أنت رسول الجهات تبلغين إلينا ما تأتمنك عليه؟

تمرّين غاضبة في الصحاري فتدوسين القوافل بقساوة ثمّ تلحدينها بلحف الرمال. فهل أنت أنت ذلك السيال الخفي، المتموّج مع أشعة الفجر بين أوراق الغصون، المنسل كالأحلام في منعطفات الأودية حيث تتمايل الأزهار شغفًا بك وتتخاصر الأعشاب سكرًا من أنفاسك؟

تثورين ظلمًا في البحار فتحرّكين ساكن أعماقها، حتّى إذا أزبدت حنقًا عليك فتحت فاها لجّة ولقمتها من السفن والأرواح لقمًا مرّة. فهل أنت أنت ذلك المحبّ المتلاعب حنوًّا بغدائر الأطفال المتراكضين حول المنازل؟

***

إلى أين تتسارعين بأرواحنا وتنهداتنا وأنفاسنا؟ إلى أين تحملين رسوم ابتساماتنا؟ وماذا تفعلين بشعلات قلوبنا المتطايرة؟ هل تذهبين بها إلى ما وراء الشفق، إلى ما وراء هذه الحياة؟ أم تجرّينها فريسة إلى المغاور البعيدة والكهوف المخيفة وهناك تقذفينها يمينًا وشمالًا حتّى تضمحلّ وتختفي؟

في سكينة الليل تبيح لك القلوب أسرارها، وعند الفجر تحملك العيون اهتزازات أجفانها. فهل أنت ذاكرة ما شعرت به القلوب وما رأته العيون؟

بين جنحيك يستودع الفقير صدى انسحاقه، واليتيم حرقته، والحزينة تأوّهاتها، وطيّ أثوابك يضع الغريب حنينه، والمتروك لهفته، والساقطة عويل نفسها. فهل أنت حافظة لهؤلاء الصغار ودائعهم؟ أم أنت كهذه الأرض لا نودعها شيئًا إلّا وتحوّله إلى جسمها؟

أسامعة أنت هذا النداء، وهذا العويل، وهذا الضجيج، وهذا البكاء؟ أم أنت كالأقوياء من البشر تمتد إليهم الأكّف فلا يلتفتون، وتتصاعد نحوهم الأصوات فلا يسمعون؟

أسامعةٌ أنت يا حياة للسامع؟

رجوع الحبيب

ما جاء الليل حتّى انهزم الأعداء وفي ظهورهم تخديش السيوف ووخز الرماح، فعاد الظافرون حاملين ألوية الفخر، منشدين أهازيج النصر على توقيع حوافر خيولهم المتساقطة كالمطارق على حصباء الوادي.

أشرفوا على الجبهة وقد طلع القمر من وراء فم الميزاب، فظهرت تلك الصخور الباسقة متشامخة مع نفوس القوم نحو العلاء وبانت غابة الأرز بين تلك البطاح. كأنّها وسام مجد أثيل علقته الأجيال الغابرة على صدر لبنان.

ظلّوا سائرين وأشعّة القمر تتلمّع على أسلحتهم، والكهوف البعيدة تتقلّد تهاليلهم، حتّى إذا ما بلغوا جبهة العقبة أوقفهم صهيل فرس واقف بين الصخور الرماديّة كأنّه قُدّ منها. فاقتربوا منه مستطلعين، وإذا بجثّة هامدة مرتمية على أديم التراب المجبول بنجيع الدماء، فصرخ زعيم القوم قائلًا: أروني سيف الرجل فأعرف صاحبه. فترجّل بعض الفرسان وأحاطوا بالمصروع مستفسرين. وبعد هنيهة التفت أحدهم نحو الزعيم وقال بصوت أجشّ: قد عانقت أصابعه الباردة قبضة السيف بشدّة، فمن العار أن ننزعه.

وقال آخر: قد لبس السيف غمدًا من الدماء، فاختفى فولاذه.

وقال آخر: قد تجمّدت الدماء على الكفّ والقبضة وأوثقت الشفرة بالزند وصيرتهما واحدًا.

فترجّل الزعيم واقترب من القتيل قائلًا: اسندوا رأسه ودعوا أشعّة القمر تُرينا وجهه. ففعلوا مسرعين، وبان وجه القتيل من وراء نقاب الموت ظاهرة عليه ملامح البطش والبأس والتجلّد، وجه فارس قويّ يتكلّم بلا نُطق عن شدّة رجولته، وجه متأسف فارح، وجه مَن لاقى العدوّ عابسًا وقابل الموت مبتسمًا، وجه بطل لبناني حضر موقعة ذلك النهار ورأى طلائع الاستظهار لكنّه لم يبقَ لينشد مع رفقائه أهازيج النصر. ولما أزاحوا كوفيته ومسحوا غبار المعمعة عن وجهه المصفرّ، ذعر الزعيم وصرخ متوجّعًا: هذا ابن الصعبي، فيا للخسارة! فردَّد القوم هذا الاسم متأوّهين، ثمّ سكتوا كأنّ قلوبهم السكرى بخمر النصر قد فاجأها الصحو، فرأت أنّ خسارة هذا البطل هي أجسم من مجد التغلّب وعزّ الانتصار. ومثل تماثيل الرخام أوقفهم هول المشهد وأيبس ألسنتهم فسكتوا، وهذا كلّ ما يفعله الموت في نفوس الأبطال، فالبكاء والنحيب حَريّان بالنساء، والعويل والصراخ خليقان بالأطفال، ولا يجمل برجال السيف غير السكوت المملوء هيبة ووقارًا، ذلك السكوت الذي يقبض على القلوب القويّة مثلما تقبض مخالب النسر على عنق الفريسة، ذلك السكوت الذي يترفّع عن الدموع والعويل فيزيد بترفّعه البليّة هولًا وقساوة. ذلك السكوت الذي يهبط بالنفس الكبيرة من قمم الجبال إلى أعماق اللّجج، ذلك السكوت الذي يعلن مجيء العاصفة، وإن لم تجئ كان هو أشدّ فعلًا منها.

خلعوا أثواب الفتى المصروع ليروا أين وضع الموت يده، فبانت كلوم الشفار في صدره كأنّها أفواه مزبدة تتكلّم في هدوء ذلك الليل عن همم الرجال. فاقترب الزعيم وجثا مستفحصًا فوجد دون سواه منديلًا مطرّزًا بخيوط الذهب مربوطًا حول زنده. فتأمّله سرًّا وعرف اليد التي

غزلت حريره والأصابع التي حاكت خيوطه. فستره بالأثواب وتراجع قليلًا إلى الوراء حاجبًا وجهه المنقبض بيده المرتعشة، تلك اليد التي كانت تزيح بعزمها رؤوس الأعداء قد ضعفت وارتجفت وصارت تمسح الدموع، لأنّها لامست حواشي منديل عقدت أطرافه أصابع محبوبة حول زند فتى جاء ليشهد يوم الكريهة مدفوعًا ببسالته فصُرع وسوف يرجع إليها محمولًا على أكفّ رفاقه.

وبينما كانت نفس الزعيم تراوح بين مظالم الموت وخفايا الحب قال أحد الواقفين: تعالوا نحفر له قبرًا تحت تلك السنديانة، فتشرب أصولها من دمه وتتغذّى فروعها من بقاياه، فتزداد قوّة وتصير خالدة وتكون له رمزًا يمثل لهذه الطلول بطشه وبأسه.

فقال آخر: لنحمله إلى غابة الأرز ونقبره بقرب الكنيسة، فتظلّ عظامه مخفورة بظل الصليب إلى آخر الدهر.

وقال آخر: هنا اقبروه، هنا، حيث جُبل التراب بدمائه، واتركوا سيفه في يمينه، واغرسوا رمحه بجانبه، وانحروا حصانه على قبره، ودعوا أسلحته تؤنسه في هذه الوحدة.

وقال آخر: لا تلحدوا سيفًا مضرّجًا بدم الأعداء، ولا تنحروا مهرًا يخوض المنايا، ولا تتركوا في الوعر سلاحًا تعوّد هزّ الأكفّ وعزم السواعد، بل احملوها إلى ذويه لأنّها خير ميراث.

وقال آخر: تعالوا نجثو مصلّين حواليه صلاة الناصري، فتغفر له السماء وتبارك انتصارنا.

وقال آخر: لنرفعه على الأكتاف جاعلين له الرماح والتروس نعشًا فنطوف به في هذا الوادي منشدين أهازيج النصر فيشاهد أشلاء الأعداء وتبتسم شفاه جراحه قبل أن يخرسها تراب القبر.

وقال آخر: تعالوا نعليه سرج جواده ونسنده بجماجم القتلى ونقلّده رمحه وندخله الأحياء ظافرًا، فهو لم يستسلم للمنيّة إلّا بعد أن حمّلها من أرواح الأعداء حملًا ثقيلًا.

وقال آخر: تعالوا نودعه لحف هذا الجبل، فيكون له صدى الكهوف نديمًا، وخرير السواقي مؤنسًا، فترتاح عظامه في برّيّة يكون فيها وقع أقدام الليالي خفيف الوطأة.

وقال آخر: لا تغادروه ههنا، ففي البرّيّة وحشة مملّة ووحدة قاسية، بل تعالوا ننقله إلى جبّانة القرية، فيكون له من أرواح جدودنا رفاق تناجيه في سكينة الليل وتقصّ عليه أخبار حروبهم وأحاديث أمجادهم.

فتقدّم الزعيم إذ ذاك إلى وسط رجاله وأسكتهم بإشارة، ثمّ قال متنهّدًا: لا تزعجوه بذكرى الحروب، ولا تعيدوا على مسامع روحه الحائمة فوق رؤوسنا أخبار السيوف والرماح، بل تعالوا نحمله بسكينة وهدوء إلى مسقط رأسه. ففي ذلك الحيّ نفس ساهرة تترقّب قدومه، نفس صبيّة تنتظر رجوعه من بين الأسنّة، فلنعده إليها كيلا تُحرَم نظرة من وجهه وقبلة من جبينه.

حملوه على المناكب مطأطئي الرؤوس، خاشعي العيون، ومشوا بسكينة محزنة يتبعهم فرسه الكئيب يجرّ مقوده على الأرض ويصهل من وقت إلى آخر، فتجيبه الكهوف بصداها، كأنّ للكهوف أفئدة تشعر مع البهيمة بشدّة الضيم والأسى.

بين أضلع ذلك الوادي، حيث أشعّة القمر تسترق خطواتها، سار موكب النصر وراء موكب الموت وقد مشى أمامهما طيف الحبّ ساحبًا أجنحته المكسورة.

جمال الموت

مرفوعة إلى M.E.H.

دعوني أنم، فقد سكرت نفسي بالمحبّة.

دعوني أرقد، فقد شبعت روحي من الأيّام والليالي.

أشعلوا الشموع وأوقدوا المباخر حول مضجعي، وانثروا أوراق الورد والنرجس على جسدي، وعفّروا بالمسك المسحوق شعري، واهرقوا الطيوب على قدميّ، ثمّ انظروا واقرأوا ما تخطّه يد الموت على جبهتي.

خلوني غارقًا بين ذراعَيِ الكرى، فقد تعبت أجفاني من هذه اليقظة.

اضربوا على القيثارات ودعوا رنّات أوتارها الفضّيّة تتمايل في مسامعي.

انفخوا الشبّابات والنايات وحيكوا من أنغامها العذبة نقابًا حول قلبي المتسارع نحو الوقوف.

ترنّموا بالأغاني الرهاويّة وابسطوا من معانيها السحريّة فراشًا لعواطفي ثمّ تأمّلوا وانظروا شعاع الأمل في عينيّ.

امسحوا الدموع يا رفاقي، ثمّ ارفعوا رؤوسكم مثلما ترفع الأزهار تيجانها عند قدوم الفجر، وانظروا عروسة الموت منتصبة كعمود النور بين مضجعي والفضاء... امسكوا أنفاسكم وأصغوا هنيهة واسمعوا معي حفيف أجنحتها البيضاء.

تعالوا ودّعوني يا بني أمّي! قبّلوا جبهتي بشفاه مبتسمة. قبّلوا شفتيّ بأجفانكم وقبّلوا أجفاني بشفاهكم.

قرّبوا الأطفال إلى فراشي ودعوهم يلامسوا عنقي بأصابعهم الورديّة الناعمة. قرّبوا الشيوخ ليباركوا جبهتي بأيديهم الذابلة المتجمّدة. دعوا بنات الحي يقتربن وينظرن خيال الله في عينيّ ويسمعن صدى نغمة الأبديّة متسارعة مع أنفاسي.

الانفصال

ها قد بلغتُ قمّة الجبل فسبحتْ روحي في فضاء الحرّيّة والانعتاق.

قد صرت بعيدًا بعيدًا يا بني أمّي، فانحجبت عن بصيرتي جبهات الطلول وراء الضباب، وغمرت خلايا الأودية ببحر السكون، وامحّت السبل والممرّات بأكفّ النسيان، وتوارت المروج والغابات والعقبات وراء أشباح بيضاء كغيوم الربيع، وصفراء كشعاع الشمس، وحمراء كوشاح المساء.

قد تضعضعت أغاني أمواج البحر، واضمحلّت ترنيمة السواقي في الحقول، وسكنت الأصوات المتصاعدة من جوانب الاجتماع، فلم أعد أسمع سوى أُنشودة الخلود متآلفة مع ميول الروح.

الراحة

اخلعوا نسيج الكتّان عن جسدي وكفّنوني بأوراق الفلّ والزنبق.

انتشلوا بقاياي من تابوت العاج ومدّدوها على وسائد من زهر البرتقال والليمون. لا تندبوني يا بني أمّي، بل أنشدوا أغنية الشباب والغبطة. لا تذرفي الدموع يا ابنة الحقول، بل ترنّمي بموشحات أيّام الحصاد والعصير.

لا تغمروا صدري بالتأوّه والتنهّد، بل ارسموا عليه بأصابعكم رمز المحبّة ووسم الفرح.

لا تزعجوا راحة الأثير بالتعزيم والتكهين، بل دعوا قلوبكم تتهلّل معي بتسبيحة البقاء والخلود.

لا تلبسوا السواد حزنًا عليّ، بل تردّوا البياض فرحًا معي.

ولا تتكلّموا عن ذهابي بالغصّات، بل اغمضوا عيونكم تروني بينكم الآن وغدًا وبعده.

مدّدوني على أغصان مورقة وارفعوني على الأكتاف وسيروا بي ببطء إلى البرّيّة الخالية.

لا تحملوني إلى الجبّانة، لأن الزحام يزعج راحتي، وقضقضة العظام والجماجم تسلب سكينة رقادي.

احملوني إلى غابة السرو واحفروا لي قبرًا في تلك البقعة حيث ينبت البنفسج بجوار الشقيق.

احفروا قبرًا عميقًا كيلا تجرف السيول عظامي إلى الوادي.

احفروا قبرًا واسعًا لكي تجيء أشباح الليل وتجلس بجانبي.

اخلعوا هذه الأثواب ودلوني عاريًا إلى قلب الأرض. مدّدوني ببطء وهدوء على صدر أمّي.

اغمروني بالتراب الناعم وألقوا مع كلّ حفنة قبضة من بذور السوسان والياسمين والنسرين فتنبت على قبري ممتصّة عناصر جسدي، وتنمو ناشرة في الهواء رائحة قلبي، وتتعالى رافعة في وجه الشمس سرائر راحتي، وتتمايل مع النسيم مذكّرة عابر الطريق بماضي ميولي وأحلامي.

اتركوني الآن يا بني أمّي، اتركوني وحدي وسيروا بأقدام خرساء مثلما تسير السكينة في الأودية الخالية.

دعوني وحدي وتفرّقوا عني بهدوء مثلما تتفرّق أزاهر اللوز والتفاح عندما تنثرها أنفاس نيسان.

ارجعوا إلى منازلكم فتجدوا هناك ما لم يستطع الموت أن يأخذه مني ومنكم.

اتركوا هذا المكان، فالذي تطلبونه صار بعيدًا، بعيدًا عن هذا العالم...

أغاني

أغنية

في أعماق نفسي أغنية لا ترتضي الألفاظ ثوبًا. أغنية تقطن حبّة قلبي، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على الورق، وتحيط بعواطفي كغلاف شفّاف، فلن تنسكب على لساني كالرضاب.

كيف أتنهّدها وأنا أخاف عليها من دقائق الأثير؟ ولمن أنشدها وقد تعوّدت سكنى بيت نفسي فأخشى عليها من خشونة الآذان؟

إن نظرت إلى عينيّ رأيت خيال خيالها، وإن لمست أطراف أصابعي شعرت باهتزازاتها.

أعمال يدي تبينها مثلما تعكس البحيرة لمعان النجم، ودموعي تبيحها كما تبيح قطرات الندى سرّ زهرة الورد عندما تبعثرها الحرارة.

أغنية تنشرها السكينة ويطويها الضجيج وتردّدها الأحلام وتخفيها اليقظة.

هي أغنية الحبّ أيّها الناس، فأيّ اسحق ينشدها وأيّ داود يرتّلها؟

هي أعبق من أنفاس زهرة الياسمين، فأيّة حنجرة تستعبدها؟ وأصْون من سرّ العذارى، فأيّة أوتار تستبيحها؟

مَن يجمع بين قواصف البحر وتغريدة البلبل ويقرن العواصف بتنهّدة الطفل؟ أي بشري ينشد أُغنية الآلهة؟

أغنية الموج

أنا والشاطئ عاشقان يقرّبهما الهوى ويفصلهما الهواء. أجيء من وراء الشفق الأزرق كيما أمزج فضّة زبدي بذهب رماله، وأُبرد حرارة قلبه برضابي.

عند الفجر أتلو شرع الغرام على مسامع حبيبي، فيضمّني إلى صدره. وفي المساء أترنّم بصلاة الشوق، فيقبّلني.

أنا لجوج جزوع وحبيبي حليف صبر وأليف تجلّد.

يأتي المدّ فأعانق حبيبي، ويعقبه الجزر فأترامى على أقدامه.

كم رقصت حول بنات البحر عندما كنّ يطلعن من الأعماق ويجلسن على الصخور ليتفرّجن على النجوم. وكم سمعت المحبّ يشكو الغرام لذاتِ حُسنٍ فساعدته على التأوّه والتنهّد. وكم نادمت الصخور وهي جامدة وداعبتها ضاحكًا ولم تبتسم. وكم خلصت من اللجّة أجسادًا وجئت بها إلى الأحياء. وكم سرقت من الأعماق درًّا أهديته إلى ربّات الجمال!

في سكينة الليل عندما تعانق المخلوقات طيف الكرى أسهر مترنّمًا تارة، متنهّدًا أخرى. ويحي! لقد أتلفني السهر، ولكن أنا محبّ وحقيقة الحبّ يقظة.

هذه حياتي وذا ما عشت أصنعه.

أغنية المطر

أنا خيوط فضيّة تطرحني الآلهة من الأعالي فتأخذني الطبيعة وتنمّق بي الأودية.

أنا لآلئ جميلة نثرت من تاج عشتروت فسرقتني ابنة الصباح ورصّعت بي الحقول.

أنا أبكي فتبتسم الطلول، وأتّضع فترتفع الأزهار. الغيمة والحقل عاشقان وأنا بينهما رسول مسعف أنهمل فأبرّد غليل هذا وأشفي علّة تلك.

صوت الرعد وأسياف البرق تبشّر بقدومي، وقوس قزح يعلن نهاية سفرتي، كذا الحياة الدنيا تبتدئ بين أقدام المادّة الغضبَى وتنتهي على أكفّ الموت الهادئ.

أصعد من قلب البحيرة وأسير على أجنحة الأثير، حتّى إذا ما رأيت روضة جميلة سقطت وقبّلت ثغور أزاهرها وعانقت أغصانها.

في السكينة أطرق بأناملي اللطيفة بلّور النوافذ فتؤلّف تلك الطرقات نغمة تفقهها النفوس الحسّاسة.

حرارة الهواء تولدني وأنا أقتل حرارة الهواء، كذا المرأة التي تتغلب على الرجل بقوّة استمدّتها من الرجل.

أنا تنهّدة البحر، أنا دمعة السماء، أنا ابتسامة الحقل. كذا الحبّ – تنهّدة من بحر العواطف ودمعة من سماء التفكر وابتسامة من حقل النفس.

أنا دليل الحبّ، أنا خمرة النفس، أنا مأكل القلب، أنا وردة أفتح قلبي عند فتوة النهار فتأخذني الصبيّة وتقبّلني وتضعني على صدرها.

أنا بيت السعادة، أنا مصدر الفرح، أنا مبدأ الراحة، أنا ابتسامة لطيفة على شفتَيْ غادة، يراني الشاب فينسى أتعابه وتصير حياته مسرح أحلام لذيذة.

أنا موحي الشعراء وهادي المصوّرين ومعلّم الموسيقيّين.

أنا نظرة في عين طفل تراها الأمّ الحنون فتسجد وتصلّي وتمجّد الله.

تجلّيت لآدم بجسم حواء فاستعبدته، وظهرت لسليمان في قدّ حبيبته فصيّرته حكيمًا وشاعرًا.

ابتسمت لهيلانة فخربت تروادة، وتوّجت كليوبترا فعمّ الأنس في وادي النيل.

أنا كالدهر أبني اليوم وأهدم غدًا، أنا الله أحيي وأُميت.

أنا أرقّ من تنهّدة زهرة البنفسج، أنا أشدّ من العاصفة.

أنا حقيقة أيّها الناس، أنا حقيقة وهذا خير ما تعلمونه.

أُغنية السعادة

الإنسان حبيبي وأنا حبيبته. أشتاق إليه ويهيم بي، ولكن، أواه! لي في محبّته شريكة تشقيني وتعذّبه، وضرّة طاغية تُدعى المادّة تتبعنا حيث نذهب وتفرّقنا كالرقيب.

أطلب حبيبي في البرّيّة تحت الأشجار وبقرب البحيرات فلا أجده، لأن المادّة قد غرّته وذهبت به إلى المدينة، إلى الاجتماع والفساد والشقاء.

أطلبه في معاهد المعرفة وفي هياكل الحكمة فلا أجـده، لأنّ المادّة، تلك التي ترتدي التراب، قد قادته إلى معاقل الأنانيّة حيث يقطن الانهماك.

أطلبه في حقل القناعة فلا أجده، لأنّ عدوتي قد قيّدته في مغاور الطمع والشراهة.

أُناديه عند الفجر عندما يبتسم المشرق، فلا يسمعني، لأنّ كرى الاستمساك قد أثقل عينيه. أُداعبه في المساء إذ تسود السكينة وتنام الأزهار، فلا يحفل بي، لأنّ انشغافه بمآتي الغد يشغل ضميره.

حبيبي يحبّني، يطلبني في أعماله وهو لن يجدني إلّا في أعمال الله. يروم وصالي في صرح المجد الذي بناه على جماجم الضعفاء وبين الذهب والفضّة وأنا لا أوافيه إلّا في بيت البساطة الذي بنته الآلهة على

ضفة جدول العواطف. يريد تقبيلي أمام الطغاة والقتلة وأنا لا أدعه يلثم ثغري إلّا في الوحدة بين أزهار الطهر. يبتغي الحيلة وسيطًا بيننا ولا أطلب وسيطًا إلّا العمل المنزّه، العمل الجميل.

قد تعلّم حبيبي الصراخ والضجيج من عدوّتي المادّة وأنا سوف أُعلّمه أن يذرف دمعة استعطاف من عين نفسه ويتنهّد تنهّدة استكفاء. حبيبي لي وأنا له.

أنشودة الزهرة

أنا كلمة تقولها الطبيعة ثمّ تستردّها وتخفيها طيّ قلبها ثمّ تقولها. أنا نجم هبط من الخيمة الزرقاء على بساط أخضر.

أنا ابنة العناصر التي حبِل بها الشتاء وتمخّض بها الربيع وربّاها الصيف ونومها الخريف.

أنا هديّة المحبّين، أنا إكليل العرس، أنا آخر عطيّة من حيّ إلى ميت.

عند الصباح أتعاون والنسيم على إعلان مجيء النور، وفي المساء أشترك مع الطيور بوداعه.

أتمايل في السهول فأُزيّنها، وأتنفّس في الهواء فأعطّره. أضم الكرى فترمقني عيون الليل العديدة، وأطلب اليقظة لأحدّق بعين النهار الوحيدة.

أنا أشرب خمرة وأسمع أغاني الشحارير وأرقص على تصفيق الأعشاب. أنا أنظر إلى العلو دائمًا كي أرى النور ولا أرى خيالي، وهذه حكمة لم يتعلّمها الإنسان بعد.

نشيد الإنسان

وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون
(القرآن الشريف)

أنا كنت منذ الأزل، وها أنذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء.

سبحت في فضاء اللانهاية، وطرت في عالم الخيال، واقتربت من دائرة النور الأعلى، وها أنا الآن سجين المادّة.

سمعت تعاليم كنفوشيوس، وأصغيت لحكمة برهما، وجلست بقرب بوذا تحت شجرة المعرفة، وها أنا الآن أُغالب الجهل والجحود. كنت على الطور إذ تجلّى «يهوه» لموسى، وفي عبر الأردن فرأيت معجزات الناصري، وفي المدينة فسمعت أقوال رسول العرب. وها أنا الآن أسير الحيرة. شاهدت قوّة بابل، ومجد مصر، وعظمة اليونان، ولم أزل أرى الضعف والذل والصغر بادية في جميع تلك الأعمال. جالست سَحَرة عين دور، وكهنة آشور، وأنبياء فلسطين، وما برحت أنشد الحقيقة. حفظت الحكمة التي نزلت على الهند، واستظهرت الشعر المنبثق من قلوب سكّان جزيرة العرب، ووعيت الموسيقى المتجسّمة من عواطف أهل المغرب، وما زلت أعمى لا أرى، وأصمّ لا أسمع. احتملت قساوة الفاتحين الطامعين، وقاسيت ظلم الحكّام المستبدين وعبودية الأقوياء الباغين، وما برحت ذا قوّة أُكافح بها الأيّام.

شاهدت وسمعت كلّ ذلك وأنا طفل، ولسوف أشاهد وأسمع أعمال الشبيبة ومآتيها، ولسوف أشيخ وأبلغ الكمال وأرجع إلى الله.

أنا كنت منذ الأزل، وها أنـذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء.

صوت الشاعر

1

القوّة تزرع في أعماق قلبي وأنا أحصد وأجمع السنابل وأعطيها أغمارًا للجائعين. الروح يحيي هذه الجفنة الصغيرة وأنا أعصر عناقيدها وأسقيها للظامئين. السماء تملأ هذا السراج زيتًا وأنا أنيره وأضعه في نافذة بيتي من أجل العابرين في ظلمة الليل. أنا فاعل هذه الأشياء، لأنّني أحيا بها، وإذا منعتني الأيّام وغلّت يدي الليالي طلبت الموت، فالموت أخلق بنبيٍّ منبوذ في أمّته وشاعر غريب بين أهله.

البشر يضجّون كالعاصفة وأنا أتنهّد بسكينة، لأنّي وجدت عنف العاصفة يزول وتبتلعه لجّة الدهر، أمّا التنهدة فتبقى ببقاء الله.

البشر يلتصقون بالمادّة الباردة كالثلج وأنا أطلب شعلة المحبّة لأضمّها إلى صدري فتأكل ضلوعي وتبري أحشائي، لأنّي ألفيت المادّة تميت الإنسان بلا ألم، والمحبّة تحييه بالأوجاع.

البشر ينقسمون إلى طوائف وعشائر وينتمون إلى بلاد وأصقاع، وأنا أرى ذاتي غريبًا في بلد واحد، وخارجًا عن أمّة واحدة. فالأرض كلّها وطني والعائلة البشريّة عشيرتي، لأنّي وجدت الإنسان ضعيفًا ومن الصغر

أن ينقسم على ذاته، والأرض ضيّقة ومن الجهل أن تتجزّأ إلى ممالك وإمارات.

البشر يتكاتفون على هدم هياكل الروح ويتعاونون على بناء معاهد الجسد، وأنا وحدي واقف في موقف الرثاء، على أنّني أصغي فأسمع من داخلي صوت الأمل قائلًا: مثلما تحيي المحبّة القلب البشري بالأوجاع كذا تعلّمه الغباوة سبل المعرفة. فالأوجاع والغباوة تؤول إلى لذّة عظيمة ومعرفة كاملة، لأنّ الحكمة السرمديّة لم تخلق شيئًا باطلًا تحت الشمس.

2

أحنّ إلى بلادي لجمالها وأحبّ سكّان بلادي لتعاستهم، ولكن إذا ما هبّ قومي مدفوعين بما يدعونه وطنيّة وزحفوا على وطن قريبي وسلبوا أمواله وقتلوا رجاله ويتّموا أطفاله ورمّلوا نساءه وسقوا أرضه دماء بنيه وأشبعوا ضواريه لحوم فتيانه كرهت إذ ذاك بلادي وسكّان بلادي.

أتشبّب بذكر مسقط رأسي وأشتاق إلى بيت ربيت فيه، ولكن إذا مرّ عابر طريق وطلب مأوى في ذلك البيت وقوتًا من سكّانه ومُنع مطرودًا استبدلت تشبيبي بالرثاء وشوقي بالسلو وقلت بذاتي: إنّ البيت الذي يضنّ بالخبز على محتاجه، وبالفراش على طالبه، لهو أحقّ البيوت بالهدم والخراب.

أحبّ مسقط رأسي ببعض محبّتي لبلادي، وأحبّ بلادي بقسم من محبّتي لأرض وطني. وأحبّ الأرض بكليتي لأنّها مرتع الإنسانيّة روح الألوهيّة على الأرض. الإنسانيّة المقدّسة روح الألوهيّة على الأرض. تلك الإنسانيّة الواقفة بين الخرائب، الساترة قامتها العارية بالأطمار البالية، الذارفة الدموع السخينة على وجنتيها الذابلتين، المنادية أبناءها بصوت يملأ الأثير أنّةً وعويلًا وأبناؤها مشغولون عن ندائها بأغاني

العصبيّة، منصرفون عن دموعها بصقل السيوف. تلك الإنسانيّة الجالسة وحدها تستغيث بالقوم وهم لا يسمعون، وإن سمعها فرد واقترب منها ومسح دموعها وعزّاها في شدائدها قال القوم: اتركوه فالدموع لا تؤثر بغير الضعيف.

الإنسانيّة روح الألوهيّة على الأرض. تلك الألوهيّة السائرة بين الأمم، المتكلّمة بالمحبّة، المشيرة إلى سبل الحياة والناس يضحكون مستهزئين بأقوالها وتعاليمها. تلك التي سمعها بالأمس الناصري فصلبوه وسقراط فسمّموه، والتي سمعها اليوم القائلون بالناصري وسقراط وجاهروا باسمها أمام الناس والناس لا يقدرون على قتلهم لكنّهم يسخرون منهم قائلين: السخرية أقسى من القتل وأمرّ.

ولم تقوَ أورشليم على قتل الناصري، فهو حيّ إلى الأبد، ولا أثينا على إعدام سقراط، فهو حيّ إلى الأبد، ولن تقوى السخرية على سامعي الإنسانيّة وتابعي أقدام الألوهيّة، فسيحيون إلى الأبد، إلى الأبد.

3

أنت أخي وكلانا ابن روح واحد قدوس كلّي. وأنت مماثلي لأنّنا سجينا جسدين جُبلا من طينة واحدة. وأنت رفيقي على طريق الحياة ومسعفي في إدراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم. أنت إنسان وقد أحببتك يا أخي.

قلْ عني ما شئت، فالغد يقضي عليك ويكون قولك قرينة ظاهرة أمام حكمه وبيّنة صائبة لدى عدله.

خذْ منّي ما شئت، فلست بسالب غير مال لك الحق بقسم منه وعقار استأثرت به لمطامعي، فأنت خليق ببعضه إن كان يرضيك بعضه.

افعل بي ما تشاء، فلست بقادر على مسّ حقيقتي. أهرق دمي وأحرق جسدي فلن تؤلم نفسي ولن تميتها. كبّل يديّ ورجليّ بالقيود

وانزل بي إلى ظلمة السجون، فإنّك لا تقوى على أسر فكرتي، لأنّها حرّة كالنسيم السائر في فضاء لا حدّ له ولا مدى.

أنت أخي وأنا أحبّك.

أحبّك ساجدًا في جامعك وراكعًا في هيكلك ومصلّيًا في كنيستك، فأنت وأنا ابنا دين واحد هو الروح، وزعماء فروع هذا الدين أصابع ملتصقة في يد الألوهية المشيرة إلى كمال النفس.

أحبّك لمحبّة حقيقتك المنبثقة من العقل العام. تلك الحقيقة التي لا أراها الآن لعماوتي، لكنّي أعتبرها مقدّسة لأنّها من أعمال النفس. تلك الحقيقة التي ستلتقي بحقيقتي في العالم الآتي فتمتزجان كأنفاس الأزهار وتصيران حقيقة واحدة كليّة خالدة بخلود الحبّ والجمال.

أحبّك لأنّي رأيتك ضعيفًا أمام الأقوياء القساة وفقيرًا محتاجًا أمام صروح الأغنياء الطامعين. لذلك بكيت من أجلك، ومن وراء دموعي رأيتك بين ذراعَي العدل وهو يبتسم لك ويستهزئ بمضطهديك... أنت أخي وأنا أحبّك.

4

أنت أخي وأنا أحبّك. لماذا إذن تخاصمني؟

لماذا تأتي بلادي وتحاول إخضاعي إرضاء لأئمة يطلبون المجد بقولك والمسرّة بمتاعبك؟ لماذا تترك رفيقتك وصغارك متبعًا الموت إلى أرض بعيدة من أجل قوّاد يبتغون ابتياع المعالي بدمائك والشرف الرفيع بأحزان والدتك؟ ولكن أمن الشرف الرفيع أن يصرع الإنسان أخاه؟ لنرفعنّ إذن تمثالًا لقايين مترنّمين بمديح حانان.

يقولون يا أخي إنّ المحافظة على الذات قاعدة طبيعيّة أوليّة، ولكنّني رأيت الطامعين بالتميّز يحبّبون إليك بذل الذات توصّلًا إلى

امتلاك رقاب إخوانك. ويقولون إنّ حبّ البقاء يوجب الاعتداء على حقوق الغير، وأنا أقول: إنّ المحافظة على حقوق الغير هي أشرف وأجمل مآتي الإنسان، وأقول أيضًا: إن كان بقائي يوجب فناء سواي فالموت إذن ألذّ لديّ وأحبّ، وإن لم أجد مَن يقتلني شريفًا ومحبًّا ومنزّهًا تمتّعت بتقديم ذاتي بيدي إلى الأبديّة قبل أوان الأبديّة.

الأنانيّة، يا أخي، أوجدت التنافس الأعمى، والتنافس ولّد العصبيّة، والعصبيّة وضعت السلطة وكانت هذه داعيًا للمنازعات والاستعباد. النفس تقول بسلطة الحكمة والعدالة على الجهالة والظلم، ولكنها تنكر تلك السلطة التي تستلّ من المعادن قواضب وبواتر لتعميم الجهالة والمظالم. تلك السلطة التي هدمت بابل وقوّضت أركان أورشليم ودكّت مباني رومية. تلك التي أوجدت سفّاكي الدماء والقتلة الذين ينعتهم الناس بالعظماء والكتّاب تجلّ أسماءهم والكتب لا تأبَى حفظ معاركهم في بطونها كما أن الأرض لم تأبَ حملهم على ظهرها حينما كانوا يخضبون محياها بالدماء الزكيّة... فما أغراك يا أخي بما يغرّك وألهجك بمن يضرّك! السلطة الحقيقيّة هي الحكمة المحافظة على الشريعة الطبيعيّة العامة العادلة. فأين عدالة السلطة إذا قتلت القاتل وسجنت الناهب ثمّ زحفت بذاتها إلى بلاد مجاورة وقتلت الألوف ونهبت الربوات؟ ما قول العصبيين بقتلة يعاقبون مَن يقتل ولصوص تجازي مَن يسلب؟

أنت أخي وأنا أحبّك، والمحبّة هي العدل بأسمى ظواهره، فإن لم أكن عادلًا بمحبّتي لك في كلّ المواطن كنت مراوغًا ساترًا بشاعة الأنانيّة بثوب المحبّة البهيّ.

خاتمة

لي من نفسي صديق يعزيني إذا ما اشتدّت خطوب الأيّام ويؤاسيني عندما تلمّ مصائب الحياة، ومن لم يكن صديقًا لنفسه كان عدوّ الناس، ومَن لم يرَ مؤنسًا من ذاته مات قانطًا لأنّ الحياة تنبثق من داخل الإنسان ولن تجيء ممّا يحيط به.

جئت لأقول كلمة وسأقولها، وإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد. فالغد لا يترك سرًّا مكنونًا في كتاب اللانهاية.

جئت لأحيا بمجد المحبّة ونور الجمال، وها أنذا حيّ والناس لا يستطيعون إبعادي عن حياتي. إن سملوا عينيّ تمتعت بالإصغاء لأغاني المحبّة وألحان الجمال. وإن طمسوا أذنيّ تلذّذت بملامسة أثير ممزوج بأنفاس المحبّين وأريج الجمال. وإن حجبوني عن الهواء عشت ونفسي، فالنفس ابنة الحبّ والجمال.

جئت لأكون للكلّ وبالكلّ، والذي أفعله اليوم في وحدتي يعلنه المستقبل أمام الناس. والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة.



1919

الخَيرُ في النّاسِ مَصنوعٌ إذا جُبرُوا
والشرُّ في الناسِ لا يَفنى وإنْ قُبرُوا
وأكثرُ النّاسِ آلاتٌ تُحرّكُها
أصابعُ الدّهرِ يَوْمًا ثمّ تَنكسِرُ
فلا تَقولَنّ هذا عالمٌ عَلمٌ
ولا تَقولَنّ ذاكَ السيّدُ الوَقرُ
فأفضَلُ النّاسِ قطعانٌ يسيرُ بها
صوتُ الرّعاةِ ومن لم يمشِ يَندثرُ

ليسَ في الغاباتِ راعٍ	لا ولا فيها القَطيعْ
فالشّتا يَمشي ولكِنْ	لا يُجاريهِ الرّبيعْ
خُلِقَ النّاسُ عَبيدًا	للّذي يأبَى الخضوعْ
فإذا ما هَبّ يَوْمًا	سائرًا سارَ الجَميعْ
أعطِني النّايَ وغَنّ	فالغِنا يرْعى العقولْ
وأنينُ النّاي أبقَى	مِن مَجيدٍ وذَليلْ

***

وما الحياة سِوى نَومٍ تُراوِدُهُ
أحلامُ مَنْ بمرادِ النّفس يأتمرُ
والسرّ في النّفس حزْن النفس يسترُهُ
فإن تولّى فبالأفراحِ يَستترُ
والسرّ في العيش رغدُ العيشِ يحجبُه
فإن أُزيلَ تولّى حجبَهُ الكَدَرُ
فإن ترَفَعتَ عن رَغدٍ وعَن كدَرٍ
جاورتَ ظلَّ الذي حارَتْ به الفِكَرُ

ليسَ في الغاباتِ حزْنٌ لا ولا فيها الهمُومْ
فإذا هَبَّ نَسِيمٌ لم تجئ معهُ السّمومْ
ليسَ حزْنُ النّفس إلّا ظلّ وهمٍ لا يَدومْ
وغيومُ النّفسِ تَبدو من ثَناياها النّجومْ
أعطِني النّايَ وغَنّ فالغِنا يَمحو المِحَنْ
وأنِينُ النّايِ يَبقى بَعد أن يَفنى الزّمَنْ

***

وقلّ في الأرض مَن يرْضَى الحياة كما
تأتيهِ عفوًا ولم يحكمْ به الضّجرُ
لذاكَ قَد حوّلوا نهرَ الحياةِ إلى
أكواب وَهْم إذا طافوا بها خدرُوا
فالنّاسُ إن شربُوا سُرّوا كأنّهُمُ
رَهنُ الهوَى وعلى التخديرِ قد فُطرُوا
فذا يُعربِدُ إنْ صَلّى وذاكَ إذا
أثرَى وذلك بالأحلامِ يختمِرُ

فـــالأرضُ خـــمّـــارَةٌ والـــدّهـــرُ صاحبـها
ولـيـس يـرضَـى بـهـا غـيـر الأُلـــى سـكـرُوا
فـإن رَأيـــتَ أخـا صَـحـوٍ فـقـلْ عَـجَـبًا!
هــلِ اسـتَـظَـلّ بـغـيـمٍ مُـمـطـرٍ قـمَـرُ؟

لـيـسَ فـي الـغـابـاتِ سكرٌ — مـن خـيـالٍ أوْ مُـدام
فـالـسّـواقـي لـيـس فيـهـا — غـيـر إكـسـيـرِ الـغـمـامْ
إنّـمـا الـتّـخـديـرُ ثـدْيٌ — وحَـلـيـبٌ لـلأنـامْ
فـإذا شـاخُـوا ومـاتُـوا — بـلـغـوا سـنّ الـفِـطـامْ
أعـطِـنـي الـنّـايَ وغَـنّ — فـالـغِـنـا خَـيـرُ الـشّـرابْ
وأنِـيـنُ الـنّـايِ يَـبـقـى — بَـعـد أن تَـفـنـى الـهِـضـابْ

***

والـدّيـنُ فـي الـنّـاسِ حـقـلٌ لـيـس يـزْرَعـه
غـيـرُ الأُلـى لـهـمُ فـي زَرْعِـهِ وطَـرُ
مِـن آمِـلٍ بـنَـعـيـمِ الـخـلـدِ مـبـتـشرٍ
ومـن جـهُـولٍ يـخـافُ الـنّـارَ تَـسـتـعـرُ
فـالـقـوْمُ لـوْلا عـقـابُ الـبعـثِ مـا عـبَـدوا
ربًّـا ولـولا الـثّـواب الـمـرْتـجـى كَـفَـرُوا
كـأنّـمـا الـدّيـنُ ضَـرْبٌ مـن مـتَـاجـرهـم
إن واظَـبـوا رَبـحـوا أو أهـمـلـوا خـسـرُوا

لـيـس فـي الـغـابـاتِ دِيـنٌ — لا ولا الـكـفـرُ الـقـبـيـحْ
فـإذا الـبـلـبُـلُ غَـنّـى — لـم يـقـلْ هـذا الـصّـحـيـحْ
إنّ ديـنَ الـنّـاسِ يـأتـي — مـثـلَ ظـلّ ويَـرُوحْ
لـم يـقـمْ فـي الأرْضِ دِيـنٌ — بـعـدَ طـه والـمَـسـيـحْ

أعـطِـنـي الـنّـايَ وغَـنّ فـالـغِـنـا خَـيـرُ الـصّـلاةْ
وأنِـيـنُ الـنّـايِ يَبقـى بَـعـد أنْ تَـفـنـى الـحَـيـاةْ

***

والعـدل في الأرض يُبكي الجنّ لو سمعوا
بـه ويـسـتـضـحـكُ الأمـوات لـوْ نـظـرُوا
فالسْجنُ والـمَـوْتُ للجانينَ إن صَـغـرُوا
والـمَـجـدُ والـفـخـرُ والإثـراء إن كـبـرُوا
فـسـارق الـزّهـرِ مـذمـومٌ ومـحـتَـقَـرٌ
وسـارِقُ الحقل يُـدعـى الـبـاسلُ الخطرُ
وقـاتـلُ الـجـسـمِ مَـقـتـولٌ بـفـعـلـتِـهِ
وقـاتـلُ الـرّوحِ لا تـدري بـه الـبَـشَـرُ

لـيـسَ فـي الـغـابـاتِ عَـدْلٌ لا ولا فـيـهـا الـعـقـابْ
فـإذا الـصـفـصـافُ ألـقـى ظـلّـهُ فـوْقَ الـتـرابْ
لا يَـقـولُ الـسّـرو هـذي بِـدعـةٌ ضـدّ الـكـتـابْ
إنّ عـدلَ الـنّـاسِ ثَـلـجٌ إن رَأتْـهُ الـشـمـسُ ذابْ
أعـطِـنـي الـنّـايَ وغَـنّ فـالـغِـنـا عَـدل الـقـلـوبْ
وأنِـيـنُ الـنّـايِ يَـبـقـى بـعـد أن تَـفـنـى الـذّنـوبْ

***

والـحـقّ لـلـعـزم، والأرْواحُ إن قـويـتْ
سـادتْ وإنْ ضَـعـفـتْ حـلّـتْ بـهـا الـغِـيَـرُ
فـفـي الـعَـريـنَـةِ ريـحٌ لَـيـسَ يـقـربُـهُ
بـنـو الـثّـعـالِـبِ غـابَ الأُسـدُ أم حـضـرُوا

وفــي الــزّرازيــرِ جُـبـنٌ وهــي طـائـرَةٌ
وفــي الــبـزاةِ شـمـوخٌ وهــيَ تـحـتَضرُ
والـعـزْمُ فـي الـرّوحِ حـقٌّ لـيس يـنكرُهُ
عـزمُ الـسّواعـد شـاء الـنّاس أم نـكرُوا
فــإن رأيــتَ ضَـعـيفًا سـائـدًا فـعَلى
قــوْمٍ إذا مـا رَأوا أشـباهَـهـم نَـفَـرُوا

لـيسَ فـي الـغـاباتِ عـزْمٌ	لا وَلا فـيـهـا الـضّـعـيفْ
فــإذا مــا الأُســدُ صاحـتْ	لـم تـقـلْ هــذا الـمخيفْ
إنّ عــزْمَ الـنّــاسِ ظِـلٌّ	فــي فَـضـا الـفِـكـر يَـطـوفْ
وحُــقــوق الــنّــاسِ تَبـلـى	مـثـل أوراق الـخـريـفْ
أعـطِـنـي الــنّــايَ وغَــنّ	فـالـغِـنـا عَـزْمُ الـنّـفـوسْ
وأنِــيــنُ الــنّــايِ يَـبـقـى	بَـعـد أن تـفـنـى الـشّـموسْ

***

والـعـلـمُ فـي الـنّـاسِ سـبلٌ بَـانَ أوّلـها
أمّــا أواخــرهــا فـالـدَّهـرُ والـقَـــدَرُ
وأفـضَـلُ الـعـلـمِ حـلـمٌ إنْ ظـفـرتَ بـهِ
وسـرتَ مـا بـيـنَ أبـنـاء الـكـرَى سـخرُوا
فــإن رَأيــتَ أخــا الأحــلامِ مـنـفَـرِدًا
عَــن قَــوْمــهِ وهــوَ مَـنـبُـوذٌ ومُـحـتَـقَرُ
فـهـوَ الـنّـبـيّ وبُــرْدُ الـغـدِّ يـحـجُـبُهُ
عــن أمّــةٍ بــرِداء الأمــسِ تــأتَــزِرُ
وهــوَ الـغـريـبُ عــن الـدّنـيـا وسـاكـنها
وهــوَ الـمُـجـاهـرُ لامَ الـنّـاسُ أو عــذَرَوا

وهــوَ الــشّــديــدُ وإنْ أبـــدى مـلايـنَـةً
وَهــوَ الـبَـعـيـدُ تـدانَـى الـنـاسُ أمْ هـجـرُوا

لـيـسَ فـي الـغـابـاتِ عـلـمٌ لا ولا فـيـهـا الـجـهـولْ
فـــإذا الأغـــصـــانُ مـالَـتْ لــم تــقــلْ هـــذا الـجَـلـيـلْ
إنّ عـــلـــمَ الـــنّـــاسِ طُـــرًّا كـضَـبـابٍ فـي الـحُـقُـولْ
فـــإذا الـــشّـــمـــسُ أطَـــلّـــتْ مـــن ورا الأفـــقِ يَـــزُولْ
أعـــطِـــنـــي الـــنّـــايَ وغَـــنْ فـالـغِـنـا خـيـرُ الـعـلُـومْ
وأنِـــيـــنُ الـــنّـــايِ يَـبـقـى بَـعـدَ أن تـطـفـا الـنّـجُـومْ

***

والـحـرُّ فـي الأرْض يـبـنـي مـن مـنـازعِـهِ
سجـنًـا لـهُ وهـوَ لا يـدري فـيـؤتَـسَـرُ
فـــإنْ تـــحـــرّر مـــن أبـــنـــاء بــجــدَتِــهِ
يـظَـلّ عَـبـدًا لَـمـن يـهـوَى ويَـفـتـكِـرُ
فـهـوَ الأريـــبُ ولـكـن فـي تَـصَـلّـبِـهِ
حــقٌّ ولـلـحـقّ بُـطـلٌ بـل هـو الـبَـطَـرُ
وهـوَ الـطّـلـيـقُ ولـكـنْ فـي تَـسَـرّعِـهِ
حـتّـى إلـى أوجِ مَـجـدٍ خـالِـدٍ صِـغَـرُ

لـيـسَ فـي الـغـابـاتِ حُـرٌّ لا ولا الـعـبـد الـذّمـيـمْ
إنّـمـا الأمـــجـــادُ سُـخـفٌ وفَـــقـــاقـــيـــعُ تَـــعُـــومْ
فـــإذا مـــا الـــلّـــوْزُ ألـقـى زَهـــرَهُ فَـــوْقَ الـهَـشـيـمْ
لـــم يـــقـــلْ هـــذا حَـقـيـرٌ وأنـــا الـمَـولـى الـكَـريـمْ
أعـــطِـــنـــي الـــنّـــايَ وغَـــنّ فـالـغِـنـا مَـجـدٌ أثـيـلْ
وأنِـــيـــنُ الـــنّـــايِ أبـقَـى مـــن زَنـــيـــمٍ وجَـلـيـلْ

***

واللطفُ في الناس أصدافٌ وإن نعمتْ
أضلاعها لم تكن في جَوْفها الدُّرَرُ
فمن خبيثٍ لهُ نَفسان: واحدَةٌ
منَ العَجينِ وأُخرَى دونَها الحجَرُ
ومن خَفيفٍ ومن مستأنثٍ خَنثٍ
تكادُ تُدمي ثَنايا ثَوبهِ الإبَرُ
واللطفُ للنّذلِ دِرْعٌ يَستَجيرُ بهِ
إن راعَهُ وجَلٌ أوْ هالَهُ الخَطَرُ
فإنْ لَقيتَ قوِيًّا لَيِّنًا فبِهِ
لأعينٍ فَقَدتْ إبصارَها البصَرُ

لَيسَ في الغابِ لَطيفٌ — لينهُ لينُ الجبانْ
فغُصونُ البانِ تَعلُو — في جوار السّنديانْ
وإذا الطاووسُ أُعطي — حلّةً كالأرجوانْ
فهوَ لا يدري أحَسنٌ — فيهِ أمْ فيهِ افتتانْ
أعطِني النّايَ وغَنّ — فالغِنا لطفُ الوَديعْ
وأنِينُ النّايِ أبقَى — من ضَعيفٍ وضَليعْ

***

والظرفُ في النّاس تمويهٌ وأَبْغَضُهُ
ظَرْفُ الأُلى في فنونِ الاقتدا مهرُوا
من مُعجَبٍ بأمورٍ وهوَ يَجهَلُها
وليسَ فيها لهُ نَفعٌ ولا ضَرَرُ
ومن عَتيٍّ يرَى في نَفسِه ملكًا
في صَوْتِها نَغَمٌ في لَفظِها سُوَرُ

ومــن شَــمــوخٍ غـــدَتْ مــرآتُــه فَـلَـكًـا
وظِـــلّـــهُ قَــمَــرًا يَـــزْهـــو ويَـــزْدَهـــرُ

لـيـسَ فـي الـغـابِ ظَـريـفٌ ظَـــرْفُــه ضـعـف الـضّـئـيـلْ
فـالـصَّـبـا وهـــيَ عَـلـيـلٌ مـــا بـهـا سـقـمُ الـعـلـيـلْ
إنّ بـــالأنـــهـــارِ طَـعْـمًـا مـثـلَ طَـعـم الـسّـلـسَـبـيـلْ
وبـــهـــا هَــــوْلٌ وعَــــزْمٌ يــجـرفُ الـصَّـلـدَ الـثّـقـيـلْ
أعـطِـنـي الـــنّـــايَ وغَـــنّ فـالـغِـنـا ظَـــرْفُ الـظّـرِيـفْ
وأنـــيـــنُ الـــنّـــايِ أبـقَـى مِـــنْ رقـيـــقٍ وكَـثـيـفْ

***

والـحـبُّ فـي الـنـاسِ أشـكـالٌ وأكـثـرُها
كـالـعشـبِ فـي الـحـقـلِ لا زهــرٌ ولا ثـمـرُ
وأكــثــرُ الـحـبّ مـثـلُ الــرّاحِ أيـسَـرُهُ
يُـــرْضـــي وأكـــثـــرُهُ لـلـمـدمـن الـخـطـرُ
والـحـبُّ إن قـــادَتِ الأجـسـامُ موكـبَهُ
إلـــى فـــراشٍ مـــنَ الأغـــراضِ يـنـتَـحـرُ
كـــأنّـــهُ مـــلـــكٌ فــــي الأســـرِ مُـعـتَـقَـلٌ
يـــأبَـــى الـحـيـاةَ وأعـــوانٌ لـــه غـــدرُوا

لـيـسَ فـي الـغـابِ خـلـيـعٌ يـــدّعـــي نـبـلَ الـغـرامْ
فــــإذا الـــثّـــيـــرانُ خـــارَتْ لـــم تــقــلْ هـــذا الـهـيـامْ
إنّ حُـــبَّ الـــنّـــاسِ داءٌ بـــيـــنَ لـــحـــمٍ وعـــظـــامْ
فــــإذا ولّـــى شـبـابٌ يـخـتَـفـي ذاكَ الـسّـقـامْ
أعـطِـنـي الـــنّـــايَ وغَـــنّ فـالـغِـنـا حـــبٌّ صَـحـيـحْ
وأنِـــيـــنُ الـــنّـــايِ أبـقَـى مـــن جَـمـيـلٍ ومَـلـيـحْ

***

فــإنْ لَـقـيـتَ مُـحِـبًّـا هـائِـمًـا كـلِفًـا
فـي جـوعِـه شـبـعٌ فـي وِرْدِه الـصَّـدَرُ
والـنـاسُ قـالـوا هـوَ الـمَـجـنـونُ مـاذا عسَى
يَـبـغـي مـنَ الـحـبّ أو يـرْجـو فيصطبرُ؟
أفـي هـوًى تـلـكَ يَـسـتَـدمـي مَـحـاجـرَهُ
ولَـيـسَ فـي تـلـكَ مـا يـحـلـو ويُـعـتَـبـرُ!
فـقـلْ هـمُ الـبُـهـمُ مـاتـوا قـبلَـمـا وُلـدوا
أنّـى دروا كـنـهَ مـن يـحـيـي ومـا اخـتـبرُوا

لـيـسَ فـي الـغـابـاتِ عـدلٌ لا ولا فـيـهـا الـرّقـيـبْ
فــإذا الــغــزْلانُ جُـنّـتْ إذْ تــرَى وجــه الـمـغـيـبْ
لا يَـقـولُ الـنّـسـرُ واهًـا إنّ ذا شـيء عَـجـيـبْ
إنّـمـا الـعـاقـلُ يـدعـى عـنـدنـا الأمـرَ الـغـريـبْ
أعـطِـنـي الـنّـايَ وغَـنّ فـالـغِـنـا خَـيـرُ الـجـنـونْ
وأنِـيـنُ الـنّـايِ أبـقَـى مـن حَـصـيـفٍ ورَصـيـنْ

***

وقـلْ نَـسـيـنـا فـخـارَ الـفـاتـحـيـنَ ومـا
نَـنـسَـى الـمَـجـانِـيـنَ حـتّـى يـغـمرَ الـغـمرُ
قـد كـان فـي قـلـبِ ذي الـقـرْنـيـنِ مـجـزَرَةٌ
وفـي حُـشـاشـةِ قـيـسٍ هـيـكـلٌ وقـرُ
فـفـي انـتـصـاراتِ هـذا غـلـبـةٌ خـفـيَـتْ
وفـي انـكـسـارات هـذا الـفـوزُ والـظـفـرُ
والـحـبّ فـي الـرّوحِ لا فـي الجسم نـعـرفُـهُ
كـالـخـمـرِ لـلـوَحـي لا لـلـسّـكـرِ يَـنـعـصرُ

لـيـسَ فـي الـغـابـاتِ ذِكـرٌ غـيـر ذكــر الـعـاشـقـيـنْ
فــالألــى ســادوا ومــادوا وطــغــوا بـالـعـالـمـيـنْ
أصــبَـحــوا مـثـل حــروفٍ فــي أسـامــي الـمـجـرِمـيـنْ
فـالـهـوَى الـفـضَّاحُ يُدعـى عــنــدَنـا الـفَـتـح الـمـبـيـنْ
أعـطِـنـي الــنّــايَ وغَــنّ وانـــسَ ظـلـمَ الأقــويــاء
إنّـمـا الــزّنْـبَـقُ كـأسٌ لـلـنّـدَى لا لـلـدّمـاء

***

ومـا الـسـعـادةُ فـي الـدنـيـا سـوى شَـبَحٍ
يُـرْجـى فـإن صـارَ جـسمًا مـلّـه الـبـشَرُ
كـالـنّـهـرِ يـركـضُ نـحـو الـسّـهـل مـكـتـدحًا
حـتّـى إذا جـاءه يـبـطـي ويَـعـتـكِـرُ
لـم يَـسـعَـدِ الـنّـاسُ إلّا فـي تـشـوّقـهـمْ
إلـى الـمَـنـيـعِ فـإن صـارُوا بـهِ فَـتـرُوا
فـإن لَـقـيـتَ سَـعـيـدًا وهـوَ مُـنـصـرِفٌ
عـنِ الـمَـنـيـعِ فـقُـل فـي خُـلـقـه الـعـبَـرُ

لـيـس فـي الـغـابِ رَجــاءٌ لا ولا فــيــهِ الـمَـلَـلْ
كـيـفَ يـرْجـو الـغـابُ جـزْءًا وعـلـى الـكـلّ حـصَـلْ؟
وبـمـا الـسّـعـيُ بـغـابٍ أمَـلاً وهـوَ الأمَـلْ؟
إنّـمـا الـعـيـشُ رجـاءٌ إحـدى هـاتـيـك الـعِـلَـلْ
أعـطِـنـي الـنّـايَ وغَـنّ فـالـغِـنـا نـارٌ ونُـورْ
وأنِـيـنُ الـنّـايِ شَـوْقٌ لا يُـدانـيـهِ الـفُـتُـورْ

***

وغايةُ الرّوح طيَّ الرّوح قد خفيتْ
فلا المَظاهرُ تُبديها ولا الصُّوَرُ
فذا يَقولُ هيَ الأرْواحُ إنْ بَلَغتْ
حدَّ الكمالِ تَلاشتْ وانقضَى الخبرُ
كأنّما هيَ أثمارٌ إذا نَضِجَتْ
ومرّتِ الرّيحُ يَوْمًا عافُها الشّجَرُ
وإذْ يَقولُ هيَ الأجسامُ إنْ هجعتْ
لم يَبقَ في الرّوحِ تهويمٌ ولا سَمَرُ
كأنّما هيَ ظِلٌّ في الغَديرِ إذا
تعكّرَ الماءُ ولّتْ وامّحَى الأثَرُ
ظلَّ الجميع فلا الذرّاتُ في جَسَدٍ
تُثوَى ولا هيَ في الأرْواحِ تحتضَرُ
فما طَوَتْ شمألٌ أذيالَ عاقلَةٍ
إلّا ومَرّ بها الشّرْقي فتَنتشرُ

لم أجدْ في الغابِ فرْقًا   بينَ نَفسٍ وجَسدْ
فالهوا ماءٌ تَهادَىَ   والندى ماءٌ رَكَد
والشذا زهرٌ تَمادى   والثرى زهرٌ جَمد
وظلالُ الحورِ حورٌ   ظَنّ لَيلًا فرَقَدْ
أعطِني النّايَ وغَنّ   فالغِنا جسمٌ ورُوحْ
وأنِينُ النّاي أبقَى   من غَبوقٍ وصَبوحْ

***

والـجـسـمُ لـلـرّوحِ رِحْـمٌ تـسـتـكـنُّ بـهِ
حـتّـى الـبـلـوغِ فتـسـتـعلي ويـنـغـمرُ
فـهـيَ الـجـنِـيـنُ ومـا يـومُ الـحِـمـامِ سوَى
عـهـدِ الـمـخـاض فـلا سـقـطٌ ولا عـسـرُ
لـكـنّ فـي الـنّـاسِ أشـبـاحًـا يُـلازمُـهـا
عـقـمُ الـقِـسـيّ الـتـي مـا شـدّهـا وتـرُ
فـهـيَ الـدّخـيـلـةُ والأرواحُ مـا وُلـدتْ
مـنَ الـقـفـيـلِ ولـم يـحـبـلْ بـهـا الـمـدَرُ
وكـمْ عـلـى الأرْضِ مـن نَـبـتٍ بـلا أرجٍ
وكـم عـلا الأفـقَ غَـيـمٌ مـا بـهِ مَـطَـرُ

لـيـسَ فـي الـغـابِ عَـقـيـمٌ لا ولا فـيـهـا الـدّخـيـلْ
إنَّ فـي الـتّـمـرِ نـواةً حـفـظـتْ سـرّ الـنّـخـيـلْ
وبـقـرْصِ الـشّـهـدِ رَمـزٌ عـن قَـفـيـرٍ وحُـقـولْ
إنّـمـا الـعـاقـرُ لَـفـظٌ صـيـغَ مِـن مـعـنـى الـخـمـولْ
أعـطِـنـي الـنّـايَ وغَـنّ فـالـغِـنـا جـسْـمٌ يَـسـيـلْ
وأنِـيـنُ الـنّـايِ أبْـقَـى مـن مـسـوخٍ ونـغـولْ

***

والـمـوتُ فـي الأرض لابـن الأرض خـاتـمـةٌ
ولـلأثـيـريّ فـهـوَ الـبَـدءُ والـظّـفَـرُ
فـمـن يُـعـانـقُ فـي أحـلامـهِ سَـحَـرًا
يَـبـقـى ومَـن نـام كـلَّ الـلّـيـل يَـنـدثـرُ
ومـن يـلازمُ تـرْبًـا حـال يَـقـظـتِـهِ
يـعـانـق الـتـربَ حـتّـى تـخـمـد الـزُّهـرُ

فالموْتُ كالبحر، مَنْ خفّتْ عناصرهُ
يجتازُه، وأخو الأثقالِ يَنحدِرُ

ليسَ في الغاباتِ مَوْتٌ لا ولا فيها القبورْ
فإذا نيسانُ ولّى لم يمتْ معهُ السُّرُورْ
إنّ هَوْلَ الموْتِ وَهْمٌ يَنثني طَيَّ الصّدورْ
فالذي عاشَ رَبيعًا كالذي عاشَ الدّهورْ
أعطِني النَّايَ وغَنّ فالغِنا سرُّ الخُلودْ
وأنِينُ النّايِ يَبقَى بَعد أن يَفنى الوُجُودْ

***

أعطِني النّايَ وغَنّ وانسَ ما قلتُ وقلتَا
إنّما النّطقُ هباءٌ فأفِدْني ما فَعَلتَا

هل تخِذتَ الغابَ مثلي منزلًا دونَ القصُورْ
فتَتَبَّعتَ السّواقي وتَسَلَّقتَ الصّخورْ؟

هل تحَمّمتَ بعِطْرٍ وتَنَشّفتَ بنُورْ
وشربتَ الفجرَ خَمرًا في كؤوسٍ من أثِيرْ؟

هل جَلَستَ العصرَ مثلي بينَ جفناتِ العنَبْ
والعَناقيدُ تَدَلّتْ كثريَّاتِ الذّهَبْ

فهْيَ للصّادي عُيُونٌ ولمن جاعَ الطّعامْ
وهيَ شهدٌ وهيَ عطرٌ ولمن شاء المدامْ

هل فرَشتَ العشبَ لَيلًا وتَلحّفتَ الفَضَا
زاهدًا في ما سيأتي ناسيًا ما قد مَضَى؟

وسكوتُ اللّيلِ بحرٌ   مَوْجُهُ في مسمَعكْ
وبصَدرِ اللّيلِ قلبٌ   خافقٌ في مضْجعكْ

أعطِني النّايَ وغنّ   وانسَ داءً ودواء
إنّما النّاسُ سُطُورٌ   كُتِبَتْ لكِنْ بماء

ليتَ شعري أيّ نَفعٍ   في اجتماعٍ وزحامْ
وجدالٍ وضَجيجٍ   واحتِجاجٍ وخِصامْ؟

كلُّها أنفاقُ خُلْدٍ   وخيوط العنكَبوتْ
فالذي يحيا بعَجزٍ   فهو في بطْءٍ يَموتْ

***

العيشُ في الغابِ والأيّام لو نُظمتْ
في قَبضَتي لغدتْ في الغابِ تَنتثرُ
لكنْ هوَ الدَّهرُ في نَفسي لهُ أرَبٌ
فكُلّما رُمتُ غابًا قامَ يَعتَذِرُ
وللتّقاديرِ سُبلٌ لا تُغيّرُها
والناس في عجزهم عن قصدهم قصرُوا

العواصف

1920

حفّار القبور

في وادي ظلّ الحياة، المرصوف بالعظام والجماجم، سرتُ وحيدًا في ليلة حجب الضباب نجومها، وخامر الهول سكينتها.

هناك، على ضفاف نهر الدماء والدموع، المنساب كالحيَّة الرقطاء، المتراكض كأحلام المجرمين، وقفتُ مصغيًا لهمس الأشباح، محدّقًا إلى اللاشيء.

ولمّا انتصف الليل وقد خرجت مواكب الأرواح من أوكارها، سمعت وقع أقدام ثقيلة تقترب منّي، فالتفتُّ وإذا بشبح جبّار مهيب منتصب أمامي، فصرخت مذعورًا: ماذا تريد منّي؟

فنظر إليّ بعينين مشعشعتين كالمسارج ثمّ أجاب بهدوء: لا أريد شيئًا وأريد كلّ شيء.

قلت: دعني وشأني وسر في سبيلك.

فقال مبتسمًا: ما سبيلي سوى سبيلك، فأنا سائر حيث تسير ورابض حيث تربض.

قلت: جئت أطلب الوحدة فخلّني ووحدتي.

فقال: أنا الوحدة نفسها فلماذا تخافني؟

قلت: لست بخائف منك.

فقال: إن لم تكن خائفًا فلماذا ترتجف مثل قصبة أمام الريح؟

قلت: إنّ الهواء يتلاعب بأثوابي فترتجف، أمّا أنا فلا أرتجف.

فضحك مقهقهًا بصوت يضارع ضجيج العاصفة ثمّ قال: أنت جبان تخافني وتخاف أن تخافني، فخوفك مزدوج ولكنّك تحاول إخفاءه عنّي وراء خداع أوهى من خيوط العنكبوت فتضحكني وتغيظني.

ثمّ جلس على الصخر فجلست قسر إرادتي محدّقًا إلى ملامحه المهيبة.

وبعد هنيهة خلتها ألف عام نظر إليّ مستهزئًا وسألني قائلًا: ما اسمك؟

قلت: اسمي عبد الله.

فقال: ما أكثر عبيد الله وما أعظم متاعب الله بعبيده! فهلّا دعوت نفسك سيّد الشياطين وأضفت بذلك إلى مصائب الشياطين مصيبة جديدة؟

قلت: اسمي عبد الله وهو اسم عزيز أعطاني إيّاه والدي يوم ولادتي فلن أبدّله باسم آخر.

فقال: إنّ بليّة الأبناء في هبات الآباء، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظلّ عبد الأموات حتّى يصير من الأموات.

فحنيت رأسي مفكّرًا بكلماته، مسترجعًا إلى حافظتي رسوم أحلام شبيهة بحقيقته، ثمّ عاد فسألني قائلًا: وما صناعتك؟

قلت: أنظم الشعر وأنثره، ولي في الحياة آراء أطرحها على الناس.

فقال: هذه مهنة عتيقة مهجورة لا تنفع الناس ولا تضرّهم.

قلت: وماذا عسى أن أفعل بأيّامي ولياليّ لأنفع الناس؟

فقال: اتّخذ حفر القبور صناعة تريح الأحياء من جثث الأموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم.

قلت: لم أرَ قط جثث الأموات مكردسة حول المنازل.

فقال: أنت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون أمام عاصفة الحياة فتظنّهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ولكنّهم لم يجدوا من يدفنهم فظلّوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم.

قلت وقد ذهب عنّي بعض الوجل: وكيف أُميّز بين الحي والميت وكلاهما يرتعش أمام العاصفة؟

فقال: إنّ الميت يرتعش أمام العاصفة، أمّا الحي فيسير معها راكضًا ولا يقف إلّا بوقوفها.

واتّكأ إذ ذاك على ساعده فبانت عضلاته المحبوكة كأُصول سنديانة مملوءة بالعزم والحياة، ثمّ سألني قائلًا: أمتزوّج أنت؟

قلت: نعم وزوجتي امرأة حسناء وأنا كلف بها.

فقال: ما أكثر ذنوبك ومساوئك! إنّما الزواج عبودية الإنسان لقوّة الاستمرار. فإن شئت أن تتحرّر طلّق امرأتك وعش خاليًا.

قلت: لي ثلاثة أولاد كبيرهم يلعب بالأكر وصغيرهم يلوك الكلام ولا يلفظه، فماذا أفعل بهم؟

فقال: علّمهم حفر القبور، وأعطِ كلّ واحد رفشًا ثمّ دعهم وشأنهم.

قلت: ليس لي طاقة على الوحدة والانفراد، فقد تعوّدت لذّة العيش بين زوجتي وصغاري، فإن تركتهم تركتني السعادة.

فقال: ما حياة المرء بين زوجته وأولاده سوى شقاء أسود مستتر وراء طلاء أبيض. ولكن إن كان لا بدّ من الزواج فاقترن بصبيّة من بنات الجنّ.

قلت مستغربًا: ليس للجنّ حقيقة فلماذا تخدعني؟

فقال: ما أغباك فتى! ليس لغير الجنّ حقيقة، ومن لم يكن من الجنّ كان من عالم الريب والالتباس.

قلت: وهل لصبايا الجنّ ظرف وجمال؟

فقال: لهنّ ظرف لا يزول وجمال لا يذبل.

قلت: أرني جنّية فأقنع.

فقال: لو كان بإمكانك أن ترى الجنّية وتلمسها لما أشرت عليك بزواجها.

قلت: وما النفع من زوجة لا تُرى ولا تُمسّ؟

فقال: هو نفع بطيء ينتج عنه انقراض المخاليق والأموات الذين يختلجون أمام العاصفة ولا يسيرون معها.

وحوّل وجهه عنّي دقيقة ثمّ عاد فسألني قائلًا: وما دينك؟

قلت: أؤمن بالله وأُكرّم أنبياءه وأحبّ الفضيلة ولي رجاء بالآخرة.

فقال: هذه ألفاظ رتّبتها الأجيال الغابرة ثمّ وضعها الاقتباس بين شفتيك. أمّا الحقيقة المجرّدة فهي أنّك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها ولا تهوى غير ميولها ولا رجاء لك إلّا بخلودها. منذ البدء والإنسان يعبد نفسه ولكنّه يلقّبها بأسماء مختلفة باختلاف ميوله وأمانيه، فتارة يدعوها البعل وطورًا المشتري وأخرى الله.

ثمّ ضحك فانفرجت ملامحه تحت نقاب من الهزء والسخرية وزاد قائلًا: ولكن ما أغرب الذين يعبدون نفوسهم، ونفوسهم جيف منتنة!

***

ومرّت دقيقة وأنا أُفكّر بأقواله فأجد فيها معاني أغرب من الحياة وأهول من الموت وأعمق من الحقيقة. حتّى إذا ما تاهت فكرتي بين مظاهره ومزاياه، وهاجت ميولي لاستعلان أسراره وخفاياه، صرخت قائلًا:

إن كان لك ربّ فبربّك قل لي من أنت؟

قال: أنا ربّ نفسي.

فقلت: وما اسمك؟

قال: الإله المجنون.

فقلت: وأين ولدت؟

قال: في كلّ مكان.

فقلت: ومتى ولدت؟

قال: في كلّ زمان.

فقلت: ممّن تعلّمت الحكمة، ومن ذا الذي باح لك بأسرار الحياة وبواطن الوجود؟

قال: لست بحكيم، فالحكمة صفة من صفات البشر الضعفاء، بل أنا مجنون قويّ أسير فتميد الأرض تحت قدميّ وأقف فتقف معي مواكب النجوم. وقد تعلّمت الاستهزاء بالبشر من الأبالسة، وفهمت أسرار الوجود والعدم بعد أن عاشرت ملوك الجن ورافقت جبابرة اللّيل.

فقلت: وماذا تفعل في هذه الأودية الوعرة وكيف تصرف أيّامك ولياليك؟

قال: في الصباح أجدّف على الشمس، وعند الظهيرة ألعن البشر، وفي المساء أسخر بالطبيعة، وفي الليل أركع أمام نفسي وأعبدها.

فقلت: وماذا تأكل وماذا تشرب وأين تنام؟

قال: أنا والزمان والبحر لا ننام ولكنّنا نأكل أجساد البشر ونشرب دماءهم ونتحلّى بلهاثهم.

وانتصب إذ ذاك مبكّلًا ذراعيه على صدره ثمّ حدّق إلى عينيّ وقال بصوت عميق هادئ: إلى اللقاء! فأنا ذاهب إلى حيث تلتئم الغيلان والجبابرة.

فهتفت قائلًا: امهلني دقيقة فلي سؤال آخر.

فأجاب وقد انحجب بعض قامته بضباب الليل: إن الآلهة المجانين لا يمهلون أحدًا. فإلى اللقاء.

واختفى عن بصري وراء ستائر الدجى وتركني خائفًا طائشًا محتارًا به وبنفسي.

ولمّا حوّلت قدمي عن ذلك المكان سمعت صوته متموّجًا بين تلك الصخور الباسقة قائلًا:

– إلى اللقاء! إلى اللقاء!

وفي اليوم التالي طلّقت امرأتي وتزوّجت صبيّة من بنات الجنّ. ثمّ أعطيت كلّ واحد من أطفالي رفشًا ومحفرًا وقلت لهم: اذهبوا وكلّما رأيتم ميتًا واروه في التراب.

ومن تلك الساعة إلى الآن وأنا أحفر القبور وألحد الأموات، غير أنّ الأموات كثيرون وأنا وحدي وليس من يسعفني!

العبودية

إنّما الناس عبيد الحياة وهي العبوديّة التي تجعل أيّامهم مكتنفة بالذلّ والهوان ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع.

ها قد مرّ سبعة آلاف سنة على ولادتي الأولى وللآن لم أَرَ غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبّلين.

لقد جبت مشارق الأرض ومغاربها، وطفت في ظلّ الحياة ونورها، وشاهدت مواكب الأمم والشعوب سائرة من الكهوف إلى الصروح، ولكنّني لم أَرَ للآن غير رقاب منحنية تحت الأثقال، وسواعد موثقة بالسلاسل، وركب جاثية أمام الأصنام.

قد اتّبعت الإنسان من بابل إلى باريس، ومن نينوى إلى نيويورك، ورأيت آثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار أقدامه. وسمعت الأودية والغابات تردّد صدى نواح الأجيال والقرون.

دخلت القصور والمعاهد والهياكل، ووقفت حذاء العروش والمذابح والمنابر، فرأيت العامل عبدًا للتاجر، والتاجر عبدًا للجنديّ، والجنديّ عبدًا للحاكم، والحاكم عبدًا للملك، والملك عبدًا للكاهن، والكاهن عبدًا للصنم، والصنم تراب جبلته الشياطين ونصبته فوق رابية من جماجم الأموات.

دخلت منازل الأغنياء الأقوياء وأكواخ الفقراء الضعفاء، ووقفت في المخادع الموشاة بقطع العاج وصفائح الذهب، وفي المآوي المفعمة بأشباح اليأس وأنفاس المنايا، فرأيت الأطفال يرضعون العبودية مع اللبن، والصبيان يتلقّنون الخضوع مع حروف الهجاء، والصبايا يرتدين الملابس مبطّنة بالانقياد والخنوع، والنساء يهجعن على أسرّة الطاعة والامتثال.

اتّبعت الأجيال من ضفاف الكنج إلى شاطئ الفرات إلى مصبّ النيل إلى جبل سينا إلى ساحات أثينا إلى كنائس رومية إلى أزقّة القسطنطينيّة إلى بنايات لندن فرأيت العبوديّة تسير بكلّ مكان في موكب مذابحها ويدعونها إلهًا، ثمّ يسكبون الخمور والطيوب على قدميها ويدعونها ملكًا، ثمّ يحرقون البخّور أمام تماثيلها ويدعونها نبيًّا، ثمّ يخرّون ساجدين لديها ويدعونها شريعة، ثمّ يتحاربون ويتقاتلون من أجلها ويدعونها وطنيّة، ثمّ يستسلمون إلى مشيئتها ويدعونها ظلّ الله على الأرض، ثمّ يحرقون منازلهم ويهدمون مبانيهم بإرادتها ويدعونها إخاء ومساواة، ثمّ يجدّون ويجاهدون في سبيلها ويدعونها مالًا وتجارة... فهي ذات أسماء عديدة وحقيقة واحدة ومظاهر كثيرة لجوهر واحد، بل هي علّة أزليّة أبديّة تجيء بأعراض متباينة وقروح مختلفة يتوارثها الأبناء عن الآباء مثلما يتوارثون نسمة الحياة، وتلقي بذورها العصور في تربة العصور مثلما تستغلّ الفصول ما تزرعه الفصول.

***

وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات وأشكالها العبوديّة العمياء، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم وتجعلهم أجسادًا جديدة لأرواح عتيقة وقبورًا مكلّسة لعظام بالية.

والعبوديّة الخرساء، وهي التي تعلّق أيّام الرجل بأذيال الزوجة التي يمقتها. وتلصق جسد المرأة بمضجع الزوج الذي تكرهه وتجعلهما من الحياة بمنزلة النعل من القدم...

والعبوديّة الصمّاء، وهي التي تُكره الأفراد على اتّباع مشارب محيطهم والتلوّن بألوانه والارتداء بأزيائه فيصبحون من الأصوات كرجع الصدى ومن الأجسام كالخيالات.

والعبوديّة العرجاء، وهي التي تضع رقاب الأشدّاء تحت سيطرة المحتالين، وتسلّم عزم الأقوياء إلى أهواء الطامعين بالمجد والاشتهار فيمسون مثل آلات تحرّكها الأصابع ثمّ توقفها ثمّ تكسرها.

والعبوديّة الشمطاء، وهي التي تهبط بأرواح الأطفال من الفضاء المتّسع إلى منازل الشقاء حيث تقيم الحاجة بجانب الغباوة، ويقطن الذلّ في جوار القنوط، فيشبّون تعساء ويعيشون مجرمين ويموتون مرذولين.

والعبوديّة الرقطاء، وهي التي تبتاع الأشياء بغير أثمانها، وتسمّي الأمور بغير أسمائها، فتدعو الاحتيال ذكاء، والثرثرة معرفة، والضعف لينًا، والجبانة إباء.

والعبوديّة العوجاء، وهي التي تحرّك بالخوف ألسنة الضعفاء فيتكلّمون بما لا يشعرون، ويتظاهرون بما لا يضمرون، ويصبحون بين أيدي المسكنة مثل ثوب تطويه وتنشره.

والعبوديّة الحدباء، وهي التي تقود قومًا بشرائع قوم آخرين.

والعبوديّة الجرباء، وهي التي تتوّج أبناء الملوك ملوكًا.

والعبوديّة السوداء، وهي التي تسم بالعار أبناء المجرمين الأبرياء.

والعبوديّة للعبودية نفسها هي قوّة الاستمرار.

***

ولمّا تعبت من ملاحقة الأجيال، ومللت النظر إلى مواكب الشعوب والأمم، جلست وحيدًا في وادي الأشباح حيث تختبئ خيالات الأزمنة الغابرة وتربض أرواح الأزمنة الآتية، هناك رأيت شبحًا هزيلًا يسير منفردًا محدّقًا إلى وجه الشمس فسألته: من أنت وما اسمك؟

قال: اسمي الحريّة.

قلت: وأين أبناؤك؟

قال: واحد مات مصلوبًا وواحد مات مجنونًا وواحد لم يولد بعد.

ثمّ توارى عن عيني وراء الضباب.

المليك السجين

خفّف عنك أيّها المليك الأسير، فلست في سجنك أشدّ بلاء منّي في جسدي.

اربض وكن متجلّدًا يا أبا الأهوال، فالاضطراب أمام النوائب حريّ ببنات آوى؛ ولا يجمل بالملوك المسجونين سوى الاستهزاء بالسجن والسجّان.

سكّن روعك يا فتى العزم وانظر إليّ فأنا بين عبيد الحياة مثلك بين قضبان القفص، وما الفرق بيننا سوى حلم مزعج يجاور روحي ولكنّه يخشى الاقتراب منك.

كلانا منفيّ عن بلاده بعيد عن أهله وأحبابه، فخفّض عليك جأشك وكن مثلي صابرًا على مضض الأيّام والليالي، ساخرًا بهؤلاء الضعفاء الذين يتغلّبون علينا بعددهم لا بعزم أفرادهم.

وما عسى ينفع الزئير والضجيج والناس طرشٌ لا يسمعون؟

لقد صرخت قبلك في آذانهم فلم أستوقف غير أشباح الدجى، وتفحّصت مثلك طبقاتهم فلم أجد بينهم سوى جبان يستبسل متجبّرًا أمام المقيّدين بالسلاسل وضعيف يترفّع متصلّبًا أمام المسجونين في الأقفاص.

انظر أيّها المليك الجبّار، انظر إلى هؤلاء المحيطين بسجنك الآن، تفرّس في وجوههم تجد في ملامحهم ما كنت تراه في سحنات أدنى رعاياك وأعوانك في مجاهل الصحراء، فمنهم من يشبه الأرنب بضعف قلبه، ومنهم من يماثل الثعلب باحتياله، ومنهم من يضارع الأفعى بخبثه، ولكن ليس بينهم من له سلامة الأرنب وذكاء الثعلب وحكمة الأفعى.

انظر فهذا كالخنزير قذارة أمّا لحمه فلا يؤكل. وهذا كالجاموس خشونة أمّا جلده فلا ينفع. وذاك كالحمار غباوة ولكنّه يمشي على الاثنتين. وذلك كالغراب شؤمًا ولكنّه يبيع نعيبه في الهياكل. وتلك كالطاووس تيهًا وإعجابًا أمّا ريشها فمستعار.

وانظر أيّها السلطان المهيب، انظر إلى تلك القصور والمعاهد، فهي أوكار ضيّقة يسكنها الإنسان مفاخرًا بزخارف سقوفها التي تحجبه عن النجوم، مغتبطًا بصلابة جدرانها التي تفصله عن أشعّة الشمس. هي كهوف مظلمة تذبل في ظلالها أزاهر الشباب، وتترمّد في زواياها جمرة الحبّ، وتتحوّل في فضائها رسوم الأحلام إلى أعمدة من دخان. هي سراديب غريبة يتمايل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنازع، وينتصب فيها تخت العروس بقرب نعش الميت.

وانظر أيّها الأسير الجليل، انظر إلى تلك الشوارع المنفرجة والأزقّة الضيّقة، فهي أودية خطرة المعابر يتربّص اللصوص بين منعرجاتها وتختبئ الخوارج بين جنباتها. هي ساحة قتال مستتبّ بين الرغائب والرغائب، تتنازل فيها الأرواح متضاربة ولكن بغير السيوف، وتتصارع متناهشة ولكن بغير الأنياب. بل هي غابة الأهوال تسكنها حيوانات داجنة المظاهر، معطّرة الأذناب، مصقولة القرون، لا تقضي شرائعها ببقاء الأنسب بل بدوام الأروغ والأحيل، ولا تؤول تقاليدها إلى الأفضل والأقوى بل إلى الأخبث والأكذب. أمّا ملوكها فليست أُسدًا نظيرك بل

هم مخاليق عجيبة لهم مناقد النسور وبراثن الضَّبُع وألسنة العقارب ونقيق الضفادع.

***

فدتك روحي أيّها المليك السجين، فقد أطلت الوقوف لديك وأسهبت بالكلام أمامك. ولكن هو القلب المخلوع عن عرشه يتعزّى بالملوك المخلوعين، وهي النفس السجينة المستوحشة تستأنس بالسجناء والمستوحشين. فسامح فتى يلوك الكلام متسلّيًا به عن الطعام، ويرتشف الأفكار مستعيضًا بها عن الشراب.

إلى اللقاء أيّها الجبّار المهيب، فإن لم يكن اللقاء في هذا العالم الغريب فسيكون في عالم الأشباح حيث تجتمع أرواح الملوك بأرواح الشهداء.

يسوع المصلوب

كُتبت يوم الجمعة الحزينة

اليوم وفي مثل هذا اليوم من كلّ سنة تستيقظ الإنسانيّة من رقادها العميق وتقف أمام أشباح الأجيال ناظرة بعيون مغلّفة بالدموع نحو جبل الجلجلة لترى يسوع الناصري معلّقًا على خشبة الصليب... وعندما تغيب الشمس عن مآتي النهار تعود الإنسانيّة فتركع مصلّية أمام الأصنام المنتصبة على قمّة كلّ رابية وفي سفح كلّ جبل.

اليوم تقود الذكرى أرواح المسيحيّين من جميع أقطار العالم إلى جوار أورشليم فيقفون هناك صفوفًا صفوفًا قارعين صدورهم، محدّقين إلى شبح مكلّل بالأشواك، باسط ذراعيه أمام اللانهاية، ناظر من وراء حجاب الموت إلى أعماق الحياة... ولكن لا تسدل ستائر الليل على مسارح هذا النهار حتّى يعود المسيحيّون فيضطجعوا جماعات جماعات في ظلال النسيان بين لحف الجهالة والخمول.

وفي مثل هذا اليوم من كلّ سنة يترك الفلاسفة كهوفهم المظلمة والمفكرون صوامعهم الباردة والشعراء أوديتهم الخياليّة ويقفون جميعهم على جبل عال. صامتين متهيّبين مصغين إلى صوت فتى يقول لقاتليه: «يا أبتاه، اغفر لهم لأنّهم لا يدرون ما يفعلون»... ولكن لا تكتنف

السكينة أصوات النور حتّى يعود الفلاسفة والمفكّرون والشعراء فيكفنوا أرواحهم بصفحات الكتب البالية.

إنّ النساء المشغولات ببهجة الحياة المشغوفات بالحلى والحلل يخرجن اليوم من منازلهن ليشاهدن المرأة الحزينة الواقفة أمام الصليب وقوف الشجرة اللينة أمام عواصف الشتاء، ويقتربن منها ليسمعن أنينها العميق وغصّاتها الأليمة.

أمّا الفتيان والصبايا الراكضون مع تيّار الأيّام إلى حيث لا يدرون فيقفون اليوم هنيهة ويلتفتون إلى الوراء ليروا الصبّية المجدليّة تغسل بدموعها قطرات الدماء عن قدمي رجل منتصب بين الأرض والسماء. ولكن عندما تملّ عيونهم النظر إلى هذا المشهد يتحوّلون مسرعين ضاحكين.

في مثل هذا اليوم من كلّ سنة تستيقظ الإنسانيّة بيقظة الربيع وتقف باكية لأوجاع الناصري ثمّ تطبق أجفانها وتنام نومًا عميقًا. أمّا الربيع فيظلّ مستيقظًا متبسمًا سائرًا حتّى يصير صيفًا مذهّب الملابس معطّر الأذيال.

الإنسانيّة امرأة يلذّ لها البكاء والنحيب على أبطال الأجيال. ولو كانت الإنسانيّة رجلًا لفرحت بمجدهم وعظمتهم.

الإنسانيّة طفلة تقف متأوّهة بجانب الطائر الذبيح ولكنّها تخشى الوقوف أمام العاصفة الهائلة التي تهصر بمسيرها الأغصان اليابسة وتجرف بعزمها الأقذار المنتنة.

الإنسانيّة ترى يسوع الناصري مولودًا كالفقراء عائشًا كالمساكين مهانًا كالضعفاء مصلوبًا كالمجرمين فتبكيه وترثيه وتندبه وهذا كلّ ما تفعله لتكريمه.

منذ تسعة عشر جيلًا والبشر يعبدون الضعف بشخص يسوع، ويسوع كان قويًّا ولكنّهم لا يفهمون معنى القوّة الحقيقية.

ما عاش يسوع مسكينًا خائفًا ولم يمت شاكيًا متوجّعًا بل عاش ثائرًا وصلب متمرّدًا ومات جبّارًا.

لم يكن يسوع طائرًا مكسور الجناحين بل كان عاصفة هوجاء تكسر بهبوبها جميع الأجنحة المعوجّة.

لم يجئ يسوع من وراء الشفق الأزرق ليجعل الألم رمزًا للحياة بل جاء ليجعل الحياة رمزًا للحقّ والحريّة.

لم يخف يسوع مضطهديه ولم يخشَ أعداءه ولم يتوجّع أمام قاتليه بل كان حُرًّا على رؤوس الأشهاد جريئًا أمام الظلم والاستبداد، يرى البثور الكريهة فيبضعها، ويسمع الشرّ متكلّمًا فيخرسه، ويلتقي الرياء فيصرعه.

لم يهبط يسوع من دائرة النور الأعلى ليهدم المنازل ويبني من حجارتها الأديرة والصوامع، ويستهوي الرجال الأشدّاء ليقودهم قسوسًا ورهبانًا، بل جاء ليبثّ في فضاء هذا العالم روحًا جديدة قويّة تقوّض قوائم العروش المرفوعة على الجماجم وتهدم القصور المتعالية فوق القبور وتسحق الأصنام المنصوبة على أجساد الضعفاء المساكين.

لم يجئ يسوع ليعلّم الناس بناء الكنائس الشاهقة والمعابد الضخمة في جوار الأكواخ الحقيرة والمنازل الباردة المظلمة، بل جاء ليجعل قلب الإنسان هيكلًا ونفسه مذبحًا وعقله كاهنًا.

هذا ما صنعه يسوع الناصري وهذه هي المبادئ التي صُلب لأجلها مختارًا، ولو عقل البشر لوقفوا اليوم فرحين متهلّلين منشدين أهازيج الغلبة والانتصار.

وأنت أيّها الجبّار المصلوب، الناظر من أعالي الجلجلة إلى مواكب الأجيال، السامع ضجيج الأمم، الفاهم أحلام الأبديّة، أنت على خشبة الصليب المضرجة بالدماء أكثر جلالًا ومهابة من ألف ملك على ألف

عرش في ألف مملكة. بل أنت بين النزع والموت أشدّ هولًا وبطشًا من ألف قائد في ألف جيش في ألف معركة.

أنت بكآبتك أشدّ فرحًا من الربيع بأزهاره، أنت بأوجاعك أهدأ بالًا من الملائكة بسمائها، وأنت بين الجلّادين أكثر حرّية من نور الشمس.

إنّ إكليل الشوك على رأسك هو أجلّ وأجمل من تاج بهرام، والمسمار في كفّك أسمى وأفخم من صولجان المشتري، وقطرات الدماء على قدميك أسنى لمعانًا من قلائد عشتروت. فسامح هؤلاء الضعفاء الذين ينوحون عليك لأنهم لا يدرون كيف ينوحون على نفوسهم، واغفر لهم لأنّهم لا يعلمون أنّك صرعت الموت بالموت ووهبت الحياة لمن في القبور.

على باب الهيكل

قد طهّرتُ شفتيّ بالنار المقدّسة لأتكلّم عن الحبّ، ولمّا فتحت شفتيّ للكلام وجدتني أخرس.

كنت أترنّم بأغاني الحبّ قبل أن أعرفه، ولمّا عرفته تحوّلت الألفاظ في فمي إلى لهاث ضئيل، والأنغام في صدري إلى سكينة عميقة.

وكنتم أيّها الناس فيما مضى تسألونني عن غرائب الحبّ وعجائبه، فكنت أُحدّثكم وأُقنعكم. أمّا الآن، وقد غمرني الحبّ بوشاحه، فجئت بدوري أسألكم عن مسالكه ومزاياه، فهل بينكم من يجيبني؟ جئت أسألكم عمّا بي وأستخبركم عن نفسي، فهل بينكم من يستطيع أن يبيّن قلبي لقلبي ويوضح ذاتي لذاتي؟

ألا فأَخبروني ما هذه الشعلة التي تتّقد في صدري وتلتهم قواي وتذيب عواطفي وميولي؟

وما هذه الأيدي الخفيّة الناعمة الخشنة التي تقبض على روحي في ساعات الوحدة والانفراد، وتسكب في كبدي خمرة ممزوجة بمرارة اللذة وحلاوة الأوجاع؟

وما هذه الأجنحة التي ترفرف حول مضجعي في سكينة الليل فأسهر مترقّبًا ما لا أعرفه، مصغيًا إلى ما لا أسمعه، محدقًا إلى ما لا أراه،

مفكّرًا بما لا أفهمه، شاعرًا بما لا أدركه، متأوّهًا لأنّ في التأوّه غصّات أحبّ لديّ من رنّة الضحك والابتهاج، مستسلمًا إلى قوّة غير منظورة تميتني وتحييني ثمّ تميتني وتحييني حتّى يطلع الفجر ويملأ النور زوايا غرفتي فأنام إذ ذاك وبين أجفاني الذابلة ترتعش أشباح اليقظة وعلى فراشي الحجريّ تتمايل خيالات الأحلام.

وما هذا الذي ندعوه حبًّا؟

أخبروني ما هذا السرّ الخفيّ الكامن خلف الدهور المختبئ وراء المرئيات الساكن في ضمير الوجود؟

ما هذه الفكرة المطلقة التي تجيء سببًا لجميع النتائج وتأتي نتيجة لجميع الأسباب؟

ما هذه اليقظة التي تتناول الموت والحياة وتبتدع منهما حلمًا أغرب من الحياة وأعمق من الموت؟

أخبروني أيّها الناس – أخبروني هل بينكم من لا يستيقظ من رقدة الحياة إذا ما لمس الحبّ روحه بأطراف أصابعه؟

هل بينكم من لا يترك أباه وأمّه ومسقط رأسه عندما تناديه الصبيّة التي أحبّها قلبه؟

هل فيكم من لا يمخر البحر ويقطع الصحارى ويجتاز الجبال والأودية ليلتقي المرأة التي اختارتها روحه؟

أيّ فتى لا يتبع قلبه إلى أقاصي الأرض إذا كان له في أقاصي الأرض حبيبة يستطيب نكهة أنفاسها ويستلطف ملامس يديها ويستعذب رنّة صوتها؟

أيّ بشريّ لا يحرق نفسه بخورًا أمام إله يسمع ابتهاله ويستجيب صلواته؟

***

وقفت بالأمس على باب الهيكل أسأل العابرين عن خفايا الحبّ ومزاياه.

فمرّ أمامي كهل مهزول القامة كاسف الوجه وقال متأوّهًا: الحبّ ضعف فطريّ ورثناه عن الإنسان الأوّل.

ومرّ فتى قويّ الجسم مفتول الساعدين وقال مترنّمًا: الحبّ عزم يلازم كياننا ويصل حاضرنا بماضي الأجيال ومستقبلها.

ومرّت امرأة كئيبة العينين وقالت متنهّدة: الحبّ سمّ قتّال تتنفّسه الأفاعي السوداء المتقلّبة في كهوف الجحيم فيسيل منتشرًا في الفضاء ثمّ يهبط مغلفًا بقطرات الندى فترشفه الأرواح الظامئة فتسكر دقيقة ثمّ تصحو عامًا ثمّ تموت دهرًا.

ومرّت صبيّة مورّدة الوجنتين وقالت مبتسمة: الحبّ كوثر تسكبه عرائس الفجر في الأرواح القويّة فيجعلها تتعالى متجمّدة أمام كواكب الليل وتسبح مترنّمة أمام شمس النهار.

ومرّ رجل ذو ملابس سوداء ولحية مسترسلة وقال عابسًا: الحبّ جهالة عمياء تبتدئ ببدء الشباب وتنتهي بنهايته.

ومرّ رجل ذو وجه صبيح وملامح منفرجة وقال فرحًا: الحبّ معرفة علويّة تنير بصائرنا فنرى الأشياء كما يراها الآلهة.

ومرّ أعمى يجسّ الأرض بعكازه وقال منتحبًا: الحبّ ضباب كثيف يكتنف النفس من كلّ ناحية ويحجب عنها رسوم الوجود أو يجعلها لا ترى سوى أشباح ميولها مرتعشة بين الصخور ولا تسمع غير صدى صراخها آتيًا من خلايا الوادي.

ومرّ شاب يحمل قيثارة وقال منغمًا: الحبّ شعاع سحري ينبثق من أعماق الذات الحسّاسة وينير جنباتها فترى العالم موكبًا سائرًا في مروج خضراء والحياة حلمًا جميلًا منتصبًا بين اليقظة واليقظة.

ومرّ هرم منحني الظهر يجرّ قدميه كأنّهما خرقتان وقال مرتعشًا: الحبّ راحة الجسم في سكينة القبر وسلامة النفس في أعماق الأبديَّة.

ومرّ طفل ابن خمس وهتف ضاحكًا: الحبّ أبي والحبّ أمّي، ولا يعرف الحبّ سوى أبي وأمّي.

وانقضى النهار والناس يمرّون أمام الهيكل وكلٌّ يصوّر نفسه متكلّمًا عن الحبّ ويبوح بأمانيه معلنًا سرّ الحياة.

ولمّا جاء المساء وسكنت حركة العابرين سمعت صوتًا آتيًا من داخل الهيكل يقول: الحياة نصفان. نصف متجلّد ونصف ملتهب. فالحبّ هو النصف الملتهب.

فدخلت الهيكل إذ ذاك وسجدت راكعًا مبتهلًا مصلّيًا هاتفًا: اجعلني يا ربّ طعامًا للّهيب – اجعلني أيّها الإله مأكلًا للنار المقدّسة. آمين.

أيّها الليل

يا ليل العشّاق والشّعراء والمنشدين.

يا ليل الأشباح والأرواح والأَخْيِلَة.

يا ليل الشّوق والصبابة والتذكار.

أيّها الجبّار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر، المتقلّد سيف الرهبة، المتوّج بالقمر، المتّشح بثوب السكوت، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة، المصغي بألف أذن إلى أنّة الموت والعدم.

أنت ظلام يرينا أنوار السماء، والنهار نور يغمرنا بظلمة الأرض.

أنت أمل يفتح بصائرنا أمام هيبة اللانهاية، والنهار غرور يوقفنا كالعميان في عالم المقاييس والكميّة.

أنت هدوء يبيح بصمته خفايا الأرواح المستيقظة السائرة في الفضاء العلوي، والنهار ضجيج يثير بعوامله نفوس المنطرحين بين سنابك المقاصد والغرائب.

أنت عادل يجمع بين جنحَي الكرى أحلام الضعفاء بأماني الأقوياء، وأنت شفوق يغمض بأصابعه الخفيّة أجفان التعساء ويحمل قلوبهم إلى عالم أقلّ قساوة من هذا العالم.

بين طيّات أثوابك الزرقاء يسكب المحبّون أنفاسهم، وعلى قدميك المغلّفتين بقطر الندى يهرق المستوحشون قطرات دموعهم، وفي راحتيك المعطّرتين بطيب الأودية يضيع الغرباء تنهّدات شوقهم وحنينهم. فأنت نديم المحبّين وأنيس المستوحدين ورفيق الغرباء والمستوحشين.

في ظلالك تدبّ عواطف الشعراء، وعلى منكبيك تستفيق قلوب الأنبياء، وبين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكّرين. فأنت ملقّن الشعراء والموحي إلى الأنبياء والموعز إلى المفكّرين والمتأمّلين.

***

عندما ملّت نفسي البشر وتعبت أجفاني من النظر إلى وجه النهار سرت إلى تلك الحقول البعيدة حيث تهجع أشباح الأزمنة الغابرة.

هنالك وقفت أمام كائن أقتم جامد مرتعش سائر بألف قدم فوق السهول والجبال والأودية.

هنالك حدّقت شاخصًا بعيون الدجى، مصغيًا لحفيف الأجنحة غير المنظورة شاعرًا بملامس ملابس السكوت، مستبسلًا أمام مخاوف الظلام.

هنالك رأيتك أيّها الليل شبحًا هائلًا جميلًا منتصبًا بين الأرض والسماء، متّشحًا بالسحاب، ممنطقًا بالضباب، ضاحكًا من الشمس، ساخرًا بالنهار، مستهزئًا بالعبيد الساهرين أمام الأصنام، غاضبًا على الملوك الراقدين فوق الحرير والديباج، محملقًا بوجوه اللصوص، خافرًا بقرب أسّرة الأطفال، باكيًا لابتسام الساقطات، مبتسمًا لبكاء العشّاق، رافعًا بيمينك كبار القلوب، ساحقًا بقدميك صغار النفوس.

هناك رأيتك أيّها الليل ورأيتني، فكنت بهولك لي أبًا وكنت بأحلامي لك ابنًا، فأُزيحت من بيننا ستائر الأشكال وتمزّق عن وجهينا نقاب

الظن والتخمين، فأبحت لي أسرارك ونياتك، وأبنت لك أماني وآمالي، حتّى إذا تحوّلت أهوالك إلى أنغام أعذب من همس الأزهار، وتبدّلت مخاوفي بأنس أطيب من طمأنينة العصافير، رفعتني إليك، وأجلستني على منكبيك، وعلّمت عينيّ النظر، وعلّمت أذنيّ السمع، وعلّمت شفتيّ الكلام، وعلّمت قلبي محبّة ما لا يحبّه الناس وكره ما لا يكرهونه، ثمّ لمست بأناملك أفكاري فتدفّقت أفكاري نهرًا راكضًا مترنّمًا يجرف الأعشاب الذابلة، ثمّ قبّلت بشفتيك روحي فتمايلت روحي شعلة متّقدة تلتهم الأنصاب اليابسة.

لقد صحبتك أيّها الليل حتّى صرت شبيهًا بك، وألفتك حتّى تمازجت ميولي بميولك، وأحببتك حتّى تحوّل وجداني إلى صورة مصغّرة لوجودك. ففي نفسي المظلمة كواكب ملتمعة ينثرها الوجد عند المساء وتلتقطها الهواجس في الصباح. وفي قلبي الرقيب قمر يسعى تارة في فضاء متلبّد بالغيوم وطورًا في خلاء مفعم بمواكب الأحلام. وفي روحي الساهرة سكينة تبيح بمفاعيلها سرائر المحبّين وترجع خلاياها صدى صلوات المتعبّدين. وحول رأسي غلاف من السحر تمزّقه حشرجة المنازعين ثمّ تخيطه أغاني المتشبّبين.

أنا مثلك أيّها اللّيل، وهل يحسبني الناس مفاخرًا إذا ما تشبَّهْتُ بك وهم إذا تفاخروا يتشبّهون بالنار!

أنا مثلك وكلانا متّهم بما ليس فيه.

أنا مثلك بميولي وأحلامي وخلقي وأخلاقي.

أنا مثلك وإن لم يتوّجني المساء بغيومه الذهبيّة.

أنا مثلك وإن لم يرصّع الصباح أذيالي بأشعّته الورديّة.

أنا مثلك وإن لم أكن ممنطقًا بالمجرّة.

أنا ليل مسترسل منبسط هادئ مضطرب وليس لظلمتي بدء وليس لأعماقي نهاية، فإذا ما انتصبت الأرواح متباهية بنور أفراحها تتعالى روحي متجمّدة بظلام كآبتها.

أنا مثلك أيّها الليل ولن يأتي صباحي حتّى ينتهي أجلي.

الجِنّيَّة السّاحرة

إلى أين تسيرين بي أيّتها الساحرة؟

حتّى مَ أتبعك على هذه الطريق الوعرة، المنسابة بين الصخور، المفروشة بالأشواك، المتصاعدة بأقدامنا نحو الأعالي، الهابطة بنفسينا إلى الأعماق؟

قد تمسّكت بأذيالك وسرت وراءك كطفل يلاحق أمّه، متناسيًا ما بي من الأحلام، محدّقًا إلى ما فيكِ من الجمال، متعاميًا عن مواكب الأشباح المتطايرة حول رأسي، مجذوبًا بالقوّة الخفيّة الكامنة في جسدك.

قفي بي هنيهة لأرى وجهك. انظري إليّ دقيقة لعلّي أرى في عينيك أسرار صدرك، وأفهم من ملامحك مخبّآت نفسك.

قفي قليلًا أيّتها الجنيّة، فقد مللت المسير وارتعدت روحي من مخاوف الطريق. قفي فقد بلغنا ملتقى السبل حيث يعانق الموت الحياة، ولن أسير خطوة أخرى حتّى تستعلن روحي نيّات روحكِ ويستوضح قلبي خزائن قلبك.

***

اسمعي أيّتها الجنيّة الساحرة.

كنت بالأمس طائرًا حرًّا أتنقّل بين السواقي واسبح في الفضاء وأجلس على أطراف الغصون عند المساء متأمّلًا بالقصور والهياكل في مدينة الغيوم المتلوّنة التي تبنيها الشمس عند الأصيل وتهدمها قبل الغروب.

بل كنت كالفكر أسير منفردًا في مشارق الأرض ومغاربها، فرحًا بمحاسن الحياة وملذاتها، مستقصيًا خفايا الوجود وأسراره.

بل كنت كالحلم أسعى تحت جنح الليل وأدخل من شقوق النوافذ إلى خدور العذارى النائمات وأتلاعب بعواطفهن. ثمّ أقف بجانب أسرّة الفتيان وأثير ميولهم. ثمّ أجلس بقرب مضاجع الشيوخ وأستجلي أفكارهم.

واليوم، وقد لقيتك أيّتها الساحرة، وتسممت بقبل يديكِ، فقد أصبحت مثل أسير أجرّ قيودي إلى حيث لا أدري، بل صرت مثل نشوان أستزيد من الخمرة التي سلبتني إرادتي وألثم الكفّ التي صفعت وجهي.

ولكن قفي قليلًا أيّتها الساحرة، فها قد استرجعت قواي وكسرت القيود التي برت قدميّ وسحقت الكأس التي شربت منها السم الذي استطيبته. فماذا تريدين أن نفعل وعلى أيّة طريق تريدين أن نسير؟

قد استرددت حريتي فهل ترضين بي رفيقًا حرًّا «يحدق إلى وجه الشمس بأجفان جامدة ويقبض على النار بأصابع غير مرتعشة؟»

لقد فتحت جناحي ثانية فهل تصحبين فتى يصرف الأيّام متنقّلًا كالنسر بين الجبال، ويقضي الليالي رابضًا كالأسد في الصحراء؟

هل تكتفين بحبّ رجل يتّخذ الحبّ نديمًا ويأباه سيدًا؟

هل تقنعين بشغف قلب يهيم ولا يستسلم ويشتعل ولكنّه لا يذوب؟

هل ترتاحين إلى ميول نفس ترتعش أمام العاصفة ولكنّها لا تنهصر، وتثور مع الزوابع ولكنّها لا تُقتلع من مكانها؟

هل ترضين بي صاحبًا لا يَستعبِد ولا يُستعبَد؟

إذن هذه يدي فهزيها بيدك الجميلة. وهذا جسدي فضميه بذراعيك الناعمتين. وهذا فمي فقبّليه قبلة طويلة عميقة خرساء.

قبل الانتحار

في هذه الغرفة المنفردة الهادئة قد جلسَتْ بالأمس المرأةُ التي أحبّها قلبي.

إلى هذه المساند الورديّة الناعمة قد ألقت رأسها الجميل، ومن هذه الكأس البلورية قد شربت جرعة من الخمر، ممزوجة بقطرة من العطر.

كلّ ذلك قد كان بالأمس والأمس حلم لا يعود، أمّا اليوم فقد ذهبت المرأة التي أحبّها قلبي إلى أرض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلو والنسيان.

إنَّ آثار اصابع المرأة التي أحبّها قلبي لم تزل ظاهرة على بلّور مرآتي، وعطر أنفاسها ما برح متضوّعًا بين طيات أثوابي، وصدى صوتها لم يضمحل بعد من زوايا منزلي. ولكن المرأة نفسها – المرأة التي أحبّها قلبي – قد رحلت إلى مكان قصي يدعى وادي الهجر والسلوان، أمّا آثار أصابعها وعطر لهاثها وأشباح روحها فستبقى في هذه الغرفة حتّى صباح الغد وعند ذلك أفتح نوافذ منزلي لتدخل أمواج الهواء وتجرف بتيارها كلّ ما تركته لي تلك الساحرة الحسناء.

إن رسم المرأة التي أحبّها قلبي لم يزل معلّقًا بجانب مضجعي، ورسائل الحبّ التي بعثت بها إليّ ما برحت في العلبة الفضيَّة المرصعة بالعقيق والمرجان، وذؤابة الشعر الذهبيّة التي حبتني بها تذكارًا لم

تخرج قط من الغلاف الحريري المبطن بالمسك والبخور – جميع هذه الأشياء ستبقى في أماكنها حتّى الصباح – وعند مجيء الصباح أفتح نوافذ منزلي ليدخل الهواء ويحملها إلى ظلمة العدم إلى حيث تقطن السكينة الخرساء.

إن المرأة التي أحبّها قلبي شبيهة بالنساء اللواتي أحبّتهن قلوبكم أيّها الفتيان. هي مخلوقة عجيبة صنعتها الآلهة من وداعة الحمامة وتقلبات الأفعى وتيه الطاووس وشراسة الذئب وجمال الوردة البيضاء وهول الليلة السوداء مع قبضة من الرماد وغَرفة من زبد البحر.

وقد عرفت المرأة التي أحبّها قلبي أيّام الطفولة فكنت أركض وراءها في الحقول وأتمسك بأذيالها في الشوارع.

وعرفتها أيّام الصبا فكنت أرى خيال وجهها في وجوه الكتب والأسفار وأشاهد خطوط قامتها بين غيوم السماء وأسمع نغمة صوتها متصاعدة مع خرير السواقي.

وعرفتها أيّام الرجولة فكنت أجالسها محدثًا وأسألها مستفتيًا وأقترب منها شاكيًا ما في قلبي من الأوجاع باسطًا ما في روحي من الأسرار.

كلّ ذلك كان بالأمس والأمس حلم لا يعود، أمّا اليوم فقد ذهبت تلك المرأة إلى أرض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلو والنسيان.

***

أمّا اسم المرأة التي أحبّها قلبي فهو الحياة.

فالحياة امرأة ساحرة حسناء تستهوي قلوبنا، وتستغوي أرواحنا، وتغمر وجداننا بالوعود، فإن مطلت أماتت فينا الصبر، وإن برّت أيقظت فينا الملل.

الحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطّر بدماء قتلاها.

الحياة امرأة ترتدي الأيّام البيضاء المبطّنة بالليالي السوداء.
الحياة امرأة ترضى بالقلب البشري خليلًا وتأباه حليلًا.
الحياة امرأة عاهرة ولكنّها جميلة ومن يرَ عهرها يكره جمالها.

يا بني أمّي

ماذا تريدون مني يا بني أُمّي؟

أتريدون أن أبني لكم من المواعيد الفارغة قصورًا مزخرفة بالكلام وهياكل مسقوفة بالأحلام، أم تريدون أن أهدم ما بناه الكاذبون والجبناء وأنقض ما رفعه المراؤون والخبثاء؟

ماذا تريدون أن أفعل يا بني أُمّي؟

أأهدل كالحمائم لأرضيكم أم أُزمجر كالأسد لأرضي نفسي؟

قد غنيت لكم فلم ترقصوا ونحتُ أمامكم فلم تبكوا، فهل تريدون أن أترنّم وأنوح في وقت واحد؟

نفوسكم تتلوى جوعًا وخبز المعرفة أوفر من حجارة الأودية، ولكنّكم لا تأكلون. وقلوبكم تختلج عطشًا ومناهل الحياة تجري كالسواقي حول منازلكم فلماذا لا تشربون؟

للبحر مدّ وجزرٌ، وللقمر نقص وكمال، وللزمن صيف وشتاء، أمّا الحق فلا يحول ولا يزول ولا يتغيّر، فلماذا تحاولون تشويه وجه الحق؟

ناديتكم في سكينة الليل لأريكم جمال البدر وهيبة الكواكب فهببتم من مضاجعكم مذعورين وقبضتم على سيوفكم ورماحكم

صارخين: أين العدوّ لنصرعه؟ عند الصباح وقد جاء العدوّ بخيله ورجله ناديتكم فلم تهبّوا من رقادكم بل ظللتم تغالبون مواكب الأحلام.

قلت لكم تعالوا نصعد إلى قمّة الجبل لأريكم ممالك العالم فأجبتم قائلين: في أعماق هذا الوادي عاش آباؤنا وجدودنا وفي ظلاله ماتوا وفي كهوفه قبروا فكيف نتركه ونذهب إلى حيث لم يذهبوا؟

قلت لكم هلمّوا نذهب إلى السهول لأريكم مناجم الذهب وكنوز الأرض فأجبتم قائلين: في السهول تربض اللصوص وقطّاع الطرق.

قلت لكم تعالوا نذهب إلى الساحل حيث يعطي البحر خيراته فأجبتم قائلين: ضجيج اللجّة يخيف أرواحنا وهول الأعماق يميت أجسادنا.

***

لقد كنت أُحبّكم يا بني أُمّي وقد أضرّ بي الحبّ ولم ينفعكم. واليوم صرت أكرهكم والكره سيل لا يجرف غير القضبان اليابسة ولا يهدم سوى المنازل المتداعية.

كنت أُشفق على ضعفكم يا بني أُمّـي والشفقة تكثر الضعفاء وتنمي عدد المتوانين ولا تجدي الحياة شيئًا، واليوم صرت أرى ضعفكم فترتعش نفسي اشمئزازًا وتنقبض ازدراء.

كنت أبكي على ذلّكم وانكساركم وكانت دموعي تجري صافية كالبلور، ولكنّها لم تغسل أدرانكم الكثيفة بل أزالت الغشاء عن عيني، ولا بلّلت صدوركم المتحجّرة بل أذابت الجزع في قلبي، واليوم صرت أضحك من أوجاعكم والضحك رعود قاصفة تجيء قبل العاصفة ولا تأتي بعدها.

ماذا تريدون مني يا بني أمّي؟

أتريدون أن أُريكم أشباح وجوهكم في أحواض المياه الهادئة؟ تعالوا إذن وانظروا ما أقبح ملامحكم.

هلمّوا وتأمّلوا فقد جعل الخوف شعور رؤوسكم كالرماد، وعرك السهر عيونكم فأصبحت كالحفر المظلمة، ولمست الجبانة خدودكم فبانت كالخرق المتجعّدة، وقبّل الموت شفاهكم فأمست صفراء كأوراق الخريف.

ماذا تطلبون مني يا بني أُمّي – بل ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم تعد تحسبكم من أبنائها؟

أرواحكم تنتفض في مقابض الكهّان والمشعوذين، وأجسادكم ترتجف بين أنياب الطغاة والسفّاحين، وبلادكم ترتعش تحت أقدام الأعداء والفاتحين، فماذا ترجون من وقوفكم أمام وجه الشمس؟

سيوفكم مغلّفة بالصدأ، ورماحكم مكسورة الحراب، وتروسكم مغمورة بالتراب، فلماذا تقفون في ساحة الحرب والقتال؟

دينكم رياء ودنياكم ادعاء وآخرتكم هباء، فلماذا تحيون والموت راحة الأشقياء؟

***

إنّما الحياة عزم يرافق الشبيبة، وجدّ يلاحق الكهولة، وحكمة تتبع الشيخوخة، أمّا أنتم يا بني أُمّي فقد وُلدتم شيوخًا عاجزين ثمّ صغرت رؤوسكم وتقلّصت جلودكم فصرتم أطفالًا تتقلّبون على الأوحال وتترامون بالحجارة.

إنّما الإنسانيّة نهر بلّوري يسير متدفّقًا مترنّمًا حاملًا أسرار الجبال إلى أعماق البحر. أمّا أنتم يا بني أمّي فمستنقعات خبيثة تدبّ الحشرات في أعماقها وتتلوى الأفاعي على جنباتها.

إنّما النفس شعلة زرقاء متّقدة مقدّسة تلتهم الهشيم وتنمو بالأنواء وتنير أوجه الآلهة – أمّا نفوسكم يا بني أُمّي فرماد تذريه الرياح على الثلوج وتبدّده العواصف في الأودية.

أنا أكرهكم يا بني أمّي لأنّكم تكرهون المجد والعظمة.

أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم.

أنا عدوّكم لأنّكم أعداء الآلهة ولكنّكم لا تعلمون!!!

نحن وأنتم

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرّات.

نحن أبناء الكآبة، والكآبة ظلّ إله لا يسكن في جوار القلوب الشرّيرة. نحن ذوو النفوس الحزينة، والحزن كبير لا تسعه النفوس الصغيرة. نحن نبكي وننتحب أيّها الضاحكون، ومن يغتسل بدموعه مرّة يظلّ نقيًّا إلى نهاية الدهور.

أنتم لا تعرفوننا أمّا نحن فنعرفكم. أنتم سائرون بسرعة مع تيّار نهر الحياة فلا تلتفتون نحونا، أمّا نحن فجالسون على الشاطئ نراكم ونسمعكم. أنتم لا تعون صراخنا لأن ضجيج الأيّام يملأ آذانكم، أمّا نحن فنسمع أغانيكم لأن همس الليالي قد فتح مسامعنا. نحن نراكم لأنّكم واقفون في النور المظلم، أمّا أنتم فلا تروننا لأنّنا جالسون في الظلمة المنيرة.

نحن أبناء الكآبة. نحن الأنبياء والشعراء والموسيقيين. نحن نحوك من خيوط قلوبنا ملابس الآلهة ونملأ بحبّات صدورنا حفنات الملائكة، وأنتم – أنتم أبناء غفلات المسَرّات ويقظات الملاهي – أنتم تضعون قلوبكم بين أيدي الخلو لأن أصابع الخلو ليّنة الملامس وترتاحون بقرب الجهالة لأن بيت الجهالة خال من مرآة ترون فيها وجوهكم.

نحن نتنهّد ومع تنهّداتنا يتصاعد همس الزهور وحفيف الغصون وخرير السواقي، أمّا أنتم فتضحكون وقهقهة ضحككم تمتزج بسحيق الجماجم وحرتقة القيود وعويل الهاوية.

نحن نبكي ودموعنا تنسكب في قلب الحياة مثلما يتساقط الندى من أجفان الليل في كبد الصباح، أمّا أنتم فتبتسمون ومن جوانب أفواهكم المبتسمة تنهرق السخرية مثلما يسيل سم الأفعى على جرح الملسوع.

نحن نبكي لأنّنا نرى تعاسة الأرملة وشقاء اليتيم، وأنتم تضحكون لأنّكم لا ترون غير لمعان الذهب. نحن نبكي لأنّنا نسمع أنّة الفقير وصراخ المظلوم، وأنتم تضحكون لأنّكم لا تسمعون سوى رنّة الأقداح.

نحن نبكي لأن أرواحنا منفصلة بالأجساد عن الله، وأنتم تضحكون لأن أجسادكم تلتصق مرتاحة بالتراب.

***

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرّات، فهلمّوا نضع مآتي كآبتنا وأعمال مسرّاتكم أمام وجه الشمس.

أنتم بنيتم الأهرام من جماجم العبيد؛ والأهرام جالسة الآن على الرمال تحدّث الأجيال عن خلودنا وفنائكم. ونحن هدمنا الباستيل بسواعد الأحرار والباستيل لفظة تردّدها الأمم فتباركنا وتلعنكم. أنتم رفعتم حدائق بابل فوق هياكل الضعفاء وأقمتم قصور نينوى فوق مدافن البؤساء، وها قد أصبحت بابل ونينوى نظير آثار أخفاف الإبل على رمال الصحراء. أمّا نحن فقد نحتنا تمثال عشتروت من الرخام فجعلنا الرخام يرتعش جامدًا ويتكلّم صامتًا، وضربنا النهاوند على الأوتار فاستحضرت الأوتار أرواح المحبّين الحائمة في الفضاء، ورسمنا مريم بالخطوط والألوان فغدت الخطوط كأفكار الآلهة والألوان كعواطف الملائكة.

أنتم تتبعون الملاهي وأظافر الملاهي مزّقت ألفَ ألفٍ من الشهداء في مسارح رومية وأنطاكية. ونحن نلاحق السكينة وأصابع السكينة نسجت الإلياذة وسفر أيّوب والتائية الكبرى. أنتم تضاجعون الشهوات وعواصف الشهوات جرفت ألف موكب من أرواح النساء إلى هاوية العار والفجور. ونحن نعانق الوحدة وفي ظلال الوحدة تجسّمت المعلّقات ورواية هملت وقصيدة دانتي. أنتم تسامرون المطامع وأسياف المطامع أجرت ألف نهر من الدماء ونحن نرافق الخيال وأيدي الخيال أنزلت المعرفة من دائرة النور الأعلى.

***

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرّات، وبين كآبتنا وسروركم عقبات صعبة المسالك ضيقة المعابر لا تجتازها خيولكم المطهّمة ولا تسير عليها مركباتكم الجميلة.

نحن نشفق على صغارتكم وأنتم تكرهون عظمتنا، وبين شفقتنا وكرهكم يقف الزمان محتارًا بنا وبكم.

نحن ندنو منكم كالأصدقاء وأنتم تهاجموننا كالأعداء، وبين الصداقة والعداوة هوّة عميقة مملوءة بالدموع والدماء.

نحن نبني لكم القصور وأنتم تحفرون لنا القبور، وبين جمال القصر وظلمة القبر تسير الإنسانيّة بأقدام من حديد.

نحن نفرش سبلكم بالورود وأنتم تغمرون مضاجعنا بالأشواك، وبين أوراق الوردة وأشواكها تنام الحقيقة نومًا عميقًا أبديًّا.

منذ البدء وأنتم تصارعون قوانا الليّنة بضعفكم الخشن. تغلبوننا ساعة فتضجون فرحين كالضفادع ونغلبكم دهرًا ونظلّ صامتين كالجبابرة. قد صلبتم الناصري ووقفتم حوله تسخرون به وتجدّفون عليه، ولكن لما انقضت تلك الساعة نزل من على صليبه وسار كالجبّار يتغلّب على الأجيال بالروح والحقّ ويملأ الأرض بمجده وجماله.

قد سممتم سقراط ورجمتم بولس وقتلتم غليلو وفتكتم بعلي بن أبي طالب وخنقتم مدحت باشا وهؤلاء يحيون الآن كالأبطال الظافرين أمام وجه الأبديّة. أمّا أنتم فتعيشون في ذاكرة الإنسانيّة كجثث فوق التراب لا تجد من يدفنها في ظلمة النسيان والعدم.

نحن أبناء الكآبة والكآبة غيوم تمطر العالم خيرًا ومعرفة وأنتم أبناء المسرّات ومهما تعالت مسرّاتكم فهي كأعمدة الدخان تهدمها الرياح وتبدّدها العناصر.

أبناء الآلهة وأحفاد القرود

ما أغرب الدهر وما أغربنا! فقد تغيّر الدهر وغيّرنا وسار إلى الأمام وسيّرنا وأسفر عن وجهه فأذهلنا وفرّحنا.

كنّا بالأمس نشكو الدهر ونخشاه فأصبحنا اليوم نحبّه ونهواه، بل صرنا ندرك مقاصده وسجاياه ونفهم أسراره وخفاياه.

بالأمس كنّا ندبّ متحذّرين كالأشباح المرتعشة بين أهوال الليل ومخاوف النهار، فأصبحنا اليوم نسير متحمّسين نحو قمم الجبال حيث تكمن العواصف الشديدة وتتولّد البروق اللامعة والرعود القاصفة.

كنّا بالأمس نأكل الخبز معجونًا بالدماء ونشرب الماء ممزوجًا بالدموع، فصرنا اليوم نتناول المن من أيدي عرائس الصباح ونرشف الخمر معطرة بأنفاس الربيع.

بالأمس كنّا أُلعوبة في يد القضاء وكان القضاء جبارًا ثملا يتلوى بنا إلى اليمين وإلى اليسار، أمّا اليوم فقد صحا القضاء من سكره فأصبحنا نلاعبه فيلعب، ونداعبه فيضحك، ثمّ نقوده وراءنا فينقاد.

كنّا بالأمس نحرق البخور أمام الأصنام وننحر الضحايا أمام الآلهة الغضوب، أمّا اليوم فصرنا لا نحرق بخورًا إلّا لنفوسنا ولا نقدم ذبيحة لغير ذواتنا لأن أعظم الآلهة وأبهاهم جمالًا قد جعل هيكله في صدورنا.

بالأمس كنّا نخضع للملوك ونلوي رقابنا أمام السلاطين، أمّا اليوم فصرنا لا ننحني إلّا للحق ولا نتبع غير الجمال ولا نطيع سوى المحبّة.

كنّا بالأمس نخشع بأبصارنا أمام الكهّان ونتهيّب رؤية العرافين، أمّا اليوم وقد تغيّر الدهر وغيّرنا فأصبحنا لا نحدق إلى غير وجه الشمس ولا نصغي إلّا لنغمة البحر ولا نهتز إلّا مع الزوابع.

بالأمس كنّا نهدم عروش نفوسنا لنبني منها قبورًا لأجدادنا، أمّا اليوم فقد تحوّلت نفوسنا مذابح مقدّسة لا تدنو منها أشباح القرون الغابرة ولا تلامسها أصابع الأموات البالية.

كنّا فكرا صامتًا مختبئا في زوايا النسيان فأصبحنا صوتًا ترتجف له أعماق الفضاء.

كنّا شرارة ضئيلة مكتنفة بالرماد فصرنا نارًا متقدة فوق أكتاف الأودية.

***

وكم سهرنا الليالي متوسّدين التراب ملتحفين بالثلوج باكين على إلفٍ أضعناه ورزقٍ فقدناه. وكم صرفنا الأيّام رابضين كنعاج لا راعيَ لها نقضم أفكارنا ونلوك عواطفنا ونظلّ جائعين ظامئين. وكم وقفنا بين نهار زائل ومساء آتٍ نائحين على شباب ذابل مشتاقين إلى من لا نعرفه مستوحشين لأسباب نجهلها محدقين إلى فضاء خال مظلم، مصغين إلى أنّه السكون والعدم.

تلك أجيال مرّت مرور الذئاب الخاطفة بين المدافن، أمّا اليوم وقد صحا الفضاء وصحونا، فصرنا نقضي الليالي البيضاء على أسرّة علويّة، مساهرين الخيال، مسامرين الفكر، معانقين الميول، تتمايل حولنا شعلات النار فنقبض عليها بأصابع غير مرتعشة وتتصاعد حولنا أرواح

الجن فنخاطبها بلغة غير ملتبسة، وتمرّ بنا أجواق الملائكة فنستهويها بشوق قلوبنا ونسكرها بنغمة أرواحنا.

***

كنّا بالأمس وأصبحنا اليوم، وهذه مشيئة الآلهة بأبناء الآلهة، فما هي إرادتكم يا أبناء القرود؟

هل سرتم خطوة واحدة إلى الأمام منذ انبثقتم من شقوق الأرض؟ أم رفعتم أبصاركم نحو الأعالي منذ فتحت الشياطين أبصاركم؟ أم تلفظتم بكلمة من سفر الحق منذ قبّلت أفواه الأفاعي أفواهكم؟

أم أصغيتم هنيهة لأغنية الحياة منذ أغلق الموت آذانكم؟

منذ سبعين ألف سنة مررت بكم فرأيتكم تتقلّبون كالحشرات في زوايا الكهوف. ومنذ سبع دقائق نظرت من وراء بلّور نافذتي فوجدتكم تسيرون في الأزقة القذرة وأبالسة الخمول تقودكم وقيود العبوديّة تتمسّك بأقدامكم وأجنحة الموت تصفّق فوق رؤوسكم فأنتم اليوم كما كنتم بالأمس وستظلّون غدًا وبعده مثلما رأيتكم في البدء.

كنّا بالأمس فأصبحنا اليوم وهذا ناموس الآلهة بأبناء الآلهة. فما هي سنّة القرود بكم يا أبناء القرود؟

بين ليل وصباح

اسكت يا قلبي فالفضاء لا يسمعك.

اسكت فالأثير المثقل بالنواح والعويل لن يحمل أغانيك وأناشيدك.

اسكت فأشباح الليل لا تحفل بهمس أسرارك ومواكب الظلام لا تقف أمام أحلامك.

اسكت يا قلبي، اسكت حتّى الصباح، فمن يترقب الصباح صابرًا يلاقِ الصباح قويًّا. ومن يهوى النور فالنور يهواه.

اسكت يا قلبي واسمعني متكلّمًا.

في الحلم رأيت شحرورًا يغرّد فوق فوهة بركان ثائر.

ورأيت زنبقة ترفع رأسها فوق الثلوج.

ورأيت حورية عارية ترقص بين القبور.

ورأيت طفلًا يلعب بالجماجم وهو يضحك.

رأيت جميع هذه الصور في الحلم، ولما استيقظت ونظرت حولي رأيت البركان هائجًا ولكنّني لم أسمع الشحرور مغرّدًا ولا رأيته مرفرفًا.

ورأيت الفضاء ينثر الثلوج على الحقول والأودية ساترًا بأكفانه البيضاء أجسام الزنابق الهامدة.

ورأيت القبور صفوفًا منتصبة أمام سكينة الدهور وليس بينها من يتمايل راقصًا ولا من يجثو مصلّيًا.

ورأيت رابية من الجماجم وليس هناك من ضاحك سوى الريح.

في اليقظة رأيت الحزن والأسى فأين ذهبت أفراح الحلم ومسرّاته؟

أنّى توارت بهجة المنام وكيف اضمحلّت رسومه؟ وكيف تتجلّد النفس حتّى يعيد النوم أشباح أمانيها وآمالها؟

أصغِ يا قلبي واسمعني متكلّمًا:

كانت نفسي بالأمس شجرة قويّة مسنّة تمتدّ عروقها إلى أعماق الأرض وتتعالى غصونها نحو اللانهاية.

ولقد أزهرت نفسي في الربيع وأثمرت في الصيف ولمّا جاء الخريف جمعت أثمارها في أطباق من الفضّة ووضعتها على قارعة الطريق، فكان العابرون يتناولون منها ويأكلون ثمّ يسيرون في سبيلهم.

ولمّا انقضى الخريف وتحوّلت تهاليله إلى الندب والولولة نظرتُ فلم أرَ في أطباقي سوى ثمرة واحدة أبقاها الناس لي فتناولتها وأكلت فألفيتها مرّة كالعلقم، حامضة كالحصرم. فقلت لنفسي:

ويحي لقد وضعت في أفواه الناس لعنة، وفي أجوافهم عداء، فماذا ترى فعلت يا نفسي بالحلاوة التي امتصتها عروقك من أحشاء الأرض، وبالأريج الذي تشربته قضبانك من نور الشمس؟

بعد ذلك اقتلعت شجرة نفسي القويّة المسنّة.

اقتلعتها بعروقها من التربة التي نمت فيها وترعرعت. اقتلعتها من ماضيها ونزعت عنها ذكرى ألف ربيع وألف خريف.

وعدت فزرعت شجرة نفسي في مكان آخر.

زرعتها في حقل بعيد عن سبل الزمن. وكنت أسهر بجانبها قائلًا: إن السهر يدنينا من النجوم. وكنت أسقيها بدمي ودموعي قائلًا: إن في الدم نكهة، وفي الدموع حلاوة. ولما عاد الربيع أزهرت نفسي ثانية.

وفي الصيف أثمرت نفسي. ولما جاء الخريف جمعت أثمارها الناضجة بأطباق من الذهب ووضعتها على ملتقى السبل فمرّ الناس أفرادًا وجماعات ولكن لم يمدّ أحد يده ليتناول منها.

فأخذت إذ ذاك ثمرة وأكلت، فوجدتها حلوة كالشهد، لذيذة كالكوثر، طيبة كالخمرة البابلية عطرة كأنفاس الياسمين. فصرخت قائلًا:

إن الناس لا يريدون البركة في أفواههم ولا الحقّ في أجوافهم، لأن البركة ابنة الدموع، والحق ابن الدماء.

ثمّ عدتُ وجلست في ظلّ شجرة نفسي المنفردة في حقل بعيد عن سبل الزمن.

***

اسكت يا قلبي حتّى الصباح.

اسكت، فالفضاء قد اتخمته رائحة الأشلاء فلن يتشرّب أنفاسك.

اصغِ يا قلبي واسمعني متكلما:

كانت بالأمس فكرتي سفينة تتقلّب بين أمواج البحار وتتنقّل مع الأهوية من شاطئ إلى شاطئ.

ولقد كانت سفينة فكرتي خالية إلّا من سبعة أكواب طافحة بألوان مختلفة تشابه ألوان قوس قزح بنضارتها.

وجاء زمن مللت فيه التنقّل على وجه البحار فقلت سأعود بسفينة فكرتي الفارغة إلى ميناء البلد الذي ولدت فيه.

ثمّ أخذت أطلي جوانب سفينتي بألوان صفراء كشمس المغيب، وخضراء كقلب الربيع، وزرقاء ككبد السماء، وحمراء كذوب الشفق،

وأرسم على شراعها ودفتها رسومًا غريبة تجذب العين وتبهج البصيرة. ولما انتهيت من عملي وقد ظهرت سفينة فكرتي كرؤيا نبي تطوف بين اللانهايتين: البحر والسماء، دخلت ميناء بلدي فخرج الناس لملاقاتي بالتهليل والتعظيم وأدخلوني المدينة ضاربين الدفوف، نافخين الزمور.

فعلوا ذلك لأن خارج سفينتي كان مزخرفًا بهجًا ولم يدخل أحد جوف سفينة فكرتي.

ولم يسأل أحد ماذا جلبت فيها من وراء البحار.

ولم يدرِ أحد أنّي عدت بها فارغة إلى الميناء.

عند ذلك قلت في سرّي: لقد ضللت الناس، وبسبعة أكواب من الألوان قد كذبت على باصراتهم وبصائرهم.

وبعد عام ركبت سفينة فكرتي وأبحرت ثانية.

سرتُ إلى جزر الشرق فجمعتُ منها المرّ واللبان والند والصندل وأدخلتها إلى سفينتي.

وإلى جزر الغرب فجلبت منها التبر والعاج والياقوت والزمرّد وجميع الحجارة الكريمة.

وإلى جزر الشمال فعدت منها بالخز والوشي والبرفير.

وإلى جزر الجنوب فحملت منها الدروع المزردة والسيوف المشرفية والرماح السمهريّة وسائر أنواع الأسلحة.

ملأت سفينة فكرتي بنفائس الأرض وغرائبها وعدت إلى ميناء بلدي قائلًا:

سوف يمجدني قومي ولكن عن جدارة. وسيدخلونني المدينة منشدين مزمّرين ولكن عن استحقاق.

ولكن لما بلغت الميناء لم يخرج أحد لملاقاتي، ودخلت شوارع بلدي فلم يلتفت إليّ أحد.

ووقفت في ساحاتها معلنًا للناس ما جلبت لهم من ثمار الأرض وطرائفها فكانوا ينظرون إليّ والضحك ملء أفواههم والسخرية على وجوههم ثم يتحوّلون عني.

فعدت إلى الميناء كئيبًا مستغربًا. ولكنني ما لمحت سفينتي حتّى فطنت لأمرٍ كنت مشغولًا عنه بمنازع أسفاري ورغائبها. فهتفت قائلًا:

إن أمواج البحار قد محت الطلاء عن جوانب سفينتي فبانت كهيكل من عظام، وعفت الأرياح والأنواء وحرارة الشمس الرسوم عن أشرعتها فظهرت كأثواب رماديّة بالية.

لقد جمعت طرائف الأرض ونفائسها في تابوت يعوم على وجه الماء وعدت إلى قومي فنبذوني لأن عيونهم لا ترى سوى المظاهر الخارجيّة.

في تلك الساعة تركت سفينة فكرتي وذهبت إلى مدينة الأموات وجلست بين القبور المكلّسة مفكّرًا بأسرارها.

اسكت يا قلبي حتّى الصباح. اسكت فالعاصفة الهوجاء تسخر بهمس أعماقك، وكهوف الوادي لن ترجع بصداها رنّات أوتارك.

اسكت يا قلبي حتّى الصباح. فمن يترقّب الصباح متجلّدًا يعانقه الصباح مشتاقًا.

ها قد طلع الفجر يا قلبي فتكلّم إن كنت تستطيع الكلام.

هوذا موكب الصباح يا قلبي. فهل أبقى سكوت الليل في اعماقك أغنية تلاقي بها الصباح؟

هوذا أسراب الحمام والشحارير تتطاير متنقّلة في أطراف الوادي. فهل أبقى هول الليل في جناحيك صلابة لتطير معها؟

هوذا الرعيان يسيرون أمام قطعانهم من الحظائر والمرابض. فهل أبقت لك أشباح الليل عزمًا لتسير وراءها إلى المروج الخضراء؟

هوذا الفتيان والصبايا يمشون الهوينا نحو الكروم. فهلّا نهضت ومشيت معهم؟

قُم يا قلبي. قم وسر مع الفجر فالليل قد مضى. ومخاوف الليل قد اضمحلّت مع أحلامه السوداء.

قم يا قلبي وارفع صوتك مترنّمًا. فمن لم يشارك الصبح بأغانيه كان من أبناء الظلام.

المخدرات والمباضع

هو متطرّف بمبادئه حتّى الجنون.

هو خيالي يكتب ليفسد أخلاق الناشئة.

لو اتبع الرجال والنساء المتزوّجون وغير المتزوّجين آراء جبران في الزواج لتقوضت أركان العائلة وانهدمت مباني الجامعة البشريّة وأصبح هذا العالم جحيمًا وسكّانه شياطين.

قهرًا عمّا في أسلوبه الكتابي من الجمال فهو من أعداء الإنسانيّة.

هو فوضوي كافر ملحد ونحن ننصح لسكّان هذا الجبل المبارك بأن ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلّفاته لئلّا يعلق منها شيء على نفوسهم.

قد قرأنا له الأجنحة المتكسّرة فوجدناها السمّ في الدسم.

هذا بعض ما يقوله الناس عني وهم مصيبون، فأنا متطرّف حتّى الجنون، أميل إلى الهدم ميلي إلى البناء، وفي قلبي كرهٌ لما يقدسه الناس وحبّ لما يأبونه، ولو كان بإمكاني استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما تردّدت دقيقة. أمّا قول بعضهم إن كتابي سم في دسم فكلام يبيِّن الحقيقة من وراء نقاب كثيف – فالحقيقة العارية هي أنّني لا أمزج السمّ بالدسم بل أسكبه صرفًا... غير أنّني أسكبه في كؤوس نظيفة شفّافة.

أمّا الذين يعتذرون عني أمام نفوسهم قائلين: هو خيالي يسبح مرفرفًا بين الغيوم، فهم الذين يحدقون إلى لمعان تلك الكؤوس الشفّافة منصرفين عمّا في داخلها من الشراب الذي يدعونه سمًّا لأن معدهم الضعيفة لا تهضمه.

قد تدلّ هذه التوطئة على الوقاحة الخشنة، ولكن أليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الخيانة بنعومتها؟ إن الوقاحة تظهر نفسها بنفسها أمّا الخيانة فترتدي ملابس فصّلت لغيرها.

***

يطلب الشرقيون من الكاتب أن يكون كالنحلة التي تطوف مرفرفة في الحقول جامعة حلاوة الأزهار لتصنع منها أقراصًا من العسل.

إن الشرقيّين يحبّون العسل ولا يستطيبون سواه مأكلًا. وقد أفرطوا بالتهامه حتّى تحوّلت نفوسهم إلى عسل تسيل أمام النار ولا تتجمّد إلّا إذا وضعت على الثلج.

ويطلب الشرقيون من الشاعر أن يحرق نفسه بخورًا أمام سلاطينهم وحكّامهم وبطاركتهم. وقد تلبّد فضاء الشرق بغيوم البخور المتصاعدة من جوانب العروش والمذابح والمقابر ولكنّهم لا يكتفون. ففي أيّامنا هذه مدّاحون يضارعون المتنبي، وراثون يضاهون الخنساء، ومهنئون أكثر طلاوة من صفي الدين الحلّي.

ويطلب الشرقيّون من العالِم أن يبحث في تاريخ آبائهم وجدودهم، متعمّقًا بدرس آثارهم وعوائدهم وتقاليدهم صارفًا أيّامه ولياليه بين مطوّلات لغاتهم واشتقاقات ألفاظهم ومباني معانيهم وبيانهم وبديعهم.

ويطلب الشرقيون من المفكّر أن يعيد على مسامعهم ما قاله بيدبا وابن رشد وافرام السرياني ويوحنا الدمشقي وأن لا يتعدّى بكتابته حدود الوعظ البليد والإرشاد السقيم وما يجيء بينهما من الحِكم والآيات التي

إذا ما تمشى عليها الفرد كانت حياته كالأعشاب الضئيلة التي تنبت في الظل ونفسه كالماء الفاتر الممزوج بقليل من الأفيون.

وبالاختصار فالشرقيون يعيشون في مسارح الماضي الغابر ويميلون إلى الأمور السلبية المسلية المفكهة ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية المجرّدة التي تلسعهم وتنبّههم من رقادهم العميق المغمور بالأحلام الهادئة.

***

إنّما الشرق مريض قد تناوبته العلل وتداولته الأوبئة حتّى تعوَّد السقم وألف الألم وأصبح ينظر إلى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعيّة بل كخلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة فمن كان خاليًا منها عُدّ ناقصًا محرومًا من المواهب والكمالات العلوية.

وأطباء الشرق كثيرون يلازمون مضجعه ويتآمرون في شأنه ولكنّهم لا يداوونه بغير المخدّرات الوقتيّة التي تطيل زمن العلّة ولا تبرئها.

أمّا تلك المخدرات المعنويّة فكثيرة الأنواع متعدّدة الأشكال متباينة الألوان. وقد تولد بعضها عن بعض مثلما تناسخت الأمراض والعاهات بعضها عن بعض. وكلّما ظهر في الشرق مرض جديد يكتشف له أطباء الشرق مخدّرًا جديدًا.

وأمّا الأسباب التي آلت إلى وجود المخدّرات فعديدة أهمّها استسلام العليل إلى فلسفة القضاء والقدر المشهورة، وجبانة الأطباء وخوفهم من تهييج الألم الذي تحدثه الأدوية الناجعة.

وإليك أمثلة من تلك المخدرات والمسكنات التي يتخذها الأطباء الشرقيون لمعالجة الأمراض العائليّة والوطنيّة والدينيّة:

ينفر الرجل من زوجته والمرأة من بعلها لأسباب وضعية حيويّة فيتخاصمان ويتضاربان ويتباعدان، ولكن لا يمرّ يوم وليلة حتّى يجتمع

أهل الرجل بأهل زوجته فيتبادلوا الآراء المزخرفة والأفكار المرصّعة ثمّ يتفقوا على إيجاد السلام بين الزوجين، فيأتون بالمرأة ويستهوون عواطفها بالمواعظ الملفقة التي تخجلها ولا تقنعها، ثمّ يستدعون الرجل ويغمرون رأسه بالأقوال والأمثال المزركشة التي تليّن أفكاره ولا تغيّرها. وهكذا يتمّ الصلح – الصلح الوقتي – بين الزوجين المتنافرين بالروح فيعودان قهرًا عن إرادتهما إلى السكنى تحت سقف واحد حتّى «يبوخ» الطلاء ويزول تأثير المخدر الذي استخدمه الأهل والأنسباء فيعود الرجل إلى إظهار نفوره ومقته والمرأة إلى إزالة النقاب عن تعاستها. غير أن الذين أوجدوا الصلح في المرّة الأولى يوجدونه ثانية، ومن يرتشف جرعة من المخدرات لا يأبَى شرب كأس دهاق.

يتمرّد قوم على حكومة جائرة أو على نظام قديم فيؤلفون جمعيّة إصلاحيّة ترمي إلى النهوض والانعتاق فيخطبون بشجاعة ويكتبون بحماسة وينشرون اللوائح والبرامج ويبعثون الوفود والممثلين، ولكن لا يمرّ شهر أو شهران حتّى نسمع بأن الحكومة قد سجنت رئيس الجمعيّة أو عهدت إليه بوظيفة. أمّا الجمعيّة الإصلاحيّة فلا نعود نسمع عنها شيئًا لأن أفرادها قد تجرّعوا قليلًا من المخدّرات المعهودة وعادوا إلى السكينة والاستسلام.

تتمرّد طائفة على رئيس دينها لأمور أوليّة فتنتقد شخصه وتنكر أعماله وتتبرّم من مآتيه ثمّ تهدّده باعتناقها مذهبًا آخر أقرب إلى العقل وأبعد عن الأوهام والخرافات. ولكن لا يمرّ ردح من الزمن حتّى نسمع بأن عقلاء البلاد قد أزالوا الخلاف بين الراعي ورعيته وارجعوا بفضل المخدرات السحريّة الهيبة إلى شخص الرئيس والطاعة العمياء إلى نفوس المرؤوسين العقوقين!

يتظلّم مغلوب ضعيف من ظالم قوي فيقول له جاره: اسكت فالعين التي تعاند السهم تفقأ.

يشك القروي بتقى الرهبان وإخلاصهم فيقول له زميله: اصمت فقد جاء في الكتاب: اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم.

يعرض التلميذ عن استظهار مباحث البصريين والكوفيّين اللغويّة فيقول له أستاذه: إنّ الكسالى والمتوانين يختلقون لنفوسهم أعذارًا أقبح من الذنوب.

تمتنع الصبية عن اتباع عوائد العجائز فتقول لها والدتها: ليست الإبنة أفضل من أمّها فالطريق التي سلكتها تسلكينها أنت أيضًا.

يسأل الشاب متفسرا معاني الزوائد الدينيّة فيقول له الكاهن: من لا ينظر بعين الإيمان لا يرى في هذا العالم سوى الضباب والدخان.

وهكذا تمرّ الأيـام إثـر الليالي، والشرقي مضطجع على فراشه النّاعم، يستيقظ دقيقة عندما تلسعه البراغيث، ثمّ يعود ويهجع جيلًا بحكم المخدرات التي تمازج دمه وتسير في عروقه. فإذا ما قام رجل وصرخ بالنائمين وملأ منازلهم ومعابدهم ومحاكمهم بالضجيج يفتحون أجفانهم المطبقة بالنعاس الأبدي ثمّ يقولون متثائبين: ما أخشنه فتى لا ينام ولا يدع الناس ينامون! ثمّ يغمضون عيونهم ويهمسون في آذان أرواحهم: هو كافر ملحد يفسد أخلاق الناشئة ويهدم مباني الأجيال ويرشق الإنسانيّة بالسهام السامّة.

قد سألت نفسي مرّات ما إذا كنت من المستيقظين المتمرّدين الذين يأبون شرب المخدّرات والمسكّنات، فكانت نفسي تجيبني بكلمات مبهمة ملتبسة، ولكنّني لما سمعت الناس يجدفون على اسمي ويتأفّفون من مبادئي أيقنت بحقيقة يقظتي وعلمت أنّني لست من المستسلمين إلى الأحلام اللذيذة والخيالات المستحبّة. بل من أولئك المستوحدين الذين تسيرهم الحياة على سبل ضيّقة مغروسة بالأشواك والأزهار محفوفة بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنّمة.

ولـو كـانـت اليقظة فضيلة لمنعني الاحـتـشـام عـن ادعـائـهـا، ولكنّها ليست بفضيلة بل حقيقة غريبة تظهر على حين غفلة للأفراد المستوحدين وتسير أمامهم فيتبعونها قسر إرادتهم مجذوبين بأسلاكهم الخفيّة محدقين إلى معانيها المهيبة.

وعندي أن الاحتشام في إظهار الحقائق الشخصيّة هو نوع من الرياء الأبيض المعروف عند الشرقيّين باسم التهذيب.

***

غدًا يقرأ الأدباء المفكّرون ما تقدّم فيقولون متضجرين: هو متطرّف ينظر إلى الحياة من الوجهة المظلمة فلا يرى غير الظلام، وطالما وقف فينا نادبًا نائحًا باكيًا متأوّهًا لحالنا.

فلهؤلاء الأدباء المفكّرين أقول: أنا أندب الشرق لأن الرقص أمام نعش الميت جنون مطبق.

أنا أبكي على الشرقيّين لأن الضحك على الأمراض جهل مركب.

أنا أنوح على تلك البلاد المحبوبة لأن الغناء أمام المصيبة العمياء غباوة عمياء.

أنا متطرّف لأن من يعتدل بإظهار الحقّ يبين نصف الحق ويبقي نصفه الآخر محجوبا وراء خوفه من ظنون الناس وتقوّلاتهم.

أنـا أرى الجيفة المنتنة فتشمئز نفسي وتـضـطـرب أحشائي ولا أستطيع أن أجلس قبالتها وفي يميني كأس من الشراب وفي شمالي قطعة من الحلوى.

فإن كان هناك من يريد أن يبدل نوحي بالضحك ويحول اشمئزازي إلى الانعطاف وتطرفي إلى الاعتدال فعليه أن يريني بين الشرقيّين حاكمًا عادلًا ومتشرّعًا مستقيمًا ورئيس دين يعمل بما يعلم وزوجًا ينظر إلى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه.

إن كان هناك من يريد أن يشاهدني راقصًا ويسمعني مطبلًا ومزمرًا فعليه أن يدعوني إلى بيت العريس لا أن يوقفني بين المقابر.

السّرجين المفضَّض

1

سلمان أفندي:

هو رجل في الخامسة والثلاثين من عمره، حسن اللباس، رشيق القامة، ذو شاربين معقوفين، وحذاء لامع، يلبس الأجربة الحريريّة، ويدخّن اللفائف الثمينة، ويحمل بيده الناعمة عصا جميلة ذات قبضة ذهبيّة مرصّعة بالحجارة الكريمة، ويأكل في المطاعم الكبيرة حيث يلتئم سراة القوم وأشرافهم ويذهب إلى المتنزهات المشهورة في مركبة فاخرة يجرّها فرسان كريمان.

ولم يرث سلمان أفندي المال عن أبيه لأن أباه رحمه الله كان رجلا فقيرا مسكينًا، ولا جدّ له متاجرا فاكتسب ثروة لأنّه كسلان متوانٍ يكره العمل ويظنّه محطًّا بمقامه، وقد سمعناه مرّة يقول: إن جسدي وأخلاقي لا تساعدني على الشغل، فالشغل قد وجد لذوي الأخلاق الباردة والأجساد الخشنة.

إذن كيف حصل سلمان أفندي على المال، وأيّ ساحر حوّل التراب في كفيّه إلى فضّة وذهب؟

ذاك سرّ من أسرار السِّرجين المفضَّض أعلنه لنا عزرائيل ونحن بدورنا نعلنه لكم:

منذ خمسة أعوام تزوّج سلمان أفندي من السيدة فهيمة أرملة المرحوم بطرس نعمان التاجر الذي اشتهر بين أترابه بالجد والمواظبة والأمانة. وقد كانت السيدة فهيمة حينئذ في الخامسة والأربعين من عمرها وفي السادسة عشرة من سني عواطفها وميولها وهي الآن تصبغ شعرها وتكحل عينيها وتطلي وجهها بالألوان والمساحيق ولكنّها لا ترى سلمان أفندي قبل نصف الليل وقلّما حظيت منه بغير النظرات الحادة والألفاظ القاسية، فهو مشغول عنها بتبذير الثروة التي جمعها زوجها الأوّل بكدّه وعرق جبينه.

2

أديب أفندي:

فتًى في السابعة والعشرين من عمره، ذو أنف كبير وعينين صغيرتين ووجه قذر ويدين ملطختين بالحبر وأظافر محشوّة بالأوساخ. أمّا ملابسه فممزّقة الأطراف وعلى حواشيها بقع من الزيت والدهن والقهوة. وليست هذه المظاهر القبيحة من نتائج العوز والحاجة بل من مولدات إهماله واشتغال باله بالأمور المعنويّة والمسائل العلويّة والمواضيع الإلهيّة... وقد سمعناه يقول مستشهدًا بأمين الجندي: إن القريحة لا تنصرف إلى شيئين. أي أن الأديب لا يستطيع أن يميل إلى صناعة القلم وإلى النظافة في وقت واحد.

أديب أفندي يتكلّم كثيرًا ويتكلّم دائمًا، فهو منصرف عن كلّ شيء إلى الكلام، وقد علمنا أنّه صرف عامين في إحدى مدارس بيروت ودرس علم البديع على أحد الأساتذة المشهورين ونظم الشعر وأنشأ

الرسائل والمقالات ولكنّه للآن لم ينشر منها شيئًا لأسباب كثيرة أهمّها انحطاط الصحافة العربيّة وغباوة القراء!

وقد انصرف أديب أفندي في الآونة الأخيرة إلى خفايا الفلسفة القديمة والحديثة، فهو معجب بسقراط ونيتشه في وقت واحد! ويميل إلى أقوال القديس أغسطينس ميله إلى كتابات فولتر وجان جاك روسو. وقد لقيناه مرّة في عرس والناس حوله ينشدون الأهازيج ويشربون الخمر وهو يتكلّم ببلاغته المشهورة عن مأساة هملت لشكسبير! ورأيناه مرّة أخرى سائرًا في جنازة وجيه والمشيّعون يمشون إلى جانبه برؤوس منخفضة وملامح مكتئبة وهو يتكلّم بفصاحته المعهودة عن خمريات أبي نواس وغزليات ابن الفارض!

لماذا يا ترى يعيش أديب أفندي وما الغرض من صرفه الأيّام والليالي بين الكتب القديمة والأوراق البالية؟ ولماذا لا يقتني حمارًا ويصير في عداد المكارين الأقوياء النافعين؟

ذاك سر من أسرار السرجين المفضّض أعلنه لنا بعلزبول ونحن بدورنا نعلنه لكم:

منذ ثلاث سنوات نظم أديب أفندي قصيدة في مدح سيادة المطران يوحنا شمعون وأنشدها أمامه في دار حبيب بك سلوان، ولما فرغ من تنغيمها دعاه سيادة المطران ووضع يده على كتفه وقال له مبتسمًا: عافاك الله يا ابني، فما أبلغك شاعرًا وما أذكاك أديبًا! فأنا أفتخر بأمثالك ولا أشكّ بأنّك ستكون من رجال الشرق الكبار.

ومن تلك الساعة إلى الآن ووالد أديب أفندي وعمّه وخاله ينظرون إليه معجبين ويتحدّثون عنه مفاخرين قائلين:

– أوَلم يقل المطران يوحنا شمعون انّه سيكون من رجال الشرق العظام؟

3

فريد بك دعيبس:

هو رجل يناهز الأربعين، طويل القامة، صغير الرأس، كبير الفم، ضيق الجبهة أصلعها، يمشي متثاقلًا بصدر منتفخ وعنق مستطيل ولخطواته وزن خاص يضارع بخترة جمل يقلّ هودجًا. وعندما يتكلّم بصوته الجهوري وأسلوبه الفخم تخاله إن لم تكن تعرفه أحد وزراء الدولة المشغولين بتدبير شؤون الناس المهتمّين بتكييف أمور العباد.

وليس لفريد بك من عمل سوى الجلوس في صدور المحافل وتعداد مآتي أسرته المجيدة ومزايا محتده الكريم. وهو مغرم بسرد أخبار الرجال العظام وأعمال الأبطال الكبار كنابليون وعنترة العبسي، وله ولع خاص بالأسلحة النفيسة ولديه منها مجموعة حسنة معلّقة بترتيب على جدران منزله ولكنّه لا يحسن استعمالها!

ومن أقواله المأثورة: إن الله خلق الناس طبقات متفاوتة منها للرئاسة ومنها للخدمة. ومنها: إنّما الشعب حمار حرون لا يسير إلّا إذا علوت ظهره. ومنها: القلم للضعفاء أمّا السيف فللأشداء...

وما هي الأسباب التي تجعل فريد بك يتمجّد متغطرسًا ويتجبّر متعجرفًا ويزهو مختالًا متبذخًا متبجحًا؟

ذاك سر من أسرار السرجين المفضّض أبانه لنا سطانائيل ونحن بدورنا نبينه لكم:

في الثلث الاول من القرن التاسع عشر بينما كان الأمير بشير الشهابي سائرًا بكوكبة من رجاله بين أودية لبنان مرّ بقرب القرية التي كان يقطنها منصور دعيبس جد فريد بك دعيبس. ولما كان النهار حارًّا والشمس تريش الأرض بسهامها الدقيقة فتكاد تحرقها ترجّل الأمير قائلًا لرجاله: تعالوا نرتاح في ظلال تلك السنديانة.

وعلم منصور دعيبس بذلك فنادى جيرانه الفلاحين وأخبرهم بوجود الأمير الكبير على مقربة من قريتهم، فساروا وراءه نحو تلك السنديانة حاملين أطباق التين والعنب وجرار اللبن والخمر والعسل. ولما بلغوا المكان تقدّم منصور دعيبس وقبّل أطراف أذيال الأمير ثمّ نحر كبشًا أمامه وهتف قائلًا: هذا من خير أميرنا وولي نعمتنا.

فسرّ الأمير بأريحيّته وخلع عليه قائلا: ستكون منذ الآن وصاعدًا شيخًا على هذه القرية مشمولًا بنظري الخصوصي. وقد أعفيت سكّان قريتك من الأموال الأميريّة في هذه السنة.

وفي تلك الليلة بعد أن تابع الأمير مسيره اجتمع في بيت «الشيخ» منصور دعيبس جميع سكّان القرية ونادوا به رئيسًا مطاعًا في السرّاء والضرّاء – رحمهم الله جميعًا.

***

وللسرجين المفضّض أسرار لا عداد لها تعلنها لنا الشياطين والأبالسة في كلّ يوم وليلة وسوف نظهرها لكم قبل أن يسيرنا الدهر إلى ما وراء الشفق الأزرق. أمّا الآن وقد انتصف الليل وملّت أجفاننا السهر فاسمحوا لنا أن ننام لعلّ عروس الأحلام تحمل روحنا إلى عالم أنظف من هذا العالم.

رؤيا

عندما جُن الليل وألقى الكرى رداءه على وجه الأرض تركت مضجعي وسرت نحو البحر قائلًا في نفسي: البحر لا ينام. وفي يقظة البحر تعزية لروح لا تنام.

بلغت الشاطئ وكان الضباب قد انحدر من أعالي الجبال وغمر تلك النواحي مثلما يوشي النقاب الرمادي وجه الصبية الحسناء. فوقفت محدقًا إلى جيوش الأمواج مصغيًا إلى تهاليلها، مفكّرًا بالقوى السرمديّة الكامنة وراءها، تلك القوى التي تركض مع العواصف وتثور مع البراكين وتبتسم بثغور الورود وتترنّم مع الجداول.

وبعد هنيهة التفتّ فإذا بثلاثة أشباح جالسين على صخر قريب وأغشية الضباب تسترهم ولا تسترهم، فمشيت نحوهم ببطء كأن في كيانهم جاذبًا يستميلني قسر إرادتي.

ولما صرت على بعد بضع خطوات منهم وقفت شاخصًا بهم كأن في المكان سحرًا أجمد ما بي من العزم وأيقظ ما في روحي من الخيال.

في تلك الدقيقة وقف أحد الأشباح الثلاثة، وبصوت خلته آتيًا من أعماق البحر قال:

– الحياة بغير الحب كشجرة بغير أزهار ولا أثمار. والحب بغير الجمال كأزهار بغير عطر، وأثمار بغير بذور... الحياة والحبّ والجمال – ثلاثة أقانيم في ذات واحدة مستقلّة مطلقة لا تقبل التغيير ولا الانفصال. قال هذا وجلس في مكانه.

ثمّ انتصب الشبح الثاني، وبصوت يماثل هدير مياه غزيرة قال:

– الحياة بغير تمرّد كالفصول بغير ربيع. والتمرّد بغير حق كالربيع في الصحراء القاحلة الجرداء... الحياة والتمرّد والحق – ثلاثة أقانيم في ذات واحدة لا تقبل الانفصال ولا التغيير.

ثمّ انتصب الشبح الثالث، وبصوت كقصف الرعد قال:

– الحياة بغير الحريّة كجسم بغير روح. والحريّة بغير الفكر كالروح المشوّشة... الحياة والحريّة والفكر – ثلاثة أقانيم في ذات واحدة أزليّة لا تزول ولا تضمحل.

ثمّ وقف الأشباح الثلاثة، وبأصوات هائلة قالوا معًا:

– الحب وما يولّده. والتمرّد وما يوجده. والحريَّة وما تنمّيه – ثلاثة مظاهر من مظاهر الله. والله ضمير العالم العاقل.

وحدث إذ ذاك سكوت مفعم بحفيف أجنحة غير منظورة وارتعاش أجسام أثيرية. فأغمضت عينيّ مصغيًا إلى صدى الأقوال التي سمعتها. ولما فتحتهما ونظرت ثانية لم أرَ غير البحر متشحًا بدثار الضباب، فاقتربت من الصخرة حيث كان الأشباح الثلاثة جالسين فلم أرَ إلّا عمودًا من البخور متصاعدًا نحو السماء.

في ظلام الليل

كتبت أيام المجاعة

في ظلام الليل ينادي بعضنا بعضًا.

في ظلام الليل نصرخ ونستغيث وخيال الموت منتصب في وسطنا. وأجنحته السوداء تخيم علينا. ويده الهائلة تجرف إلى الهاوية أرواحنا. أما عيناه الملتهبتان فمحدقتان إلى الشفق البعيد.

في ظلام الليل يسير الموت ونحن نسير خلفه خائفين منتحبين وليس بيننا من يستطيع الوقوف وليس فينا من له أمل بالوقوف.

في ظلام الليل يسير الموت ونحن نتبعه، وكلّما التفت الموت إلى الوراء يسقط منّا ألف إلى جانبي الطريق ومن يسقط يرقد ولا يستيقظ ومن لا يسقط يسير قسر إرادتـه عالما بأنّه سيسقط ويرقد مع الذين رقدوا. أمّا الموت فيظلّ سائرًا محدّقًا إلى الشفق البعيد.

في ظلام الليل ينادي الأخ أخاه والأب أبناءه والأم أطفالها وكلّنا جائعون لاغبون متضوّرون. أمّا الموت فلا يجوع ولا يعطش، فهو يلتهم أرواحنا وأجسادنا ويشرب دماءنا ودموعنا ولكنّه لا يشبع ولا يرتوي.

في الهزيع الأوّل من الليل ينادي الطفل أمّه قائلًا: يا أمّاه أنا جائع.

فتجيبه الأم قائلة: اصبر قليلًا يا ولداه.

وفي الهزيع الثاني ينادي الطفل أمه ثانية قائلًا: يا أمّاه أنا جائع فأعطيني خبزًا. فتجيبه: ليس لديّ خبز يا ولداه.

وفي الهزيع الثالث يمرّ الموت بالأم وطفلها ويصفعهما بجناحه فيرقدان على جانب الطريق، أمّا الموت فيظلّ سائرًا محدقًا إلى الشفق البعيد.

في الصباح يذهب الرجل إلى الحقول طالبًا القوت فلا يجد فيها غير التراب والحجارة.

وعند الظهيرة يعود إلى زوجته وصغاره خائر القوى فارغ اليدين.

وعندما يجيء المساء يمرّ الموت بالرجل وزوجته وصغاره فيجدهم راقدين فيضحك ثمّ يسير محدقًا إلى الشفق البعيد.

في الصباح يترك الفلاح كوخه ويذهب إلى المدينة وفي جيبه حلى أمّه وأُختيه ليبتاع بها الدقيق. وعند العصر يعود إلى قريته بلا قوت ولا حلى فيجد أمّه وابنتيها راقدات أمّا عيونهن فلم تزل شاخصة إلى اللاشيء، فيرفع ذراعيه نحو السماء ثمّ يهبط إلى الحضيض كطائر رماه الصياد. وفي المساء يمرّ الموت بقرب الفلاح وأمّه وأُختيه فيجدهم راقدين فيبتسم ثمّ يسير محدقًا إلى الشفق البعيد.

في ظلام الليل، وليس لظلام الليل نهاية، نناديكم أيّها السائرون في نور النهار فهل أنتم سامعون صراخنا؟

قد بعثنا إليكم أرواح أمواتنا رسلًا فهل وعيتم ما قاله الرسل؟

وحمّلنا الهواء الشرقي من أنفاسنا حملًا فهل بلغ الهواء شواطئكم البعيدة وألقى بين أيديكم أحماله الثقيلة؟ هل عرفتم ما بنا فقمتم تسعون لإنقاذنا أم وجدتم نفوسكم في سلامة وطمأنينة فقلتم: ماذا عسى يستطيع الجالسون في النور أن يفعلوا لأبناء الظلام؟ فلندع الموتى يدفنون أمواتهم ولتكن مشيئة الله.

إي، لتكن مشيئة الله.

ولكن هلّا تستطيعون أن ترفعوا نفوسكم إلى ما فوق نفوسكم ليصيّركم الله مشيئة له وعونًا لنا؟

في ظلام الليل ينادي بعضنا بعضًا.

في ظلام الليل ينادي الأخ أخاه والأم ابنها والزوج زوجته والمحبّ حبيبته. وعندما تتمازج أصواتنا وتتعالى إلى كبد الفضاء يقف الموت هنيهة ضاحكًا منّا مستهزئًا بنا ثمّ يسير محدقًا إلى الشفق البعيد.

الأضراس المسوّسة

كان في فمي ضرس مسوّس، وكان يحتال على تعذيبي فيسكن متربّصًا ساعات النهار ويستيقظ مضطربًا في هدوء الليل عندما يكون أطباء الأسنان نائمين والصيدليّة مقفلة.

ففي يوم وقد نفد صبري ذهبت إلى أحد الأطباء وقلت له: ألا فانزعه ضرسًا خبيثًا يحرمني لذّة الرقاد ويحوّل سكينة لياليّ إلى الأنين والضجيج.

فهز الطبيب رأسه قائلًا: من الغباوة أن نستأصل الضرس إذا كان بإمكاننا تطبيبه.

ثمّ أخذ يحفر جوانب الضرس وينظف زواياه ويتفنّن بتطهيره من العلّة. ولما وثق بأنّه صار خاليًا من السوس حشا ثقوبه بالذهب الخالص ثمّ قال مفاخرًا: لقد أصبح ضرسك العليل أشد وأصلب من أضراسك الصحيحة. فصدقت كلامه وملأت حفنته بالدنانير وذهبت فرحًا.

ولكن لم يمر الأسبوع حتّى عاد الضرس المشؤوم إلى تعذيبي وإبدال أنغام روحي بحشرجة الاحتضار وعويل الهاوية.

فذهبت إلى طبيب آخر وقلت له بصوت يعانقه الحزم: ألا فاخلعه ضرسًا مذهبًا شرّيرًا، ولا تعترض «فمن يأكل العصي لا كمن يعدّها».

فنزع الطبيب الضرس وكانت ساعة هائلة بأوجاعها ولكنّها كانت ساعة مباركة.

وقد قال لي الطبيب بعد أن استأصل الضرس وتفحّصه جيّدًا: لقد فعلت حسنًا، فالعلّة قد تحكّمت بأصول ضرسك هذا حتّى لم يبقَ رجاء بشفائه.

وقد نمت مرتاحًا في تلك الليلة، ولم أزل في راحة، والحمد للخلع والاستئصال.

في فم الجامعة البشريّة أضراس مسوّسة وقد نخرتها العلّة حتّى بلغت عظم الفك، غير أن الجامعة البشريّة لا تستأصلها لترتاح من أوجاعها بل تكتفي بتمريضها وتنظيف خارجها وملء ثقوبها بالذهب اللمّاع.

وما أكثر الأطباء الذين يداوون أضراس الإنسانيّة بالطلاء الجميل والمواد البرّاقة. وما أكثر المرضى الذين يستسلمون إلى مشيئة أولئك الأطباء المصلحين فيتوجعون ويسقمون ثمّ يموتون بعلّتهم مخدوعين.

غير أن الأمّـة التي تعتلّ ثمّ تموت لا تُبعث ثانية لتظهر للملأ أسباب الأمراض المعنويّة وماهية الأدواء الاجتماعيّة التي تؤول بالأمم إلى الانقراض والعدم.

***

وفي فم الأمة السوريّة أضراس بالية سوداء قذرة ذات رائحة كريهة وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالميناء وإلباس خارجها رقوق الذهب ولكنّها لا تشفى ولن تشفى بغير الاستئصال. والأمّة التي تكون أضراسها معتلّة تكون معدتها ضعيفة، وكم أمّة ذهبت شهيدة عسر الهضم.

ومن شاء أن يرى أضراس سوريا المسوّسة فليذهب إلى المدرسة حيث يستظهر رجال الغد ما قاله الأخفش نقلًا عن سيبويه وسيبويه عن سائق الأظعان.

أو فليذهب إلى المحكمة حيث يتلاعب الذكاء البهلواني بالقضايا الشرعيّة مثلما تلعب القطة بصيدتها.

أو فليذهب إلى منازل المثرين حيث التصنّع والكذب والرياء.

أو فليذهب إلى بيوت الفقراء حيث الخوف والجبانة والجهالة.

وبعد ذلك فليذهب إلى أطباء الأسنان ذوي الأصابع الناعمة والآلات الدقيقة والمساحيق المخدرة الذين يصرفون الأيّام بملء ثقوب الأضراس المسوّسة وتطهير زواياها المعتلة، وإذا أراد محادثتهم والانتفاع بمواهبهم فهم هم النبهاء الفصحاء البلغاء الذين يؤلّفون الجمعيات ويعقدون المؤتمرات ويخطبون في النوادي والساحات، ففي حديثهم نغمة أسمى من أناشيد حجر الرحى وأنبل من أغاني الضفادع في ليالي تموز.

ولكن إذا قال لهم إن الأمّة السوريّة تقضم قوت الحياة بأضراس مسوّسة وإنّ كلّ لقمة تلوكها تمتزج بلعاب مسمّم وإنّه قد نتج عن ذلك مرض في أمعائها، إذا قال هذا يجيبونه بقولهم: نعم نحن الآن منصرفون إلى درس أحدث المساحيق وأجدّ المخدّرات.

وإذا قال لهم: ما قولكم بالاستئصال؟ يضحكون منه لأنّه لم يدرس طب الأسنان الشريف.

وإذا أعاد السؤال ثانية يبتعدون عنه متضجرين قائلين في نفوسهم: ما أكثر الخياليّين في هذا العالم وما أوهى أحلامهم!

مساء العيد

جاء المساء وغمر الظلام المدينة فشعشعت الأنوار في القصور والمنازل وخرج الناس إلى الشوارع بملابس العيد الجديدة وعلى وجوههم سيماء البشر والاستكفاء ومن بين دقائق لهاثهم تنبعث رائحة المآكل والخمور...

أما أنا فسرت وحيدًا منفردًا مبتعدًا عن الزحام والضجيج أفكّر بصاحب العيد.

أُفكّر بنابغة الأجيال الذي ولد فقيرًا وعاش متجرّدًا ومات مصلوبًا...

أُفكّر بالشعلة الناريّة التي أوقدها الروح الكلي في قرية حقيرة بسوريا فطافت مرفرفة فوق رؤوس العصور مخترقة مدنيّة بعد مدنيّة...

ولما بلغت الحديقة العموميّة جلست على مقعد خشبي أنظر من خلال أغصان الأشجار العارية نحو الشوارع المزدحمة وأسمع عن بعد أناشيد المعيّدين السائرين في موكب اللهو والخلو...

وبعد ساعة مفعمة بالأفكار والأحلام التفتّ وإذا برجل جالس بقربي على المقعد وفي يده عصا يرسم بطرفها خطوطًا ملتبسة على التراب... فقلت في نفسي: هو مستوحد مثلي. ثمّ تفرّست فيه متبصّرًا

شكله فألفيته رغم أثوابه القديمة وشعره المسترسل المشوّش ذا هيبة ووقار... وكأنّه قد شعر بأنّني أنظر إليه متفحّصًا شكله وملامحه فالتفت نحوي وقال بصوت عميق هادئ: مساء الخير. فأرجعت التحيّة قائلًا: أسعد الله مساءك.

ثمّ عاد يرسم الخطوط بعكّازه على أديم الأرض. وبعد هنيهة وقد أعجبت بنغمة صوته خاطبته ثانية قائلًا: هل أنت غريب في هذه المدينة؟

فأجاب: أنا غريب في هذه المدينة وأنا غريب في كلّ مدينة أخرى.

قلت: إن الغريب في مثل هذه المواسم يتناسى ما في الغربة من الضيم والوحشة لما يجده في الناس من الأنس والانعطاف.

فأجاب: أنا غريب في مثل هذه الأيّام أكثر مني في غيرها.

قال هذا ونظر إلى الفضاء الرمادي فاتسعت عيناه وارتعشت شفتاه كأنّه رأى على صفحة الفضاء رسوم وطن بعيد...

قلت: إن القوم في هذه المواسم يعطف بعضهم على بعض، فالغني يذكر الفقير والقوي يرحم الضعيف.

فأجاب: نعم، وما رحمة الغني بالفقير سوى نوع من حبّ الذات، وليس انعطاف القوي على الضعيف إلّا شكلًا من التفوّق والافتخار.

قلت: قد تكون مصيبًا ولكن ماذا يهمّ الفقير الضعيف ما يجول في باطن الغني القوي من الرغائب والميول؟ إن الجائع المسكين يحلم بالخبز ولكنّه لا يفكّر في الكيفيّة التي يعجن بها الخبز.

فأجاب: إن الموهوب لا يفكّر أمّا الواهب فيجب عليه أن يفكّر ويفكّر طويلا.

فأُعجبت بكلامه وعدت أتأمّل منظره الغريب وأثوابه القديمة...

وبعد سكينة نظرت إليه قائلا: يلوح لي أنّك في حاجة، فهلّا قبلت درهمًا أو درهمين؟

فأجاب وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة محزنة: نعم أنا بحاجة ولكن إلى غير المال.

قلت: وماذا تحتاج؟

فقال: أنا بحاجة إلى مأوى... أنا بحاجة إلى مكان أُسند إليه رأسي.

قلت: خذ مني درهمين واذهب إلى النزل واستأجر غرفة.

فأجاب: قد ذهبت إلى كلّ نزل في هذه المدينة فلم أجد لي مأوى، وطرقت كلّ باب فلم أرَ لي صديقًا، ودخلت كلّ مطعم فلم أُعطَ خبزًا.

فقلت في نفسي: ما أغربه فتى يتكلّم تارة كالفيلسوف وطورًا كالمجنون!

ولكن لم أهمس لفظة «مجنون» في أذن روحي حتّى حدّق إليّ شاخصًا ورفع صوته عن ذي قبل وقال: نعم أنا مجنون، ومن كان مثلي يرى نفسه غريبًا بلا مأوى وجائعًا بلا طعام.

قلت مستدركًا مستغفرًا: سامح ظنوني فأنا لا أعرف من أنت وقد استغربت كلامك، فهلّا قبلت دعوتي وذهبت معي لتصرف الليلة في منزلي؟

فاجاب: قد طرقت بابك ألف مرّة ولم يفتح لي.

قلت وقد تحقّقت جنونه: تعالَ الآن واصرف الليلة في منزلي.

فرفع رأسه وقال: لو عرفت من أنا لما دعوتني.

قلت: ومن أنت؟

قال وفي صوته هدير مياه غزيرة: أنا الثورة التي تقيم ما أقعدته الأمم. أنا العاصفة التي تقتلع الأنصاب التي أنبتتها الأجيال. أنا الذي جاء ليلقي في الأرض سيفًا لا سلامًا.

ووقف منتصبًا وتعالت قامته وسطع وجهه وبسط ذراعيه فظهر أثر المسامير في كفيه، فارتميت راكعًا أمامه وصرخت قائلًا: يا يسوع الناصري...

وسمعته يقول إذ ذاك: العالم يعيّد لاسمي وللتقاليد التي حاكتها الأيّام حول اسمي. أمّا أنا فغريب أطوف تائهًا في مغارب الأرض ومشارقها وليس بين الشعوب من يعرف حقيقتي.

للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وليس لابن الإنسان أن يسند رأسه.

ورفعت رأسي إذ ذاك ونظرت فلم أرَ أمامي سوى عمود من البخور ولم أسمع سوى صوت الليل آتيًا من أعماق الأبديّة.

الجبابرة

ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب.

وليس السكوت الذي يحدثه الملل كالسكوت الذي يوجده الألم.

أمّا أنا فقد سكتّ لأن آذان العالم قد انصرفت عن همس الضعفاء وأنينهم إلى عويل الهاوية وضجتها، ومن الحكمة أن يسكت الضعيف عندما تتكلّم القوى الكامنة في ضمير الوجود – تلك القوى التي لا ترضى بغير المدافع ألسنة ولا تقنع بسوى القنابل ألفاظًا.

نحن الآن في زمن أصغر صغائره أكبر من كبائر ما تقدمه. فالأمور التي كانت تشغل أفكارنا وميولنا وعواطفنا قد انزوت في الظل. والمسائل والمشاكل التي كانت تتلاعب بآرائنا ومبادئنا قد توارت وراء نقاب من الإهمال. أمّا الأحلام المستحبّة والأشباح الجميلة التي كانت تميس متنقلة على مسارح وجداننا فقد تبدّدت كالضباب وحلّ محلّها جبابرة تسير كالعواصف، وتتمايل كالبحار، وتتنفّس كالبراكين.

وما عسى أن يصير إليه العالم بعد أن تنتهي الجبابرة من صراعها؟

هل يعود القروي إلى حقله فيلقي البذور حيث زرع الموت جماجم القتلى؟

هل يقود الراعي مواشيه إلى مروج مزّقت أديمها السيوف ويوردها مناهل يمتزج ماؤها بنجيع الدماء؟

هل يركع العابد في هيكل رقصت فيه الشياطين، ويردّد الشاعر قصائده أمام كواكب حُجبت بالدخان، وينغم المنشد أغانيه في ليل عانقت سكينته الأهوال؟

هل تجلس الأم بجانب سرير رضيعها مرتّلة بهدوء أغاني النوم وهي لا ترتجف وجلًا ممّا سيجلبه الغد؟

هل يلتقي الحبيب بحبيبته ويتبادلان القبل حيث التقى العدوّ بعدوّه وتبادلا القذائف؟

وهل يعود نيسان إلى الأرض ويستر بقميصه أعضاءها المكلومة؟

ليت شعري، هل يعود نيسان إلى الحقول؟

***

وما عسى تصير إليه بلادكم وبلادي؟ وأيّ من الجبابرة يضع يده على تلك التلال والهضبات التي أنبتتنا وصيّرتنا رجالا ونساء امام وجه الشمس؟

هل تبقى سورية مطروحة بين مغاور الذئاب وحظائر الخنازير، أم تنتقل مع العاصفة إلى عرين الأسد أو ذروة النسر؟

وهل يطلع الفجر فوق قمم لبنان؟

كلّما خلوتُ بنفسي أطرح عليها هذه السؤالات، غير أن النفس كالقضاء تبصر ولا تتكلّم، وتسير ولكنّها لا تلتفت، فهي ذات عيون تتجلّى وأقدام تتسارع، أمّا لسانها فثقيل.

ومن منكم أيّها الناس لم يسأل نفسه في كلّ يوم وليلة عن مصير الأرض وسكّانها بعد أن تختمر الجبابرة من دموع الأرامل والأيتام؟

أنا من القائلين بسنّة النشوء والارتقاء، وفي عرفي أن هذه السنّة تتناول بمفاعيلها الكيانات المعنويّة بتناولها الكائنات المحسوسة،

فتنتقل بالأديان والحكومات من الحسن إلى الأحسن انتقالها بالمخلوقات كافة من المناسب إلى الأنسب. فلا رجوع إلى الوراء إلّا في الظاهر ولا انحطاط إلّا في السطحي.

ولسنّة الارتقاء سبل متشعّبة يتفرّع بعضها من بعض ولكنّها متلازمة الأصول، ومظاهرها قاسية ظالمة مظلمة تنكرها الأفكار المحدودة وتتمرّد عليها القلوب الضعيفة، أمّا خفاياها فعادلة منيرة، متمسكة بحق أسمى من حقوق الأفراد، محدقة إلى غرض أعلى من مرام الجماعة، مصغية إلى صوت يغمر بهوله وعذوبته تنهدات المنكوبين وغصّات المتوجّعين.

حولي بكلّ مكان أقزام يرون عن بعد أشباح الجبابرة متناضلين ويسمعون في المنام صدى تهاليلهم فيضجون كالضفادع قائلين: قد رجع العالم إلى فطرته الوضعيّة. فما بنته الأجيال بالعلم والفن قد هدمه الإنسان الوحشي بالطمع والأنانية، فحالنا اليوم حال سكّان الكهوف ولا يميزنا عنهم سوى آلات نبتدعها للدمار وحيل نستخدمها للهلاك!

هذا ما يقوله هؤلاء الذين يقيسون ضمير العالم بمقياس ضمائرهم، ويحلّلون مراد الوجود بالفكرة القصيرة التي يستخدمونها لحفظ وجودهم الفردي. فكأن الشمس لم تكن إلّا لتدفئتهم، وكأن البحر لم يوجد إلّا لغسل أرجلهم.

***

من أحشاء الحياة، من وراء المرئيات، من أعماق الكون المدبر حيث تصان أسرار الكون المدبر قد انبثقت الجبابرة كالريح وتصاعدوا كالغيوم ثمّ تلاقوا كالجبال وهم الآن يتصارعون ليحلوا مشكلة في الأرض لا يحلّها غير الصراع.

أمّا البشر وكلّ ما في رؤوسهم من المدارك والمعارف، وما في قلوبهم من المحبة والبغضاء، وما يعانق نفوسهم من الصبر والجزع

والأوجاع فآلات يتناولها الجبابرة ويديرونها توصّلًا إلى غاية علويّة لا بدّ من بلوغها.

أمّا الدماء التي أُهرقت فسوف تجري أنهارًا كوثريّة، وأمّا الدموع التي نثرت فستنبت أزهارا زكيّة، وأمّا الأرواح التي فاضت فسوف تجتمع وتتألف وتطلع من وراء الأفق الجديد صباحًا جديدًا فيعلم الناس أنهم قد ابتاعوا الحقّ في سوق البؤس وان من ينفق في سبيل الحق لن يخسر.

وأمّا نيسان فسيعود – لكن من يطلب نيسان من غير كف الشتاء فلن يجده.

مات أهلي

كتبت أيام المجاعة

مات أهلي وأنا قيد الحياة أندب أهلي في وحدتي وانفرادي.

مات أحبائي وقد أصبحت حياتي بعدهم بعض مصابي بهم.

مات أهلي وأحبائي وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادي، وأنا ههنا أعيش مثلما كنت عائشًا عندما كان أهلي وأحبائي جالسين على منكبيّ الحياة وهضبات بلادي مغمورة بنور الشمس.

مات أهلي جائعين، ومن لم يمت منهم جوعًا قضى بحد السيف، وأنا في هذه البلاد القصيّة أسير بين قوم فرحين مغتبطين يتناولون المآكل الشهيّة والمشارب الطيّبة وينامون على الأسرّة ويضحكون للأيّام والأيّام تضحك لهم.

مات أهلي أذلّ ميتة، وأنا ههنا أعيش في رغد وسلام. وهذه هي المأساة المستتبّة على مسرح نفسي.

لو كنت جائعًا بين أهلي الجائعين مضطهدًا بين قومي المضطهدين، لكانت الأيّام أخفّ وطأة على صدري، والليالي أقلّ سوادًا أمام عينيّ، لأن من يشارك أهله بالأسى والشدّة يشعر بتلك التعزية العلويّة التي يولدها الاستشهاد، بل يفتخر بنفسه لأنّه يموت بريئًا مع الأبرياء.

ولكني لست مع قومي الجائعين، المضطهدين، السائرين في موكب الموت نحو مجد الاستشهاد، بل أنا ههنا وراء البحار السبعة أعيش في ظلّ الطمأنينة وخمول السلامة. أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا أستطيع أن أفتخر بشيء حتّى ولا بدموعي.

وماذا عسى يقدر المنفيُّ البعيد أن يفعل لأهله الجائعين؟

ليت شعري، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه؟

لو كنت سنبلة من القمح نابتة في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويزيل بحبّاتي يد الموت عن نفسه.

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقضمني طعامًا.

لو كنت طائرًا في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني ويزيل بجسدي ظلّ القبر عن جسده.

ولكن، واحرّ قلباه، لست بسنبلة من القمح في سهول سوريا، ولا بثمرة يانعة في أودية لبنان. وهذه هي نكبتي. هذه نكبتي الصامتة التي تجعلني حقيرًا أمام نفسي وأمام أشباح الليل.

هذه هي المأساة الموجعة التي تعقد لساني وتكبّل يديّ ثمّ توقفني بلا عزم، ولا إرادة، ولا عمل.

***

يقولون لي: ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم، وما الدموع والدماء التي أُهرقت في بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع المتدفّق ليلًا ونهارًا في أودية الأرض وسهولها.

نعم، ولكن نكبة بلادي نكبة خرساء – نكبة بلادي جريمة حبلت بها رؤوس الأفاعي والثعابين – نكبة بلادي مأساة بغير أناشيد ولا مشاهد.

لو ثار قومي على حكّامهم الطغاة وماتوا جميعًا متمرّدين لقلت إن الموت في سبيل الحريّة لأشرف من الحياة في ظلال الاستسلام. ومن يعتنق الأبديّة والسيف في يده كان خالدًا بخلود الحق.

لو اشتركت أمّتي بحرب الأمم وانقرضت عن بكرة أبيها في ساحة القتال لقلت هي العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها الأغصان الخضراء واليابسة معًا، وإن الموت تحت أغصان العواصف لأشرف منه بين ذراعي الشيخوخة.

ولو زلزلت الأرض زلزالها وقلبت ظهر بلادي صدرًا وغمر التراب أهلي وأحبائي لقلت هي النواميس الخفيّة تتحرّك بمشيئة قوّة فوق قوى البشر، فمن الجهالة أن نحاول إدراك أسرارها وخفاياها.

ولكن لم يمت أهلي متمرّدين، ولا هلكوا محاربين، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين.

مات أهلي على الصليب.

ماتوا وأكفّهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة إلى سواد الفضاء.

ماتوا صامتين لأن آذان البشريّة قد أُغلقت دون صراخهم.

ماتوا لأنّهم لم يحبّوا اعداءهم كالجبناء، ولم يكرهوا محبّيهم كالجاحدين.

ماتوا لأنهم لم يكونوا مجرمين.

ماتوا لأنّهم لم يظلموا الظالمين.

ماتوا لأنّهم كانوا مسالمين.

ماتوا جوعًا في الأرض التي تدرّ لبنًا وعسلًا.

ماتوا لأن الثعبان الجهنّمي قد التهم كلّ ما في حقولهم من المواشي وما في أهرائهم من الأقوات.

ماتوا لأن الأفاعي أبناء الأفاعي قد نفثوا السموم في الفضاء الذي كانت تملؤه أنفاس الأرز وعطور الورود والياسمين.

***

مات أهلي وأهلكم أيّها السوريّون، فماذا نستطيع أن نفعل لمن لم يمت منهم؟

إن نواحنا لا يسدّ رمقهم، ودموعنا لا تروي غليلهم، إذن ماذا نفعل لننقذهم من الجوع والشدّة؟

هل نبقى مرتابين، متردّدين، متكاسلين، مشغولين عن المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغائرها؟

إن العاطفة التي تجعلك، يا أخي السوري، تعطي شيئًا من حياتك لمن يكاد يفقد حياته هي هي الأمر الوحيد الذي يجعلك حريّا بنور النهار وهدوء اللّيل.

وإن الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة إليك هو هو الحلقة الذهبيّة التي تصل ما فيك من البشريّة بما فوق البشريّة.

الأمم وذواتها

الأمّة مجموع أفراد متبايني الأخلاق والمشارب والآراء تضمّهم رابطة معنويّة أقوى من الأخلاق وأعمق من المشارب وأعمّ من الآراء.

وقد تكون الوحدة الدينيّة بعض خيوط هذه الرابطة، غير أن الخلاف في العقيدة لا يحلّ الروابط الأمميّة إلّا إذا كانت ضعيفة واهية كما هي في بعض البلاد الشرقيّة.

وقد تكون وحدة اللغة سببًا أساسيًّا لإيجاد هذه الرابطة، ولكن هناك شعوب كثيرة تتكلّم لغة واحدة مع أنّها في خلاف مستمر من حيث السياسة والإدارة والنظريات الاجتماعيّة.

وقد تكون الوحدة الدمويّة أساسًا لهذه الرابطة، ولكن في التاريخ أمثلة عديدة نستدلّ منها على أن أفخاذ عنصر واحد انشقّت بعضها على بعض وكان ذلك الانشقاق مجلبة للتطاحن والتباغض ثمّ الاضمحلال.

وقد تكون المصلحة المادية نولًا تحاك عليه تلك الرابطة، ولكن هناك شعوب عديدة لم تحك مصلحتهم المادية سوى المنافسة والمناقشة.

إذن ما هي تلك الرابطة الاجتماعيّة؟ وما هي التربة التي تنبت فيها أنصاب الأمم؟

لي رأي في الرابطة الأمميّة قد يحسبه بعض المفكّرين غريبا لأن أصوله ونتائجه ليست من الأمور المحسوسة.

أمّا رأيي فهو هذا:

لكلّ شعب ذات عامّة، تشابه بجوهرها وطبيعتها ذات الفرد. ومع أن هذه الذات العامة تستمد كيانها من أفراد الشعب كما تستمد الشجرة حياتها من الماء والتراب والنور والحرارة فهي مستقلّة عن الشعب ولها حياة خاصّة وإرادة منفردة. وكما يصعب عليّ تحديد وتعيين الزمن الذي تتولّد فيه ذات الفرد الواحد هكذا يصعب عليّ تعيين وتحديد الزمن الذي تتولّد فيه الذات العامة. غير أنّني أشعر أن الذات المصريّة – مثلًا – قد تبلورت قبل ظهور الدولة الأولى على ضفاف النيل بزمن لا يقلّ عن خمسمائة سنة. ومن تلك الذات العامة قد استمدّت مصر مظاهرها الفنيّة والدينيّة والاجتماعيّة. وما أقوله عن مصر يصح في أشور وفارس واليونان ورومة والعرب وغيرها من الأمم الحديثة، أعني تلك التي ظهرت بعد انقضاء الأجيال المتوسطة.

قلت إن للذات العامة حياة خاصّة. نعم، ولما كان لكلٍّ حيّ عمر محدود كان لتلك الذات العامّة أجل محدود لا تتجاوزه. ومثلما يسير الكيان الفردي من الطفولة إلى الشبيبة، إلى الكهولة، إلى الشيخوخة، هكذا يتدرّج كيان الذات العامة من يقظة الفجر الموشحة بنقاب النوم، إلى يقظة الظهر المتجلببة بنور الشمس، إلى يقظة المساء المتسربلة بلباس التضجر، إلى يقظة الليل المغمورة بالنعاس، إلى سبات عميق.

إن الذات اليونانيّة قد استيقظت في القرن العاشر قبل المسيح، ومشت بعزم وجلال في القرن الخامس قبل المسيح. ولما بلغت عهد الناصري كانت قد ملّت أحلام اليقظة فنامت على مضجع الأبديّة لتعانق أحلام الأبديّة.

أمّا الذات العربيّة فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخّض بالنبي محمّد حتّى انتصبت كالجبار وثارت كالعاصفة متغلّبة على كلّ ما يقف في سبيلها. ولما بلغت العبّاسيّين تربّعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أوّلها في الهند وآخرها في الأندلس. ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغوليّة قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربيّة يقظتها فنامت ولكن نومًا خفيفًا متقطّعًا وقد تعود وتفيق ثانية لتبيّن ما بقي خفيًّا في نفسها كما عادت الذات الرومانيّة في زمن النهضة الإيطاليّة المعروفة بالرنيسانس وأَكملت في البندقيّة وفلورنسا وميلانو ما ابتدأت به قبل أن تباغتها الشعوب التوتونيّة في بدء الأجيال المظلمة.

وأغرب الذوات العامّة في التاريخ هي الذات الفرنسيّة، فهي قد عاشت ألفي سنة أمام وجه الشمس ولم تزل في شبيبة نضرة. وهي اليوم أدقّ فكرًا وأحدّ نظرًا وأوسع فنًّا وعلمًا ممّا كانت في أيّ زمن من تاريخها.

فروِدان وكارير وشيتان وهوغو ورينان وساسه وسيموني، وجميعهم من أبناء القرن التاسع عشر، كانوا أعظم رجال العالم فنًّا وأكثرهم علمًا وأبعدهم خيالًا، الأمر الذي يدلّنا على أن لبعض الذوات العامّة أعمارًا أطول من الأخرى. فالذات المصريّة عاشت ثلاثة آلاف سنة. أمّا الذات اليونانيّة فلم تعش أكثر من ألف سنة. وقد تكون الأسباب في طول آجال الذوات العامة أو قصرها شبيهة بأسباب قصر أعمار الأفراد أو طولها.

وماذا يا ترى يحلّ بالذات العامة بعد أن تلعب دورها على مسرح الوجود؟

هل تموت وتفنى بدورها غير تاركة وراءها سوى الذكرى لمن يجيء بعدها؟ هل تضمحل أمام الأيّام والليالي كأنّها لم تكن مظهرًا لليالي والأيّام؟

في عقيدتي أن الكيان المعنوي يتغيّر ولكنّه لا ولن يضمحلّ. فهو كالكيان المادي يتحوّل من شكل إلى شكل ومن صورة إلى صورة، أمّا دقائقه وذراتـه الوضعيّة فباقية ببقاء الزمن. فـذات الأمّـة العامّة تنام ولكن نوم الأزاهر بعد أن تلقي بذورها في تربة الأرض، أمّا عطرها فيتصاعد إلى عالم الخلود. وعندي أن العطر في الأمّة أو في الزهرة هو الحقيقة المجرّدة، هو الجوهر المطلق. فعطر ثيب وبابل ونينوى وأثينا وبغداد موجود الآن في الغلاف الأثيري المحيط بالأرض، بل هو موجود في أعماق أرواحنا. ونحن، أفـرادًا وجماعات، ورثة كلّ الـذوات العامّة التي وجدت على سطح الأرض.

غير أن ذلك الإرث العلوي لا يتخذ له صورًا محسوسة في الفرد أو الجماعات حتّى تتبلور الأمّة التي ينتسب الأفراد والجماعات إليها وتصير ذاتًا لها حياة خاصّة وإرادة منفردة.

فلسفة المنطق

أو معرفة الذات

في ليلة من ليالي بيروت الممطرة جلس سليم أفندي دعيبس أمام منضدة فوقها أكداس من الكتب العتيقة والأوراق المنثورة يقلّب الأسفار ويرفع رأسه بين الآونة والأخرى مخرجًا من بين شفتيه الغليظتين سحابة من دخان التبغ. وقد كان بين يديه إذ ذاك رسالة فلسفيّة أوحاها سقراط لتلميذه أفلاطون في «معرفة الذات».

كان سليم أفندي يتبصّر آيات تلك الرسالة النفيسة مستحضرًا إلى حافظته ما قاله الفلاسفة والمرشدون في موضوعها حتّى لم تبقَ شاردة لمفكر غربي إلّا لازمت فكرته، ولا واردة لمعلّم شرقي إلّا لاحمت ذاكرته، حتّى إذا ما غرقت ذاته في موضوع معرفة الذات نهض فجأة ومدّ ذراعيه وصرخ بأعلى صوته قائلًا: نعم. نعم. إن معرفة الذات هي أم كلّ معرفة، أما أنا فعليّ أن أعرف ذاتي. وأعرفها تمامًا. وأعرفها بتفاصيلها ومعالمها ودقائقها وذراتها. عليّ أن أُزيل النقاب عن أسرار نفسي وأمحو الالتباس عن مكامن قلبي. بل عليّ أن أُبين معاني كياني المعنوي لكياني الهيولي، وخفايا وجودي الهيولي لوجودي المعنوي.

قال هذا بحماسة غريبة وفي عينيه تتّقد شعلة «محبّة المعرفة»، معرفة الذات، ثمّ دخل إلى غرفة محاذية وانتصب كالتمثال أمام مرآة كبيرة تصل أرض الغرفة بسقفها ونظر محدقًا إلى شبحه متفرّسًا في وجهه متأمّلًا بشكل رأسه وخطوط قامته وإجمال هيأته.

ظلّ واقفًا جامدًا على هذه الحالة نصف ساعة كأن الفكرة الأزليّة قد أنزلت عليه أفكارًا هائلة بسموّها تجعله بواسطتها يكتشف بواطن روحه ويملأ بالنور خلايا ذاته. ثمّ فتح شفتيه بهدوء وقال مخاطبًا نفسه:

أنا قصير القامة وهكذا كان نابليون وفكتور هوغو.

أنا ضيق الجبهة وهكذا كان سقراط وسبينوزا.

أنا أصلع وهكذا كان شكسبير.

أنفي كبير ومنحنٍ إلى جهة واحدة وهكذا كان سفنرولا وفولتر وجورج واشنطن.

في عينيّ سقم وهكذا كان بولس الرسول ونيتشه.

فمي غليظ وشفتي السفلى ناتئة وهكذا كان شيشرون ولويس الرابع عشر.

عنقي غليظ وهكذا كان هنيبال ومرقس أنطونيوس.

أُذناي مستطيلتان بارزتان إلى الجهة الوحشيّة وهكذا كان برونر وسرفانتي.

وجنتاي بارزتان وخدّاي ضامران وهكذا كان لافيات ولنكلن.

ذقني متقاهر إلى الوراء وهكذا كان غولد سمث ووليم بت.

كتفاي متباينتان فالواحدة تعلو على الأخرى وهكذا كان غمبتا وأديب إسحق.

يداي ثخينتا الكفّين قصيرتا الأصابع وهكذا كان بليك ودانتون.

وبالإجمال جسدي ضعيف نحيل وهذا شأن أكثر المفكّرين الذين تتعب أجسادهم في مرامي نفوسهم، ومن الغريب أنّي لا أستطيع الجلوس كاتبًا أو مطالعًا إلّا وبجانبي إبريق القهوة مثلما كان يفعل بلزاك. وفوق ذلك فلي ميل إلى معاشرة الرعاع والبسطاء كتولستوي ومكسيم غوركي. وقد يمرّ اليوم واليومان دون أن أغسل وجهي ويديّ وهكذا كان بيتوفن وولت وتمن. وللعجب أنّني أستريح لسماع أخبار النساء وما يفعلنه في غياب أزواجهن كبوكاشيو وريبالي. أمّا عطشي إلى الخمرة فيضارع عطش نوح وأبي نواس ودي موسه ومارلو. وأمّا مجاعتي للمآكل الشهيّة والموائد المرصوفة بالألوان المتنوّعة فتقارن نهم بطرس الأكبر والأمير بشير الشهابي.

ووقف سليم أفندي دقيقة عن مخاطبة نفسه ثمّ لمس جبهته بأطراف بنانه وزاد قائلًا: «هذا أنا. هذه هي حقيقتي. فأنا مجموع صفات كان حائزًا عليها أعاظم الرجال من بدء التاريخ إلى يومنا هذا. وفتى جامع لهذه المزايا لا بد أن يفعل شيئًا عظيمًا في هذا العالم.

«رأس الحكمة معرفة الذات. وأنا قد عرفت نفسي في هذه الليلة ومنذ الليلة سأبتدئ بالعمل العظيم الذي انتدبتني إليه فكرة هذا العالم بوضعها في أعماقي عناصر متعدّدة متباينة. رافقت عظماء البشر من نوح إلى سقراط إلى بوكاشيو إلى أحمد فارس الشدياق. أنا لا أدري ما هو العمل العظيم الذي سأقوم به ولكن رجلًا جمع في شخصه الهيولي وذاته المعنويّة ما أنا جامع لهو من معجزات الأيّام ومبتكرات الليالي... لقد عرفت نفسي، نعم والآلهة قد عرفت نفسي، فلتحي نفسي ولتعش ذاتي وليبقَ الكون كونًا حتّى تتم أعمالي.»

ومشى سليم أفندي في تلك الغرفة ذهابًا وإيابًا وسيماء البشر في سحنته القبيحة وهو يردّد بصوت يأتلف بنبراته مواء القطط، بقلقلة العظام بيت أبي العلاء القائل:

وإنّـي وإن كـنـتُ الأخـيـرَ زمـانُـهُ لآتٍ بما لـم تَستَطعْه الأوائِـلُ

وبعد ساعة كان صاحبنا مضطجعًا بملامسه المشوشة على سريره المشقلب وغطيطه يملأ فضاء ذلك الحيّ بنغمة أدنَى إلى جعجعة الطاحون منها إلى صوت ابن آدم.

العاصفة

1

كان يوسف الفخري في الثلاثين من عمره عندما ترك العالم وما فيه وجاء ليعيش وحيدًا متزهّدًا صامتًا في تلك الصومعة المنفردة القائمة على كتف وادي قاديشا في شمال لبنان.

وقد اختلف سكّان القرى المجاورة في أمره، فمنهم من قال: هو ابن أسرة شريفة مثرية وقد أحبّ امرأة فخانت عهده فهجر الديار وطلب الخلوة توصّلًا إلى السلوان. ومنهم من قال: هو شاعر خيالي قد انصرف عن ضجة الاجتماع ليدوّن أفكاره وينظم عواطفه. ومنهم من قال: هو متصوّف متعبّد قد اقتنع بالدين دون الدنيا. ومنهم من اكتفى بقوله: هو مجنون.

أمّا أنا فلم أكن من رأي هذا ولا ذاك لعلمي أن في داخل الأرواح أسرارًا غامضة لا تكشفها الظنون ولا يبوح بها التخمين، غير أني كنت أتمنّى لقاء هذا الرجل الغريب وأشتهي محادثته. وقد حاولت مرّتين التقرّب إليه لأستطلع حقيقته وأستفسر مقاصده وأمانيه، فلم أظفر منه بسوى نظرات حادة وبعض ألفاظ تدلّ على الجفاء والبرودة والترفّع. ففي

المرّة الأولى، وقد لقيته سائرًا بقرب غابة الأرز، حييته بأحسن ما حضرني من الكلام فلم يردّ التحيّة إلّا بهزّ رأسه ثمّ تحوّل عني مسرعًا. وفي المرّة الثانية وجدته واقفًا في وسط كرمة صغيرة بقرب صومعة فدنوت منه قائلًا: قد سمعت بالأمس أن هذه الصومعة بناها ناسك سرياني في القرن الرابع عشر، فهل لك علم بذلك يا سيّدي؟

فأجاب بلهجة خشنة: لا أعلم من بنى هذه الصومعة ولا أريد أن أعلم. ثمّ أدار لي ظهره وزاد ساخرًا: لماذا لا تسأل جدّتك فهي أقدم عهدًا وأكثر علمًا بتاريخ هذه الأودية. فتركته مكسوفًا نادمًا على تطفّلي.

وهكذا مرّ عامان وحياة هذا الرجل المكتنفة بالأسرار تراود خيالي وتتمايل مع أفكاري وأحلامي.

2

ففي يوم من أيّام الخريف وقد كنت متجوّلًا بين تلك التلول والمنحدرات المجاورة لصومعة يوسف الفخري فاجأتني العاصفة بأهويتها وأمطارها وأخذت تتلاعب بي مثلما يتلاعب البحر الهائج بمركب كسّرت الأمواج دفته ومزّقت الريح شراعه، فتحولت نحو الصومعة قائلًا في نفسي: هذه فرصة موافقة لزيارة هذا المتنسّك وستكون العاصفة عذري وأثوابي المبلّلة شفيعي.

بلغت الصومعة وأنا في حالة يرثى لها، ولم أطرق الباب حتّى ظهر أمامي الرجل الذي طالما تشوّقت إلى لقائه حاملًا بيده طائرًا مهشّم الرأس منبوش الريش وهو يختلج كأنّه على آخر رمق من الحياة. فقلت بعد أن حييته: اعذرني يا سيّدي على مجيئي إليك في هذه الحالة، ولكن العاصفة شديدة وأنا بعيد عن المنزل.

فتفرّس فيّ عابسًا وأجاب بصوت يساوره الاستنكاف: الكهوف كثيرة في هذه النواحي وقد كان بإمكانك الالتجاء إليها.

قال هذا وهو يلامس رأس الطائر بانعطاف لم أرَ مثله في حياتي، فعجبت لمرأى الضدّين: الرأفة والخشونة في وقت واحد، وتحيرت في أمري. وكأنّه قد علم بما يخالج ضميري فنظر إليّ نظرة استيضاح واستعلام ثمّ قال: إن العاصفة لا تأكل اللحوم الحامضة فلِمَ تخافها وتهرب منها؟

فأجبته: العاصفة لا تحبّ الحوامض ولا الموالح ولكنّها تميل إلى الرطب البارد ولا أشك بأنّها ستجدني لقمة لذيذة إذا قبضت عليّ ثانية.

فقال وقد انفرجت ملامحه قليلًا: لو مضغتك العاصفة لقمة لحصلت على شرف لا تستحقّه.

فأجبته: نعم يا سيّدي، ولقد جئت إليك هاربًا من العاصفة لكي لا أنال ذلك الشرف الذي لا أستحقّه!

فحوّل وجهه محاولًا إخفاء ابتسامة ضئيلة، ثمّ أشار نحو مقعد خشبي بقرب موقد تتأجّج فيه النار وقال: اجلس وجفّف أثوابك.

فجلست بقرب النار شاكرًا وجلس هو قبالتي على مقعد محفور في الصخر وأخذ يغمس أطراف أصابعه بمزيج زيتي في طاسة فخاريّة ويدهن بها جناح الطائر ورأسه المجروح. ثم التفت نحوي قائلا: قد دفعت الريح هذا الشحرور فهبط على الصخور بين حيّ وميت.

فقلت: والريح قد حملتني أيضًا إلى بابك يا سيّدي وأنا للآن لا أدري ما إذا كانت قد كسرت جناحي أو هشمت رأسي.

فنظر إلى وجهي بشيء من الاهتمام وقال: حبّذا لو كان للإنسان بعض طباع الطيور. حبّذا لو كسرت العواصف أجنحة البشر وهشّمت رؤوسهم. ولكن الإنسان مطبوع على الخوف والجبانة، فهو لا يرى العاصفة مستيقظة حتّى يختبئ في شقوق الأرض ومغاورها.

فقلت وقصدي متابعة الحديث: نعم إن للطير شرفًا ليس للإنسان فالإنسان يعيش في ظلال شرائع وتقاليد ابتدعها لنفسه، أمّا الطيور فتحيا بحسب الناموس الكلي المطلق الذي يسير بالأرض حول الشمس.

فلمعت عيناه وانبسطت ملامحه كأنّه وجد بي تلميذًا سريع الفهم. ثمّ قال: أحسنت، أحسنت، فإذا كنت تعتقد حقيقة بما تقول فاترك الناس وتقاليدهم الفاسدة وشرائعهم التافهة وعش كالطيور في مكان بعيد خالٍ إلّا من ناموس الأرض والسماء.

فقلت: إنّي أعتقد بما أقول يا سيّدي.

فرفع يده وقال بصوت يمازجه التعنّت والتصلّب: الاعتقاد شيء والعمل به شيء آخر. كثيرون هم الذين يتكلّمون كالبحر أمّا حياتهم فشبيهة بالمستنقعات. كثيرون هم الذين يرفعون رؤوسهم فوق قمم الجبال أمّا نفوسهم فتبقى هاجعة في ظلمة الكهوف.

قال هذا ولم يدع لي فرصة للكلام بل قام من مكانه ومدّد الشحرور على جبّة قديمة بقرب النافذة. ثمّ تناول رزمة من القضبان اليابسة وألقاها في الموقد قائلًا: اخلع حذاءك وجفّف قدميك فالرطوبة أضرّ بالإنسان من كلّ شيء آخر. جفّف أثوابك جيّدًا ولا تكن خجولًا.

فاقتربت من النار والبخار يتصاعد من أثوابي الرطبة. أما هو فوقف في باب الصومعة محدقًا إلى الفضاء الغضوب.

وبعد هنيهة سألته قائلًا: هل جئت إلى هذه الصومعة منذ زمن بعيد؟

فأجاب دون أن يلتفت نحوي: جئت إلى هذه الصومعة عندما كانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرفّ على وجه المياه.

فسَكَتّ قائلًا في سرّي: ما أغرب هذا الرجل وما أصعب السبيل إلى حقيقته. ولكن لا بدّ من محادثته ومعرفة خفايا روحه، وسوف أصبر حتّى يتحوّل شموخه إلى اللين والدعة.

3

وغمر الليل تلك البطاح بردائه الأسود ونمت العاصفة وغزرت الأمطار حتّى خُيّل لي أن الطوفان قد جاء ثانية ليبيد الحياة ويطهّر الأرض من أدرانها. وكأن ثورة العناصر قد ولدت في نفس يوسف الفخري تلك الطمأنينة التي تجيء في بعض الأحايين مظهرًا لردِّ الفعل فتحوَّل نفوره مني إلى الاستئناس بي، فقام وأشعل شمعتين ثمّ وضع أمامي جرّة طافحة بالخمر وطبقًا عليه الخبز والجبن والزيتون والعسل وبعض الأثمار المجفّفة، ثمّ جلس قبالتي وقال بلطف: هذا كلّ ما عندي من الزاد فتفضل يا أخي وشاركني به.

تناولنا العشاء صامتين صاغيين إلى ولولة الريح وبكاء الأمطار. غير أنّني كنت أتبصر وجهه بين اللقمة والأخرى، مستفسرًا ملامحه عن غوامضه، سائلًا معانيه عن الميول والمقاصد المستحكمة بوجدانه.

وبعد أن رفع المائدة تناول من جانب الموقد إبريقًا نحاسيًّا وصبّ منه قهوة صافية زكيّة الرائحة في فنجانين ثمّ فتح علبة مفعمة بلفائف التبغ، وقال بهدوء: تفضّل يا أخي.

فأخذت لفافة رافعًا بيدي فنجان القهوة وأنا لا أصدق ما تراه عيناي، فنظر إليّ وكأنّه قد سمعني مفكّرًا فابتسم هازًّا رأسه ثمّ قال بعد أن أشعل لفافة وشرب قليلًا من القهوة: أنت بالطبع تستغرب وجود الخمر والتبغ والقهوة في هذه الصومعة، وقد تستغرب وجود الطعام والفراش، وأنا لا ألومك فأنت واحد من الكثيرين الذين يتوهّمون أن البعد عن البشر يستوجب البعد عن الحياة وما في الحياة من الملذات الطبيعيّة والمسرّات البسيطة.

فأجبته: نعم يا سيّدي، فقد تعوّدنا الاعتقاد بأن من يتنحّى عن العالم ليعبد الله يترك وراءه كلّ ما في العالم من الملذات والمسرّات ليعيش وحده متنسّكًا متقشّفًا مستكفيًا بالماء والأعشاب.

فقال: لقد كان بإمكاني عبادة الله وأنا بين خلقه، لأن العبادة لا تستلزم الوحدة والانفراد وأنا لم أترك العالم لأجد الله لأنّني كنت أجده في بيت أبي وفي كلّ مكان آخر، ولكنني هجرت الناس لأن أخلاقي لا تنطبق على أخلاقهم، وأحلامي لا تتفق مع أحلامهم. تركت البشر لأنّني وجدت نفسي دولابًا يدور يمنة بين دواليب تدور يسارًا. تركت المدينة لأنّني وجدتها شجرة مسنّة فاسدة قويّة هائلة عروقها في ظلمة الأرض وأغصانها تتعالى إلى ما وراء الغيوم، أمّا أزاهرها فمطامع وشرور وجرائم، وأمّا أثمارها فويل وشقاء وهموم. ولقد حاول بعض المصلحين تطعيمها وتغيير طبيعتها فلم يفلحوا، بل ماتوا قانطين مضطهدين مغلوبين على أمرهم.

واتكأ إذ ذاك إلى جانب الموقد، وكأنّه قد وجد لذّة في تأثير كلامه فيّ فرفع صوته أكثر من ذي قبل وزاد قائلا: لا، لم أطلب الوحدة للصلاة والتنسك، لأن الصلاة، وهي أغنية القلب، تبلغ آذان الله وإن تصاعدت ممزوجة بصياح ألوف الألوف، وأمّا التنسّك، وهو قهر الجسد وإماتة رغائبه، فمسألة لا مكان لها في ديني، لأن الله بنى الأجسام هياكل للأرواح وعلينا أن نحافظ على هذه الهياكل لتبقى قويّة نظيفة لائقة بالألوهيّة التي تحلّ فيها. لا يا أخي لم أطلب الوحدة للصلاة والتقشف بل طلبتها هاربًا من الناس وشرائعهم وتعاليمهم وتقاليدهم وأفكارهم وضجتهم وعويلهم. طلبت الوحدة لكي لا أرى أوجه الرجال الذين يبيعون نفوسهم ليشتروا بأثمانها ما كان دون نفوسهم قدرًا وشرفًا. طلبت الإنفراد لكي لا ألتقي النساء اللواتي يسرنَ ممدودات الأعناق غامزات العيون وعلى ثغورهن ألف ابتسامة وفي أعماق قلوبهن غرض واحد. طلبت الإنفراد لكي لا أُجالس ذوي نصف المعرفة الذين يبصرون في المنام خيال العلم فيتخيّلون أنّهم أصبحوا من المدارك بمقام النقطة من الدائرة. ويرون في

اليقظة أحد أشباح الحقيقة فيتوهمون أنّهم قد امتلكوا جوهرها الكامل المطلق. طلبت الخلوة لأنّني مللت مجاملة الخشن الذي يظن اللطف ضربًا من الضعف، والتساهل نوعًا من الجبانة، والترفّع شكلًا من الكبرياء. طلبت الخلوة لأن نفسي تعبت من معاشرة المتموّلين الذين يظنون أن الشموس والأقمار والكواكب لا تطلع إلّا من خزائنهم ولا تغيب إلّا في جيوبهم، ومن الساسة الذين يتلاعبون بأماني الأمم وهم يذرون في عيونها الغبار الذهبي ويملأون آذانها برنين الألفاظ، ومن الكهّان الذين يعظون الناس بما لا يتعظون به ويطلبون منهم ما لا يطلبونه من نفوسهم... طلبت الوحدة والانفراد لأنّني لم أحصل على شيء من يد بشري إلّا بعد أن دفعت ثمنه من قلبي. طلبت الوحدة والانفراد لأنّني سئمت ذلك البناء العظيم الهائل المدعو حضارة، ذلك البناء الدقيق الصنع والهندسة القائم فوق رابية من الجماجم البشريّة. طلبت الوحدة لأن في الوحدة حياة للروح والفكر والقلب والجسد. طلبت البريّة الخالية لأن فيها نور الشمس ورائحة الأزهار وأنغام السواقي. طلبت الجبال لأن فيها يقظة الربيع وأشواق الصيف وأغاني الخريف وعزم الشتاء. جئت إلى هذه الصومعة المنفردة لأنّني أريد معرفة أسرار الأرض والدنو من عرش الله.

وسكت متنفّسًا الصعداء كأنّه ألقى حملًا ثقيلًا عن عاتقه وقد تلمعت عيناه بأشعة غريبة سحريّة وظهرت على وجهه أمارات الأنفة والإرادة والقوّة.

ومرّت بضع دقائق وأنا أنظر إليه مسرورا بظهور ما كان محجوبًا عني. ثمّ خاطبته قائلًا: أنت مصيب في كلّ ما قلته، ولكن ألا ترى يا سيّدي أنّك بتشخيصك أمراض المجتمع وأوصابه قد أبنت لي أنّك أحد الأطباء الماهرين وأنّه لا يجدر بالطبيب الإعراض عن العليل قبل أن يشفى أو يموت؟ إن العالم بحاجة ماسة إلى أمثالك وليس من العدل أن تعتزل عن الناس وأنت قادر على نفعهم.

فحدّق إليّ هنيهة ثمّ قال بلهجة ملؤها القنوط والمرارة: منذ البدء والأطباء يحاولون إنقاذ العليل من علّته. فمنهم من جاء بالمباضع ومنهم من جاء بالأدوية والمساحيق، ولكنّهم ماتوا جميعًا دون رجاء ولا أمل، ويا ليت عليل الدهور يكتفي بملازمة مضجعه القذر ومؤانسة قروحه المزمنة، ولكنّه يمدّ يده من بين اللحف ويقبض على عنق كلّ من يزوره ممرضًا ويخنقه. والأمر الذي يغيظني ويحوّل الدم في عروقي إلى نار محرقة هو أن ذلك العليل الخبيث يقتل الطبيب ثمّ يعود فيغمض عينيه قائلًا لنفسه: لقد كان بالحقيقة طبيبًا عظيمًا... لا يا أخي. ليس بين الناس من يستطيع أن ينفع الناس، فالحارث وإن كان حكيمًا ماهرًا لا يقدر على استنبات حقله في أيّام الشتاء.

فأجبته قائلًا: قد يمرّ شتاء العالم يا سيّدي ويجيء بعده ربيع بهي جميل فتظهر الأزهار في الحقول وتترنّم الجداول في الأودية.

فقطب ما بين عينيه متنهّدًا، وبصوت تعانقه الكآبة قال: ليت شعري هل قسم الله حياة الإنسان، وهي الدهر بكامله، إلى فصول تشابه فصول السنة بمسيرها وتتابعها؟ هل يظهر على سطح الأرض بعد ألف ألف عام طائفة من البشر تحيا بالروح والحق؟ هل يأتي زمن يتمجّد فيه الإنسان فيجلس عن يمين الحياة فرحًا بنور النهار وطمأنينة الليل؟ هل يتمّ ذلك يا ترى؟ هل يتمّ ذلك بعد أن تشبع الأرض من لحوم البشر وترتوي من دمائهم؟

وانتصب إذ ذاك واقفًا رافعًا يمينه نحو العلاء كأنّه يشير إلى عالم غير هذا العالم: تلك أحلام بعيدة، وليست هذه الصومعة منزلًا للاحلام، لأن ما أعلمه يقينا يشغل كلّ فسحة وكلّ قرنة فيها، بل يشغل كلّ مكان في هذه الأودية وهذه الجبال. أمّا ما أعلمه يقينًا فهو هذا: أنا كائن موجود، وفي أعماق وجودي جوع وعطش، ولي الحق أن أتناول خبز

الحياة وخمرها من الآنية التي أصنعها بيدي. من أجل ذلك تركت موائد الناس وولائمهم وجئت هذا المكان وسأبقى فيه حتّى النهاية.

وأخذ يمشي ذهابًا وإيابًا في وسط تلك الغرفة وأنا أتأمّله وأفكّر بكلامه وبالعوامل والبواعث التي صوّرت له الجامعة البشريّة بخطوط عوجاء وألوان قاتمة، ثمّ استوقفته قائلًا: إنّي أحترم أفكارك ومقاصدك يا سيّدي، وأحترم وحدتك وانفرادك، غير أنّني أعلم، والعلم مجلبة الأسف، أنّ هذه الأمّة التعسة قد فقدت بتنحّيك وابتعادك رجلًا موهوبًا قادرًا على خدمتها وإيقاظها.

فأجاب هازًّا رأسه: ليست هذه الأمّة إلّا كالأمم كافّة. فالناس من جبلةٍ واحدة وهم لا يختلفون بعضهم عن بعض إلّا في الظواهر والمظاهر الخارجيّة التي لا يعتدّ بها؛ فتعاسة الأمم الشرقيّة هي تعاسة الأرض بكاملها؛ وليس ما تحسبه رقيًّا في الغرب سوى شبح آخر من أشباح الغرور الفارغ. فالرياء يظل رياء وإن قلّم أظافره، والغشّ يبقى غشًّا وإن لانت ملامسه، والكذب لا يصير صدقًا إذا لبس الحرير وسكن القصور، والخداع لا يتحوّل إلى أمانة إذا ركب القطار أو اعتلى المنطاد، والطمع لا ينقلب قناعة إذا قاس المسافات أو وزن العناصر، والجرائم لا تصبح فضائل وإن سارت بين المعامل والمعاهد... أمّا العبوديّة: العبوديّة للحياة، العبوديّة للماضي، العبوديّة للتعاليم والعوائد والأزياء، والعبوديّة للأموات فستبقى عبوديّة وإن طَلَتْ وجهها وغيّرت ملابسها. العبوديّة تظلّ عبوديّة حتّى إذا دعت نفسها حريّة. لا يا أخي ليس الغربي أرقى من الشرقي ولا الشرقي أحطّ من الغربي، وما الفرق بينهما إلّا كالفرق الكائن بين الذئب والضبع. ولقد نظرت فرأيت وراء مظاهر الاجتماع المتباينة ناموسًا أوليًّا عادلًا يفرق التعاسة والعماوة والجهالة على السواء فلا يميّز شعبًا عن شعب ولا يظلم طائفة دون طائفة.

فقلت وقد بلغ بي الاستغراب حد الالتباس: إذن فالمدنيّة باطلة وكل ما فيها باطل.

فأجاب متهيجًا: نعم باطلة هي المدنيّة وباطل كل شيء فيها. فما الاختراعات والاكتشافات سوى ألاعيب يتسلّى بها العقل وهو في حالة الملل والضجر؛ وما تقصير المسافات وتمهيد الجبال والأودية والتغلّب على البحار والفضاء غير أثمار غشّاشة مملوءة بالدخان لا ترضي العين ولا تغذي القلب ولا ترفع النفس. أمّا تلك الألغاز والأحاجي التي يدعونها بالمعارف والفنون فهي قيود وسلاسل ذهبيّة يجرّها الإنسان مبتهجًا بلمعانها ورنين حلقاتها؛ بل هي أقفاص ابتدأ الإنسان بتطريق أعمدتها وأسلاكها منذ القدم غير عالم بأنّه لا ينتهي من صنعها إلّا ويجد نفسه أسيرًا مسجونًا في داخلها... نعم باطلة هي أعمال الإنسان وباطلة هي تلك المقاصد والمرامي والمنازع والأماني وباطل كلّ شيء على الأرض. وليس بين أباطيل الحياة سوى أمر واحد خليق بحبّ النفس وشوقها وهيامها – ليس هناك غير شيء واحد.

فقلت: وما ذلك يا سيّدي؟

فوقف دقيقة ساكتًا ثمّ أغمض أجفانه واضعًا يديه على صدره وقد أشرق وجهه وانبسطت ملامحه، وبصوت عذب مرتعش قال: هي يقظة في النفس، هي يقظة في عمق أعماق النفس. هي فكرة تفاجئ وجدان الإنسان على حين غفلة وتفتح بصيرته فيرى الحياة مكتنفة بالأنغام، محاطة بالهالات، منتصبة كبرج من النور بين الأرض واللانهاية. هي شعلة من شعلات ضمير الوجود تتأجّج فجأة في داخل الروح فتحرق ما يحيط بها من الهشيم وتصعد سابحة مرفرفة في الفضاء الواسع. هي عاطفة تهبط على قلب الفرد فيقف مستغربًا مستهجنًا كلّ ما يخالفها، كارهًا كلّ شيء لا يجاريها، متمرّدًا على الذين لا يفهمون أسرارها – هي

يد خفيّة قد أزالت الغشاء عن عيني وأنا في وسط الاجتماع بين أهلي وأصحابي ومواطنيّ، فوقفت منذهلًا مدهوشًا قائلًا في نفسي: ما هذه الوجوه وما شأن هؤلاء الناظرين إليّ وكيف عرفتهم، وأين لقيتهم، ولماذا أُقيم بينهم؛ بل لماذا أُجالسهم وأُحادثهم؟ هل أنا غريب بينهم، أم هم الغرباء في ديار بنتها الحياة لي وأسلمتني مفاتيحها؟

وسكت فجأة كأن الذكرى قد رسمت على حافظته صورًا وأشباحًا لا يريد إظهارها، ثمّ بسط ذراعيه وقال همسًا: هذا ما حلّ بي منذ أربع سنوات فتركت العالم وجئت هذه البريّة الخالية لأعيش في اليقظة متمتعًا بالفكر والعاطفة والسكينة.

ومشى إذ ذاك نحو باب الصومعة ناظرًا إلى أعماق الليل ثمّ هتف كأنّه يخاطب العاصفة: هي يقظة في أعماق النفس فمن يعرفها لا يستطيع إظهارها بالكلام ومن لم يعرفها لا ولن يدرك أسرارها.

4

ومرّت ساعة طويلة ممنطقة بهمس الفكر ونداء العاصفة ويوسف الفخري يمشي تارة وسط تلك الحجرة ويقف طورًا في بابها محدقًا إلى الفضاء العابس، أمّا أنا فبقيت صامتًا شاعرًا بتموّجات روحه مستظهرًا أقواله، مفكرًا بحياته وما وراء حياته من لذّة الوحدة وآلامها. وعند انقضاء الهزيع الثاني من الليل اقترب مني ونظر طويلًا إلى وجهي كأنّه يريد أن يحفظ في ذاكرته رسم الرجل الذي باح له بسرّ وحدته وانفراده. ثمّ قال ببطء: أنا ذاهب الآن للتجوّل في العاصفة، وهي عادة أتمتع بلذتها في الخريف وفي الشتاء... هاك إبريق القهوة واللفائف، وإن طلبت نفسك الخمر تجدها في الجرّة. وإذا شئت النوم تجد اللحف والمساند في تلك القرنة.

قال هذا والتفّ بجبّة سوداء كثيفة ثمّ زاد مبتسمًا: أرجوك أن توصد باب الصومعة عندما تذهب في الصباح لأنّني سأصرف الغد في غابة الأرز.

ثمّ سار نحو الباب وتناول من جانبه عكّازًا طويلًا وقال: إذا فاجأتك العاصفة ثانية وأنت في هذه النواحي فلا تتأخّر عن الالتجاء إلى هذه الصومعة. ولكنّني أرجو أن تعلّم نفسك حبّ العواصف لا الخوف منها... مساء الخير يا أخي.

وخرج إلى الليل مسرعًا.

ولما وقفت في باب الصومعة لأرى وجهته كان الظلام قد أخفاه ولكنني بقيت بضع دقائق أسمع وقع قدميه على حصباء الوادي.

جاء الصباح وقد مرّت العاصفة وانقشعت الغيوم وظهرت تلك الصخور والغابات متشحة بنور الشمس، فتركت الصومعة بعد أن أقفلت بابها وفي نفسي شيء من تلك اليقظة المعنويّة التي تكلّم عنها يوسف الفخري.

ولكنّني لم أبلغ منازل الناس وأرَ حركاتهم وأسمع أصواتهم حتّى وقفت قائلًا في سرّي: نعم، إن اليقظة الروحيّة هي أخلق شيء بالإنسان بل هي الغرض من الوجود، ولكن أليست المدنيّة بما فيها من التلبس والأشكال من دواعي اليقظة الروحيّة؟ وكيف يا ترى نستطيع إنكار أمر موجود ونفس وجوده دليل على إثبات صلاحيته؟ قد تكون المدنيّة الحاضرة عرضًا زائلًا ولكن الناموس الأبدي جعل الأعراض سلمًا تنتهي درجاته بالجوهر المطلق.

ولم أجتمع ثانية بيوسف الفخري لأن الحياة أبعدتني عن شمال لبنان في أواخر ذلك الخريف فجئت منفيًّا إلى بلاد قصيّة عواصفها داجنة. أمّا التنسّك فيها فضرب من الجنون.

الشيطان

كان الخوري سمعان عالمًا بدقائق الأمور الروحيّة، متبسّطًا بالمسائل اللاهوتيّة، متعمّقًا بأسرار الخطايا العرضيّة والمميتة، متضلّعًا بخفايا الجحيم والمطهر والفردوس.

وكان يتنقّل بين قرى شمال لبنان ليعظ الناس ويشفي أرواحهم من أمراض الإثم وينقذهم من حبائل الشيطان، فالشيطان كان عدو الخوري سمعان يحاربه ليلًا ونهارًا بلا ملل ولا تعب.

وكان سكّان القرى يكرمون الخوري سمعان ويرتاحون إلى ابتياع عظاته وصلواته بالفضّة والذهب ويتسابقون إلى إهدائه أطيب ما تثمره أشجارهم وأفضل ما تنبته حقولهم.

ففي عشيّة يوم من أيّام الخريف، وقد كان الخوري سمعان سائرًا في مكانٍ خالٍ نحو قرية منفردة بين تلك الجبال والأودية، سمع أنينًا موجعًا آتيًا من جانب الطريق، فالتفت فإذا برجل عاري الجسم منطرح على الحصباء ونجيع الدم يتدفّق من جراح بليغة في رأسه وصدره وهو يقول مستنجدًا: أنقذني. أعنّي. اشفق عليّ فأنا مائت!

فوقف الخوري سمعان محتارًا ونظر إلى الرجل المتوجّع ثمّ قال في ذاته: هذا أحد اللصوص الأشقياء وأظن أنّه قد حاول سلب عابري

الطريق فغلب على أمره. وهو منازع فإذا مات وأنا بقربه اتهمت بما أنا براء منه.

قال هذا وهمّ ليتابع السير فأوقفه الجريح بقوله: لا تتركني، لا تتركني! أنت تعرفني وأنا أعرفك. أنا مائت لا محالة!

فقال الخوري في ذاته وقد اصفرّ وجهه، وارتعشت شفتاه: أظنّه أحد المجانين الذين يتيهون في البريّة. ثمّ عاد فقال لنفسه: إن منظر جراحه يخيفني فماذا عسى أن أفعل له؟... إن طبيب النفوس لا يستطيع أن يداوي الأجساد.

ومشى الخوري بضع خطوات، فصاح الجريح بصوت يذيب الجماد قائلًا: اقترَب مني اقترب، فنحن أصدقاء منذ زمن بعيد. أنت الخوري سمعان الراعي الصالح وأنا – أنا – لست بلص ولا بمجنون. اقترب ولا تدعني أموت وحيدًا في هذه البريّة الخالية. اقترب فأقول لك من أنا.

فاقترب الخوري سمعان من المنازع وانحنى فوقه متفرّسًا فرأى وجهًا غريب الخطوط يأتلف بين تقاطيعه الذكاء بالدهاء، والقباحة بالجمال، والخباثة بالدماثة، فتراجع إلى الوراء وصرخ قائلًا: من أنت؟

فقال المنازع بصوت خافت: لا تخف يا أبتِ فنحن أصدقاء منذ عهد بعيد. أعنّي على النهوض وسر بي إلى الساقية القريبة واغسل جراحي بمنديلك.

فصرخ الخوري: قل لي من أنت، فأنا لا أعرفك ولا أذكر أنّي رأيتك في حياتي.

فأجاب الجريح وحشرجة الموت تعانق صوته: أنت تعلم من أنا، فقد لقيتني ألف مرّة وشاهدت وجهي في كلّ مكان. أنا أقرب المخلوقات إليك، بل أنا أعزّ عليك من حياتك.

فصاح الخوري قائلًا: أنت كاذب محتال، وخليق بالمنازعين الصدق، فأنا لم أرَ وجهك في حياتي. قل من أنت وإلّا تركتك تموت مضرجًا بدمائك.

فتحرّك الجريح قليلًا وشخص بعيني الخوري وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة معنويّة، وبصوت هادئ ناعم عميق قال: أنا الشيطان.

فصرخ الكاهن صوتًا هائلًا ارتعشت له زوايا ذلك الوادي، ثمّ نظر إليه محدقًا فرأى أن جسد الجريح ينطبق بتفاصيله ومعالمه على هيئة الأبالسة في صورة الدينونة المعلّقة على جدار كنيسة القرية، ثمّ صرخ مرتجفًا: لقد أراني الله صورتك الجهنّميّة ليزيد بك كرهي، فلتكن ملعونًا إلى أبد الآبدين!

قال الشيطان: لا تكن متسرّعًا يا أبتاه، ولا تضيّع الوقت بالكلام الفارغ، بل اقترب وضمّد جراحي قبل أن يسيل ما في جسدي من الحياة.

فقال الخوري: إن أصابعي التي ترفع الذبيحة الربّانيّة في كلّ يوم لن تلمس جسدك المصنوع من مفرزات الجحيم، فمت ملعونًا من ألسنة الدهور وشفاه الإنسانيّة لأنّك عدو الدهور والعامل على إبادة الإنسانيّة.

فقال الشيطان متململًا: أنت لا تدري ما تقول ولا تعلم أي ذنب تقترفه نحو نفسك. اسمع فأخبرك حكايتي. كنت اليوم سائرًا وحدي في هذه الأودية المنفردة، ولما بلغت هذا المكان التقيت جماعة من أجلاف الملائكة فهجموا عليَّ وضربوني ضربًا مبرحًا، ولو لَم يكن مع أحدهم سيف ذو حدّين لفتكت بهم جميعًا، ولكن ماذا يفعل الأعزل مع المسلّح؟

وقف الشيطان عن الكلام هنيهة واضعًا يده على جرح بليغ في جانبه ثمّ زاد قائلًا: أمّا الملاك المسلّح، وأظنّه ميخائيل، فداهية يحسن ضرب السيف، ولو لم أنطرح على الأرض وأُمثّل دور النزع والموت لما أبقى مني عضوًا بجوار عضو آخر.

فقال الخوري بصوت تعانقه رنّة النصر والتغلّب: ليكن اسم ميخائيل مباركًا فقد أنقذ الإنسانيّة من عدوّها الخبيث!

فقال الشيطان: ليست عداوتي للإنسانية أشدّ سوادًا من عداوتك لنفسك. فأنت تبارك ميخائيل وهو لم يفدك بشيء، وتجدف على اسمي في ساعة انكساري مع أنّني كنت ولم أزل سببًا لراحتك وسعادتك. أتجحد نعمتي وتنكر معروفي وأنت عائش في ظلال كياني؟ أوَلم تتّخذ وجودي صناعة لك واسمي دستورًا لأعمالك؟ هل أغناك ماضيّ عن حاضري ومستقبلي؟ هل نَمَت ثروتك إلى حدّ لا تحتمل معه الزيادة؟ ألا تعلم أن زوجتك وبنيك وهم كثيرون يفقدون رزقهم بفقدي بل يموتون جوعًا بموتي؟ ماذا تفعل لو حكم القضاء باضمحلالي، وأيّة صنعة تحسنها إذا أبادت الأرياح إسمي؟ منذ خمس وعشرين سنة وأنت تسير متجوّلًا بين قرى هذا الجبل لتحذر الناس من حبائلي وتبعدهم عن مصائبي وهم يبتاعون مواعظك بأموالهم وغلّة حقولهم، فأيّ شيء يبتاعون منك غدًا إذا علموا أن عدوّهم الشيطان قد مات، وأنّهم أصبحوا في مأمن من حبائله ومعاقله، وأيّة وظيفة يسندها إليك القوم إذا أُلغيت وظيفة محاربة الشيطان بموت الشيطان؟ ألا تعلم وأنت اللاهوتي المدقّق أن وجود الشيطان قد أوجد أعداءه الكهّان وأن تلك العداوة القديمة هي اليد الخفيّة التي تنقل الفضّة والذهب من جيوب المؤمنين إلى جيوب الوعّاظ والمرشدين؟ ألا تعلم وأنت العالم الخبير أنّه بزوال السبب يزول المسبّب؟ إذن كيف ترضى بموتي وبموتي تفقد منزلتك وينقطع رزقك ويكف الخبز عن أفواه زوجتك وبنيك؟

وسكت الشيطان دقيقة وقد تبدّلت في وجهه دلائل الاستعطاف بأمارات الاستقلال؛ ثمّ عاد فقال: ألا فاسمع أيّها الغبيّ المكابر فأُريك الحقيقة التي تضمّ كياني إلى كيانك، وتربط وجودي بوجدانك. في أوّل

ساعة من الزمن وقف الإنسان أمام الشمس وبسط ذراعيه وصرخ لأوّل مرّة قائلًا: ما وراء الأفلاك إله عظيم يحبّ الخير! ثمّ أدار ظهره للنور فرأى ظله منبسطًا على أديم التراب فهتف قائلًا: وفي أعماق الأرض شيطان رجيم يحبّ الشرّ! ثمّ سار نحو كهفه هامسًا في نفسه: أنا بين إلهين هائلين: إله أنتمي إليه، وإله أُحاربه. ومرّت العصور إثر العصور والإنسان بين قوّتين مطلقتين: قوّة تصعد روحه إلى العلاء فيباركها، وقوّة تهبط بجسده إلى الظلمة فيلعنها. غير أنّه لم يكن يدري معاني البركة ولا مباني اللعنة، بل كان بينهما كشجرة بين صيف يكسوها وشتاء يعريها. ولما بلغ الإنسان فجر المدنيّة وهي الإلفة البشريّة ظهرت العائلة ثمّ القبيلة فتفرقت الأعمال بتفرّق الميول، وتباينت الصناعات بتباين المشارب والمنازع، فقام البعض من تلك القبيلة بحراثة الأرض وآخرون ببناء المآوي، وغيرهم بنسج الملابس، وغيرهم بصهر المعادن. في ذلك العهد البعيد ظهرت الكهانة في الأرض. وهي الحرفة الأولى التي ابتدعها الإنسان دون حاجة حيوية أو داعٍ طبيعي إليها.

وقف الشيطان دقيقة عن الكلام ثمّ قهقه ضاحكًا بصوت ارتعشت له تلك الأوديـة الخالية. وكأنّ الضحك قد أوسع فوهات كلومه فأسند خاصرته بيده متوجّعًا، ثمّ شخص بالخوري سمعان وزاد قائلًا: في ذلك العهد ظهرت الكهانة في الأرض. وإليك يا أخي كيفيّة ظهورها: كان في القبيلة الأولى رجل يدعى «لاويص» ولا أدري لماذا اتخذ له هذا الاسم الغريب. وكان لاويص هذا رجلًا ذكيًّا؛ ولكنّه كان بطّالًا متوانـيًا، يكره حراثة الأرض وبناء المآوي بكرهه رعاية المواشي وصيد الوحوش. بل كان يكره كلّ عمل يستلزم السواعد والحركة الجسديّة. ولما كان الرزق في ذلك العهد لا يأتي إلّا بالعمل كان لاويص يبيت أكثر لياليه خاوي الجوف فارغه. ففي ليلة من ليالي الصيف وأفراد تلك القبيلة ملتئمون

حول كوخ زعيمهم يتحدثون بمآتي يومهم ويترقّبون النعاس، انتصب أحدهم فجأة وأشار نحو القمر وصرخ بخوف قائلًا: انظروا نحو إله الليل فقد شحب وجهه واضمحلّ بهاؤه وتحوّل إلى حجر أسود معلّق بقبّة السماء. فشخص القوم بالقمر ثمّ ضجّوا صارخين متهيّبين، مرتعشين، خائفين، وكأن أيدي الظلام قد قبضت على قلوبهم لأنّهم رأوا إله لياليهم يتحوّل ببطء إلى كرة قاتمة وقد تغيّر لذلك وجه الأرض وانحجبت البطاح والأودية وراء نقاب أسود. فتقدّم إذ ذاك لاويص وكان قد شهد الخسوف والكسوف مرّات عديدة في سابق حياته فوقف في وسط الجماعة رافعًا ذراعيه إلى العلاء، وبصوت أودعه كلّ ما في ذكائه من التصنّع والاحتيال صاح قائلا: اسجدوا، اسجدوا وصلّوا متهلّلين وعفّروا وجوهكم بالتراب، فإله الشرّ المظلم يصارع إله الليل المنير، فإذا غلبه متنا وإذا غُلب بقينا عائشين. اسجدوا وصلّوا وعفّروا وجوهكم بالتراب، بل اغمضوا أجفانكم ولا ترفعوا رؤوسكم نحو السماء لأن من يشاهد صراع إله النور وإله الشرّ يفقد بصره ورشده، ويظلّ مجنونًا وأعمى إلى نهاية أيّامه. خرّوا راكعين وساعدوا بقلوبكم إله النور على عدوّه.

وظلّ لاويص يتكلّم بهذه اللهجة مبتدعًا من خياله ألفاظًا جديدة غريبة مردّدًا كلمات ما سمعوها قبل تلك الليلة، حتّى إذا ما مرّ نصف ساعة وقد عاد القمر إلى سابق كماله وجلاله رفع لاويص صوته عن ذي قبل وقال بلهجة تعانقها رنّة الغبطة والسرور: قفوا الآن وانظروا فقد تغلّب إله الليل على عدوّه الشرّير وتابع سيره بين الكواكب والنجوم. واعلموا أنّكم بركوعكم وابتهالكم قد نصرتموه وسررتموه ولذلك ترونه الآن أبهَى نورًا وأشدّ لمعانًا.

فوقف القوم وشخصوا بالقمر فإذا به قد عاد ساطعًا منيرًا، فتحوّل خوفهم إلى طمأنينة واضطرابهم إلى مسرّة وأخـذوا يقفزون راقصين

ويصرخون مهلّلين ويضربون بنبابيتهم صفائح الحديد والنحاس مفعمين خلايا ذلك الوادي بعويلهم وضجيج لهجتهم...

في تلك الليلة استدعى زعيم القبيلة لاويص وقال له: لقد أتيت في هذه الليلة بما لم يأته بشري قبلك، وعلمت من أسرار الحياة ما لا يعلمه بيننا سواك. فافرح وابتهج لأنّك ستكون من الآن وصاعدًا صاحب المقام الأوّل من بعدي في هذه القبيلة. فأنا أشدّ الرجال بطشًا وأقواهم ساعدًا وأنت أكثر الرجال معرفة وأكثرهم حكمة، بل أنت الوسيط بيني وبين الآلهة تبلغني مشيئتهم وتبيّن لي أعمالهم وأسرارهم وتعلمني ما يجب أن أفعله لأكون حاصلًا على رضائهم ومحبّتهم.

فأجاب لاويص: كلّ ما يقوله لي الآلهة في الحلم أقوله في اليقظة، وما أراه من مآتيهم أُظهره لك، فأنا الوسيط بينك وبين الآلهة.

فسُرّ الزعيم ووهب لاويص فرسين وسبعة عجول وسبعين كبشًا وسبعين شاة وقال له: سوف يبني لك رجال القبيلة بيتًا يماثل بيتي، وسيهدون لك في نهاية كلّ موسم قسمًا من غلّة الأرض وأثمارها فتعيش سيدًا مطاعًا مكرّمًا.

وانتصب إذ ذاك لاويص للانصراف فأوقفه الزعيم وسأله قائلًا: ولكن من هو هذا الإله الذي تدعوه بإله الشرّ؟ من هو هذا الإله الذي يجسر أن يصارع إله الليل البهي؟ إنّنا لم نسمع به قطّ ولا علمنا بوجوده.

ففرك لاويص جبهته وأجاب قائلًا: يا سيّدي: أَنه في قديم الزمان وذلك قبل ظهور الإنسان، كان جميع الآلهة يعيشون بسلام ومودّة في مكان قصيّ وراء المجرّة. وكان إله الآلهة، وهو والدهم، يعلم ما لا يعلمونه ويفعل ما لا يستطيع أحدهم أن يفعله، ويحفظ لنفسه بعض الأسرار الربّانيّة الكائنة وراء النواميس الأزليّة. ففي العصر السابع من الدهر الثاني عشر تمرّدت روح بعطار وهو يكره الإله الأعظم، فوقف أمام أبيه

وقال: لماذا تحفظ لنفسك السلطة المطلقة على جميع المخلوقات حاجبًا عنّا أسرار الأكوان والنواميس والدهور؟ أوَلسنا أبناءك وبناتك ومشاركين لك بقوّتك وخلودك؟

فغضب إله الآلهة وأجاب: سوف أحفظ لنفسي القوّة الأوّليّة والسلطة المطلقة والأسرار الأساسيّة إلى أبد الدهر، فأنا البدء وأنا النهاية. فقال بعطار: إن لم تقاسمني قوّتك وجبروتك تمرّدت أنا وأبنائي وأحفادي على قوّتك وجبروتك. فانتصب إذ ذاك إله الآلهة فوق عرشه وقد امتشق المجرّة سيفًا وقبض على الشمس ترسًا، وبصوت ارتعشت له جوانب العالم صرخ قائلًا: ألا فاهبط أيّها المتمرّد الشرّير إلى العالم الأدنى حيث الظلمة والشقاء وابقَ هناك منفيًّا شريدًا تائهًا حتّى تنقلب الشمس رمادًا وتتحوّل الكواكب إلى هباء منثور. في تلك الساعة هبط بعطار من مقرّ الآلهة إلى العالم الأدنى حيث تقيم الأرواح الخبيثة. وقد أقسم بسرّ خلوده أنّه سيصرف الدهور محاربًا والده وإخوانه واضعًا الأشراك لكلّ محبّ لوالده أو مريد لإخوانه.

فقال الزعيم وقد تقلّصت جبهته واصفرّ وجهه: إذن فاسم إله الشرّ بعطار؟

فأجاب لاويص: كان اسمه بعطار إذ كان في مقرّ الآلهة، ولكنّه اتخذ بعد هبوطه إلى العالم الأدنى أسماء أخرى منها بعلزبول وإبليس وسطنائيل وبليال وزميال واهريمان وماره وابدون والشيطان، وأشهرها الشيطان.

فردّد الزعيم لفظة الشيطان مرّات بصوت مرتعش يشابه حفيف الأغصان اليابسة لمرور الهواء، ثمّ قال: ولماذا يا ترى يكره الشيطان البشر بكرهه الآلهة؟

فأجاب لاويص: إنّ الشيطان يكره البشر ويعمل على إبادتهم لأنّهم من نسل إخوانه وأخواته.

فقال الزعيم محتارًا: إذن فالشيطان هو عمّ البشر وخالهم؟

فأجاب لاويص وقال بلهجة لا تخلو من التشويش والالتباس: نعم يا سيّدي، ولكنّه عدوّهم الأكبر ومناظرهم الحقود، يملأ أيّامهم بالتعاسة ولياليهم بالأحلام المخيفة. فهو القوّة التي تحوّل العاصفة نحو أكواخهم وتحرق بالقيظ مزارعهم وتقرض بالأوبئة مواشيهم وتلامس بالأمراض أجسادهم. هو إله قوي شرّير خبيث يضحك لشقائنا ويكتئب لأفراحنا. فعلينا أن نتفحّص طباعه لنتقي شرّه وندرس أخلاقه لنبتعد عن سبيل احتياله.

فأسند الزعيم رأسه على نبوّته وهمس قائلًا: قد عرفت الآن ما كان خافيًا عني من أسرار تلك القوّة الغريبة التي تحوّل العاصفة نحو منازلنا وتقرض بالأوبئة مواشينا، وسوف يعرف البشر كافة ما أعرفه الآن فيطوبونك يا لاويص لأنّك أبنت لهم خفايا عدوّهم القوي وعلمتهم كيف يتّقون حبائله.

وانصرف لاويص من أمام زعيمِ القبيلة وذهب إلى مرقده فرحًا بذكاء فكرته، نشوان بخمرة خياله. أمّا الزعيم ورجاله فقد صرفوا تلك الليلة يتقلبّون على مراقد محاطة بالأشباح المخيفة والأحلام المزعجة.

ووقف الشيطان الجريح دقيقة عن الكلام والخوري سمعان يحدق إليه وفي عينيه جمود الحيرة والاستغراب وعلى شفتيه ابتسامة الموت.

ثمّ استأنف الشيطان الكلام قائلًا: كذا ظهرت الكهانة في الأرض وهكذا كان وجودي سببًا لظهورها. وقد كان لاويص أوّل من اتخذ عداوتي صناعة. وقد راجت هذه الصناعة بعد موت لاويص بواسطة أبنائه وأحفاده فنمت وتدرّجت حتّى صارت فنًّا دقيقًا مقدّسًا لا يتخذه غير أصحاب العقول المختمرة والنفوس الشريفة والقلوب الطاهرة والخيال الواسع. ففي بابل كان الناس يسجدون سبع مرّات أمام

الكاهن الذي يحاربني بتعازيمه. وفي نينوى كانوا ينظرون إلى الرجل الذي يدعي معرفة أسراري وخفاياي كحلقة ذهبيّة بين الآلهة والبشر. وفي ثيب كانوا يلقبون من يصارعني بابن الشمس والقمر. وفي بابلس وأفسس وأنطاكية كانوا يضحون أبناءهم وبناتهم إرضاء لخصمي. وفي أورشليم ورومة كانوا يضعون أرواحهم في قبضة من يتفنّن في كرهي وإبعادي. في كلّ مدينة ظهرت أمام وجه الشمس كان اسمي محورًا لدوائر الدين والعلم والفن والفلسفة. فالهياكل لم تقم إلّا في ظلالي، والمعاهد والمدارس لم تظهر بغير مظاهري، والقصور والبروج لم ترتفع إلّا برفعة منزلتي. فأنا العزم الذي يولد العزم في البشر، وأنا الفكرة التي تستنبت الحيلة في الأفكار، وأنا اليد التي حركت أيدي الناس. أنا الشيطان الأزلي الأبدي. أنا الشيطان الذي يحاربه الناس ليظلّوا عائشين فإذا كفّوا عن منازلتي لهم يوقف الخمول أفكارهم ويميت الكسل أرواحهم وتفني الراحة أجسادهم. أنا الشيطان الأزلي الأبدي. أنا عاصفة هوجاء خرساء أهبّ في أدمغة الرجال وصدور النساء وأجرف ميولهم إلى الأديرة والصوامع ليمجدوني بخوفهم مني أو إلى منازل البغي والخلاعة ليفرحوني باستسلامهم إلى مشيئتي. فالراهب الذي يصلّي في سكينة الليل لكي أبتعد عن مضجعه هو كالمومسة التي تناديني لكي أقترب من مضجعها. أنا الشيطان الأزلي الأبدي. أنا باني الأديرة والصوامع على أُسس الخوف، وأنا مقيم الخمارات وبيوت الفحش على أُسس الشهوة واللذة. فإن زال كياني زال الخوف واللذّة من العالم، وبزوالهما تضمحل الميول والأماني في القلب البشري فتصبح الحياة خالية مقفرة باردة كقيثارة مقطعة الأوتار مكسّرة الجوانب. أنا الشيطان الأزلي الأبدي. أنا موحي الكذب والنميمة والاغتياب والغش والسخرية، فإذا انقرضت هذه العناصر في العالم أصبحت الجامعة البشريّة كبستان مهجور لا تنبت

فيه سوى أشواك الفضيلة. أنا الشيطان الأزلي الأبدي. أنا أبو الخطيئة وأمّها، فإذا ما زالت الخطيئة زال محاربوها وزلت أنت أيضًا وزال أبناؤك وأحفادك وزملاؤك ووصفاؤك. أنا أبو الخطيئة وأمّها، فهل تريد أن تموت الخطيئة بموتي؟ هل تريد أن تقف الحركة البشريّة بوقوف نبضات قلبي؟ هل تريد أن تمحو السبب لتمحي المسبّبات؟ أنا هو السبب الوضعي، فهل تريد أن أموت في هذه البريّة الخالية؟ أجبني أيّها اللاهوتي، هل تريد أن تنتهي العلاقة الأوّلية الكائنة بينك وبيني؟

وبسط الشيطان ذراعيه وألوى عنقه إلى الأمام وتنهّد طويلًا فظهر بلونه الرمادي المائل إلى الاخضرار كأحد تلك التماثيل المصريّة التي أبقاها الدهر مطروحة على ضفاف النيل. ثمّ حدّق إلى وجه الخوري سمعان بعينين مشعشعتين كالمسارج وقال: لقد نهكني الكلام وكان الأحرى بي وأنا جريح منازع أن لا أطيل معك الحديث، ومن العجيب أنّي قد استرسلت بإظهار حقيقة أنت أدرى بها مني، وبيان أمور هي أدنى إلى صالحك منها إلى صالحي. أمّا الآن فلك أن تفعل ما تشاء. لك أن تحملني على ظهرك وتذهب بي إلى منزلك لتداوي جراحي، أو أن تتركني في هذا المكان لأنازع وأموت.

وكان الشيطان يتكلّم والخوري سمعان يرتعش ويفرك يدًا بيد، وبصوت تعانقه الحيرة والارتباك قال: أنا أعرف الآن ما لم أكن أعرفه منذ ساعة، فسامح غباوتي. أنا أعلم أنّك موجود في العالم لكي تجرّب، والتجربة هي مقياس يعرف الله بواسطته قدر النفوس البشريّة. بل هي ميزان يستخدمه الله عزّ وجلّ ليدرك ثقل الأرواح أو خفتها. أنا أعلم الآن أنّك إذا متّ تموت التجربة وبموتها تزول تلك القوى المعنويّة التي تجعل الإنسان متحذّرًا، بل يزول السبب الذي يقود الناس إلى الصلاة والصوم والعبادة. يجب أن تحيا لأنّك إن قضيت وعرف الناس يزول خوفهم

من الجحيم فيبطلون العبادة ثمّ يتمرّغون بالإثم. من أجل ذلك يجب أن تحيا، لأن بحياتك خلاص الجنس البشري من الرذيلة. أمّا أنا فسوف أُضحي كرهي لك على مذبح محبّتي للجنس البشري.

فضحك الشيطان ضحكة تشابه انفجار بركان ثمّ قال: ما أذكاك وما أبرعك يا حضرة الأب، بل وما أعمق معارفك بالأمور اللاهوتيّة! فها قد أوجدت بقوّة إدراكك سببًا لوجودي لم أكن أعرفه من قبل. والآن وقد فهم كلّ منّا الأسباب الوضعيّة واللاهوتيّة التي أوجدتنا في البدء وتوجدنا الآن يجب أن نترك هذا المكان. اقترب يا أخي. تعالَ واحملني إلى بيتك فأنا لست بثقيل الجسم. ها قد غمر الليل البطاح بعد أن أهرقت نصف دمي على حصباء هذا الوادي.

فاقترب الخوري سمعان من الشيطان وقد شمّر عن ساعديه وشكل أطراف عباءته بحزامه ورفع الشيطان فوق ظهره ومشى نحو الطريق.

***

بين تلك الأودية المغمورة بالسكون، الموشاة بنقاب الليل، سار الخوري سمعان نحو قريته منحني الظهر تحت هيكل عارٍ وقد تلطخت ملابسه السوداء ولحيته المسترسلة بقطرات الدم السائلة من كلومه.

الصّلبان

المكان: منزل يوسف مسرة في بيروت.

الزمان: ليلة من ليالي الخريف سنة 1901.

الأشخاص:

بولس الصّلبان – موسيقي وأديب.

يوسف مسرّة – كاتب وأديب.

الآنسة هيلانة مسرة – شقيقة يوسف.

سليم معوض – شاعر وعواد.

خليل بك تامر – موظف في الحكومة.

(يرفع الستار عن قاعة حسنة في منزل يوسف مسرة مفعمة بالكتب والأوراق. خليل بك تامر يدخن بالنارجيلة. الآنسة هيلانة تطرز. يوسف مسرة يدخن لفافة.)

خليل بك (مخاطبًا يوسف مسرة) – قد قرأت اليوم مقالتك في الفنون الجميلة وتأثيرها في الأخلاق وقد أعجبتني كثيرًا، ولولا صبغتها الافرنجيّة لكانت خير ما كتب في الموضوع. أنا يا مسرة أفندي من الذين يرون تأثير الآداب الغربيّة في لغتنا من الأمور المضرّة.

يوسف مسرة (مبتسمًا) – قد يكون الحق معك يا صديقي ولكن بارتدائك الملابس الإفرنجية وبتناولك الطعام بآنية إفرنجيّة وبجلوسك على مقاعد إفرنجيّة قد عارضت ذاتك بذاتك، وفوق كلّ ذلك أنت أكثر ميلًا إلى مطالعة الكتب الإفرنجيّة منك إلى مطالعة الكتب العربيّة.

خليل بك – ليس لهذه الأمور السطحيّة من علاقة بالآداب والفنون.

يوسف مسرة – نعم هناك علاقة حيويّة وضعيّة. وإذا تعمقت قليلًا في الموضوع تجد أن الفنون تلازم العادات والأزياء والتقاليد الدينيّة والإجتماعيّة بل تلازم كلّ مظهر من مظاهر حياتنا الاجتماعيّة.

خليل بك – أنا شرقي وسأبقى شرقيًا إلى آخر حياتي وقهرًا عن بعض مظاهري الأوروبيّة، فأنا أرجو أن تبقى الآداب العربيّة طاهرة ونقيّة من جميع التأثيرات الأجنبيّة.

يوسف مسرة – إذن أنت ترجو موت اللغة والآداب العربيّة؟

خليل بك – وكيف ذلك؟

يوسف مسرة – إن الأمم المسنّة التي لا تكتسب ممّا تثمره الأمم الحديثة تموت أدبيًا وتنقرض معنويًا.

خليل بك – إن كلامك هذا يحتاج إلى برهان.

يوسف مسرة – لديّ ألف برهان وبرهان.

(في هذه الدقيقة يدخل بولس الصلبان وسليم معوّض فيقف الحاضرون لهما احترامًا.)

يوسف مسرة – أهلًا وسهلًا بالإخوان. (مخاطبًا الصلبان) أهلًا وسهلًا ببلبل سوريا.

(الآنسة هيلانة تنظر إلى الصلبان وقد تورّدت وجنتاها قليلًا وظهرت على محيّاها أمارات السرور.)

سليم معوّض – بالله عليك يا يوسف لا تقل كلمة حسنة لبولس.

يوسف مسرة – ولماذا؟

سليم معوض (بين الجد والمزاح) – لأنّه لا يستحق التكريم ولا المديح ولا الإطراء، لأنّه ذو أطوار وأخلاق غريبة، لأنّه مجنون.

بولس الصلبان (مخاطبًا معوض) – هل أحضرتك برفقتي إلى هذا المنزل لتبين عيوبي وتشرح أخلاقي؟

الآنسة هيلانة – ماذا جرى يا ترى؟ هل كشفت يا سليم أفندي عيوبًا جديدة في أخلاق بولس؟

سليم معوض – إن عيوبه القديمة ستبقى جديدة حتّى يموت ويدفن وتتحوّل عظامه إلى تراب.

يوسف مسرة – أخبرنا. ماذا جرى؟ أخبرونا بالحكاية من أوّلها إلى آخرها.

سليم معوض (مخاطبًا الصلبان) – هل تسمح لي أن أتكلّم عن جرائمك يا بولس أم تريد أن تعترف أنت بها؟

بولس الصلبان – أريد أن تبقى صامتًا كالمقبرة، هاجعًا كقلب العجوز.

سليم معوض – إذن فسوف أتكلّم.

الصلبان – يظهر لي أنّك تريد أن تنغص عيشي في هذه السهرة.

سليم معوض – لا بل أريد أن أعرض قصتك أمام هؤلاء الأصحاب لينظروا في أمرك.

الآنسة هيلانة (مخاطبة معوض) – تكلّم وأسمعنا ما جرى. (للصلبان) قد تكون الجريمة التي يريد سليم أن يظهرها إحدى فضائلك.

الصلبان – لم أقترف جريمة كما أنّني لم أفعل فضيلة. أمّا المسألة التي يتوق صاحبنا إلى إظهارها فهي لا تستحق الذكر، وفوق كلّ ذلك فأنا لا أريدكم أن تصرفوا السهرة بحديثي.

الآنسة هيلانة – حسن. إذن فلنسمع الخبر!

سليم معوض (يشعل لفافة ويجلس بقرب يوسف مسرة) – قد سمعتم طبعًا يا سادتي بزواج ابن جلال باشا، وقد عرفتم أن والد العريس قد أقام ليلة أمس حفلة طرب دعا إليها وجهاء المدينة وكبارها (مشيرًا إلى بولس) وقد دعا هذا الشرير ودعيت أنا أيضًا والسبب في ذلك أن الناس يحسبونني ظلًّا لبولس أسير حيث يسير وأقوم حيث يقوم، ولأنّه أدامه الله وأبقاه لا يحبّ الإنشاد إلّا على نقرات عودي. بلغنا منزل جلال باشا متأخرين وبولسنا كالملوك لا يجيء إلّا متأخّرًا، فوجدنا هناك الوالي والمطران بل وجدنا هناك الحسناء الفاضلة والأديب والشاعر والمثري والزعيم. جلسنا بين مجامر البخور وكؤوس الخمر والقوم ينظرون إلى بولس كأنّه ملاك هبط من السماء. أمّا السيّدات فأخذنَ يقدّمنَ إليه كؤوس الخمر وصحاف النقل وطاقات الأزهار مثلما كانت تفعل نساء أثينا عند رجوع أحد الأبطال من ساحات الحرب. خلاصة الكلام أن بولسنا كان في بدء السهرة موضوعًا للتكريم والاحتفاء... أخذت عودي وضربت أوّلًا وثانيًا وثالثًا ففتح بولس شفتيه المقدّستين وأنشد بيتًا... بيتًا واحدًا من قصيدة ابن الفارض:

غيري على السّلوان قادر وسواي في العشّاق غادر

فأصغى القوم وتطاولت أعناقهم كأن الموصلي قد جاء من وراء حجب الأبديّة ليهمس في آذانهم أنغامًا سحريّة علويّة. وبعد ذلك سكت بولس

فظنَّ الحاضرون أنّه سيعود إلى الإنشاد بعد أن يشرب كأسًا أخرى من العرق، ولكن بولس ظلّ ساكتًا.

بولس الصلبان (بلهجة جديّة) – أرجوك أن تقف عند هذا الحدّ، فأنا لا أقدر أن أسمع هذا الحديث البليد، وأنا لا أشك بأن أصحابنا لا يجدون لذّة بهذه الثرثرة الخالية من المعنى.

يوسف مسرة – بحقّك دعنا نسمع البقيّة.

بولس الصلبان (ينهض من مكانه قائمًا) – الظاهر أنّكم تفضلون هذا الحديث البارد على وجودي بينكم. أودعكم.

الآنسة هيلانة (تنظر إلى بولس نظرة معنويّة) – اجلس يا بولس ومهما كان الخبر فنحن معك.

(يجلس بولس وعلى وجهه دلائل الصبر والتجلّد).

سليم معوض (متابعًا حديثه) – قلت إن بولس المعطّر المعظّم قد أنشد بيتًا – بيتًا واحدًا من قصيدة ابن الفارض وسكت. أعني بذلك أنّه أذاق أولئك الجياع المساكين لقمة واحدة من طعام الآلهة ثمَّ رفس المائدة وكسر آنيتها وكؤوسها ثمّ جلس ساكتًا جلوس أبي الهول على رمال النيل. وقامت السيّدات الواحدة بعد الأخرى يستعطفنه بأرقّ الكلام لينشد أغنية أخرى فكان يعتذر لهن بقوله: أنا مرشح، أشعر بألم في حنجرتي. ثمّ قام الوجهاء والأغنياء يرجونه ويتذلّلون أمامه فلم يحنّ ولم يَلِن بل بقي جامدًا قاسيًا متمنّعًا كأن الله قد أبدل قلبه بحجر من الصوّان وحوّل الأنغام في نفسه إلى الغنج والدلال. وبعد نصف الليل وقد بلغ القنوط من الحاضرين حدّ الألم ناداه جلال باشا إلى غرفة محاذية ووضع في جيبه قبضة من الدنانير قائلًا: أنت تستطيع يا بولس أفندي أن تختم حفلتنا بالسرور أو بالأكدار، لذلك أرجوك أن تقبل مني هذه الهدية الصغيرة

لا كمكافأة بل كمظهر لشعوري نحوك، فلا تخيّب آمالي وآمال الحاضرين بك. عند ذلك تعالت قامة بولس وظهرت لوائح الكبرياء على وجهه ورمى بالدنانير إلى مقعد بجانبه قائلًا بلهجة الملوك الفاتحين: أنت تهينني يا جلال باشا بل أنت تحتقرني، فأنا لم أجئ إلى منزلك لكي أنشد وأغني وأبيع أنفاسي بالمال، بل جئت كأحد المهنئين. بعد هذا فَقَدَ جلال باشا صبره وتجلّده وتلفّظ ببعض كلمات خشنة جعلت بولس الحسّاس يخرج من المنزل لاعنًا مجدّفًا. أمّا أنا، أنا المسكين، فقد تناولت عودي وتبعت بولس تاركًا ورائي الوجوه الجميلة والقامات النحيلة والخمور الطيّبة والمآكل الشهيّة. نعم قد ضحيت كلّ ذلك لكي لا أفقد صداقة هذا المتصلّب المتعنّت. قد ضحيّت بكلّ ذلك على مذبح هذا البعليم وهو للآن لم يشكرني ولم يمدح بسالتي ولم يعترف بمودّتي وولائي.

يوسف مسرة (ضاحكًا) – هذه بالحقيقة حكاية لذيذة حريّة أن تكتب بالإبر على آماق البصر!

سليم معوض – لم أصل للآن إلى نهاية الحكاية. أمّا اللذة ففي النهاية، تلك النهاية الشيطانيّة التي لم يحلم بمثلها اهريمان الفرس ولا سيفا الهنود.

الصلبان (مخاطبًا الآنسة هيلانة) – بقيت هنا إكرامًا لك، والآن أرجوك أن تطلبي من هذا الضفدع أن يقف عند هذا الحد.

هيلانة – دعه يتكلّم يا بولس! ومهما كانت نهاية الخبر فنحن معك قلبًا وقالبًا.

سليم معوض (يشعل لفافة ثانية ويتابع الحديث) – قلت إنّنا خرجنا من منزل جلال باشا وبولس يجدف على اسم الأغنياء والوجهاء وأنا أجدف على اسمه في سرّي. وبعد ذلك... وبعد ذلك هل تظنّون أن كلًّا منّا ذهب إلى منزله؟ هل تظنّون أن ليلة أمس قد انتهت على هذه الصورة؟

اسمعوا وتعجّبوا! تعلمون أن بيت حبيب سعادة محاذٍ لمنزل جلال باشا ولا يفصلهما غير حديقة صغيرة. وأنتم تعلمون أن حبيب سعادة من عشاق المدام والأنغام والأحلام وممّن يعبدون هذا البعليم (مشيرا إلى بولس). فلمّا خرجنا من منزل جلال باشا وقف بولس دقيقة في منتصف الشارع فاركًا جبهته كأنّه قائد عظيم يفكّر بفتح مملكة عاصية ثمّ مشى فجأة نحو منزل حبيب سعادة وقرع الجرس بشدّة فظهر حبيب بملابس النوم وهو يفرك عينيه ويتمتم ويتثاءب، ولكنّه عندما رأى وجه بولس ورآني حاملًا العود تحت إبطي تغيّرت سحنته ولمعت عيناه كأن السماء قد انفتحت أمامه وصرخ مسرورًا مؤهلًا قائلًا: ما أتى بكم في هذه الساعة المقدّمة؟ فأجاب بولس: قد جئنا لنحتفل بعرس ابن جلال باشا في دارك. فقال حبيب: ها ضاقت عليكم دار جلال باشا فجئتم إلى هذا المنزل الحقير؟ فأجاب بولس: ليس لجدران بيت الباشا آذان تسمع رنّات العود والأناشيد. من أجل ذلك جئنا إليك فهات قنينة العرق وصحفة المازة ولا تطل الكلام. الخلاصة جلسنا حول مائدة الشراب ولم يتناول بولس كأسًا أو كأسين من العرق حتّى قام وفتح النوافذ التي تطل على حديقة الباشا ثمّ ناولني العود وقال آمرًا: هذه عصاك يا موسى فحوّلها إلى أفعى ومرها أن تبتلع جميع أفاعي مصر. اضرب النهاوند واضرب طويلًا واضرب جميلًا. فتناولت العود وليس على العبد إلّا الطاعة وضربت النهاوند فحوّل بولس وجهه نحو منزل جلال باشا وأخذ ينشد بصوت عال...

هنا يسكت سليم دقيقة وتزول سيماء المزاح عن وجهه ويقول بلهجة هادئة جديّة:

أنا أعرف بولس منذ خمس عشرة سنة. أعرفه منذ كنّا صبيّين في المدرسة. ولقد سمعته منشدًا في حالتي الفرح والشقاء. سمعته ينوح

كالثكلى ويترنّم كالعاشق ويهلّل كالمنتصر. سمعته يهمس في سكينة الليل وقد نامت هذه المدينة وسكّانها. وسمعته بين أودية لبنان وأجراس الكنائس البعيدة يملأ الفضاء سحرًا وهيبة. نعم لقد سمعته منشدًا ألف مرّة ومرّة وكنت أتوهّم أنني أعرف حركات روحه وسكناتها. ولكنّني في ليلة أمس لما حوّل وجهه نحو منزل جلال باشا وأغمض عينيه وأنشد:

كلّ يوم أشكو من غرام قلبي وكلّما أشكو يزيد الغرام

عندما أنشد هذا الدور متلاعبًا بمقاطعه مثلما يتلاعب الهواء بأوراق الخريف قلت في نفسي: لا، ما عرفت في الماضي من روح بولس إلّا القشور، أمّا الآن فقد بلغت اللباب. لم أسمع في الماضي غير لسان بولس منشدًا أمّا الآن فإنّني أسمع قلبه وروحه... وظلّ بولس يلاحق الدور بالدور ويتدرّج من نشيد إلى نشيد حتّى خُيّل لي أن في الفضاء طغمة من أرواح العشاق تحوم مرفرفة هامسة منادية مردّدة تذكارات الماضي البعيد، ناشرة ما طوته الليالي من أماني البشر وأحلامهم. نعم يا سادتي (مشيرًا إلى بولس) إن هذا الرجل قد صعد ليلة أمس على سلّم الفن حتّى بلغ الكواكب، ومن العجائب أنّه لم يهبط على الأرض حتّى الفجر. لم يسكت حتّى وضع أعداءه تحت موطئ قدميه كما جاء في المزامير! أمّا ضيوف جلال باشا فلم يسمعوا صوته خارجا من منزل حبيب سعادة حتّى تزاحموا في النوافذ وجلسوا نساء ورجالًا يتأوّهون بعد كلّ مقطع وكلّ نبرة تخرج من فمه. وقد خرج بعضهم إلى الحديقة ووقفوا تحت الأشجار مغتبطين متعذبين مصغين محتارين في أمر هذا البعليم الذي ينكيهم ويهينهم وفي الوقت نفسه يملأ قلوبهم بخمرة علويّة، وقد كان البعض يناديه مستعطفًا مترجّيًا والبعض متوعّدًا مجدّفًا. وقد علمت من أحد المدعوين أن جلال باشا كان يزأر كالأسد متنقّلًا من غرفة إلى

غرفة لاعنًا الصلبان غاضبًا على ضيوفه خصوصًا على أولئك الذين خرجوا إلى الحديقة حاملين كؤوس العرق وصحف المازة بأيديهم. هذا ما جرى ليلة أمس، فما قولكم في هذا النابغة المجنون؟ وما رأيكم بأطوار هذا الرجل وأخلاقه الغريبة؟

خليل بك – هذه حادثة عجيبة. أما رأيي فيها فهو هذا: أنا من المعجبين بمواهب بولس أفندي، ومع كلّ احترامي له أقول إنّه قد أخطأ ليلة أمس، فقد كان بإمكانه أن ينشد في بيت جلال باشا كما أنشد في بيت حبيب سعادة ويقابل استعطاف القوم بشيء من فنّه. (مخاطبًا يوسف مسرة) ما رأيك يا يوسف أفندي؟

يوسف مسرة – أنا لا ألوم الصلبان كما أنّني لا أُحاول فهم أسراره وخفاياه لعلمي أن المسألة شخصيّة تتعلّق به دون سواه ولعلمي أن أخلاق الفنّيين خصوصًا الموسيقيّين منهم تختلف عن أخلاق الناس كافة. وليس من الصواب أو العدالة أن نقيس أعمالهم ومآتيهم على المقاييس التي نستخدمها لإدراك أعمال غيرهم. إن الفني – وأعني بالفني ذلك المبدع الذي يخلق لأفكاره وعواطفه صورًا جديدة – هو رجل غريب بين أهله وخلانه وغريب في وطنه بل هو غريب عن هذا العالم. الفني يميل شرقًا عندما يميل الناس غربًا، ويتأثّر لعوامل باطنيّة لا يستطيع هو نفسه أن يبسطها، فهو تعس بين الفرحين فرح بين التعساء. ضعيف بين القادرين قادر بين الضعفاء. الفني فوق الشريعة رضي الناس أم غضبوا.

خليل بك – إن كلامك هذا يا يوسف أفندي لا يختلف بمعانيه ومفاده عمّا جاء في مقالتك عن الفنون الجميلة، واسمح لي أن أقول ثانية إن الروح الغربيّة، الروح الإفرنجيّة التي تكرز بها ستكون سببًا لزوالنا كشعب واضمحلالنا كأُمّة.

يوسف مسرة – هل تحسب ما فعله بولس أفندي ليلة أمس مظهرًا للروح الإفرنجيّة التي تنكرها وتكرهها؟

خليل بك – إنّي أستغرب ما فعله بولس أفندي. أقول ذلك مع الاحترام لشخصه.

يوسف مسرة – أوَليس للصلبان تمام الحريّة أن يفعل بصوته وفنّه ما يشاء ومتى يشاء؟

خليل بك – نعم له تمام الحريّة أن يفعل ما يشاء ولكنّني أرى أن حياتنا الاجتماعيّة لا تتّفق مع هذا النوع من الحريّة. إن ميولنا وعاداتنا وتقاليدنا لا تسمح للفرد الواحد أن يفعل ما فعله بولس أفندي ليلة أمس دون أن يضع نفسه في موقف حرج.

الآنسة هيلانة – هذه مناظرة لذيذة ومفيدة. ولكن بما أن السبب في هذه المناظرة موجود بيننا فهو بالطبع يستطيع أن يدافع عن نفسه بنفسه.

بولس الصلبان (بعد سكوت طويل) – كنت أتمنى لو لم يفتح سليم هذا الحديث. بل كنت أودّ أن يزول ما جرى ليلة أمس مع ليلة أمس. ولكن بما أنّني في مركز حرج كما يقول حضرة البك فأنا لا أرى بدًّا من إظهار أفكاري في هذا الموضوع. أنتم تعلمون وأنا أعلم أيضًا أن أكثر من يعرفني ينتقدني. هذا يقول إنّني مغنج وذلك إنّني أعوج. وهنالك فئة تقول إنّني لئيم وليس للئيم كرامة. وما هو السبب يا ترى في هذه الانتقادات الجارحة؟ إن السبب في أخلاقي. نعم في أخلاقي التي لا أقدر أن أغيرها ولو قدرت لما أردت. ولماذا يا ترى يهتم الناس بي وبأخلاقي؟ أليس بإمكانهم أن يتناسوا كياني؟ في هذه المدينة كثير من المغنّين والمنشدين والموسيقيّين وكثير من الشعراء والمقرظين وكثير من المبخرين والشحاذين الذين يبيعون أصواتهم وأفكارهم

بل ويبيعون نفوسهم بدينار أو بعلفة أو بقنينة من الخمر. وقد عرف أغنياؤنا ووجهاؤنا هذا السرّ، لذلك نراهم يبتاعون أبناء الفن والأدب بأبخس الأثمان ويعرضونهم في منازلهم وقصورهم كما يعرضون خيولهم ومركباتهم في الساحات والطرق. نعم أيّها السادة إن المغنّين والشعراء في الشرق هم حملة المباخر بل هم العبيد، وقد فرض عليهم أن ينشدوا في الأعراس ويترنّموا في الحفلات ويندبوا في المآتم ويرثوا في المقابر. هم الآلات التي تدار في أيّام الحزن وليالي الأفراح. فإذا لم يكن من داعٍ للحزن أو الفرح طُرحوا جانبًا كأنّهم سلع لا قيمة لها. وأنا لا ألوم الوجهاء والأغنياء بل ألوم المغنين والشعراء والأدباء الذين لا يحترمون نفوسهم ولا يضنون بماء وجوههم. ألومهم لأنّهم لا يترفّعون عن الصغائر والتوافه. ألومهم لأنّهم لا يفضلون الموت على الخضوع والتذلّل.

خليل بك (متهيّجًا) – إن القوم كانوا يستعطفونك ليلة أمس ويحاولون بكلّ وسيلة لديهم أن يسترضوك لتتكرّم عليهم بأغنية أو نشيد. فهل تحسب إنشادك في بيت جلال باشا نوعًا من الخضوع والتذلّل؟

بولس الصلبان – لو استطعت الإنشاد في منزل جلال باشا لفعلت. ولكني نظرت حولي فلم أجد بين الحاضرين غير الموسرين الذين لا يسمعون من الأصوات إلّا رنّات الدنانير، والوجهاء الذين لا يفهمون من الحياة إلّا ما يرفعهم ويخفض سواهم. نظرت حولي فلم أجد من يميّز النهاوند عن الرصد أو العشاق عن الأصفهان، لذلك لم أستطع أن أفتح صدري أمام العميان أو أعرض أسرار قلبي أمام الطرشان. إنّما الموسيقى لغة الأرواح. هي سيّال خفي يتموّج بين روح المنشد وأرواح السامعين، فإذا لم يكن هناك من أرواح تسمع وتفهم ما تسمع فالمنشد يفقد ذلك الميل إلى البيان ويفقد ذلك الشوق إلى إظهار ما في أعماقه من الحركات والسكنات والموسيقى مثل قيثارة ذات أوتار مشدودة حساسة فإذا

تراخت تلك الأوتار فقدت خاصتها وأصبحت كخيوط من الكتان. (يقف ويسير بضع خطوات ثمّ يقول ببطء) – لقد تراخت أوتار روحي في منزل جلال باشا عندما تفرست في الحاضرين نساء ورجالًا ولم أرَ بينهم غير المتكلّف والمتصنّعة والمتقلّد والبليدة والعقيم والمتعجرفة. أمّا استعطافهم إيّاي فلم يكن ناتجًا إلّا عن تمنّعي وسكوتي. ولو كنت كالكثيرين من ضفادع المنشدين لما اهتمّ أحد بي.

خليل بك (يقاطعه مداعبًا) – وبعد ذلك ذهبت إلى منزل حبيب سعادة وللنكاية – وللنكاية فقط – جلست منشدًا حتّى الصباح!

بولس الصلبان – جلست منشدًا حتّى الصباح لأنّي أردت أن أُفرغ مكنونات قلبي. لأنّني أردت أن أُلقي حملًا ثقيلًا عن عاتقي. لأنّني أردت أن أُعاتب الليل والحياة والدهر. لأنّني شعرت بحاجة ماسّة إلى شدّ تلك الأوتار التي تراخت في منزل الباشا. أمّا إذا كنت تظن يا خليل بك أنّني أردت النكاية فلك الحق بأن تفكّر بما تريد. إن الفن طائر حر يسبح محلّقًا عندما يشاء ويهبط إلى الأرض عندما يشاء، وليس من قوّة في هذا العالم تستطيع تقييده أو تغييره. الفن روح سام لا يباع ولا يشرى، وعلى الشرقيّين أن يعرفوا هذه الحقيقة المطلقة. أمّا الفنيون بيننا – وهم أندر من الكبريت الأحمر – فعليهم أن يكرموا نفوسهم لأنها الإناء الذي يملأه الله خمرة علوية.

يوسف مسرة – إنّي متفق معك يا بولس. ولقد أبنت أفكاري في هذا الموضوع بصورة لا أستطيع أنا إظهارها. أنت ابن الفن أمّا أنا فباحث بالفنون، والفرق بيننا هو كالفرق الكائن بين العنب الحامض والخمرة المعتقة.

سليم معوض – الصلبان يتكلّم مثلما ينشد وليس على سامعه إلّا الاقتناع والإذعان.

خليل بك – لم أقتنع بعد ولن أقتنع. وما فلسفتكم هذه إلّا إحدى تلك العلل المتسربة إلينا من بلاد الإفرنج.

يوسف مسرة – لو سمعت الصلبان منشدًا يا حضرة البك لاقتنعت ونسيت الفلسفة.

(في هذه الدقيقة تدخل الخادمة وتخاطب الآنسة هيلانة) – يا معلمتي قد جاءت الكنافة من الفرن فوضعتها على المائدة.

يوسف مسرة (ينتصب مخاطبًا الجميع) – تفضّلوا أيّها الإخوان فقد هيأنا لكم أكلة لذيذة، لذيذة جدًّا، وتكاد تكون صلبانية بنكهتها وحلاوتها!

(يقف الجميع ثمّ يخرج يوسف مسرة وخليل بك وسليم معوض، أمّا الصلبان والآنسة هيلانة فيظلان واقفين في وسط القاعة وكلّ يحدق إلى وجه الآخر وفي عينيهما أشعة لا توصف.)

هيلانة (هامسة) – هل علمت أنّني كنت مصغيةً إليك ليلة أمس؟

الصلبان (مستغربًا) – ماذا تعنين يا هيلانة قلبي؟

هيلانة (بخجل ووجل) – كنت أمس في بيت شقيقتي مريم. ذهبت لأنام عندها لأن زوجها متغيّب وهي تخاف وحدها.

الصلبان – أوَبيت صهرك على طريق الحرج؟

هيلانة – ولا يفصله عن بيت حبيب سعادة غير زقاق ضيق.

الصلبان – وهل سمعتني منشدًا؟

هلانة – سمعت نداء روحك من نصف الليل حتّى الفجر. سمعتك حتّى سمعت الله متكلّمًا.

(يسمع صوت يوسف مسرة آتيًا من الغرفة المحاذية قائلًا):

«تفضل يا بولس فقد بردت الكنافة».

(يخرج بولس وهيلانة.)

(الستار.)

الشاعر البعلبكي

1

في مدينة بعلبك سنة 112 قبل الميلاد.

جلس الأمير على عرشه الذهبي، المحاط بالمسارج المشتعلة والمباخر المتّقدة، فجلس القوّاد والكهّان عن يمينه وشماله، ووقف الجنود والعبيد أمامه وقوف الأنصاب أمام وجه الشمس.

بعد هنيهة وقد انتهى المرتّلون من إنشادهم، وتوارت أنفاسهم بين طيّات أثواب الليل، وقف كبير الوزراء أمام الأمير وقال بصوت تهدجه ضآلة الشيخوخة:

– أيّها الأمير العظيم، قد جاء المدينة بالأمس حكيم من حكماء الهند ذو أطوار غريبة ومذاهب عديدة لم نسمع قط بمثلها، فهو يدعو الناس إلى الاعتقاد بتقمّص الأرواح من جسد إلى جسد، وانتقال النفوس من جيل إلى جيل حتّى تبلغ الكمال، وتصير إلى مصفّ الآلهة. وقد جاء الليلة طالبًا الدخول عليك ليبسط تعاليمه أمامك.

فهزّ الأمير رأسه وقال مبتسمًا:

– من بلاد الهند تأتي الغرائب والعجائب فأدخلوه لنسمع حجّته.

ولم تمر دقيقة حتّى دخل كهل أسمر اللون، مهيب المنظر، ذو عينين كبيرتين، وملامح منفرجة، تتكلّم بلا نطق عن أسرار عميقة وميول غريبة، وبعد أن انحنى مستأذنًا رفع رأسه وتلمعت عيناه وطفق يتكلّم عن بدعته مظهرًا كيف تنتقل الأرواح من هيكل إلى هيكل مرتقية بعوامل الوسط الذي تختاره، متدرجة بتأثيرات الأمور التي تختبرها، متمايلة مع الأمجاد التي ترفعها وتقوّيها، نامية مع الحبّ الذي يسعدها ويشقيها... ثمّ تطرّق إلى كيفيّة انتقال النفوس من مكان إلى مكان باحثة عمّا تحتاج إليه من الكماليات مكفرة في حاضرها عن ذنوب اقترفتها في ماضيها مستغلة في بلد ما زرعته في بلد آخر.

ولما طال الكلام وقد بدت على ملامح الأمير سيماء الملل والضجر اقترب كبير الوزراء من الحكيم وهمس في أُذنه قائلا: كفى الآن فدع البحث إلى فرصة ثانية.

فتراجع الحكيم إلى الوراء وجلس بين الكهّان مطبقًا أجفانه كأن عينيه قد تعبتا من التحديق إلى خفايا الوجود وأسراره.

وبعد سكينة شبيهة بغيبوبة الأنبياء تلفّت الأمير إلى اليمين وإلى اليسار ثمّ سأل قائلًا: أين شاعرنا؟ فقد مرّ زمن ولم نره... ماذا حلّ به وقد كان يحضر مجلسنا كلّ ليلة؟

فقال أحد الكهّان: قد رأيته منذ أسبوع جالسًا في رواق هيكل عشتروت وهو ينظر بعينين جامدتين كئيبتين نحو الشفق البعيد كأنّه أضاع بين الغيوم قصيدة من قصائده.

وقال أحد القوّاد: قد رأيته بالأمس واقفًا بين أشجار السرو والصفصاف فحييته ولم يردّ التحيّة بل ظلّ غارقًا في بحر أفكاره وأحلامه.

وقال رئيس الخصيان: قد رأيته اليوم في حديقة القصر فدنوت منه فوجدته أصفر اللون شاحب الوجه، تراود الدموع أجفانه وتتلاعب الغصّات بأنفاسه.

قال الأمير بصوت تلاحقه اللهفة: إذهبوا وابحثوا عنه وعودوا به مسرعين فقد شغل بالنا أمره.

خرج العبيد والجنود يبحثون عن الشاعر وظلّ الأمير وأعوانه صامتين حائرين مترقبين كأن نفوسهم قد شعرت بوجود شبح غير منظور منتصب في وسط تلك القاعة.

وبعد هنيهة عاد رئيس الخصيان وارتمى على قدمي الأمير كطائر رماه الصياد بسهم. فصرخ الأمير قائلًا: ما الخبر... ماذا جرى؟

فرفع الزنجي رأسه وقال مرتعشًا: قد وجدنا الشاعر ميتًا في حديقة القصر. فانتصب الأمير وقد علت سحنته سيماء الحزن والكمد، ثمّ خرج إلى الحديقة يتقدّمه حاملو المسارج ويتبعه القوّاد والكهّان. ولما بلغوا أطراف الحديقة حيث أشجار اللوز والرمان جلت لهم أشعّة السرج الصفراء جثة هامدة مرتمية على الأعشاب كغصن ورد ذابل.

فقال أحد الأعوان: انظروا كيف عانق قيثارته كأنّها صبية حسناء أحبّها وأحبّته فتعاهدا على أن يموتا معًا.

وقال أحد القوّاد: لم يزل يحدق إلى أعماق الفضاء كعادته كأنّه يرى بين الكواكب خيال إله غير معروف.

وقال رئيس الكهّان مخاطبًا الأمير: غدًا نقبره في ظلال هيكل عشتروت المقدّسة، فيسير سكّان المدينة وراء نعشه، وينشد الفتيان قصائده وتنثر العذارى الأزهار على ضريحه. لقد كان شاعرًا عظيمًا فليكن احتفالنا بدفنه عظيمًا.

فهزّ الأمير رأسه دون أن يحوّل عينيه عن وجه الشاعر المتّشح بنقاب الموت، ثمّ قال ببطء: لا. لا. لقد أهملناه إذ كان حيًّا يملأ جوانب البلاد من أشباح نفسه ويعطر الفضاء بأنفاسه، فإذا ما أكرمناه ميتًا تسخر مِنا الآلهة وتضحك مِنّا عرائس المروج والأودية. ادفنوه ههنا حيث فاضت روحه وابقوا قيثارته بين ذراعيه. وإن كان بينكم من يريد أن يكرمه فليذهب إلى بيته ويخبر أبناءه بأن الأمير قد أهمل شاعره فمات كئيبًا وحيدًا منفردًا.

ثمّ التفت حوله وزاد قائلًا: أين الفيلسوف الهندي؟

فتقدّم الفيلسوف وقال: ها أنذا أيّها الأمير العظيم.

فقال الأمير: قل – قل أيّها الحكيم – هل ترجعني الآلهة أميرًا إلى هذا العالم وتعيده شاعرًا؟ هل تلبس روحي جسد ابن مليك عظيم، وتتجسّم روحه في جسد شاعر كبير؟ هل توقفه النواميس ثانية أمام وجه الأبديّة لينظم الحياة شعرًا وتعيدني لأنعم عليه وأفرح قلبه بالهبات والعطايا؟

فأجاب الفيلسوف قائلًا: كلّ ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح، فالناموس الذي يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك أميرًا عظيمًا ويعيده شاعرًا كبيرًا.

فانفرجت ملامح الأمير وانتعشت نفسه ثمّ مشى نحو قصره مفكرًا في أقوال الحكيم الهندي محدثًا ذاته بقوله: كلّ ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح.

2

في مصر القاهرة سنة 1912 للميلاد.

طلع القمر وألقى وشاحه الفضي على المدينة، وأمير البلاد جالس في شرفة قصره، ينظر إلى الفضاء الصافي، مفكّرًا بمآتي الأجيال التي

مرّت متتابعة على ضفاف النيل، مستوضحًا أعمال الملوك والفاتحين الذين وقفوا أمام هيبة أبي الهول، مستعرضًا مواكب الشعوب والأمم التي سيرها الدهر من جوانب الأهرام إلى قصر عابدين.

ولما اتسعت دائرة أفكاره، وانبسطت مسارح أحلامه، التفت نحو نديمه الجالس بقربه وقال: في نفسنا الليلة ميل إلى الشعر فأنشدنا شيئًا منه.

فحنى النديم رأسه وأخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلي فقاطعه الأمير قائلا: أنشدنا شعرًا أحدث عهدًا.

فانحنى النديم ثانية وابتدأ يردّد أبياتًا لأحد الشعراء المخضرمين.

فقاطعه الأمير أيضًا وقال: أحدث عهدًا... أحدث عهدًا.

فانحنى النديم للمرّة الثالثة وأخذ يترنّم بمقاطيع موشح أندلسي.

فقال الأمير: أنشدنا قصيدة لشاعر معاصر.

فرفع النديم يده إلى جبهته كأنّه يريد أن يستحضر إلى حافظته كلّ ما نظمه شعراء العصر، ثمّ برقت عيناه وتهلّل وجهه، وطفق يرتّل أبياتًا خياليّة ذات رنّة سحريّة، ومعانٍ رقيقة مبتكرة، وكنايات لطيفة نادرة تجاور النفس فتملأها شعاعًا وتحيط بالقلب فتذيبه انعطافًا.

فحدق الأمير إلى نديمه، وقد استهوته نغمة الأبيات ومعانيها. وشعر بوجود أيدٍ خفيّة تجتذبه من ذلك المكان إلى مكان قصيّ. ثم سأل قائلًا: لمن هذه الأبيات؟

فأجاب النديم: للشاعر البعلبكي.

الشاعر البعلبكي! كلمتان غريبتان تموجتا في مسامع الأمير وولدتا في داخل روحه النبيلة أشباح ميول ملتبسة بوضوحها قويّة بدقّتها.

الشاعر البعلبكي اسم قديم جديد، أعاد إلى نفس الأمير رسوم أيّام منسيّة وأيقظ في أعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة، ورسم

أمام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا الضباب صورة فتى ميت يعانق قيثارة وقد وقف حوله القوّاد والكهّان والوزراء.

وامحت هذه الرؤيا أمام عيني الأمير مثلما تتوارى الأحلام بمجيء الصباح، فوقف ومشى جامعًا ذراعيه على صدره، مردّدًا آية النبي العربي: وكنتم أمواتًا فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه تُرجعون.

ثمّ التفت نحو نديمه قائلًا: يسرّنا وجود الشاعر البعلبكي في بلادنا وسوف نقربه ونكرمه. وبعد دقيقة زاد بصوت منخفض: إنّما الشاعر طائر غريب المزايا يفلت من مسارحه العلويّة ويجيء هذا العالم مغردًا، فإن لم نكرمه يفتح جناحيه ويعد طائرًا إلى مواطنه.

وانقضى الليل فخلع الفضاء أثوابه المرصعة بالنجوم ولبس قميصه المنسوج من أشعة الصباح، ونفس أمير البلاد تتمايل بين عجائب الوجود وغرائبه، وخفايا الحياة وأسرارها.

السم في الدسم

في صباح يوم من أيّام الخريف الذهبيّة التي تظهر شمال لبنان بكلّ مظاهره العلويّة اجتمع سكّان قرية «تولا» حول الكنيسة القائمة في وسط منازلهم يتساءلون ويتبادلون الآراء في سفر فارس الرحال الفجائي إلى مكان قصيّ لا يعلم به غير الله تاركًا عروسته الصبيّة التي تزوّج بها منذ ستّة أشهر.

كان فارس الرحال شيخ القرية وزعيمها، وقد ورث هذه المنزلة عن أبيه وجـدّه. ومع أنّه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره فقد كان في شخصيته ما يوعز بالاحترام والوقار في قلوب مواطنيه. وعندما اقترن في أواسط الربيع الغابر بسوسان بركات قال الناس: ما أسعده فتى! فهو قد حصل قبل أن يبلغ الثلاثين على كلّ ما يتمنّاه الإنسان من السعادة في الحياة الدنيا.

ولكن في ذلك الصباح عندما استيقظ سكّان «تولا» وقيل لهم أن الشيخ فارس قد جمع ما تيسر له من المال وركب فرسه وغادر القرية دون أن يودّع نسيبًا أو صديقًا، تعاظمت ظنونهم وأخذوا يتساءلون عن الأسباب الخفيّة التي جعلته يتركهم ويترك عروسته ومنزله وحقوله وكرومه.

إن الحياة في شمال لبنان أقرب إلى الاشتراكيّة منها إلى كلّ تعليم آخر، فالقوم هناك يتساهمون أفراح الوجود وشدائده مدفوعين بميول فطريّة وضعيّة. فإذا ما جاءت الأيّام بحادث إلى قرية ينصرف سكّانها بكليتهم إلى استقصاء ذلك الحادث حتّى تجيء الأيّام إليهم بأمر آخر.

تلك هي العوامل التي صرفت سكان «تولا» عن أعمالهم اليوميّة فاجتمعوا حول كنيسة مار «تولا» يتحدّثون ويتساءلون ويتبادلون الآراء بسفر فارس الرحال.

وبينما هم على هذه الحالة إذا بالخوري أسطفان كاهن القرية يقترب منهم منحني الرأس منقبض الملامح. فدنوا منه مستطلعين، فظلّ ساكتًا يفرك يدًا بيد، وبعد هنيهة قال:

لا تسألوني. لا تسألوني. كلّ ما أعرفه يا أبنائي هو هذا: قرع فارس باب منزلي قبل طلوع الفجر. ولما فتحت له وجدته متمسكًا بمقود فرسه وعلى وجهه أمارات الحزن الشديد. فسألته مستغربًا عمّا يريد فقال: جئت لأودعك يا أبتي، فأنا مسافر إلى ما وراء البحار ولن أعود إلى هذه البلاد وأنا حي. ثمّ وضع في يدي رسالة مختومة باسم صديقه نجيب مالك وطلب إليّ أن أُسلّمها إليه يدًا بيد. فعل هذا واعتلى فرسه وراح مسرعًا قبل أن أستوضح أمره. هذا كلّ ما أعرفه. فلا تسألوني الزيادة.

فقال أحد الواقفين:

لا شك أن في الرسالة ما ينبئنا عن سبب سفره لأن نجيب مالك كان أعز صديق له في القرية.

وقال آخر:

وهل رأيت عروسته يا أبتاه؟

فأجاب الكاهن:

قد زرتها بعد صلاة الصباح فوجدتها جالسة بقرب النافذة تنظر إلى البعيد بعينين زجاجيتين كأنّها فقدت إدراكها، ولما سألتها هزّت رأسها وقالت: لا أدري. لا أدري. ثمّ طفقت تبكي وتنتحب كالأطفال.

ولم ينتهِ الكاهن من كلامه إلّا وذعر القوم حوله لطلق بندقية جاء من الوجهة الشرقيّة من القرية. ثمّ تبعه صراخ امرأة جارح ارتعشت له دقائق الفضاء، فبهت القرويون دقيقة ثمّ تراكضوا نساء ورجالًا وعلى وجه كلّ واحد منهم برقع من الخوف والتشاؤم. ولما بلغوا البستان الذي يحيط بمنزل فارس الرحال شاهدوا هنالك منظرًا أجمد الدم في عروقهم والفكرة في رؤوسهم. رأوا نجيب مالك منطرحًا على التراب والنجيع يتدفّق من أمعائه. وعلى مقربة منه سوسان زوجة فارس الرحال تنبش شعرها وتمزّق أثوابها وتصرخ متوجّعة: قد قتل نفسه. قد أطلق البندقية في صدره.

فبهت القوم كأن أكف القضاء غير المنظورة قد قبضت على أرواحهم. ولما اقترب الكاهن من الصريع وجد في يمينه الرسالة التي كان قد سلمه إياها في ذلك الصباح، وقد قبض عليها بشدّة كأنّه يريد أن يجعلها جزءًا من أصابعه، فتناولها الكاهن ووضعها في جيبه دون أن يراه أحد ثمّ تراجع إلى الوراء لاطمًا وجهه.

وحمل القوم جثّة المنتحر إلى بيت والدته المسكينة التي لم ترَ جثّة وحيدها حتّى فقدت عقلها.

واهتمّ بعض النساء بزوجة فارس الرحال فاقتدنها إلى منزلها بين حية وميتة.

***

ولما بلغ الخوري أسطفان منزله أوصد الباب ووضع النظارات على عينيه منتشلًا الرسالة التي وجدها في يد نجيب مالك، وبصوت مرتعش أخذ يقرأ:

أخي نجيب،

أنا تارك هذه القرية لأن وجودي فيها يجلب التعاسة لك ولزوجتي ولي أيضًا. أنا أعلم أنّك شريف النفس تترفّع عن خيانة صديقك وجارك. وأعلم أن زوجتي سوسان طاهرة الذيل، ولكنّني أعلم في الوقت نفسه أن الحبّ الذي يضمّ قلبك إلى قلبها هو أمر فوق إرادتكما، فأنت لا تستطيع إزالته كما أنّك لا تقدر أن توقف مجاري نهر قاديشا. لقد كنت صديقًا لي يا نجيب مذ كنّا صبيّين نلعب في الحقول وفي ساحة الكنيسة. وأنت لم تزل صديقي أمام الله، وأرجوك أن تفكّر بي في المستقبل مثلما كنت تفكّر بي في الماضي، وإذا التقيت سوسان غدًا أو بعده فقل لها إنّي أحبّها وأرحمها. وقل لها أيضًا إنّي كنت أذوب شفقة عندما كنت أستيقظ في سكينة الليل وأراها راكعة أمام صورة يسوع تبكي وتنتحب وتجلد صدرها. ليس أصعب من حياة المرأة التي تجد نفسها واقفة بين رجل يحبّها ورجل تحبّه. وسوسان المسكينة كانت في حرب دائمة. كانت تريد أن تقوم بواجباتها الزوجيّة ولكنّها لم تكن قادرة على قتل عواطفها. أمّا أنا فمسافر إلى مكان بعيد ولن أعود إلى هذه الديار لأنّي لا أريد أن أكون حجر عثرة في سبيل سعادتكما. وفي الختام أرجوك يا أخي أن تبقى مخلصًا لسوسان وأن تحافظ عليها حتّى النهاية لأنّها قد ضحّت بكلّ شيء من أجلك. فهي تستحق كلّ ما يستطيع الرجل أن يقدمه للمرأة. ابقَ يا نجيب كما عهدتك شريف القلب كبير النفس والله يحفظك لأخيك.

فارس الرحال

ولما انتهى الخوري أسطفان من قراءة الرسالة طواها وأعادها إلى جيبه وجلس بقرب النافذة ينظر إلى الوادي البعيد وعلى وجهه المتجعد أمارات التفكير العميق.

ولكن لم تمر دقيقة حتّى انتصب فجأة على قدميه كأنّه وجد بين ثنايا أفكاره سرًّا دقيقًا هائلًا محجوبًا بالظواهر ملتفًّا بالسطحيات. فهتف صارخًا: ما أكثر دهاءك يا فارس الرحال، فقد عرفت كيف تقتل ابن مالك وتبقى بريئًا من دمه. قد بعثت إليه بالسم ممزوجًا بالعسل. قد بعثت إليه بالسيف ملتفًّا بالحرير. قد بعثت إليه بالموت طي الرسالة. فعندما صوّب بندقيته إلى صدره كانت يدك قابضة على يده وإرادتك محيطة بإرادته... أواه ما أكثر دهاءك يا فارس الرحال!

وعاد الخوري أسطفان فجلس على المقعد هازًّا رأسه ممشطًا لحيته بأصابعه مبتسمًا ابتسامات ذات معانٍ أشدّ هولًا من المأساة، وبعد هنيهة تناول كتابًا من خزانة قريبة وأخذ يتلو بعض موشحات القديس افرام السرياني وهو يرفع عينيه بين الآونة والأخرى ليسمع صراخ النساء آتيًا من قلب القرية.

ما وراء الرداء

عندما انتصف الليل فتحت راحيل عينيها وحدّقت هنيهة إلى سقف الغرفة ثمّ أغمضتهما وتنهّدت تنهدة عميقة متقطّعة، وبصوت يكاد يكون لهاثًا قالت:

ها قد بلغ الصباح أطراف الوادي، فلنذهب إلى لقائه.

فاقترب إذ ذاك الكاهن من مضجعها وجسّ يدها فوجدها باردة كالثلج، ثمّ وضع أصابعه بلطف فوق قلبها فألفاه ساكنًا كالدهور، فحنى رأسه وارتعشت شفتاه كأنّه يريد أن يلفظ كلمة علويّة تردّدها أشباح الليل في تلك الأودية القاصية الخالية. ثمّ صلّب ذراعيها فوق صدرها والتفت نحو الرجل الجالس في قرنة مظلمة من تلك الغرفة وقال بصوت ملؤه الشفقة والانعطاف: قد ذهبت زوجتك إلى لقاء ربّها. فقم يا أخي واركع بجانبي لنصلّي.

فرفع الرجل رأسه وقد تغيّرت ملامحه وكبرت عيناه كأنّه رأى في فضاء الغرفة ظلّ إله غير معروف. ثمّ وقف بهدوء وتقدّم من مضجع زوجته وركع بجانب الكاهن مصلّيًا، منتحبًا، راسمًا بين الآونة والأخرى إشارة الصليب على وجهه وصدره.

وانتصب الكاهن واضعًا يده على كتف الرجل قائلًا:

قم يا أخـي! تعالَ إلـى الغرفة الثانية. فأنت بحاجة إلـى النوم والراحة. فلم يبدِ الرجل معارضة، بل وقف وسار إلى الغرفة المحاذية ورمى بنفسه على سرير ضيق ممدّدًا جسده شأن من ينهكه الهمّ والسهر والانتظار.

ولم تمر بضع دقائق حتّى غلب النوم أجفانه فرقد كطفل بين ذراعي أمّه.

***

أمّا الكاهن فظلّ منتصبًا كالتمثال في وسط تلك الغرفة ينظر بعينين غارقتين بالدموع نحو جثة الصبية الباردة ويلتفت كلّ دقيقة نحو زوجها النائم في الغرفة المحاذية.

ومـرّت ساعة أطول من الدهر وأشـدّ هـولًا من الموت والكاهن واقـف بين رجل وامـرأة راقدين – رجل راقـد رقـود حقل يحلم بمجيء الربيع، وامرأة راقدة مع الأزمنة الغابرة تحلم أحلام الأبديّة.

حينئذ اقترب الكاهن من مضجع الصبية وجثا أمامها كما يجثو أمام المذبح، ثمّ أخذ يدها الباردة ووضعها على شفتيه المرتجفتين ونظر إلى وجهها المتشح بنقاب الموت، وبصوت هادئ كالليل عميق كالبحر مرتعش كآمال البشر قال:

يا راحيل، يا راحيل، يا أخت روحي، اسمعيني يا راحيل فأنا أستطيع الآن الكلام. قد فتح الموت شفتيّ لأبـوح لك بسرّ أعمق من الموت، وأطلق الألم لساني لأكشف لك أمرًا أشدّ من الألم. اسمعي صراخ روحي أيّتها الروح المرفرفة بين الأرض واللانهاية. اسمعي الشاب الذي كان يراك راجعة من الحقل فيتنحّى محتجبًا بين الأشجار خائفًا من جمال وجهك. اسمعي الكاهن الذي يخدم الله فهو يناديكِ الآن بلا وجل لأنّك بلغتِ مدينة الله.

همس هذه الألفاظ ثمّ انحنى فوقها وقبّل جبهتها وقبّل عينيها وقبّل عنقها – قبلات طويلة حارّة، خرساء، علويّة تبين ما في نفسه من أسرار الحبّ والألم.

ثمّ تراجع فجأة إلى الوراء وارتمى على الأرض مرتعشًا كأوراق الخريف كأن ملامسة وجه المرأة المثلجة قد أيقظت في داخله عاطفة الندم، ثمّ انتصب جاثيًا ساترًا وجهه بيديه قائلًا في سرّه:

اغفر ذنبي يا رب! سامح ضعفي يا إلهي! فأنا لم أتجلّد حتّى النهاية. فالسرّ الذي أخفته الحياة في قلبي سبعة أعوام قد أباحه الموت بدقيقة واحدة. اغفر لي يا ربّ. سامح ضعفي يا إلهي...

وظلّ على هذه الحالة ينتحب ويتوجّع ويميل برأسه ذات اليمين وذات اليسار ولا ينظر إلى جثّة الصبية خائفًا على نفسه من خفايا نفسه حتّى جاء الصباح وألقى وشاحه الوردي على تلك الرسوم الهيوليّة التي تمثّل الحبّ والدين والحياة والموت.

البنفسجة الطموح

كان في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا، طيبة العرف، تعيش قانعة بين أترابها وتتمايل فرحة بين قامات الأعشاب.

ففي صباح، وقد تكلّلت بقطر الندى، رفعت رأسها ونظرت حواليها فرأت وردة تتطاول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخًا كأنّه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرّد.

ففتحت البنفسجة ثغرها الأزرق وقالت متنهّدة: ما أقلّ حظّي بين الرياحين، وما أوضع مقامي بين الأزهار! فقد ابتدعتني الطبيعة صغيرة، حقيرة، أعيش ملتصقة بأديم الأرض ولا أستطيع أن أرفع قامتي نحو ازرقاق السماء أو أُحوّل وجهي نحو الشمس مثلما تفعل الورود.

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزّت ضاحكة ثمّ قالت: ما أغباك بين الأزهار! فأنت في نعمة تجهلين قيمتها. فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف والجمال ما لم تهبه لكثير من الرياحين. فخلّي عنك هذه الميول العوجاء والأماني الشرّيرة وكوني قنوعًا بما قسم لك واعلمي أن من خفض جناحه رفع قدره، وان من طلب المزيد وقع في النقصان.

فأجابت البنفسجة قائلة: أنت تعزينني أيّتها الوردة لأَنّك حاصلة على ما أتمنّاه، وتغمرين حقارتي بالحكم، لأنّك عظيمة. وما أمرّ مواعظ السعداء في قلوب التاعسين وما أقسى القوي إذا وقف خطيبًا بين الضعفاء!

***

وسمعت الطبيعة ما دار بين الوردة والبنفسجة فاهتزّت مستغربة ثمّ رفعت صوتها قائلة:

ماذا جرى لك يا ابنتي البنفسجة؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك عذبة بصغرك شريفة بمسكنتك، فهل استهوتك المطامع القبيحة أم سلبت عقلك العظمة الفارغة؟

فأجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف:

أيتها الأم العظيمة بجبروتها، الهائلة بحنانها، أضرع إليك بكلّ ما في قلبي من التوسّل، وما في روحي من الرجاء، أن تجيبي طلبي وتجعليني وردة ولو يومًا واحدًا.

فقالت الطبيعة: أنت لا تدرين ما تطلبين ولا تعلمين ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفيّة، فإذا رفعت قامتك وبدلت صورتك وجعلتك وردة تندمين حين لا ينفع الندم.

فقالت البنفسجة: حوّلي كياني البنفسجي إلى وردة مديدة القامة مرفوعة الرأس... ومهما يحلّ بي بعد ذلك يكن صنع رغائبي ومطامعي.

فقالت الطبيعة: لقد أجبت طلبك أيّتها البنفسجة الجاهلة المتمرّدة، ولكن إذا دهمتك المصائب والمصاعب فلتكن شكواك من نفسك.

ومدّت الطبيعة أصابعها الخفيّة السحريّة ولمست عروق البنفسجة فتحوّلت بلحظة إلى وردة زاهية متعالية فوق الأزهار والرياحين.

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبّد الفضاء بغيوم سوداء مبطنة بالإعصار ثمّ هاجت سواكن الوجود فأبرقت ورعدت وأخذت تحارب تلك الحدائق والبساتين بجيش عرمرم من الأمطار والأهوية، فكسرت الأغصان ولوت الأنصاب واقتلعت الأزهار المتشامخة ولم تبقِ إلّا على الرياحين الصغيرة التي تلتصق بالأرض أو تختبئ بين الصخور.

أمّا تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العناصر ما لم تقاسه حديقة أخرى.

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيوم حتّى أصبحت أزهارها هباء منثورًا ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة البنفسج المختبئة بجدار الحديقة.

ورفعت إحدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حلّ بأزهار الحديقة وأشجارها فابتسمت فرحًا ثمّ نادت رفيقاتها قائلة: ألا فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشامخة تيهًا وعُجبًا.

وقالت بنفسجة أخرى: نحن نلتصق بالتراب، ولكنّنا نسلم من غضب العواصف والأنواء.

وقالت بنفسجة ثالثة: نحن حقيرات الأجسام غير أن الزوابع لا تستطيع التغلّب علينا.

ونظرت إذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة التي كانت بالأمس بنفسجة وقد اقتلعتها العاصفة وبعثرت أوراقها الرياح وألقتها على الاعشاب المبلّلة فبانت كقتيل أرداهُ العدو بسهم.

فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومدَّت أوراقها ونادت رفيقاتها قائلة: تأمّلن وانظرن يا بناتي. انظرن إلى البنفسجة التي غرّتها المطامع فتحوّلت إلى وردة لتتشامخ ساعة ثمّ هبطت إلى الحضيض. ليكن هذا المشهد أمثولة لكنّ.

عندئذ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة وبصوت متقطّع قالت:

ألا فاسمعن أيّتها الجاهلات القانعات، الخائفات من العواصف والأعاصير. لقد كنت بالأمس مثلكنّ أجلس بين أوراقي الخضراء مكتفية بما قسم لي، وقد كان الاكتفاء حاجزًا منيعًا يفصلني عن زوابع الحياة وأهويتها ويجعل كياني محدودًا بما فيه من السلامة، متناهيًا بما يساوره من الراحة والطمأنينة. ولقد كان بإمكاني أن أعيش نظيركنّ ملتصقة بالتراب حتّى يغمرني الشتاء بثلوجه وأذهب كمن ذهب قبلي إلى سكينة الموت والعدم قبل أن أعرف من أسرار الوجود ومخبآته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وجد البنفسج على سطح الأرض. لقد كان بإمكاني الانصراف عن المطامع والزهد في الأمور التي تعلو بطبيعتها عن طبيعتي. ولكني أصغيت في سكينة الليل فسمعت العالم الأعلى يقول لهذا العالم: «إنّما القصد من الوجود الطموح إلى ما وراء الوجود». فتمرّدت نفسي على نفسي وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني، وما زلت أتمرّد على ذاتي وأتشوّق إلى ما ليس لي حتّى انقلب تمرّدي إلى قوّة فعالة واستحال شوقي إلى إرادة مبدعة فطلبت إلى الطبيعة – وما الطبيعة سوى مظاهر خارجيّة لأحلامنا الخفيّة – أن تحولني إلى وردة ففعلت، وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها بأصابع الميل والتشويق.

وسكتت الوردة هنيهة ثمّ زادت بلهجة مفعمة بالفخر والتفوّق:

لقد عشت ساعة كملكة. لقد نظرت إلى الكون من وراء عيون الورود، وسمعت همس الأثير بآذان الورود، ولمست ثنايا النور بأوراق الورود. فهل بينكن من تستطيع أن تدعي شرفي؟

ثمّ لوت عنقها، وبصوت يكاد يكون لهاثًا قالت:

أنا أموت الآن. أموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من قبلي. أموت وأنا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه، وهذا هو القصد من الحياة. هذا هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الأيام والليالي.

وأطبقت الوردة أوراقها وارتعشت قليلًا ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامة علوية – ابتسامة من حقّقت الحياة أمانيه – ابتسامة النصر والتغلب – ابتسامة الله.

الشاعر

أنا غريب في هذا العالم.

أنا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة غير أنّها تجعلني أفكّر أبدًا بوطن سحري لا أعرفه، وتملأ أحلامي بأشباح أرض قصية ما رأتها عيني.

أنا غريب عن أهلي وخلّاني، فإذا ما لقيت واحدًا منهم أقول في ذاتي: من هذا، وكيف عرفته، وأي ناموس يجمعني به، ولماذا أقترب منه وأجالسه؟

أنا غريب عن نفسي، فإذا ما سمعت لساني متكلمًا تستغرب أذني صوتي، وقد أرى ذاتي الخفية ضاحكة، باكية، مستبسلة، خائفة، فيعجب كياني بكياني، وتستفسر روحي روحي، ولكنني أبقى مجهولًا مستترًا، مكتنفًا بالضباب، محجوبًا بالسكوت.

أنا غريب عن جسدي، وكلما وقفت أمام المرآة أرى في وجهي ما لا تشعر به نفسي، وأجد في عيني ما لا تُكنّه أعماقي.

أسير في شوارع المدينة فيتبعني الفتيان صارخين: هوذا الأعمى فلنعطه عكازة يتوكّأ عليها. فأهرب منهم مسرعًا. ثمّ ألتقي سربًا من الصبايا فيتشبثن بأذيالي قائلات: هو أطرش كالصخر فلنملأ أذنيه بأنغام

الصبابة والغزل. فأتركهن راكضًا. ثمّ ألتقي جماعة من الكهول فيقفون حولي قائلين: هو أخرس كالقبر فتعالوا نقوّم اعوجاج لسانه. فأُغادرهم خائفًا. ثمّ ألتقي رهطًا من الشيوخ فيومئون نحوي بأصابع مرتعشة قائلين: هو مجنون أضاع صوابه في مسارح الجن والغيلان.

***

أنا غريب في هذا العالم.

أنا غريب وقد جبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد مسقط رأسي ولا لقيت من يسمع بي.

أستيقظ في الصباح فأجدني مسجونًا في كهف مظلم تتدلى الأفاعي من سقفه وتدب الحشرات في جنباته، ثمّ أخرج إلى النور فيتبعني خيال جسدي، أمّا خيالات نفسي فتسير أمامي إلى حيث لا أدري، باحثة عن أمور لا أفهمها، قابضة على أشياء لا حاجة لي بها، وعندما يجيء المساء أعود وأضطجع على فراشي المصنوع من ريش النعام وشوك القتاد فتراودني أفكار غريبة وتتناوبني ميول مزعجة مفرحة موجعة لذيذة، وعندما ينتصف الليل تدخل عليّ من شقوق الكهف أشباح الأزمنة الغابرة وأرواح الأمم المنسية فأُحدق إليها وتحدق إليّ، وأخاطبها مستفهما فتجيبني مبتسمة ثمّ أُحاول القبض عليها فتتوارى مضمحلة كالدخان.

***

أنا غريب في هذا العالم.

أنا غريب وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسي.

أسير في البرية الخالية فأرى السواقي تتصاعد متراكضة من أعماق الوادي إلى قمة الجبل، وأرى الأشجار العارية تكتسي وتزهر وتثمر

وتنثر أوراقها في دقيقة واحدة، ثمّ تهبط أغصانها إلى الحضيض وتتحوّل إلى حيّات رقطاء مرتعشة. وأرى الأطيار تنتقل متصاعدة، هابطة، مغردة، مولولة، ثم تقف وتفتح أجنحتها وتنقلب نساء عاريات، محلولات الشعر، ممدودات الأعناق، ينظرن إليّ من وراء أجفان مكحولة بالعشق ويبتسمن لي بشفاه ورديّة مغموسة بالعسل ويمددن نحوي أيديًا بيضاء ناعمة معطّرة بالمرّ واللبان، ثمّ ينتفضن ويختفين عن ناظري ويضمحللن كالضباب تاركات في الفضاء صدى ضحكهن مني واستهزائهن بي.

أنا غريب في هذا العالم.

أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة وأنثر ما تنظمه، ولهذا أنا غريب وسأبقى غريبًا حتّى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني.

الكلام وطوائف المتكلمين

لقد مللت الكلام والمتكلمين.

لقد تعبت روحي من الكلام والمتكلمين.

لقد ضاعت فكرتي بين الكلام والمتكلمين.

أستيقظ في الصباح فأرى الكلام جالسًا بجانب مضجعي على صفحات الرسائل والجرائد والمجلات. وهو ينظر إليّ بعيون ملؤها الدهاء والخبث والرياء.

أغادر فراشي وأجلس إلى جانب النافذة لأزيح نقاب النوم عن بصيرتي بفنجان من القهوة فيتبعني الكلام وينتصب أمامي راقصًا صارخًا معربدًا ثمّ يمد يده مع يدي إلى فنجان القهوة ويرتشف منه بارتشافي. وإذا تناولت لفافة يتناولها معي. وإذا رميت بها رماها معي أيضًا.

وأقوم للعمل فيلحق بي الكلام موسوسًا في أذني مهمهمًا حول رأسي، مقرقعًا في خلايا دماغي. فأحاول طرده فيضحك مقهقهًا ثمّ يعود إلى الوسوسة والهمهمة والقرقعة.

أخرج إلى الشارع فأرى الكلام واقفًا في باب كلّ حانوت، منبسطًا على جدران كلّ منزل. أراه في أوجه الناس وهم صامتون. وفي حركاتهم وسكناتهم وهم لا يدرون.

إن جالست صديقي يكون الكلام ثالثنا. وإن التقيت عدوّي ينتفخ الكلام إذ ذاك ويتمدد ثمّ يتجزأ متحوّلًا إلى جيش عرمرم أوّله مشارق الأرض وآخره مغاربها فإذا غادرته هاربًا ظلّ صدى كلامه يتمايل مختبطًا في باطني اختباط الطعام لا تهضمه المعدة.

أذهب إلى المحاكم والمعاهد والمدارس فأرى الكلام وأبا الكلام وأخاه وهم يلبسون الكذب رداء والاحتيال عمامة وحذاء.

ثمّ أسير إلى المعمل وإلى المكتب وإلى الإدارة فأجد الكلام واقفًا بين أمّه وعمتّه وجدتّه وهو يقلب لسانه بين شفتيه الغليظتين وهن يبتسمن له ويضحكن مني.

وإذا بقي لي شيء من العزم والتجلّد وزرت المعابد والهياكل رأيت هناك الكلام جالسًا على عرشه وهو متوّج الرأس وفي يده صولجان دقيق الصنع لطيف الجوانب ناعمها.

وعندما أعود في المساء إلى غرفتي أجد الكلام الذي سمعته سحابة نهاري متدلّيًا كالأفاعي من سقفها، منسلًّا كالعقارب في قرانيها.

الكلام في الفضاء وما وراءه، وعلى الأرض وتحتها.

الكلام على أجنحة الأثير وفي أمواج البحر وفي الغابات والكهوف وفوق قمم الجبال.

الكلام في كلّ مكان. فإلى أين يذهب من يريد الهدوء والسكينة؟ أيوجد في هذا العالم طائفة من الخرسان لأنتمي إليها؟

هل يرحمني الله ويمنحني موهبة الطرش فأحيا سعيدًا في جنة السكون الأبدي؟

أليس على وجه البسيطة قرنة خالية من شقشقة اللسان وبلبلة الألسن حيث الكلام لا يباع ولا يشرى، ولا يعطى ولا يؤخذ؟

ليت شعري! أبينَ سكّان الأرض من لا يعدّ نفسه متكلّمًا؟ هل يوجد بين طغمات الخلق من لم يكن فمه مغارة للصوص الألفاظ؟

ولو كان المتكلمون نوعًا واحدًا لرضينا وتجلّدنا، ولكنّهم أنواع وأشكال لا عداد لها.

فهناك طائفة «المستضفعين» الذين يعيشون في المستنقعات النهار بطوله وعندما يجيء المساء يقتربون من الشواطئ رافعين رؤوسهم فوق سطح الماء مفعمين صدر الليل بضجيج قبيح تأباه المسامع والأرواح.

وهناك طائفة «المستبعضين» والبعوض من مولدات المستنقعات أيضًا، وهم الذين يرفرفون حول أُذنك بنغمة تافهة رفيعة شيطانيّة، سداها النكاية ولحمتها البغضاء.

وهناك طائفة «المستطحنين» وهي طائفة غريبة، في داخل كلّ فرد من أفرادها حجر يدار بالكحول فيولد جعجعة جهنّميّة أخفها أثقل ممّا تحدثه حجارة الرحى.

وهناك طائفة «المستبقرين» وهم الذين يملأون أجوافهم حشيشًا ثمّ يقفون على منعطفات الشوارع والأزقّة مبطنين الهواء بخوار ألطفه أغلظ من خوار الجاموس.

وهناك طائفة «المستبومين» وهم الذين يصرفون الساعات بين مقابر الحياة وأجداثها محوّلين سكينة الدّجى إلى عويل أفرحه أحزن من نعيب البوم.

وهناك طائفة «المستنشرين» وهم الذين لا يرون من الحياة إلّا أخشابها فيصرفون الأيّام بتجزئتها وتفصيلها، محدثين بذلك خشخشة أعذبها أضنك ممّا تحدثه المناشير.

وهناك طائفة «المستطبلين» وهم الذين يقرعون نفوسهم بمطارق ضخمة فيخرج من أفواههم الفارغة قرقعة ألطفها أغلظ من قرقعة الطبول.

وهناك طائفة «المستعلكين» وهم الذين لا شغل لهم ولا عمل فيجلسون حيثما يجدون مقعدًا ويمضغون الكلام ولكنّهم لا يلفظونه.

وهناك طائفة «المستهزئين» وهم الذين يستغيبون الناس ويستغيبون بعضهم بعضًا ويستغيبون نفوسهم على غير معرفة من نفوسهم ولكنّهم يدعون الاستغابة باسم المجون. والمجون ضرب من الجد ولكنهم لا يعلمون.

وهناك طائفة «الأنوال» التي تحوك الهواء بالهواء ولكنّها تظلّ هي دون قمصان ولا سراويل.

وهناك طائفة «الزرازير» التي قال عنها الشاعر: لما حام حائمها توهمت أنّها صارت شواهينا.

وهناك طائفة «الأجراس» وهي التي تدعو الناس إلى الهياكل ولكنّها لا تدخلها.

وهناك طوائف وعشائر لا تُعَدّ ولا تحصى ولا توصف أغربها في عقيدتي طائفة نائمة ولكنها تملأ الفضاء غطيطًا إلّا أنّها لا تدري.

والآن وقد أبنت بعض «قرفي» واشمئزازي من الكلام والمتكلمين، أراني كالطبيب المعتل أو كمجرم يقف واعظًا بين المجرمين. فقد هجوت الكلام ولكن بالكلام وتطيرت من المتكلمين وأنا واحد من المتكلّمين. فهل يغفر الله ذنبي قبيل أن يرحمني وينقلني إلى غابة الفكر والعاطفة والحق حيث لا كلام ولا متكلّمين؟

البدائع وَالطرائف

1923

القشور واللباب

ما شربت كأسًا علقميّة إلّا كانت ثمالتها عسلًا.

وما صعدت عقبة حرجة إلّا بلغت سهلًا أخضر.

وما أضعت صديقًا في ضباب السماء إلّا وجدته في جلاء الفجر.

وكم مرّة سترت ألمي وحرقتي برداء التجلّد متوهّمًا أنّ في ذلك الأجر والصلاح، ولكنّني لمّا خلعت الرداء رأيت الألم قد تحوّل إلى بهجة والحرقة قد انقلبت بردًا وسلامًا.

وكم سرت ورفيقي في عالم الظهور فقلت في نفسي ما أحمقه وما أبلده، غير أنّني لم أبلغ عالم السرّ حتّى وجدتني الجائر الظالم وألفيته الحكيم الظريف.

وكم سكرت بخمرة الذات فحسبتني وجليسي حملًا وذئبًا، حتّى إذا ما صحوت من نشوتي رأيتني بشرًا ورأيته بشرًا.

أنا وأنتم أيّها الناس مأخوذون بما بانَ من حالنا، متعامون عمّا خفي من حقيقتنا. فإن عثر أحدنا قلنا هو الساقط، وإن تماهل قلنا هو الخائر التلف، وإن تلعثم قلنا هو الأخرس، وإن تأوّه قلنا تلك حشرجة النزع فهو مائت.

أنا وأنتم مشغوفون بقشور «أنا» وسطحيّات «أنتم» لذلك لا نبصر ما أسرّه الروح إلى «أنا» وما أخفاه الروح في «أنتم».

وماذا عسى نفعل ونحن بما يساورنا من الغرور غافلون عمّا فينا من الحقّ؟

أقول لكم، وربّما كان قولي قناعًا يغشّي وجه حقيقتي، أقول لكم ولنفسي إنّ ما نراه بأعيننا ليس بأكثر من غمامة تحجب عنّا ما يجب أن نشاهده ببصائرنا. وما نسمعه بآذاننا ليس إلّا طنطنة تشوّش ما يجب أن نستوعبه بقلوبنا. فإن رأينا شرطيًّا يقود رجلًا إلى السجن علينا ألّا نجزم في أيّهما المجرم. وإن رأينا رجلًا مضرّجًا بدمه وآخر مخضوب اليدَين فمن الحصافة ألّا نحتم في أيّهما القاتل وأيّهما القتيل. وإن سمعنا رجلًا ينشد وآخر يندب فلنصبر ريثما نتثبت أيّهما الطروب.

لا يا أخي لا تستدلّ على حقيقة امرئ بما بانَ منه، ولا تتّخذ قول امرئ أو عملًا من أعماله عنوانًا لطويته. فربّ من تستجهله لثقل في لسانه وركاكة في لهجته كان وجدانه منهجًا للفطن وقلبه مهبطًا للوحي. وربّ من تحتقره لدمامة في وجهه وخساسة في عيشه كان في الأرض هبة من هبات السماء وفي الناس نفحة من نفحات الله.

قد تزور قصْرًا وكوخًا في يوم واحد، فتخرج من الأوّل متهيّبًا ومن الثاني مشفقًا، ولكن لو استطعت تمزيق ما تحوكه حواسك من الظواهر لتقلّص تهيّبك وهبط إلى مستوى الأسف، وانبدلت شفقتك وتصاعدت إلى مرتبة الإجلال.

وقد تلتقي بين صباحك ومسائك رجلين فيخاطبك الأوّل وفي صوته أهازيج العاصفة وفي حركاته هول الجيش أمّا الثاني فيحدّثك متخوّفًا وجلًا بصوت مرتعش وكلمات متقطّعة، فتعزو العزم والشجاعة إلى الأوّل، والوهن والجبن إلى الثاني، غير أنّك لو رأيتهما وقد دعتهما

الأيّام إلى لقاء المصاعب، أو إلى الاستشهاد في سبيل مبدأ، لعلمت أنّ الوقاحة المبهرجة ليست ببسالة والخجل الصامت ليس بجبانة.

وقد تنظر من نافذة منزلك فترى بين عابري الطريق راهبة تسير يمينًا وموسًا تسير شمالًا؛ فتقول على الفور: ما أنبل هذه وما أقبح تلك! ولكنّك لو أغمضت عينيك وأصغيت هنيهة لسمعت صوتًا هامسًا في الأثير قائلًا: هذه تنشدني بالصلاة وتلك ترجوني بالألم، وفي روح كلّ منهما مظلّة لروحي.

وقد تطوف في الأرض باحثًا عمّا تدعوه حضارة وارتقاء، فتدخل مدينة شاهقة القصور فخمة المعاهد رحبة الشوارع، والقوم فيها يتسارعون إلى هنا وهناك فذا يخترق الأرض، وذاك يحلّق في الفضاء؛ وذلك يمتشق البرق، وغيره يستجوب الهواء، وكلّهم بملابس حسنة الهندام، بديعة الطراز، كأنّهم في عيد أو مهرجان.

وبعد أيّام يبلغ بك المسير إلى مدينة أخرى حقيرة المنازل ضيّقة الأزقّة إذا أمطرتها السماء تحوّلت إلى جزر من المدر في بحر من الأوحال. وإن شخصت بها الشمس انقلبت غيمة من الغبار. أمّا سكانها فما برحوا بين الفطرة والبساطة كوتر مسترخٍ بين طرفي القوس. يسيرون متباطئين ويعملون متماهلين وينظرون إليك كأنّ وراء عيونهم عيونًا تحدّق إلى شيء بعيد عنك، فترحل عن بلدهم ماقتًا مشمئزًّا قائلًا في سرّك: إنّما الفرق بين ما شهدته في تلك المدينة وما رأيته في هذه لَهُو كالفرق بين الحياة والاحتضار. فهناك القوّة بمدّها وهنا الضعف بجزره. هناك الجدّ ربيع وصيف وهنا الخمول خريف وشتاء. هناك اللجاجة شباب يرقص في بستان وهنا الوهن شيخوخة مستلقية على الرماد.

ولكن لو استطعت النظر بنور الله إلى المدينتين لرأيتهما شجرتين متجانستين في حديقة واحدة. وقد يمتدّ بك التبصّر في حقيقتهما فترى

أنّ ما توهّمته رقيًّا في إحداهما لم يكن سوى فقاقيع لمّاعة زائلة. وما حسبته خمولًا في الأخرى كان جوهرًا خفيًّا ثابتًا.

لا ليست الحياة بسطوحها بل بخفاياها، ولا المرئيات بقشورها بل بلبابها، ولا الناس بوجوههم بل بقلوبهم.

لا ولا الدين بما تظهره المعابد وتبينه الطقوس والتقاليد، بل بما يختبئ في النفوس ويتجوهر بالنيّات.

لا ولا الفنّ بما تسمعه بأذنيك من نبرات وخفضات أغنية، أو من رنّات أجراس الكلام في قصيدة، أو بما تبصره بعينيك من خطوط وألوان صورة. بل الفنّ بتلك المسافات الصامتة المرتعشة التي تجيء بين النبرات والخفضات في الأغنية. وبما يتسرّب إليك بواسطة القصيدة ممّا بقي ساكتًا هادئًا مستوحشًا في روح الشاعر، وبما توحيه إليك الصورة فترى وأنت محدّق إليها ما هو أبعد وأجمل منها.

لا يا أخي، ليست الأيّام والليالي بظواهرها، وأنا، أنا السائر في موكب الأيّام والليالي، لست بهذا الكلام الذي أطرحه عليك إلّا بقدر ما يحمله إليك الكلام من طويتي الساكنة. إذن لا تحسبني جاهلًا قبل أن تفحص ذاتي الخفيّة، ولا تتوهّمني عبقريًّا قبل أن تجرّدني من ذاتي المقتبسة. لا تقل هو بخيل قابض الكفّ قبل أن ترى قلبي، أو هو الكريم الجوّاد قبل أن تعرف الواعز إلى كرمي وجودي. لا تدعني محبًّا حتّى يتجلّى لك حبّي بكلّ ما فيه من النور والنار، ولا تعدني خليًّا حتّى تلمس جراحي الدامية.

نفسي مثقلة بأثمارها

نفسي مثقلة بأثمارها فهل من جائع يجني ويأكل ويشبع؟

أليس بين الناس من صائم رؤوف يفطر على نتاجي ويريحني من أعباء خصبي وغزارتي؟

نفسي رازحة تحت عبء من التبر واللجين فهل بين الناس من يملأ جيوبه ويخفّف عنّي حملي؟

نفسي طافحة من خمرة الدهور فهل من ظامئ يسكب ويشرب ويرتوي؟

هوذا رجل واقف على قارعة الطريق يبسط نحو العابرين يدًا مفعمة بالجواهر ويناديهم قائلًا: ألا فارحموني وخذوا منّي. اشفقوا عليّ وخذوا ما معي. أمّا الناس فيسيرون ولا يلتفتون.

ألا ليته كان شحّاذًا متسوّلًا يمدّ يدًا مرتعشة نحو العابرين ويرجعها فارغة مرتعشة. ليته كان مُقعدًا أعمى يمرّ به الناس ولا يحفلون.

هوذا مثرٍ جوّاد نصب خيامه بين مجاهل البيداء ولحف الجبل، يوقد نار القِرى كلّ ليلة ويبعث عبيده ليرصدوا السبل لعلّهم يقودون إليه ضيفًا يقريه ويكرمه، ولكن السبل بخيلة لا تجود على هباته بمرتزق، ولا تبعث إلى هباته بطالب.

ألا ليته كان صعلوكًا منبوذًا!

ليته كان عيّارًا متشرّدًا يطوف البلاد وفي يده عكّاز وفي كوعه دلو، فإذا ما جاء المساء جمعته ملتويات الأزقّة بزملائه العيّارين المتشرّدين فيجلس بقربهم ويقاسمهم خبز الصدقة!

هوذا ابنةُ الملك الأكبر قد استيقظت من رقادها وهبّت من مضجعها وقامت فتردّت بأُرجوانها وبرفيرها وتزيّنت بلؤلؤها وياقوتها ونثرت المسك على شعرها وغمست بذوب العنبر أصابعها ثمّ خرجت إلى حديقتها ومشت وقطرات الندى تبلّل أطراف ثوبها.

في سكون الليل سارت ابنة الملك الأكبر في جنّتها تبحث عن حبيبها. ولكن لم يكن في مملكة أبيها من يحبّها.

ألا ليتها كانت ابنة زرّاع ترعى أغنام أبيها في الأودية وتعود مساء إلى كوخ أبيها وعلى قدميها غبار المنعكفات وبين طيّات ثوبها رائحة الكروم. حتّى إذا ما جنّ الليل ونام سكّان الحيّ اختلست خطواتها إلى حيث يترقّبها حبيبها.

ليتها كانت راهبة في الدير تحرق قلبها بخّورًا فينشر الهواء عطر قلبها. وتوقد روحها شمعًا فيحمل الأثير نور روحها. وتركع مصلّية فتحمل أشباح الخفاء صلواتها إلى خزائن الزمن حيث تصان صلوات المتعبّدين بجانب حرقة المحبّين وهواجس المستوحدين!

ليتها كانت عجوزًا مسنّة تجلس مستدفئة في أشعّة الشمس بمن تقاسموا صباها، فذاك خير من أن تكون ابنة الملك الأكبر وليس في مملكة أبيها من يأكل قلبها خبزًا ويشرب دمها خمرًا!

***

نفسي مثقلة بأثمارها فهل في الأرض جائع يجني ويأكل ويشبع؟

نفسي طافحة بخمرها فهل من ظامئ يسكب ويشرب ويرتوي؟

ألا ليتني كنت شجرة لا تزهر، ولا تثمر، فألَمُ الخصب أمرّ من ألمِ العقم، وأوجاع ميسور لا يؤخذ منه أشدّ هولًا من قنوط فقير لا يُرزق.

ليتني كنت بئرًا جافّة والناس ترمي بي الحجارة فذلك أهوَن من أن أكون ينبوع ماء حيّ والظامئون يجتازونني ولا يستقون.

ليتني كنت قصبة مرضوضة تدوسها الأقدام فذاك خير من أن أكون قيثارة فضّية الأوتار في منزلٍ ربّه مبتور الأصابع وأهله طرشان!

حفنة من رمال الشاطئ

كآبة الحبّ تترنّم. وكآبة المعرفة تتكلّم. وكآبة الرغائب تهمس. وكآبة الفقر تندب. ولكن هناك كآبة أعمق من الحبّ، وأنبل من المعرفة، وأقوى من الرغائب، وأمرّ من الفقر، غير أنّها خرساء لا صوت لها أمّا عيناها فمشعشعتان كالنجوم.

عندما تشكو مصابًا لجارك تهبه جزءًا من قلبك. فإن كان كبير النفس شكرك. وإن كان صغيرها احتقرك.

ليس التقدّم بتحسين ما كان بل بالسير نحو ما سيكون.

المسكنة نقاب يخفي ملامح الكبرياء. والدعوى قناع يغشي وجه البلاء.

عندما يجوع المتوحّش يقطف ثمرة من شجرة ويأكلها وعندما يجوع المتمدّن يشتري ثمرة ممّن اشتراها ممّن اشتراها ممّن قطفها من الشجرة.

الفنّ خطوة من المعروف الظاهر نحو المجهول الخفيّ.

بعض الناس يستحثّونني على الأمانة إليهم ليتمتّعوا بلذّةِ السماح عنّي.

ما أدركت طوية امرئ إلّا حسبني مديونًا له.

تتنفّس الأرض فنولد ثمّ تستريح أنفاسها فنموت.

عين الإنسان مجهر تبيّن له الدنيا أكبر ممّا هي حقيقة.

أنا بريء من قوم يحسبون القحّة شجاعة واللين جبانة.

وأنا بريء ممّن يتوهّم الثرثرة معرفة والصمت جهالة والتصنّع فنًّا.

قد يكون في استصعابنا الأمر أسهل السبل إليه.

يقولون لي: إذا رأيت عبدًا نائمًا فلا تنبّهه لعلّه يحلم بحرّيته.

وأقول لهم: إذا رأيت عبدًا نائمًا نَبِّهْته وحدّثته عن الحريّة.

المعاكسة أدنى مراتب الذكاء.

الجميل يأسرنا أمّا الأجمل فيعتقنا حتّى ومن ذاته.

الحماسة بركان لا تنبت على قمّته أعشاب التردّد.

يظلّ النهر جادًّا نحو البحر، انكسر دولاب المطحنة أم لم ينكسر.

صنعَ الأديبُ من الفكر والعاطفة ثمّ وهب الكلام. أمّا الباحث فقد صنع من الكلام ثمّ أعطي قليلًا من الفكر والعاطفة.

تأكل مسرعًا وتمشي متباطئًا، فهلّا أكلت برجلك ومشيت على كفّيك!

ما تعاظم فرحك أو حزنك إلّا صغرت الدنيا في عينيك.

العلم يستنبت بذورك ولا يلقي بك بذرًا.

ما أبغضت إلّا كان البغض سلاحًا أُدافع به عن نفسي، ولكن لو لم أكن ضعيفًا لما اتّخذت هذا النوع من السلاح.

لو علم جَدٌّ جَدٍّ يسوع ما كان مختبئًا في شخصه لوقف خاشعًا متهيّبًا أمام نفسه. الحبّ سعادة ترتعش.

يحسبونني حادّ النظر ثاقبه لأنّني أراهم من خلال شبكة الغربال.

لم أشعر بألم الوحشة حتّى مدح الناس عيوبي الثرثارة وطعنوا في حسناتي الخرساء.

بين الناس قتلة لم يسفكوا دمًا قطّ، ولصوص لم يسرقوا شيئًا البتة، وكَذبة لم يقولوا إلّا الصحيح.

الحقيقة التي تحتاج إلى برهان هي نصف حقيقة.

ألا فابعدوني عن الحكمة التي لا تبكي وعن الفلسفة التي لا تضحك وعن العظمة التي لا تحني رأسها أمام الأطفال.

أيّها الكون العاقل، المحجوب بظواهر الكائنات، الموجود بالكائنات وفي الكائنات وللكائنات، أنت تسمعني لأنّك حاضري ذاتي. وإنّك تراني لأنّك بصيرة كلّ شيء حيّ. القِ في روحي بذرة من بذور حكمتك لتنبت نصبة في غابتك وتعطي ثمرًا من أثمارك. آمين.

سفينة في ضباب

هذا حديث رجل جمعنا في منزله المنفرد القائم على كتف وادي قاديشا في ليلة مغمورة بالثلوج مرتعشة بالأهوية.

قال محدّثنا وهو ينبش رماد الموقد بطرف قضيب كان بيده:

تريدون، يا رفاقي، أن أُعلن لكم سرَّ كآبتي.

تريدون أن أُحدّثكم عن المأساة التي تعيد الذكرى تمثيلها في صدري كلّ يوم وكلّ ليلة.

لقد مللتم سكوتي وتكتّمي. وضجرتم من تنهّدي وتململي. وقال بعضكم لبعض: إذا كان لا يدخلنا هذا الرجل إلى هيكل أوجاعه فكيف نستطيع الدخول إلى بيت مودّته؟

أنتم مصيبون يا رفاقي. فمن لا يساهمنا الألم فلن يشركنا في شيء آخر.

فاسمعوا إذن حكايتي. اسمعوا ولا تكونوا مشفقين، فالشفقة تجوز على الضعفاء وأنا لم أزل قويًّا بكآبتي.

منذ فجر شبابي وأنا أرى في أحلام يقظتي وأحلام نومي طيف امرأة غريبة الشكل والمزايا. كنت أراها في ليالي الوحدة واقفة قرب مضجعي. وكنت أسمع صوتها في السكينة. وكنت في بعض الأحيان

أُغمض عينيّ وأشعر بملامس أصابعها على جبهتي فأفتح عينيّ وأهبّ مذعورًا مصغيًا بكلّ ما بي من المسامع إلى همس اللاشيء.

وكنت أقول لذاتي: هل تطوّح بي خيالي حتّى ضعت في الضباب؟ هل صنعت من أبخرة أحلامي امرأة جميلة الوجه عذبة الصوت ليّنة الملامس لتأخذ مكان امرأة من الهيولي؟ هل خولطت بعقلي فاتخذت من ظلال عقلي رفيقة أُحبّها وأستأنس بها وأركن إليها وأبتعد عن الناس لأقترب منها وأُغلق عيني ومسامعي عن كلّ ما في الحياة من الصوَر والأصوات لأرى صورتها وأسمع صوتها؟ أمجنون أنا يا ترى؟ أمجنون لم يكتفِ بالانصراف إلى العزلة بل ابتدع له من أشباح العزلة رفيقة وقرينة؟

قلت «قرينة» وأنتم تستغربون هذه اللفظة، ولكن هناك بعض الاختبارات التي نستغربها بل وننكرها لأنّها تظهر لنا بمظاهر المستحيل ولكن استغرابنا ونكراننا لا يمحوان حقيقتها في نفوسنا. لقد كانت تلك المرأة الخياليّة قرينة لي، تساهمني وتبادلني كلّ ما في الحياة من الميول والمنازل والأفراح والرغائب، فلم أستيقظ صباحًا إلّا رأيتها متّكئة على مساند سريري وهي تنظر إليّ بعينين يملأهما طهر الطفولة وعطف الأمومة. ولم أُحاول عملًا إلّا ساعدتني على تحقيقه. ولم أجلس إلى مائدة إلّا جلست قبالتي تحدّثني وتبادلني الآراء والأفكار. وما جاء مساء إلّا اقتربت منّي قائلة: قم بنا نسر بين التلول والمنحدرات، كفانا الإقامة في هذا المنزل. فأترك إذ ذاك عملي وأسير قابضًا على أصابعها، حتّى إذا ما بلغنا البرية المتّشحة بنقاب المساء، المغمورة بسحر السكون، نجلس جنبًا إلى جنب على صخرة عالية محدّقَين إلى الشفق البعيد. فكانت تارة تومئ إلى الغيوم المذهّبة بأشّعة الغروب وطورًا تسترعي سمعي إلى تغريد الطائر يبعث صوته تسبيحة شكر وطمأنينة قبيل أن يلتجئ إلى الأغصان للمبيت.

وكم مرّة دخلت عليّ وأنا أشتغل في غرفتي قلقًا مضطربًا فلا تلمحها عيني حتّى يتحوّل قلقي إلى الهدوء واضطرابي إلى الائتلاف والاستئناس.

وكم لقيت الناس وفي روحي جيش يزحف متمرّدًا على ما أكرهه في نفوسهم، ولكنّني ما تبيّنت وجهها بين وجوههم إلّا انقلبت الزوبعة في باطني إلى أنغام علويّة.

وكم جلست منفردًا وفي قلبي سيف من ألم الحياة ومتاعبها وحول عنقي سلاسل من مشاكل الوجود ومعضلاته، ثمّ ألتفت فأراها واقفة أمامي محدقة إليّ بعينين تفيضان نورًا وبهاء فتنقشع غيومي ويتهلّل قلبي وتبدو الحياة لبصيرتي جنّة أفراح ومسرّات.

وأنتم تسألون، يا رفاقي، ما إذا كنت مقتنعًا بهذه الحالة الشاذّة الغريبة – تسألون ما إذا كان المرء وهو في عنفوان شبابه يستطيع الاكتفاء بما تدعونه وهمًا وخيالًا وحلمًا بل وعلّة نفسيّة؟

أقول لكم إنّ الأعوام التي صرفتها في تلك الحالة لهي زبدة ما عرفته في الحياة من الجمال والسعادة واللذّة والطمأنينة. أقول لكم إنّني كنت ورفيقتي الأثيريّة فكرة مطلقة مجرّدة تطوف في نور الشمس وتطفو على وجه البحار وتسعى في الليالي المقمرة وتتهلّل بأغانٍ ما سمعتها أُذن وتقف أمام مشاهد ما رأتها عين. إنّ الحياة، كلّ الحياة، هي في ما نختبره بأرواحنا. والوجود، كلّ الوجود، هو في ما نعرفه ونتحقّقه فنبتهج به أو نتوجّع لأجله. وأنا قد اختبرتُ أمرًا بروحي، اختبرته كلّ يوم وكلّ ليلة حتّى بلغت الثلاثين من عمري.

ليتني لم أبلغ الثلاثين. ليتني متّ ألف مرّة ومرّة قبل أن أبلغ تلك السنة التي سلبتني لباب حياتي واستنزفت دماء قلبي وأوقفتني أمام الأيّام والليالي شجرة يابسة عارية مستوحدة فلا ترقص أغصانها لأغاني الهواء ولا تحوك الأطيار أعشاشها بين أوراقها وأزهارها.

وسكت محدّثنا دقيقة وقد ألوى رأسه وأغمض عينيه وأرخى زنديه إلى جانب مقعده فبان كأنّه اليأس مجسّمًا. أمّا نحن فبقينا صامتين مترقّبين استماع تتمّة حديثه. ثمّ فتح أجفانه وبصوت متقطّع خارج من أعماق كيان مكلوم قال:

تذكرون، يا رفاقي، أنّه منذ عشرين سنة بعثني حاكم هذا الجبل بمهمّة علميّة إلى مدينة البندقيّة، وأصحبني برسالة إلى محافظ تلك المدينة الذي كان قد عرفه في القسطنطينيّة.

تركت لبنان وأبحرت على سفينة إيطاليّة وقد كان ذلك في شهر نيسان وروح الربيع ترتعش بين ثنايا الهواء وتنثني مع أمواج البحر وتتمثّل بصور جميلة متقلّبة في الغيوم البيضاء المتلبّدة فوق الآفاق. كيف أصف لكم تلك الأيّام وتلك الليالي التي صرفتها على ظهر السفينة؟ إنّ قوّة الكلام المتعارف بين البشر لا تتجاوز ما تحويه مدارك البشر وما يشعرون به. وفي الروح ما هو أبعد من الإدراك وأدقّ من الشعور فكيف أرسمها لكم بالكلام؟

لقد كانت تلك السنون التي صرفتها مع رفيقتي الأثيريّة ممنطقة بالأنس والألفة مغمورة بالسكينة والرضى فلم يدُر في خلدي أنّ الألم رابض لي وراء حجب سعادتي وأنّ المرارة ثمالة راكدة في أعماق كأسي. لا لم أخشَ قطّ ذبول زهرة نبتت فوق الغيوم واضمحلال أنشودة ترنّمت بها عرائس الفجر. ولمّا تركت هذه التلول والأودية كانت رفيقتي جالسة بقربي في المركبة التي حملتني إلى الساحل. وفي الثلاثة الأيّام التي قضيتها في بيروت قُبيل سفري كانت قرينتي تذهب حيثما أذهب وتقف عندما أقف، فلم أجتمع بصديق إلّا رأيتها تبتسم له، ولم أزر معهدًا إلّا شعرت بيدها قابضة على يدي، ولم أجلس مساء في شرفة النزل مصغيًا إلى أصوات المدينة إلّا شاركتني في التأمّل وساهمتني الفكر.

ولكن لمّا فصلني الزورق عن ميناء بيروت، في الدقيقة التي وطئت فيها ظهر السفينة، شعرت بتغيّر في فضاء روحي، شعرت بيد خفيّة قويّة تتمسّك بساعدي وسمعتُ صوتًا عميقًا يهمس في أُذني قائلًا: ارجع، ارجع من حيث أتيت. انزل إلى الزورق وعد إلى شواطئ بلادك قبل أن تبحر السفينة.

وأبحرت السفينة وأنا على ظهرها أشبه شيء بعصفور بين مخالب باشق يسبح محلّقًا في الخلاء. ولمّا جاء المساء وقد انحجبت قمم لبنان وراء ضباب البحر رأيتني واقفًا وحدي على مقدّمة السفينة وفتاة أحلامي المرأة التي أحبّها قلبي، المرأة التي رافقت شبابي، لم تكن معي. الصبيّة العذبة التي كنت أرى وجهها كلّما حدقت إلى الفضاء وأسمع صوتها كلّما أصغيت إلى السكينة وألمس يدها كلّما مددت يدي إلى الأمام، لم تكن على ظهر تلك السفينة. ولأوّل مرّة، لأوّل مرّة، وجدتني واقفًا وحدي أمام الليل والبحر والفضاء.

وبقيت على هذه الحالة أنتقل من مكان إلى مكان مناديًا رفيقتي في قلبي ناظرًا إلى الأمواج المتقلّبة لعلّي أرى وجهها في بياض الزبد.

وعندما انتصف الليل وقد التجأ ركّاب السفينة إلى مراقدهم وبقيت أنا وحدي هائمًا ضائعًا مضطربًا، التفتّ بغتة فرأيتها واقفة في الضباب على بعد بضع خطوات فانتفضت مرتعشًا ومددتُ يدي إليها هاتفًا: لمَ تركتني؟... لِمَ تركتني في وحدتي؟ إلى أين ذهبت؟ أَين كنتِ يا رفيقتي؟ اقتربي، اقتربي منّي ولا تتركيني بعد الآن.

فلم تدنُ منّي، بل ظلّت جامدة في مكانها ثمّ بدت على وجهها سيماء توجّع ولهفة ما رأيت أهول منهما في حياتي، وبصوت خافت ضئيل قالت: جئت من أعماق اللجّة لأراك لمحة واحدة. وها أنا راجعة إلى أعماق اللجّة. أدخل مخدعك وارقد واحلم.

قالت هذه الكلمات وامتزجت بالضباب واضمحلّت. فطفقتُ أناديها بلجاجة الطفل الجائع وأبسط ذراعي إلى كلّ ناحية فلا أقبض إلّا على الهواء المثقل بندى الليل.

دخلت مخدعي وفي روحي عناصر تتقلّب وتتصارع وتهبط وتتصاعد، فكنتُ في جوف تلك السفينة سفينة أخرى في بحر من اليأس والالتباس. وللغرابة أنّني لم ألقِ رأسي على وسائد مضجعي حتّى أحسست بثقل في أجفاني وبتخدّر في جسدي فنمت نومًا عميقًا حتّى الصباح. ولقد رأيت في نومي حلمًا. رأيت رفيقتي مصلوبة على شجرة تفّاح مزهرة وقطرات الدماء تسيل من كفّيها وقدميها على غصني الشجرة وعمدها ثمّ تنسكب على الأعشاب وتمتزج بأزهار الشجرة المنثورة.

وظلّت السفينة تسعى الأيّام والليالي بين اللجتين وأنا على ظهرها لا أدري ما إذا كنت بشرًا مسافرًا إلى بلد بعيد بمهمّة بشريّة أم شبحًا تائهًا في فضاء خال إلّا من الضباب، فلم أشعر بقرب رفيقتي ولم ألمح وجهها في اليقظة أو في المنام، وباطلًا كنتُ أنادي مصلّيًا مبتهلًا للقوى الخفيّة لتُسمعني مقطعًا من مقاطع صوتها أو لتُريني ظِلًّا من ظلالها أو تجعلني أشعر بملامس أصابعها على جبهتي.

ومرّ أربعة عشر يومًا وأنا في هذه الحالة. وعند ظهيرة اليوم الخامس عشر ظهرت عن بعد شواطئ إيطاليا، وفي مساء ذلك النهار دخلت السفينة ميناء البندقيّة وجاء قوم بزوارق مطليّة بألوان ورسوم بَهِجة لينقلوا الركّاب وأمتعتهم إلى المدينة.

أنتم تعلمون، يا رفاقي، أنّ مدينة البندقية قائمة على عشرات من الجزر الصغيرة المتقاربة، فشوارعها ترع ومنازلها وقصورها مبنيّة في الماء، والزوارق هناك تقوم مقام المركبات.

فلمّا نزلت من السفينة إلى الزورق سألني النوتي قائلًا:

إلى أين يريد سيّدي أن يذهب؟

فلمّا ذكرت اسم محافظ المدينة نظر إليّ باهتمام واحترام وأخذ يضرب الماء بمقذافه.

سار بي الزورق وكان قد جاء الليل وألقى رداءه على المدينة فظهرت الأنوار في نوافذ القصور والمعابد والمعاهد، فانعكست أشعّتها في الماء متلألئة مرتعشة فبانت البندقية كحلم شاعر يفتنه الغريب من المشاهد والوهميّ من الأماكن. ولم يبلغ بي الزورق إلى منعطف أوّل ترعة حتّى سمعت رنين أجراس لا عداد لها تملأ الفضاء بأنّات محزنة متقطّعة هائلة مخيفة. ومع أنّني كنت في غيبوبة نفسيّة تفصلني عن كلّ المظاهر الخارجيّة فقد كانت تلك الطنّات النحاسيّة تخترق لوح صدري كالمسامير.

ووقف الزورق بجانب سلّم حجري تتصاعد درجاته من الماء إلى الرصيف، فالتفت البحريّ إليّ وأشار بيده نحو قصر قائم في وسط حديقة وقال: هذا هو المكان. فصعدت من الزورق وسرتُ مبطئًا نحو المنزل والبحري يتبعني حاملًا حقيبتي على كتفه، حتّى إذا ما بلغتُ باب المنزل ناولته أجرته وصرفته، ثمّ طرقت الباب ففُتح لي وإذا أنا أمام رهط من الخدم مطأطئي الرؤوس وهم يبكون وينوحون ويتأوّهون بأصوات منخفضة، فاستغربت هذا المشهد واحترت بأمري.

وبعد هنيهة تقدّم منّي خادم كهل ونظر إليّ من وراء أجفان مقروحة وسألني متنهّدًا: ماذا يريد سيّدي؟ فقلت: أليس هذا منزل محافظ المدينة؟ فحنى رأسه إيجابًا.

فأخرجت، إذ ذاك، الرسالة التي أصحبني بها حاكم لبنان وناولته إيّاها فنظر في عنوانها صامتًا ثمّ راح متماهلًا نحو باب في مؤخّر ذلك الدهليز.

جرى كلّ ذلك وأنا بدون فكر ولا إرادة. ثمّ دنوت من خادمة صبيّة وسألتها عن سبب حزنهم ونواحهم فأجابت متوجّعة: عجبًا، ألم تسمع أنّ ابنة المحافظ قد ماتت اليوم؟

ولم تزد على هذه الكلمات بل غمرت وجهها بكفّها واستسلمت إلى البكاء.

تأمّلوا، يا رفاقي، حالة رجل قطع البحار وهو كفكرة سديمية ملتبسة أضاعها جبّار من جبابرة الفضاء بين الأمواج المزبدة والضباب الرمادي. صوّروا لنفوسكم حالة فتى سار أسبوعين بين عويل اليأس وصراخ اللجة، ولمّا بلغ نهاية الطريق وجد نفسه واقفًا في باب منزل تتمشّى في جنباته أشباح التفجّع وتملأ قرانيه أنّات اللّوعة. صوروا لنفوسكم، يا رفاقي، رجلًا غريبًا يطلب الضيافة في قصر تخيّم عليه أجنحة الموت.

وعاد الخادم الذي حمل الرسالة إلى سيّده وانحنى قائلًا: تفضّل يا سيّدي فالمحافظ ينتظرك.

قال هذا ومشى أمامي فاتبعته حتّى إذا ما بلغنا بابًا في نهاية الممشى أومأ إليّ أن أدخل، فدخلت قاعة واسعة عالية السقف منارة بالشموع وقد جلس فيها بعض الوجهاء والكهّان وكلّهم في سكوت عميق. فلم أكد أخطو بضع خطوات حتّى قام من صدر القاعة شيخ ذو لحية بيضاء وقد حنت ظهره الأشجان وتلَمت وجهه الأوجاع وتقدّم نحوي وأخذ بيدي قائلًا: يعزّ عليّ أن تأتي من بلاد بعيدة وتجدنا مصابين بأحبّ من لدينا. ولكنّي أرجو أن لا يكون مصابنا حائلًا دون إتمام الغرض الذي جئتنا من أجله، فكنّ مطمئن البال يا ولدي.

فشكرت له عطفه مظهرًا أسفي لمصابه ببعض الألفاظ المشوّشة.

وقادني الشيخ إلى كرسيّ بجانب مقعده فجلست صامتًا مع الجلّاس الصامتين أنظر خلسة إلى وجوههم الكئيبة وأسمع تأوّههم

فتتولّد في صدري كتلات من الضيم واللهفة. وبعد ساعة انصرف القوم الواحد تلو الآخر ولم يبقَ سواي مع الوالد الحزين في تلك القاعة الخرساء، فوقفت إذ ذاك وتقدّمت إليه قائلًا: اسمح لي يا سيّدي بالانصراف. فقال ممانعًا: لا يا صديقي. لا تذهب. كن ضيفنا إن كان بإمكانك احتمال النظر إلى كآبتنا واستماع أنّة لوعتنا. فأخجلني كلامه وحنيتُ رأسي امتثالًا. ثمّ عاد وقال: أنتم اللبنانيّين أبرّ النّاس بالضيف فهلّا بقيت عندنا لنريك ولو قليلًا ممّا يلقاه الغريب في بلادكم!

وبعد هنيهة قرع الشيخ المنكوب جرسًا فضيًّا فدخل علينا حاجب بملابس مزركشة مقصّبة فقال له الشيخ مشيرًا إليّ: سر بضيفنا إلى الغرفة الشرقيّة وانظر بشأن مأكله ومشربه وتولّ بنفسك شؤونه وكن ساهرًا على راحته.

فقادني الحاجب إلى غرفة رحبة بديعة الهندسة فخمة الرياش تغشي جدرانها الرسوم والمنسوجات الحريريّة، في وسطها سرير نفيس مغطّى باللحف والمساند المطرّزة.

تركني الحاجب فارتميت على مقعد أُفكّر بنفسي ومحيطي وبغربتي ووحدتي ومآتي أوّل ساعة صرفتها في بلاد قصيّة عن بلادي.

وعاد الحاجب يحمل طبقًا عليه الطعام والشراب ووضعه أمامي فأكلت قليلًا ولكن بدون رغبة ثمّ صرفت الحاجب.

ومرّت ساعتان وأنا أتمشّى تارة في تلك الغرفة وطورًا أقف في جوانب إحدى نوافذها محدّقًا إلى الفضاء مصغيًا إلى أصوات البحّارة وخفق مقاذيفهم في الماء حتّى إذا ما نهكني السهر وتضعضعت فكرتي بين مظاهر الحياة وخفاياها ارتميت على السرير مستسلمًا إلى غيبوبة تتآلف فيها سكرة الهجوع وصحو اليقظة ويتقلّب فيها التذكار والنسيان مثلما يتناوب الشواطئ مدّ البحر وجزره، فكنت كساحة

حرب صامتة تتناضل فيها فيالق صامتة ويجندل الموت فرسانها فيقضون صامتين.

لا، لا أدري، يا رفاقي، كم ساعة صرفت وأنا في هذه الحالة. إنّ في الحياة فسحات تجتازها أرواحنا ولكنّنا لا نستطيع أن نقيسها بالمقاييس الزمنيّة التي ابتدعتها فكرة الإنسان.

لا، لا أعرف كم ساعة بقيت في هذه الحالة. كلّ ما عرفته إذ ذاك وكلّ ما أعرفه الآن هو أنّني بينما كنت في تلك الحالة الملتبسة شعرت بكيان حيّ واقف بقرب سريري، شعرت بقوّة ترتعش في فضاء الغرفة، شعرت بذات أثيريّة تناديني ولكن بدون صوت وتستفزّني ولكن بدون إشارة، فنهضت على قدميّ وخرجت من الغرفة إلى الدهليز مدفوعًا مأمورًا مجذوبًا بعامل قاهر ضابط كلّي. سرت ولكن بغير إرادتي، سرت كمن يسير وهو نائم، سرت في عالم مجرّد عمّا نحسبه زمنًا ومسافة، حتّى إذا ما بلغت نهاية الدهليز دخلت قاعة كبرى في وسطها نعش تنيره كوكبتان من الشموع وتحيط به الأزهار. فتقدّمت وركعت بجانبه ونظرت، نظرت فرأيت وجه رفيقتي، رأيت وجه رفيقة أحلامي وراء نقاب الموت. رأيت المرأة التي أحببتها حبًّا فوق الحبّ. رأيتها جثّة هامدة بيضاء بأثواب بيضاء بين أزهار بيضاء تخيّم عليها سكينة الدهور ورهبة الأزل.

يا إلهي، يا إله الحبّ والحياة والموت، أنت الذي كوّنت أرواحنا ثمّ سيّرتها في هذه الأنوار وهذه الظلمات. أنت الذي فطرت قلوبنا ثمّ جعلتها تنبض بالأمل والألم. أنت، أنت الذي أريتني رفيقتي جسدًا باردًا. أنت الذي قدتني من أرض إلى أرض لتظهر لي مراد الموت بالحياة ومشيئة الوجع بالفرح. أنت الذي أنبتّ في صحراء وحدتي وانفرادي زنبقة بيضاء ثمّ سيّرتني إلى واد بعيد لتبيّنها لي زنبقة ذابلة ذاوية فانية!

نعم، يا رفاقي، يا رفاق وحشتي واغترابي، إن الله قد شاء فسقاني الكأس العلقميّة. لتكن مشيئة الله. نحن البشر، نحن الذرّات المرتعشة في خلاء لا حدّ له ولا مدى، نحن لا نستطيع سوى الخضوع والامتثال. فإن أحببنا فحبّنا ليس منّا وليس لنا. وإن سررنا فسرورنا ليس فينا بل في الحياة نفسها. وإن تألّمنا فالألم ليس بكلومنا بل بأحشاء الطبيعة بأسرها.

لم أقصّ عليكم حكايتي شاكيًا. إنّ من يشكو يشكّ في الحياة وأنا من المؤمنين أؤمن بصلاحيّة هذه المرارة التي تمازج كلّ رشفة أرتشفها من كؤوس الليالي. أؤمن بجمال هذه المسامير التي تخترق صدري. أؤمن برأفة هذه الأصابع الحديديّة التي تمزّق غشاء قلبي.

هذه حكايتي فكيف أصل إلى نهايتها وهي بدون نهاية؟ لقد بقيت راكعًا أمام نعش الصبيّة التي أحببتها في أحلامي محدّقًا إلى وجهها حتّى وضع الفجر يده على بلّور النوافذ، فقمت إذ ذاك وعدت إلى غرفتي متوكّئًا على أوجاع الإنسانيّة منحنيًا تحت أعباء الأبديّة.

وبعد ثلاثة أسابيع تركت البندقيّة ورجعت إلى لبنان رجوع من صرف ألف جيل في أعماق الدهر، رجوع كلّ لبنانيّ من غربة إلى غربة.

سامحوني، يا رفاقي، فقد أطلت حديثي. سامحوني!

المراحل السبع

شجيَتْ نفسي سبع مرّات: المرّة الأولى لمّا حاولت الحصول على الرفعة عن طريق الضعة. والمرّة الثانية لمّا عرجت أمام المقعدين. والمرّة الثالثة لما خيِّرَت بين الصعب والهيّن فاختارت الهيّن. والمرّة الرابعة لمّا أخطأت فتعزّت بخطأ غيرها. والمرّة الخامسة لما تجلّدت عن ضعف وعزت جلَدها إلى القوّة. والمرة السادسة لما لمّت أذيالها عن أوحال الحياة. والمرّة السابعة لمّا وقفت مرتّلة أمام الله وحسبت الترتيل فضيلة فيها.

وعظتني نفسي

وعظتني نفسي فعلّمتني حبّ ما يمقته الناس ومصافاة من يضاغنونه وأبانت لي أنّ الحبّ ليس بميزة في المحبّ بل في المحبوب. وقبل أن تعظني نفسي كان الحبّ بي خيطًا دقيقًا مشدودًا بين وتدين متقاربين، أمّا الآن فقد تحوّل إلى هالة أوّلها آخرها وآخرها أوّلها تحيط بكلّ كائن وتتوسّع ببطء لتضمّ كلّ ما سيكون.

***

وعظتني نفسي فعلّمتني أن أرى الجمال المحجوب بالشكل واللّون والبشرة، وأن أحدّق متبصّرًا بما يعدّه الناس شناعة حتّى يبدو لي حسنًا. وقبل أن تعظني نفسي كنت أرى الجمال شعلات مرتعشة بين أعمدة من الدخان واضمحلّ، فلم أعد أرى سوى ما يشتعل.

***

وعظتني نفسي فعلّمتني الإصغاء إلى الأصوات التي لا تولدها الألسنة ولا تضجّ بها الحناجر. وقبل أن تعظني نفسي كنت كليل المسامع مريضها، لا أعي سوى الجلبة والصياح، أمّا الآن فقد صرت أتوجس

بالسكينة فأسمع أجواقها منشدة أغاني الدهور، مرتّلة تسابيح الفضاء، معلنة أسرار الغيب.

***

وعظتني نفسي فعلّمتني أن أشرب ممّا لا يُعصر ولا يُسكب بكؤوس لا تُرفع بالأيدي ولا تُلمس بالشفاه. وقبل أن تعظني نفسي كان عطشي شرارة ضئيلة في رابية من رماد أُخمدها بعبّةٍ من الغدير أو برشفة من جرن المعصرة. أمّا الآن فقد صار شوقي كأسي، وغلّتي شرابي، ووحدتي نشوتي. وأنا لا ولن أرتوي. ولكن في هذه الحرقة التي لا تنطفئ مسرّة لا تزول.

***

وعظتني نفسي فعلّمتني لمس ما لم يتجسّد ولم يتبلور، وأفهمتني أنّ المحسوس نصف المعقول. وأنّ ما نقبض عليه بعض ما نرغب فيه. وقبل أن تعظني نفسي كنت أكتفي بالحارّ إن كنت باردًا. والبارد إن كنت حارًّا. وبأحدهما إن كنت فاترًا. أمّا الآن فقد انتثرت ملامسي المنكمشة وانقلبت ضبابًا دقيقًا يخترق كلّ ما ظهر من الوجود ليمتزج بما خفي منه.

***

وعظتني نفسي فعلّمتني استنشاق ما لا تبثه الرياحين ولا تنشره المجامر. وقبل أن تعظني نفسي كنت إن اشتهيت عطرًا طلبته من البساتين أو من القوارير أو المباخر. أمّا الآن فقد صرتُ أشمّ ما لا يحترق ولا يهرق. وأملأ صدري من أنفاس زكيّة لم تمرّ بجنّة من جنّات هذا العالم ولم تحملها نسمة من نسمات هذا الفضاء.

***

وعظتني نفسي فعلّمتني أن أقول «لبّيك» عندما يناديني المجهول والخطر. وقبل أن تعظني نفسي كنت لا أنهض إلّا لصوت مناد عرفته. ولا أسير إلّا على سبل خبرتها فاستهونتها. أمّا الآن فقد أصبح المعلوم مطيّة أركبها نحو المجهول، والسهل سلّمًا أتسلّق درجاته لأبلغ الخطر.

***

وعظتني نفسي فعلّمتني ألّا أقيس الزمن بقولي: كان بالأمس وسيكون غدًا. وقبل أن تعظني نفسي كنت أتوهّم الماضي عهدًا لا يُردّ والآتي عصرًا لن أصل إليه. أمّا الآن فقد عرفت أنّ في الهنيهة الحاضرة كلّ الزمن بكلّ ما في الزمن ممّا يُرجى ويُنجز ويتحقّق.

***

وعظتني نفسي فعلّمتني ألّا أحدّ المكان بقولي: هنا وهناك وهنالك. وقبل أن تعظني نفسي كنت إذا ما صرت في موضع في الأرض ظننتني بعيدًا عن كلّ موضع آخر. أمّا الآن فقد علمت أنّ مكانًا أحلّ فيه هو كلّ مكان، وأنّ فسحة أشغلها هي كلّ المسافات.

***

وعظتني نفسي فعلّمتني أن أسهر وسكّان الحيّ راقدون، وأن أنام وهم منتبهون. وقبل أن تعظني نفسي كنت لا أرى أحلامهم في هجعتي ولا يرصدون أحلامي في غفلتهم. أمّا الآن فلا أسبح مرفرفًا في منامي إلّا وهم يرقبونني ولا يطيرون في أحلامهم إلّا وفرحت بانعتاقهم.

***

وعظتني نفسي فعلّمتني أن لا أطرب لمديح ولا أجزع لمذمّة. وقبل أن تعظني نفسي كنت أظلّ مرتابًا في قيمة أعمالي وقدرها حتّى تبعث إليها

الأيّام بمن يقرّظها أو يهجوها. أمّا الآن فقد عرفت أنّ الأشجار تزهر في الربيع وتثمر في الصيف ولا مطمع لها بالثناء. وتنثر أوراقها في الخريف وتتعرّى في الشتاء ولا تخشى الملامة.

***

وعظتني نفسي فعلّمتني وأثبتت لي أنّني لست بأرفع من الصعاليك، ولا أدنى من الجبابرة. وقبل أن تعظني نفسي كنت أحسب الناس رجلين: رجلًا ضعيفًا أرقّ له أو أزدري به، ورجلًا قويًّا أتبعه أو أتمرّد عليه. أمّا الآن فقد علمت أنّني كوّنت فردًا ممّا كوّن البشر منه جماعة. فعناصري عناصرهم. وطويتي طويتهم. ومنازعي منازعهم. ومحجّتي محجّتهم. فإن أذنبوا فأنا المذنب. وإن أحسنوا عملًا فاخرت بعملهم. وإن نهضوا نهضت وإيّاهم. وإن تقاعدوا تقاعدت معهم.

***

وعظتني نفسي فعلّمتني أنّ السراج الذي أحمله ليس لي، والأغنية التي أُنشدها لم تتكوّن في أحشائي. فأنا وإن سرت بالنور لست بالنور، وأنا وإن كنت عودًا مشدود الأوتار فلستُ بالعوّاد.

***

وعظتني نفسي يا أخي وعلّمتني. ولقد وعظتك نفسك وعلّمتك. فأنت وأنا متشابهان متضارعان. وما الفرق بيننا سوى أنّني أتكلّم عمّا بي وفي كلامي شيء من اللجاجة. وأنت تكتم ما بك وفي تكتّمك شكل من الفضيلة.

لكم لبنانكم ولي لبناني

لكم لبنانكم ولي لبناني.

لكم لبنانكم ومعضلاته، ولي لبناني وجماله.

لكم لبنانكم بكلّ ما فيه من الأغراض والمنازع، ولي لبناني بما فيه من الأحلام والأماني.

لكم لبنانكم فاقنعوا به، ولي لبناني وأنا لا أقنع بغير المجرّد المطلق.

لبنانكم عقدة سياسيّة تحاول حلّها الأيّام، أمّا لبناني فتلول تتعالى بهيبة وجلال نحو ازرقاق السماء.

لبنانكم مشكلة دوليّة تتقاذفها الليالي، أمّا لبناني فأودية هادئة سحريّة تتموّج في جنباتها رنّات الأجراس وأغاني السواقي.

لبنانكم صراع بين رجل جاء من المغرب ورجل جاء من الجنوب، أمّا لبناني فصلاة مجنّحة ترفرف صباحًا عندما يقود الرعاة قطعانهم إلى المروج وتتصاعد مساء عندما يعود الفلّاحون من الحقول والكروم.

لبنانكم حكومة ذات رؤوس لا عداد لها، أمّا لبناني فجبل رهيب وديع جالس بين البحر والسهول جلوس شاعر بين الأبديّة والأبديّة.

لبنانكم حيلة يستخدمها الثعلب عندما يلتقي الضبع والضبع حينما يجتمع بالذئب، أمّا لبناني فتذكارات تعيد على مسمعي أهازيج الفتيات في اللّيالي المقمرة وأغاني الصبايا بين البيادر والمعاصر.

لبنانكم مربّعات شطرنج بين رئيس دين وقائد جيش، أمّا لبناني فمعبد أدخله بالروح عندما أمَلّ النظر إلى وجه هذه المدنية السائرة على الدواليب.

لبنانكم رجلان: رجل يؤدي المكوس ورجل يقبضها، أمّا لبناني فرجل فرد متّكئ على ساعده في ظلال الأرز وهو منصرف عن كلّ شيء سوى الله ونور الشمس.

لبنانكم مرافئ وبريد وتجارة، أمّا لبناني ففكرة بعيدة وعاطفة مشتعلة وكلمة علويّة تهمسها الأرض في أذن الفضاء.

لبنانكم موظّفون وعمّال ومديرون. أمّا لبناني فتأهّب الشباب وعزم الكهولة وحكمة الشيخوخة.

لبنانكم وفود ولجان، أمّا لبناني فمجالس حول المواقد في ليال تغمرها هيبة العواصف ويجلّلها طهر الثلوج.

لبنانكم طوائف وأحزاب، أمّا لبناني فصِبيَة يتسلّقون الصخور ويركضون مع الجداول ويقذفون الأكر في الساحات.

لبنانكم خطب ومحاضرات ومناقشات، أمّا لبناني فتغريد الشحارير، وحفيف أغصان الحور والسنديان، ورجع صدى النايات في المغاور والكهوف.

لبنانكم كذب يحتجب وراء نقاب من الذكاء المستعار، ورياء يختبئ في رداء من التقليد والتصنّع، أمّا لبناني فحقيقة بسيطة عارية إذا نظرت في حوض ماء ما رأت غير وجهها الهادئ وملامحها المنبسطة.

لبنانكم شرائع وبنود على أوراق وعقود وعهود في دفاتر، أمّا لبناني ففطرة في أسرار الحياة وهي لا تعلم أنّها تعلم، وشوق يلامس في اليقظة أذيال الغيب ويظن نفسه في منام.

لبنانكم شيخ قابض على لحيته، قاطب ما بين عينيه ولا يفكر إلّا بذاته، أمّا لبناني ففتى ينتصب كالبرج، ويبتسم كالصباح، ويشعر بسواه شعوره بنفسه.

لبنانكم ينفصل آنًا عن سوريا ويتّصل بها آونة ثمّ يحتال على طرفيه ليكون بين معقود ومحلول، أمّا لبناني فلا يتّصل ولا ينفصل ولا يتفوّق ولا يتصاغر.

لكم لبنانكم ولي لبناني.

لكم لبنانكم وأبناؤه ولي لبناني وأبناؤه.

ومن هم يا ترى أبناء لبنانكم؟

ألا فانظروا هنيهة لأريكم حقيقتهم.

هم الذين ولدت أرواحهم في مستشفيات الغربيّين.

هم الذين استيقظت عقولهم في حضن طامع يمثّل دور أريحي.

هم تلك القضبان الليّنة التي تميل إلى اليمين وإلى اليسار ولكن بدون إرادة، وترتعش في الصباح وفي المساء ولكنّها لا تدري أنّها ترتعش.

هم تلك السفينة التي تصارع الأمواج وهي بدون دفّة ولا شراع، أمّا ربّانها فالتردّد وأمّا ميناؤها فكهف تسكنه الغيلان - أوَليست كلُّ عاصمة في أوروبا كهفًا للغيلان؟

هم الأشدّاء الفصحاء البلغاء ولكن بعضهم لدى بعض، والضعفاء الخرسان أمام الإفرنج.

هم الأحـرار المصلحون المتحمّسون ولكن في صحفهم وفوق منابرهم، والمنقادون الرجعيّون أمام الغربيّين.

هم الذين يضجّون كالضفادع قائلين: لقد تملّصنا من عدوّنا الطاغية القديم، وعدوّهم القديم الطاغية ما برح يختبئ في أجسادهم.

هم الذين يسيرون أمام الجنازة مزمّرين راقصين، حتّى إذا ما التقوا موكب العرس تحوّل تزميرهم إلى نواح ورقصهم إلى قرع الصدور وشقّ الأثواب.

هم الذين لا يعرفون المجاعة إلّا إذا كانت في جيوبهم، فإذا ما التقوا من كانت مجاعته في روحه ضحكوا منه وتحوّلوا عنه قائلين: ما هذا سوى خيال يسير في عالم الأخيلة.

هم أولئك العبيد الذين تبدّل الأيّام قيودهم الصدئة بقيود لامعة فيظنّون أنّهم أصبحوا أحرارًا مطلقين.

هؤلاء هم أبناء لبنانكم، فهل بينهم من يمثّل العزم في صخور لبنان أم النبل في ارتفاعه أم العذوبة في مائه أم العطر في هوائه؟ هل بينهم من يتجرّأ أن يقول: إذا ما متّ تركت وطني أفضل قليلًا ممّا وجدته عندما ولدت؟ هل بينهم من يتجرّأ أن يقول: لقد كانت حياتي قطرة من الدم في عروق لبنان أو دمعة بين أجفانه أو ابتسامة على ثغره؟

هؤلاء هم أبناء لبنانكم، فما أكبرهم في عيونكم وما أصغرهم في عيني!

ولكن قفوا قليلًا وانظروا لأريكم أبناء لبناني:

هم الفلّاحون الذين يحوّلون الوعر إلى حدائق وبساتين.

هم الرعاة الذين يقودون قطعانهم من وادٍ إلى وادٍ فتنمو وتتكاثر وتعطيكم لحومها غذاء وصوفها رداء.

هم الكرّامون الذين يعصرون العنب خمرًا ويعقدون الخمر دبسًا.

هم الآباء الذين يربّون أنصاب التوت والأمّهات اللّواتي يغزلن الحرير.

هم الرجال الذين يحصدون الزرع والزوجات اللّواتي يجمعن الأغمار.

هم البنّاؤون والفخّارون والحائكون وصانعو الأجراس والنواقيس.

هم الشعراء الذين يسكبون أرواحهم في كؤوس جديدة، وهم شعراء الفطرة الذين ينشدون العتابا والمعنّى والزجل.

هم الذين يغادرون لبنان وليس لهم سوى حماسة في قلوبهم وعزم في سواعدهم ويعودون إليه وخيرات الأرض في أكفّهم وأكاليل الغار على رؤوسهم.

هم الذين يتغلّبون على محيطهم أينما حلّوا ويجتذبون القلوب إليهم أينما وجدوا.

وهم الذين يولدون في الأكواخ ويموتون في قصور العلم. هؤلاء هم أبناء لبنان. هؤلاء هم السُّرج التي لا تطفئها الرياح والملح الذي لا تفسده الدهور.

هؤلاء هم السائرون بأقدام ثابتة نحو الحقيقة والجمال والكمال.

وماذا عسى أن يبقى من لبنانكم وأبناء لبنانكم بعد مئة سنة؟ أخبروني – ماذا تتركون للغد سوى الدعوى والتلفيق والبلادة؟ هل تحسبون أنّ الزمن يحفظ في ذاكرته مظاهر الخداع والمداهنة والتدليس؟

أتظنّون أنّ الأثير يخزن في جيوبه أشباح الموت وأنفاس القبور؟ أتتوهّمون أنّ الحياة تستر جسدها العاري بالخرق البالية؟ أقول لكم والحقّ شاهد عليّ إنّ نصبة الزيتون التي يغرسها القرويّ في سفح لبنان لأبقى من جميع أعمالكم ومآتيكم، والمحراث الخشبيّ الذي تجرّه العجول في منعطفات لبنان لأشرف وأنبل من كلّ أمانيكم ومطامحكم. أقول لكم وضمير الوجود صاغٍ إليّ إنّ أغنية جامعة البقول بين هضبات لبنان لأطول عمرًا من كلّ ما يقوله أوجه وأضخم ثرثار بينكم. أقول لكم

إنّكم لستم على شيء. ولو كنتم تعلمون أنّكم لستم على شيء لتحوّل اشمئزازي منكم إلى شكل من العطف والحنان، ولكنّكم لا تعلمون.

لكم لبنانكم ولي لبناني.

لكم لبنانكم وأبناء لبنانكم فاقتنعوا به وبهم إن استطعتم الاقتناع بالفقاقيع الفارغة، أمّا أنا فمقتنع بلبناني وأبنائه، وفي اقتناعي عذوبة وسكينة وطمأنينة.

الأرض

تنبثق الأرض من الأرض كرهًا وقسرا.

ثمّ تسير الأرض فوق الأرض تيهًا وكبرا.

وتقيم الأرض من الأرض القصور والبروج والهياكل.

وتنشئ الأرض في الأرض الأساطير والتعاليم والشرائع.

ثمّ تملّ الأرض أعمال الأرض فتحوك من هالات الأرض الأشباح والأوهام والأحلام.

ثمّ يراود نعاس الأرض أجفان الأرض فتنام نومًا هادئًا عميقًا أبديًّا.

ثمّ تنادي الأرض قائلة للأرض: أنا الرحم وأنا القبر وسأبقى رحمًا وقبرًا حتّى تضمحلّ الكواكب وتتحوّل الشمس إلى رماد.

بالأمس، واليوم، وغدًا

قلت لصديقي – ألا فانظرها متّكئة على ساعده وبالأمس كانت على ساعدي.

فقال – وغدًا على ساعدي.

قلت – تأمّلها جالسة إلى جانبه، وبالأمس كانت إلى جانبي.

فقال – وغدًا إلى جانبي.

قلت – ألا تبصرها تشرب الخمر من كأسه، وبالأمس كانت ترشفها من كأسي.

فقال – وغدًا من كأسي.

قلت – انظر إليها ترمقه بعين ملؤها الحبّ، وبالأمس كانت ترمقني.

فقال – وغدًا ترمقني.

قلت – اسمعها تهمس أغاني الغرام في أُذنه، وبالأمس كانت تهمسها في أذني.

فقال – وغدًا في أذني.

قلت – انظر فهي تعانقه، وقد كانت بالأمس تعانقني.

فقال – وغدًا تعانقني.

قلت – ما أغربها امرأة!

قال – هي كالحياة يمتلكها كلّ البشر. وكالموت تتغلّب على كلّ البشر. وكالأبديّة تضمّ كلّ البشر.

الكمال

تسألني يا أخي متى يصير الإنسان كاملًا.

فاسمع جوابي:

يسير الإنسان نحو الكمال عندما يشعر بأنّه هو الفضاء ولا حدّ له، وهو هو البحر بدون شواطئ، وأنـه النّـار المتأجّجة دائمًا، والنور الساطع أبـدًا، والرياح إذا هبّت أو إذا سكنت، والسحب إذا برقت وأرعـدت وأمطرت، والجداول إذا ترنّمت أو ناحت، والأشجار إذا أزهرت في الربيع أو تجرّدت في الخريف، والجبال إذا تعالت، والأوديـة إذا انخفضت، والحقول إذا أخصبت أو أجدبت.

إذا شعر الإنسان بكلّ هذه الأمور بلغ منتصف طريق الكمال، أمّا إذا شاء بلوغ محجّة الكمال فعليه إن شعر بكيانه، أن يشعر بأنّه الطفل المتّكل على أمّه، والشيخ المسؤول عن عياله، والشاب الضائع بين أمانيه وغرامه، والكهل الذي يصارع ماضيه ومستقبله، والعابد في صومعته، والمجرم في سجنه، والعالم بين كتبه وأوراقه، والجاهل بين ظلمة ليله وظلمة نهاره، والراهبة بين أزهار إيمانها وأشواك وحشتها، والمومس بين أنياب ضعفها ومخالب حاجتها، والفقير بين مرارته وامتثاله، والغنيّ بين مطامعه وإذعانه، والشاعر بين ضباب أمسائه وشعاع أسحاره.

إذا استطاع الإنسان أن يختبر ويعلم جميع هذه الأمور يصل إلى الكمال ويصير ظلًّا من ظلال الله.

الاستقلال والطرابيش

قرأت منذ أمد غير بعيد مقالًا لأديب قام يعترض ويحتجّ فيه على ربّان وموظّفي باخرة فرنسيّة أقلّته من سورية إلى مصر. ذلك لأنّ هؤلاء قد أجبروه، أو حاولوا إجباره على خلع طربوشه أثناء جلوسه إلى مائدة الطعام، وكلّنا يعلم أنّ خلع القبّعات تحت كلّ سقف عادة مرعية عند الغربيّين.

ولقد أعجبني هذا الاحتجاج لأنّه أبان لي تمسّك الشرقيّ برمز من رموز حياته الخاصّة.

أُعجبت بجرأة ذلك السوريّ كما أعجبت مرّة بأمير هنديّ دعوته إلى حضور رواية غنائيّة في مدينة ميلانو في إيطاليا فقال لي: «لو دعوتني إلى زيارة جحيم دانتي لذهبت معك مسرورًا ولكنّي لا أستطيع الجلوس في مكان يحظرون فيه عليّ استبقاء عمامتي وتدخين اللفائف».

أجل يعجبني أن أرى الشرقيّ متمسّكًا ببعض مزاعمه قابضًا ولو على ظلّ من ظلال عاداته القوميّة.

ولكنّ إعجابي هذا لا ولن يمحو ما وراءه من الحقائق الخشنة المستتبّة المتشبّثة بذاتيّة الشرق ومنازع الشرق ومزاعم الشرق.

لو فكّر ذلك الأديب الذي استصعب خلع طربوشه في الباخرة الافرنجية بأنّ ذلك الطربوش الشريف قد صُنع في معمل إفرنجيّ لهان عليه خلعه في أيّ مكان في أيّة باخرة افرنجيّة.

لو فكّر أديبنا بأنّ الاستقلال الشخصيّ في الأمور الصغيرة كان وسيكون رهن الاستقلال الفنّي والاستقلال الصناعيّ، وهما كبيران، لخلع طربوشه ممتثلًا صامتًا.

لو فكّر صاحبنا بأنّ الأمّة المستعبَدة بروحها وعقليّتها لا تستطيع أن تكون حرّة بملابسها وعاداتها.

لو فكّر بذلك لما كتب مقاله معترضًا.

لو فكّر أديبنا بأنّ جدّه السوري كان يبحر إلى مصر على ظهر مركب سوريّ مرتديًا ثوبًا غزلته الأيدي السوريّة وحاكته لما تردى بطلنا الحرّ إلّا بالملابس المصنوعة في بلاده ولما ركب سوى سفينة سوريّة ذات ربّان سوريّ وبحّارة سوريّين.

مصاب أديبنا الشجاع أنّه قد اعترض على النتائج ولم يحفل بالأسباب فتناولته الأعراض قبل أن يستميله الجوهر، وهذا شأن أكثر الشرقيّين الذين يأبون أن يكونوا شرقيّين إلّا بتوافه الأمور وصغائرها مع أنّهم يفاخرون بما اقتبسوه من الغربيّين ممّا ليس بتافه أو صغير.

أقول لأديبنا وأقول لجميع المتطربشين: ألا فاصنعوا طرابيشكم بأيديكم ثمّ تخيّروا في ما تفعلونه بطرابيشكم على ظهر الباخرة أو على قمّة الجبل أو في جوف الوادي.

وتعلم السماء أنّ هذه الكلمة لم تُكتب في الطرابيش أو في شأن خلعها أو استبقائها على الرؤوس تحت السقوف أو تحت المجرّة. تعلم السماء أنّها كتبت في أمر أبعد من كلّ طربوش، فوق كلّ رأس، فوق كلّ جثّة مختلجة.

أيّتها الأرض

ما أجملك أيتها الأرض وما أبهاك.

ما أتمّ امتثالك للنور وأنبل خضوعك للشمس.

ما أظرفك متشحة بالظلّ وما أملح وجهك مقنعًا بالدجى.

ما أعذب أغاني فجرك وما أهول تهاليل مسائك.

ما أكملك أيّتها الأرض وما أسناك.

لقد سرت في سهولك، وصعدت على جبالك، وهبطت إلى أوديتك، وتسلّقت صخورك، ودخلت كهوفك، فعرفت حلمك في السهل، وأنفتك على الجبل، وهدوءك في الوادي، وعزمك في الصخر، وتكتّمك في الكهف، فأنت أنت المنبسطة بقوّتها، المتعالية بتواضعها، المنخفضة بعلوّها، الليّنة بصلابتها، الواضحة بأسرارها ومكنوناتها.

لقد ركبت بحارك، وخضت أنهارك، وتتبّعت جداولك، فسمعت الأبديّة تتكلّم بمدّك وجزرك، والدهور تترنّم بين هضابك وحزونك، والحياة تناجي الحياة في شعبك ومنحدراتك، فأنت أنت لسان الأبديّة وشفاهها، وأوتار الدهور وأصابعها، وفكرة الحياة وبيانها.

لقد أيقظني ربيعك وسيّرني إلى غاباتك حيث تتصاعد أنفاسك بخورًا، وأجلسني صيفك في حقولك حيث يتجوهر إجهادك أثمارًا،

وأوقفني خريفك في كرومك حيث يسيل دمك خمرًا، وقادني شتاؤك إلى مضجعك حيث يتناثر طهرك ثلجًا، فأنت أنت العطرة بربيعها، الجوّادة بصيفها، الفيّاضة بخريفها، النقيّة بشتائها.

وفي الليلة الصافية قد فتحت نوافذ نفسي وأبوابها وخرجت إليك مثقلًا بمطامعي، مكبّلًا بقيود أنانيّتي، فألفيتك شاخصة بالكواكب وهي تبتسم لك، فنزعت عنّي قيودي وأثقالي وعلمت أنّ منزل النفس فضاؤك، ورغائبها في رغائبك، وسلامتها في سلامتك، وسعادتها في الغبار الذهبيّ الذي تنثره النجوم على جسدك.

في الليلة المبطّنة بالغيوم، وقد مللت غفلتي وجمودي، خرجت إليك فوجدتك جبّارة هائلة مسلّحة بالعاصفة، تحاربين ماضيك بحاضرك، وتصرعين قديمك بجديدك، وتبعثرين ضئيلك بضليعك، فعلمت أنّ نظام البشر نظامك، وناموسهم ناموسك، وسنّتهم سنّتك، وأنّ من لا يهصر برياحه ما يبس من أغصانه يموت مللًا، ومن لا يمزّق بثوراته ما بلي من أوراقه يفنى خمولًا، ومن لا يكفن بنسيان ما مات من ماضيه كان هو كفنًا لمآتي الماضي.

***

ما أكرمك أيّتها الأرض وما أطول أناتك.

ما أشدّ حنانك على أبنائك المنصرفين عن حقيقتهم إلى أوهامهم، الضائعين بين ما بلغوا إليه وما قصروا عنه.

نحن نضجّ وأنتِ تضحكين.

نحن نُذْنب وأنت تكفّرين.

نحن نجدّف وأنتِ تباركين.

نحن ننجس وأنتِ تقدّسين.

نحن نهجع ولا نحلم وأنتِ تحلمين في سهرك السرمدي.

نحن نكلم صدرك بالسيوف والرماح وأنتِ تغمرين كلومنا بالزيت والبلسم.

نحن نزرع راحاتك العظام والجماجم وأنتِ تستنبتينها حورًا وصفصافًا.

نحن نستودعك الجيف وأنت تملأين بيادرنا بالأغمار ومعاصرنا بالعناقيد.

نحن نصبغ وجهك بالدم وأنتِ تغسلين وجوهنا بالكوثر.

نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف وأنتِ تتناولين عناصرنا وتكوّنين منها الورود والزنابق.

ما أوسع صبرك أيّتها الأرض وما أكثر انعطافك.

ما أنتِ أيّتها الأرض ومن أنت؟

أذرّة من الغبار تصاعدت من بين قدمي الله عندما سار من مشارق الأكوان إلى مغاربها، أم شرارة قذفت من موقد اللانهاية؟

أنواة طرحت في حقل الأثير لتشقّ قشرتها بعزم لبابها وتتعالى نصبة ربّانيّة إلى ما فوق الأثير؟

أقطرة من الدم في عروق جبّار الجبابرة، أم أنت قطرة من العرق على جبينه؟

أثمرة تلوّحها الشمس ببطء؟ أثمرة أنت في شجرة المعرفة الكليّة التي تمدّ عروقها في أعماق الأزل وترفع غصونها إلى أعماق الأبد؟ أم جوهرة أنت وضعها إله الزمن في حفنة آلهة المسافة؟

أطفلة أنت في حضن الفضاء؟ أم عجوز ترقب الأيّام والليالي وقد شبعت من حكمة الليالي والأيّام؟

ما أنتِ أيّتها الأرض ومن أنتِ؟

أنتِ أنا أيّتها الأرض! أنتِ بصري وبصيرتي، أنتِ عاقلتي وخيالي وأحلامي، أنت جوعي وعطشي، أنتِ ألمي وسروري، أنتِ غفلتي وانتباهي.

أنتِ الجمال في عينيّ، والشوق في قلبي، والخلود في روحي.

أنتِ أنا أيّتها الأرض، فلو لم أكن لما كنتِ.

البحر الأعظم

بالأمس – وما أبعد الأمس وما أقربه! – ذهبت ونفسي إلى البحر الأعظم لنغسل بمائه ما علق بنا من غبار الأرض وأوحالها.

ولمّا بلغنا الشاطئ طفقنا نبحث عن مكان خالٍ يحجبنا عن العيون.

وبينا نحن سائران التفتنا فإذا برجل جالس على صخرة غبراء وفي يده كيس يأخذ منه الملح قبضة بعد قبضة ويطرحها في البحر.

فقالت لي نفسي: «هوذا المتشائم الذي لا يرى من الحياة سوى ظلّها. وليس المتشائم بخليق أن يرى جسدينا العاريَين. فلنغادر هذا المكان إذ لا سبيل إلى الاستحمام ههنا».

فتركنا ذلك المكان وتابعنا المسير حتّى وصلنا إلى خور في الشاطئ فإذا برجل واقف على صخرة بيضاء وفي يده صندوقة مرصّعة بالجواهر وهو يتناول منها قطعًا من السكّر ويرمي بها في البحر.

فقالت لي نفسي: «هوذا المتفائل الذي يستبشر بما لا بشر فيه. وحذارِ من المتفائلين أن يروا جسدينا العاريين». فعدنا نواصل السير حتّى عثرنا على رجل واقف بقرب الشاطئ يلتقط الأسماك الميتة ويعيدها بحنوّ إلى البحر.

فقالت لي نفسي: «وهذا هو الشفوق الذي يحاول إرجاع الحياة لمن في القبور، فلنبتعدْ عنه».

ثمّ انتهينا إلى حيث رأينا رجلًا يرسم خياله على الرمال فتجيء الأمواج وتمحو ما رسمه وهو يتابع عمله المرّة بعد الأخرى.

فقالت لي نفسي: «هوذا المتصوّف الذي يقيم في أوهامه صنمًا ليعبده، فلندعه وشأنه».

ومشينا إلى أن أبصرنا في خليج هادئ رجلًا يكشط الزبد عن سطح الماء ويضعه في إناء من العقيق.

فقالت لي نفسي: «هوذا الخياليّ الذي يحوك من خيوط العنكبوت رداء ليلبسه. وهو ليس بجدير أن يرى جسدينا عاريين».

فتابعنا السير وإذا بنا نسمع صوتًا هاتفًا: «هوذا البحر العميق. هوذا البحر الهائل العظيم».

فبحثنا عن مصدر الصوت فرأينا رجلًا واقفًا مديرًا ظهره إلى البحر وقد وضع صدفة على أذنه وهو يصغي إلى دمدمتها.

فقالت لي نفسي: «سر بنا فهذا هو الدهريّ الذي يدير ظهره إلى كلّيّات لا يستطيع الإحاطة بها ويشغل ذاته بجزئيّات تستميل كلّيته».

فسرنا إلى أن رأينا في معشبة رجلًا بين الصخور وقد دفن رأسه في الرمال.

فقلت لنفسي: «هلمّي يا نفس نستحمّ ههنا. فهذا الرجل لا يستطيع أن يبصرنا».

فهزّت نفسي رأسها قائلة:

«لا وألف لا. إنّ من تراه هو شرّ الناس أجمعهم. هو التقيّ النقيّ الذي يحجب نفسه عن مأساة الحياة فتحجب الحياة مسرّاتها عن نفسه».

حينئذ ظهر على وجه نفسي حزن عميق. وبصوت تقطعه المرارة قالت:

«لنذهبنّ من هذه الشواطئ. فليس هنا مكان خفيّ محجوب نستطيع أن نستحمّ به. وأنا لن أرضى أن أسرح غدائري الذهبيّة في هذه الريح، أو أن أكشف صدري البضّ أمام هذا الفضاء، أو أن أتجرّد وأقف عارية أمام هذا النور».

فغادرت ونفسي ذلك البحر العظيم، وسرنا ننشد البحر الأعظم.

في سنة لم تكن قط في التاريخ

... في تلك الدقيقة ظهرت من وراء أشجار الصفصاف صبيّة تجرّ أذيالها على الأعشاب ووقفت بجانب الفتى النائم ووضعت يدها الحريريّة على رأسه فنظر إليها نظرة نائم أيقظه شعاع الشمس. فرأى ابنة الأمير واقفة حذاءه فجثا على ركبتيه مثلما فعل موسى عندما رأى العلّيقة مشتعلة، ولمّا أراد الكلام أُرتج عليه فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه.

ثمّ عانقته الصبيّة وقبّلت شفتيه، وقبّلت عينيه راشفة المدامع السخينة وقالت بصوت ألطف من نغمة الناي:

قد رأيتك يا حبيبي في أحلامي ونظرت وجهك في وحدتي وانقطاعي، فأنت رفيق نفسي الذي فقدته ونصفي الجميل الذي انفصلت عنه عندما حُكم عليّ بالمجيء إلى هذا العالم. قد جئت سرًّا يا حبيبي لألتقيك وها أنت الآن بين ذراعي فلا تجزع. قد تركت مجد والدي لأتبعك إلى أقاصي الأرض وأشرب معك كأس الحياة والموت.

قم يا حبيبي فنذهب إلى البريّة البعيدة عن الإنسان.

ومشى الحبيبان بين الأشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الأمير ولا أشباح الظلمة.

ابن سينا وقصيدته

ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي وأقرب إلى ميولي النفسيّة من قصيدة ابن سينا في النفس.

في هذه القصيدة النبيلة قد وضع الشيخ الرئيس أبعد ما يراود فكرة الإنسان وأعمق ما يلازم خياله من الأماني التي تولدها المعرفة، والسؤالات التي يثمرها الرجاء، والنظريّات التي لا تصدر إلّا عن التفكّر المستمرّ والتأمّلات الطويلة.

وليس من الغرائب صدور هذه القصيدة عن وجدان ابن سينا وهو نابغة زمانه، ولكن من الغرائب أن تكون مظهرًا لرجل صرف عمره مستقصيًا أسرار الأجسام ومزايا الهيولى. فكأنّي به قد بلغ خفايا الروح عن طريق المادة وأدرك مكنونات المعقولات بواسطة المرئيات، فجاءت قصيدته هذه برهانًا نيّرًا على أنّ العلم هو حياة العقل يتدرّج بصاحبه من الاختبارات العمليّة إلى النظريات العقليّة، إلى الشعور الروحي، إلى الله.

قد يجد المطالع في ما نظمه كبار شعراء الغربيّين مقاطع متفرّقة تذكّره بهذه القصيدة السامية. ففي روايات شكسبير الخالدة أبيات لا تختلف بمعانيها عن قول ابن سينا:

وَصَلَتْ على كُرْهٍ إليكِ ورُبّما
كَرِهتْ فراقك وهيَ ذاتُ تفجّعِ

وفي أقوال تشلي ما يماثل:

سجعتْ وقد كُشِفَ الغطاء فأبصرَتْ
ما لَيسَ يُدْرَكُ بالعُيونِ الهُجّعِ

وفي تأمّلات غوتي ما يضارع:

وتَعودُ عالَمةً بكُلِّ خفِيّةٍ
في العالمينَ، فخرْقها لم يُرْقَعِ

وفي ما قاله براونن ما يضاهي:

فكأنّها بَرْقٌ تألّقَ بالحِمى
ثمّ انطوَى فكأنّهُ لمْ يَلمَعِ

ولكن الشيخ الرئيس قد تقدّم جميع هؤلاء بقرون عديدة. فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطّعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة. وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده، ويجعل قصيدته في النفس أبعد وأشرف ما نظم في أشرف وأبعد موضوع.

الغزالي

بين الغزالي والقديس أوغوسطينوس رابطة نفسيّة، فهما منظران متشابهان لمبدأ واحد، رغم ما بين زمانيهما ومحيطيهما من الاختلافات المذهبيّة والاجتماعيّة. أمّا ذلك المبدأ فهو ميل وضعيّ في داخل النفس يتدرّج بصاحبه من المرئيّات وظواهرها إلى المعقولات فالفلسفة فالإلهيّات.

اعتزل الغزالي الدنيا وما كان له فيها من الرخاء والمقام الرفيع وانفرد وحده متصوّفًا، متوغّلًا في البحث عن تلك الخيوط الدقيقة التي تصل أواخر العلم بأوائل الدين، متعمّقًا في التفتيش عن ذلك الإناء الخفيّ الذي تمتزج فيه مدارك الناس واختباراتهم بعواطف الناس وأحلامهم.

وهكذا فعل أوغوسطينوس قبله بخمسة أجيال. فمن يقرأ له كتاب «الاعتراف» يرى أنّه قد اتّخذ الأرض ومآتيها سلّمًا يصعد عليه نحو ضمير الوجود الأعلى.

غير أنّني وجدتُ الغزالي أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القدّيس أوغوسطينوس. وقد يكون سبب ذلك في الفرق الكائن بين ما ورثه الأوّل من النظريّات العلميّة العربيّة واليونانيّة التي تقدّمت زمانه وما ورثه الثاني من علم اللاهوت الذي كان يشغل آباء الكنيسة في

القرنين الثاني والثالث للمسيح، وأعني بالوراثة ذلك الأمر الذي ينتقل مع الأيّام من فكر إلى فكر مثلما تلازم بعض المزايا الجسديّة مظاهر الشعوب من عصر إلى عصر.

ووجدت في الغزالي ما يجعله حلقة ذهبيّة موصلة بين الذين تقدّموه من متصوّفي الهند والذين جاؤوا بعده من الإلهيّين. ففي ما بلغت إليه أفكار البوذيّين قديمًا شيء من ميول الغزالي، وفي ما كتبه سبنوزا ووليم بلايك حديثًا شيء من عواطفه.

وللغزالي عند مستشرقي الغرب وعلمائه منزلة رفيعة. وهم يضعونه مع ابن سينا وابن رشد في المقام الأوّل بين فلاسفة الشرق. أمّا الروحيّون بينهم فيحسبونه أنبل وأسمى فكرة ظهرت في الإسلام. ومن الغرائب أنّني شاهدت على جدران كنيسة في فلورنسا (إيطاليا) من بناء الجيل الخامس عشر صورة الغزالي بين صور غيره من الفلاسفة والقدّيسين واللاهوتيّين الذين تعتبرهم أئمّة الكنيسة في الأجيال الوسطى دعائم وأعمدة في هيكل الروح المطلق.

ولكن الأغرب من ذلك هو أن الغربيّين يعرفون عن الغزالي أكثر ممّا يعرفه الشرقيّون. فهم يترجمون ويبحثون في تعاليمه ويدقّقون النظر في منازعه الفلسفيّة ومراميه الصوفية. أمّا نحن، نحن الذين لم نزل نتكلّم اللغة العربيّة ونكتبها، فقلّما ذكرنا الغزالي أو تحدّثنا عنه. نحن لم نزل مشغولين بالأصداف كأنّ الأصداف هي كلّ ما يخرج من بحر الحياة إلى شواطئ الأيّام والليالي.

جرجي زيدان

لقد مات زيدان وممات زيدان عظيم كحياته، جليل كأعماله.

لقد رقدت تلك الفكرة الكبيرة وحول مضجعها تحوم الآن سكينة توحي بالهيبة والوقار وترتفع عن الحزن والبكاء.

قد تملّصت تلك الروح الطيّبة ورحلت إلى عالم نشعر به ولا ندركه، وفي رحيلها عظة للباقين في قبضة الأيّام واللّيالي.

قد تحرّر ذلك الوجدان النبيل من متاعب العمل ومشاقه وسار ملتفًّا برداء مجده إلى حيث يتسامى العمل عن المشاق والمتاعب. قد ذهب زيدان إلى حيث لا تراه العين ولا تسمعه الأذن – ولكن إذا كان زيدان قد انتقل إلى إحدى السيّارات السابحة في بحر اللانهاية فهو الآن مشغول بنفع سكّانها، منهمك بجمع معارفها، مأخوذ بجمال تاريخها، منصبّ على درس لغاتها.

هذا هو زيـدان – فكرة متحمّسة لا ترتاح إلّا إلى العمل، وروح ظامئة لا تنام إلّا على منكبي اليقظة، وقلب كبير مفعم بالرقّة والغيرة. فإذا كانت تلك الفكرة لا تزال كائنة بكيان العقل العام فهي تشتغل الآن مع العقل العام. وإذا كانت تلك الروح موجودة بوجود النواميس، فهي

تعمل الآن مع النواميس. وإذا كان ذلك القلب باقيًا ببقاء الله فهو الآن ملتهب بشعلة الله.

هذه هي حياة زيدان – ينبوع تدفّق من صدر الوجود وصار نهرًا صافيًا يروي ما على جانبي الوادي من النبات والأنصاب.

وها قد بلغ النهر شاطئ البحر فأيّ متطفّل يا ترى يجسر أن يندبه أو يرثيه؟

أوليس الندب والنواح خليقين بالذين يقفون أمام عرش الحياة ثمّ ينصرفون قبل أن يسكبوا في راحتيها قطرة من عرق جبينهم أو دم قلوبهم؟

أولم يصرف زيدان ثلاثين سنة مذيبًا قلبه مستقطرًا جبينه؟ وهل بيننا من لم يستق من تلك المجاري البلّورية العذبة؟

إذن فمن شاء أن يكرّم زيدان فليرفع نحو روحه ترنيمة الشكر وعرفان الجميل بدلًا من ندبات الحزن والأسى.

من شاء أن يكرّم ذكر زيدان فليطلب قسمته من خزائن المعارف والمدارك التي جمعها زيدان وتركها إرثًا للعالم العربي.

لا تعطوا الرجل الكبير بل خذوا منه وهكذا تكرّمونه.

لا تعطوا زيدان ندبًا ورثاء بل خذوا من مواهبه وعطاياه وهكذا تخلّدون ذكره.

مستقبل اللغة العربية

1. ما هو مستقبل اللغة العربيّة؟

إنّما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمّة، أو ذاتها العامّة، فإذا هجعت قوّة الابتكار توقّفت اللغة عن مسيرها، وفي الوقوف التقهقر وفي التقهقر الموت والإندثار.

إذن فمستقبل اللغة العربيّة يتوقّف على مستقبل الفكر المبدع الكائن – أو غير الكائن – في مجموع الأمم التي تتكلّم اللغة العربيّة. فإن كان ذلك الفكر موجودًا كان مستقبل اللغة عظيمًا كماضيها، وإن كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتيها السريانيّة والعبرانيّة.

وما هذه القوّة التي ندعوها بقوّة الابتكار؟

هي في الأمّة عزم دافع إلى الأمام. هي في قلبها جوع وعطش وشوق إلى غير المعروف، وفي روحها سلسلة أحلام تسعى إلى تحقيقها ليلًا ونهارًا ولكنّها لا تحقّق حلقة من أحد طرفيها إلّا أضافت الحياة حلقة جديدة في الطرف الآخر. هي في الأفراد النبوغ وفي الجماعة الحماسة، وما النبوغ في الأفراد سوى المقدرة على وضع ميول الجماعة الخفيّة في أشكال ظاهرة محسوسة. ففي الجاهليّة كان الشاعر يتأهّب لأنّ العرب كانوا في حالة التأهّب، وكان ينمو ويتمدّد أيّام المخضرمين لأنّ

العرب كانوا في حالة النموّ والتمدّد، وكان يتشعّب أيّام المولّدين لأنّ الأمّة الإسلاميّة كانت في حالة التشعّب. وظلّ الشاعر يتدرّج ويتصاعد ويتلوّن فيظهر آنًا كفيلسوف، وآونة كطبيب، وأخرى كفلكيّ، حتّى راود النعاس قوّة الابتكار في اللغة العربيّة فنامت وبنومها تحوّل الشعراء إلى ناظمين والفلاسفة إلى كلاميّين والأطبّاء إلى دجّالين والفلكيّون إلى منجّمين.

إذا صحّ ما تقدّم كان مستقبل اللغة العربيّة رهن قوّة الابتكار في مجموع الأمم التي تتكلّمها، فإن كان لتلك الأمم ذات خاصّة أو وحدة معنويّة وكانت قوّة الابتكار في تلك الذات قد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربيّة عظيمًا كماضيها، وإلّا فلا.

2. وما عسى أن يكون تأثير التمدين الأوروبّي والروح الغربيّة فيها؟

إنّما التأثير شكل من الطعام تتناوله اللغة من خارجها فتمضغه وتبتلعه وتحوّل الصالح منه إلى كيانها الحيّ كما تحوّل الشجرة النور والهواء وعناصر التراب إلى أفنان فأوراق فأزهار فأثمار. ولكن إذا كانت اللغة بدون أضراس تقضم ولا معدة تهضم فالطعام يذهب سدى بل ينقلب سمًّا قاتلًا. وكم من شجرة تحتال على الحياة وهي في الظلّ فإذا ما نقلت إلى نور الشمس ذبلت وماتت. وقد جاء: من له يُعطى ويُزاد ومن ليس له يؤخذ منه.

وأمّا الروح الغربيّة فهي دور من أدوار الإنسان وفصل من فصول حياته. وحياة الإنسان موكب هائل يسير دائمًا إلى الأمام، ومن ذلك الغبار الذهبي المتصاعد من جوانب طريقه تتكوّن اللغات والحكومات والمذاهب. فالأمم التي تسير في مقدّمة هذا الموكب هي المبتكرة، والمبتكر مؤثّر؛ والأمم التي تمشي في مؤخّرته هي المقلدة، والمقلد يتأثّر، فلمّا كان الشرقيون سابقين والغربيّون لاحقين كان لمدنيّتنا

التأثير العظيم في لغاتهم، وها قد أصبحوا هم السابقين وأمسينا نحن اللاحقين فصارت مدنيّتهم بحكم الطبع ذات تأثير عظيم في لغتنا وأفكارنا وأخلاقنا.

بيد أنّ الغربيّين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه محوّلين الصالح منه إلى كيانهم الغربيّ، أمّا الشرقيّون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيّون ويبتلعونه ولكنّه لا يتحوّل الى كيانهم بل يحوّلهم إلى شبه غربيين، وهي حالة أخشاها وأتبرّم منها لأنها تبين لي الشرق، تارة كعجوز فقد أضراسه وطورًا كطفل بدون أضراس!

إنّ روح الغرب صديق وعدوّ لنا. صديق إذا تمكّنّا منه وعدوّ إذا تمكّن منّا. صديق إذا فتحنا له قلوبنا وعدوّ إذا وهبنا له قلوبنا. صديق إذا أخذنا منه ما يوافقنا وعدوّ إذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه.

***

3. وما يكون تأثير التطوّر السياسيّ الحاضر في الأقطار العربيّة؟

قد أجمع الكتّاب والمفكّرون في الغرب والشرق على أنّ الأقطار العربيّة في حالة التشويش السياسيّ والإداريّ والنفسيّ. ولقد اتّفق أكثرهم على أنّ التشويش مجلبة الخراب والاضمحلال.

أمّا أنا فأسأل: هل هو تشويش أم ملل؟

إن كان مللًا فالملل نهاية كلّ أمّة وخاتمة كلّ شعب – الملل هو الاحتضار في صورة النعاس، والموت في شكل النوم.

وإن كان بالحقيقة تشويشًا فالتشويش في شرعي ينفع دائمًا لأنّه يبيّن ما كان خافيًا في روح الأمّة ويبدّل نشوتها بالصحو وغيبوبتها باليقظة ونظير عاصفة تهزّ بعزمها الأشجار لا لتقلعها بل لتكسر أغصانها اليابسة وتبعثر أوراقها الصفراء. وإذا ما ظهر التشويش في أمّة لم تزل على شيء من الفطرة فهو أوضح دليل على وجود قوّة الابتكار في أفرادها

والاستعداد في مجموعها. إنّما السديم أوّل كلمة من كتاب الحياة وليس بآخر كلمة منها، وما السديم سوى حياة مشوشة.

إذن فتأثير التطوّر السياسيّ سيحوّل ما في الأقطار العربيّة من التشويش إلى نظام، وما في داخلها من الغموض والإشكال إلى ترتيب وأُلفة، ولكنّه لا ولن يبدّل مللها بالوجد وضجرها بالحماسة. إنّ الخزّاف يستطيع أن يصنع من الطين جرّة للخمر أو للخلّ ولكنّه لا يقدر أن يصنع شيئًا من الرمل والحصى.

4. هل يعمّ انتشار اللغة العربيّة في المدارس العالية وغير العالية وتعلّم بها جميع العلوم؟

لا يعمّ انتشار اللغة في المدارس العالية وغير العالية حتّى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنيّة مجرّدة – ولن تعلّم بها جميع العلوم حتّى تنتقل المدارس من أيدي الجمعيّات الخيريّة واللجان الطائفيّة والبعثات الدينيّة إلى أيدي الحكومات المحلّية.

ففي سوريا مثلًا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة، وقد كنّا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأنّنا جياع متضوّرون، ولقد أحيانا ذلك الخبز، ولمّا أحيانا أماتنا. أحيانا لأنّه أيقظ جميع مداركنا ونبّه عقولنا قليلًا، وأماتنا لأنّه فرّق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتّى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب كلّ مستعمرة منها تشدّ في حبل إحدى الأمم الغربيّة وترفع لواءها وتترنّم بمحاسنها وأمجادها. فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أميركيّة قد تحوّل بالطبع إلى معتمد أميركي، والشاب الذي تجرّع رشفة من العلم في مدرسة يسوعيّة صار سفيرًا فرنسيًّا، والشاب الذي لبس قميصًا من نسيج مدرسة روسيّة أصبح ممثّلًا لروسيا... إلى آخر ما هناك من المدارس وما تخرّجه في كلّ عام من

الممثّلين والمعتمدين والسفراء. وأعظم دليل على ما تقدّم اختلاف الآراء وتباين المنازع في الوقت الحاضر في مستقبل سوريا السياسي. فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الأنكليزيّة يريدون أميركا أو إنكلترا وصيّة على بلادهم؛ والذين درسوها باللغة الفرنسيّة يطلبون فرنسا أن تتولّى أمرهم؛ والذين لم يدرسوا بهذه اللغة أو بتلك لا يريدون هذه الدولة ولا تلك بل يتبعون سياسة أدنى إلى معارفهم وأقرب إلى مداركهم.

وقد يكون ميلنا السياسيّ إلى الأمّة التي نتعلّم على نفقتها دليلًا على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقيّين، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجرًا من جهة واحدة وتهدم جدارًا من الجهة الأخرى؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يومًا وتميتنا دهرًا؟

إنّ المحسنين الحقيقيّين وأصحاب الأريحيّة في الغرب لم يضعوا الشوك والحسك في الخبز الذي بعثوا به إلينا، فهم بالطبع قد حاولوا نفعنا لا الضرر بنا. ولكن كيف تولّد ذلك الشوك ومن أين أتى ذلك الحسك؟ هذا بحث آخر أتركه إلى فرصة أخرى.

نعم سوف يعمّ انتشار اللغة العربيّة في المدارس العالية وغير العالية وتعلّم بها جميع العلوم فتتوحّد ميولنا السياسيّة وتتبلور منازعنا القوميّة لأنّ في المدرسة تتوحّد الميول وفي المدرسة تتجوهر المنازع، ولكن لا يتمّ هذا حتّى يصير بإمكاننا تعليم الناشئة على نفقة الأمّة. لا يتمّ هذا حتّى يصير الواحد منّا ابنًا لوطن واحد بدلًا من وطنين متناقضين أحدهما لجسده والآخر لروحه. لا يتمّ هذا حتّى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا، لأنّ المتسوّل المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدّق الأريحي. ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب، فالموهوب مسيَّر دائمًا والواهب مخيّر أبدًا.

5. وهل تتغلّب «اللغة العربيّة الفصحى» على اللهجات العامّية المختلفة وتوحّدها؟

إنّ اللهجات العاّمية تتحوّر وتتهذّب ويُدلّك الخشن فيها فيلين ولكنّها لا ولن تُغلب – ويجب ألّا تُغلَب – لأنّها مصدر ما ندعوه فصيحًا من الكلام ومنبت ما نعدّه بليغًا من البيان.

إنّ اللغات تتبع مثل كلّ شيء آخر سنّة بقاء الأنسب، وفي اللهجات العامّية الشيء الكثير من الأنسب الذي سيبقى لأنّه أقرب إلى فكرة الأمّة وأدنى إلى مرامي ذاتها العامّة. قلت إنّه سيبقى وأعني بذلك أنّه سيلتحم بجسم اللغة ويصير جزءًا من مجموعها.

لكلّ لغة من لغات الغرب لهجات عامّية، ولتلك اللهجات مظاهر أدبيّة وفنّيّة لا تخلو من الجميل المرغوب والجديد المبتكر، بل في أوروبا وأميركا طائفة من الشعراء الموهوبين الذين تمكّنوا من التوفيق بين العامّيّ والفصيح في قصائدهم وموشّحاتهم فجاءت بليغة ومؤثرة. وعندي أنّ في الموّال والزجل و«العتابا» و«المعنّى» من الكنايات المستجدّة والاستعارات المستملحة والتعابير الرشيقة المستنبطة ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة، والتي تملأ جرائدنا ومجلاتنا، لبانت كباقة من الرياحين بقرب رابية من الحطب، أو كسرب من الصبايا الراقصات المترنّمات قبالة مجموعة من الجثث المحنّطة.

لقد كانت اللغة الإيطالية الحديثة لهجة عامّية في القرون المتوسّطة، وكان الخاصّة يدعونها بلغة «الهمج»، ولكن لمّا نظم بها دانتي وبترارك وكامونس وفرانسيس داسيزي قصائدهم وموشحاتهم الخالدة أصبحت تلك اللهجة لغة إيطاليا الفصحى وصارت اللاتينيّة بعد ذلك هيكلًا يسير ولكن في نعش على أكتاف الرجعيّين... وليست اللهجات العامّية في مصر وسوريا والعراق أبعد عن لغة المعرّي والمتنبّي من

لهجة «الهمج» الإيطاليّة عن لغة أوفيدي وفرجيل. فإذا ما ظهر في الشرق الأدنى عظيم ووضع كتابًا عظيمًا في إحدى تلك اللهجات تحوّلت هذه إلى لغة فصحى. بيد أنّي أستبعد حدوث ذلك في الأقطار العربيّة لأنّ الشرقيّين أشدّ ميلًا إلى الماضي منهم إلى الحاضر أو المستقبل، فهم المحافظون، على معرفة منهم أو على غير معرفة، فإن قام كبير بينهم لزم في إظهار مواهبه السبل البيانية التي سار عليها الأقدمون، وما سبل الأقدمين سوى أقصر الطرقات بين مهد الفكر ولحده.

6. وما هي خير الوسائل لإحياء اللغة العربيّة؟

إنّ خير الوسائل، بل الوسيلة الوحيدة لإحياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين أصابعه، فالشاعر هو الوسيط بين قوّة الابتكار والبشر، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عالم البحث، وما يقرّره عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين.

الشاعر أبو اللغة وأمّها، تسير حيثما يسير وتربض أينما يربض، وإذا ما قضى جلست على قبره باكية منتحبة حتّى يمرّ بها شاعر آخر ويأخذ بيدها.

وإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمّها فالمقلّد ناسج كفنها وحافر قبرها.

أعني بالشاعر كلّ مخترع كبيرًا كان أو صغيرًا، وكلّ مكتشف قويًّا كان أو ضعيفًا، وكلّ مختلق عظيمًا كان أو حقيرًا، وكلّ محبّ للحياة المجرّدة إمامًا كان أو صعلوكًا، وكلّ من يقف متهيّبًا أمام الأيّام والليالي فيلسوفًا كان أو ناطورًا للكروم.

أمّا المقلّد فهو الذي لا يكتشف شيئًا ولا يختلق أمرًا بل يستمدّ حياته النفسيّة من معاصريه ويصنع أثوابه المعنويّة من رقع يجزّها من أثواب من تقدّمه.

أعني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلًا عن المحراث الذي ورثه عن أبيه فيجيء بعده من يدعو المحراث

الجديد باسم جديد، وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقاليّة اللون فيأتي بعده من يدعو الزهرة الجديدة باسم جديد، وذلك الحائك الذي ينسج على نوله نسيجًا ذا رسوم وخطوط تختلف عن الأقمشة التي يصنعها جيرانه الحائكون فيقوم من يدعو نسيجه هذا باسم جديد. أعني بالشاعر الملّاح الذي يرفع لسفينة ذات شراعين شراعًا ثالثًا، والبنّاء الذي يبني بيتًا ذا بابين ونافذتين بين بيوت كلّها ذات باب واحد ونافذة واحدة، والصبّاغ الذي يمزج الألوان التي لم يمزجها أحد قبله فيستخرج لونًا جديدًا، فيأتي بعد الملّاح والبنّاء والصبّاغ من يدعو ثمار أعمالهم بأسماء جديدة فيضيف بذلك شراعًا إلى سفينة اللغة ونافذة إلى بيت اللغة ولونًا إلى ثوب اللغة.

أمّا المقلّد فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة ولا يحيد عنها مخافة أن يتيه ويضيع، ذاك الذي يتبع بمعيشته وكسب رزقه ومأكله ومشربه وملبسه تلك السبل المطروقة التي مشى عليها ألف جيل وجيل فتظلّ حياته كرجع الصدى ويبقى كيانه كظلّ ضئيل لحقيقة قصيّة لا يعرف عنها شيئًا ولا يريد أن يعرف.

أعني بالشاعر ذلك المتعبّد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكيًا فرحًا نادبًا مهلّلًا مصغيًا مناجيًا ثمّ يخرج وبين شفتيه ولسانه أسماء وأفعال وحروف واشتقاقات جديدة لأشكال عبادته التي تتجدّد في كلّ يوم وأنواع انجذابه التي تتغيّر في كلّ ليلة فيضيف بعمله هذا وترًا فضّيًّا إلى قيثارة اللغة وعودًا طيّبًا إلى موقدها.

أمّا المقلّد فهو الذي يردّد صلاة المصلّين وابتهال المبتهلين بدون إرادة ولا عاطفة فيترك اللغة حيث يجدها والبيان الشخصيّ حيث لا بيان ولا شخصيّة.

أعني بالشاعر ذاك الذي إن أحبّ امرأة انفردت روحه وتنحّت عن سبل البشر لتلبس أحلامها أجسادًا من بهجة النهار وهول الليل وولولة العواصف وسكينة الأودية ثمّ عادت لتضفر من اختباراتها إكليلًا لرأس اللغة وتصوغ من اقتناعها قلادة لعنق اللغة.

أمّا المقلّد فمقلّد حتّى في حبّه وغزله وتشبيبه، فإن ذكر وجه حبيبته وعنقها قال: بدر وغزال. وإن خطر على باله شعرها وقدّها ولحظها قال: ليل وغصن بان وسهام. وإن شكا قال: جفن ساهر وفجر بعيد وعذول قريب. وإن شاء أن يأتي بمعجزة بيانية قال: حبيبتي تستمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي ورد الخدود وتعضّ على عنّاب أناملها ببرد أسنانها. يترنّم صاحبنا الببّغاء بهذه الأغنية العتيقة وهو لا يدري أنّه يسمّم ببلادته دسم اللغة ويمتهن بسخافته وابتذاله شرفها ونبالتها.

قد تكلّمت عن المستنبط ونفعه والعقيم وضرره ولم أذكر أولئك الذين يصرفون حياتهم بوضع القواميس وتأليف المطوّلات وتشكيل المجامع اللغوية – لم أقل كلمة عن هؤلاء لاعتقادي بأنّهم كالشاطئ بين مدّ اللغة وجزرها وأن وظيفتهم لا تتعدّى حدّ الغربلة – والغربلة وظيفة حسنة ولكن ما عسى يغربل المغربلون إذا كانت قوّة الابتكار في الأمّة لا تزرع غير الزوان ولا تحصد إلّا الهشيم ولا تجمع على بيادرها سوى الشوك والقطرب؟

أقول ثانية إنّ حياة اللغة وتوحيدها وتعميمها وكلّ ما له علاقة بها قد كان وسيكون رهن خيال الشاعر. فهل عندنا شعراء؟

نعم عندنا شعراء، وكلّ شرقيّ يستطيع أن يكون شاعرًا في حقله وفي بستانه وأمام نوله وفي معبده وفوق منبره وبجانب مكتبته. كلّ شرقي يستطيع أن يعتق نفسه من سجن التقليد والتقاليد ويخرج إلى نور الشمس فيسير في موكب الحياة. كلّ شرقيّ يستطيع أن يستسلم

إلى قوّة الابتكار المختبئة في روحه، تلك القوّة الأزليّة الأبديّة التي تقيم من الحجارة أبناء للّه.

أمّا أولئك المنصرفون إلى نظم مواهبهم ونثرها فلهم أقول: ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصيّة مانع عن اقتفاء أثر المتقدمين، فخير لكم وللغة العربيّة أن تبنوا كوخًا حقيرًا من ذاتكم الوضعيّة من أن تقيموا صرحًا شاهقًا من ذاتكم المقتبسة. ليكن لكم من عزّة نفوسكم زاجر عن نظم قصائد المديح والرثاء والتهنئة، فخير لكم وللغة العربيّة أن تموتوا مهملين محتقرين من أن تحرقوا قلوبكم بخورًا أمام الأنصاب والأصنام. ليكن لكم من حماستكم القوميّة دافع إلى تصوير الحياة الشرقيّة بما فيها من غرائب الألم وعجائب الفرح، فخير لكم وللغة العربيّة أن تتناولوا أبسط ما يتمثّل لكم من الحوادث في محيطكم وتلبسوها حلّة من خيالكم من أن تعرّبوا أجلّ وأجمل ما كتبه الغربيّون.

ابن الفارض

كان عمر بن الفارض شاعرًا ربّانيًّا. وكانت روحه الظمآنة تشرب من خمرة الروح فتسكر ثمّ تهيم سابحة، مرفرفة في عالم المحسوسات حيث تطوف أحلام الشعراء وميول العشاق وأماني المتصوّفين. ثمّ يفاجئها الصحو فتعود إلى عالم المرئيّات لتدون ما رأته وسمعته بلغة جميلة مؤثرة، لكنّها غير خاليّة في بعض الأحايين من ذلك التعقيد اللفظيّ المعروف بالبديع، وهو في شرعي ليس بالبديع.

ولكن إذا وضعنا صناعة ابن الفارض جانبًا ونظرنا إلى فنّه المجرّد وما وراء ذلك الفن من المظاهر النفسيّة وجدناه كاهنًا في هيكل الفكر المطلق، أميرًا في دولة الخيال الواسع، قائدًا في جيش المتصوّفين العظيم، ذلك الجيش السائر بعزم بطيء نحو مدينة الحقّ، المتغلّب في طريقه على صغائر الحياة وتوافهها، المحدق أبدًا إلى هيبة الحياة وجلالها.

وقد عاش ابن الفارض في زمن خال من التوليد العقليّ والإحداث النفسيّ بين قوم منصرفين إلى التقليد والتقاليد، مشغولين باستفسار واستيضاح ما تركه الإسلام من الأمجاد الأدبّية والفلسفيّة. غير أنّ النبوغ – والنبوغ معجزة إِلهيّة – قد صار بشاعر الحموي فتنحّى عن

زمنه وعن محيطه واختلى بذاته لينظم ما يتراءى لذاته شعرًا أبديًّا يصل ما ظهر من الحياة بما خفي منها.

ولم يتناول ابن الفارض مواضيعه ممّا جرى في يومه كما فعل المتنبّي، ولم تشغله معميات الحياة وأسرارها كما شغلت المعرّي، بل كان يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضجّة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية.

هذا هو ابن الفارض: روح نقيّة كأشعّة الشمس، وقلب متّقد كالنار، وفكرة صافية كبحيرة بين الجبال. وهو إن كان دون الجاهليّين عزمًا وأقلّ من المولدين ظرفًا ففي شعره ما لم يحلم به الأوّلون ولم يبلغه المتأخّرون.

العهد الجديد

في الشرق اليوم فكرتان متصارعتان: فكرة قديمة وفكرة جديدة. أمّا الفكرة القديمة فستُغلب على أمرها لأنّها منهوكة القوى محلولة العزم.

وفي الشرق يقظة تراود النوم، واليقظة قاهرة لأنّ الشمس قائدها والفجر جيشها.

وفي حقول الشرق، ولقد كان الشرق بالأمس جبّانة واسعة الأرجاء، يقف اليوم فتى الربيع مناديًا سكّان الأجداث ليهبوا ويسيروا مع الأيّام. وإذا ما أنشد الربيع أغنيته بُعِثَ مصروع الشتاء وخلع أكفانه ومشى.

وفي فضاء الشرق اهتزازات حيّة تنمو وتتمدّد وتتوسّع وتتناول النفوس المتنبّهة الحسّاسة فتضمّها إليها، وتحيط بالقلوب الأبيّة الشاعرة لتكتسبها.

وللشرق اليوم سيّدان: سيّد يأمر وينهَى ويطاع ولكنّه شيخ يحتضر، وسيّد ساكت بسكوت النواميس والأنظمة، هادئ بهدوء الحقّ، ولكنّه جبّار مفتول الساعدين يعرف عزمه ويثق بكيانه ويؤمن بصلاحيته.

في الشرق اليوم رجلان: رجل الأمس ورجل الغد، فأيّ منهما أنت أيّها الشرق؟

ألا فاقترب منّي لأتفرّسك وأتبصّرك وأتحقّق من ملامحك ومظاهرك ما إذا كنت من الآتين إلى النور أو الذاهبين إلى الظلام.

تعالَ وأخبرني ما أنت ومن أنت.

أسياسيّ يقول في سرّه: «أريـد أن أنتفع من أمّـتي»؟ أم غيور متحمّس يهمس في نفسه: «أتوق إلى نفع أمّـتي»؟

إن كنت الأوّل فأنت نبتة طفيليّة، وإن كنت الثاني فأنت واحة في صحراء.

أتاجر يتّخذ عوز الناس وسيلة للربح والانتفاخ فيحتكر الضروريات ليبيع بدينار ما ابتاعه بدرهم؟ أم رجل جدّ واجتهاد يسهّل التبادل بين الحائك والـزارع ويجعل نفسه حلقة بين الراغب والمرغوب، فيفيد المرغوب والراغب ويستفيد بعدل منهما؟

إن كنت الأوّل فأنت مجرم سكنت القصور أو السجون، وإن كنت الثاني فأنت محسن شكرك الناس أو جحدوك.

أرئيس دين يحوك من سذاجة القوم برفيرا لجسده، ويصوغ من بساطة قلوبهم تاجًا لرأسه، ويدّعي كره إبليس ويعيش بخيراته؟ أم تقيّ ورع يرى في فضيلة الفرد أساسًا لرقيّ الأمّة، وفي استقصاء أسرار روحه سلمًا إلى الروح الكلّي؟

إن كنت الأوّل فأنت كافر ملحد صُمْت النهار أو صلّيتَ الليل، وإن كنت الثاني فأنت زنبقة في جنّة الحق ضاع أريجها بين أنوف البشر أو تصاعد حرًّا طليقًا إلى الغلاف الأثيري حيث تحفظ أنفاس الأزهار.

أصحفي يبيع فكرته ومبدأه في سوق النخّاسين وينمو ويترعرع على ما يفرزه الاجتماع من أخبار المصائب والويلات، ونظير الشوحة الجائعة لا تهبط إلّا على الجيف المنتنة؟ أم معلّم واقف على منبر من

منابر المدنيّة يستمدّ من مآتي الأيّام مواعظ يلقيها على الناس بعد أن يتعظ بها هو نفسه؟

إن كنت الأوّل فأنت بثور وقروح، وإن كنت الثاني فدواء وبلسم.

أحاكم يتصاغر أمام من ولّاه ويستصغر من تولّى عليهم، فلا يحرّك يدًا إلّا ليضعها في جيوبهم، ولا يخطو خطوة إلّا لمطمع له فيهم؟ أم خادم أمين يدير شؤون الشعب ويسهر على مصالحه ويسعى إلى تحقيق أمانيه؟

إن كنت الأوّل فأنت زوان في بيادر الأمّة، وإن كنت الثاني فأنت بركة في أهرائها.

أزوج يستبيح لنفسه ما يحرمه على زوجته، ويسرح ويمرح وفي حزامه مفتاح سجنها، ويلتهم ما يشتهيه حتّى التخمة وهي جالسة في وحدتها أمام صحفة فارغة؟ أم رفيق لا يسير إلى أمر إلّا ويده بيد رفيقته، ولا يفعل أمرًا إلّا ولها فيه فكرة ورأي، ولا يفوز بأمر إلّا لتساهمه أفراحه وأمجاده؟

إن كنت الأوّل فأنت ممّن بقي حيًّا من قبائل انقرضت وهي تسكن الكهوف وتلبس الجلود، وإن كنت الثاني فأنت في طليعة أمّة تسير مع الفجر نحو ظهيرة العدالة والحصافة.

أكاتب بحّاثة يشمخ برأسه إلى ما فوق رؤوسنا أمّا ما في داخل رأسه فيدبّ في هوّة الماضي الغابر حيث ألقت الأجيال ما رثّ من أثوابها، ورمت ما لم يعد صالحًا لها، أم فكرة صافية تتفحّص محيطها لتعلم ما ينفعه وما يضرّه فتصرف العمر في بناء النافع وهدم المضر؟

إن كنت الأوّل فأنت سخافة مطرّسة وبلادة مزركشة، وإن كنت الثاني فأنت خبز للجائعين وماء للظامئين.

أشاعر أنت يضرب الطنبور أمام أبواب الأمراء وينثر الأزهار في الأعراس ويسير وراء الجثث الهامدة وبين فكيّه إسفنجة مثقلة بالماء

الفاتر حتّى إذا ما بلغ المقبرة ضغط عليها بلسانه وشفتيه، أم موهوب وضع الله في يده قيثارة يستولدها أنغامًا علويّة تجذب قلوبنا وتوقفنا متهيّبين أمام الحياة وما في الحياة من الجمال والهول؟

إن كنت الأوّل فأنت من المشعوذين الذين لا ينبّهون في نفوسنا سوى عكس ما يقصدون، فإن تباكوا نضحك، وإن مرحوا نكتئب، وإن كنت الثاني فأنت بصيرة مشعشعة وراء بصرنا، وشوق عذب في قلوبنا، ورؤيا ربّانيّة في غيبوبتنا.

***

أقول في الشرق موكبان: موكب من عجائز محدودبي الظهور يسيرون متوكّئين على العصي العوجاء، ويلهثون منهوكين مع أنّهم ينحدرون من الأعالي إلى المنخفضات، وموكب من فتيان يتراكضون كأن في أرجلهم أجنحة، ويهلّلون كأنّ في حناجرهم أوتارًا، وينتهبون العقبات كأنّ في جبهات الجبال قوّة تجذبهم وسحرًا يختلب ألبابهم.

فمن أيّة فئة أنت أيّها الشرقي وفي أيّ موكب تسير؟

ألا فاسأل نفسك، استجوبها في سكينة الليل وقد صحتْ من مخدرات محيطها عمّا إذا كنت من عبيد الأمس أم من أحرار الغد.

أقول لك إنّ أبناء الأمس يمشون في جنازة العهد الذي أوجدهم وأوجدوه. أقول إنّهم يشدّون بحبل أوهت الأيّام خيوطه، فإذا ما انقطع – وعمّا قريب ينقطع – هبط من تعلّق به إلى حفرة النسيان. أقول إنّهم يسكنون منازل متداعية الأركان، فإذا ما هبّت العاصفة – وهي على وشك الهبوب – انهدمت تلك المنازل على رؤوسهم وكانت لهم قبورًا. أقول إنّ أفكارهم وأقوالهم ومنازعهم وتصانيفهم ودواوينهم وكلّ مآتيهم ليست سوى قيود تجرّهم بثقلها ولا يستطيعون جرّها لضعفهم.

أمّا أبناء الغد فهم الذين نادتهم الحياة فاتبعوها بأقدام ثابتة ورؤوس مرفوعة. هم فجر عهد جديد، فلا الدخان يحجب أنوارهم، ولا قلقلة السلاسل تغمر أصواتهم، ولا نتن المستنقعات يتغلّب على طيبهم. هم طائفة قليلة العدد بين طوائف كثر عددها، ولكن في الغصن المزهر ما ليس في غابة يابسة، وفي حبّـة القمح ما ليس في رابية من التبن. هم فئة مجهولة لكنّهم يعرفون بعضهم بعضًا، ومثل قمم عالية يرى واحدهم الآخر ويسمع نداءه ويناجيه، أمّا المغاور فعمياء لا ترى، وطرشاء لا تسمع. هم النواة التي طرحها الله في حقلةٍ ما، فشقت قشرتها بعزم لبابها، وتمايلت نصبة غضة أمام وجه الشمس، وسوف تنمو شجرة عظمى تمتد عروقها إلى قلب الأرض وتتصاعد فروعها إلى أعماق الفضاء.

الوحدة والانفراد

الحياة جزيرة في بحر من الوحدة والانفراد.

الحياة جزيرة صخورها الأماني، وأشجارها الأحلام، وأزهارها الوحشة، وينابيعها التعطّش، وهي في وسط بحر من الوحدة والانفراد.

حياتك يا أخي جزيرة منفصلة عن جميع الجزر والأقاليم، ومهما سيرت من المراكب والزوارق إلى الشواطئ الأخرى ومهما بلغ شواطئك من الأساطيل والعمارات فأنت أنت الجزيرة المنفردة بآلامها المستوحدة بأفراحها البعيدة بحنينها المجهولة بأسرارها وخفاياها.

رأيتك يا أخي جالسًا على رابية من الذهب وأنت فرح بثروتك متفوّق بغناك شاعر أنّ في كلّ حفنة من التبر سلكًا خفيًّا يصل فكرة الناس بفكرتك ويربط ميولهم بميولك. ومثل فاتح كبير أبصرتك تقود فيالق جنود الظفر إلى المعاقل الحصينة فتدكّها، وإلى المستحكمات المنيعة فتمتلكها. ولكنّني نظرت إليك ثانية فرأيت وراء جدران خزائنك قلبًا يختلج في وحدته وانفراده اختلاج ظامئ في قفص مصنوع من الذهب والجواهر ولكنّه خال من الماء.

رأيتك يا أخي جالسًا على عرش من المجد وقد وقف حولك الناس مترنّمين باسمك مردّدين حسناتك معدّدين مواهبك محدّقين إليك

كأنّهم في حضرة نبيّ يرفع أرواحهم بعزم روحه ويطوف بها بين النجوم والكواكب، وأنت تنظر إليهم وعلى وجهك سيماء الغبطة والقوّة والتغلب كأنّك منهم بمقام الروح من الجسد. ولكنّني نظرت إليك ثانية فرأيت ذاتك المستوحدة واقفة إلى جانب عرشك وهي تتوجّع بغربتها وتغصّ بوحشتها. ثمّ رأيتها تمدّ يدها إلى كلّ ناحية كأنّها تستعطف وتستعطي الأشباح غير المنظورة. ثمّ رأيتها تنظر من فوق رؤوس الناس إلى مكان قصيّ، إلى مكان خالٍ من كل شيء سوى وحدتها وانفرادها.

رأيتك يا أخي مشغوفًا بحبّ امرأة جميلة وأنت تسكب على مفرق شعرها ذوب قلبك وتملأ راحتيها بقُبل شفتيك وهي تنظر إليك وأشعة الانعطاف في عينيها وحلاوة الأمومة على ثغرها، فقلت بسري: لقد أزالت المحبّة وحدة هذا الرجل ومحت انفراده فعاد واتّصل بالروح الكلّية العامّة التي تجتذب إليها بالحبّ ما انفصل عنها بالخلوّ والسلوان. ولكنّني نظرت إليك ثانية فرأيت طيّ قلبك المشغوف قلبًا منفردًا يريد أن يسكب مخبآته على رأس المرأة ولا يقدر، ورأيت وراء نفسك الذائبة حبًّا نفسًا أخرى مستوحدة شبيهة بالضباب تروم أن تتحوّل في جفنيْ رفيقتك إلى قطرات من الدموع ولكنّها لا تستطيع.

***

حياتك يا أخي منزل منفرد بعيد عن جميع المنازل والأحياء.

حياتك المعنويّة منزل بعيد عن سبل الظواهر والمظاهر التي يدعوها الناس باسمك. فإن كان هذا المنزل مظلمًا فأنت لا تقدر أن تنيره بسراج قريبك، وإن كان خاليًا فأنت لا تستطيع أن تملأه من خيرات جارك، وإن كان قائمًا في صحراء فأنت لا تقدر أن تنقله إلى حديقة غرسها سواك، وإن كان منتصبًا على قمّة جبل فأنت لا تستطيع أن تهبط به إلى وادٍ وطئته أقدام غيرك.

حياتك النفسيّة يا أخي محاطة بالوحدة والانفراد، ولولا هذه الوحدة وذاك الانفراد لما كنت أنت، وأنا أنا. لولا هذه الوحدة وذاك الانفراد لكنت إن سمعت صوتك ظننتني متكلّمًا، وإن رأيت وجهك توهّمت نفسي ناظرًا في المرآة.

إرَم ذات العماد

«ألم ترَ كيف فعل ربَك بعاد ارم ذات العماد
التي لم يخلق مثلها في البلاد» (القرآن الكريم)

«يدخلها بعض أمّتي» (الحديث)

توطئة لإرم ذات العماد

بعد أن ملك شدّاد بن عاد جميع الدنيا أمر ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضًا واسعة كثيرة الماء طيّبة الهواء بعيدة عن الجبال ليبني فيها مدينة من ذهب. فخرج أولئك الأمراء ومع كلّ أمير ألف رجل من خدمه وحشمه. فساروا حتّى وجدوا أرضًا واسعة طيّبة الهواء فأعجبتهم تلك الأرض فأمروا المهندسين والبنّائين فخطّوا مدينة مربّعة الجوانب دورها أربعون فرسخًا من كلّ جهة عشرة، فحفروا الأساس إلى الماء وبنوا الجدران بحجارة الجزع اليماني حتّى ظهر على وجه الأرض ثمّ أحاطوا به سورًا إرتفاعه خمسمائة ذراع وغشّوه بصفائح الفضّة المموّهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس. وكان شدّاد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا فاستخرج منها الذهب واتخذه لبنًا. واستخرج الكنوز المدفونة ثمّ بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته كلّ قصر على أعمدة من أنواع الزبرجد واليواقيت معقّدة بالذهب، طول كلّ عمود مائة ذراع. وأجرى في وسطها أنهارًا وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل وجعل حصاها من الذهب

والجواهر واليواقيت وحلّى قصورها بصفائح الذهب والفضّة وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار جذوعها من الذهب وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللآلىء. وطلى حيطانها بالمسك والعنبر. وجعل فيها جنّة مزخرفة له. وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت وسائر أنواع المعادن. ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة الصادح والمغرّد وغير ذلك.

«الشعبي في كتاب سير الملوك»

إرم ذات العماد

المكان: غابة صغيرة من الجوز والحور والرمّان تحيط بمنزل قديم منفرد بين منبع العاصي وقرية الهرمل في الشمال الشرقي من لبنان.

الزمان: عصارى يوم من أيّام تموز في سنة 1883.

أشخاص الرواية: زين العابدين النهاوندي، وهو درويش عجمي في الأربعين من عمره، معروف بالصوفي.

نجيب رحمة: أديب لبناني في الثالثة والثلاثين.

آمنة العلوية: معروفة في تلك النواحي بجنيّة الوادي، ولا أحد يعرف عمرها.

يرفع الستار فيظهر زين العابدين متّكئًا على ساعده في ظلال الأشجار وهو يرسم برأس عصاه الطويلة خطوطًا مستديرة على التراب. بعد هنيهة يدخل الغابة نجيب رحمة راكبًا على فرس ثمّ يترجّل ويربط مقود فرسه بجذع شجرة وينفض الغبار عن ملابسه ثمّ يقترب من زين العابدين.

نجيب رحمة: السلام عليك يا سيّدي.

زين العابدين: وعليك السلام. ويحوّل وجهه قائلًا في نفسه: أمّا السلام فنقبله، وأمّا السيادة فلا ندري أنقبلها أم لا.

نجيب – ينظر حواليه مستفحصًا: أهنا تسكن آمنة العلوية؟

زين العابدين: هذا منزل من منازلها.

نجيب: أتعني يا سيّد أن لها بيتًا آخر؟

زين العابدين: لها منازل لا عداد لها.

نجيب: منذ الصباح وأنا أبحث وأسأل كلّ من لقيته عن مقرّ آمنة العلويّة ولم يقل لي أحد إنّ لها منزلين أو أكثر.

زين العابدين: هذا دليل على أنّك لم تلتق منذ الصباح غير من لا يرى إلّا بعينيه ولا يسمع إلّا بأُذنيه.

نجيب – مستغربًا: ربّما كان الأمر مثلما تقول. ولكن أصدقني يا سيّدي أفي هذا المكان تسكن آمنة العلويّة؟

زين العابدين: نعم في هذا المكان يسكن جسدها بعض الأحايين.

نجيب: وهلّا أخبرتني أين هي الآن؟

زين العابدين: هي في كلّ مكان (مشيرًا بيده إلى الجهة الشرقيّة) أمّا جسدها فيسير متجوّلًا بين تلك التلول والأودية.

نجيب: وهل تعود اليوم إلى هذا المكان؟

زين العابدين: ستعود إن شاء الله.

نجيب – يجلس على صخر أمام زين العابدين ثمّ يتفحّصه طويلًا: يبدو لي من لحيتك أنّك فارسي.

زين العابدين: نعم ولدت في نهاوند وربيت في شيراز وتثقّفت في نيسابور وجبت مشارق الأرض ومغاربها وأنا غريب في كلّ مكان.

نجيب: كلّنا غريب في كلّ مكان.

زين العابدين: لا والحقّ، فقد لقيت وحدّثت ألف ألفٍ من الناس فلم أرَ سوى المكتفين بمحيطهم، المستأنسين بإلفهم، المنصرفين عن العالم إلى الفسحة الضيّقة التي يرونها من العالم.

نجيب – معجبًا بكلام جليسه: الإنسان يا سيّدي مطبوع على حبّ المكان الذي ولد فيه.

زين العابدين: المحدود من الناس مطبوع على حبّ المحدود من الحياة، وشحيح البصر لا يرى غير ذراع من السبيل الذي تطأه قدماه، وذراع من الحائط الذي يسند إليه ظهره.

نجيب: ليس لكلّ منّا المقدرة على الإحاطة بكلّيات الحياة. ومن الظلم أن تطلب من شحيح البصر أن يرى البعيد والضئيل.

زين العابدين: أصبت وأحسنت، فمن الظلم أن نطلب الخمر من الحصرم.

نجيب – بعد دقيقة سكوت: اسمع يا سيدي، منذ أعوام وأنا أسمع الأخبار عن آمنة العلويّة، ولقد أثّرت بي هذه الأخبار إلى درجة قصوى فعزمت على الاجتماع بها لاستفسارها ومعرفة أسرارها وخفاياها.

زين العابدين – يقاطعه: أيوجد في هذا العالم من يستطيع معرفة أسرار آمنة العلويّة وخفاياها؟ أيوجد بين البشر من يقدر أن يسير متجوّلًا متنزّهًا في قاع البحر كأنّه في حديقة؟

نجيب: قد أسأتُ التعبير يا سيّدي فسامحني. أنا لا أقدر بالطبع على الإحاطة بمكنونات آمنة العلويّة ولكنّني أرجو أن أسمع منها حكاية دخولها إلى إرم ذات العماد.

زين العابدين: ما عليك سوى الوقوف في باب حلمها، فإن فتح لك بلغت قصدك، وإن لم يفتح فأنت الملوم.

نجيب: ماذا تعني يا سيّد بقولك، إن لم يفتح لي كنت أنا الملوم؟

زين العابدين: أعني أن آمنة العلويّة أدرى الناس منهم بنفوسهم، فهي ترى بلمحة واحدة ما في ضمائرهم وقلوبهم وأرواحهم، فإن وجدتك خليقًا بمحادثتها حدّثتك وإلّا فلا.

نجيب: ماذا أقول وماذا أفعل لأكون حريًّا باستماع حديثها؟

زين العابدين: عبثًا تحاول الدنوّ من آمنة العلويّة بواسطة القول والعمل، فهي لا ولن تصغي إلى ما تقوله لا ولا تنظر إلى ما تفعله بل سوف تسمع بأُذن أُذنها ما لا تقوله وترى بعين عينها ما لا تفعله.

نجيب – تظهر على ملامحه سيماء الدهشة: ما أبلغ كلامك هذا وما أجمله!

زين العابدين: ليس ما أقول عن آمنة العلويّة سوى دندنة أخرس يريد أن يغنّي نشيدًا.

نجيب: أتعلم يا سيّدي أين ولدت هذه المرأة العجيبة؟

زين العابدين: ولدت في صدر الله.

نجيب – ملتبكًا: أعني أين ولد جسدها؟

زين العابدين: بجوار دمشق.

نجيب: وهلّا أخبرتني شيئًا عن والديها وتربيتها؟

زين العابدين: ما أشبه سؤالاتك هذه بسؤالات القضاة والمتشرّعين. أفتظن أنّك تستطيع إدراك الجواهر باستفسارك الأعراض، أو معرفة طعم الخمرة بمجرّد النظر إلى خارج الجرّة؟

نجيب: بين الأرواح وأجسادها رابطة، وبين الأجساد ومحيطها علاقة، ولمّا كنت لا أعتقد بالصدف أرى أنّ النظر في تلك الروابط وتلك العلاقات لا يخلو من الفائدة.

زين العابدين: أعجبتني، أعجبتني. يلوح لي أنّك على شيء من العلم. إذن فاسمع. لا أعرف شيئًا عن والدة آمنة العلويّة سوى أنّها ماتت وهي تتمخّض بابنتها. أمّا والدها الشيخ عبد الغني الضرير المشهور بالعلوي فقد كان إمام زمانه في العلوم الباطنيّة والتصوّف. وقد كان، رحمه الله، ولوعًا بابنته إلى درجة قصوى فهذّبها وثقّفها وسكب في روحها كلّ ما في روحه، ولما بلغت أشدّها أدرك أنّ العلوم التي أخذتها عنه لم تكن من العلم الذي أنزل عليها إلّا بمقام الزبد من البحر فصار يقول عنها: لقد انبثق من ظلمتي نور أستضيء به. ولمّا بلغت الخامسة والعشرين خرج بها لأداء فريضة الحجّ. ولمّا قطعا بادية الشام وأصبحا على بعد ثلاث مراحل من المدينة المنوّرة بلي الضرير بالحمى وتوفّي فدفنته ابنته في لحف جبل هناك وجلست على قبره سبع ليالٍ تناجي روحه وتستكشفها أسرار الغيب وتستعلم منها عمّا وراء الحجاب. وفي اللّيلة السابعة أوحت إليها روح والدها أن تطلق راحلتها وتحمل زادها على عاتقها وتسير من ذلك المكان إلى الجنوب الشرقي، ففعلت (يسكت دقيقة ويحدّق إلى الأفق البعيد ثمّ يعود إلى الكلام). وظلّت آمنة العلويّة سائرة في البادية حتّى وصلت إلى «الربع الخالي» وهو قلب الجزيرة الذي لم تخترقه قافلة ولم يصل إليه سوى أفراد قليلين منذ بدء الإسلام إلى يومنا هذا. أمّا الحجّاج فظنّوا أنّها تاهت في تلك القفار وقضت جوعًا، ولمّا عادوا إلى دمشق أخبروا الناس بذلك فحزن عليها وعلى أبيها من عرف فضلهما ثمّ التحف ذكرهما النسيان كأنّهما ما كانا... وبعد خمسة أعوام ظهرت آمنة العلويّة في الموصل. وكان ظهورها بما هي عليه من الجمال

والهيبة والعلم والصلاح أشبه شيء بهبوط نيزك من الفضاء. فقد كانت تسير بين الناس مسفرة وتقف بحلقات العلماء والأئمّة متكلّمة عن الأمور الربّانيّة وتصف لهم مشاهد إرم ذات العماد بفصاحة ما سمع القوم بمثلها. ولما اشتهر أمرها وكثر عدد أتباعها ومريديها خاف علماء المدينة ظهور بدعة وخشوا الفتنة فشكوها إلى الوالي فاستقدمها هذا إليه وألقى بين يديها صرّة من الذهب وطلب إليها أن تغادر المدينة، فرفضت المال وتركت المدينة ليلًا دون أن يصحبها أحد من الناس. ثمّ توجّهت إلى الآستانة فحلب فدمشق فحمص فطرابلس، وكانت في كلّ مدينة من هذه المدن تثير ما سكن في نفوس الناس وتشعل ما خمد في وجدانهم فيلتفون حولها ويصغون إلى محاضراتها وأحاديث اختباراتها العجيبة مجذوبين لعوامل قويّة سحريّة. غير أنّ أئمّة الدين وشيوخ العلم في كلّ بلد كانوا يصادرونها ويفنّدون أقوالها ويعرضون بها إلى الحكّام. بعد ذلك طلبت نفسها العزلة فجاءت هذا المكان منذ أعوام واستوحدت به زاهدة متعبّدة منصرفة عن كلّ شيء سوى التعمّق في الأسرار الربّانيّة. هذا قليل من كثير أعرفه عن حياة آمنة العلويّة. أمّا ما حباني الله بمعرفته عن ذاتها المعنويّة وما يتآلف في نفسها من القوى والمواهب فليس بإمكاني الكلام عنه الآن. ومَن من البشر يا ترى يستطيع أن يجمع الأثير المحيط بهذا العالم في كؤوس وأكواب؟

نجيب – متأثرًا: أشكر لك يا سيّدي ما تفضلت وحدّثتني به عن هذه المرأة العجيبة. لقد ضاعفت شوقي إلى الوقوف بحضرتها.

زين العابدين – يتفرّس فيه دقيقة: أنت مسيحي. أليس كذلك؟

نجيب: نعم، ولدت مسيحيًا غير أنّني أعلم أنّنا إذا جرّدنا الأديان ممّا تعلّق بها من الزوائد المذهبيّة والاجتماعيّة وجدناها دينًا واحدًا.

زين العابدين: أصبت، وليس بين البشر أدرى بالوحدة الدينيّة المجرّدة من آمنة العلويّة، فهي في الناس على اختلاف طوائفهم كندى الصباح الذي يهبط من الأعالي وينعقد درًّا مشعشعًا بين أوراق الأزهار المتباينة لونًا وشكلًا. نعم هي كندى الصباح...

(يقف زين العابدين فجأة عن الكلام ويلتفت إلى الجهة الشرقية مصغيًا ثمّ ينتصب على قدميه ويومئ إلى نجيب أن ينتبه فيفعل هذا ممتثلًا).

زين العابدين – هامسًا: هوذا آمنة العلويّة.

(يرفع نجيب يده إلى جبهته كأنّه أحسّ بحدوث تغيير في دقائق الهواء ثمّ ينظر فيرى العلويّة آتية فتتغيّر ملامحه ويضطرب في داخله ولكنّه يبقى واقفًا في مكانه كالتمثال... تدخل آمنة العلويّة وتقف أمام الرجلين وهي بهيئتها وحركاتها وملابسها أقرب إلى معبودات الشعوب الغابرة منها إلى امرأة شرقيّة في الزمن الحاضر. ومن الصعب تحديد عمرها بمجرّد النظر إلى ملامحها، فكأنّ الشباب في وجهها يستر ألف سنة من المعرفة والاختبار. أمّا نجيب وزين العابدين فيظلّان جامدين خاشعين متهيّبين كأنّهما بحضرة نبيّ من أنبياء الله... وبعد أن تحدّق العلويّة إلى وجه نجيب كأنّها تخترق بنظراتها صدره، تدنو منه وقد انبسطت ملامحها وابتسمت، وبصوت عذب تقول)

آمنة العلويّة: جئتنا أيّها اللبناني متنسّمًا أخبارنا مستفحصًا حالنا. ولن تجد بنا إلّا ما بك، ولن تسمع منّا إلّا ما عرفَته في نفسك.

نجيب – مفعولًا: ها قد رأيت وسمعت وصدقت واكتفيت.

العلويّة: لا تكن قنوعًا بالقليل، فمن يرد ينابيع الحياة بجرّة فارغة صُرف بجرّتين طافحتين.

(تمدّ يدها إليه فيتناولها بكلتا يديه خاشعًا محتشمًا ويقبّل أطراف أصابعها مدفوعًا بعامل خفيّ. تلتفت إلى زين العابدين وتمدّ يدها إليه فيفعل هذا فعل نجيب ثمّ تتراجع قليلًا إلى الوراء وتجلس على حجر منحوت أمام بيتها وتشير إلى صخر قريب وتقول لنجيب): هذه مقاعدنا فاجلس.

(يجلس نجيب ويفعل زين العابدين فعله).

العلويّة: إنّا نرى بعينيك نورًا من أنوار الله، ومن ينظر إلينا ونور الله في عينيه يرى حقيقتنا عارية مجرّدة. وإنّا نرى بوجهك ما يرفعه الإخلاص عن حبّ الاستطلاع إلى الرغبة في الحقّ. فإن كان على لسانك كلمة فقلها فنحن إليك مصغون. وإن كان في قلبك سؤال فاطرحه فنحن لك مجيبون.

نجيب: جئت مستعلمًا عن أمر يتحدّث الناس به لغرابته، ولكنّي ما وقفت بحضرتك حتّى علمت أن الحياة مظاهر الروح الكلّية، فكان مثلي مثل صيّاد ألقى شبكته في البحر ليصطاد سمكًا ولمّا اجتذبها إلى الشاطئ وجد فيها صرّة من الحجارة الكريمة.

العلويّة: جئت تسألنا عن دخولنا إرم ذات العماد؟

نجيب: نعم يا سيّدتي، منذ حداثتي وهذه الكلمات الثلاث «إرم ذات العماد» تعانق أحلامي وتتمشّى مع خيالي بما وراءها من الرموز والمقاصد الخفيّة.

العلويّة – ترفع رأسها وتغمض عينيها وبصوت يخاله نجيب آتيًا من قلب الفضاء تقول: أجل قد بلغنا المدينة المحجوبة ودخلناها وأقمنا فيها وملأنا روحنا من أريجها وقلبنا من أسرارها وجيوبنا من لؤلؤها وياقوتها، فمن ينكر علينا ما شاهدناه وعرفناه كان ناكرًا لذاته أمام الله.

نجيب – متأنّيًا: ما أنا يا سيّدتي سوى طفل يلثغ متلعثمًا بما يريد بيانه، فإن سألتك عن أمر فبخشوع أسأل. وإن استقصيت أمرًا فبإمعان وإخلاص. فهلّا جعلت عطفك عليّ شفيعًا بي لديك إذا ما أتعبت سرك بسؤالاتي الكثيرة؟

العلويّة: سل ما شئت فقد جعل الله الحقيقة ذات أبواب يفتحها بوجه من يطرقها بيد الإيمان.

نجيب: هل دخلت إرم ذات العماد بالجسد أم بالروح، وهل هي مدينة مصنوعة من عناصر الأرض المتبلورة وقائمة في بقعة معلومة من الأرض أم هي مدينة روحيّة ترمز عن حالة روحيّة يبلغها أنبياء الله وأولياؤه في غيبوبة يلقيها الله نقابًا على نفوسهم؟

العلويّة: ليس ما نراه على الأرض وما لا نراه سوى حالات روحيّة، وأنا قد دخلت المدينة المحجوبة بجسدي وهو روحي الظاهرة ودخلتها بروحي وهي جسدي الخفي. ومن يحاول التفريق بين ذرات الجسد كان في ضلال مبين. إنّما الزهرة وعطرها شيء واحد فالأعمى الذي ينكر لون الزهرة وصورتها قائلًا: «ليست الزهرة سوى عطر يتموّج في الأثير» ليس هو إلّا كالمزكوم الذي يقول: «ليست الأزهار غير صور وألوان».

نجيب: إذن فالمدينة المحجوبة التي ندعوها بإرم ذات العماد حالة روحيّة؟

العلويّة: كلّ مكان وزمان حالة روحيّة. وكلّ المرئيات والمعقولات حالات روحيّة. فإن أغمضت عينيك ونظرت في أعماق أعماقك رأيت العالم بكلّيّاته وجزئيّاته وخبرت ما فيه من النواميس وعلمت ما يلازمه من الذرائع وفهمت ما يتلمّسه من المحجات. أجل إنّك إذا أغمضت بصرك وفتحت بصيرتك رأيت بداية الوجود ونهايته، تلك النهاية التي تصير بدورها بداية وتلك البداية التي تتحوّل إلى نهاية.

نجيب: وهل بإمكان كلّ إنسان أن يغمض عينيه ويرى جوهر الحياة المجرّد؟

العلويّة: يستطيع كلّ إنسان أن يتشوّق ثمّ يتشوّق ثمّ يتشوّق حتّى ينزع الشوق نقاب الظواهر عن بصره فيشاهد إذ ذاك ذاته. ومَن يرَ ذاته ير جوهر الحياة المجرّد. فكلّ ذات هي جوهر الحياة المجرّد.

نجيب – يضع يده على صدره: إذن كلّ ما في الوجود من محسوس ومعقول كائن هنا هنا في صدري؟

العلويّة: كلّ ما في الوجود كائن فيك وبك ولك.

نجيب: أبإمكاني أن أقول لذاتي إنّ إرم ذات العماد موجودة في باطني لا في خارجي؟

العلويّة: كلّ ما في الوجود كائن في باطنك وكلّ ما في باطنك موجود في الوجود. وليس هناك من حد فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها أو بين أعلاها وأخفضها أو بين أصغرها وأعظمها. ففي قطرة الماء الواحدة جميع أسرار البحار، وفي ذرة واحدة جميع عناصر الأرض، وفي حركة واحدة من حركات الفكر كلّ ما في العالم من الحركات والأنظمة.

نجيب – تظهر على وجهه علامات الالتباس: قد قيل لي يا سيّدتي إنّك قطعت المسافات الشاسعة حتّى بلغت ذلك المكان المعروف بالربع الخالي في قلب الجزيرة. وقيل لي إنّ روح والدك كانت الموحية إليك والهادية لك والسائرة معك حتّى بلغت إرم ذات العماد. أفليس على الراغب في الوصول إلى تلك المدينة المحجوبة أن يكون في حالة شبيهة بحالتك وأن تكون له الوسائل الجسديّة والأسباب المعنويّة ليحصل على ما حصلت أنت عليه؟

العلويّة: أجل قد قطعنا الصحارى وقاسينا الجوع والعطش وخبرنا مخاوف النهار ورمضاءه وأهوال الليل وسكينته قبل أن رأينا أسوار مدينة الله. ولكن قد بلغ مدينة الله قبلنا من لم يسر خطوة، وعرف جمالها وبهاءها من لم يختبر جوعًا في الجسد أو عطشًا في الروح. إي والحقّ لقد طاف في المدينة المقدّسة إخوانٌ لنا وأخوات دون أن يخرجوا من المنازل التي ولدوا فيها. (تسكت هنيهة ثمّ تومئ بيدها إلى الأشجار والرياحين

المحيطة بها) لكلّ بذرة من البذور التي يلقيها الخريف في أديم التراب أساليب خاصّة في فسخ قشرتها عن لبابها وفي تكوين أرواقها فأزهارها فأثمارها. ولكن مهما تباينت الأساليب فمحجّة جميع البذور تظلّ واحدة. وتلك المحجّة هي الوقوف أمام وجه الشمس.

زين العابدين – يتمايل إلى الأمام وإلى الوراء متأثّرًا كأنّه انتقل بالروح إلى عالم سامٍ ثمّ يصرخ بصوت رخيم: الله أكبر لا إله إلّا الله الكريم الوهّاب الملقي ظلّه بين الألسنة والشفاه.

العلويّة: أجل. قل الله أكبر. لا إله إلّا الله وقل لا شيء إلّا الله.

(يتمتم زين العابدين هذه الكلمات في ذاته أمّا نجيب فيحدّق إلى العلويّة كالمسحور وبصوت يكاد يكون همسًا يقول): لا شيء إلّا الله.

العلويّة: قل لا إله إلّا الله ولا شيء إلّا الله وكن مسيحيًّا.

نجيب – يحني رأسه محرّكًا شفتيه مردّدًا كلماتها ثمّ يرفع رأسه قائلًا: قد قلتها يا سيّدتي وسوف أقولها إلى نهاية حياتي.

العلويّة: ليس لحياتك نهاية، فأنت باقٍ ببقاء كلّ شيء.

نجيب: مَن أنا وما أنا لأبقى خالدًا؟

العلويّة: أنت أنت. وأنت كلّ شيء، لذلك ستبقى خالدًا.

نجيب: إنّي أعلم طبعًا يا سيّدتي أن الذرّات التي تتألّف منها وحدتي الهيوليّة ستبقى ببقاء الهيولى، ولكن أباقيةٌ يا ترى هذه الفكرة التي أدعوها أنا؟ أباقيةٌ هذه اليقظة الضئيلة الممنطقة بالهجوع؟ أباقيةٌ هذه الفقاقيع الملتمعة بنور الشمس وأمواج البحر التي ولدتها هي هي الأمواج التي تمحوها لتولد غيرها؟ أباقيةٌ هذه الأماني والآمال والأوجاع

والأفراح؟ أباقية هذه الأوهام المرتعشة في هذا النوم المتقطّع في هذا اللّيل الغريب بعجائبه الهائل باتّساعه وعمقه وعلوّه؟

العلويّة – ترفع عينيها إلى العلاء كأنّها تتناول شيئًا من جيوب الفضاء وتقول بلهجة إيجابيّة ملؤها العزم والمعرفة والخبرة: كلّ موجود باقٍ. ووجود الموجود دليل على بقائه. أمّا الفكرة وهي العلم بكليته، إذ لولاها لما علم العالم موجودًا كان أو غير موجود، فهي كيان أزليّ أبدي خالد لا يتغيّر إلّا ليتجوهر، ولا يختفي إلّا ليظهر بصورة أسنى، ولا ينام إلّا ليحلم بيقظة أبهَى. ولقد عجبت لمن يثبت بقاء الذرات في الغلافات الخارجيّة التي تتصوّرها حواسنا ولكنّه ينكر ما جُعلت الغلافات من أجله. عجبت لمن يقرّر خلود العناصر التي تتألّف منها العين ولكنّه يشكّ بخلود النظر الذي اتخذ العين آلة له. عجبت لمن يثبت أبدية المسبّبات ولكنّه يحتم باضمحلال الأسباب. عجبت لمن تشغله المظاهر المكونة عن المكون المظهر. عجبت لمن يقسم الحياة إلى شطرين فيؤمن بالشطر المدفوع ويجحد الشطر الدافع. عجبت لمن ينظر إلى تلك الجبال والسهول المغمورة بنور الشمس ثمَّ يصغي إلى الهواء متكلّمًا بألسنة الأغصان ثمّ يتجرع عطر الأزهار والرياحين وبعد ذلك يقول لنفسه: لا ولن يزول ما أراه وأسمعه، لا ولن يضمحلّ ما أعرفه وأشعر به، ولكن هذه الروح العاقلة التي ترى فتتهيّب وتتأمّل وتسمع فتفرح وتكتئب، هذه الروح التي تشعر فترتعش وتنبسط وتعلم فتكتئب وتتحقّق، هذه الروح التي تحيط بكلّ شيء سوف تضمحل اضمحلال الفقاقيع على وجه البحر وتزول زوال الظلّ أمام النور. إي والحق إنّي أعجب لكائن ينكر كيانه.

نجيب – متهيّجًا: قد آمنت بكياني يا سيّدتي. ومن يسمعك متكلّمة ولا يؤمن كان أشبه بالصخر منه بالإنسان.

العلويّة: إنّ الله وضع في كلّ نفس رسولًا ليسير بنا إلى النور، ولكن في الناس من يبحث عن الحياة في خارجه والحياة في داخله ولكنّه لا يعلم.

نجيب: أليس في خارجنا أنوار لا نستطيع بدونها الوصول إلى ما في أعماقنا؟ أليس في محيطنا قوى تستنهض قوانا ومؤثرات تنبّه الغافل فينا؟

يطرق هنيهة متردّدًا ثمّ يعود فيقول: أوَلم توحِ إليك روح والدك أمورًا لا يعرفها سجين الجسد ورهين الأيّام واللّيالي؟

العلويّة: أجل. ولكن عبثًا يطرق الزائر باب البيت إذا لم يكن في داخل البيت من يسمع الطرقات ويقوم ليفتح في وجهه. إنّما الإنسان كائن منتصب بين اللانهاية في باطنه واللانهاية في محيطه. فلو لم يكن فينا ما فينا لما كان في خارجنا ما في خارجنا. لقد ناجتني روح والدي لأنّ روحي ناجتها وأوحت إلى عاقلتي الخارجيّة ما كانت تعرفه عاقلتي الباطنيّة. فلولا جوعي وعطشي لما حصلت على الخبز والماء، ولولا شوقي وحنيني لما لقيت موضوع شوقي وحنيني.

نجيب: أيستطيع كلّ منّا يا سيّدتي أن يغزل سلكًا من شوقه وحنينه ويمدّه بين روحه والأرواح المنعتقة؟ أفليس هناك طائفة من الناس قد أُعطيت المقدرة على مخاطبة الأرواح واستنزال مشيئتها ومراميها؟

العلويّة: إنّ بين سكّان الأثير وسكّان الأرض مخاطبات ومسامرات مستتبّة باستتباب الأيّام واللّيالي. وليس بين النّاس من لم يأتمر بمشيئة القوى العاقلة غير المنظورة. فكم من عمل يأتي به الفرد متوهّمًا أنّه مخيَّر بفعله وهو بالحقيقة مسيَّر. وكم من عظيم في الأرض كانت عظمته في استسلامه التام إلى إرادة روح من الأرواح استسلام قيثارة دقيقة الأوتار إلى نقرات عازف خبير. أجل. إن بين عالم المرئيات وعالم العقل سبيلًا نجتازه في غيبوبات تحدث لنا ونحن غافلون ثمّ نعود وفي

أكفّنا المعنويّة بذور نلقيها في تربة حياتنا اليوميّة فتنبت أعمالًا جليلة أو أقوالًا خالدة، ولولا تلك السبل المفتوحة بين أرواحنا والأرواح الأثيريّة لما ظهر في الناس نبيّ ولا قام فيهم شاعر ولا سار بينهم عارف. (ترفع صوتها عن ذي قبل) أقول، ومآتي الأدهار تشهد لي، إنّ بين الملأِ الأعلى والملأِ الأدنى روابط شبيهة بعلاقة الآمر بالمأمور والمنذِر بالمنذَر، أقول إنّا محاطون بوجدانات تستميل وجداناتنا، وعاقلات توعز إلى عاقلاتنا، وقوى تستنهض قوانا، أقول إنّ شكوكنا لا تنفي امتثالنا إلى ما نشك به، وانصرافنا إلى أماني أجسادنا لا يصرفنا عن مراد الأرواح بأرواحنا، وتعامينا عن حقيقتنا لا يحجب حقيقتنا عن عيون المحجوبين عنّا، فنحن وإن وقفنا فسائرون بمسيرهم، وإن همدنا فمتحركون بحركاتهم، وإن صمتنا فمتكلّمون بأصواتهم، فلا الهجوع فينا يزيل يقظتهم عنّا، ولا اليقظة بنا تحوّل أحلامهم عن مسارح خيالنا، فنحن وهم في عالمين يضمهما عالم واحد، وفي حالتين تمنطقهما حالة واحدة، وفي وجودين يجمعهما ضمير كلّي سرمدي أحدٌ ليس له بدء وليس له نهاية وليس له فوق وليس له تحت وليس له حد وليس له جهات.

نجيب: أيأتي يوم يا سيّدتي نعرف فيه بالاستقراء العلمي والاختبار الحسيّ ما تعرفه أرواحنا بالخيال وما تختبره قلوبنا بالتشويق؟ وهل يتقرّر لنا بقاء الذات المعنويّة بعد الموت مثلما تقرّر لدينا بعض الأسرار الطبيعيّة فنلمس بيد المعرفة المجرّدة ما نتلمسه الآن بأصابع الإيمان؟

العلويّة: نعم سيأتي ذلك اليوم. ولكن ما أضلّ الذين يدركون حقيقة مجرّدة ببعض حواسهم ولكنّهم يظلّون مرتابين بها حتّى تبدو لحواسهم الأخرى. ما أغرب من يسمع الشحرور مغرّدًا ويشاهده مرفرفًا متنقّلًا ولكنّه يبقى مشكّكًا بما سمع وما رأى حتّى يقبض بيده على جسم الشحرور. ما أغرب من يحلم بحقيقة جميلة ثمّ يحاول تجسيدها وحبسها بقوالب

الظواهر فلا يفلح فيرتاب بالحلم ويجحد الحقيقة ويشك بالجمال! ما أجهل من يتخيّل أمرًا ويتصوّره بشكله ومعالمه وعندما يستحيل عليه إثباته بالمقاييس السطحيّة والبراهين اللفظيّة يحسب الخيال وهمًا والتصوّر شيئًا فارغًا. ولكن لو تعمّق قليلًا وتأمّل هنيهة لعلم أن الخيال حقيقة لم تتحجّر بعد وأن التصوّر معرفة أسمى من أن تتقيّد بسلاسل المقاييس وأعلى وأرحب من أن تسجن بأقفاص الألفاظ.

نجيب: أفي كلّ خيال حقيقة يا سيّدتي وهل في كلّ تصوّر معرفة؟

العلويّة: إي والحقّ. إنّ مرآة النفس لا تعكس سوى ما انتصب أمامها، ولو شاءت لما استطاعت. إنّ البحيرة الهادئة لا تريك في أعماقها خطوط جبال ورسوم أشجار وأشكال غيوم لا وجود لها بالحقيقة، ولو شاءت البحيرة لما استطاعت. إن خلايا الروح لا ترجع إليك صدى أصوات لم يرتعش بها الأثير حقًّا، ولو شاءت الخلايا لما استطاعت. إنّ النور لا يلقي على الأرض ظّل شيء لا كيان له، ولو شاء النور لما استطاع إنّما الإيمان بالشيء المعرفة بالشيء. والمؤمن يرى ببصيرته الروحيّة ما لا يراه الباحثون والمنقبون بعيون رؤوسهم، ويدرك بفكرته الباطنة ما لا يستطيعون إدراكه بفكرتهم المقتبسة. المؤمن يختبر الحقائق القدسيّة بحواس تختلف عن الحواس التي يستخدمها الناس كافة فيظنّها جدارًا محكم البناء فيسير في طريقه قائلًا: ليس لهذه المدينة من أبواب.

(تقف العلويّة وتخطو بضع خطوات نحو نجيب، وبلهجة من أوشك أن يبلغ من الكلام حدًّا لا يريد الزيادة عليه تقول)

العلويـة: إن المؤمن يعيش كلّ الأيّام وكلّ الليالي، أما غير المؤمن فلا يعيش سوى ثوان معدودة منها، فما أضيق عيش من يرفع يده بين وجهه

والعالم أجمع فلا يرى غير الخطوط في كفّه، وما أشدّ شفقتي على من يدير ظهره إلى الشمس فلا يرى غير ظلّ جسده على التراب.

نجيب – ينتصب واقفًا شاعرًا بدنو ساعة انصرافه: أأقول للنّاس يا سيّدتي عندما أعود إليهم إنّ إرم ذات العماد مدينة أحلام روحيّة وإنّ آمنة العلوية قد سارت إليها على سبيل الشوق ودخلتها من باب الإيمان؟

العلويّة: قل إنّ إرم ذات العماد مدينة حقيقيّة كائنة بكيان الجبال والغابات والبحار والصحارى. وقل إنّ آمنة العلويّة قد وصلت إليها بعد أن قطعت البادية الخالية وقاست ألم الجوع وحرقة العطش وكآبة الوحدة وهول الانفراد. وقل إنّ جبابرة الدهور قد بنوا إرم ذات العماد ممّا تبلور وتجوهر من عناصر الوجود، ولم يحجبوها عن الناس ولكنّ الناس حجبوا نفوسهم عنها، فمن يضلّ الوصول إليها فليشك دليله وحاديه بدلًا من مصاعب الطريق وحراجتها. وقل للنّاس إنّ من لا يشعل سراجه لا يرى في الظلام سوى الظلام. (ترفع وجهها نحو العلاء وتغمض عينيها ويظهر على ملامحها نقاب من العطف والحلاوة).

نجيب – يدنو منها منحني الرأس ويظلّ صامتًا هنيهة ثمّ يُقبّل يدها هامسًا: ها قد بلغت الشمس الغروب وعليّ أن أعود إلى مساكن الناس قبل أن يكتنف الظلام الطريق.

العلويّة: سر في النور وسر بأمان الله.

نجيب: سأسير في نور المشعل الذي وضعتهِ في يدي يا سيّدتي.

العلويّة: سر بنور الحقّ الذي لا تطفئه الأهوية. (تنظر إليه نظرة طويلة مفعمة بشعاع الأمومة ثمّ تتحوّل عنه وتمشي بين الأشجار حتّى تنحجب عن عينيه).

زين العابدين – يقترب من نجيب: إلى أين أنت سائر الآن؟

نجيب: إلى منزل أصحاب لي بقرب منبع العاصي.

زين العابدين: أتسمح لي بمرافقتك؟

نجيب: بكلّ سرور، ولكنّني ظننت أنّك باقٍ بجوار آمنة العلويّة فطوبتك روحي وتمنّيت لو كنت مكانك.

زين العابدين: نحن نحيا بنور الشمس عن بعد ولكن من منّا يستطيع الحياة في الشمس؟ (بلهجة ذات معانٍ بعيدة) أجيء مرّة في الأسبوع متبرّكًا متزوّدًا، وعندما يأتي المساء أعود قانعًا مكتفيًا.

نجيب: وددت لو جاء الناس كافّة مرّة في الأسبوع ليتبرّكوا ويتزوّدوا ويعودوا قانعين مطمئنّين. (يحلّ نجيب مقود فرسه ويسير به راجلًا بجانب زين العابدين).

(الستار)

سكوتي إنشاد

سُكوتيَ إنشادٌ وجوعيَ تخمَةٌ
وفي عطشي ماء وفي صَحوَتي سكْرُ
وفي لوْعتي عرْسٌ وفي غربتي لقًا
وفي باطني كشفٌ وفي مظهري سترُ
وكم أشتَكي هَمًّا وقلبي مُفاخرٌ
بهمّي، وكم أبكي وثغريَ يفترُ
وكم أرْتجي خِلاًّ وخلّي بجانبي
وكم أبتَغي أمرًا وفي حوزَتي الأمرُ
وقد يَنثرُ اللّيلُ البَهيمُ منازعي
على بسطِ أحلامي فيَجمَعُها الفجرُ
نَظَرْتُ إلى جسمي بمِرآةِ خاطري
فألفَيتُهُ روحًا يُقلِّصُهُ الفِكرُ
فبي مَن براني والذي مَدّ فسحتي
وبي الموتُ والمثوَى وبي البعثُ والنّشرُ

فلوّ لم أكُنْ حَيًّا لما كنتُ مائِتًا
ولوْلا مُرامُ النّفس ما رامني القبرُ
ولمّا سألتُ النّفسَ ما الدّهرُ فاعِلٌ
بحَشدِ أمانينا أجابَتْ أنا الدّهرُ

يا من يعادينا

يــا مَــــن يُـعــاديـنــا ومـــا إنْ لَـــنَــا
ذَنـــــبٌ إلَـــيــــهِ غــيـــر أحــلامِــنـــا
هـــــذي رَحـــيـــقٌ مـــا لــهــا أكْـــــؤسٌ
فـــكَـــيــفَ نــسـقـيـهـا لـلُـوّامِــنـــا
وهـــــيَ بـــحـــارٌ مـــدُّهـــا صَـمْـتُـنــا
وجـــزرُهـــا فـــي حِـــبـــرِ أقْـــلامِـــنـــا

***

جـــاورتـــمُ الأمــــسَ ومِـــلـــنـــا إلـــى
يــــوم مـــوشًّـــى صـبـحُـهُ بـالـخـفـاء
ورمـــتُـــمُ الـــــذّكْـــــرَى وأطـيـافَـهـا
ونــحــنُ نَـسـعـى خَـلـفَ طـيـفِ الـرّجـاء
وجــبــتُـــمُ الأرْضَ وأطْـــرافَـــهـــا
ونـــحـــنُ نـــطـــوي بـــالــفــضــاء الـفـضــاء

***

لُـــومـــوا وســـبّـــوا والـــعَـــنـــوا واســـخَـــرُوا
وســــــــــاورُوا أيّــــامَـــــنـــــا بـــالـــخـــصـــامْ
وابـــغـــوا وجــــوروا وارجـــمـــوا واصـــلـــبـــوا
فـــالـــرّوحُ فـــيـــنـــا جـــوْهـــرٌ لا يُـــضـــامْ
فـــنَـــحـــنُ نـــحـــنُ كـــوكـــبٌ لا يَـــســـيـــر
إلـــى الـــورا فـــي الـــنّـــورِ أو فـــي الـــظّـــلامْ
إن تـــحـــســـبـــونـــا ثـــلـــمـــةً فـــي الأثـــيـــر
لَـــن تَـــســـتـــطـــيـــعـــوا رتـــقـــهـــا بـــالـــكَـــلامْ

يا نفس

يـا نَــفـسُ لــوْلا مَـطـمَـعي بـالـخـلـدِ مـا كـنـتُ أعـي
لـحـنًـا تُـغَـنّـيـهِ الـدّهـورْ
بـل كـنـتُ أَنـهـى حـاضري قَـسـرا فـيَـغـدو ظـاهـري
سـرًّا تُـواريـهِ الـقُـبُـورْ

***

يـا نَـفـسُ لـوْ لـم أغـتَـسِـلْ بـالـدّمـعِ أوْ لـم يـكـتَـحلْ
جـفـنـي بـأشـبـاحِ الـسّـقـامْ
لـعـشـتُ أعـمَـى وعـلـى بَـصـيـرَتـي ظُـفـرٌ، فَـلا
أرَى سِـوَى وجـهِ الـظّـلامْ

***

يـا نـفـسُ مـا الـعـيـشُ سـوَى لـيـلٍ إذا جَـنّ انـتَـهى
بـالـفَـجـرِ، والـفـجـرُ يَـدومْ
وفـي ظـمـا قَـلـبي دَلـيـل عـلـى وُجُـودِ الـسَّلسبيـل
فـي جـرّةِ الـمـوْتِ الـرّحـومْ

***

يـا نـفـس إن قـال الجَـهـول الـــرّوحُ كـالـجِـسْـمِ تَـــزُول
ومـــــا يـــــزول لا يَــــعـــــودْ

قُــولــي لـــهُ إنّ الـــزّهـــوزْ تَـمـضـي ولــكــنّ الــبــذورْ
تَـــبـــقـــى وذا كـــنـــه الـــخـــلـــودْ

البلاد المحجوبة

هــــوذا الــفَــجْــرُ فــقُــومــي نَــنــصــرِفْ
عَـــن ديـــارٍ مــا لَــنــا فــيــهــا صَــديــقْ
مــا عــسَــى يَــرْجــو نَــبــاتٌ يـخـتَـلـف
زهـــرُه عـــن كـــلّ وردٍ وشــقــيــقْ
وجَـــديـــدُ الــقــلــبِ أنّـــى يــأتَــلــف
مــع قــلــوبٍ كـــلُّ مـــا فــيــهــا عَــتــيــقْ
هــــوَذا الــصّــبــحُ يُــنــادي فــاسـمَـعي
وهَـــلـــمّـــي نَــقــتَــفــي خــطــواتــه
قـــد كــفَــانــا مـــن مـــســـاء يَــدّعــي
أنّ نـــورَ الــصّــبــحِ مـــن آيـــاتِـــه

***

قــد أقَــمــنــا الــعــمــرَ فــي وادٍ تَــســيــر
بَــيــنَ ضــلــعَــيــه خــيــالات الــهُــمــومْ
وشــهِــدْنــا الــيــأسَ أســرابًــا تَــطــيــر
فـــوْقَ مَــتــنَــيــهِ كــعــقــبــانٍ وبُـــومْ

وشربنا السّقمَ من ماء الغَدير
وأكَلنا السُّمَّ من فَجّ الكُرُومْ
ولبِسنا الصَّبرَ ثَوْبًا فالتَهَب
فغَدونا نَتَرَدّى بالرّمادْ
وافترَشْناهُ وسادًا فانقَلَب
عندما نمنا هَشيمًا وقتادْ

***

يا بلادًا حُجِبَتْ مُنذُ الأزَلْ
كيفَ نَرْجوكِ ومن أيّ سَبيلْ؟
أيّ قفرٍ دونَها أيّ جبَلْ
سورها العالي ومَن منّا الدّليلْ؟
أسَرابٌ أنتَ أمْ أنتَ الأملْ
في نفوسٍ تتَمنّى المُستَحيلْ؟
أمَنامٌ يتَهادى في القُلوب
فإذا ما استَيقَظَتْ وَلّى المَنامْ
أم غيوم طفْنَ في شمس الغُروب
قبل أن يغرَقنَ في بحر الظّلامْ؟
يا بلاد الفكر يا مهدَ الأُلى
عَبَدوا الحَقَّ وصَلّوا للجَمالْ
ما طلَبناك بركْبٍ أوْ على
متنِ سفنٍ أوْ بخيلٍ ورحالْ
لست في الشّرْقِ ولا الغرْبِ ولا
في جنوبِ الأرْض أو نحو الشّمالْ

لـسـت فــي الـجـوّ ولا تـحـت الـبـحـار
لـسـت فـي الـسّـهـلِ ولا الــوَعــرِ الـحـرجْ
أنــــتَ فــي الأرْواحِ أنـــــوارٌ ونـــار
أنـــتَ فـي صـــدري فُـــؤادي يـخـتَـلـجْ

حرقة الشيوخ

يـا زمـانَ الـحـبّ، قـد وَلّـى الـشّـبـاب
وتَـــوارَى الـعـمـرُ كـالـظـلّ الـضّـئـيـلْ
وامّـحـى الـمـاضـي، كـسطـرٍ مـن كـتـاب
خـطُّـهُ الـوَهـمُ عـلـى الـطّـرْس البـلـيـلْ
وغـــدَتْ أيّـامـنـا قَـيـد الـعـذاب
فـي وُجـودٍ بـالـمَـسـرّاتِ بَـخـيـلْ
فـالـذي نَـعـشَـقُـهُ يـأسًـا قـضـى،
والـذي نَـطـلُـبُـه مَـلَّ وراحْ
والـذي حـزنـاهُ بـالأمـسِ مـضَـى
مـثـل حـلـم بـيـنَ لـيـلٍ وصَـبـاحْ
يـا زمـانَ الـحـبّ، هـل يـغـنـي الأمَـلْ
بـخـلُـودِ الـنّـفـسِ عـن ذكـرِ الـعـهـودْ؟
هـل، تَـرى، يـمـحـو الـكـرَى رَسـم القبلْ
عـن شـفـاهٍ مَـلّـهـا وَرْدُ الـخـدودْ؟
او يُـدانـيـنـا ويُـنـسـيـنـا الـمَـلَـلْ
سـكـرةَ الـوَصْـلِ وأشـواق الـصُّـدودْ

هــل يـصـمُّ الــمَــوْتُ آذانَـــا وَعَـــتْ
أنّـــة الــظـلّـمِ وأنـــغــام الــسّــكــونْ؟
هــل يُــغــشّــي الــقــبــرُ أجــفــانَــا رأت
خــافــيــات الــقــبــر والــســرّ الــمَــصــونْ؟
كَــم شَــرِبــنــا مِــن كُــــؤوسٍ سطَــعــتْ
فــي يــدِ الــسّــاقــي كــنــورِ الــقَــبَــس!
ورَشَــفــنـــا مـــن شِـــفــاهٍ جَــمَــعَــتْ
نــغــمــةَ الــلّــطــفِ بــثَــغْــرِ ألــعَــسِ!
وتَـــلَـــوْنــا الــشّــعــرَ حــتّــى سَــمِــعــتْ
زُهُـــــرُ الأفـــــلاكِ صَــــوتَ الأنــفُــسِ
... تــلــكَ أيّـــــامٌ تَــــولّــتْ كــالــزّهــور
بــهــبُــوطِ الــثّــلــجِ مــن صَـــدرِ الــشــتّــاء
فَــالــذي جـــادَتْ بــه أيــدي الــدّهــور
سلَــبَــتــه خــلــسَــةً كــفٌّ الــشّــقــاء...
لـــوْ عــرَفــنــا مــا تَــرَكْــنــا لَــيــلَــةً
تَــنــقــضــي بـــيـــنَ نـــعـــاسٍ ورقــــادْ
لــوْ عــرَفــنــا مــا تــرَكْــنــا لــحــظَــةً
تَــنــثَــنــي بَــيــنَ خُــلــوٍّ وسُــهــادْ
لـــوْ عـــرَفْـــنــا مـــا تــرَكْــنــا بُــرْهــةً
مِـــن زمـــان الــحــبّ تَــمــضــي بــالــبــعــادْ
قـــد عــرَفــنـــا الآنَ، لــكِــن بَــعــدَمــا
هــتــف الــوجــدان: «قــومــوا واذهــبــوا!»
قـــد ســمــعــنـــا وذكــــرْنــــا عــنــدَمــا
صـــرَخ الــقــبــرُ ونــــادَى: «اقــتــربُــوا!»

باللهِ يا قلبي

باللهِ يا قَلبي أُكتم هواك
واخفِ الذي نشكوه عمّن يراك تَغنم

مَنْ باحَ بالأسرار
يُشابه الأحمَق
فالصّمتُ والكتمان
أحرَى بمنْ يَعشَق

باللهِ يا قَلبي إذا أتَاك
مُستَعلِمٌ يَسأل عمّا دهاك – فاكتم

يا قلبُ إنْ قالوا:
أينَ التي تَهوَى؟
قُل: قد سبَتْ غيري
ثمّ ادّعِ السّلوَى

بـــالـــلــــهِ يـــا قَــلــبــي اســــــتـــــرْ جـــــوَاك
فــمــا الــــــذي يـضـنـيـك إلّا دواك – فــاعــلــمْ

الــــحــــبّ فـــــي الأرواح
كـــــخــــمــــرَةٍ فـــــي الـــكـــاس
مـــــا بـــــــانَ مـــنـــهـــا مـــاء
ومـــــــا خَـــــفـــــي أنـــــفـــــاس

بـــالـــلــــهِ يـــا قَــلــبــي احــــــبِـــــسْ عـــنـــاك
إن ضَـــجّـــتِ الأبـــحـــار أو هـــدَّت الأفــلاك – تسلم

أغنية الليل

سكَنَ اللّيل، وفي ثوْب السكون تختبي الأحلام
وسعى البَدرُ، وللبدرِ عُيُون ترصدُ الأيّامْ

***

علّنا نطفي بذيّاك العَصِير حرْقةَ الأشواقْ
فتعالي، يا ابنة الحقل، نَزُور كرمة العُشّاقْ

***

اسمعي البُلبُل ما بَينَ الحُقول يسكُبُ الألحانْ
في فَضاء نفخَتْ فيهِ التّلول نَسمة الرّيحانْ

***

لا تخافي، يا فَتاتي، فالنّجومْ تكتُمُ الأخبارْ
وضَبَابُ اللّيل في تلك الكُرُوم يحجبُ الأسرارْ

***

لا تــخــافــي، فــعـــروسُ الــجـــنّ في كـهـفِـهـا الـمَـسـحـوزْ
هـجَـعَـتْ سـكـرَى وكـــادَتْ تـختَفي عــن عـيـون الـحــوزْ

***

ومــلــيــكُ الــجـــنّ إن مـــرّ يَـــرُوحْ والـــهَـــوَى يَـثـنـيـهْ
فـهـوَ مـثـلـي عــاشِــقٌ كـيـف يَـبـوحْ بـــالـــذي يـضـنـيـه!

البحر

فـي سـكُـونِ الـلّـيـلِ لـمّـا تَـنـثـني
يـقـظـة الإنـسـان مـن خَـلـفِ الـحـجـابْ
يـصـرخُ الـغـاب: أنـا الـعـزْمُ الـذي
أنـبَـتَـتْـهُ الـشّـمـسُ مـن قـلـبِ الـتـرابْ

غَـيـرَ أنّ الـبَـحـرَ يَـبـقـى ساكـتًـا
قـائِـلًا فـي نَـفـسـه: الـعَـزْمُ لي

ويـقـولُ الـصّـخـر: إن الـدّهـرَ قد
شـادَنـي رَمـزًا إلـى يـوْمِ الـحِـسـابْ

غَـيـرَ أنّ الـبَـحـرَ يَـبـقـى صـامِـتًـا
قـائِـلًا فـي نَـفـسِـهِ: الـرّمـزُ لي

وتَـقُـولُ الـرّيـحُ: مـا أغـرَبَـنـي
فـاصِـلاً بَـيـنَ سَـديـمٍ وسَـمَـا

غــيــرَ أنّ الــبَــحــرَ يــبــقــى ســاكــتًــا
قــائــلًا فــي نَــفــســه: الــرّيــحُ لــي

ويَــقُــولُ الــنْــهــرُ: مــا أعــذَبَــنــي
مــشــرَبًــا يــروي مــن الأرض الــظّــمــا

غَــيــرَ أنّ الــبَــحــرَ يــبــقــى صــامــتًــا
قــائــلًا فــي ذاتِــهِ: الــنّــهــرُ لــي

ويَــقــولُ الــطّــودُ: إنّــي قــائــمٌ
مــا أقــامَ الــنّــجــمُ فــي صَــدرِ الــفَــلــكْ

غــيــرَ أنّ الــبَــحــرَ يَــبــقــى هــادِئًــا
قــائِــلًا فــي نَــفــسِــهِ: الــطّــوْدُ لــي

ويَــقــولُ الــفــكــرُ: إنّــي مــلــكٌ
لــيــسَ فــي الــعــالــمِ غــيــري مِــن مــلــكْ

غــيــرَ أنّ الــبَــحــرَ يَــبــقــى هــاجِــعًــا
قــائِــلاً فــي نَــوْمــهِ: الــكُــلّ لــي

الشحرور

أيّـها الـشّحرُورُ غـرّدْ
فـالـغِـنا سـرُّ الـوُجـودْ

لـيـتَـنـي مـثـلـكَ حـرٌّ
مـن سُـجـونٍ وقُـيـودْ

***

لَـيـتَـنـي مـثـلـكَ رُوحًـا
فـي فَـضَـا الـوادي أطـيـرْ

أشـرَبُ الـنُّـورَ مـدامًـا
فـي كـؤوسٍ مـن أثِـيـرْ

***

لَـيـتـنـي مـثـلـك طـهـرًا
واقـتِـنـاعًـا ورضَـى

مُـعـرِضًـا عـمّـا سـيأتـي
غـافِـلاً عَـمَّـا مـضَـى

***

لـيـتَـنـي مـثـلـك ظـرفًـا
وجَـمـالًا وبَـهَـا

تـبـسـطُ الـرّيـح جـنـاحـي
كـي يـوشّـيـه الـنَّـدَى

***

لـيـتَـنـي مـثـلـك فـكـرًا سـابـحًـا فـوْق الـهـضـابْ
أسـكـبُ الأنـغـامَ عَـفـوًا بـيـنَ غـابٍ وسَـحـابْ

***

أيّـهـا الـشّـحـرُورُ غـنِّ واصـرِفِ الأشـجـانِ عـنّـي
إنَّ فـي صَـوْتـكَ صَـوْتًـا نـافـخًـا فـي أُذن أُذنـي

الجبار الرئبال

فـي ظَـــلامِ الـلّـيـلِ يَـمـشـي مـبطِئًـا
وهــوَ مـثـل الـلّـيـلِ هَـــوْلًا قـد بَـــدَا
وحــــدَهُ يَـمـشـي كـــأنّ الأرْضَ لم
تـبـسرِ إلّاهُ عَـظـيـمًـا سَـيِّــدَا

***

ويـــدوس الـــتُّـــربَ مـرْفـوعًـا كـمَـا
تـلـمـس الأطـــلالَ أطـــرافُ الـسّـحـابْ
فــكــأنّ الــجـسْــمَ فــي أثـــوابِــهِ
مِـــن شـعــاعٍ وسَـــديــمٍ وضَـــبــابْ

***

قــلـتُ: يـا طـيـفًـا يـعـيـقُ الـلّـيـل في
سـيـره، هـل أنــتَ جــنٌّ أمْ بـشـرْ؟
قـــال مــغـتـاظًـا وفـــي ألــفـاظِـهِ
رنّـــة الـــهـــزء: أنـــا ظـــلُّ الـــقَــدَرْ

***

قلت: لا يا طيفُ قد ماتَ القضا
يومَ ضمَّتني ذراع القابلَهْ
قال محتارًا: أنا الحبّ الذي
لا ينالُ العيش إلّا نائِلَهْ

***

قلت: لا فالحبّ زهرٌ لا يعيش
بعد أن تذبل أزهار الربيع
قال غضبانًا وفي لهجتِهِ،
ضَجَّة البحر: أنا الموْتُ المُريع

***

قلتُ: لا فالموْتُ صبحٌ إن أتَى
أيقَظَ النّائم مِن غَفلَتِهِ
قال مُختالًا: أنا المَجد فمَن
لم يَنَلني ماتَ في عِلّتِهِ

***

قلتُ: لا فالموتُ ظِلٌّ يَنثني
مضمَحِلًّا بينَ لحدٍ وكَفَنْ
قال مرتابًا: أنا السّرّ الذي
يَتَهادَى بَين رُوح وبَدَنْ

***

قــلــتُ: لا فــالــســرّ إنْ بــاحــثْ بــهِ
يــقــظَــة الــفــكــرِ تــوَلّــى كــالــمَــنــامْ
قـــال مُــلــتــاعًــا: كــفَــى تَــســألــنــي
مــن أنـــا. قــلــتُ: أفــي الــسـؤل مــلامْ؟

***

قـــالَ مَــحــجــوبًــا: أنــا أنــــتَ فلا
تَــســألَــنّ الأرْضَ عــنّــي والــسّــمــا
فـــإذا مـــا شِــئــتَ أنْ تَــعــرفــنــي
فــارقــبِ الــمــرْآةَ صــبــحًــا ومَــسَــا

***

قـــال هـــذا واخــتَــفــى عـــن نــاظــرِي
مــثــلــمــا الـــدُّخّـــانُ تــذريــه الــرّيــاحْ
تـــاركًـــا مـــا بـــي مـــنَ الــفــكــرِ يَــهــيــم
بــيــنَ أشــبــاحِ الــدُّجــى حــتّــى الــصَّــبــاحْ

إذا غزلتم

إذا غـزَلـتـمْ حــوْلَ يـوْمـي الـظّـنـونْ
وإن حـبّـكـتـم حــوْل لـيـلـي الـمـلامْ
فـلَـن تـدكّـوا بــرْجَ صَـبـري الحصِـينْ
ولــن تُـزيـلـوا مــن كُـؤوسـي الـمـدامْ
فـفـي حَـيـاتـي مَــنــزِلٌ لـلـسّـكـونْ
وفــي فُــؤادي مَـعـبـدٌ لـلـسّـلامْ
ومَــنْ تَــغَــذّى مِــنْ طَـعـامِ الـمَـنـونْ
لا يـخْـتَـشي مــن أن يــذوقَ الـمَـنـامْ

الشهرة

كـتـبْـتُ فـي الـجَـزْرِ سـطـرًا عـلـى الـرّمـلِ
أوْدعـــتـــه كـــلّ روحـــي مَـــعَ الـعَـقـلِ

***

وعـــدتُ فـــي الـــمـــدّ أقـــرا وأسـتـجْـلـي
فـلَـم أجـدْ فـي الـشّـواطـي سـوَى جَـهلي

بالأمس

كـــانَ لـــي بـــالأمـــسِ قَـــلـــبٌ فَـــقَـــضَـــى
وأراحَ الـــنَّـــاسَ مـــنـــهُ واســـتـــراحْ
ذاكَ عَـــهـــدٌ مـــن حَـــيـــاتـــي قـــد مـــضَـــى
بـــيـــنَ تَـــشـــبـــيـــبٍ وشـــكـــوَى ونـــواحْ
إنّـــمـــا الـــحـــبّ كـــنَـــجـــمٍ فـــي الـــفَـــضـــا
نُـــورُه يُـــمـــحَـــى بـــأنـــوارِ الـــصّـــبـــاحْ
وســـرورُ الـــحـــبّ وَهـــمٌ لا يَـــطـــولْ
وجـــمـــالُ الـــحـــبّ ظـــلٌّ لا يـــقـــيـــمْ
وعـــهُـــودُ الـــحـــبّ أحـــلامٌ تَـــزُولْ
عـــنـــدمَـــا يَـــســـتَـــيـــقـــظُ الـــعـــقـــلُ الـــسّـــلـــيـــمْ

***

كـــم ســـهـــرْتُ الـــلّـــيـــل والـــشَّـــوْق مـــعـــي
ســـاهـــر أرقـــبـــهُ كَـــي لا أنَـــامْ
وخـــيَـــالُ الـــوَجـــدِ يـــحـــمـــي مَـــضْـــجَـــعـــي
قـــائـــلًا: «لا تـــدنُ! فـــالـــنـــوم حـــرامْ»

وسقامي هامِسٌ في مَسمَعي:
«من يريد الوَصل لا يشكو السقامْ»
تلكَ أيّامٌ تَقَضَّتْ، فابشري،
يا عيُوني، بِلقا طيفِ الكَرَى
واحذري، يا نفس، ألّا تذكري
ذلكَ العَهد وما فيهِ جرَى

***

كنتُ إنْ هَبَّتْ نُسَيْمات السَّحَرْ
أتلوّى راقصًا مِنْ مَرَحي
وإذا ما سكَبَ الغيمُ المَطَرْ
خلتُهُ الرّاحَ فأملا قدَحي
وإذا البَدْرُ على الأفقِ ظَهَرْ
وهي قربي صحتُ: «هلّا يستحي»
كلّ هذا كانَ بالأمسِ، وما
كان بالأمسِ تولّى كالضّبابْ
ومَحا السّلوانُ ماضِيَّ كمَا
تفرطُ الأنفاسُ عقدًا من حبابْ

***

يا بني أمّي إذا جاءتْ سُعادْ
تَسألُ الفتيانَ عن صَبٍّ كئيبْ
فاخبروها أنّ أيّامَ البعادْ
أخمدتْ من مُهجتي ذاكَ اللهيبْ

ومـكـانَ الـجـمـر قـد حـلّ الـرّمـادْ
ومـحَـا الـسّـلـوانُ آثـارَ الـنّـحـيـبْ
فـإذا مـا غَـضِـبَـتْ لا تَـغـضَـبُـوا
وإذا نـاحَـتْ فـكـونُـوا مُـشـفـقِـيـنْ
وإذا مـا ضَـحِـكَـتْ لا تَـعـجَـبُـوا
إنّ هـذا شـأن كـلّ الـعـاشـقِـيـنْ

***

لـيـتَ شـعـري! هـل لـمـا مـرّ رجـوعْ
أوْ مـعـادٌ لـحَـبـيـبْ وألِـيـفْ؟
هـل لـنَـفـسي يَـقـظَـةٌ بـعـدَ الـهـجـوعْ
لـتُـريـنـي وجـهَ مـاضِـيّ الـمُـخـيـفْ؟
هـل يـعـي أيـلـولُ أنـغـامَ الـرّبـيـعْ
وعـلـى أُذنَـيـهِ أوراق الـخـريـفْ
لا، فـلا بَـعـثٌ لـقـلـبـي أو نـشـورْ
لا، ولا يـخـضـرّ عـود الـمـحـفـلِ
ويـدُ الـحَـصّـادِ لا تُـحـيـي الـزّهـورْ
بـعـدَ أنْ تُـبـرَى بـحَـدّ الـمنجـلِ

***

شـاخـتِ الـرّوحُ بـجـسـمـي وغـدَتْ
لا تـرى غـيـرَ خـيـالات الـسّـنـيـنْ
فـإذا الأمـيـالُ فـي صَـدري فَـشَـتْ
فـبـعـكّـاز اصـطـبـاري تَـسْـتَـعِـيـنْ

والــتَــوَتْ مـنّـي الأمــانـي وانـحَـنَـتْ
قـبـلَ أن أبــلــغَ حَـــدّ الأرْبَـعــيــنْ
تـلـك حـالـي فــإذا قـالـتْ رَحـيـل:
مـا عـسَـى حـلّ بــه؟ قـولـوا: الـجـنـونْ
وإذا قـــالـــتْ: أيَـشـفـى ويَــــزُولْ
مـا بــه؟ قـولـوا: ستـشـفـيـهِ الـمَـنُـونْ

ماذا تقول الساقية

سرْتُ في الوادي وقد جاء الصباحْ
معلنًا سرّ وُجُودٍ لا يَزُولْ
فإذا ساقَيةٌ بَينَ البِطاحْ
تتَغنّى وتُنادي وتَقولْ:

ما الحَياةُ بالهَناء   إنّما العَيشُ نُزُوعٌ ومَرَامْ
ما المَماتُ بالغِناء   إنّما المَوْتُ قُنوطٌ وسقامْ
ما الحَكيمُ بالكلام   بل بسِرٍّ يَنطَوي تحتَ الكلامْ
ما العَظيمُ بالمَقام   إنّما المَجدُ لَمن يأبَى المُقامْ
ما النّبيلُ بالجُدود   كم نَبيلٍ كان من قتلى الجدودْ
ما الذّليلُ بالقُيود   قد يكونُ القيد أسنى من عقودْ
ما النّعيمُ بالثّواب   إنّما الجَنّةُ بالقلبِ السّليمْ
ما الجَحيمُ بالعذاب   إنّما القلبُ الخلي كلّ الجحيمْ
ما العقارُ بالنُّضار   كم شريدٍ كان أغنى الأغنِياء
ما الفَقِيرُ بالحَقيرْ   ثرْوَةُ الدنّيا رغيفٌ ورداء
ما الجمالُ بالوجُود   إنّما الحسنُ شعاعٌ للقلوبْ
ما الكَمالُ للنّزيه   رُبّ فضل كان في بعض الذنّوبْ

ذاك مـا قـالـتـهُ تـلـكَ الـسّـاقـيَـهْ
لـصُـخـورٍ عَـنْ يَـمِـيـنْ ويَـسـارْ
رُبّ مـا قـالَـتـهُ تـلـك الـسّـاقِـيَـهْ
كـان مـن أسـرار هـاتـيـكَ الـبـحـار

الفهرس



ISBN 978-9953-26-593-3
9 789953 265933
نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت
أنطوان A.